الجياد الهاربة

يوكيو ميشيما

ترجمة: كامل يوسف حسين

رواية



دار الآداب

الجياد الهاربة

بحر الخصب

الجياد الهاربة

رواية : يوكيو ميشيما

ترجمة : كامل يوسف حسين

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٩١

- ١ -

إن ذلك العام هو ١٩٣٢ . وشيجيكوني هوندا في الثامنة والثلاثين من عمره. وكان، خلال دراسته للحقوق، في جامعة طوكيو الإمبراطورية قد اجتاز امتحان الخدمة المدنية القضائية، وبعد التخرج أسندت إليه مهمة تجريبية، عمل خلالها كاتباً، في محكمة أوساكا الجزئية. ومنذ ذلك الحين، استوطن أوساكا. وفي عام ١٩٢٩ ، أصبح قاضياً. وفي العام الماضي، بعد أن رقي إلى قاض مشارك كبير للمحكمة الجزئية، تم نقله إلى محكمة استئناف أوساكا، ليصبح قاضياً مشاركاً مبتدئاً بها.

وقد تزوج هوندا في الثامنة والعشرين من عمره. وكانت زوجته ابنة أحد أصدقاء أبيه، وهو قاض أجبر على التقاعد، في غمار الإصلاح القضائي لعام ١٩١٣ . وقد تم الاحتفال بالزفاف في طوكيو، وجاء مع زوجته إلى أوساكا عقب ذلك مباشرة. وخلال العقد من الزمان الذي أعقب ذلك، لم تنجب زوجته رابي، لكنها كانت امرأة دمثة، رقيقة الحاشية، وكانت علاقتهما يسودها الوئام.

توفي أبوه قبل ثلاث سنوات. وفي ذلك الحين فكر هوندا في التصرف في دار العائلة، وإحضار أمه إلى أوساكا، غير أن أمه عارضت هذا، وهي تقيم الآن بمفردها في الدار الكبيرة، في طوكيو.

أستعانت زوجة هوندا بخادمة واحدة لمساعدتها في رعاية الدار المؤجرة التي يقطنان بها. كانت هناك غرفتان في الطابق الثاني، وخمس غرف في الطابق الأول، من بينها البهو. وبلغت مساحة الحديقة ما يزيد على سبعمائة قدم مربعة. ودفع هوندا إيجاراً شهرياً لهذه الدار قدره اثنان وثلاثون يناً.

وإلى جانب العمل ثلاثة أيام كل أسبوع في المحكمة، كان هوندا يعمل بالدار. وللمضي إلى مقر محكمة الاستئناف كان يستقل حافلة من أبينو في حي تينوجي، إلى كيتاهاما في قلب أوساكا، ثم يسير عبر الجسرين الممتدين على نهري توسابوري ودوجيما، إلى مقر المحكمة الذي يشمخ قرب جسر هوكوناجاشي، وهو عبارة عن بناء من الطوب الأحمر تتألق على أعلى واجهته الأمامية زهرة الأقحوان، شعار الإمبراطورية.

كانت حقيبة الـ «فوروشيكي» شيئاً لا غنى عنه بالنسبة لأي قاض؛ فهناك على الدوام وثائق يتعين نقلها إلى الدار، وهي غالباً أضخم مما تستوعبه أية حقيبة أوراق. ومن شأن الخرقة القماشية أن تكون إما صغيرة وإما كبيرة. وقد استخدم هوندا حقيبة فوروشيكي من الموصلين متوسطةِ الحجم ابتاعها من متجر دايمارو، وتحسباً لما لا تحمد عقباه كان يحمل حقيبة أخرى مطوية داخل الأولى. وبالنسبة للقضاة تعد حقائب الفوروشيكي تلك شيئاً شديد الأهمية لعملهم، حتى إنهم لا يضعونها على رف الأمتعة قط. واعتاد أحد زملائه ألا يتوقف لتناول قدح من الشراب، في طريقه إلى الدار، إلا بعد أن يمرر خيطاً محكماً تحت عقدة حقيبة الفوروشيكي الخاصة به، ثم يعقدها في صورة أنشوطة حول رقبته.

لم يكن هناك سبب يجعل هوندا عاجزاً عن استخدام الغرف المخصصة للقضاة في صياغة حيثيات أحكامه. ولكن في اليوم الذي لا تنعقد فيه جلسات المحكمة فإن الغرفة المزدحمة تضج بالحجج القانونية القوية، فيما الكتبة المتدربون يقفون في إجلال عاكفين على استيعاب كل ما يستطيعون تعلمه. الأمر الذي لا يدع المجال لكبير أمل في أن يستطيع صياغة حيثيات أحكامه في سلام؛ ولذا فقد فضل العمل في داره حتى وقت متأخر من الليل.

كان تخصصه هو القانون الجنائي، ولم يكترث كثيراً لما قيل من أن

أوساكا، بسبب صغر قسم القانون الجنائي بها، لا تتيح إلا مجالاً محدوداً للتقدم في هذا المجال.

وفي غمار عمله في الدار راح يقضي الليل عاكفاً على قراءة تقارير الشرطة، وملخصات نائب المدعي العام والإفادات الناجمة عن التحقيقات الأولية، المتعلقة بالقضايا التي يجرى نظرها في الجلسة التالية. وبعد أن يخرج بخلاصات ويدون ملاحظات، يمرر المادة إلى القاضي المشارك الأقدم. وما إن يتم الوصول إلى حكم حتى يقع على كاهل هوندا أن يقوم بصياغته نيابة عن رئيس المحكمة. وتكون السماء قد شرعت تتوشح الضياء من مشرقها، في الوقت الذي يشقّ فيه طريقه كادحاً إلى الكلمات التالية: «وبالنظر إلى هذه العناصر كافة توصلت المحكمة إلى حكمها المتقدم». ويقوم رئيس المحكمة بمراجعة هذه الصياغة ويعيدها إلى هوندا الذي يتعين عليه الآن أن يمتشق ريشة كتابته ويعد النسخة النهائية. وقد علت أصابع يده اليمنى الجسآت التي تصيب أصابع كاتب عمومي.

أما فيما يتعلق بحفلات الجيشا فإن هوندا لم يكن يشارك إلا في الاحتفال التقليدي بنهاية العام الذي يقام في «السيكافرو» في حي اللهو بمنطقة كيبتا. وفي تلك الليلة يصخب الكبار ومرؤوسوهم، ويسرفون في الشراب كيفما طاب لهم، وبين الفينة والأخرى يحادث شخص أو آخر، وقد بث الساكي فيه الشجاعة، رئيس المحكمة بصراحة غير مألوفة.

تمثلت تسليتهم المعتادة في تناول المشروبات في المقاهي وحوانيت الـ «أودن» المتناثرة عند منعطف خط حافلات أوميدا ـ شيمتشي. ولم تكن الخدمة في بعض هذه المقاهي تعرف حدوداً. ولئن قدر لأحدهم أن يسأل الساقية عن الوقت فإنها ترفع تنورتها لتراجع ساعة التفت حول فخذ ملتف، قبل الرد عليه. وبالطبع كان بعض القضاة أكثر ترفعاً من أن يسمحوا لأنفسهم بشيء من هذا بالمرة، بل وكانوا يعتقدون أن المقاهي

ليست إلا أماكن لشرب القهوة فحسب. وتصادف أن تولى أحدهم رئاسة جلسة تنظر خلالها قضية اختلاس، وعندما أفاد المتهم بأنه بعثر مبلغ الألف ين الذي اختلسه، في المقاهي، قاطعه القاضي غاضباً، بقوله في إلحاح:

ـ كيف لك أن تقول ذلك؟ إن ثمن فنجان القهوة خمسة «سينات» لا غير. أتحاول إخبارنا بأنك شربت قهوة بهذا المبلغ؟

وحتى بعد التخفيض العام لمرتبات العاملين بالخدمة المدنية، كان هوندا لا يزال يحظى بدخل مناسب قدره حوالي ثلاثمائة ين شهرياً، أي ما يعادل راتب قائد فوج. واعتاد زملاؤه قضاء وقت فراغهم في تسليات شتى: فبعضهم كان يقرأ الروايات، وعكف البعض الآخر على الأغنيات ومسرحيات النو المندرجة في مدرسة كانزي، وتجمع آخرون لنظم قصائد الهايكو ورسم تصاوير تجسد قصائدهم. غير أن معظم ألوان الترفيه تلك إنما كانت بمثابة تعلات يتعللون بها للاجتماع معاً للعكوف على الشراب.

ثم كان هناك بعض القضاة، وخاصة المتحمسين منهم للأمور الغربية، يمضون إلى المراقص. ولم يكن هوندا يكترث بالرقص، ولكنه كان غالباً ما يسمع زملاءه وهم يتحدثون عنه. ولما كان قانون محلي في المدينة يحظر الرقص في أوساكا ذاتها فقد اضطر محبو الرقص إلى الذهاب إلى كيوتو حيث كانت قاعتا كاتسورا وكياجي تحظيان بالرواج، أو إلى أماجاساكي حيث تنتصب قاعة رقص كويسي معزولة وسط حقول الأرز. وقد بلغت أجرة السيارة إلى أماجاساكي يناً واحداً. وفيما يصل المرء إلى المبنى الذي يشبه قاعة الألعاب الرياضية في ليلة شاتية، تتوهج الظلال التي يلقيها الراقصون عبر النوافذ المضيئة، وتتخذ نغمات رقصة «الفوكس تروت» طابعاً رهيباً عبر حقول الأرز الغارقة في الماء، وهي تتألق تحت المطر.

على هذا النحو كان عالم هوندا في حوالي هذا الوقت.

- ٢ -

ما أغرب الموقف الذي يتعرض الإنسان فيه إلى أن يجد نفسه وهو في الثامنة والثلاثين من عمره! إن شبابه ينتمي إلى الماضي البعيد، ومع ذلك فإن فترة الذكرى الممتدة من نهاية الشباب حتى الوقت الراهن لم تخلف لديه انطباعاً واحداً مترعاً بالحيوية، ومن هنا فإنه يستمر في الشعور بأنه ما من شيء يفصله عن شبابه، اللهم إلا حاجز هش، ويظل للأبد يصغي بأقصى قدر من الوضوح إلى أصوات هذا المجال القريب منه، ولكن ما من سبيل هناك لاختراق ذلك الحاجز.

ساور هوندا شعور بأن شبابه قد انتهى مع موت كيواكي ماتسوجاي. في تلك اللحظة كفَّ عن الوجود شيء حقيقي في أعماقه، شيء اتقد بألق مرتجف.

الآن، وحينما يوغل الليل في مسيرته، ويسأم هوندا صياغاته القانونية، فإنه يلتقط سجل يوميات الأحلام الذي تركه كيواكي له ويقلب صفحاته.

بدا له الكثير مما احتواه ذلك السجل أحجيات عبثية، لكن بعض الأحلام المسجلة هناك ألقى بظلاله، على نحو شيق، على موت كيواكي المبكر. وقدَّر لحكمه المتمثل في إطلالة بالروح على تابوته المصنوع من الخشب المجرد من الزخرف، فيما ظلمة ما قبل الفجر تتراجع مفسحة المجال أمام الزرقة في النوافذ، أن يتحقق بسرعة لم تخطر على بال، في أقل من عام ونصف العام. ومن الجلي أن المرأة التي كساها شحوب الأرملة كانت ساتوكو، ولكن ساتوكو الحقيقية لم يبد لها أثر في جنازة كيواكي.

مع مضي الوقت اكتسبت الأحلام والواقع قيمة متساوية في قلب ذكريات

هوندا المتباينة. وانغمس ما وقع بالفعل في غمار عملية الاختلاط مع ما كان يمكن أن يحدث. ومع تداعي الواقع سريعاً أمام الأحلام بدا الماضي شبيهاً إلى حد بعيد بالمستقبل.

في شبابه كان هناك واقع واحد فحسب، وبدا المستقبل وكأنه يمتد متطاولاً أمامه مترعاً باحتمالات هائلة. ولكن مع مضيه قُدُماً في العمر بدا الواقع وكأنه يتخذ أشكالاً عديدة، ولاح كأنما الماضي هو الذي يتشظّى إلى احتمالات لا حصر لها. وبما أن كل احتمال منها كان مرتبطاً بواقعه الخاص فإن النمط الفاصل بين الحلم والواقع ازداد غموضاً. وغدت ذكرياته في حالة جريان دائم، واكتسب مظهر الحلم.

لم يكن بمقدوره، من ناحية، أن يتذكر على نحو قاطع اسم رجل قابله بالأمس، ولكن، من ناحية أخرى، كانت صورة كيواكي تتناهى إليه واضحة ونابضة بالحياة حينما يستعيدها، تماماً كما أن ذكرى كابوس تتجلى أكثر حياة من مشهد منعطف الشارع الذي يمر به المرء في الصباح التالي. وبعد وصول هوندا إلى الثلاثين من عمره بدأ في نسيان أسماء الناس، تماماً كما يتساقط الطلاء شيئاً فشيئاً. وأصبح الواقع الذي تعنيه هذه الأسماء أكثر انديَاحاً إلى البعيد، وأقل أهمية من أي حلم، مادة فائضة تلقي بها الحياة اليومية بعيداً.

أحس هوندا بأن المستقبل لا يحمل له أية صدمات، وأياً كانت الاهتزازات الجديدة التي ستصيب العالم فإن وظيفته ستظل على حالها، وسيطبق على كل اضطراب بالقبضة؛ العقلانية للقانون. لقد أصبح متأقلماً تماماً مع مجالٍ مناخه المنطق، ومن هنا فإن هوندا أخذ المنطق باعتباره القوة الأكثر فعالية وتماسكاً من الحلم ومن الواقع.

وقد جعله العدد الكبير من القضايا الجنائية الذي نظر فيه أمامه، بالطبع، على احتكاك مستمر مع الأشكال الأكثر تطرفاً للعاطفة، ورغم أنه

هو نفسه لم يعايش مثل هذا الانفعال قط، إلا أنه رأى العديد من البشر الذين أطبقت عليهم العاطفة على نحو قاتل.

هل كان آمناً للغاية حقاً؟ عندما تخطر هذه الفكرة على باله يساوره شعور بأن خطراً متألقاً قد تهدده، قبل وقت طويل، خطر قضى عليه في تألق أخير ملتمع. وأحس منذ تلك اللحظة بأنه قد أصبح معصوماً من أي إغواء، مهما كان قاهراً - وهي حرية يدين بها للدرع التي أسبغت عليه منذ ذلك الحين. لقد كان كيواكي هو خطر ذلك الماضي البعيد وإغواؤه.

لقد أتى حين من الدهر على هوندا استمتع فيه بالحديث عن الأيام التي اقتسمها مع كيواكي، ولكن مع إيغال الرجل في العمر فإن ذكرى شبابه تبدأ في التحرك باعتبارها شيئاً لا يقل عن عملية تحصين ضد المزيد من التجارب. وها هو في الثامنة والثلاثين من العمر. إنها مرحلة من العمر يشعر فيها المرء، على نحو غريب، بأنه ليس مستعداً للقول بأنه قد عاش حياته، ومع ذلك فإنه يتردد في الإقرار بموت الشباب. مرحلة من العمر يتحول فيها الطعم الطيب لمذاق تجارب المرء إلى المرارة هوناً ما، ويتناقص بمرور كل يوم جديد سرور المرء بالأشياء الجديدة. مرحلة تتقلص فيها جاذبية كل حماقة ترفه عن النفس، لكن إخلاص هوندا لعمله حماه من هذا الانفعال، فقد وقع في غرام وظيفته المجردة على نحو غريب.

لدى عودته إلى الدار في المساء يتناول طعام العشاء مع زوجته قبل انصرافه إلى مكتبه. وعلى الرغم من أنه يتناول طعامه في الساعة السادسة، في الأيام التي يعمل فيها بالدار، فإن الموعد يختلف في أيام العمل بالمحكمة، حيث أنه، في بعض الأحيان، يظل في مقر المحكمة حتى الساعة الثامنة مساء. غير أنه لم يعد يستدعى في منتصف الليل على نحو ما كان الحال عليه عندما كان يتولى رئاسة جلسات التحقيق الأولية.

أياً كان مدى تأخره في العودة إلى الدار فإن رايي تنتظره دائماً لتتناول

الطعام معه، وعندما يصل متأخراً فإنها تهرع إلى تسخين طعام العشاء، ويعكف هو على قراءة الصحيفة خلال انتظاره، وتتناهى إلى وعيه الضجة المترعة بالعزم التي تحدثها زوجته والخادم في المطبخ. وهكذا فإن ساعة العشاء بالنسبة له هي أكثر ساعات اليوم بأسره استرخاء. ومن المؤكد أن نمط حياته المنزلية كان مختلفاً، لكن صورة والده غالباً ما كانت تخطر بباله وهو يستمتع بقراءة صحيفة المساء. لقد أصبح يشبه والده على نحو ما.

ومع ذلك، كانت هناك اختلافات، فقد كان على يقين من أنه لا يتسم بشيء من تجهم أبيه المصطنع للغاية الذي يميز عهد ميجي، ويرجع ذلك في المقام الأول إلى أنه ليس له أطفال يتعين أن يبدو صارماً أمامهم، ثم في المقام التالي لأن داره كانت، من تلقاء ذاتها، يدور دولابها بشكل أبسط وأكثر انتظاماً.

كانت رايي امرأة هادئة، لم تعارض زوجها قط ولم يحدث أن أمطرته بالأسئلة والاستفسارات. وكانت تضايقها لمسة من التهاب الكلى، فتتورم ملامحها بين الحين والآخر، وعندئذ تبدو عيناها وكأنهما تتوهجان بالعاطفة، وهو تأثير تزيده حدة مواد التجميل الأكثر ثقلاً إلى حد ما، وقد كانت تستخدمها في مثل هذه الأوقات.

الآن، في مساء الأحد ذاك من منتصف شهر مايو، كان وجه رايي منتفخاً من جديد. ستنعقد المحكمة غداً، وقد بدأ هوندا عمله عند الأصيل ظناً منه أنه سيتمكن من إكماله مع حلول وقت تناول طعام العشاء؛ ولذا فقد أبلغ زوجته بأنه يريد العكوف على العمل إلى أن يفرغ منه، لكنه لم ينجزه إلا في الساعة الثامنة. وكان من غير المألوف بالنسبة له أن يتناول طعامه في مثل هذا الوقت المتأخر في أيام وجوده بالدار.

وعلى الرغم من أن أطايب الطعام لم تكن تعني له الكثير فإنه أبدى خلال إقامته الطويلة في كانساي اهتماماً بالأعمال الخزفية، وسمح لنفسه

بالرفاهية المتواضعة المتمثلة في استخدام آنية رفيعة الجودة لتناول الوجبات اليومية. ودرج وزوجته على تناول الطعام في أطباق من خزف نايتساي، وقدمت لهما أقداح ساكي المساء في آنية أواتا من إبداع يوهاي الثالث. وعُنيت رابي بإعداد أطباق شهية، مثل سلاطة السمك المنكهة بالخردل مع أسماك السلمون الصغيرة، والثعابين البحرية المشوية على طريقة كانتو دون توابل، وشرائح الشمام مع صلطة غلّظ قوامها باستخدام نشاء نبات المرنطة. وقد حرصت على صحة زوجها نظراً لجلوسه إلى مكتبه طوال اليوم، فأعدت قوائم طعامها بحسب ما يتفق مع هذا الوضع.

كان ذلك هو الوقت من العام الذي تبدأ فيه النار بالمدفأة والبخار المتصاعد مصحوباً بالصفير من الغلاية النحاسية في التحول إلى أمور غير مقبولة.

قال هوندا وكأنما يحدث نفسه:

ـ لن يقع خير من جراء احتساء القليل من الساكي أكثر من المعتاد الليلة. أنجزت عملي كله إذ كرّست يوم أَحَدي هذا لأجله.

ما أجمل الفراغ منه!

قالتها رابي وهي تترع كأسه. نسّق أتّساق بسيط حركات يديها، حركة يده وهي تمسك بالقدح، وحركة يدها وهي تمسك بالزجاجة التي تصب الساكي منها. بدا وكأن خيطاً خفياً يربطهما، ويتم تجاذبه جيئة وذهاباً على نحو عابث، على وجه التقريب، بحسب الإيقاع العفوي للحياة. وما كانت رابي بالمرأة التي تخل بمثل هذه الإيقاعات. كان بمقدور هوندا التيقن من هذا، تماماً كما كان بمقدوره القول، بناء على العبق الفاغم، بأنه على يقين من أن براعم المجنولية في حديقته قد تفتحت في تلك الليلة.

وهكذا فإن كل ما كان هوندا يريده قد رتب في هدوء تحت ناظريه، وفي متناول يده من أيسر سبيل. كان هذا هو المجال الذى أرسى دعائمه، في

أقل من عشرين عاماً، ذلك الشاب الواعد. وفي ذلك العهد لم يكن هناك شيء، على وجه التقريب، يمكن أن يطبق عليه أصابعه فيما يراوده شعور بأنه يمتلكه، ولكن لأن هذا الافتقار لم يثر فيه الضيق المفعم بالقلق فإن كل هذه الأشياء أصبحت ملء قبضته.

بعد ارتشافه ساكيه التقط طبقاً ينبعث منه البخار، تناثرت فيه حبات البازلاء الخضراء ملتمعة على نحو متألق وسط الأرز. وعندئذ سمع رنين جرس الفتى موزع الجرائد وهو يعلن عن ملحق للصحيفة. فجعل الخادمة تسرع لابتياع نسخة منه.

نقلت الصحيفة التي كشفت حافاتها المشرشرة وحبرها الذي لم يكد يجف عن السرعة التي طبعت بها، الأنباء الأولى عن حادث الخامس عشر من أيار (مايو)، اغتيال رئيس الوزراء أنوكاي على يد ضباط البحرية.

ـ كأنما لم يكفِ تحالف القسم الدموي.

قالها هوندا متنهداً، وساوره شعور بأنه فوق مستوى الانطلاق العادي للرجال الغاضبين الذين ينهضون وقد ازرقت وجوههم من فرط الانفعال لإدانة فساد العصر. كان مقتنعاً بأن عالمه هو عالم المنطق والوضوح. والآن، وقد نال منه الخمار قليلاً، فإن وضوح هذا العالم بدا وكأنه يلتمع بمزيد من التألق.

قالت رايي:

ـ لسوف تنشغل من جديد. أليس كذلك؟

أحس هوندا بموجة من العطف المترع بالعاطفة لدى سماعه ابنة قاضٍ تفصح عن مثل هذا الجهل.

ـ كلا، كلا، سيكون هذا من شأن محكمة عسكرية.

كان الأمر، بحكم طبيعته ذاتها، خارج ولاية القضاء المدني.

- ٣ -

على امتداد عـدد من الأيام كـان حادث الخـامس عشر من أيار (مـايو)، بالطبع، الموضوع الوحيد الذي يدور حولـه الحديث في غـرف القضاة بمقـر المحكمة. ولكن مع حلول مطلع حزيران (يونيو) تدافع فيض من القضايـا التي حان موعد البت فيها، بحيث غدا القضاة أكثر انشغالاً من أن يكـترثوا لـلأمـر. وقـد أدركـوا حق الإدارك الحقـائق التي غـابت عن التقـاريـر الصحافية، وتبادلوا فيما بينهم أدنى قدر متـاح من المعلومات. وعلم الجميـع أن القـاضي سوجـاوا، رئيس قضاة محكمـة الاستئناف، المعـروف بحماسـه للكندو، متعاطف مع المتهمين، ولكن ما من أحد كان من الاندفاع بحيث يلمح إلى ذلك.

كـانت الحوادث التي تنتمي إلى هـذا النـوع، والتي تنشـأ إحـداهـا وراء الأخرى، تشبه أمواجاً تنطلق من بحر يلفه الظلام لـترتطم بـالشاطىء. في البداية تطل قمة صغيرة كخط مرتجف من البياض على الأعماق، ثم عندمـا تقبـل مندفعـة تتضخم على نحـو هائـل، لا شيء إلا لتلطم الرمـل وتذوب مرتدة إلى الأعماق. تذكر هوندا البحر عنـد كامـاكورا، في تلك الليلة قبـل تسع عشرة سنة، عندما رقد مع كيواكي والأميرين السيـاميين عـلى الشاطىء وراحوا يحدقون في الأمواج وهي تقبل وتنحسر.

حدَّث هوندا نفسه بـأن الشاطىء بـريء فيما يتعلق بـأمواج مثـل حادث الخامس عشر من أيار (مايو)، فهو مضطر فحسب إلى إجبارها على الرجوع إلى الأعماق، مستعيناً بصبر لا ينفد، مانعاً إياها من الانداياح على البر، إلى إرغامها على العودة في كل مرة إلى هوة الشر التي نهضت منها، إلى الملكوت البدائي المفعم بالندم والموت.

ما رأي هوندا نفسه في الشر؟ ما الذي يعتقده بالنسبة للخطيئة؟ لم تكن مثل هذه الخواطر من مسؤوليته حقاً. فما كان عليه إلا أن يرشد نفسه من خلال التقنين السائد. غير أنه في موضع ما من أعماقه استكن مفهوم خفي للخطيئة. مفهوم يفوح بالعطر، ويحرك الحواس، كأنه غسول لاذع يعم جلداً جافاً متشققاً. ولا شك في أنه مدين بهذا لتأثير كيواكي المتواني.

ومع ذلك فإن هذا المفهوم «غير الصحي» لم يكن من القوة بحيث يشعر بأنه مضطر إلى محاربته. ذلك أنه، إذ سيطر العقل عليه على هذا النحو، كان يفتقر إلى أي شيء من نوعية الإخلاص الأعمى للعدالة.

ذات يوم، في أوائل حزيران (يونيو)، وعندما انتهت جلسة المحكمة الصباحية في وقت مبكر أكثر من المعتاد، عاد هوندا إلى غرف القضاة، وكان ما يزال أمامه متسع من الوقت قبل أن يحل موعد تناول طعام الغداء. نزع غطاء رأسه الأسود بحاشيته الأرجوانية ورداءه القضائي الأسود، بتصميمه الذي يأخذ شكل عربة زخرفية أرجوانية تمتد بعرض مقدمة الرداء، ووضعهما جانباً في الخزانة المصنوعة من خشب الماهوجني التي تذكره بمذبح بوذي منزلي. ثم وقف مطلاً من النافذة بذهن شارد وهو يدخن سيجارة. كان مطر مضبب يهمي.

حدَّث نفسه، قائلاً:

ـ لم أعد مبتدئاً في هذا الأمر، فقد قمت بعملي دون أن تؤرجحني آراء الآخرين، وبوسعي القول بأنني انطبقت عليَّ المعايير المعمول بها، وغدوت متضلعاً في مهنتي مثل خزَّاف يبدو صلصاله كما لو كان يشكِّل نفسه متخذاً الصورة التي يريدها له.

لما كان مكتب المدعي العام يحتلّ غرف الطابق الثالث المواجهة للنهر في الجانب الجنوبي من مقر المحكمة، فقد كان المنظر الذي ترك لتطل عليه غرف القضاة التي تواجه نوافذها الشمال، منظراً كريهاً شغل السجن

معظمه، وسمح ممر يخترق الجدار المقام من الطوب الأحمر ويفصل السجن عن المحكمة، للمتهمين بالمضيّ إلى المحكمة دون التعرض لتحديق الجمهور.

لاحظ هوندا أن جدار الغرفة المطلي قد أخذ طلاؤه يتساقط بفعل البلل، وفتح النافذة. فيما وراء الجدار الطوبي الأحمر كانت سقوف الأجنحة المختلفة للسجن المؤلف من طابقين، والمبني بالطوب الأبيض، متقاربة بعضها من بعض، فيما انتصب برج للحراسة يشبه الأسطوانة عند المنعطف. وفي هذا البرج وحده كانت النوافذ بدون قضبان.

التمعت السقوف القرميدية لأجنحة السجن والواقيات القرميدية الصغيرة التي تعلو فتحات التهوية كلها بسواد مبتل في لون الحبر. وفي الخلفية شمخت مدخنة هائلة مرتفعة إلى عنان السماء الممطرة. ولم يكن المشهد البادي من نافذة هوندا يمتد إلى ما وراء هذه المدخنة.

كانت النوافذ تخترق جوانب مباني السجن على مسافات منتظمة، وقد غُطّي كل منها بقضبان حديدية مطلية باللون الأبيض وبشبكة من الشرائح الخشبية. وفي أسفل كل نافذة، وعلى الجدار الذي بلله المطر، وكان بلون الكتان المتسخ، طليت عليه أرقام عربية ضخمة 30, 31, 32, 33 وهلمّ جرّاً. وقد رتبت أرقام الطابق الأول والطابق الثاني تعاقبياً، فكانت النافذة رقم 31 في الطابق الأول في أسفل النافذة رقم 32. وفي الطابق الثاني كان هناك صف فتحات التهوية المستطيلة، وفي الطابق الأرضي، عند مستوى الأرض، فتحات لصرف الفضلات والبقايا الآدمية.

وفجأة ألفى هوندا نفسه يتساءل: أي هذه الزنازين يضم المتهم الذي مثل أمامه قبل قليل. لم يكن لمثل هذه المعلومة تأثير على دوره كقاض. كان المتهم مزارعاً فقيراً من مقاطعة كوتشي في جزيرة شيكوكو، وقد باع ابنته لمبغى في أوساكا، ثم بعد أن تلقى نصف المبلغ الذي وعد به مضى لمقابلة

المشرفة على المبغى، وإذ جن جنونه لما أهالته عليه من إهانات فقد شرع في ضربها واستبد به الحنق إلى حد قتلها. ومع ذلك لم يكن بمقدور هوندا أن يتذكر بوضوح محيا هذا المتهم، محيا كان من الجمود بحيث حاكى الحجر.

ارتفع دخان سيجارته من بين أصابعه، واستسلم للمطر الملتف بالغيم. من شأن هذه السيجارة أن تكون كنزاً ثميناً في ذلك العالم الآخر الذي لا يفصله عنه إلا جدار. وللحظة دهش هوندا حيال المفارقة العبثية في القيم بين هذين العالمين اللذين يعين القانون حدودهما. هنالك كان طعم الدخان شيئاً مرغوباً فيه على نحو لانهائي، أما هنا فالسيجارة لا تقدر أن تكون مجرد وسيلة لإنفاق لحظة تراخ.

كانت أرض التريض الممتدة بين مجموعة مباني السجن المتقاربة مقسمة إلى عدد من المناطق المسيجة تأخذ شكل مروحة. ومن هذه النافذة كان المرء يلمح غالباً الملابس الزرقاء الرسمية والرؤوس الحليقة للسجناء، فيما يسمح لهم بأداء التمارين الرياضية، أو بالسير قليلاً في مجموعات تتألف من اثنين أو ثلاثة منهم. غير أنه اليوم، وربما بسبب المطر، كانت أرض التريض خاوية مثل فناء في مزرعة تعاونية لتربية الدواجن بعد ذبح كل ما فيها من دواجن.

عند ذلك بالضبط تبدد الصمت الثقيل الراكد بفعل ضجة من أسفل حاكت ارتطام مصاريع لردّ المطر.

ثم أطبق الصمت من جديد. مسّ نسيم واهن المطر المتشح بالغمام، وأحس هوندا بلمسة من نداوة على جبينه. وفيما هو يوصد النافذة أقبل إلى الغرفة زميله القاضي مورا كامي قادماً من جلسته الصباحية.

قال هوندا فجأة وكأنه يعتذر:

- سمعت لتوي صوت تنفيذ حكم إعدام.

نزع مورا كامي رداءه القضائي قائلاً:

ـ سمعت صوت تنفيذ حكم بدوري، قبل أيام قلائل. ليس بالصوت الذي يدعو للسرور. أليس كذلك؟ لا أحسب أن وضع المقاصل قرب الجدار هنالك كان فكرة صائبة. طيب.أنمضي لتناول طعام الغداء؟

ـ وماذا ستتناول اليوم؟

ـ بنتو على طريقة إيكماتسو. وهل هناك شيء آخر؟

انطلقا كلاهما في الدهليز المعتم المفضي إلى قاعة الطعام المخصصة لكبار المسؤولين، وكانت واقعة ها هنا في الطابق الثالث. وقد اعتاد هوندا وموراكامي أن يخصصا وقت تناول طعام الغداء لمناقشة القضايا المطروحة. وفوق باب اعتلته لافتة كتب عليها «قاعة طعام كبار المسؤولين» كانت هناك نافذة محلاة بالزجاج الملون تتألق زخارفها المتداخلة المستوحاة من النزعة الفنية الجديدة، على نحو باهر بتأثير الأضواء في داخل القاعة.

ضمت القاعة عشر موائد طويلة ضيقة اعتلتها أباريق وأقداح الشاي. أطلّ هوندا ليتبين ما إذا كان كبير القضاة بين العاكفين على تناول الطعام، فقد اعتاد الحضور إلى هنا غالباً لحسم الأمور مع زملائه القضاة. وفي مثل هذه المناسبات كانت المرأة المسؤولة عن قاعة الطعام ـ وكانت تدرك حق الإدراك ما يؤثره كبير القضاة ـ تهرع على الدوام إلى مائدته حاملة إبريقاً صغيراً لا يحتوي على الشاي، وإنما على الساكي. غير أن كبير القضاة لم يكن موجوداً اليوم.

جلس هوندا قبالة موراكامي، وفتح صندوق «البنتو» الخاص به المطلي باللك، وأخرج الطبقة العليا التي تحتوي على سمك وخضر. وكالمعتاد كان أسفل هذه الطبقة مبللاً وملتصقاً بما يليه بسبب الأرز الساخن المشبع بالبخار الموجود في الطبقة السفلى، وقد التصقت حبات الأرز باللك الأحمر الذي تساقط بعضه. وراح هوندا الذي تضايقه مجرد الإشارة إلى الإهدار يلتقط بعناية حبات الأرز، واحدة وراء الأخرى، ويدسها في فمه.

بدا هذا المظهر المدقق شيئاً طريفاً لمورا كامي.

قال ضاحكاً:

ـ لقد نشأت بالطريقة ذاتها التي ربيت أنا عليها، وتعين عليك كل صباح أن تنحني وتقدم بضع حبات من الأرز إلى تمثال من البرونز يمثل فلاحاً يجلس متربعاً وبين ساقيه معطف من القش واق من المطر. وكذلك الأمر بالنسبة لي. ولو أسقطت حبة أرز واحدة على الأرض خلال العشاء لتعين عليَّ التقاطها ودسها في فمي.

رد هوندا:

ـ لقد أدرك الساموراي أنهم يأكلون دون أن يعملوا، وما تزال تأثيرات تربية المرء على هذا النحو قائمة. ترى كيف يتصرف أولادك؟

ـ إنهم يسيرون على خطى أبيهم.

قالها مورا كامي وقد ارتسم تعبير متواطىء على نحو مرح على وجهه. وكان يدرك أنه يفتقر إلى السيماء المترعة بالوقار والكبرياء التي تليق بقاض، وحاول في وقت من الأوقات إطلاق شاربه، ولكنه أقلع عن ذلك عندما جعل زملاؤه ورؤساؤه ذلك موضعاً للتندر، وكان مولعاً بالقراءة، وغالباً ما ينصرف حديثه إلى الأدب.

قال:

ـ لقد قال أوسكاراوايلد إنه ليس هناك شيء يدعى بالجريمة المحض في عالمنا الراهن، فكل الجرائم تنشأ عن ضرورة ما. خذ معظم عمليات الاغتيال الأخيرة، إنني أشعر بأن عليَّ النكول عن رئاسة جلسات النظر فيها.

ردَّ هوندا متأملاً:

ـ نعم، إني أدرك ما تقصده، بوسعك أن تصفها بأنها جرائم نشأت عن عدم التلاؤم الاجتماعي. ومعظم هذه الأحداث يبدو أنه مشكلات اجتماعية

تبلورت في صورة جريمة. أليس كذلك؟ وفضلاً عن هذا فإن الضالعين فيها ليسوا بالمثقفين، وهم لا يدرون ما يعنيه الأمر برمته، لكنهم يجسدون المشكلات ذاتها.

ـ خذ مثال الفلاحين في الشمال! هناك موقف رهيب.

ـ يمكننا العرفان بالجميل لعدم وقوع أمور على مثل هذا القدر من السوء في مقاطعتنا.

كانت الولاية القضائية لمحكمة استئناف أوساكا قد حددت في عام ١٩١٣ بحيث تشمل أوساكا وكيوتو وهيوجو ونارا وشيجا وواكاياما وكاجاوا، أي مقاطعتين حافلتين بالمدن وسبع مناطق ريفية. وهو ما يشكل إقليماً مزدهراً بصفة عامة.

انطلقا في مناقشة مسهبة للنمو السريع الذي شهدته الجريمة العقائدية، وسياسة مكتب المدعي العام، وما إلى ذلك من أمور. وفيما هما منغمسان في الحديث كان دوي صوت تنفيذ حكم الإعدام لا يزال صداه يتردد في أذني هوندا بحدة وتموج من شأنهما إرضاء النجّار الذي صنع أداة تنفيذ الحكم. ومع ذلك فقد تناول طعامه بشهية مفتوحة، وبدلاً من أن تزعجه الضجة فقد جعلته يحس كما لو أن إسفيناً من البلور قد اخترق وعيه.

دلف سوجاوا، كبير القضاة، إلى القاعة وسط إيماءات تحية مترعة بالتوقير من جانب الحاضرين جميعاً، وهرعت المرأة المسؤولة عن القاعة لجلب الإبريق الخاص، فيما كان سيادته يجلس قرب هوندا وموراكامي. وكان عظيم الجرم، متورد الوجه، مدرباً مؤهلاً في إطار مدرسة هوكوشين إيتورايو للكندو، وعمل مستشاراً لاتحاد الفنون العسكرية. وكان مولعاً باقتطاف عبارات من كتاب تقليدي للكندو في غمار خطبه القضائية، وبالتالي كان يشار إليه في غيابه على أنه «الحكم». ولكنه كان سيداً مهذباً شديد اللطف، استمدت أحكامه القضائية وحيها على الدوام من نزعة

إنسانية مترعة بالتعاطف. وحينما يعقد لقاء أو تقام دورة كندو في المقاطعة ويطلب منه إلقاء خطاب التهنئة بالفوز، فإنه يبادر سعيداً إلى تلبية هذا الطلب. ولما كان العديد من المعابد والمزارات الشنتوية يرعى الفنون العسكرية فقد كان من الطبيعي أن يوثق كبير القضاة العلاقات بها، وأن يغدو ضيف الشرف في المهرجانات التي تقيمها.

تنهد كبير القضاة خلال جلوسه وقال:

ـ لست أدري ما عساي أصنع! لقد قلت لهم منذ وقت طويل إني سأحضر، والآن لم يعد من سبيل إلى الذهاب إلى هناك.

من المؤكد أن أساه كانت له صلة بالكندو، فيما حدَّث هوندا نفسه، وهو ما تبين صدقه، فسوف تقام دورة للكندو في مزار أوميوا في مدينة ساكوراي بمقاطعة نارا، في السادس عشر من حزيران (يونيو). ولهذا المزار زوار يفدون إليه من كافة أرجاء البلاد، بل إن جامعات طوكيو بعثت بأفضل رياضييها للمشاركة في الدورة. وقد وافق كبير القضاة سوكاوا على إلقاء الخطاب الرئيسي، ولكن، كما تصادف الآن، تعين عليه الذهاب إلى طوكيو في ذلك اليوم بالتحديد لحضور مؤتمر لرؤساء محاكم الأقاليم. قال لهوندا ومورا كامي إنه لمّا لم يكن لهذا الموضوع بأي حال علاقة بالواجب الرسمي فإنه ليس من حقه أن يطلب منهما الذهاب بدلاً منه، ولكن هل يشعر أي منهما بالرغبة في مد يد العون له؟ وفي مواجهة مثل هذا الطلب المتواضع راجع القاضيان في التو، دفتري مواعيدهما. أدى الانعقاد المقرر لجلسة من جلسات المحكمة في السادس عشر من حزيران (يونيو) إلى استبعاد مورا كامي، ولكن هوندا كان من المقرر أن يعمل في الدار لعدة أيام، والقضايا التي سيدرسها كانت من النوع البسيط.

تهلَّلت أسارير كبير القضاة، وقال لهوندا:

ـ لست أدري كيف أشكرك. فمن شأن هذا أن يُبقي على علاقاتهم

الوثيقة معي، ومن المؤكد أنهم في المزار سيسعدون بك تماماً، فهم يعرفون أباك أيضاً. خير لك أن تجعلها زيارة لمدة يومين، وبمقدورك النزول في فندق نارا ليلة إقامة الدورة، فهو فندق هادىء، ويعد مكاناً طيباً يمكنك العمل فيه، وأما اليوم التالي ففيه يقام مهرجان سايجوسا، في مزار إيزا جاوا، وهو فرع لمزار أوميوا في نارا ذاتها، وهكذا بمقدورك أن تشهد هذا المهرجان أيضاً، وقد شهدته بنفسي، وليس هناك مهرجان عريق أجمل منه في أي مكان آخر. ما رأيك في هذا يا هوندا؟ إذا ظننت أنك تحب حضوره فإني سأبعث برسالة في هذا الشأن اليوم. لا، لا، لا مجال للتردد في هذا الأمر، فهو شيء لا يمكنك تركه يمر بك مر الكرام.

وافق هوندا متردداً على نحو ما، في ضوء الضغط الذي فرضه حماس كبير القضاة، المفعم بحسن النية. أما فيما يتعلق بمباراة الكندو فإنه لم يشهد أية مباراة كندو من عقدين من الزمان، عندما كان في مدرسة النبلاء. وفي تلك الأيام الخوالي كان يضيق ذرعاً، مع كيواكي، بفريق الكندو والصراخ المفعم بالتعصب الذي يصاحب جولات تدريبه. ولم يكن بمقدور أي منهما سماع تلك الصيحات دون أن يساوره الشعور بأن حساسيته الشابة قد لطمت على نحو مؤلم؛ فهي صيحات وحشية، مختنقة، مقززة، بدت وكأنها مصرة على السمو بالسعار الحيواني إلى مستوى ما هو مقدس. وكانت لهوندا وكيواكي أسباب مختلفة للشعور بالمقت حيال هذه الصرخات، فهي بالنسبة لكيواكي صدمة لحساسيته المترفة، أما بالنسبة لهوندا فقد كانت هجوماً على العقل ذاته. غير أن رد فعل من هذا النوع كان شيئاً ينتمي إلى ماضي هوندا، أما الآن فقد أصبح على درجة رفيعة من الانضباط بحيث كان بمقدوره أن يسمع أو يرى أي شيء على الإطلاق دون أن يكشف عن دخيلة نفسه، حتى ولو من خلال ارتفاع حاجبه قليلاً.

اعتاد هوندا في الأيام التي يتخللها وقت طويل ما بين تناول طعام الغداء

وبدء جلسة الأصيل أن يتريض على ضفة نهر دوجي إذا كان الطقس جميلاً، فقد كان يحب مشاهدة الزوارق الخفيفة وهي تقطر الأخشاب في النهر، وكتل الخشب وهي تخلف ماء مزبداً، كأنما الزبد يعلو أشداقها. أما اليوم فإن المطر يهمي، ومن شأن غرف القضاة أن تحفل بنشاط يفوق كثيراً ما يمكنه من الاسترخاء هناك. بعد أن ترك مورا كامي، وقف مسترخياً لبعض الوقت أمام المدخل الأمامي حيث كان الضوء الأخضر الشاحب والأبيض المنبعث من النافذة المزخرفة بالزجاج المعشق الذي يصور أجمة من أشجار الزيتون، يتألق بلمعان خافت على جرانيت الأعمدة الشامخة في البهو المرقش المصقول. خطر له خاطر فمضى إلى قسم المحاسبة للحصول على مفتاح؛ ذلك أنه قد قرر أن يرقى البرجَ.

كان برج المحكمة الطوبي الأحمر من معالم أوساكا، وإذا نظر المرء إليه من الضفة الأخرى فإن انعكاسه على صقال نهر دوجي يشكل مشهداً بديعاً من الناحية الجمالية. ومن ناحية أخرى، كان يشار له باعتباره «برج لندن»، ودارت حوله حكايات خرافية من قبيل تلك الحكاية التي تزعم أن هناك مقصلة في أعلاه تنفذ أحكام الإعدام بالاستعانة بها.

لم يقدر لأحد قط أن يتمكن من التوصل إلى استخدام لهذا البرج الذي يمثل نزوة غريبة من جانب المهندس المعماري الإنجليزي الذي وضع تصميم المحكمة، وهكذا فقد ظل موصداً، وترك ليعلوه الغبار على مدار السنين. وفي بعض الأحيان يرقاه أحد القضاة ليتملى المنظر الممتد أسفله. وفي الأيام الصافية يمكن للمرء أن يرى حتى جزيرة أواجي.

أدار هوندا المفتاح في القفل، وولج البرج فواجهه ضوء أشهب رحب. تمثلت قاعدة البرج في سقف البهو الأمامي للمحكمة، ومن هناك حتى القمة ذاتها لم يكن إلا فراغ لا يعترضه شيء، وقد تراكمت على الجدران البيضاء طبقات من الغبار والمطر الذي تسرب إلى البرج عبر السنين. لم

تكن هناك نوافذ إلا في أعلى البرج، وامتدت حول القمة شرفة ضيقة يصل إليها المرء عن طريق درج حديدي يرقى الجدران بعناد اللبلاب.

كان هوندا يعلم أنه إذا لمس حاجز المدرج فإن الطبقة الكثيفة من الغبار التي تكسوه ستلوث أصابعه، وتكسوها بالسواد. وعلى الرغم من أن المطر يهمي فإن الضوء المتسرب من النوافذ في الأعالي كان كافياً لكي يفعم داخل البرج الهائل بضوء رهيب، كأنما هو ضوء فجر مشؤوم. ولم يقدر له أن يلج هذا البرج إلا ألفى نفسه وقد احتواه هذا الامتداد الخاوي للجدران ودرجها الملتوي على نحو عبثي، وتلقى انطباعاً بأنه أقبل إلى عالم ملغز تم بصورة متعمدة توسيع نطاق أبعاده. وأحس بأن مثل هذا الفراغ يضم حقاً تمثالاً هائلاً حجب عن ناظريه شخصاً هائلاً عقد الغضب ملامحه الخفية.

حدَّث هوندا نفسه بأنه ما من شيء يبرر هذه الرحابة المبذرة، فهي مجردة من أي معنى على الإطلاق. وحتى النوافذ الهائلة في حجمها عندما يراها المرء عن كثب، لم تبد من حيث وقف هوندا أكبر من حجمها من علب أعواد الثقاب.

راح يرقى الدرج خطوة فأخرى مطلاً إلى أسفل بين الفينة والأخرى، عبر الحاجز المتصالب الذي يدعمه، وكل خطوة تحدث أصداء راعدة داخل البرج. وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك سبب يدعوه إلى الشك في أن الدرج آمن، إلا أن كل خطوة يخطوها كانت تجعل هيكله المعدني المتطاول يهتز من القمة إلى القاع برجفة تثير شعوراً بالدوار، كالرعدة التي تنساب في عمود الإنسان الفقري، فيتهاوى الغبار في صمت نحو الأرضية البعيدة.

عندما بلغ القمة ومضى يطل عبر النوافذ العديدة لم يتكشف المشهد الذي امتد تحته عن جديد لم يسبق له اكتشافه، وعلى الرغم من أن المطر كان يحد من مجال رؤيته كثيراً، إلا أنه تمكن من رؤية نهر دوجيما وهو

ينساب في تكاسل، عبر مجراه جنوباً، نحو ملتقاه مع نهر توسابوري. وعلى الضفة الأخرى لنهر دوجيما، إلى الجنوب مباشرة ترامت القاعة العامة، ومكتبة المقاطعة، ومصرف اليابان بسقفه البرونزي الدائري. أطل على مباني المكاتب التي تغطي هذا الشريط العريض من الأرض الممتدة بين النهرين، والتي بدت كالأقزام مقارنة بالبرج. إلى الغرب من المحكمة ارتفع مبنى دوجيما باعتباره الجار القريب، ولاحت في ظله مقدمة مستشفى التناسخ. وامتدت أجنحة المحكمة على الجانبين كليهما في أسفل البرج، وقد أضفى المطر على لونها الطوبي الأحمر جاذبية خاصة. وبدت المرجة الصغيرة الخاصة بفنائها الداخلي في موضعها تماماً، كأنها الكساء الأخضر لمائدة البليارد.

لم يكن بمقدور هوندا، من مثل هذا الارتفاع، أن يميز أية شخوص بشرية في أسفله، ولم يلمح شيئاً إلا خطوط المباني والأضواء المضاءة في وضح النهار، وقد بدت مستسلمة تحت المطر المنهمر. وفي البرد الذي يختلج الجسم بتأثيره، والعزاء الذي تبعثه الطبيعة في النفس، راح هوندا يفكر محدثاً نفسه:

ـ من علٍ أطلُ، من ارتفاع يبعث الرعدة في أطراف المرء، وأنا هنا لا بسبب السلطان ولا المال، وإنما لأنني أمثل العقل بالنسبة للأمة. ارتفاع يسمو إليه المنطق كأنه برج تشكل من أطواق من الصلب.

كلما جاء هوندا إلى هنا، ساوره شعور يفوق كثيراً ما يساوره وهو يجلس إلى القمطر المصنوع من خشب الماهوجني، بأنه يمتلك ناصية تلك الرؤية التي تضم كل شيء وينبغي أن يتمتع بها القاضي. الآن، وهو يطل من علياء هذا الموضع، بدت كل الظواهر الواقعة أسفله، وكل الظواهر المنتمية إلى الماضي، وكأنها تمثل أمامه على خريطة واحدة يبللها المطر. وحتى إذا كان للعقل عبثه الطفولي فربما لم يكن هناك ترفيه أكثر تلقائية من جمع كل شيء في إطار مشهد واحد.

أشيـاء من كـل الأنـواع تمضي أسفله، وزيـر المـاليـة يلقى مصرعـه بـالرصـاص، ورئيس الوزراء يحـذو حـذوه، والمـدرّسـون اليسـاريـون يلقى القبض عليهم، والشائعات المجنونة تنـطلق من عقالهـا، وأزمة المجتمعـات الـزراعية تحتـدم، والحكومـة الحزبيـة تمضي متعثرة قـاب قـوسـين أو أدنى من الانهيار. وماذا عن هوندا؟ إنه يقف فوق المقام الشامخ المخصص للعدالة.

كـان هونـدا، بالـطبع، رجـلاً من النوع القـادر على تصـوير كـل أنواع الـرسوم العقليـة الساخـرة لنفسه، في هـذا الدور. فهـا هوذا، عـلى سبيل المثـال، يقف فوق بـرج العدالـة ممسكاً، بـالاستعانـة بملقط صغير، بكـافة أنـواع العواطف البشريـة لتقويمهـا، وها هـوذا يلفها في حقيبـة فوروشيكي ذات العقل الأنيقة ليتمكن من حملها إلى الدار لاستخدامها كمواد لأحكامـه. ويوماً بعـد يوم كـانت مهمته أن ينحي جـانباً كـل عناصر الغمـوض، وأن يكرس نفسه، منكباً على العمل المتمثل في إعداد الملاط الـذي يثبت قوالب طوب القانون في موضعها. وراح يحدث نفسـه بأنـه مع ذلـك فإن الـوقوف فوق موضع مرتفع واحتواء الطبيعة البشريـة بنظره واحـدة من القمم العليا الصـافية حتى الأعـماق الخفيضة هـو شيء يعتد بـه قطعـاً. أن يتملك ناصيـة تحقيق الألفة، لا مع الظواهر، وإنما مع مبادىء القانون وذلك أمر يعتد به. وكما أن السائس تفـوح منه رائحـة الإسطبلات، فكذلـك هونـدا غدا، في الثامنة والثلاثين من عمره، ضائعاً بعرف عدالة القضاء.

- ٤ -

تجلى السادس من حزيران (يونيو) يوماً حاراً على نحـو غير عـادي. حتى منذ الصباح الباكر. وتوهجت الشمس بمزيد من الألق كأنها تعلن قدوم حر منتصف الصيف. غادر هونـدا داره إلى ساكـوراي، في السابعـة صباحـاً، مستقلاً سيارة أرسلها كبير القضاة.

إن مزار أوميوا يحتل مرتبة رفيعة للغـاية بـين المزارات الـوطنية، ودرجت غالبية أبناء المنطقة على الإشارة إليه باعتباره «ميوا مايـوجين» نسبـة إلى جبل ميوا الذي كان يعتبر بمثابة تجسيد للإله الذي يعبد في المزار. أمـا جبل ميـوا نفسه فقد كان يشار إليه باعتباره الجبـل المقـدس، وترتفـع هامتـه إلى ألف وخمسمائة قـدم فوق مستوى سطح البحر، ويـترامى محيطه عنـد قاعـدته إلى حـوالي عشرة أميـال، وتكسـوه غـابـة كثيفـة من الأرز والسرو والصنـوبـر والبلوط. ومـا كان بـوسـع أحـد أن يجتث شجـرة واحـدة من الأشجـار التي تنمو هنا، وقد خطرت أشكال التلويث كافة. وكان هذا المزار الـرئيسي من مـزارات أرض يامـاتو المـزار الأقدم في اليـابان بـأسرها، واشتهـر بأنـه نقل تعاليم الشنتو في أنقى صـورها. وهكـذا ساور كـل من يوقـرون الطقـوس العتيقة شعور بأنهم مجبرون، على الأقل مرة في العمر، على زيارة أوميوا.

تمثل المعبود الأساسي الكائن في أوميـوا في نيجيميتامـا، «الرب المعتـدل» الـذي يعبد في مختلف أرجـاء اليابـان باعتبـاره راعي تخمر السـاكي. وربمـا استمـد اسم المزار نفسـه من إناء خُمِّـر فيـه الأرز. وفي داخـل حـرم المعبـد انتصب معبد ساي الأصغر حجماً، وقد كُرِّس هذا المعبد لأرا ميتاما «الرب الضاري» الذي يخلص لـه العسكريـون أشد الإخـلاص، وتقبل إليـه أعداد

كبيرة للتضرع من أجل النمط الحسن في المعارك. وقبل خمس سنوات اقترح رئيس جمعية للمحاربين القدامى عقد لقاء للكندو هنا كل عام، كعمل من أعمال العبادة. غير أنه لما كانت أراضي مزار ساي ذاتها أصغر من أن تسمح بذلك فقد اختيرت الساحة الواقعة أمام المزار الرئيسي، في نهاية المطاف، ليعقد فيها اللقاء.

إن كبير القضاة قد أوضح هذا كله لهوندا. وتوقفت السيارة أمام بوابة محدبة، هائلة، وترجل هوندا أمام اللافتة التي توجه الزوار للمضيّ قدماً سيراً على الأقدام.

انحنى الممر الممهد بالحصى، والمفضي إلى المعبد، هوناً ما. تدلت رايات ورقية بيضاء على مسافات متقاربة من حبال تصل فروع أشجار الأرز المنتصبة على جانبي الطريق، واهتزت مع مداعبة النسيم العليل لها. تألقت الأشنة التي غطت جذور أشجار الصنوبر والبلوط الواقعة وراء أشجار الأرز، ومطر الأمس ما يزال يكسوها بالخضرة المخضلة التي تميز أعشاب البحر. انساب غدير لمسافة ما بحذاء الطريق إلى اليسار منه، وتناهى خرير الماء عبر السرخسيات ونجيل الخيزران، وانهلت من السماء الصافية في الأعالي أشعة الشمس المتقدة ساعية وراء الخضرة المنتشرة تحت الأشجار دون أن تعيقها أغصان أشجار الأرز. وفيما كان هوندا يعبر الجسر المقدس لمح الستار الأبيض ذا الحلية الأرجوانية المنسدل على مدخل المعبد، وكان على مبعدة من الدرج الحجري المتعرج الذي يواجهه. وبعد أن رقي الدرج توقف ليجفف العرق الذي غلل جبينه. كان مزار أوميوا ينتصب شامخاً أمامه عند سفح جبل ميوا.

كان الفناء الفسيح الواقع أمام المزار قد كنس من كل ما فيه من حصى، ليشكل مربعاً يكسوه، بخفة، الرمل الذي شابته حمرة التربة تحته، فهنا هنا ستقام مباريات الكندو. اصطفت في ثلاثة صفوف مقاعد وكراسي تطوى،

وغطت ظلة كبيرة جانباً من القسم المخصص للمشاهدين، وحدَّث هوندا نفسه بأن مقعده هناك تحت الظلة، باعتباره ضيف الشرف.

أقبل وفد للترحيب مؤلف من كهنة يرتدون أثواباً بيضاء، وأبلغوه بأن رئيس المزار سيشرفه أن يلقاه، فاختلس نظرة عجلى إلى قرص شمس الصباح الأبيض المتألق فوق ملعب الكندو، وهو يتبع الكهنة إلى حمى مكتب المزار.

وعلى الرغم من أن الجد يرتسم عادة على ملامح هوندا فإنه لم يكن متديّناً على نحو خاص. وفيما هو يتطلع إلى ما وراء المزار، إلى أشجار الأرز الشامخة لجبل ميوا، في تألق الشمس الصباحية الذي يأخذ بالألباب، ساوره شعور بأنه في حضرة قدسية. ومع ذلك فقد كان أبعد ما يكون عن أن يتملكه شعور ديني قوي.

يختلف الشعور بأن الصوفي يلف الدنيا كأنه غلاف جوي نقي، إلى حد كبير، عن رؤية إن أقرت بما هو صوفي إلا أنها لا ترى فيه شيئاً له أية علاقة بالأمور العادية. وكان هوندا، بالطبع، متعاطفاً مع الصوفي، كان شعوراً يحاكي على نحو ما محبة ابن لأمه، ولكنه منذ حوالي التاسعة عشرة من عمره أحس بأن بمقدروه أن يشق طريقه دون هذا الشعور، وهو الأمر الذي غدا بمثابة طبيعة ثانية له.

بعد أن حيا هوندا والعديد من البارزين من أبناء المنطقة بعضهم بعضاً مطولاً، وتبادلوا بطاقات التعارف، مضى بهم جميعاً كبير الكهنة إلى مدخل دهليز يفضي إلى المزار ذاته، حيث كانت اثنتان من «الميكو» في الانتظار. مد الضيوف أيديهم فصبت الفتاتان الماء عليها بحسب مراسم حفل التطهر الشتوي. وداخل المزار كان هناك الرياضيون الخمسون المشاركون في المباريات مشكلين جمعاً من الشخوص يرتدون الملابس الزرقاء. وفيما جلس الضيوف في مقاعدهم خصص مقعد الشرف لهوندا.

انساب عزف النـاي الطقـوسي، ثم تقدم كـاهن يعتمر قلنسـوة عاليـة، ويرتدي ثوباً أبيض إلى المذبح، وشرع في ترتيل صلاة تقدمـة: «ها هنـا في الحضرة المهيمنة لمعبود أوميوا، الأمير المقدس، أومونونوشي كوشيمجا تـاما، المتوج للأبد تحت السموات، والمتمتع للأبد بحظوة سنـا الشمس، ها هنـا على أرض أوميوا المقدسة...».

لوَّح الكاهن، فيما هو يرتل الصلاة فوق رؤوس الجميـع، بغصن شجرة السـاكاكي المقـدس، المزين بشرائـح طويلة من الـورق الأبيض. وإذ أخذ هوندا دوره، باعتباره ممثلاً للضيوف، بعد أحد أعضـاء الاتحاد المشرف عـلى الدورة، تقبل غصن الساكاكي ورفعه في إجلال أمـام مذبـح الآلهة، وتـلاه ممثل الريـاضيين، وهـو شيخ في حـوالي الستين من العمـر كان زي الكنـدو الخاص به شاحب الزرقة. وفي غمار كل هذا الـطقس الذي حفـه الوقـار، ازدادت الحـرارة حدة، وأحس هـوندا بمـزيد من عـدم الارتيـاح، بحبـات العرق المنسابة مثل سرب من الحشرات تحت قميصه.

عندما انتهى أداء الطقس الرسمي أخـيراً مضت المجموعـة بأسرهـا إلى صدر الفناء، واتخذ الضيوف مقاعدهم تحت الظلة، وجلس الرياضيون على حشايا تغطيها ظلة كذلك. وأما المقاعد التي لا تعلوها الـظلات فكانت قـد امتـلأت بالمشـاهدين. ولـما كانـوا يجلسون في مـواجهة المـزار فقد واجهتهم الأشعـة المبـاشرة لشمس الصبـاح وهي تمضي صعـداً خلف جبـل ميـوا، واضطروا إلى حماية أنفسهم كأفضل ما يستطيعون بالمراوح والمناشف.

تلا ذلك في البرنامج حشد مطول من خطب الـترحيب والتهنئة. ونهض هوندا بدوره وأعرب عـما يناسب المقـام من مشاعـر. وكان قـد قيل لـه إن المتبـارين الخمسـين قـد قسمـوا إلى المجمـوعتـين التقليـديتـين: الحمــراء والبيضـاء. وإذن، فإن لقاء اليوم الذي يقام تكريماً لآلهة أوميوا سيضـم خمس جولات تتألف كل منها على الأقل من خمس مباريات بين المعسكرين. وقـد

نهض رئيس اتحاد المحاربين القدامى ليلقي كلمتـه، بعد هـوندا، وفي غـمار خطابه الذي امتد طويلاً انحنى كبير الكهنة وهمس في أذن هوندا:

ـ أترى ذلك الفتى، الأول من اليسار، في الصف الأمامي تحت الـظلة؟ إنه لا يزال في عامه الأول في كلية الدراسات الوطنية في طوكيو، ولكنه قائد المتبـارين البيض في الجـولـة الأولى. أحسب أن سعـادتكم تحسنـون صنعـاً بملاحظة هذا الشاب، فعالم الكندو يتوقع الكثير منه. إنه في التاسعـة عشرة من عمره، وقد حصل على المرتبة الثالثة.

ـ ما اسم هذا الفتى؟

ـ إسمه إينوما.

حرك الاسم ذاكرة هوندا فتساءل:

ـ إينوما؟ هل أبوه من رجال الكندو؟

ـ لا، إنه شيجوكي إينوما رئيس المجموعة الـوطنية الشهـيرة في طوكيـو. لقد كان على الدوام شديد الإخلاص لمزارنا، لكنه لم يمارس الكندو قط.

ـ أهو هنا اليوم؟

ـ لقد قال لي إنه يود كثـيراً أن يرى ابنـه وهو يشـارك في الدورة، ولكنـه اضطر، لسوء الحظ، لحضور اجتماع في أوساكا اليوم.

إذن، فهو إينوما دونما شك ـ إينوما الذي عـرفه هـوندا. كـان اسمه من الأسماء البارزة منـذ ذلك الـوقت، ولكن هونـدا لم يتبين إلا منـذ عامـين أو ثـلاثة أنـه معلم كيواكي السـابق. وفي ذلك الـوقت، عندمـا أخـذ التـوتـر العقائدي الراهن في التحول إلى موضوع رائج للحديث في غـرف القضاة، كان هوندا قد استعار بعض الصحف من زميل يعد دارسة بالرجـوع إليها. وكانت هناك، بين المقالات التي قرأها، دراسة بعنوان «دراسة للشخصيات اليمينية» أتت على ذكر إينوما على النحـو التالي: «يعـد شيجوكي إينـوما من الشخصيات البارزة، بصورة متزايدة، بل إنه تجسيد لروح الساتسـوما. وفي

الوقت الذي كان فيه طالباً في المدرسة المتوسطة لقي تقدير أساتذته، باعتباره الطالب الواعد أكثر من أي طالب آخر في المقاطعة. وكانت عائلته فقيرة، ولكن لما كان قد أوصي به على نحو شامخ فقد جاء إلى طوكيو للالتحاق بحاشية الأمير ماتسوجاي، وعمل معلماً لنجل الأمير الشاب وكرس نفسه تماماً للمضي قدماً بتعليمه وبتعليم الأمير الشاب. غير أنه وقع في هوى إحدى الوصيفات، وهي فتاة تدعى ماييني، فتخلى عن خدمة الأمير. أما اليوم فإن هذا الرجل الذي يتدفق الدم حاراً في عروقه قد نجا من أهوال وقت عصيب، وبرز باعتباره رئيساً للأكاديمية التي شاد صرحها بنفسه. وله وزوجته، ماييني بالطبع، ابن واحد».

هكذا علم هوندا بما صار إليه إينوما. ولم تكن صلته وثيقة قط بمعلم كيواكي، والانطباع الوحيد عن إينوما الذي بقي في ذهنه هو انطباع عن شخص جهم يرتدي كيمونو قاتم الزرقة بزخارف بيضاء متناثرة، وهو يمضي به في صمته عبر الدهاليز الطويلة المعتمة في دار ماتسوجاي. وقد ظل إينوما، بالنسبة لهوندا، شخصاً غامضاً تلفه خلفية من الظلمة.

اندفع ظل نُعَّرة فوق سطح مقدمة الساحة المكنوسة. وفجأة طنت ذبابة الخيل تلك بصوت عال وهي تدنو من المنضدة الطويلة المكسوة بغطاء أبيض، وقد جلس إليها هوندا والآخرون، ففتح أحد الضيوف مروحته وأبعد الذبابة. وكانت حركته من البراعة بحيث أن هوندا تذكر، في الحال، أنه فهم من بطاقة تعارفه أنه لاعب كندو حائز الدرجة السابعة. وتواصل الخطاب الرتيب الذي مضى رئيس جماعة المحاربين القدامى في إلقائه.

من المربع الممتد أمامه ـ وكذلك من جملون المزار السامق وخضرة الجبل المقدس والسماء المشرقة ـ انهل النفس الحارق للعنف. وأثارت هبات ريح عارضة الغبار في ميدان الكندو الصامت الذي سرعان ما ستملأه صيحات

الخصوم وقرقعة العصي الخيزرانية، كأنما النسيم الخفيّ شبح رشيق يلينّ أطرافه تأهباً لمعركة باسلة.

انجذبت عينا هوندا، على نحو ما، إلى محيا ابن إينوما الذي تصادف أنه كان جالساً أمامه مباشرة على الجانب الآخر من الفناء. لا بد أن إينوما الأب كان قبل عشرين عاماً أكبر بخمسة أعوام من كيواكي وهوندا. ومع ذلك فإن إدراك أن المعلم الشاب المرتبك، القادم من الأقاليم، قد غدا الآن والد فتى بمثل هذا النضج ذكّر بقوةٍ هوندا الذي لم يقدر له الإنجاب، بالسنوات التي تصرمت دون أن يلقي أحد بالاً إليها.

جلس الفتى في استقامة السهم على امتداد الخطب المتطاولة دون أن تند عنه أدنى حركة. ولم يكن بمقدور هوندا التيقن مما إذا كان يصغي حقاً إلى ما يقال. راحت عيناه تتألقان، ومضى يحدّق فيها أمامه مباشرة، مجسداً صورة للمناعة الصلبة.

كان حاجبا الفتى بارزين، وبشرته تميل إلى السمرة، والنمط الذي تصنعه شفتاه المطبقتان في حزم مستقيماً كحد النصل. ومن المؤكد أنه يشبه إينوما، ولكن الملامح التي ارتسمت عليها كآبة غامرة، تغيرت الآن على نحو مفاجىء لتعبر عن حيوية حادة.

حدَّث هوندا نفسه قائلاً:

- هوذا وجه لا يعرف شيئاً عن الحياة، وجه يشبه ثلجاً همى حديثاً، لا يدرك ما ينتظره.

جلس المتبارون وقد رتبت أقنعتهم وقفازاتهم أمامهم بعناية، وغطت منشفة صغيرة جانباً من كل قناع. تألق سنى الشمس منعكساً عن العوارض المعدنية للأقنعة، على امتداد خط الركب المكسوّة بالقماش الأزرق، مفاقماً الشعور بالخطر والتوتر الذي يسبق الاشتباك.

اتخذ الحكمان مكانيهما، أحدهما في المقدمة والآخر في المؤخرة.

ـ الفريق الأبيض: إيساو إينوما!

ما إن نودي باسمه حتى نهض ابن إينوما وجسمه مطوق بأدوات الوقاية، ومضى في خطى واسعة فوق الرمل الحار بقدميه الحافيتين، وانحنى انحناءة عميقة مليئة بالتوقير أمام الأرباب التي يضمها المزار.

لسبب أو لآخر ألفى هوندا نفسه يأمل في أن هذا الشاب سيفوز، ثم انطلقت الصيحة الأولى من وراء قناع إينوما، صيحة وحشية كأنها صيحة طائر استنشاط غضباً، وأحس هوندا، على حين غرة، بأن شبابه يرتد عائداً إليه.

كان قد حدَّث كيواكي ذات يوم بأنهما في أعوام مقبلة ومعهما دقائق مشاعرهما المرهفة التي لم يعد أحد يدركها، سيضمان في كتلة واحدة مع أعضاء فريق الكندو في التقدير العام لشباب عصرهما، وسيقول التاريخ إن يقيناً غراً سيطر عليهم جميعاً، والآن وقع كل شيء على نحو ما قاله. غير أن ما كان مدهشاً هو أن شعور هوندا حيال هذا اليقين الغر كان شعوراً بالحنين. وكان في مرحلة معينة من حياته قد شعر بأن «الأرباب الحمقى» أكثر جمالاً من الآلهة السامية التي كان يعترف بها على نحو غامض. وفي حقيقة الأمر فإن كهف الشباب الذي وصل إليه الآن اتفاقاً كان مختلفاً عما عرفه من قبل.

عندما مزقت تلك الصيحة الأولى الصمت بدا الأمر كما لو أن روح الشباب المتقدمة قد اندلعت خارجة من الصدع، وأمسك بناصيته من جديد الألم الحاد الذي كان يحسه في الأيام الخوالي عندما كانت ألسنة من اللهب الضاري تتقد في صدره، على الرغم من أنه كان ينبغي في عمره هذا أن يكون محصناً ضد هذا الألم.

وهكذا فالأمر قوامه أن الزمن يؤدي من جديد أغرب المشاهد وأكثرها

ارتباكاً مع ذلك داخل قلب الإنسان. والماضي يعاود الظهور بكل أحلامه وطموحاته المختلطة، وانطفاء البريق الرقيق للحماقة على نحو ما هو فوق صحفته الفضية. وعلى هذا النحو فإن الإنسان قد يصل إلى فهم أكثر عمقاً لذاته، وهو إدراك ما كان ليرقى إليه في يفاعته. ولو أن المرء راح يتطلع إلى قريته العتيقة من ممر جبلي بعيد، فإنه أياً كان تلاشي تفاصيل ذلك العهد من ذاكرته يغدو مغزى العيش هنالك جلياً على نحو بالغ الوضوح. وحتى التجويف المليء بماء المطر في الحجر الذي يكسو الميدان وقد كان مثيراً للإزعاج ذات يوم، يكتسب الآن جمالاً بسيطاً وجلياً فحسب فيما هو يتألق تحت أشعة الشمس.

في اللحظة التي صرخ فيها إينوما الشاب، معلناً تحديه، أدرك القاضي البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً أن هناك شيئاً مؤلماً يمزق صدر هذا الفتى، كأنما انغرس فيه رأس سهم وظل ثابتاً في موضعه. لم يسبق لهوندا أن حاول بهذه الطريقة قط أن يسبر غور ما جرى في فؤاد أي شاب ممن مثلوا أمامه في قفص الاتهام.

صرخ المنافس من الفريق الأحمر مطلقاً تحديه بوحشية، وحشايا حماية عنقه ناتئة قبالة كتفيه مثل خياشيم سمكة متضخمة.

لزم إينوما الشاب الهدوء الآن. واتخذ الاثنان وضع القتال وقد رفعا عَصَوَيْهما قليلاً، وتواجها على هذا النحو، ودارا دورة، ثم أخرى. وعندما تحول الفتى نحو هوندا لم تستطع الظلال المتواصلة المرتخية عن عوارض قناعه أن تحجب الحاجبين الأسودين البارزين والعينين المتألقتين وصف الأسنان البيضاء التي تألقت حينما صرخ بتحديه، ثم عندما أدار ظهره، نقل قفاه الذي حلق شعره تحت المنشفة المطوية على نحو مرتب أسفل مثبتات القناع الزرقاء، شعوراً بالقوة الفتية النقية.

ثم حدث فجأة اشتباك كأنه صدام مركبين تدفعهما أمواج عاصفة.

وتـألقت الرايـة المثلثة الـرشيقة المثبتـة عـلى ظهـر إينـومـا الشـاب، في سنى الشمس، وفي اللحظة عينها سمع هوندا صوت لطمة سـاحقة وقـد تلقاهـا الفتى المنتمي إلى الفريق الأحمر على قناعه.

دوى تصفير المشاهـدين، فقد أزاح إينـوما الشـاب أحد الخصـوم. الآن، وفيها هو يـواجه رجـلاً آخر من الفـريق الأحمر مقعيـاً أولاً ثم جاذبـاً عصاه سريعاً من وراء مقعدتـه، كانت رشـاقته المفعمـة بالحيـوية تقنـع المرء بـأنه يهيمن بالفعل على خصمه الجديد. وحتى بالنسبة لهوندا، بمعـرفته المحـدودة بالكندو، بدا تملك إينوما الشاب الكـامل لنـاصية فنـه جلياً، وأيـاً كان عنف الحركة فإنه يـظل ثابت الجنـان، رابط الجأش، عـلى الدوام، فـإن طريقتـه الخالية من المثالب في الوقوف أو الحركة كانت تثبت في الفـراغ كأنها نمـوذج تقليدي لكمال صيغ من قماش أزرق. وعـلى الدوام حـافظ على تـوازنه دون أن يعـوقه الثقـل المتشبث للهـواء. وعـلى الـرغم من أن الـطقس قـد يكـون حاراً بالنسبة للآخرين، فإنه بدا لإينوما عنصراً خفيفاً ومواتياً.

تقـدم خطوة إلى الأمـام بعيداً عن المنـطقة التي تحميهـا الظلة، وتـألقت درعه السوداء ببهاء السماء الصافية الممتدة فوقه.

تـراجع خصمـه خطوة. كـانت زرقة قميصـه وهاكـاماه المستخـدمين في ريـاضة الكنـدو شاحبـة ومرقشـة بفعل الغسيـل مرات عـديدة، خـاصة في المواضع التي احتكت فيها الوصلات التي تؤمن ثبات درعـه بظهـره لتشكل علامة متصالبة بالية. وفي هذا الموضع ألصقت راية متألقة الحمرة.

فيما تقدم إينـوما الشـاب خطوة أخـرى أدرك هونـدا الذي اعتـاد ناظـره المشهد التوتر المفعم بالوعيد الذي وشت به إطباقة القفـازات. بدا السـاعد الذي لاح للعيان بين الأطراف المتوهجة للقفازين وكمي قميصه عضلاً على نحو غير مألوف في شـاب في مقتبل العمـر كهذا، وقـد شدت الأوتـار تحت الجلد الفاتح اللون الذي يكسو العضوين. واستحال الجلد الأبيض لراحتي

القفازين إلى زرقة شاحبة بتأثير ظهريهما القماشيين، وهو لون له غنائية سماء وشّاها الفجر.

تحرك طرف العَصَوَيْن في حذر معاً مثل أنفي كلبين مهتاجين يواجه أحدهما الآخر.

صرخ خصمه في حنق:

- إي . . . ياه!

رد إينوما الشاب صارخاً بصوت رنان:

- آه . . . ري . . . ياه، آه . . . ري . . . ياه، آه . . . ري . . . ياه!

ضرب بعصاه يميناً ليوقف ضربة أهوى بها الآخر تجاه خصره، فدوت قرقعة تحاكي صوت مفرقعة نارية. ثم أطبق أحدهما على الآخر متصارعين وجهاً لوجه إلى حد التلاحم، ففصلهما الحكم.

لدى إعطاء الإشارة الرسمية لاستئناف الاشتباك انقض إينوما، دونما توقف لالتقاط أنفاسه، على خصمه كأنه زوبعة زرقاء، موجهاً هجوماً مزدوجاً في صورة ضربات على الرأس. وانهالت كل ضربة بقوة ودقة، وبزخم أكبر، وكان تأثيرها الإجمالي من القوة بحيث أن الفتى الآخر، بعد الانحراف يميناً ويساراً لتفادي الضربتين الأولى والثانية، تلقى الضربة الثالثة من تلقاء ذاته، وقد انهالت مباشرة على قناعه. ولوح كل من الحكمين برايتيهما البيضاوين، المثلثتين الصغيرتين، في اللحظة عينها.

وهكذا أزاح الرياضي الشاب خصمه الثاني، وفي هذه المرة ترددت صيحات التقدير إلى جوار التصفيق من جانب المشاهدين.

قال مدرب الكندو الجالس إلى جوار هوندا ملاحظاً بصوت توشّيه نغمة مصطنعة:

- كما ترى، فإن هذا هو أسلوب الضغط بقوة ودفع الخصم إلى الخلف

للإجهاز عليه، ولاعب الفريق الأحمر هناك كان يراقب طرف عصا لاعب الفريق الأبيض، وليس هناك أسلوب أفضل من هذا لخسارة اللقاء، فلا معنى لأن تحدق في عصا الرجل الآخر، وإن قمت بذلك أصابك الاضطراب العصبي.

وعلى الرغم من أن هوندا لم يكن يعرف شيئاً عن الكندو، على وجه التقريب، فقد أدرك أن هناك شيئاً يشبه النابض الملتوي في أعماق ذلك الفتى، يصدر عنه وهج قاتم الزرقة. وقد أفصحت قوة روحه عن ذاتها دونما أثر للاضطراب، وأياً كانت المقاومة فقد خلقت فراغاً في قرار تصميم خصمه، ولو للحظة واحدة. وكانت النتيجة أنه مثلما يجتذب الفراغ الهواء فإن نقطة الضعف هذه في الخصم إينوما تجتذب عصاه. وحدَّث هوندا نفسه بأن تلك العصا، إذ تدفع باقتدار تام، فإنها تخترق نطاق حذر أي خصم في يسرٍ ولوج المرء باباً مفتوحاً.

واجه المتباري الثالث من الفريق الأحمر إينوما متقدماً بحركة متمعّجة كأنما هو متردد، وقد رتبت حافة منشفته التي ثبتها القناع عبر جبينه، متعرقة ومائلة. فبدلاً من تكوين خط أبيض مستقيم عبر الجبين مالت إحدى الحافتين إلى أسفل، حتى كادت تمس عينه اليمنى. وقوّس ظهره قليلاً كأنه طائر غريب أخطأ القصد.

غير أن هذا الخصم كان رجلاً يعتد به، وكل انخفاض وارتفاع لعصاه يوحي بخصم شديد البأس، بعيد النظر. وشأن طائر ينتزع الطعم، ثم يندفع مسرعاً نحو الأمان، فإن هذا الخصم يتخذ لساعده هدفاً بعيداً، ويضرب في الصميم في معظم الأحوال، ثم ينسحب سريعاً ليطلق صيحة النصر، ولكي يدافع عن نفسه لا يتردد في استخدام أي أسلوب على الإطلاق، مهما كان شائناً.

وإذ ووجه إينوما الشاب بقرين من هذا النوع فقد بدت رشاقته ذاتها

التي تحاكي رشاقة نمر ينزلق في ثقة عبر الماء، قـابلة للعطب. وفي هـذه المرة بدا حسنه وحذقه، وكأنهما يحتمل أن يكونا مقتله.

قطع خصمه إيقاع الحركـة، وشرع يضرب باستمـرار على نحـو مراوغ، وقد قصد أن ينقل إليه عدوى ارتباكه وعدم التزامه بقاعدة محددة.

نسي هـوندا الحَـرَّ، بل إنـه كان قـد نسي السجائـر التي يحبها حبـاً جماً، وأدرك أنـه قد كف عن دس الأعقـاب في المنفضة المـوضوعـة أمـامـه. وفي الوقت الذي مد فيه يده ليمسد غـطاء المائـدة الذي تجعـد على نحـو سيء، ندت صيحة تنبيه عن الكاهن الجالس إلى جواره.

تطلع فرأى الحكمين معاً يلوحان برايتين متقاطعتين.

قال الكاهن:
ـ ذلـك كان من حسن الـطالع، فقـد أوشكت الضربـة أن تهـوي عـلى قفازه.

كان إينوما يحاول أن يصل إلى قرار في كيفية متابعة خصم يظل على مثل هذه المسافة. فما إن يخطو إلى الأمام خطوة حتى يتراجع خصمه. كـان دفاع ذلك الخصم حصينـاً،فهو يحمي نفسه في حـذق، ويواصـل الإلحاح والتشبث كأنه عشب بحري.

ثم عندما هاجم إينوما فجأة خصمه مطلقـاً صرخة صـاكّة، وردّ الخصم ضربته باستهزاء، وواجه أحدهما الآخر، ارتفعت عصا كل منهما إلـى أعلـى بـاستقامـة على وجـه التقـريب، وهي تهـتز قليـلاً، كـأنهما شراعـا مـركبـين متجـاورين، والتمعت درعاهمـا كهيكلي مـركبين يقـطران مـاء. ورغم أنهما خصمان فإن عَصَوَيْهما كانتا الآن متلاحمتين كأنما اتحدتا في توقير لسماء لا تمنح الأمل. الأنفاس اللاهثة، العـرق، العضلات المتـوترة، قـوة صراعهما التي

ضغطت مستحيلة إلى إحباط حارق. . . تلك كانت العناصر التي شكلت تناسقهما الذي أصابه الجمود.

وفيما كان الحكم يوشك على الهتاف داعياً لإنهاء هذا الوضع أقدم إينوما الشاب مستغلاً القوة التي حشدها خصمه ضده، على الانفلات فجأة في قفزة تراجعية سريعة مصحوبة بالدوي الراعد لعصاه وهي تهوي بلطمة نظيفة، وكان قد لطم صدر الخصم فيما هو يبتعد.

رفع الحكمان كلاهما رايتيهما، واندفع الجمهور في التصفيق بحماس.

أشعل هوندا سيجارة أخيراً فتوهجت في خفوت، ونارها تكاد تلحظها عين في فيض سنى الشمس الزاحف على المنضدة، وسرعان ما فقد اهتمامه بها.

تناثرت قطرات من عرق إينوما الشاب على التراب، عند قدميه، كأنها سكيبة من دم. وعندما نهض من إغفائه كانت هناك قوة عارمة في الطريقة التي امتد بها وترا كعبيه تحت الأطراف المتربة للهاكاما الزرقاء التي يرتديها.

ـ ٥ ـ

أحرز إيساو إينوما، لاعب الكندو الحائز المرتبة الثالثة، خمسة انتصارات متتابعة، وأنهى الجولة الأولى من اللقاء. وعندما اكتملت الجولة الخامسة والأخيرة في اللقاء أعلن المسؤولون فوز الفريق الأبيض، وبالإضافة إلى ذلك تقرر منح الكأس الفضي عن الجدارة الفردية لإينوما. وفيما هو يتقدم لتلقي جائزته كان قد جفّف عرق الاشتباك، لكن وجنتيه كانتا ما تزالان متوهجتين، وبدا عليه التواضع الهادىء الذي يليق بالفائز. ولم يستطع هوندا أن يستعيد ذكرى شاب أكثر رجولة منه.

أراد أن يتجاذب أطراف الحديث مع الفتى، وأن يستفسر عن حال أبيه، لكن الكهنة تعجلوا مصاحبته إلى مأدبة الغداء المقامة في مبنى مجاور. وخلال تناول الطعام التفت كبير الكهنة إلى هوندا قائلاً:

ـ أتودون سيادتكم أن ترقوا الجبل؟

تردد هوندا للحظة، فيما كان يتطلع إلى الفناء الممتد تحت رحمة الشمس المتوهجة.

أضاف الكاهن:

ـ لا يسمح، بالطبع، للزوار العاديين بقطع الشوط كاملاً، فما يقطع وراء موضع معين يعد عادة منطقة قاصرة على أولئك الذين محضوا الولاء لمزارنا على امتداد سنوات طويلة. والدخول إلى هناك يعتبر حقاً تجربة سامية، ويقول السادة الذين رتلوا الصلوات عند القمة، إن ذلك منحهم شعوراً مفاجئاً بكشف هائل للحجب يثير الذهول كأنما أصابت المرء لمعة من برق خاطف.

تطلع هوندا من جديد إلى سنى الشمس الصيفية المتألقة فوق الخضرة في الفناء. أيمكن أن يكون تكشُّف الحجب على مثل هذا القدر من التألق حقاً؟ أُثير خياله، وأحس بالميل إلى ما قيل له.

كان هوندا يرغب في اكتناه سر تتكشّف عنه الحجب، شريطة أن يكون من النوع الذي يمكن أن يزدهر في نور النهار الرائع فحسب. وهكذا، فإذا كان هناك سر سداه التألق فإنه سيستقبله مسروراً. وأما الظواهر العجائبية التي لا صلة لها بالواقع فليس لها إلا وجود ملتبس غارق في الظلال. ولكن أي سر يمكنه الحفاظ على كيانه تحت وهج الشمس الذي لا يرحم إنما هو سر جدير باحتلال مكانه إلى جوار المبادىء المعترف بها على نحو واضح. وكان هوندا على استعداد لإفساح مجال له في عالمه.

بعد راحة قصيرة أعقبت تناول طعام الغداء مضى أحد الكهنة الأصغر سناً بهوندا في طريق يمضي فيه القائمون بزيارة المزار. وبعد مسيرة استغرقت خمس دقائق أو ستاً صعداً لأرض مرتفعة هوناً، تكسوها خضرة موفورة، وصلا إلى مزار ساي، وهو المزار الملحق بحرم أوميوا. وكان اسمه الرسمي كانت أجمة أرز تحيط بالمزار الذي بدا متواضعاً، وقد كُسي سقفه بلحاء أشجار الأرز. ولاح الإطار المحيط به هادئاً للغاية، بحيث أن هوندا ساوره شعور بأن المعبود الذي يضمه المعبد قد لزم السكون. ووراء المعبد شمخت أشجار صنوبر حمراء اللون، مرتفعة فوقه، فجسدت بالنسبة لهوندا الساقين الطويلتين النشيطتين لمحارب قديم.

بعد تطهر هوندا تخلى عنه الراهب الشاب إلى رعاية دليل آخر هو رجل في حوالي الأربعين من العمر ينتعل حذاء مطاطي النعل، مما يستخدم في التسلق. وكان أسلوبه في التعامل مع هوندا يوحي بالتوقير والإجلال، وفيما كانا يوشكان على البدء بالتسلق الرسمي للجبل المقدس لاحظ هوندا أول سوسنة برية يصادفها في يومه هذا.

ـ هي ذي سوسنة أتصور أنهم سيقطفونها إذ إن مهرجان سايجوسا سيكون غداً.

ـ حقاً، يا سيدي، سيقطفونها. ولكنهم لن يجدوا ثلاثة آلاف سوسنة قط على هذا الجبل، ولذا فقد قاموا بالفعل بجمع السوسنات من كل المزارات القريبة من هنا، ووضعوها في الماء في حرم المزار، وسيقوم الشبان الذين خاضوا غمار لقاء اليوم بجر ملء عربة من السوسنات إلى نارا غدا كتقدمة مقدسة.

وعندئذٍ حُذِّر هوندا من أن مطر الأمس قد جعل الطين تحت الأقدام زلقاً، والتفت بحدة وشرع يرقى الجبل.

تشعبت مائة وادٍ على وجه التقريب من المنطقة المحرمة في جبل ميوا، ومن بينها وادي أوميا الذي ينفتح وراء المزار الرئيسي إلى الغرب. وبعد أن رقيا مسافة قصيرة استطاع هوندا رؤية المنطقة المحرمة ذاتها فيما وراء سور مزار ساي التابع لأميوا أراميتاما. وهنا كان الزوار يقومون عادة بشعائر التطهر قبل الإيغال في المسير صعداً عبر الجبل.
يقع إلى يمينه. تألقت جذوع أشجار الصنوبر الحمراء الشامخة هناك وسط خضرة متشابكة مثل العقيق تحت شمس الأصيل.

في داخل هذه المنطقة بدت الأشجار والسرخسيات وأجمات الخيزران الملتفة، بل وسنى الشمس المنسكب على كل شيء، بالنسبة لهوندا على الأقل، وكأنها تخلق مناخاً من النقاء والسمو. جعله اللون المتجدد للتربة عند جذور شجرة أرز، حيث أخبره الدليل بأن خنزيراً برياً كان يحفر، يفكر في القصص التي أتت على ذكرها كتب الحوليّات القديمة عن الأشكال الغريبة التي يمكن أن يتخذها الخنزير البري.

ومع ذلك لم يساوره، فيما هو يرقى الجبل المقدس، شعور قوي بأنه هو ذاته جبل إلهي، أو أنه ملاذ لكيانات إلهية. وإذ انزعج قليلاً لسرعة دليله

الكهل فقد اضطر إلى الإسراع لملاحقته، وأحس بالعرفان للأشجار الشامخة على امتداد الغدير الذي سار بحذائه، لأنها حجبت شمس الأصيل التي تفاقمت حرارتها الآن.

وعلى الرغم من أن الأشجار كانت تقي الدرب الشمس فإنه ازداد وعورة، وكانت هناك أشجار ساكاكي عديدة على الجبل، بل إن الأشجار الصغيرة كانت لها أوراق أعْرَضُ بكثير مما سبق لهوندا أن رآه في أي مكان آخر، وفي قلب خضرتها القائمة تألقت وفرة من البراعم. ازداد تيار الغدير سرعة، فيما هما يرقيان الجبل إلى أن وصلا أخيراً إلى شلالات سانكو. غير أن مشهد الشلالات كان نصف محتجب عند السفح لوجود مأوى لمن قدموا لأداء شعائر التطهر بالماء. وكان هوندا قد سمع عن مدى إظلام الغابات في هذه البقعة، ولكن بما أن سنى الشمس كان يتألق في كل ما حوله فإن الانطباع الذي تكون لديه هو أنه في قفص مجدول من نور.

من هذا الموضوع أفضى الدرب إلى القمة مباشرة، وكان ذلك هو الجزء الأصعب في ارتقائه، بما لا وجه معه للمقارنة بالأجزاء الأخرى. وإذ كان الطريق يتداعى فقد اضطرا للاستعانة بالصخور البارزة وجذور الصنوبر لتجاوز المقاطع المؤلفة من الصخور الزلقة التي تسد الطريق. وعندما كان هوندا يسمح لنفسه بالتشبث بأهداب الأمل في أن جزءاً سهلاً من الدرب سيمتد لبعض الوقت، كانت تلوح صخرة أخرى أمامها تحت وهج شمس الأصيل. غلله العرق، وشرع يلهث مختطفاً أنفاسه، وقد افترض أن القوة الساحرة لمثل هذه الإماتة للجسم المتسمة بالعنف هي التي تعد الإنسان للكشف عن حجب السر الذي يقترب منه. وذلك قانون إلهي حقاً.

أطل هوندا على وادٍ صامت تحفّ به أشجار صنوبر حمراء وسوداء قطر كل منها عشر أقدام، وشاهد صنوبرات ذاوية يحاصرها اللبلاب والأعشاب الملتوية، وكل أوراقها في لون الطوب الكابي، وشجرة أرز وحيدة في

منتصف صخرة ربط بعض الزوار حولها حبلاً مقدساً طويلاً، وقد استشعر مايوحي بقداستها، ووضعت تقدمات أمامها، وحوَّل بعض الأشنة أحد جوانب جذعها إلى لون أخضر برونزي. وكلما اقتربا من قمة الجبل المقدس بدت لهما كل شجيرة وشجرة متسمة بقداستها الخاصة، وكأنما أصبحت على نحو طبيعي معبودة.

قال الدليل دون أن يتأثر صوته بالتسلق الشاق:

ـ قليلاً من الجهد فحسب، يا سيدي، هي ذي القمة أمامنا، بمقدورك أن ترى مزار إيواكور وكونوميا.

فجأة، لاح الايواكورا ـ مقر الأرباب ـ عند نهاية المنحدر الماثل أمامهما. كانت قاعدته التي أحاط بها حبل مقدس عبارة عن تكوين صخري هائل وغير منتظم، ويبدو حاد الأطراف حيناً وسميكاً غليظاً حيناً آخر، مثل سفينة هائلة تحطمت مؤخرتها. ومنذ أقدم العصور تحدت هذه الكتلة الصخرية الإدراك، ولم تخضع للنظام العام قط، وظلت كتلتها صورة هائلة للفوضى الخالصة.

تداخلت صخرة مع أخرى لتشكلا الكتلة التي امتدت الآن مكسورة وممزقة. وتحتها امتد المزيد من الصخر في سطح عريض منساب إلى أسفل. وكان الانطباع الشامل الذي تعطيه هو انطباع، لا عن مقر الأرباب الهادىء، وإنما عما أعقب معركة أو شيئاً رهيباً، على نحو لا يصدق، ولكن ربما كان أي مكان يرتاده الأرباب من شأنه التعرض لتحول مماثل.

انهالت الشمس بسياطها دونما رحمة على الأشنة التي زحفت حول وجه الصخرة كأنها العدوى. ولكن، حسبما قد يتوقع المرء عند ذلك الارتفاع، كان نسيم منعش يداعب الغابة.

يقع مزار كونوميا الذي يعتلي قمة الإيواكورا على ارتفاع ١٥٣٤ قدماً فوق مستوى سطح البحر. وقد خفضت بساطة هذا المعبد الصغير من

الإطار البري الذي يوقع الرهبة في النفس ويحيط بالإيواكورا، وبرزت عروق الأخشاب الصغيرة المتقاطعة التي شكلت زاوية حادة فوق السطح الناتىء، عالية عن أشجار الصنوبر الخضراء المحيطة بها كأنها عُصابة عقدت في جرأة حول جبين محارب.

بعد أن انحنى هوندا إجلالاً جفف عرقه مستميحاً الدليل عذراً، وأشعل سيجارة، وهو أمر محظور في المنطقة، ومضى يجتذب الأنفاس في شراهة. لقد انقضت سنوات طويلة منذ وضع ساقيه في مثل موضع الاختبار هذا لآخر مرة. أما الآن، وقد اجتاز المحنة، فقد استمد غبطته منها، وألفى نفسه في رحاب سلام غابر. وفي قلب قداسة من هذا النوع، قداسة مترعة ببهاء وشوشة أوراق الصنوبر إذ يلامسها النسيم، وساوره شعور من لا يتردد في تصديق أي شيء.

فجأة عادت إلى ذهنه ذكرى زمان آخر، ربما من خلال طبيعة الأرض وارتفاعها، تذكر تسلق الجبال وراء دارة تشونج ـ نان، في كاماكورا، في يوم صيفي، قبل تسعة عشر عاماً. وكانوا قد لمحوا من بعيد تمثال بوذا الكبير في كاماكورا عبر الأشجار، وتبادل مع كيواكي نظرات عابثة في معرض التفكه، إزاء مرأى الأميرين الساميين وقد انحنيا إجلالاً لدى النظرة الأولى إلى بوذا. لن يساور هوندا مرة ثانية أبداً شعور بالميل إلى السخرية من مثل هذا الإظهار للإجلال.

في الفترات التي تخللت هبات الريح، عبر أشجار الصنوبر، كان الصمت يعود متسللاً. وتناهى إلى سمعه طنين نُعَّرة عابرة. واستقامت أشجار الأرز كأنها حراب دفعت نحو السماء المتألقة. كانت السحب دائبة في حركتها، وأشجار الكرز اكتست برداء سابغ من أوراقها متحولة إلى دراسة في الضوء والظل تحت أشعة الشمس. وساور هوندا شعور بالسعادة دون أن يعرف السر في ذلك، ووشَّت هذه السعادة لمسة من حزن يستعصي على التحويل، ولذعة خفيفة مؤلمة. ولا بد أن تلك كانت المرة الأولى التي يساوره فيها منذ سنوات مثل هذا الشعور.

لم يكن الهبوط يسيراً على نحو ما توقع، فحاول أن يستخدم جذور الأشجار لتثبيت قدميه، ولكن الطين المحيط بها كان زلقاً للغاية. وعندما بلغا أخيراً الدرب الذي تحفّ به الأشجار ويحيط بشلالات سانكو، ألفى هوندا قميصه وقد ابتل بالعرق من جديد.

ـ أتودون سيادتكم استخدام ماء التطهر؟ إنه منعش للغاية.

ـ ولكن لن يكون من الصواب الاستحمام بغرض الانتعاش. أليس كذلك؟

ـ على العكس يا سيدي، فحينما ينهمر الماء المتساقط من الشلال على رأس رجل فإنه يطهره. وذلك هو ما يجعل الأمر شعيرة دينية. ولذا ما عليك من ذلك بأس.

عندما ولجا حمى قاعدة الشلالات لاحظ هوندا ثوبين أو ثلاثة من أزياء الكندو متدلية من مسامير. فقد سبقهما البعض.

ـ إنهم الطلاب الذين كانوا يتبارون اليوم، يا سيدي. لسوف يقدمون زهور السوسن تقدمة غداً، ولا بد أنهم أبلغوا بضرورة القدوم إلى هنا للتطهر.

تجرد هوندا من ثيابه، باستثناء سرواله الداخلي، ودلف عبر الباب المواجه للشلالات.

امتد حبل مقدس عبر الشلالات سامقاً حتى قمتها حيث تألقت خضرة وفيرة في شمس الأصيل. هنالك في الأعالي تخايل الضياء والتلون في خضرة الأشجار والشجيرات التي تداعبها الريح، ورايات الشنتو البيضاء المتراقصة على امتداد الحبل، ولكن فيما كان هوندا يتطلع إلى أسفل غرق المشهد الممتد أمامه في الظل المعتم الذي ألقته الجدران الصخرية الشاهقة على الجانبين.

احتل مزار صغير لإله النار القوي كهفاً صخرياً إلى جوار الشلالات، وتحت السرخسيات والزهور الحرابية وأشجار الساكاكي التي ابتلت جميعها بالرذاذ، في العتمة الشاحبة عند سفحه. ولم يخفف من هذه الجهامة إلا

شريط الماء الأبيض المنهمر. وتردد صدى صوته منعكساً عن الجدران الصخرية المحيطة بهدير مدوٍّ.

وقف ثلاثة شبان في سراويليهم الداخلية جنباً إلى جنب، تحت الشلالات، والماء ينهمر في كل الاتجاهات على رؤوسهم وأكتافهم. وكان بمقدور هوندا سماع صوت اصطفاق الماء على لحمهم الغض القوي. وشاهد من خلال الرذاذ المتناثر اللحم المحمّر لأكتافهم المبتلة المتألقة.

عندما لاحظ أحد الشبان هوندا لكز رفيقيه منبهاً، وخطا الجميع متراجعين وهم ينحنون في تهذيب متخلين له عن الشلالات. وعندئذ تعرّف بينهم على إينوما الشاب.

تقدم هوندا إلى الأمام تحت الشلالات. ولكن الماء لطم جذعه بقوة ضارية بحيث تراجع مسرعاً. أقبل عليه إينوما الشاب ضاحكاً على نحو لطيف، حتى غدا بجواره، ورفع كلتا يديه ليوضح النحو الذي يمكن به الحد من قوة الماء المنهمر، ودفع بنفسه تحت الماء، ووقف هنالك للحظات قلائل متلقياً الماء المتحدر في عنف على راحتيه، ومباعداً ما بين أصابعه كأنه يحمل سلة زهور ثقيلة عالياً، ثم التفت إلى هوندا وابتسم.

أوشك هوندا على أن يحذو حذوه، عندما تصادف أن لمح جنب إينوما الشاب الأيسر، هنالك، وراء الحلمة، وفي موضع تخفيه الذراع عادة رأى تكويناً مؤلفاً من ثلاث شامات.

أخذته الرعدة، وحدَّق في ملامح الفتى الجريئة وهو يتطلع إليه ضاحكاً من تحت الشلالات وقد انعقد حاجباه في مواجهة الماء، وطرفت عيناه.

تذكر كلمات كيواكي التي قالها له في احتضاره: «سأراك من جديد، إني أعرف ذلك، تحت الشلالات»(١).

(١) لعل القارىء يتذكر أن تلك هي آخر كلمات كيواكي، بطل «ثلج الربيع» قبل موته، وبها انتهى الجزء الأول من الرباعية. (هـ. م.)

- ٦ -

تناهى نعيق ضفادع بحيرة ساروساوا وحده إلى غرفة هوندا الهادئة في فندق نارا، فيما هو ينفق ليله مسهداً غارقاً في التفكير والوثائق القانونية على القمطر أمامه لم يمد إليها يداً.

تذكر أنه غادر معبد أوميوا مع مقدم المساء، وصادف عربة مثقلة بزهور السوسن، فيما كانت سيارته تجتاز حقول الأرز المتقدة بوهج الشمس الغاربة. تراكمت السوسنات البرية على العربة، وثبتت في موضعها بحبل مقدس، وقد تألق لونها الأحمر الوردي الشاحب كأنها قطفت لتوها في نداوة الفجر. وراح طالبان لفا قبعتيهما المدرسيتين بعصابتي رأس بيضاوين يدفعان العربة، فيما كان طالب آخر يجرها من الأمام. وسار كاهن بملابس بيضاء في مقدمة الركب، ممسكاً بصولجان التطهير الذي تدلّت منه الرايات الورقية. وكان الطالب الذي يجر العربة هو إينوما الشاب، وما إن لمح هوندا في السيارة حتى توقف ورفع قبعته محيياً، وحذا رفيقاه حذوه.

منذ وصل هوندا إلى اكتشافه العصيّ على التصديق، تحت الشلالات، لم يستطع استرداد توازنه، وبمشقة تبين المجاملات العديدة التي استقبله بها كهنة المعبد عقب ذلك. وعندما صادف مجدداً الطلاب الثلاثة بتقدمتهم من زهور السوسن، وعصابات رأسهم البيضاء المتألقة في وهج الغروب وقد انعكست على سطح ماء حقول الأرز، ازداد إغراقاً في التفكير. فمن المؤكد أن الشاب الذي خلّفه في الغبار الذي أثارته عربته المسرعة، وعلى الرغم من الخلاف في الملامح والبشرة، هو من حيث الكيان الجوهري كيواكي لا شخص آخر.

ما إن انفرد هوندا بنفسه في الفندق حتى حاصرته الفكرة القائلة بأنه منذ ذلك اليوم فصاعداً فإن عالمه سيتغير، على نحو مفاجىء. مضى من نُقْره إلى قاعة الطعام، ولكنه تناول عشاءه كأنما هو في غيبوبة ذهنية، وعاد إلى غرفته. كانت أغطية الفراش المرتب حديثاً قد طويت لتشكل مثلثاً أبيض بديعاً. وشأن صفحات كتاب مفتوح تألقت في ضوء مصباح المنضدة الخافت.

أضاء المصابيح كافة محاولاً عبثاً إبعاد اللغز، فقد غزا العجائبي عالمه المنظم، ولم تكن لديه أدنى فكرة عما قد يقع في المستقبل. وفضلاً عن ذلك، وعلى الرغم من أنه رأى أعجوبة التناسخ بعيني رأسه إلا أنه سر لن يكشف النقاب عنه قط، ذلك أنه لو حدَّث أحداً بالأمر لظنَّ به الجنون على الفور، ولانتقلت الشائعة من فم إلى فم بما مؤداه أنه لم يعد مؤهلاً للجلوس مجلس القضاء.

ومع ذلك فإن للغز منطقه الخاص، فتماماً كما قال كيواكي قبل ثمانية عشر عاماً: «سأراك من جديد، إني أعرف ذلك، تحت الشلالات»، قابل هوندا حقاً تحت الشلالات شاباً على جنبه ثلاث شامات بالشكل ذاته. وعادت إليه ذكرى ما كان قد قرأه عن ضروب الوجود الأربعة المتوالية في الكتب التي تتناول البوذية التي درسها بعد موت كيواكي متبعاً تعاليم رئيسة معبد جيشو. ولما كان إينوما الشاب في الثامنة عشرة من عمره فإن سنه تتناسب مع كونه تناسخاً لروح كيواكي.

وضروب الوجود الأربعة التي تشكل مسيرة كل كائن مدرك هي الحمل، الحياة، الموت، وفترة وجود وسيطة، حالة تقع ما بين حياة سابقة وتناسخ تالٍ. وهذه الفترة تصل إلى أسبوع في أقصر أشكالها، ويمكن أن تمتد إلى فترة تصل إلى سبعة وسبعين يوماً. ولم يكن هوندا، بالطبع، على علم بتاريخ ميلاد إينوما، ولكن من الممكن إجمالاً أن يكون ميلاده قد تم في فترة

تمتد من أسبوع إلى سبعة وسبعين يوماً من موت كيواكي في صـدر ربيع عام ١٩١٤ ، أي العام الثالث من عهد تايشو.

وتقـول الأدبيات البـوذية إنـه في هذه الحـالة الـوسيطة يـوجد المـرء، لا باعتباره كياناً روحياً فحسب، وإنما في هيئـة طفل واع تمـاماً في الخـامسة أو السادسة. غير أن كل القـوى العاديـة تبلغ الآن ذروتها عـلى نحو مـذهل، فـالعين والأذن تصبحـان حادتـين على نحـو لا يصدق، فيسمـع المرء أبعـد الأصوات، ويرى أشد الأشياء خفـاء، وهو يـوجد فـوراً حيثما يـريد. وإذا أوتيت هذه الشخوص الطفولية هذه القـدرات، وعلى الـرغم من احتجابهـا عن عيـون البشر والحيـوانـات، فـإنها يمكن أن تـرى محلقـة في الهـواء، من جانب صاحب التكشف النادر الذي حقق القدر الكافي من النقاء.

يتغذى هؤلاء الأطفال الخفيون على عرف البخور المتقد، فيما هم يمضون في رحلاتهم العجلى في الهـواء. ومن هنا فـإن هذه الحـالة الـوسيطة تُعـرف كذلك بـ «السعي وراء عرف البخور» شـأن الكيانـات القدسيـة التي يطلق عليها في اللغة السنسكريتية اسم «جاندارفا».

وفي غمار التحليقات الـواسعة النـطاق التي يقوم بهـا مثل هـذا الطفـل، يصادف المشهد الغلاّب لأبيه وأمـه المستقبلين وهمـا منهمكان في المضـاجعة. أما الطفل فيفتنه العُـري المتجرد من الحيـاء الذي يتبـدى برحم أمـه، ومع ذلك، ورغم اتقاده بالرفض نحو الرجل الذي سيغدو والداً له، فإنه بمجرد أن يقوم هذا الرجل بفعل القذف الدنس تتملك الطفل نشوة مهتاجة، كـما لو كان هو الذي نزا، ويتخلى عن وجـوده الحر ليتلبس بـالحياة داخـل رحم المرأة، وهذه اللحظة هي المرحلة التالية في الوجود.

هكذا كان التفسير البوذي للتناسخ. وقد نظر إليه هونـدا، بالـطبع، في وقت من الأوقات باعتباره مجرد حكاية خـرافية، والآن عـادت بكاملهـا إلى ذهنه فجأة. حدَّث نفسه بأنه من المؤكد أن هذه العمليـة هي ماهيـة اللغز:

شيء يتجلى، على نحو تعسفي، مستقلاً عن رغبات أي إنسان. هبة خطرة، وكمجال متألق من ألوان لا تفتأ تتبدل، تقبل مندفعة في قلب البرد، ولكنها هيكل منتظم من النظام والعقل. حقاً إن ألوانها تتغاير بحسب مبدأ، ولكنه مبدأ مختلف تمام الاختلاف عن العقل البشري. ومن هنا فإن هذا المجال يتعين على نحو يحجب عن عيون البشر.

وسواء أَقَبِلَ هوندا الإقرار به أم لم يقبل فإن اللغز بدَّل على نحو لا رجعة فيه نظرته. ولا سبيل له إلى الخلاص من هذا الأمر. وربما كان خير سبيل هو العثور على حليف، شخص ما يشركه في السر. فهناك، على سبيل المثال، إينوما الشاب نفسه، ثم هنالك كذلك والد الفتى. ولكن ما الذي يضمن له أن أياً منهما يدرك وجود هذا اللغز؟ ربما كان شيجيوكي إينوما الذي لا بد أنه تصادف أن رأى كيواكي عارياً، قد أدرك أن العلامة التي تعلو جنب ولده تشبه على نحو ملحوظ العلامة التي كانت لسيده الشاب. وحتى إن كان الأمر كذلك فقد يرغب في إخفاء هذا الموضوع. فكيف لهوندا أن يسأل الأب والابن عن مثل هذا الأمر؟ ألن تكون مجرد المساءلة ذاتها عملاً لا يحسن القيام به؟ وإذا كانا على علم بوجود اللغز فهل سيبديان الاستعداد لمشاركته سرهما؟ لئن رفضا فإن السر قد يثقل عليه طوال عمره.

من جديد أحس هوندا بأنه يسري في عروقه ذلك الانفعال الحاد الذي جلبه كيواكي إلى شبابه. وعلى الرغم من أن هوندا لم يحس بالتوق قط إلى مبادلة حياته لقاء حياة أي شخص آخر فإن الجمال القصير العمر الذي تألقت به حياة كيواكي، شأن البراعم الرقيقة على غصن مزهر، بدا مرتبطاً بحياته هو، الشجرة التي أمدته بالنسغ المطلوب طوال تلك السنوات القلائل. وهكذا، فإن حياة هوندا استمدت معنى من حياة كيواكي، بعد أن أزهرت بجمالٍ ما كان لها أن تحرزه قط. ترى هل يمكن أن يقع هذا من جديد؟ وما هو معنى تناسخ روح كيواكي؟

رغم أن هوندا ضاق صدره بالألغاز التي أحاطت به، إلا أنه أحس بدبيب النشوة في أعماقه وكأنها نبع خفيّ يتفجر في الأعماق. ها قد دبت الحياة من جديد في كيواكي! وبرعمت الشجرة التي اجتثت في ريعانها، من جديد. قبل ثمانية عشر عاماً كان وكيواكي في شرح الشباب. أما الآن فقد مضى شبابه، لكن شباب صديقه تألق ببريق لم يعرف النقص سبيلاً إليه.

لربما يفتقر إينوما الشاب إلى حسن كيواكي، لكنه عوّض ذلك ببأس الرجولة الذي كان كيواكي يفتقر إليه. وعلى الرغم من أن هوندا ما كان بوسعه الوصول إلى رأي قاطع في مثل هذه المعرفة المحدودة، إلا أنه بدا له أن إينوما الشاب يحظى، بدلاً من صلف كيواكي، بالبساطة والجلد، وهما صفتان لم يفصح كيواكي عنهما. كان الاثنان مختلفين اختلاف النور والظل، ولكنهما اشتركا في خاصية مميزة، فكلاهما يجسّد، على نحو مذهل، ريعان الشباب.

عندما فكر هوندا في هاتيك السنوات التي أمضاها مع كيواكي، ساوره مزيج من الأسى والحنين، لكنه شعر الآن بدفقة أمل غير متوقعة. سيتعين عليه أن يدفع ثمن الانفعال الحاد الذي يتصاعد من قرارة نفسه، ولكنه على استعداد للقيام بذلك دونما شعور بالندم، ومهما كانت قسوة النتائج المترتبة على التزامه بالعقل الذي لم يكن يعرف الالتواء يوماً.

وما أغربه من تحول في مسيرة الأقدار، إذن، أن يكتشف البعث الذي لا يصدق لكيواكي في نارا، ذلك المكان المرتبط على نحو بالغ الحميمية بذكرياته عن صديقه!

حدّث نفسه قائلاً:

ـ سأنتظر حتى الصباح، ولكن هناك شيئاً يتعين عليّ القيام به قبل التوجه إلى مزار إيزاجاوا. سآمر سائقي بالانطلاق بي إلى أوبيتوكي للقيام

بزيارة صباحية باكرة للدير. سأعتذر لساتوكو عن عدم مجيئي لرؤيتها في السنوات الممتدة منذ موت كيواكي، ثم أحدثها عن تناسخ روحه، حتى وإن لم تصدق الأمر. ينبغي أن تكون أول من يعلم، إنها الآن رئيسة دير جيشو بعد وفاة الرئيسة السابقة، وقد سمعت بأنها تحظى بأعظم الإجلال والتوقير، وربما لم تمسها يد السنون إلا قليلاً، وسيكون بمقدوري رؤية وجهها الجميل يضيء بالفرح.

ساوره لبعض الوقت شعور باندفاع الشباب. غير أنه، في نهاية المطاف، قرر معتصماً بالحكمة أن يكبح جماح تلك الفكرة العجلى.

مضى يحدِّث نفسه قائلاً:

ـ لا، لا ينبغي عليَّ القيام بذلك. فهي في نهاية المطاف لم تقم حتى بشهود جنازته. لقد اتخذت قرارها بأن تضرب عن الدنيا صفحاً، وليس لي الحق في إزعاجها. وأياً كان عدد مرات تناسخ روح كيواكي فإن ذلك لن يعني شيئاً لها، وسيكون على الدوام أمراً حدث في عالم الوهم الخادع الذي هجرته. وأياً كان مدى صدق البرهان فإنها ستضرب عن الأمر صفحاً، في برودة. قد يكون الأمر بالنسبة لي معجزة، لكن المعجزات لم يعد لها وجود بالنسبة لساتوكو، في العالم الذي تحيا في رحابه الآن. ولا جدوى لأن يحملني الانفعال فيما يتعلق بهذا الأمر بعيداً، لن أمضي لرؤيتها. لئن كان هذا التناسخ الغريب عملاً من أعمال العناية الربانية فما من حاجة تدعوني إلى التعجيل بمقابلتها، لسوف تطرأ مناسبة أقابلها فيها، ومن الخير أن أنتظر وأدع الأمور تجري في أعنتها.

بعد التفكير في هذا كله ألفى النوم لا يزال أكثر نأياً عن جفونه، وغدا دفء وسادته وغطاء فراشه قاهراً، فتخلى عن كل أمل في أن يحظى براحة ليلية تنعش النفس.

شرعت النافذة في الابيضاض. تألق في اللوح الزجاجي المحاط بإطار منحوت على طريقة مومو ياما انعكاس مصباح هوندا الليلي كأنه قمر فجري. وفي خلفية من النور الخافت المنهل من السماء، كان بمقدوره أن يتبين ملامح معبد كوفوكو ذي الطوابق الخمسة، وهو يشمخ عالياً وراء أجمة من الأشجار تلتف حول بحيرة صغيرة. لم يبد جلياً إلا الطوابق الثلاثة العليا والقمة المستدقة التي رفعت بنفسها عالياً إلى رحاب الفجر. وفيما راح يحدق في المعبد الذي لم يكد يتجاوز كونه ظلاً في ركن من السماء الرمادية، ساوره شعور بأنه لم يستيقظ إلا ليدلف إلى رحاب حلم آخر، شأن رجل يحسب أنه أفلت من قبضة لون من الضلال ليجد نفسه أسير لون آخر أشد إغواء. على هذا النحو أثّر المعبد في نفسه ـ الانحناء المراوغ لتلك الطوابق الثلاثة العليا ـ كأنه صورة تمثل حلماً متعدد المستويات. بدا أن غمامة دخانية تنهض من الطابق الأعلى لتنداح عبر الحلقات التسع المحيطة بالقمة المستدقة، صعداً من خلل الشكل اللهبي عند القمة، لتتلاشى في رحاب السماء التي كساها الفجر. وحتى فيما كان هوندا يرقب حدوث هذا كله لم يكن على يقين من يقظته، ورغم كل ما يعرفه فإنه ربما كان في قلب حلم آخر، حلم بالغ الحيوية، بحيث أن أشد ضروب الإدراك لَماحية ما كان بمقدورها تمييزه عن الواقع.

غدا شدو الطيور أعلى صوتاً. فجأة، خطر له أن الأمر لا يقف عند عودة كيواكي إلى الحياة فحسب. ألم ينهض هوندا نفسه من رحاب الموت؟ من الموت المتجلي في روح عمّتها البرودة، في نظام متصلّب كأنه ملف غصّ بآلاف الأوراق، في كبح الجماح المضجر بالقول: لقد مضى الشباب؟

قد يرجع الأمر، على وجه الدقة، إلى أن حياته تربصت بها، إلى حد بعيد، حياة كيواكي، ودفنت معها بعمق، بحيث أن الحياة تستعاد الآن إلى

هـوندا بـدوره، تمامـاً كما تنـير خيوط الفجـر الأولى غصن شجرة ثم الـذي يليه.

هنا شعر هوندا بـارتياح غـريب، واستسلم للنوم كـأنه يهـوي في رحاب إغماءة قصيرة.

- ٧ -

استيقظ هوندا منتفضاً وقد أدرك أنه نسي أن يطلب إيقاظه. ولدى وصوله إلى مزار إيزاجاوا كان طقس مهرجان سايجوسا المقدس قد بدأ بالفعل. شق طريقه منحنياً عبر الجمع الصامت إلى المقعد المخصص له تحت المظلة، وجلس في هدوء دون أن يتطلع حوله، وثبت نظرته على الاحتفال الجاري أمامه.

كان مزار إيزاجاوا في نارا ذاتها، غير بعيد عن محطة السكك الحديدية. وعند مؤخرة تخوم المعبد انتصبت ثلاثة مزارات، يضم الأوسط منها الربة هيميتا تارايسوزو، وإلى كل جانب من جانبيها، وكأنما لحمايتها، قبع أبوها والربة أمها، وما كان أبوها إلا المعبود الرئيسي لمعبد أوميوا. وأحاط حاجز قرمزي بالمباني الثلاثة الصغيرة البديعة الطراز التي ربطتها معاً قواطع أسدلت الستر عليها، وزخرفت بلوحات تصور أشجار الصنوبر والخيزران، نفذت بلوني الفيروز والذهب السخيين.

كان هناك أمام كل مزار درج مؤلف من ثلاث درجات حجرية كنس عنها كل دنس، ثم للوصول إلى باب المزار ذاته يتعين على المرء أن يرقى عشر درجات خشبية. بدت الرايات الورقية البيض المتدلية من الحبل المقدس، عند الطنف، وكأنها تبرز مثل شظايا من عاج نقي في مواجهة الحاجز القرمزي والتدعيم الثلاثي المنقط بالأصفر والذهبي، في ظل السقف المعتم.

كانت حصر جديدة قد فرشت على الدرجات الحجرية بمناسبة الطقس الذي يقام اليوم، وشذب حصى الفناء ليندرج في نمط منتظم. وإلى ناحية

الأرباض الأمامية كانت هناك القاعة الخارجية للمزار ذات الأعمدة القرمزية، بهو معمد مفتوح جلس فيه الكهنة وموسيقيو المعبد على الجانبين. وعبر هذا البهو سيتابع المصلون الاحتفالات.

شرع كاهن بالفعل في القيام بطقس التطهير، وصلصلت الأجراس الثلاثة الصغيرة المتصلة بقاعدة فرع مقدس ضخم، فيما هو يلوِّح به فوق الرؤوس المنحنية للجمع. بعد انتهاء الصلاة تقدم كبير كهنة مزار أوميوا حاملاً مفتاحاً ذهبياً يتدلى من حبل قرمزي نحو المزار الأوسط، وركع على الدرجات الخشبية ونصف ظهر ردائه الأبيض في سنى الشمس، والنصف الآخر في الظل. وفيما هو راكع ردد الكهنة المساعدون إلى جانبه آهة طويلة منغمة، ثم ارتقى الدرجات ودفع المفتاح في قفل أبواب المزار وفتحها بمزيد من الإجلال فتألقت من الداخل المرآة المقدسة ذات اللون الأرجواني، وراحت الآلات الموسيقية الوترية تردد تموجاً متكرراً يوشك زخمه أن يثير الضحك لغرابته.

بسط الكهنة المساعدون حصراً جديدة أمام المزار، ثم بالاشتراك مع كبير الكهنة نفسه حملوا قرابين مغطاة بأوراق السنديان إلى مائدة مصنوعة من خشب يكسوه اللحاء، تدلت عليها الرايات الورقية البيضاء. والآن بدأ أجمل أجزاء مهرجان سايجوسا.

ستتمثل التقدمات التي تلي ذلك في برميل خشبي مترع بالساكي الأبيض، وجرة فخارية مليئة بالساكي الأسود، وقد زخرف كل منهما على نحو جميل. كان البرميل من خشب عادي، والجرة ليست مزجّجة ولكنهما معاً غطيا تماماً بزهور السوسن فلاحا كباقتين من الزهور. وهكذا فإن جسم البرميل الخشبي لفَّته تماماً السوق الخشنة لزهور السوسن التي ربطت بحبل جديد من القنب الأبيض. ولما كانت سوقها قد شكلت مثل هذا الجراب المحكم فإن الزهور والأوراق والبراعم رفعت كلها معاً في كتلة مشوشة

مختلطة. وتميزت البراعم الحمراء المخضرة بقوة وليدة، وكان هناك أثر من الخضرة ما يزال باقياً، حتى في الزهور التي بلغت أوج تفتحها، والتي وشيت بتلاتها بلون أحمر وردي رقيق، ورقشت أسطحها الداخلية باللون الأحمر، وأما أطراف بتلاتها التي انحنت إلى الوراء في اضطراب بالغ، فكانت نصف شفافة في سنى الشمس. وإذ التمّت السوسنات في مثل هذه الكتلة فقط بدت منكسة الرؤوس.

اختيرت السوسنات الأجمل من زهرات السوسن البالغ عددها ثلاثة آلاف زهرة برية، وقد جلبها إينوما الشاب ورفاقه لتجميل البرميل الخشبي والجرة، ولكن باقي الزهرات بدت بدورها جلية على نحو متألق، وقد رتبت في مزهريات أمام المزارات. كانت السوسنات في كل مكان، وحمل النسيم عبقها، وكانت موضوعة السوسنات ملحّة، ولا مفر منها، كأنما غدت زهور السوسن تعبيراً عن جوهر الحياة ذاته. والآن تقدّم الكهنة بالبرميل الخشبي والجرة الفخارية. كانوا يرتدون ملابس بيضاء، وقد اعتمروا أغطية رؤوس احتفالية سوداء، وفي جلال رفعوا هذه التقدمات عالياً، واهتزت السوسنات المربوطة في بهاء فوق رؤوسهم. وبدا برعم سوسنة ذات ساق طويلة على نحو خاص شاحباً كأنه شاب متوتر يوشك أن يسقط مغشياً عليه.

ملأ نواح النايات الهواء، ونبضت الطبول بالإيقاع. وبدت زهور السوسن التي وضعت أمام حجر أسود وكأنها تمج اللون القرمزي. جثم الكهنة إلى جوار البرميل الخشبي والجرة، وباعدوا ما بين سوق السوسنات، واغترفوا الساكي. اقترب كهنة آخرون ليتلقوه في أوعيتهم الخشبية الخشنة، ثم رفعوها تقدمة أمام كل مزار. بدا هذا الطقس بما صاحبه من موسيقى متسقاً تماماً مع روح مأدبة الآلهة المرحة. وداخل رواق المزار أثارت ظلال الظهيرة شعوراً متزايداً، على نحو غامض، بنشوة ربانية.

في غضـون ذلك شرعت مجمـوعة من «الميكـو» مؤلفـة من أربـع فتيـات حسناوات في أداء رقصة الأرز في القاعة الخارجية. كانت رؤوسهن مربوطة بـأوراق أشجـار الأرز، وشعـرهن الأسحم مضفـور بـورق أبيض وأحمـر، مثبت بخيط ذهبي. وفوق هاكاما قرمزية شاحبة كن يرتدين ثياباً رقيقة نقية البيـاض، وقد زخـرفت بوريقـات أرز فضية. كشفت الأرديـة الخمسة التي يرتدينهـا تحت الرداء الأبيض عن نفسهـا، عند خط العنق، في نمط زخـرفي يراوح بين البياض والحمرة.

ظهـرت الفتيات الأربـع وسط زهور السـوسن، سـوسنـات انتصبت في مـوضعها وقـد تفتحت بتلاتهـا، وبرزت أعضـاؤهـا الـذكـريـة ذات اللون العنبري. وأمسكت كل من هذه «الميكو» بدورها حزمة من زهـور السوسن في يدها. وفيما عكف الموسيقيون على العزف شكلت الفتيات مربعاً وجوههنّ إلى داخله، وشرعن في الـرقص، وبـدأت سـوسنـاتهن في الاهــزاز بـزخم مخيف، وانطلق الرقص فكنت ترى السوسنات الآن ترتفع في رشاقة وتهوي لتلتقي معاً، ثم تفترق من جديد. ومراراً وتكراراً، شأن انقضاضات نصل سيف مــرهف، تشق الهـواء حــافـة من بيــاض. وفيـما الفتيــات يهـوين بالسوسنات على هذا النحو، راحت الأخـيرة، فيما يبـدو، تذبـل تدريجيـاً، وقد عوملت بقسوة على الرغم من كل التألق الهادىء للموسيقى والرقصة.

فيـما كان هـوندا يتـابع الـرقص أحس بلون من النشوة يسيـطر عليه. لم يكن قـد شاهـد من قبل قط مثـل هذا الـطقس الجميل. وجعلت تـأثيرات ليلته التي أمضاها مسهّداً المشهد يفتقر للوضوح، وشرع مهرجـان السوسن الذي يشاهده الآن في الاختلاط بلقاء الكندو الذي شهده بالأمس. وغدت سوسنات الفتيات عصياً من الخيـزران، ثم في لحظة أخـرى أنصال سيـوف تأتلق. وفيما «الميكـو» يدرن بـرشاقـة لدنـة في سنى الشمس أصبحت ظلال أهدابهن الطويلة عـلى خدودهن التي نـثر عليها الـذرور الأبيض، أصبحت

بالنسبة لهوندا، الظلال التي تلقيها عوارض أقنعة الكندو.

بعد أن رفع الضيوف وغيرهم من المصلين غصون الساكاكي المثبتة بها الرايات، في إجلال، أمام المزار، أوصدت الأبواب من جديد. وبحلول الظهيرة كان الطقس قد انتهى.

تقرر أن تقام «الناوراي»، أو المأدبة المقدسة التي تعقب إقامة الطقس المقدس، في القاعة المجاورة. دنا كبير الكهنة من هوندا مع رجل في أواسط العمر أراد أن يقدمه إليه. وما إن رأى هوندا إينوما الشاب يسير معتمراً قبعته المدرسية، خلف هذا الرجل، حتى أدرك أنه ليس إلا شيجيوكي إينوما، ذلك أن شارب إينوما الرفيع قد غيَّر شكله فلم يتعرفه هوندا للحظة.

قال إينوما:

ـ لا بد أنك السيد هوندا. يا للذكريات التي يعيدها هذا اللقاء! هل انقضت تسع عشرة سنة حقاً؟ لقد حدثني ولدي إينوما عن الأمس ومدى عطفك عليه. يا له من انعطاف غريب في مسيرة القدر!.

انتزع إينوما مجموعة من بطاقات الزيارة من جيبه، والتقط إحدى بطاقاته وقدمها إلى هوندا. وفيما هو يقرأها لم يملك هوندا بحساسيته الشديدة، إلا أن يلحظ أن أحد أطراف البطاقة متسخ قليلاً ومتن:

الأكاديمية الوطنية
شيجوكي إينوما
العميد

تمثل ما باغته في معلم كيواكي القديم من ثرثرته وأسلوبه الصريح، الأمر الذي يختلف تماماً عما درج عليه إينوما الذي يتذكره هوندا. فقد كان قبل سنوات مختلفاً تماماً، وفيما نظر إليه هوندا، عن كثب، أدرك أن هناك

أشياء تتعلق به ظلت على حالها دونما تغير: الشعر الخشن الذي يكاد يبدو عند عنق كيمونوه، كتفاه المربعتان، العينان القاتمتان الشاردتان بميلهما إلى التذبذب. غير أن مظهره الخارجي اختلف تمام الاختلاف.

قال إينوما بعد أن قرأ هوندا بطاقة زيارته:

ـ عفواً لمخاطبتي لك بمثل هذه الألفة! من المؤكد أنك أحرزت مرتبة سامية. والحقيقة أن شهرتك لفتت نظري منذ بعض الوقت، لكنه بدا أن من الغلظة، بالنسبة لشخص مثلي، أن يفرض نفسه على معارفه القدامى، ولذا كبحت جماح نفسي. والآن، فيما أنظر إليك، لا يبدو أنك تغيرت أقل التغير. ولو أن السيد الشاب كان حياً لكنت أكثر أصدقائه تمتعاً بثقته. على أية حال، فقد برهنت، فيما أتيح لي أن أعرف فيما بعد، على عمق صداقتك له، بما فعلت من أجله، وأشاد الجميع بك.

ساور هوندا، وهو يصغي لهذا الحديث، شعور بأنه كأنما يتعرض لسخرية هينة، وخطر له أن إينوما ما كان ليتحدث بمثل هذه الصراحة عن كيواكي لو أنه أدرك تناسخ روح سيده الشاب في شخص ابنه. ثم من المحتمل، من ناحية أخرى، أن صراحة إينوما البادية كانت وسيلة لانتزاع زمام المبادرة، وتحذير هوندا من عدم التدخل في أمر هذا اللغز.

مع ذلك، فحينما تطلع هوندا إلى إينوما في هاكاماه المجعدة، وإلى إيساو الشاب الواقف وراءه، لم يستطع إلا رؤية واقع الحياة اليومية. كان وجه إينوما قد وسمته يد السنون والمحن المألوفة. وكانت رائحة الوجود اليومي من القوة بحيث أن الأفكار الضارية التي طاردت هوندا من رحاب أحلام البارحة، لم تبد إلا خيالاً وحشياً، فشرع في التساؤل عما إذ كانت الشامات التي رآها على جنب إيساو ليست إلا خداعاً بصرياً.

مع ذلك، ورغم الطابع العاجل للعمل الذي كان في انتظار هوندا في

ذلك المساء، فقد وجد نفسه يسأل إينوما:

ـ حتّام تبقيان في كانساي؟

ـ أخشى أنني سأستقل القطار عائداً إلى طوكيو الليلة.

ـ ذلك أمر مؤسف.

وبعد تفكير دام لحظة طرح هوندا قراره:

ـ ما قولك في هذا؟ قبل أن ترحل الليلة ألا تتناول وولدك العشاء في داري؟ إنها فرصة نادرة تتاح لنا لتجاذب أطراف الحديث على مهل.

ـ إنك تشرفني كثيراً، ما كنت لأستطيع التفكير في فرض نفسي وولدي على كرم ضيافتك.

التفت هوندا مباشرة إلى إيساو:

ـ سيكون ذلك مصدر سرور لي. لا بد أن تأتي ووالدك. هل ستعود بالقطار نفسه إلى طوكيو؟

ـ نعم يا سيدي!

قالها إيساو وقد كبح جماحه إلى حد ما وجود أبيه.

غير أن إينوما قال في تلك اللحظة إنه سيقبل دعوة هوندا الرقيقة، ووعد بأنه بعد القيام ببضع مهام في أوساكا سيحضران كلاهما إلى داره في ذلك المساء.

ـ كان ولدك رائعاً، بالأمس، في لقاء الكندو. من المؤسف أنك لم تستطع الحضور، كان أداء يأخذ بالألباب.

قالها هوندا وهو يراوح النظر بين الأب وولده.

في هذه اللحظة، على وجه الدقة، دنا منهم عجوز ناحل، وإن كان منتصب القامة، يرتدي ملابس غريبة الطراز، وبصحبته امرأة بالغة الجاذبية في حوالي الثلاثين من عمرها.

همس إينوما في أذن هوندا:
ـ إنه القائد كيتو وابنته.
ـ تقول القائد كيتو؟ الشاعر؟
ـ نعم، نعم، ذلك صحيح.

حل التوتر بإينوما، وذكّرت نغمة صوته الهامسة المفعمة بالتوقير هوندا بأحد رجالات البلاط وقد أرسل ليمهد الطريق لمقدم أمير.

كان كينسوكي كيتو أحد قادة الجيش الإمبراطوري المتقاعدين، ولكن شعره كان مصدر شهرته. وكان هوندا قد قام بناء على إلحاف أصدقائه بقراءة ديوانه «هيكيراكو» الذي حظي بإشادة كبيرة، وهو مجموعة من القصائد يقول النقاد إنها أحيت الروح والأسلوب الجريئين اللذين اتسم بهما شعر سانيتومو، أحد شعراء القرن الثالث عشر. ولم يكن هذا التألق الكلاسيكي والجمال البسيط مما يتوقع من رجل عسكري معاصر، ووجد هوندا قصائده مؤثرة للغاية، إلى حد أنه كان بوسعه أن يتلو اثنتين أو ثلاثاً منها بعد أن حفظها عن ظهر قلب.

حيّا إينوما القائد بأعظم قدر من الاهتمام، ثم قدمه إلى هوندا قائلاً:
ـ هذا السيد النبيل هو القاضي هوندا بمحكمة استئناف أوساكا.

كان هوندا يؤثر أن يقدم باعتباره صديقاً قديماً فحسب، ولكن الآن وقد رأى إينوما أن من المناسب تقديمه بمثل هذا الاحتفال، فإنه لم يبق له من خيار إلا أن يتمسك بدوره، باعتباره مسؤولاً قضائياً، وأن يعتصم بمقتضياته من مكانة رفيعة وما إلى ذلك.

غير أن القائد كيتو بدا على مستوى المناسبة تماماً، إذ جعلته خلفيته العسكرية معتاداً على مقابلة ذوي المراكز السامية. وابتسم مجعداً أركان عينيه وقال بهدوء:
ـ اسمي كيتو.

ـ إنني معجب أشد الإعجاب بشعرك، وخاصة ديوان «هيكيراكو».
ـ أخجلت تواضعي.

إن القائد كيتو يتمتع بالدماثة والتواضع اللذين يحظى بهما رجل أنفق عمره في رحاب الجندية. وبعد أن نجا بحياته من أهوال مهنة تتيح فرصة مواتية للموت في شرخ الشباب، أصبح يثير في نفس من يلقاهم شعوراً بالقوة والجلد. وقد تألقت كهولته بتجرد مرح وكأنها شمس شتوية تتألق من خلال ورق أبيض بُسط على زخارف من خشب عتيق بديع دون أن يتجعد أدنى تجعيد، وقد امتدت وراءها هنا وهناك على الأرض بقع من الجليد.

فيما راح يتبادل بضع كلمات مع هوندا حدثت ابنته الجميلة إيساو قائلة:
ـ سمعت أنك هزمت خمسة رجال تباعاً بالأمس، فتقبّل تهانئي.

تطلع هوندا ناحيتها فقام أبوها بتعريف أحدهما بالآخر:
ـ ابنتي، ماكيكو.

أحنت ماكيكو رأسها في دماثة.

خلال تلك اللحظة ألفى هوندا نفسه ينتظر في شغف أن يتطلع إلى المحيا الجميل تحت تسريحة الشعر الغربية. والآن فيما هو ينظر إليها عن كثب لاحظ من خلال كل من بياض جلدها المجرد من مواد التجميل، على وجه التقريب، والمؤشرات الواهنة الكاشفة عن مثل التجعد الذي يحاكي تجزع الورق الياباني السميك، أنها ليست بالفتاة الصغيرة، وبدا أن ملامحها الرقيقة تعبر بشكل ما عن أسى دفين، وقد خلع الانشداد عند ركني فمها عليها لمحة مثيرة للقلق قوامها استسلام مفعم بالازدراء. لكن عينيها فاضتا بنور رقيق هادىء.

فيما وقف هوندا وإينوما يحادثان القائد كيتو وابنته عن جمال مهرجان سايجوسا، أقبل كهنة شبان في أردية بيضاء وهاكامات صفراء شاحبة، وحثوا الضيوف جميعاً على أن يأخذوا أماكنهم في المأدبة المقدسة.

التقى القائد كيتو وابنته بأصدقاء آخرين، ومضيا قدماً معهم إلى قاعة المأدبة، وسرعان ما ابتلعهما الزحام.

قال هوندا في ما يوشك أن يكون مفاجأة لنفسه:

ـ يا لها من شابة جميلة! وما تزال دونما زواج؟

رد إينوما:

ـ إنها مطلقة، وأحسب أنها في صدر الثلاثينات من عمرها. من العسير التفكير في أن رجلاً يدع حسناء كهذه تبتعد عنه.

تردد صوته مكتوماً وكأن الشفتين تحت الشارب الأنيق حل بهما التردد.

تزاحم المصلون عند مدخل القاعة، وتدافعوا وهم يحاولون نزع أحذيتهم والدخول. ترك هوندا نفسه للحشد يمضي به، وتطلع إلى الأمام عبر الجموع، فألقى نظرته الأولى على الموائد التي مدت في المأدبة. وكانت كتلة هائلة من زهور السوسن البرية قد نثرت فوق الشراشف البيضاء.

في موضع ما، فصل هوندا حتى عن إينوما، وفيما الجمع يندفع، خطر له أن كيواكي نفسه، وقد عاد للحياة من جديد، قد اعتصرته قبضة هذا الزحام البشري نفسه. ما أشد غرابة هذه الفكرة وقد خطرت له هاهنا في الظهيرة تحت وقدة شمس الصيف الباكر! خطفت بصره لمعة اللغز المغرقة في التألق.

وكما يتداخل البحر والسماء معاً عند الأفق، كذلك من المؤكد أن الحلم والواقع يمكن أن يختلطا عندما ينظر إليهما المرء من بعيد. ولكن هاهنا، على الأقل حول هوندا، بدا الجميع بوضوح خاضعين للقانون، وبالتالي يحميهم القانون. كان دوره هو دور حارس النظام الذي أقره قانون هذا العالم الجاري تطبيقه. وحاكى هذا القانون المطبق غطاء حديدياً ثقيلاً على الإناء الذي تغلي فيه يخنة عالم الحياة اليومية متعدد العناصر.

البشر يـأكلون، يهضمون، يفـرزون الفضـلات، يتـوالـدون، يحبـون، يكـرهون. . . راح هـوندا يفكـر في أن هؤلاء هم الكـائنـات البشريـة التي تخضـع للولاية القـانونيـة للمحكمة. وإذا وقـع أسوأ الأمـور فـإنهم يمثلون أمامها باعتبارهم متهمين.

هم وحدهم يمتلكون ناحية الواقع، البشر الـذين يعطسـون ويضحكون، البشر الذين يمضون وقد تدلت أعضاؤهم التناسلية على نحو عبثي. ولو أن البشر جميعاً كانوا على هذا الحال فما من أساس، كائناً ما كان، للغز هونـدا الـرهيب. حتى وإن كـان هنـاك كيـواكي واحــد تنـاسخت روحــه يختفي وسطهم.

جلس هـوندا في مـرتبة الشرف التي وجهـه إليها الكهنـة. وعلى المـائـدة أمـامه امتـدت آنية خشبيـة حفلت بأطـايب عديـدة، وجرار من السـاكي، وكذلك أطباق وأوعية صغيرة. وعلى مسـافات منـاسبة انتصبت مـزهريـات تضم زهـور السوسن الـبرية. كـانت مـاكيكـو تجلس إلى الجـانب ذاتـه من المائدة، وكان بمقدوره، بين الفينة والأخرى، أن يلمح جانب وجهها البديع وخصلات الشعر الرقيقة التي تهدلت على خدها.

انهلّت على الحديقة أشعة شمس الصيف الباكر وقد نثرتهـا بدداً أغصـان الأشجار. الآن جاء دور البشر للاستمتاع بالأطايب.

- ٨ -

بعـد أن عاد هـوندا إلى داره، في الأصيـل، طلب من زوجتـه الإعـداد لعشاء الضيفين، ثم أغفى إغفاءة قصيرة. تراءى له حلم ظهر فيه كيّـواكي فجأة وشرع يحدثه عن مدى فرحه للقائهما مجدداً. غير أنه، عندما استيقظ، لم يسمح لهذا بأن يثير انفعاله، وبـرره باعتبـاره لا يعدو أن يكـون تصويـراً للأفكار المراوحة التي شغلت ذهنه المتعب منذ البارحة.

وصل إينوما وولده في الساعة السـادسة، وإذ الـتزما أن يغـادرا بالقـطار مباشرة، بعد ذلك، فقد جلبا أمتعتهما معهما. وعندما جلس هوندا وإينومـا معاً أحسا بالارتباك فيما يتعلق بعودتهما تواً إلى الحديث عن الماضي، وشرعـا بدلاً من ذلك في مناقشة التطورات السياسية الأخيرة والأوضاع الاجتماعية. ولكن إينوما أحجم، توقيراً منه لمنصب هونـدا فيما يبـدو، عن الحديث عن أيـة شكاوى صريحـة من شرور العهد. وجلس إيسـاو منتصبـاً ويـداه عـلى ركبتيه، وهو يصغي لما يقال.

بـدت عيناه هـاتان اللتـان تألقتـا ملتمعتين، حتى من وراء قنـاع الكندو أمس، بالغتي التألق هاهنا في غـرفة عـادية. ولاح أنهما تعـبران عن تصميم قاطع. كانت تجربة فذة أن تدنو مثل هاتين العينين من المرء، وأن تحدقا فيه بإمعان.

استشعر هوندا عيني إيساو وهما تقعان عليه بينما هو يتحدث مع إينومـا، فأحس بعدم الارتياح. وحدَّث نفسه قائلاً: «إنه أمر غير مستحب أن يحدّق المـرء على هـذا النحو في الآخـرين خلال حـوار» وأحس بـدافـع إلى إبـداء اعـتراضه عـلى ذلك. إن عينـين كهاتـين لا ينبغي التحديق بهـما في صغائـر

الحياة اليومية. ولقد أحس هوندا، على نحو ما، بأن ألقهما الصافي يوجه اتهاماً إليه.

وقد يتحدث رجلان بحماس على امتداد ساعة أو نحو ذلك عن تجارب خاضاها معاً، ومع ذلك لا يدور بينهما حوار حقيقي. ويحس الرجل المستوحش الذي يرغب في الغوص في مزاجه الذي يغلب عليه الحنين، بالحاجة إلى شخص ما يشاركه تلك الحاجة المزاجية. وعندما يجد مثل هذا الرفيق يشرع في صب حديثه من طرف واحد، وكأنه يعيد سرد وقائع حلم. وعلى هذا النحو يستمر الحديث بينهما وهما يتبادلان الأحاديث الأحادية، ولكنهما بعد بعض الوقت يدركان فجأة أنه ليس لديهما ما يقولانه أحدهما للآخر. إنهما مثل رجلين يقفان عند حافتي صدع دمر الجسر الذي كان يصل بينهما.

وأخيراً تحول حوارهما إلى الماضي من جديد، إذ لم يكن بمقدورهما احتمال التزام الصمت. ولسبب ما وجد هوندا نفسه يستسلم لدافع يدعوه إلى سؤال إينوما عن السر في أنه نشر مقالاً في صحيفة يمينية يتهم فيه الأمير ماتسوجاي بالافتقار إلى الولاء، وبعدم الوفاء بحقوق الأسلاف.

رد إينوما قائلاً:

ـ آه، ذلك الأمر! لقد ترددت قبل شن هجوم على الأمير الذي كان شديد الرفق بي، ولكني أحسست بأن عليَّ أن أكتب ذلك المقال بغض النظر عن العواقب. لقد قمت بذلك لا لشيء إلا لحرصي على الأمة.

من الطبيعي أن مثل هذا الرد الهادىء قريب التناول لم يقنع هوندا. فقال إن كيواكي بعد أن قرأ المقال، وأدرك مغزاه، حدَّثه بأنه يفتقد إينوما.

كسا فيض مفاجىء من الانفعال وجه إينوما الذي كان قد بدأ بالفعل يشي بتأثيرات الساكي الذي عكف عليه. وارتجف الشارب الأنيق قليلاً.

ـ أهـذا صحيح؟ أوَقـال السيد الشـاب ذلك؟ لا بـد أنـه قـد عـرف كنـه مشاعري. كان دافعي إلى كتابة ذلك المقـال ـ ترى كيف أعـبر عن الأمر؟ ـ هو طرح شكوى علنية، حتى وإن عنت التضحية بالأمير، كيلا يتوجه أحـد بـاللوم إلى السيد الشـاب نفسه، فقـد كنت أخشى أن يصبح تـورط السيد الشاب معروفـاً بشكل مـا، وكان من شـأن الفضيحة أن تلحق بـه أذى لا سبيـل إلى استدراكـه. وبانـتزاع المبـادرة وفضـح افتقـار الأمـير للولاء كـان بمقدوري حماية السيد الشاب، ثم ألا يرغب أي أب صـالح في أن يتحمـل بنفسـه وقر الفضيحـة؟ كان ذلـك هو مـا توقعتـه. ربما كـان من المحتم أن يستشيط الأمير غضباً مني، ولكن عندما أفكـر كيف أن السيد الشـاب فهم نيّاتي أشعر بعرفان غامر.

ـ أيها القاضي هوندا، أرجوك أن تصغي لما يتعين عليَّ قوله. إن الساكي هو الذي يمنحني الشجاعة لأحدثك بهـذا، لكني لا أبالـغ. وعندمـا علمت بأن السيد الشاب قد لقي حتفه ظللت أبكي ثلاثة أيام وثلاث ليال. ظننت أنني ينبغي علـيَّ أن أشهد، عـلى الأقل، السهـر عـلى جثـمانـه قبـل دفنـه، ومضيت إلى دارة ماتسوجـاي، ولكن طردت طـرداً عند البـاب. ويبدو أن الـترتيبات بصـددي كانت دقيقـة ومحكمة للغـايـة. وحتى في يـوم الجنـازة، أبعـدتني الشرطة، ولـذا لم أستطع إطـلاق البخور من أجـل السيد الشـاب الراحل. لقد جلبت كل ذلـك، بالـطبع، عـلى نفسي، لكنه حـزن سأظـل أحمـل وقره بقيـة أيامي. وحتى الآن مـا زلت أتحدث بمـرارة عن الأمـر مـع زوجتي. يا له من مصير تعس مني به السيد الشاب! أن يلقى حتفه دون أن يحقق ما كان يرغب فيه، وهو لم يجاوز العشرين من عمره.

انتزع إينوما منديلاً من جيبه ومسح دموعه.

أقبلت زوجة هوندا لتصب الساكي، وجلست هناك ساكنـة. أما إيسـاو الشاب الذي لم يسبق لـه من قبل قـط، فيـما يبدو، أن رأى أبـاه وقد غلبـه

الانفعال، فقد كف عن تناول الطعام ونكس ناظريه. وراح هوندا يحدق في إينوما عبر المائدة المتألقة الأضواء والحافلة بالأطباق، وكأنما هو يقدر المسافة بينهما.

لم يشك هوندا في أصالة عاطفة إينوما. وهكذا، وبما أن حزنه عبر عن مثل هذا التناهي، فما كان يمكن أن يكون قد علم بتناسخ روح كيواكي، وإلا لكانت عاطفته أشد من هذا بكثير تضارباً وبعداً عن اليقين.

فيما كان هوندا يتأمل الأمر ألفى نفسه يدقق في خلجات نفسه، لماذا لم يستدرّ مشهد حزن إينوما الدمع منه؟ ربما في المقام الأول بسبب كبح جماح عواطفه في مهنة تُعلي من شأن العقل. وفي المرتبة الثانية هناك الأمل الذي أطلّ حديثاً في أن كيواكي قد عاد إلى رحاب الحياة مجدّداً. وكان من شأن مجرد إيماء إلى إمكانية تناسخ روحه أن يجعل أكثر ألوان الحزن عمقاً يفقد على حين غرة جدته وواقعيته، ويشرع في التناثر كوريقات شجر جافّة. وعلى نحو ما ارتبط ذلك بعدم استعداد الإنسان لتحمل أي مساس بالكبرياء التي حققها من خلال الحزن. وبمعنى ما فإن تلك الخسارة كانت تفوق الموت في رهبته.

عندما تمالك هوندا نفسه التفت في الحال إلى ابنه وطلب منه الذهاب لإرسال برقية باسمه، فقد نسي أن يبلغ طلاب الأكاديمية بضرورة المجيء للقائه في محطة سكك حديد طوكيو، صبيحة غد. واقترحت رابي إرسال الخادم للقيام بهذه المهمة، لكن هوندا سارع، وقد أدرك أن إينوما يرغب في إبعاد ابنه لبعض الوقت، إلى رسم خارطة توضح لإيساو سبيل الوصول إلى أقرب مكتب بريد يفتح أبوابه ليلاً.

بعد أن غادر إيساو الدار عادت رابي إلى المطبخ، فأتيحت لهوندا الفرصة لطرح الأسئلة عن كثب على إينوما. ولكن فيما كان يتساءل عن الكيفية التي

يمكنه بها التطرق إلى الموضوع، شرع إينوما من تلقاء ذاته في الحديث عن كيواكي، وقال:

ـ لقد فشلت بصورة بائسة في تعليم السيد الشاب، ولذا اعتزمت بذل قصارى جهدي لأقدم لابني ما أعتبره تعليماً مثالياً. ولكن مرة أخرى هنا ما أحس بافتقاده، وعندما أتأمل ولدي يبدو ورود مناقب السيد الشاب الحميدة إلى ذهني أمراً مستعصياً على التصديق، على الرغم من فشلي في تعليمه.

ـ لكن لديك ابناً رائعاً. ومن خلال ما رأيته منه فإنه يفوق كثيراً كيواكي ماتسوجاي.

ـ أيها القاضي هوندا، هذا لطف منك وفضل.

ـ طيب، تأمل لياقة إيساو البدنية، لقد كان كيواكي يهمل العناية بجسمه تماماً.

قالها هوندا مستشعراً الانفعال يتصاعد في أعماقه وهو يحاول اقتياد إينوما إلى النقطة الجوهرية في اللغز، وأضاف:

ـ ليس عجيباً أنه مات في شرخ الشباب من جراء الإصابة بالسل ـ لقد كان وسيماً، لكنه لم يحظ بالقوة. غير أنك صحبته منذ نعومة أظافره. ولا بد أن جسمه كان مألوفاً لك تماماً.

سارع إينوما بالرد معترضاً:

ـ كلا، على الإطلاق. فلم يحدث حتى أنني دلكت ظهره لدى استحمامه.

ـ ولم لا؟

تشنجت قسمات إينوما الفظة، بتأثير الشعور بالحرج، واندفع الدم ليضرّج وجنتيه السمراوين، وقال:

ـ حينما كان السيد الشاب يتجرد من ملابسه لم يكن بمقدوري قط حمل نفسي على التطلع إليه مباشرة.

بعد أن عاد إيساو من مكتب البريد حان وقت الرحيل سريعاً. وأدرك هوندا الذي لم تعدّه مهنته للتعامل مع الشباب أنه يتعين عليه أن يتبادل كلمة مع إيساو.

تساءل بارتباك بالغ:

ـ أي نوع من الكتب تحبّ أن تقرأ؟

ـ دعني أريك، يا سيدي!

قالها إيساو الذي كان يضع توّاً شيئاً في حقيبة أوراقه، وأخرج كتاباً ذا غلاف ورقي رقيق وأراه لهوندا مضيفاً:

ـ لقد ابتعت هذا الكتاب في الشهر الماضي بعد أن أوصاني صديق بذلك، وقرأته ثلاث مرات. ولم يسبق لي أن تأثرت بكتاب على هذا النحو قط. هل قرأته سعادتكم؟!

تطلع هوندا إلى العنوان واسم المؤلف المطبوعين بحروف عتيقة الطراز على الغلاف الخالي من الزخارف: «عصبة الريح الإلهية» بقلم تسونانوري ياماو. وقلب أوراق الكتاب المحدود الحجم الذي لا يزيد كثيراً عن كتيب صغير، ولاحظ أنه حتى الناشر كان غير مألوف بالنسبة له. وكان على وشك إعادته دون أن ينبس ببنت شفة، حينما ألفى يده تردها يد إيساو القوية التي تعلوها الجسآت الناتجة عن عصا الكندو.

ـ إذا كنتم سعادتكم مهتمين بهذا الكتاب فأرجو أن تقرأوه. إنه كتاب رائع، سأعيركم إياه، ويمكنكم إرساله لي فيما بعد.

كان أبوه قد مضى لتوه إلى المرحاض، وإلا لكان قد بادر إلى تقريعه على جرأته. وفيما راح هوندا يتطلع إلى عيني الشاب المتحمس المتألقتين أدرك في الحال أن إيساو يعتقد أن إعارة كتابه الأثير له هي الطريقة الوحيدة التي

استطاع بها أن يعبر عن امتنانه للرقة التي أبداها نحوه، فتقبل الكتاب وشكره عليه.

ـ أمر طيب منك أن تعير كتاباً يعني الكثير بالنسبة لك.

ـ لا، لا، إنه ليسعدني إقناعكم بمطالعته وإني على يقين يا سيدي، أنكم بدوركم ستتأثرون به.

أتاحت قوة رد إيساو لهوندا إطلالة على عالم تسهل فيه متابعة النزعة المثالية، ويشترك الجميع طواعية في الانخراط في حماس الشباب ـ عالم في بساطة النموذج المتكرر بلا انتهاء للبقع البيضاء على الكيمونو الخشن لأيام دراسته، فداخلت هوندا لذعة حسد لإيساو.

من بين مزايا رايي أنها ما كانت لتنتقد قط ضيوفاً فور رحيلهم. وعلى الرغم من أنها لم تكن ساذجة بحال فقد كانت تتمتع بنوع من الاعتدال الفاتر، الكسول. ومع ذلك فقد كانت أحياناً تفاجىء هوندا، بعد شهرين أو ثلاثة أشهر من زيارة ضيف بعينه للدار، بتلميح عارض إلى نقص لاحظته في الضيف.

كان هوندا مولعاً إلى أبعد الحدود برايي، لكنها لم تكن بالمرأة التي يستطيع أن يفضي لها بتصوراته الخيالية وأحلامه. ولا شك في أنها كانت ستسعد بقيامه بذلك، ومن المؤكد أنها ما كانت لتسخر منه، ولكنها ما كانت لتصدقه كذلك.

وقد استنّ هوندا لنفسه قاعدة قوامها ألا يناقش أبداً الأمور المتعلقة بعمله مع زوجته، ولم يجد صعوبة في التكتم كذلك فيما يتعلق بثمار خياله الذي لم يعتد أن يطلق له العنان. وفيما يتعلق بالأحداث التي حيرته منذ أمس الأول فقد اعتزم أن يبقيها طي الكتمان، شأن يوميات أحلام كيواكي التي يحتفظ بها في قاع درج مكتبه.

دخل هوندا غرفة مكتبه ليواجه العمل الذي يتعين عليه إنجـازه قبل أن يسفـر الصبح، ولكن رزمة ورق مينو السميـك الـذي تـدون فيـه وقـائـع المحاكمات بضربات عجلى من الفرشاة يصعب تبينها كبلت شعوره بالواجب بشدة، على نحو عجز معه عن البدء بالعمل.

مدَّ يده شارداً والتقط الكتيب الذي تركه إيسـاو، ودونما تعجـل شرع في قراءته.

- ٩ -

عصبة الريح الالهية

تأليف : تسونانوري ياماو
الجزء الأول
طقس اليوكاي

ذات يوم صيفي من أيام عام ١٨٧٣ ـ وهو العام السادس من عهد الإمبراطور ميجي ـ تجمع أربعة رجال شجعان من المؤمنين بالمثل العليا في المزار الإمبراطوري بقرية شنجاي، على بعد خمسة أميال إلى الجنوب من قلعة كوماموتو، للتعبد تحت إشراف تومو أوتاجورو، الابن المتبنى والوريث لكبير الكهنة السابق. وكان مزار شنجاي فرعاً لمزار آيسي الكبير، وعرف في المنطقة الموجود بها باسم آيسي شنجاي. وكان يقبع في حمى أجمة من الأشجار السامقة، وتحيط به حقول الأرز. وكان هذا المزار البسيط المسقوف بالقش هو الموضع الأكثر قداسة في المقاطعة.

عندما فرغ الأربعة من صلاتهم أخيراً تركوا أوتاجورو وحيداً في المزار، واعتكفوا في قاعة الاستقبال بمسكن الكاهن الذي كان يتعين عليه القيام بأداء طقس اليوكاي السري.

وفيما يتعلق بهؤلاء الأربعة فقد كان هاروكاتا كايا في سمت قوته ويبدو رجلاً جهم الملامح، وتجاوز كينجو يوينو عامه الستين، أما كايو سابورو سايتو وماساموتو آيكو فكانا في الخمسينيات من عمريهما، ويرسل كايو شعره جامعاً إياه وراء رأسه. وكل منهما يتوشح سيفاً.

وإذ غم الانفعال الرجال الأربعة وهم ينتظرون نتيجة اليوكاي، فقد

جلسوا منتصبي القامة في صمت، دون أن يجففوا عرقهم أو يتبادلوا النظرات فيما بينهم.

اخترق صرير زيز الحصاد الذي لا يكلّ الهواء الصيفي المثقل بالحرارة والرطوبة مراراً وتكراراً وكأنه إبرة يتم إعمالها في ملابس قطنية غليظة.

ألقت شجرة صنوبر، محنية كأنها تنين جاثم، ظلها على البركة الموجودة في الحديقة التي تطل عليها القاعة. وعلى الرغم من أن الشرفة لم تكن تبلغها أكثر النسمات وهناً فإن السوسنات عند حافة البركة التي كان بعضها مستقيماً، مثلما نصل سيف، وبعضها منحنياً في رشاقة، مضت تتماوج قليلاً، وتألق ما ينعكس على صفحة الماء على الفروع البيضاء لشجرة اللاجرسترمية الهندية ذات البراعم الرقيقة.

تراكمت الخضرة في وفرة بالغة، وحتى وريقات نفل الغابة تراجعت مفسحة الطريق لما هو أكثر خضرة، ورفرفت فراشات صفراء. وتألقت زرقة السماء بادية عند نهاية الحديقة من خلال جذوع أشجار التنوب التي لم يكتمل نموها.

التفت كايا باتجاه المزار وقد بدا انفعاله جلياً في بريق عينيه. كان ما يأمله من وراء هذا اليوكاي متناقضاً مع أمنيات الآخرين.

كانت القاعة الأمامية في مزار آيسي شنجاي مرتبة على النحو التالي: علق في صدرها، داخل إطار، سيف الأمير تاداتوشي هوسوكاوا، في غمده الأبيض، وإلى اليسار كانت هناك صورة لتنين مقدمة وفاء بنذر، وإلى اليمين صورة أخرى تمثل الديك والدجاجة الأبيضين المملوكين للأمير نوبونوري هوسوكاوا. وكانت كلمات «العام الثالث من عهد مانجي» مكتوبة بخط سيكاي أوباكو. وانتصبت منصة في تمام الاستعداد دائماً لاستخدامها من قبل سيد العشيرة، سواء اختار أداء طقوس العبادة بنفسه، أو بإرسال أحد أتباعه نيابة عنه.

بدا قوام تومو أوتاجورو الملتف بالبياض وقد سجد في الحضرة القدسية. ولاحت رقبة الكاهن ناحلة، ووجهه شاحباً كأنه وجه مريض شفه المرض. وقد درج، حينما كان يوشك على رفع ملتمس للآلهة، على أن يصوم لمدة أسبوع، أو عشرة أيام، وأن يستغني عن الطعام المطهي قبل هذه المدة بخمسين أو مائة يوم.

وكان طقس اليوكاي الذي يجري خلاله التعرف على إرادة الآلهة يحظى بأعظم قدر من التوقير من قبل معلم أوتاجورو الراحل، أوين هاياشي الذي لفظ أنفاسه الأخيرة منذ ثلاث سنوات في هذا المزار ذاته. وقد كتب أوين «رسالة في اليوكاي». وكان تصوره للشنتو ينطلق متجاوزاً المذهب الذي قال به أتسوتاني هيراتا عن التواصل بين العالم البادي للعيان والعالم المحتجب. وعلى سبيل المثال كتب أوين يقول:

«الألوهية هي النبع، والعالم المرئي هو تجليها للعيان. ومن يقوم على الأمور ويحكم البشر يتعين عليه النظر إلى الألوهية باعتبارها النبع، وإلى العالم المرئي باعتباره التجلي. وبالنسبة للحاكم الذي يدمج على نحو سليم النبع والتجلي، يغدو حكم العالم بأسره شيئاً محدود الأهمية».

وعلَّم أوين أن اليوكاي الذي من خلاله تتجلى الإرادة الإلهية هو أمر فائق الأهمية، في إطار التعاليم السرية القدسية.

وتبدأ «رسالة في اليوكاي» بهذه الكلمات:

«من بين طقوس الشنتو كافة فإن اليوكاي هو أكثر روعة. أما فيما يتعلق بأصل هذا الطقس فإن الربة الجليلة على نحو يفوق الوصف أما تيراسو والأمير سوسانو قد أديا أول طقس يوكاي في عليين، ومنذ ذلك الحين نقل هذا الطقس إلى أرضنا، أرض ياماتو».

ومن بين الذرية التي أنجبها الأمير سوسانو في غمار اليوكاي الذي قام بأدائه لإظهار براءته، الأمير أمينوشيهوميمي، وهو لا يعدو أن يكون

الأب القدسي للأمير نينيجاي، الأول من أبناء السلالة الإمبراطورية الخالدة. ومن هنا فإن اليوكاي كان السر المحوري في الطقس الرباني، وهكذا كافح أوين من أجل إحيائه ليتاح للبشر من جديد في هذا العالم المضطرب الاستعانة بإرشاد الآلهة، والتعرف على الإرادة الإلهية جلية وواضحة.

وهكذا فإن طقس اليوكاي كان «عبادة للآلهة الجليلة والسامية» وأرض الإمبراطور هي أرضاً ينبع حظها الحسن من القوة الرائعة التي تحظى بها الكلمات. ذلك أنه كان جلياً أنه حينما يرتل الكاهن الطقس فإن كلماته المترعة بالقوة القدسية تستدعي في كل الأحوال حماية آلهة السماء والأرض كافة. وهكذا فإن اليوكاي كان «عبادة من خلال كلمات مترعة بالقوة القدسية».

وفي مدرسة القبيلة في كوماماتو، عندما رجع أحدهم إلى أطروحة من أطروحات تعاليم الكونفوشية الجديدة بعنوان «الخطوات الثماني لكبح جماح النفس» للتعبير عن استهجانه لسر اليوكاي، رد أوين بالطريقة التالية:

«في هذا العالم، ليس الحاكم والمحكوم معاً إلا بشراً. وإذا حاول مجرد كائن بشري، باعتباره كذلك، أن يحكم كائناً بشرياً آخر فإنه يشبه من يلقي بنفسه في اليم وهو لا يملك زورقاً لإنقاذ رجل موشك على الغرق. لكن اليوكاي هو ما يمكنه أن يقلهما معاً. إنه الزورق الذي بدونه لا مجال لإنقاذ الغريق».

وفي تعاليم الشنتو كان أوين يؤثر أعمال مابوتشي ونوريناجا. أما بالنسبة للتعاليم الصينية فقد برع في الإلمام بالسوترات[1] المختلفة براعة

(١) السوترات: جمع سوترا Sutra وقد عرفنا بها في غير هذا المقام ـ ص ٤٧١ من الجزء الأول من الرباعية ـ وقلنا ما موجزه إن السوترا كلمة سنسكريتية الأصل =

كونفوشيوس وغيره من الفلاسفة. وشملت معرفته بالبوذية كلاً من أداتي النقل الكبرى والصغرى. بل إنه انهمك في الدراسات الهولندية إلى حد ما. وإذ كان يتبنى بقوة المثال الأعلى لتجميد التقاليد الإمبراطورية داخل البلاد وإعلاء شأن العزة الوطنية، في وجه التربص الأجنبي، فقد أفزعه تذبذب مسؤولي الحكومة العسكرية وقت وصول بيري إلى البلاد(1) وكذلك الأساليب التي لجأ إليها أولئك الذين نأوا بجانبهم عن سياسة «أطردوا البرابرة»، ولكنهم حاولوا استخدامها للإطاحة بالحكومة العسكرية. فاعتكف بعيداً عن الناس وكرس نفسه للتأمل في الحكمة المحتجبة في رحاب الغيب.

علق أوين آماله على استعادة حكم الآلهة في هذا العالم. وإذا لم يقتنع بتأويلات مابوتشي ونوريناجا، فقد عقد العزم على أن يعلن للناس كافة طقس الشنتو القديم كما حفظته الكتب التقليدية، ومن خلال ذلك، أن يطهّر قلوب الناس ويستعيد أرض الآلهة النقية، الأرض التي تحظى بالرضا الرباني. وإذن فقد كان هدفه العكوف على العبادة العريقة وتحقيق هذه الاستعادة. ومضى قدماً إلى حد طرح أفكار سقراط في كتاباته معرباً عن موافقته على وجهة النظر القائلة بأنه على الرغم من أن سقراط أحسن صنعاً بنشره للتعاليم الأخلاقية في بلاد تفتقر إلى هذه التعاليم، إلا أن الوضعية الأسمى لأرض الإمبراطور تغني عن الحاجة إلى التعليم الأخلاقي.

وكان طريق الآلهة يعني أن العبادة والحكم هما شيء واحد. فخدمة

= تعني في أكثر المعاني عمومية محاورة من محاورات بوذا، أو حكمة تلخص جانباً من التعاليم الدينية الهندوسية، أو مجموعة حكم. (هـ. م.)

(1) بيري قائد السفن الأميركية التي وصلت إلى الساحل الياباني محطمة سياسة العزلة، وكان هذا الحادث أحد العناصر التي فجرت القوى التي أطلقت حركة الإصلاح المقترنة بعهد ميجي من عقالها. (هـ. م.)

الإمبراطور، ذلك النائب المتألق للآلهة في دنيا البشر، إنما هي خدمة للآلهة النائية للعالم المحتجب عن البشر. والحكم يعني التصرف على الدوام وفق المشيئة الإلهية، والتأكد من أن تلك المشيئة هي مهمة بالغة القداسة، مهمة لا سبيل إلى تحقيقها إلا من خلال طقس اليوكاي.

وقد ألهمت القدوة التي ضربها هذا الرجل الذي كانت حماسته للآلهة بالغة الجلاء، حشداً من الأتباع ذوي العقول النيرة، وعلى رأسهم تومو أوتاجورو. وكان من الممكن تشبيه موقف أتباعه في حدادهم على موته بموقف أتباع بوذا وهم يرونه يلج رحاب النيرڤانا.

والآن، وبعد ثلاث سنوات من رحيل معلمه، خطر ببال تومو أوتاجورو المتطهر روحاً وجسماً أنه يتعين عليه القيام بأداء طقس اليوكاي.

في عهد مرسوم الإصلاح الإمبراطوري بدت المؤشرات كلها مواتية في إشارتها إلى أن الإرادة السامية لجلالة الإمبراطور الراحل كوماي بطرد البرابرة سوف تتحقق. ولكن سرعان ما أحاطت السحب بالنور السماوي، وشهراً وراء آخر وعاماً وراء آخر ازدادت قوة سياسة فتح البلاد أمام التأثير الأجنبي. وفي العام الثالث لحكم الإمبراطور ميجي سمح لأمير من العائلة الإمبراطورية بالدراسة في ألمانيا، وفي نهاية العام نفسه حظر على العامة تقلد السيوف. وفي العام الرابع صدر مرسوم ينصّ على أنه بمقدور الساموراي قص جديلة الشعر المعقوصة خلف رؤوسهم والمضي دونما سيوف، ووقعت معاهدات مع الدول الأجنبية المختلفة، وفي العام الماضي فحسب، وهو العام الخامس لحكم الإمبراطور ميجي، تمّ تبنّي التقويم الغربي. وفي بداية العام الحالي السادس لحكم الإمبراطور ميجي، أقيمت ست حاميات للجيش بهدف وضع حد للقلاقل الشعبية، وقد حدثت اضطرابات بالفعل في مقاطعة أويتا. كان العالم يمضي موغلاً في مسيرته بعيداً عن المذهب الجوهري الذي قال به المعلم أوين، وهو أن العبادة والحكم شيء واحد.

وكان هذا الأمر، وهو أبعد الأمور عن التقدم، اندفاعاً لا يرعوي نحو الدمار. وهكذا فقد خذلت آمال المعلم، وغدا البشر يبتهجون في غمار الغواية، لا النقاء، وانتصر الطموح الوضيع على المثالية الشامخة.

ترى ما الذي كان سيفكر فيه المعلم الراحل لو لم يكن قد رحل عن هذا العالم؟ وفيم كان سيفكر الإمبراطور الراحل؟

وعلى الرغم من أن أوتاجورو ورفاقه لم يكونوا، بالطبع على معرفة بالأمر، فقد جرت في وقت بعثة الأمير إيواكور إلى أوروبا وأميركا، في العام الرابع لحكم الميجي، مناقشة على متن السفينة بين الوزراء الأقل مكانة مثل كوين كيدو وتوشيمتشي أوكوبو وهيروبومي إيتو، حول تغيير السياسة القومية، وارتفعت أصوات كثيرة، ذهب أصحابها إلى القول بأن اليابان ينبغي أن تصبح جمهورية لتغدو أفضل استعداداً لمواجهة قوة أميركا وأمم أوروبا.

وفي الوقت نفسه، وفي مناقضة جاءت على نحو يائس لتعاليم المعلم الراحل عن الإصلاح ووحدة الحكم والعبادة، تمت إعادة تنظيم وزارة المعابد في العام الخامس لعهد الميجي لتغدو وزارة الدين، وسرعان ما ألغيت كلّيةً وعهد بمهامها إلى دائرة المعابد والمزارات. وهكذا فإن أماكن العبادة التي تحظى بأعظم قدر من التوقير، باعتبارها تنتمي إلى أقدم التقاليد، وضعت على مستوى واحد مع معابد ديانة جلبت من الخارج.[1]

والآن هوذا أوتاجورو يوشك أن يعرض صياغتين لليوكاي للتمحيص الإلهي. أولاهما تأتي تلبية لرغبات هاروكاتا كايا، ونصها كالتالي: «وضع

(١) لعله لا يغيب عن القارىء هنا أن الإشارة هي إلى مزارات الشنتوية، وهي الديانة القديمة لليابان، بينما اتخذت البوذية من المعابد معاقل لها بعد دخولها إلى اليابان بصورة متقطعة في القرن الرابع الميلادي على يد اللاجئين والحرفيين الكوريين، ومن هنا فإنها توصف في المتن بأنها ديانة جلبت من الخارج. (هـ. م.)

نهاية لإساءة تسيير دفة الحكم من خلال حث السلطة على أداء واجباتها، حتى ولو كان ذلك يعني التخلي عن الحياة».

وقد عقد كايا العزم على استخدام الحجة وإخضاع عدوهم دون سفك أي دم، اللهم إلا دمه. وقد رغب في التأكد من أن نصحه قد حقق الهدف منه، وذلك بتقليد ياسوتاكي يوكو ياما الساموراي سليل قبيلة ساتسوما الذي ختم احتجاجه البطولي بالانتحار بالسيف بمجرد تسليمه لالتماسه. غير أن رفاق كايا ساورتهم الشكوك في فعالية مثل هذا المنهاج.

أما الصياغة الثانية التي يقترح التقدم بها، في حالة عدم حصول الأولى على الإقرار الإلهي، فنصها كالتالي: «القضاء على الوزراء غير الجديرين بمناصبهم، وذلك بالضرب في الظلام بالسيف».

وكان على أوتاجورو كذلك، إذا ما حظي هذا القرار بتأييد المشيئة الإلهية، أن يشرف على تنفيذه حتى النهاية.

وعلى الرغم من أن «رسالة في اليوكاي»، التي كتبها أوين توصي باستخدام قارورة من شراب الساكي وعسل الأرز، على طريقة الإمبراطور جيمُّو، فقد آثر أوتاجورو اتباع طريقة اليوكاي التي تم الحفاظ عليها في تضاعيف الأعراف السرية لمزار آيسي الكبير، والتي اطلع عليها في معبد سوميوشي في أودو. وهكذا قام باختيار غصن من أغصان شجرة خوخ، وبعد أن شذّبه محولاً إياه إلى عصا مستقيمة، مزق ورقة مينو ثقيلة إلى شرائح، وقام بتثبيت هذه الأخيرة في الغصن كرايات مقدسة، باستثناء أربع شرائح كتب على كل منها صياغة اليوكاي الأولى تاركاً مسافة لرد سلبي أو إيجابي، ثم التقط إحدى هذه الشرائح، وبعد الكلمات: «وضع نهاية لإساءة تسيير دفة الحكم من خلال حث السلطة على أداء واجباتها، حتى ولو كان ذلك يعني التخلي عن الحياة» كتب: «ملائم»، ولملم الشرائح الأربع محولاً إياها إلى لفيفات صغيرة، ووضعها على حامل ذي ثلاث

قوائم. واصطحب الحامل معه ماضياً من القاعة الأمامية عبر الدرج المفضي إلى حرم المزار. وبمزيد من التوقير فتح أبواب الحرم وشق طريقه إلى الظلمة القابعة هناك على ركبتيه.

كان النهار في سمت انتصافه، والحر في الحرم شديداً، وامتلأت الظلمة بطنين البعوض. مست أشعة الشمس المنسلة الطرف السفلي لرداء أوتاجورو الأبيض وهو جاث محنيّ الرأس داخل عتبة الحرم. وتألقت طيات هاكاماه المصنوعة من الحرير الأبيض الذي لم يعرف الطريق إلى الصبغ، فبدت كأنها زهور نبات الخبّازى وقد ضمت معاً. وراح أوتاجورو يرتل في البدء صلاة التطهر الكبرى.

التمعت المرآة المقدسة ببريق واهن في قلب العتمة. ومثلما أحس أوتاجورو يقيناً بالعرق يتحدر على جبينه وصدغيه وخلف أذنيه، أحس باليقين ذاته بوجود الآلهة هنالك، وبأن عيونها تستقرّ عليه. غدا وجيب قلبه حياة ربانية تنبض بداخله. ولما كانت جدران الحرم الأربعة تحيط به فقد بدا الوجيب وكأنه يتصاعد متحوّلاً إلى دمدمة، ثم أحسّ بجسده كله مرتجفاً في حميا الحر، وبقلبه منفجراً بزخم الحنين، واستشعر قوة محتجبة في عذوبة ماء الربيع ونقائه تنهل عليه من موضع ما في العتمة القابعة أمامه.

حين أمسك أوتاجورو بالغصن ملتقطاً إياه، أحدثت الرايات المقدسة حفيفاً يشبه رفيف أجنحة حمامات. ولوّح به، في البداية، على مهل من جانب إلى آخر فوق الحامل، على النحو المستخدم في التطهر، ثم مهدئاً وجيب قلبه هبط به إلى أن لامست الرايات السطح برقة، واشتبكت بشريحتين من شرائح الورق المحولة إلى لفيفات وأبعدتها عن الحامل. فنشر كل من هاتين اللفيفتين وأمسك بها أمام شعاع الضوء المنسرب. وعلى الورق المجعد للشريحة الأولى لمح بوضوح الكلمتين «غير ملائم»، وعلى الورق الخاص بالشريحة الثانية أيضاً «غير ملائم».

بعد أن رتل الصلاة المفروضة مرة أخرى بدأ أداء طقس اليوكاي الثاني، وفي هذه المرة طرح على التمحيص الإلهي الصياغة التالية: «القضاء على الوزراء غير الجديرين بمناصبهم بالضرب في الظلام بالسيف». وكان الإجراء الذي اتبعه مماثلاً لما قام به من قبل. وفي هذه المرة لم تبعد الرايات عن الحامل إلا لفيفة واحدة. وعندما نشرها أمامه قرأ عليها الكلمتين «غير ملائم».

استقبل ثلاثة من الرفاق الأربعة أوتاجورو وقد أحنوا رؤوسهم بانتظار حكم الآلهة. وجلس هاروكاتا كايا وحده منتصب الجذع، وراح ينظر ملء عينيه إلى ملامح الكاهن الشاحبة التي غللها العرق. وقد عقد كايا الذي يبلغ الثامنة والثلاثين من العمر العزم إذا ما حبّذت الآلهة التماسه على أن يتحمل وحده المسؤولية عن حث السلطات على أداء واجبها، باسم رفاقه، ثم يعمل سيفه في جسمه عقب ذلك.

جلس أوتاجورو دون أن ينبس ببنت شفة، وأخيراً سأله يونيو، أكبر الأربعة سناً، عن النتيجة. وهكذا علم أن أياً من الأمرين لم يحظ بالتكريس الإلهي.

وعلى الرغم من أن الآلهة لم تنظر بعين العطف إلى عزمهم فقد ظل إصرارهم على تكريس أنفسهم لأرض الإمبراطورية على حاله دونما تغير. وهكذا قرروا العكوف بمزيد من الإصرار على الصلاة خلال انتظارهم لموافقة الآلهة، وعلى أن يقسموا في الحضرة الإلهية على جعل حياتهم تقدمة جماعية حينما يحين الوقت المناسب. وعادوا إلى المزار، وبعد حرق الورقة التي كتب عليها القسم في الحضرة الإلهية حتى استحالت إلى رماد، ذروا هذا الرماد في قنينة من الماء المقدس وتناوبوا على شربها حتى آخر قطرة فيها.

أما فيما يتعلق باسم «عصبة الريح الإلهية» فإن كلمة «عصبة» كانت

اصطلاحاً مألوفاً في كوماموتو يستخدم للدلالة على حزب أو جماعة، مثل عصبة تسوبوي، وعصبة يامازاكي، وعصبة كايوماتشي، وهي جماعات محلية تم تأسيسها لرعاية روح الساموراي. غير أن الساموراي ذوي الروح الوطنية الذين التفوا حول أوين فقد أطلق عليهم اسم «عصبة الريح الإلهية» في ظل ظروف مختلفة. ففي العام السابع من عهد ميجي، حينما دخل عدد منهم امتحان رهبنة الشنتو في المكتب الإقليمي، رد كل منهم، كأنما بناء على اتفاق مسبق، على النحو التالي خلال امتحانه: «لو أن البشر كانوا خالصي القلوب، ولو أنهم وقّروا الإمبراطور فوق كل ما عداه، فإن الريح الإلهية ستهب توّاً على نحو ما حدث في زمن الغزو المغولي، وتكتسح البرابرة بعيداً».

وقد أصاب الذهول ممتحنيهم، وأطلق على أتباع أوين أولئك للمرة الأولى اسم «عصبة الريح الإلهية».

وبين هؤلاء الساموراي ذوي الروح الوطنية سعى شباب مثل تسوجو توميناجا، وتومو نوجوتشي، وهاي آيدا، وسابورو توميناجا، وميكاو كاشيا، إلى تحقيق المثل العليا لتجمعهم الأخوي في كافة جوانب الحياة اليومية، وهكذا عافوا كل أشكال التلوث وكرهوا كل البدع.

ولأن خطوط البرق كانت شيئاً مجلوباً من الخارج فقد رفض تومو نوجوتشي السير تحتها (وقد تمت إقامة شبكة الاتصالات البرقية في العام السادس لعهد ميجي). وعندما كان نوجوتشي يقوم بالمسيرة اليومية المباركة إلى المعبد المكرس للأمير كيوماسا كان يحرص حرصاً خاصاً على ألا يمر تحت أي خط من خطوط البرق، حتى وإن عنى ذلك سلوك طريق دائري. وإذا وجد أنه من المستحيل تجنبها فإنه يمر تحتها وهو يحمي رأسه بمروحة بيضاء.

وقد اعتاد هؤلاء الشبان حمل الملح في جيب خاص في أكمام أرديتهم،

ونثره حولهم إذا ما صادفهم كاهن بوذي، أو رجل يرتدي زياً غربياً أو جنازة[1]. وقد يُرى في هذا تأثير العمل الموسوم «الوشاح الموشى» الذي كتبه أستوتاني هيراتا، والذي كان حتى ماساهايكو فوكوكا الذي كان الأكثر بروزاً في المجموعة من حيث ازدراؤه للكتب، يقرأه بمزيد من التقدير.

وذات يوم مضى سابورو توميناجا إلى مكتب شيراكاوا الإقليمي للحصول على عائد سندات لأخيه، ولما كان يأبى أن يمس العُملة الورقية التي يلوثها تصميم أجنبي فقد حملها إلى داره ممسكاً بها بين عَصَوَيْن لتناول الطعام.

وكان أوين معجباً بالقوة الفريدة التي يحظى بها هؤلاء الشبان، إذ لم يعتد معظمهم على الترف والدعة، وكانوا يحبون القمر وهو يتألق على ضفاف نهر شيراكاوا حُبَّ من يؤمنون بأنه آخر قمر ليالي حصاد يشاهدونه في هذه الحياة. وكانوا يعجبون ببراعم الكرز إعجاب رجال يعتقدون أن براعم هذا الربيع هي آخر براعم تزدهر بالنسبة لهم، وهكذا كانوا ينشدون حقاً أنشودة إيتشيجورو هاسودا، ذلك الساموراي ذو الروح الوطنية من ميتو، ويقول فيها:

إلى القمر أرنو،
فيما وراء حربتي المشرعة،
متسائلاً عن موعد سقوط
أشعته فوق جثماني.

ووفقاً لتعاليم أوين فإنه في العالم الذي حجب عن البشر لا وجود للحياة ولا الموت. فالحياة والموت في هذا العالم المحيط بنا يستمدان أصلهما من

---

(١) الموكب الجنائزي من أبرز الطقوس البوذية، وربما كان هذا هو السر في موقف معتنقي الشنتوية هؤلاء من الجنازات. (هـ. م.)

يوكاي الإلهين أزاناجاي وأزانامي[1]. غير أنه لما كان البشر هم سلالة الآلهة فإنهم إذا حافظوا على أنفسهم من كل تعد يؤدي إلى تلوثهم، وإذا ما ظلوا على استقامتهم وتشبثهم بالعدل وطهارة القلب والعكوف على العبادة بالطريقة القديمة، غدا بمقدورهم إبعاد موت هذا العالم وفساده عنهم، والصعود إلى السماء ليتوحدوا مع الآلهة.

وقد دأب المعلم أوين على ترتيل هذه القصيدة:

مثلما يحلق التُّمَّرُ الأشهب إلى السماء،
لا تدعوا أثراً وراءكم هاهنا.

في فبراير من العام السابع لعهد ميجي اندلع التمرد البطولي فتمّ حشد القوات المتمردة على يد أولئك الذين راهنوا على أنصار سياسة إخضاع كوريا. وللمساعدة في قمع هذا التمرد أرسلت قوات حكومية من مختلف الثكنات، ومن بينها كوماموتو. وهكذا، ولبعض الوقت، لم تتجاوز القوات التي تركت لتحرس القلعة مائتي رجل.

وكانت استراتيجية لاكتساح الحكم الفاسد قد تشكلت بالفعل في ذهن أوتاجورو. فلكي تتم الإطاحة بالمستشارين الفاسدين والنهوض بعظمة العرش الإمبراطوري، لم يكن هناك سبيل أفضل من تشكيل قوة من الرجال ذوي الولاء والسيطرة على المعسكرات الواقعة في كوماموتو. وبهذا

---

(١) أزاناجاي وأزانامي: هما، بحسب التفسير الشنتوي للوجود، الربان اللذان خلقا جزيرة في المحيط وهبطا إليها حيث تزوجا وأنجبا أمايتراسو ـ أو ـ ميكامي، الربة العظيمة للسماء المتألقة والشمس. وكل شيء أو مخلوق أضفي عليه بعض القداسة، وهبط من علياء أماتيراسو يدعى «كامي». وبدلاً من وجود شرعية ذات طابع كهنوتي، فالشنتوية تقول بوجود جماعة تتمحور حول ما هو نقي وطاهر، قادرة على التواصل مع الكيانات المقدسة، والآخرون أيضاً قادرون على التواصل مع الأرباب وإبلاغ النبوءات لمن يمكنهم العمل بها. ولعل هذا يفسر لنا جوهر طقس اليوكاي الذي يفصّل المتن القول فيه. (هـ. م.)

المعقل كنقطة مركزية يمكن حشد عدد من الرجال على القدر ذاته من الولاء لخدمة القضية من الشرق والغرب على السواء. ويمكن تجميع قوة كبيرة للانطلاق نحو الشرق. والخطوة الأولى هي الاستيلاء على معسكرات كوماموتو، فقد كان ذلك وقتاً غدا فيه العدو قابلاً للاختراق على نحو غير مألوف، وقد اقتضى الأمر من أوتاجورو ورفاقه أن يحولوا هذا الوضع إلى صالحهم.

وهكذا راح أوتاجورو من جديد يحاول استجلاء مشيئة الآلهة عن طريق طقس اليوكاي. مرة أخرى بعد الامتناع عن تناول الطعام عدداً من الأيام، شق طريقه بمزيد من التوقير إلى الحضرة الإلهية ورفع الغصن المزين بالرايات المقدسة ونفذ طقس اليوكاي بقلب مفعم بالإخلاص.

لم تكن العتمة هذه المرة مترعة بحر الظهيرة، فقد خيمت برودة أوائل الربيع على الحرم، ثم لم يكن الفجر قد أطل بعد، ومن خلف دار الكاهن تناهى صياح الديكة. وبدت صيحاتها كما لو كانت تبدد الظلام مثلما ألسنة قرمزية من الضوء. راحت تطلق صيحاتها كأنما الحلق المظلم لليل ينفتح راعداً فيتدفق منه الدم.

تحدث الحكيم أستوتاني هيراتا بلا انتهاء عن التلوث الذي يحدثه الموت، ولكنه فيما يتعلق بالتلوث الدموي لم يأت إلا على ذكر فقدان قدر لا يذكر من الدم. والآن تشكّلت في ذهن أوتاجورو، هاهنا في حضرة الآلهة، صورة دم نقيّ يتّقد، وفيما تركزت أفكاره على هذا الدم الذي قدر له أن يطهّر البلاط الإمبراطوري، أحس بأن الآلهة لن تستنكر ذلك ولن تستاء منه. هنالك توهجت عبر ابتهال أوتاجورو المترع بالخشوع أشباح رهيبة: سيوف تأتلق وهي تنهال على الأشرار سافحة الدم في كل اتجاه. وفيما وراء الدم تشكّل كل ما هو نقيّ وعادل وشريف، مثلما الخط الأزرق الذي يميز بحراً يترامى في البعيد.

خفقت الشموع المشتعلة أمام الحضرة الإلهية في نسيم الفجر. وفيما شرع أوتاجورو في التلويح بالغصن براياته المقدسة ذابت الشموع وأوشكت على الانطفاء.

تركزت عيون الآلهة عليه. إنها تقوِّم أعمال البشر من خلال معايير خاصة بها، معايير تتجاوز المعرفة البشرية. والآلهة التي تستطيع وحدها أن تستشرف كل العواقب يمكنها دونما منازع أن تكرس أو تحظر.

التقط أوتاجورو اللفيفة الورقية التي علّقت بالرايات ونشرها وقرأها على ضوء الشموع فصافحت عيناه الكلمتان «غير ملائم».

لم يكن الساموراي ذوو الروح الوطنية الذين ينتمون إلى عصبة الريح الإلهية رجالاً متصلّبين على نحو غير منطقي، ولا يعرفون العواطف البشرية المألوفة. وكان كل منهم يحن من كل قلبه إلى أن يبرهن على قدراته الفائقة في ميدان المعركة، ولكنهم كانوا فيما عدا ذلك مجموعة من الشبان الأقوياء.

حظي هاروهايكو نومازاوا بقوة غير عادية، وبذّ أقرانه في المصارعة. وذات يوم فيما كان يطحن الأرز في فناء داره شرع المطر فجأة في الانهمار، فما كان منه إلا أن التقط للتوّ كلاً من الهاون ويد الهاون التي كان يطحن الأرز بها، وحملهما معاً إلى داخل الدار وعكف على العمل في هدوء من جديد.

كانت لهيرونوبو سارووااتاري ابنة في الثانية من عمرها تدعى أوميكو، أحبّها حبّاً جماً. وذات ليلة عاد إلى داره وقد أخذ منه الخمار بعض الشيء، ووضع زجاجة ساكي بين ذراعي الطفلة النائمة وصاح: «انظري! إنها شمامة، شمامة» وكانت أوميكو تحب الشمام، فشرعت وهي ما تزال بين الغفوة واليقظة تربّت على الزجاجة. ولكن حينما قالت زوجته ضاحكة: «إنك تواصل القول: لا تكذبي حتى على طفلة! فكيف يمكنك القيام بشيء كهذا؟» أصاب الندم سارو واتاري فبادر إلى الخروج من الدار، ومضى

يبحث حتى استطاع شراء شمامة نضجت قبل حلول الموسم، وحملها إلى الدار وأعطاها إلى أوميكو.

وقد أودع كيسو أونيهارو مع جينساي كاواكامي ورفاقه السجن ذات مرة لمدة عام لأسباب سياسية، وكان مولعاً بالساكي، وعلى امتداد فترة السجن دأب أصدقاؤه على إحضار خثارة اللوبيا المنقوعة في الساكي. وفي عيد رأس السنة حملوا علبة كبيرة منها إلى السجن، بعد أن أفرغوا بهذه المناسبة ثلاث زجاجات من الساكي فيها، وحينها لفت الحراس انتباههم إلى الرائحة الفوّاحة أرضاهم أونيهارو بأن أوضح لهم أن خثارة اللوبيا منقوعة في الساكي.

وكان جيتارو تاشيرو ابناً شديد البر بأبويه. ولما كان الطبيب قد أمر أباه بتناول لحم البقر، وهو ما تكرهه العصبة، فقد مضى جيتارو كل يوم إلى السلخانة القائمة في كاميكاوارا لشراء لحم البقر له. غير أنه في الصيف الذي تشكّلت فيه القوة الوطنية، وعندما قام والده دون أن يطلعه على جليّة الأمر بترتيب زواجه من عروس مناسبة، وحثه على إتمام الزواج، رفض ذلك مراراً والدمع في عينيه، ذلك أنه كان قد عقد العزم بالفعل على ملاقاة حتفه.

كان تومو نوجوتشي رجلاً متكاملاً بطبعه، لم يولع بالكتب، لكنه كرس نفسه للمهارات العسكرية، وخاصة الرماية بالسهام من فوق ظهور الجياد. وفي كل ربيع وخريف، خلال مهرجان الفنون العسكرية الذي يقام في حدائق الأمير كوماموتو، كان يلقي بسهامه دون أن يعرف الخطأ سبيله إلى رمياته، ثم لم يكن بالرجل الذي ينسى وعداً قطعه على نفسه. وذات مرة تصادف أن اشتكى أحد أصدقائه من أنه لم يستطع على مدار العام العثور على فجل لصنع المخلل. وفي وقت متأخر من تلك الليلة حمل نوجوتشي وأخوه إلى دار ذلك الرجل على أكتافهما برميلاً كبيراً مليئاً بالفجل المخلل الطيب الرائحة.

في صيف العام السابع لعهد ميجي قام حاكم المقاطعة ناجاسوكي ياسوكا بتعيين العديد من أعضاء عصبة الريح الإلهية في العديد من المزارات العظيمة والمحدودة الأهمية على امتداد المقاطعة. وقد عين تومو أوتاجورو، بالطبع، رئيساً لكهنة مزار شنجاي الإمبراطوري، وعين ميتسو نوجوتشي وواهاي إيدا كاهنين مساعدين. وعين ياسوكا كذلك هاروكاتا كايا رئيساً للكهنة في مزار كينزان وكلاً من ياسوهيسا كوبا وتاتيكاي أورا وتشوجي كوداما كمساعدين له. وعلى هذا النحو هيمن رفاق عصبة الريح الإلهية على مجموعة خمسة عشر مزاراً. وإلى جوار التأثير المواتي لحماسهم المتّقد في جموع المترددين على المزارات أصبحت المزارات في كل ركن من أركان المقاطعة قواعد رئيسية أو فرعية للعمليات بالنسبة للعصبة.

وأسفر هذا كله عن زيادة عزم رجال العصبة وإصرارهم. وكلما ازدادوا توقيراً للآلهة تفاقم قلقهم حيال وضعية شؤون الوطن. ومع مضي الوقت تعاظم ضيقهم وهم يرون أولئك الذين يتقلدون السلطة يجتذبون البلاد بعيداً، على نحو متزايد، عن المثل الأعلى الذي قال به المعلم أوين، والقائم على آلهة تعبد من جديد على نحو ما كان عليه الحال قديماً.

في العام التاسع من عهد ميجي تلقوا ضربة قاصمة لتطلعاتهم. ففي الثامن عشر من مارس عمم الحاكم مرسوماً يحظر تقلد السيوف، وسرعان ما تلاه مرسوم آخر يحظر اعتماد أسلوب الساموراي التقليدي في ترتيب شعر الرأس، ونفذ ياسوكا هذين المرسومين بصراحة.

وقام أوتاجورو لكي يكبح جماح الغضب العارم الذي تملك شباب الانتفاضة بإصدار تعليمات لهم بأن المرسوم القاضي بحظر تقلد السيوف يمكن الالتفاف حوله بأن يخفي المرء سيفه في حقيبة يحملها معه حيثما ذهب، لكن ذلك لم يكن كافياً لإخماد نيران غضبهم. فقد أقبلوا معاً على أوتاجورو طالبين معرفة الموعد الذي سيسمح لهم فيه بالتضحية بأنفسهم.

لو أن سيوفهم انتزعت منهم انتزاعاً فما الذي يبقى لهم ليحموا بـه شرف الآلهة التي يوقرونها؟ لقد عقد كل منهم العزم، أياً كـانت النتائـج، على أن يقاتل حتى الموت في رحاب القضية الإلهية. ومن أجل عبادة الآلهة كان أكثر الـطقوس الإلهيـة قداسـة هو السبيـل الأسـاسي الـذي ينبغي المضيّ عـبره. وهكـذا فإنـه إذا انـتزع هـذا السيف منهم غـدا من المحتم أن تصبـح آلهـة اليابان التي تمقتها الحكومة اليابانية تمـام المقت أرواحاً مجـردة من القوة، ولا تعبدها إلا الجماهير الجاهلة.

في غضون ذلك، وشهراً وراء آخر، وعاماً بعد غيره، كـانت الآلهة التي قـال المعلم أوين إنها قاب قـوسـين أو أدنى، الآلهـة التي أجّجت قلوبهم بمثـل هـذا الولاء، تتعـرض للتقليل من شـأنها. وشعر الشبـان يقينـاً بـأن هنـاك مؤامرة تحاك لسلب الآلهة كبرياءها، ولإبعادها وجعلها غير ذات شـأن بقدر الإمكان. وهكذا فإنه، بسبب التخوف من أن الغرب المسيحي قد ينظر إلى اليابان باعتبارها أرضاً جاهلة همجية، سيتم الإيغال في تهميش المثل الأعـلى القائل بتوحد العبادة والحكمة. ولسوف تغوص الآلهة في النهاية إلى مستوى الأرواح الضعيفة والكائنات الهامشيـة التي تتشبّث بالحيـاة في حمى الأغصان المبرعمة المتموجة في الريح إلى جوار الغدران النائية.

وأريد للسيف أن يلقى مصيراً مماثلاً. فـالدفـاع عن البلاد لن يعهـد به الآن إلى المحارب المتدفق بالرجولة الذي يتقلد صاعقـة الآلهة الخـالدة. ولم يكن الجيش الوطني الذي شكله أريتومو ياماجاتا يعـطي أية أفضليـة لطبقـة السـاموراي، كـما أنه لم يـوقر المثـال الأعلى المتمثـل في النظر إلى اليـابانيـين بـاعتبارهم أفـراداً يتجمعون عـلى نحو عفـوي للدفـاع عن أرضهم، وإنمـا بـالأحرى كـان الجيش اليابـاني محترفـاً على الـطراز الغربي يقـوم، في تنحية وحشية لكل التقاليد، بتجاهل الفوارق الطبقية، ويعتمد على نظام للتجنيد يكفل له الحصـول على القـوة البشرية. وإذا أفسـح السيف اليابـاني المجال

متراجعاً أمام المِعول فقد ضاعت روحه وأصبح قدره أن يغدو مجرد حلية وزينة.

في ذلك الوقت استقال هاروكاتا كايا من منصبه الكهنوتي في مزار كينزان، وقدم التماساً رسمياً مؤلفاً من عدة آلاف من الكلمات حول تقلد السيوف لحاكم المقاطعة. وكان هذا الالتماس قطعة رائعة من النثر المكتوب في تمجيد السيف الياباني، وقد غُمِسَتْ كل كلمة بدم قلب كايا. وأضاف في وقت لاحق مقدمة لالتماس معترماً تقديم الوثيقة المزيدة والمنقّحة إلى أعلى السلطات في طوكيو:

التماس بشأن إعلان مرسوم حظر تقلد السيوف.

«إنني هاروكاتا، أحد أفراد الرعية المتواضعة، ولا أشغل منصباً رسمياً، ومع إدراكي للمخاطر التي أعرّض حياتي لها بتقديمي هذا الالتماس، أرفع بكل تواضع بياناً لأعضاء مجلس الشيوخ الموقرين.

إن المرسوم رقم ثمانية وثلاثين الصادر عن مكتب رئيس الوزراء في آذار (مارس) من العام الحالي يحظّر تقلد السيوف من قبل أي مواطن باستثناء الشرطة العسكرية والضباط الحكوميين الذين يرتدون زيهم العسكري كاملاً على النحو الذي تحدده اللوائح. ومع كامل الاحترام، يتعين عليَّ أن أشير ألى أن مثل هذا الإعلان يجافي الطابع القومي الفريد لأرضنا المجيدة، الطابع الذي لم يتغير منذ عهد الإمبراطور جيمو.

وتمنعني قوة شعوري الوطني من الالتزام بصمت يغلفه الذهول والتشبث بمنصبي مسدلاً على نفسي الستر. وهكذا قمت في ٢١ نيسان (إبريل) بتقديم احتجاج مفصّل إلى حاكم كوماموتو، بالصيغة الواردة أدناه، وطلبت أن يبادر بصورة عاجلة بإعفائي من كل واجب رئيسي وثانوي يتعلق

بمنصبي. غير أنه في ٧ حزيران (يونيو) أعيدت إليَّ هذه المذكرة على أساس أن المكتب الإقليمي ليس معنياً بالموضوع الوارد فيها لأنه متعلق بقانون الأرض.

ومما يدعو للحسرة أن ريفياً ينقصه الصقل مثلي ليس بمقدوره التعامل مع شكليات حضارة متقدمة! وإني لأدرك أن تعبيري تعوزه اللباقة، وإنني لست بقادر على صياغة أفكاري على نحو ملائم، وقد عاقني هذا بعض الوقت. ومع ذلك فإن روح الإخلاص التام والولاء المتواضع تواصل انتفاضها في أعماقي، ولم يعد بمقدوري مواصلة الصمت. وهكذا فإنني أجرؤ بكل تواضع على تقديم حججي مرة أخرى».

ونحن نرى في هذه المقدمة المدى الكامل لحنق هاروكاتا وغضبه اللذين طال قمعهما و«إخلاصه التام» و«ولائه المتواضع»، ثم يضيف:

«في رأيي أن تقلد السيوف عادة ميّزت أرضنا، أرض جيمو، حتى في العهد القديم، عهد الآلهة. وهي مرتبطة على نحو حميم بأصول أمتنا، ومن شأنها أن ترفع من مكانة العرش الإمبراطوري، وإضفاء الوقار على طقوس آلهتنا، وطرد الأرواح الشريرة، والقضاء على الاضطرابات. ومن هنا فإن السيف لا يحافظ على هدوء الأمة فحسب، وإنما يحمي كذلك سلامة المواطن الفرد. حقاً إن الشيء المتميز والجوهري لهذه الأمة العسكرية التي توقر الآلهة، الشيء الوحيد الذي لا ينبغي أن ينحّى جانباً، حتى ولو للحظة واحدة، هو السيف. فكيف يمكن إذن لأولئك الذين أُلْقِيَ على كاهلهم عبء صياغة وإصدار سياسة وطنية توقر الآلهة وتقوي أرضنا أن ينسوا السيف على هذا النحو؟».

هكذا قام هاروكاتا معتمداً على مصادر عديدة بحشد البراهين المناسبة على أهمية السيف في تاريخ اليابان، منذ عهد كتب الحوليات الأولى، ومغزى دوره في رفع الروح اليابانية عالياً، ومضى لإيضاح كيف أن تقلد

السيف من قبل الناس المنتمين إلى كافة المراتب كان عادة تحقق المفاهيم التي أوحت بها الآلهة لحكام اليابان القدامى. وكتب يقول:

«هناك شائعة حديثة في البلد مُفادها أن هذا المرسوم القاضي بحظر تقلد السيوف أوصى به القائد الأعلى للجيش، وزعم مروّجوها أنه سيكون من الأمور الخطيرة العواقب، بالنسبة للسلطة العسكرية، إذا ما سمح لمن هم خارج مجالها بحمل السيوف. وبعد تأمل مثل هذه الأفكار وصلت إلى استنتاج أن مثل هذا الطرح العجيب لا يمكن أن يصدر عن قائد للجيش، وإنما هو اختلاق صادر عن كسالى متبطّلين.

إن أولئك الذين يرشدون الجيش هم سيف ودرع العرش الإمبراطوري وخلاص أرض الآلهة، وينبغي على الناس النظر بمزيد من التوقير إلى كرمهم وسلطتهم وشهامتهم وحزمهم. وهكذا فإنه بالنظر إلى كل من يضطلعون بالخدمة العسكرية، باعتبارهم الأطراف المجنّحة لقادتهم، وحتى لو مضى شعب الإمبراطور الإلهي كله بالسيوف وبالحراب في كافة أرجاء الأرض، لن يؤدي هذا إلا إلى تعاظم قوة الجيش، ودعم السياسة الوطنية وإعداد الأمة لتلقي صدمات المحن التي هي أعظم وأقلّ شأناً. كيف يمكن لهذا أن يعرقل أعمال الحكومة؟ إنه لن يؤدي إلا إلى الإعلاء من شأن مجد أرض تتزايد فيها بوفرة روعة الأسلحة...

إن هذا المرسوم يأتي مناقضاً للإرادة الإمبراطورية الصادرة بشأن إلغاء العشائر وتأسيس المقاطعات، ويضرب عرض الحائط بفهم الواجب والبحث عن العدالة والحفاظ على السكينة الداخلية والدفاع عن الأمة في مواجهة التوغل الأجنبي. وهكذا فإنه يتناقض مع المشيئة الإمبراطورية. ومن دون شك فإنه سيعجّل بتحقيق القول السائر بأن الطريق إلى خراب أمة على يد الأجانب يمر بتخريبها لذاتها وأن سبيل الرجل إلى احتقار الآخرين له يمر باحتقاره لذاته».

وكما هو وارد في المقدمة فقد أعيد التماس كايا إليه من مكتب الحاكم دونما قبول له كوثيقة رسمية. وقد أضاف إليه وصاغه في قالب مناسب بعد أن عقد العزم على الذهاب بمفرده إلى طوكيو، وتقديمه إلى مجلس الشيوخ، والانتحار ببقر بطنه للتوّ. وهكذا كان أبعد ما يكون عن التوق إلى الانضمام لرفاقه في المقاومة المسلحة.

وفي غضون ذلك كان أوتاجورو يواصل كبح جماح الشبان الذين يغلي الدم في عروقهم، والذين توافدوا إليه محتجين بقولهم: «المحارب دون سيفه مخلوق تعس. فمتى تمنحنا أيها المعلم فرصة التضحية بحياتنا؟». ولكنه جمع أخيراً قادة العصبة السبعة في مزار شينجاي. وكان هؤلاء القادة السبعة موريكوني توميناجا، وماساهايكو فوكوكا، وكاجيكي آبي، ويونشيرو إيشيهارا، وكوتارو أوجاتا، وجورو فوروتا، وتسونيتارو كوباياشي. وكانت الخطة التي وضعوها كالتالي: لمّا كان رفاقهم في المناطق الأخرى من البلاد يفتقرون، فيما يبدو، لشجاعة إطلاق العنان للأمور فإنهم سيقومون بأنفسهم بتوجيه الضربة الأولى في إطار قضية الحق، بالقضاء على جميع المسؤولين العسكريين والمدنيين الكبار في المقاطعة، والسيطرة على المعسكرات الواقعة في كوماموتو. ولما كانت المجموعة بكاملها تثق أعظم الثقة بأوتاجورو فقد انتظرته حينذاك، بعد أن مضى بناء على طلبها لمشاورة الآلهة للمرة الثالثة من خلال طقس اليوكاي.

كان ذلك في وقت متأخر من إحدى ليالي أيار (مايو) من العام التاسع في عهد ميجي، وقد اجتمع أعضاء المجموعة بكاملها في المزار الإمبراطوري بشينجاي.

بعد أن طهّر أوتاجورو نفسه ولج الحرم.

جلس القادة السبعة صفاً في القاعة الأمامية للمزار بانتظار سماع مشيئة الآلهة.

عندما صفق أوتاجورو دوّى صدى الصوت عالياً في الحرم.

كانت يدا أوتاجورو كبيرتين، رغم أنهما نحيلتان، وبدا الدويّ الحاد لتصفيقهما، وكأنّ الراحتين شأنهما شأن كتلتين مجوفتين نُجِرتا على نحو خشن من شجر الأرز، قد احتجزتا هواء نقياً وسحقتاه باندفاعة متفجرة من القداسة.

وهكذا شعر توميناجا، على سبيل المثال، بأن تصفيق هاتين اليدين المخلصتين، اليدين اللتين تطهّران بسكينة مقدسة، قد تردد صداه كأنما في وادٍ غابيٍ صغير غائر في قلب الجبال.

في ليلة كهذه على نحو خاص، وفي ظلمة ساعات ما قبل الفجر، وأمطار الربيع توشك أن تقبل من البعيد، بدا رجع صدى تصفيق أوتاجورو مشحوناً بالحنين والتوق، وسمعه القادة السبعة وكأنه طرق على أبواب السماء ذاتها.

شرع أوتاجورو عقب ذلك في ترديد صلاة التطهّر، وبدا صوته المرتفع الصافي وكأنه يعجِّل بالفجر الذي سيبزغ من خلال ستار الليل ويكسو بالبياض سماء الشرق. وبالنسبة لعيون المنتظرين في القاعة الأمامية، كان هناك كمال، حتى في العرق المنهلّ مستقيماً على امتداد ظهر ردائه الكهنوتي الأبيض. وبدا صوته الصافي كأنه نصل يخترق الشرّ:

«. . . عندما يتم الاستماع لهذه التوسّلات فإن كل الأرض الممتدة تحت السماء، ابتداء من بلاط سلالة الآلهة، ستحرّر من كل تلوّث علق بها. وكما تبدّد الريح الإلهية السحب السامقة، ومثلما تكتسح نسائم الصبح والمساء غيوم الصبح والمساء، وشأن سفينة عظيمة راسية في ميناء فسيح تحرّر عند المقدمة والمؤخرة وتدفع نحو المياه العميقة، وكما يجتثّ نصل المنجل الذي صقل في النار العشب المتشابك هنالك، كذلك ستكتسح أشكال التلوّث جميعها، وتطهّر الأرض منها. . .».

أمسك القادة السبعة عليهم أنفاسهم في إجلال وهم يرقبون الطقس السرّي من القاعة الأمامية. لئن لم يتلقوا التكريس الإلهي هذه المرة فربما لن يقدر لهم قط التمكن من توجيه ضربتهم.

ساد الصمت مع اختتام ترنيمه أوتاجورو. وبدت قلنسوته الطويلة وكأنها تغوص في ظلمة الحرم الداخلي، فيما هو ممدّد غارقاً في صلاته.

كان المعبد محاطاً بأراض ريفية لا يحدّها شيء. وضاع الليل برائحة وريقات الأشجار الفضية، والحقول المخصبة، وأشجار السنديان المبرعمة، وانتشرت كل هذه الروائح على جناحي النسيم، وكان ثمّة ثقل طاغ للروائح المختلطة. ولما كانوا يجلسون في الظلمة فلم يكن هناك حتى من طنين للحشرات.

وفجأة بدّد صوت من السقف الصمت، كان صراخ بلشون ليلي يسلم جناحيه للريح، فتبادل القادة السبعة النظر بعضهم إلى بعض. وكانوا يعلمون أنهم جميعاً قد أخذتهم الرعدة ذاتها.

سرعان ما احتجبت الشموع الموقدة في الحرم للحظة، فيما كان أوتاجورو ينهض تمهيداً للعودة، وسمع السبعة المنتظرون صوت وقع قدميه فاعتبروه بشرى خير.

أعلن أوتاجورو أن الآلهة قد باركت ما تعاهدوا عليه. وإذ حصلوا على التصديق الإلهي، على هذا النحو، فإن ذلك لم يطلق يدهم في العمل فحسب، وإنما كللهم أيضاً باعتبارهم جيش الآلهة.

بوصول الأمور إلى مثل هذه المرحلة انطلق أوتاجورو لتشكيل ائتلاف سرّي مع الوطنيين في مناطق أخرى، وأرسل رفاقاً إلى عصبة ياناجاوا في تشيكوجو، وإلى فوكوكا، وإلى تاكيدا في جنوبي بونجو، وإلى تسوروزاكي، وإلى شيمابارا، وإلى ساجا، وإلى هاجي في تشوشو، وإلى مناطق أخرى. وأما فيما يتعلّق بالرفاق في كوماموتو ذاتها فقد كان عليهم دخول فترة لإماتة

شهوات الجسد تستمر سبعة عشر يوماً كان عليهم خلالها العكوف على الصلاة من أجل مشروعهم الذي حملوه في سويداء القلوب طويلاً. ولم يتم حسم أمر شيء إلا باستشارة الآلهة، بما في ذلك يوم توجيه الضربة وتجمّع الرفاق. وأما فيما يتعلق باليوم فإن المشيئة الإلهية تضمّنت التالي: «في بداية اليوم الثامن من الشهر التاسع القمري، عندما يحتجب القمر وراء الجبل». وبطريقة مماثلة عهد بالمهام إلى الرفاق بحسب القرعة الإلهية.

وهكذا قسمت المجموعة بكاملها إلى ثلاث وحدات، ثم قسمت أولاها إلى خمس مجموعات فرعية، وعهد إلى المجموعة الأولى التي قادها يونكاي تاكاتسو بمهمة الهجوم على مقرّ قائد موقع كوماموتو اللواء ماساكاي تانيدا. وأما المجموعة الثانية، وعلى رأسها يونشيرو إيشيهارا، فقد كان عليها أن تهاجم مقرّ رئيس الأركان في كوماموتو العقيد بالمدفعية شيجينوري تاكيشيما. وتمثل هدف المجموعة الثالثة بقيادة كاجيسومي ناكاجاكي في دار قائد الفوج الثالث عشر مشاة العقيد تومورا إلى يوكورا. وكان على الفرقة الرابعة بقيادة يوشينوري يوشيمورا أن توجّه هجومها إلى مقرّ ناجاسوكي ياسوكا حاكم مقاطعة كوماموتو. وأما المجموعة الخامسة بقيادة تاتيكي يورا فكان عليها أن تقضي على رئيس جمعية مقاطعة كوماموتو، وهو كورينوبو أو تاجورو. وهكذا كان إجماليّ القوة التي عهد إليها بهذه المهام حوالي ثلاثين رجلاً، ودُعيت بالوحدة الأولى. وبمجرد قطعها لرقاب العدو كان عليها أن تعطي إشارة تفيد ذلك باستخدام النار، وأن تنضم إلى القوة الرئيسية.

وأما المجموعة الرئيسية الثانية فقد كانت القوة الرئيسية، وكان قائداها هما تومو أوتاجورو وهاروكاتا كايا. وكان أكبر الأشخاص سناً، وهما كينجو يوينو وكايوسابورو سايتو، بين القادة الثانويين الذين كان من بينهم كذلك كاجيكي آبي، وكوتارو أوجاتا، وكيسو أونيهارو، وجورو فورتا، وتسونيتارو كوباياشي، وجيتارو تاشيرو، يساعدهم رجال لهم قدرة مثل جويتشرو تسورودا. وأطلق على هذه المجموعة الرئيسية اسم الوحدة

الثانية، وأُسْنِدَت إليها مهمة مهاجمة كتيبة المدفعية السادسة، وبلغ قوامها حوالي سبعين رجلاً.

والمجموعة الرئيسية الأخيرة التي عهد بقيادتها إلى موريكوني توميناجا وماساهايكو فوكوكا، كانت مهمتها مهاجمة كتيبة المشاة الثالثة عشرة، يدفعها قدماً حماس أكبر رجالها سناً، وهو ماساموتو إيكيو، جنباً إلى جنب مع رجال مثل تسوينوسي يونيو وجينجو شيبويا وتومو نوجوتشي. وكان قوامها حوالي سبعين رجلاً، ودُعيت بالوحدة الثالثة.

غير أنه كان هناك رجل واحد لم يعلن بعد استعداده للانضمام للانتفاضة المسلحة، وهو هاروكاتا كايا. وكان رجلاً ذا شخصية صلبة متمسكة بالأخلاقيات. وقد فاض قلبه بالشجاعة، وكانت عيناه تتألقان بنقاء حماسته. وكان قد برع في الأدب ونظم القصائد اليابانية والصينية على السواء، كما تميز بأسلوبه النثري البديع. وأما عن مهاراته العسكرية فقد برع في إطار مدرسة شيتين للكندو.

ولما كان قراره من شأنه أن يؤثر على معنويات الجميع فقد انطلق توميناجا والقادة الآخرون على التوالي لمحاولة إقناعه بالانضمام إليهم. وفي النهاية، وقبل انطلاق الأمر بثلاثة أيام فحسب، أبلغهم بأنه جرى استطلاع المشيئة الإلهية وتلقّى رداً إيجابياً، وأنه سيكرس نفسه للمشروع.

وكان كايا نفسه، بعد الاستقالة من منصبه الكهنوتي، قد كلّف تاتيكي يورا بأن يطرح على الآلهة مسألة مشاركته. وهكذا، في مزار كينزان الواقع على هضبة كينزان حيث يشمخ جبل كيمبو إلى الغرب وتلتف قمة جبل آسو بالغيم في الشرق، مضى يورا يؤدي محموماً طقس اليوكاي نيابة عن رفيقه. فأشارت الآلهة بموافقتها. وكانت قد أشارت إلى عدم الموافقة في وقت سابق حيال مشروع ذهاب كايا إلى طوكيو لتقديم التماسه إلى مجلس الشيوخ ثم الإقدام على التضحية بحياته.

أدرك كايا أن تردّده في تأييد الانتفاضة هو شيء ينبع من إرادته الذاتية. وأما الآن فإن مشيئة الآلهة تأخذ الأولوية بجلاء، وقد اعتقد جازماً أن الآلهة قد دعته لتكريس نفسه لهذا اللجوء إلى السلاح الذي يبدو شيئاً ميئوساً منه، وأنه بعد العنف الذي يقتضيه الأمر ستقيم بصورة من الصور مأدبة تُمدّ على قماش من بياض خالص لا تشوبه أدنى ثنية. وهكذا، ودونما تردّد، خضع كايا للمشيئة الإلهية وانضم إلى المشروع.

كيف تأهّب رجال العصبة للمعركة؟ لقد قام معظمهم بذلك من خلال الابتهال ليلاً ونهاراً من أجل أن تمنح السماء البركة لمشروعهم، وغصّت المزارات المتحالفة معهم بالرفاق الذين جاءوا للصلاة.

كانت القوات التي ستواجههم تضمّ ألفي رجل، بينما لم يزد عددهم عن مائتي رجل. واقترح أحد كبارهم، وهو كينجو يوينو، الحصول على بعض الأسلحة النارية، ولكن الرفاق ككلّ عارضوا بشدة تقلّد أسلحة البرابرة. وهكذا فإنهم لن يحملوا إلى ساحة المعركة إلا السيوف والرماح والمطارد[1]. غير أنهم من أجل تدمير المواقع صنعوا سرّاً عدّة مئات من القنابل بربط كرتين مجوّفتين محشوّتين بالحصى والبارود وإلحاقهما بفتيل إشعال. وللغرض نفسه قام ماساموتو أيكيو بشراء كمية من الكيروسين وتخزينها.

ما هي الملابس التي سيرتدونها استعداداً للمعركة؟ سيعتمر بعضهم خوذات ويكتسي الزرد، بل وسيعتمر البعض القلنسوات الطويلة والثياب المراسيمية التي درج النبلاء قديماً على استخدامها. ولكن معظمهم سيرتدي هاكاما قصيرة فوق ملابس الحياة اليومية، ويتقلد سيفين يتدليان من حزامه. وسيلفّ كل منهم قطعة قماش بيضاء حول رأسه، . ويربط أكمامه

---

(١) المطارد: جمع مطرد ـ بكسر الميم ـ وهو سلاح قديم مؤلف من رمح وفأس حرب (هـ. م)

بقطع من القماش الأبيض، ويثبت قطعة قماش بيضاء على كتفه تحمل كلمة «نصر».

غير أنهم سيثقون بأكثر من ثقتهم في أسلحتهم ومعداتهم وراياتهم في الأيقونة الإلهية التي سيحملها تومو أوتاجورو على كاهله. لسوف يكون الإله الذي يحمله أوتاجورو إلى المعركة متمثّلاً في أيقونة هاتشيمان إله الحرب المتجلّي في مزار فوجيساكي قائدهم المحجّب، القائد الذي سيوجه على نحو غامض جهودهم، وفي هذا يكمن تحقيق وصية معلمهم الراحل التي أوصى بها على فراش موته.

ذلك أنه حينما سمع المعلم أورين في شبابه باقتحام السفن الأميركية للمياه اليابانية، وانطلق إلى مدينة إيدو للانتقام لهذا التدنيس لليابان، كان يحمل على كاهله هذه الأيقونة الإلهية ذاتها.

الجزء الثاني
معركة اليوكاي

كان على القوة بأسرها أن تتجمّع في دار أحد كبار القادة، وهو ماساموتو آيكيو، وراء مزار فوجيساكي هوتشيهان مباشرة، بصفوفه الهائلة من أشجار الكافور التي تكفل حمايتهم من الأعين. وكانت هذه الدار تقع في كثيب عند الحافة الغربية للحد الخارجي الدفاعي الثاني للقلعة العتيقة، غير بعيد عن حامية كوماموتو.

ولكي يستطيع حوالي مائتي رجل مسلح التجمع هنا، دون أن يلحظهم أحد، التقت مجموعات صغيرة عند الغسق في نقاط لقاء متعددة، ومن هناك شقّت طريقها إلى نقطة الزحف تحت جنح الليل.

كان بمقدورهم ها هنا إلى جوار دار آيكيو رؤية قلعة كوماموتو ناهضة نحو السماء المتوشحة بالليل تحت قمر اليوم الثامن من الشهر التاسع. وشمخ البرج العظيم عند قلب القلعة ذاته عالياً، وقد استحمّ في ضوء القمر، وإلى يساره ارتفع البرج الأقل ضخامة. وأكثر إيغالاً إلى اليسار امتد الخط الخارجي للسقوف المستوية للقاعة الرئيسية وأجنحة النساء ناتئاً لمسافة قصيرة قبل أن ينتهي عند بُرَيْج أودو الذي برز هيكله الخارجي نحو السماء. وإلى يمين البرج العظيم، عند نهاية الخط غير المنتظم للسقوف، ارتفع برجان نهائيان أقل ارتفاعاً، هما بُرَيْج سانجاي وبُرَيْج تسوكيمي، وأسطحها القرميدية تأتلق في سنى القمر. وكان بُرَيْج تسوكيمي يطلّ على أرض ساكورانوبابا المرتفعة إلى الغرب من القلعة مباشرة حيث يرقد رجال المدفعية الذين ستُغِير عليهم الوحدة الثانية.

غاب القمر.

انطلقت الوحدة الأولى التي كان هدفها الانقضاض على مَقارّ كبار المسؤولين. وكانت الساعة تدنو من الحادية عشرة. وقد رقّشت النجوم السماء وكسا الندى عشب مرتفعات فوجيساكي الوفير.

رحلت عقب ذلك الوحدة الثانية وعلى رأسها أوتاجورو وكايا، وفيما هي تمضي باتجاه كتيبة المدفعية رحلت الوحدة الثالثة بدورها في طريقها إلى معقل المشاة.

ارتقى الرجال السبعون الذين يشكّلون قوام الوحدة الثانية، وهي القوة الرئيسية للانتفاضة، منحدر كاتاكو وانقسموا إلى قسمين كان على أحدهما اقتحام البوابة الشرقية لمعسكر المدفعية والآخر الهجوم على البوابة الشمالية، فألفيا البوابتين كلتيهما موصدتين بصورة محكمة. وعند البوابة الشرقية قدَّر اثنان من خبراء رجال السيف الشبان، هما واهاي آيدا البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً وجيتارو تاشيرو، وهو في السادسة والعشرين من العمر، ارتفاع السور بحماس مفعم بالجسارة وصاحا: «أول من يعبر!» ودخلا المعسكر، وفي الحال قضيا على الحارسين اللذين تصديا لهما. وتبعهما عبر السور تسونيتارو كوباياشي وتاداجير وتانابي، ثم أمسك تاشيرو بمدقة من قاعة المطعم القريب ومضى مندفعاً فحطم مزلاج البوابة، فتدافعت القوة بأسرها كأنها التيهور ودخلت المعسكر.

وقرب البوابة من الداخل مباشرة تغلّب كانجو هايامي على جندي وشد وثاقه معتزماً الضغط عليه لاستخدامه كدليل.

وفي غضون ذلك سقطت البوابة الشمالية بدورها، واندفع القسم الآخر من الوحدة الثانية قدماً للمشاركة في قطع الطريق إلى الثكنتين التابعتين لرجال المدفعية. وقد استيقظت القوات من نوم عميق على صيحات القتال الصاكّة لتغوص في ذعر كاسح حيال النصال الملتمعة في الظلام. وإذ أحيط بأفرادها تماماً فقد اندفعوا ينشدون السلامة بالانزواء في أركان شتى من

الثكنتين. وانطلق الضابط المناوب في مقر قيادة الكتيبة لهذه الليلة، الملازم الثاني المدفعي كايتشي ساكايا، يعدو هابطاً الدرج من غرفة المناوب بالطابق الثاني، وتصدى للسيوف المندفعة بمِعْوَله المجّرد. غير أنه، إذ جرح سريعاً، هرب عبر الباب الخلفي، وراح يرقب المشهد من بين الظلال.

لاذ الجنود الذين غاب عنهم القائد بالفرار وكأنهم نسوة وأطفال عمهم الفزع. وفيما الملازم يتطلع إلى المشهد اندلعت ألسنة اللهب من الثكنة الشرقية. وفي مواجهة الدخان الأسود المنتشر اندفع الجنود الذين اختبأوا في الثكنة مُلقين بأنفسهم من النوافذ لتطردهم، وتبدّد شملهم، سيوف المهاجين ذوي الأردية الغريبة. وحينما رأى الضابط الشاب هذا مضى يعض على النواجذ.

أضرمت النار باستخدام القنابل والكيروسين في الثكنة الشرقية على يد تسونيتارو كوباياشي وواهاي آيدا ورفاقهما، وفي الثكنة الغربية على يد كاتسوتارو يونيمورا ورفاقه. ولم يكن أي من آيدا وكوباياشي يحمل ثقاباً، فاضطرا إلى مناداة رفاقهما طالبين «الفوسفور»، على نحو ما كانت أعواد الثقاب تدعى؛ ليشعلا الفتائل.

تجنب الملازم ساكايا وهج ألسنة اللهب وشق طريقه إلى عيادة الحامية وقام مسرعاً بتضميد جرح ذراعه الأيمن، ثم ألقى بنفسه من جديد في ساحة الوغى وواجه بعض الجنود الفارين وحاول قيادتهم، ولكن الجنود المذعورين لم يعيروا أوامره انتباهاً. وحينما أفلح أخيراً في تشجيع قلة منهم لفتت جهوده نظر كايو سابورو سايتو الذي اشتهر بمهارته في القتال بالحربة، والذي أقبل مسرعاً ليشن هجومه.

رفع الملازم ساكايا مِعْوَله بذراعه الجريحة، ولكن ضربة سايتو اخترقته للتو فهوى مطلقاً صرخة مريرة. وكان أول ضابط في القوات الحكومية يلقى حتفه في الصراع.

في أثناء ذلك كان يوشينوري يوشيمورا ورفاقه من رجال القسم الرابع من الوحدة الأولى قد جرحوا الحاكم ياسوكا جرحاً بليغاً في غمار القتال الضاري، لكنهم أخفقوا في احتزاز رأسه، ثم انسحبوا من مقر الحاكم وأسرعوا ناهبين الطريق نهباً عبر جسر جبيبا، وقد اجتذبتهم صيحات المعركة وألسنة اللهب المتصاعدة داخل أسوار القلعة. وترك كاجيكي آبي عملية الإطاحة النهائية بالعدو ومضى ليلقى رفاقه، وعندئذ علم بنتيجة المعركة التي خاضوها وبفقدان موتويوسي آيكو بعمره الغضّ الذي لم يتجاوز سبعة عشر ربيعاً، ليكون بذلك أول من يسقط من عصبة الريح الإلهية.

لم تكن الأسلحة الصغيرة موزعة على رجال المدفعية بالحامية، وقد لقي من تأخر منهم في الهرب حتفه حرقاً أو تناهشته النصال المتألقة في أيدي رفاق العصبة، ولقد تناثرت جثثهم أكواماً. وتصادف أن جاء في تلك اللحظة كيسو أونيهارو الذي أمعن في العدوّ قتلاً باندفاع بالغ الحماس، وإذ رأى يوشيمورا فقد ارتسمت على فمه ابتسامة عريضة. رفع سيفه المخضب بالدم بحيث تألق في الوهج الذي يشبه ضياء الظهيرة، والذي أحدثته ألسنة اللهب التي مضت تلتهم الثكنتين، وراح يتطلع إليه بسخرية يخالطها المرح وهو يقول: «حقاً هذا هو ما تستحقه قوات الحامية!». وحتى ملابسه التي كساها دم العدوّ مضت تتألّق بلون قرمزي في ضوء ألسنة اللهب، ثم اندفع مطارداً فلول العدوّ.

لقد سحق رفاق العصبة كل أشكال المقاومة هنا، وقُدِّر لساعة واحدة أن تجلب لهم النصر.

أعاد أوتاجورو وكايا تشكيل قوتهما، ولكن فيما كانا ينسحبان لمحا وهجاً قانياً ينير السماء فوق معسكر المشاة داخل الحد الدفاعي الثاني للقلعة. وأدرك كايا مدى ضراوة المعركة هنا فهتف برجاله داعياً إياهم للمساعدة في الهجوم على حامية المشاة. وبدت الكتلة السوداء لقلعة كوماموتو بارزة في

مواجهة السماء القرمزية. وفي يامازاكي وموتوياما والمناطق الأخرى من المدينة شبّ المزيد من الحرائق. ووقفت ألسنة اللهب تلك التي مضت تتراقص متصاعدة إلى عنان السماء، دليلاً على الضراوة التي وجه بها رفاقهما ضرباتهم. وبعيون خيالهما شاهدا الشخوص الشجاعة لإخوانهما في السلاح الذين طويت قلوبهم على الإخلاص إلى الأبد، وهم يتقدّمون تجاه النيران المدوِّمة وكل منهم يبطش بالعدو بنصل يلتمع. لقد كانت هذه هي الساعة التي من أجلها كبحوا جماح غضبهم المتأجّج وشحذوا نصال سيوفهم سرّاً. امتلأ صدر أوتاجورو بنشوة تستعصي على الوصف، فغمغم قائلا: «الجميع يقاتلون، الجميع».

أما الوحدة الثالثة التي يقودها موريكوني توميناجا وماساموتو آيكيو وماساهايكو فوكوكا وهيتوشي آراكي فإن الرجال السبعين الذين تضمهم هذه الوحدة قد غادروا جوار مزار فوجيساكي في الوقت الذي انطلقت فيه القوة الرئيسية بقيادة أوتاجورو وكايا. وكان هدفها، وهو معسكر فوج المشاه الثالث عشر، يقع في داخل الحد الدفاعي ذاته للقلعة شأن المعبد نفسه، وإن كان عند الحافة الشرقية لهذا الحد، بينما المعبد يقع عند الحافة الغربية. وكانت قوة العدو قرابة ألفي رجل.

حينما وجدوا البوابة الغربية لمعسكر المشاه موصدة أمامهم ارتقى هاروهايكو نوموزاوا الذي لا يزيد عمره على عشرين عاماً الأوتاد الخشبية المدببة وصاح: «أول من يعبر!» ووثب إلى الجانب الآخر، وتبعه في الحال العديد من الشبان، وهرب الحارس الوحيد عبر أرض التدريب لينذر الآخرين بالنفخ في النفير، ولكنه لم يكد يضع النفير على شفتيه حتى تعاورته السيوف في موضعه.

كان هيتوشي أراكي قد أقبل مزوّداً بسلّم من الحبال، وقد طوح بهذا السلم عالياً بحيث اشتبك مع أعلى الأوتاد الخشبية ثم سارع باعتلائه،

ولكن الكثيرين أمسكوا بالسلم كذلك بحيث أنه تهاوى ممزقاً، وعندئذ أحنى كايوشيتشي خادم أراكي المطيع كتفيه لسيده، وهكذا عبر الكثيرون واحداً وراء الآخر السورَ بهذه الطريقة وفتحوا البوابة من الداخل. وبصيحة قتال هائلة اندفعت المجموعة بأسرها لتهاجم المعسكر.

أمسك ماساهايكو فوكوكا بمطرقة هائلة وحطم بها أبواب الثكنة واحداً بعد آخر، وألقى رفاقه داخل الأبواب بالقنابل، وسرعان ما عمّت ألسنة اللهب الثكنة التي تضمّ مقرّ قيادة الفوج، بالإضافة إلى الثكنات التي تضمّ السرايا الأولى والثانية والثالثة من الكتيبة الثانية.

ووفقاً لما كان سارياً العمل به من ممارسات عسكرية، لم تكن الذخيرة توزع على الجنود في زمن السلم. وهكذا فإن الأسلحة الوحيدة التي كانت مستخدمة هي السيوف للضباط، والأسلحة البيضاء المثبتة في مقدمة البنادق بالنسبة لرجالهم. وإذ أحاطت بهم صيحات القتال وألسنة اللهب المندلعة وسحب الدخان الأسود المنتشرة ونصال السيوف المتألقة حولهم لم يجدوا أمامهم من سبيل إلى المقاومة. وقتل النقيب الذي كان يتولى مهام الضابط المناوب في الفوج قبل أن يتمكن من جمع قواته، وسرعان ما تكوّمت جثث رجاله أكواماً دون أن يقدر لأصحابها أن يتمكنوا من ارتداء ما يتجاوز قمصانهم قبل مصرعهم، بينما بدت جثث أخرى عارية. وسرعان ما ابتلعتها ألسنة اللهب وسحب الدخان الأسود.

كان الوحيد الباقي على قيد الحياة هو الملازم الثاني أونو الذي كان ما يزال يشهر مِغْوَله ويواصل القتال بعناد مرير، ولكن فيما كان رقيبان يندفعان لمساعدته تعاورت السيوف الرجال الثلاثة فخرّوا صرعى.

في هذه اللحظة اندفع القسم الثالث من الوحدة الأولى إلى المعسكر عبر بوابة الحد الثاني للدفاع، للانضمام إلى الوحدة الثالثة. وفي غمار هجوم القسم الثاني كانت طريدته المتمثلة في العقيد يوكورا، قائد الفوج، قد تمكنت

من الإفلات من قبضة المهاجمين، ولكن معنويات القوّات التي وحّدت صفوفها راحت الآن تحلّق إلى ذرى جديدة.

غير أنه في مواجهة فوج كامل من المشاة كانت المعركة تنتمي إلى نوع آخر يختلف عن المعركة التي دارت رحاها في مجمع رجال المدفعية. فقد كان هناك حد لعدد الرجال الذين يمكن القضاء عليهم باستخدام النصال وحدها. وعلى الرغم من أن كل هجوم كان يثير الذعر والفوضى في الجانب من المعسكر الذي يتعرض للهجوم، فقد استغرق الأمر وقتاً لكي تنتشر موجات الذعر. وهكذا تمكن البعض من تهدئة روعهم. وبرؤية أوضح للموقف استطاعوا أن يقدروه على نحو سليم. والآن أصبحت القنابل التي خدمت رجال العصبة خدمة جليلة بإلقاء الرعب في نفوس أعدائهم تعمل ضدهم، ذلك أنه فيما تصاعدت ألسنة اللهب عالية من الثكنات، وراح رجال العصبة يقفزون هنا وهناك في فصوح يشبه جلاء رائعة النهار، غدت واضحة ضآلة عددهم التي تستعصي على التصديق.

بعد أن لاحظ أحد الضباط ذلك قاد بعض القوات، وشكلهم في صورة حلقتين في ميدان التدريب وقد شهروا حراب بنادقهم في كل الاتجاهات وكأنها أطراف نبات شائك، وذلك للقيام بهجوم مضاد. ولمواجهة هذا التهديد أمسك القائد المخضرم ماساموتو آيكيو بحربته التي أتقن استخدامها، واستحث عشرة من رفاقه جمعوا حرابهم إلى حربته واندفعوا نحو رجال المشاة المتكتلين. وفي الحال انفضّ تشكيل القوات، ولاذ رجالها بالفرار، ولم يصمد في موضعه إلا رجلٌ واحد هو المرشح تاراد، فهوى وقد تناهشته الحراب.

وقبل ذلك كان ضابطان هما الملازم أول مشاة ساتاكي والمرشح نوماتا اللذان لم يقضيا ليلتهما في المعسكر يهرعان عائدين إليه بعد أن أثار قلقهما مرأى ألسنة اللهب وهي تتعالى. وعند منحدر هوكي التقيا ببعض الرجال

الذين أحيط بهم، وعلما منهم طبيعة الموقف. كانت مياه الخندق الـواقع إلى الشمال من المنحدر تتألق بلون قرمزي بتأثير السماء التي تعالت ألسنة اللهب إليها منعكسة على الخندق. وفيما الضابطان يسألان الرجال عن الموقف أقبل المـزيـد من الـرجـال منهمكـين في جمـاعـات كـل منهـا يتـألف من رجلين أو ثلاثة، وجحيم المعسكر المحترق من ورائهم، وظلالهم تتداخل في ظلال الآخرين.

مضى الضـابـطان يقـرّعـان الـرجـال لأنهم لم يكـونـوا يـرتـدون الـزي العسكري، ولأنهم أوشك الرعب أن يفقدهم القدرة على الحديث. وهكذا أفلحا في جمع فصيلة مؤلفة من ستة عشر جندياً، ولكنهـا تفتقر إلى البنـادق والذخيرة على السواء.

غير أنه تصادف أن ظهر رجل يدعى كيتشيزو تاتشياما، وهو تاجر حاذق كان يتعامل مع العسكـريين، وقدم من متجره عدداً كافياً من البنادق ومـائة وثمانين رصاصة وألف قدح كبسولة. وابتهج الضـابطان كثـيراً حيال هـذا، وارتفعت أخـيراً معنويـات قواتهـما المحـطمـة. وعقب ذلـك تـولى كـل من الضابطين قيادة نصف سريتهما، وشقّا طريقهما إلى المعسكـر مجتازين دربـين مختلفـين، فعاد المـلازم أول ساتـاكي عن طريق البـوابة الخلفيـة، والمرشـح نوماتو عن طريق بوابة الـطوارىء. وحينما ضـمّا صفوفهـما من جديـد تزايـد عـدد رجالهـما بانضـمام الناجـين إليهم، وتحصنت القوات في ثكنـة لم تحترق بعد، وشرعت في إطلاق النار.

كان العقيد تومورازاني ياكورا، قائد الفوج، في مقره بمـرتفعات كيـوماتسي حينما تعرض المقر للهجوم من جانب القسم الثالث من الوحدة الأولى. وقد أيقظت تسوروكو زوجة العقيد رجلها في اللحظة التي سمعت رجال العصبة وهم يقتحمون المكان عبر المدخل الأمامي، فأدرك الموقف عـلى الفور، ولاذ بالفرار إلى المقر الذي يحتلّه سانسو خيله، وهنالك انتزع سترة أحد العاملين

من مشجب كانت معلقة عليه وارتداها مسرعاً، فيما كان اثنان أو ثلاثة من رجال العصبة يقتحمون الغرفة، وهوى أحدهم بضربة سيف على كتفه، ولكنه عندما توسل إليهم قائلاً: «أبقوا على حياتي، فلست إلا سائس خيل» تمكن من تخليص نفسه من أعدائه.

عقب ذلك لاذ القائد بالفرار إلى مطعم إتشتجتسو الواقع وراء معبد كينزان، وهناك ضمد صاحب الفندق جرحه على عجل، وعمد القائد إلى حلاقة شاربه، وأمعن في التنكر بارتداء سترة نادل، وشق طريقه متنكراً على هذا النحو عبر القوة المعادية، ووصل أخيراً إلى السور الخلفي لقيادة مشاته.

وبعد أن اعتلى السور وأطل على المعسكر لمح الشخوص المسرعة لضابط واثنين من المجندين، وإذ تعرف على النقيب تاكيجاوا راح يناديه. توقف النقيب، وحدق مصدوماً في قائده وهو يعتلي السور وقد تنكر على هذا النحو. ولكنه أدرك أنه القائد حقاً، فأسرع إليه وهو يهبط من فوق السور، وقدم إليه تقريراً عن المعركة. في غضون ذلك كان الضابط المناوب للكتيبة الثانية، الملازم سوزوكي، قد حشد سرية من الجنود وراح يسعى لتجنب الهزيمة، ولكن ذخيرته نفدت بصورة تدعو لليأس. والآن راح النقيب تاكيجاوا بنفسه مع اثنين من الجنود يشقّون طريقهم إلى مستودع الذخيرة لجلب ما بقي بعد المناورات منها.

ـ طيب، عجل بجلبها!

هكذا رد العقيد يوكورا مسرعاً، ثم اندفع إلى قلب قواته المتناثرة مصدراً الأوامر ومستجمعاً عناصر قيادته التي أحيط بها. ومع عودة القائد إلى جنوده تأجّجت في نفوسهم إرادة مواصلة القتال.

تم دعم إمداد الذخيرة الذي جلبه الملازم ساتاكي والنقيب تاكيجاوا

بإمداد من مقر القيادة العامة. وبتقوية الفوج، على هذا النحو، غـدا أخيراً في حالة تسمح له بإثبات قدراته.

في مقر القيادة العـامة كـان الرائـد جينتارو كـوداما، وهـو ضابط أركـان أصبح فيما بعـد قائـداً عامـاً، قد وصـل إلى الساحـة وفتح أبـواب مستودع الذخيرة على مصاريعها، وراح يمد الجنود الذين أرسلهم العقيد يوكورا بها، ثم قاد بنفسه سرية من الجنود إلى نقطة مرتفعة في الحد الداخلي للدفاع عن القلعة حيث تمكنوا من الإطـلال على المعسكـر الذي راحت النـار تلتهمه، ورأوا بوضوح شخـوص رجال العصبـة الذين ألقت الضـوء عليهم بوضـوح ألسنة اللهب في القتال الدائر في أرض التدريب. وصوّب رجـاله أسلحتهم نحو الدروع المتـألقة وأرديـة البلاط العتيقـة وعصابـات الرؤوس البيضـاء، وأصدر هو أمراً بإطلاق النار الجماعي.

كانت الكتيبة الثـالثة من الفـوج متمركـزة على نحـو منفصل في حـدائق القلعة فنجت من هجوم العصبـة. كما أنها زودت في اليـوم السابق كـذلك ببنادق من طراز شنايدر وبالذخـيرة. وقد وزعت هـذه الذخـيرة على قـوات سريتيهـا التي انطلقت في الحـال لإغاثـة رفاق السـلاح، فـأسرعت السريـة الأولى صاعدة منحدر كايتاكو، واخترقت السرية الثانية المعسكر بعبور جسر جيبا.

وفي أثنـاء ذلك قـامت الوحـدة الثانيـة من قوات العصبـة التي يقـودهـا أوتـاجورو وكـايا، والتي مضت للمسـاعدة في الهجـوم على حـامية المشـاه، باقتحام البوابة الجنوبية والانـدفاع إلى المعسكـر لتجد أن مسـار المعركـة قد انقلب، وأنها قد سقطت في الشرك. وكافح رجالها محتمين بالمبـاني والأسوار الحجـرية لـلالتحام بخصـومهم، ولكنهم إذ ألفوا أنفسهم عـاجـزين حيـال زخات الرصاص، لم يملكوا إلا العضّ على النواجذ وضمّ قبضات الأيدي. وكان وصول الوحدة الثانية قد منح رجال العصبة الآخـرين أملهم الأخير.

فلئن عـرض رجل نفسـه فإنـه سليقى حتفـه عـلى الفـور، وأمـا إذا تشبّث الجميع بمكامنهم فـإن الهزيمـة تغدو حتميـة. ولم يكن هناك من سبيـل لشنّ هجوم على البنادق المحتشدة.

تحدث كينجو يونيو، البالغ من العمر ستة وستين عاماً، فيما هو جاثم في مخبأ يتطلع إلى رفاقه من حوله: «رغم أنني أصررت على أن نتزود بالأسلحة النارية فإن أحداً لم يُعِرْ قولي اهتماماً، والآن ها قد وصلنا إلى عنق الزجاجة هذا» ووافق الجميع في قرارة قلوبهم على ما كان يقول.

غير أن ما كان رجال العصبة على استعداد للمغامرة به، من خـلال رفض استخـدام الأسلحة النـارية، قـد أوضح مقصـدهم. لسوف يكـون العون الإلهي من نصيبهم، وقد كان هدفهم هو على وجه التحديد تحدّي الأسلحة الغـربية التي تمقتهـا الآلهة بـالسيوف وحـدهـا. ذلـك أن الحضـارة الغـربيـة ستعمـد بمضيّ الوقت إلى البحث عن أسلحـة أشد هـولاً، وستـوجههـا إلى اليابان، ثم أليس من الممكن أن يسقط اليابانيون أنفسهم في غمار حـرصهم على الرد على هذه الأسلحة، في وهدة قتـال وحشي، ويفقدوا كـل أمل لهـم في اسـترجـاع العبـادة القـديمـة التي يجلهـا المعلم أوين أعـظم الإجـلال؟ والنهوض إلى المعركة بالسيوف وحدها والاستعداد للمخاطرة حتى بالتعرض لهـزيمة سـاحقـة ـ مـا من طـريقـة أخـرى غـير هـذه يمكن عـبرهـا أن تجـد الطموحات المحمومـة لكل رجـل من رجال العصبـة التعبير عنهـا. ها هنـا يكمن جوهر روح ياماموتو الشجاعة.

وإذ أشعلت إرادة متـوقـدة النـار في فؤاد كـل منهم فقـد انـدفعـوا متخلين عن مكانهم للهجوم عبر أرض التدريب التي تضيئها النار.

رفع آيكي فوكامي سيفه الذي أبدع صنعه راي كونيمتسـو، وإلى جواره هارو هايكو نومازاوا، واندفع عبر فيض من الطلقـات. أصيب نومـازاوا،

في الحال تقريباً، في ذراعه اليمنى. واحتجب عن خصومه ومزق قطعة من ردائه بأسنانه ولفها مسرعاً حول ذراعه الجريحة. أما فوكـامي فإنـه، بعد أن تقدم خمسة عشر متراً أخرى أو نحو ذلك، سقط مصاباً برصاصة في صدره. فأسرع إليه ماساهايكو فوكوكا، ولكنه لم يكد يرفعه بين ذراعيه حتى أدرك أن رفيقه قد لقي حتفه، فصرخ صرخة غاضبة مترعة بالعذاب، ولوح بسيفه في غضب وهاجم العدو المتجمع، ولكنه سقط أمام زخة قاتلة من الرصاص. وعندئذ وثب تومازاوا.الذي يبدو أن جرحه لم يعق حركته ليهاجم الأعداء على الفور، لكن رصاصة اخترقت صدغه من الجنب.

كان هاروكاتا كايا خبيراً في الاستخدام المزدوج لكل من السيف الطويل والقصير. والآن رفع سيفيه المثلمين في معارك يائسة لا حصر لها وقد خضبهما الدم، وحدق في العدو. ورأى بعين خياله شيرو أخاه الأصغر، شيرو الذي انتحر ببقر بطنه على جبل تينو عقب الهجوم الفاشل الذي قام به ساموراي تشوشو على القصر الإمبراطوري. والآن هو بدوره في الحادية والأربعين من العمر سيلقى حتفه مدفوعاً بالروح ذاتها. وكان كايا قد تردد في تبني موقف العصبة من هذا المشروع، إلى أن أشارت الآلهة بموافقتها، قبل ثلاثة أيام فحسب. غير أنه لم يكن لديه ما يندم عليه. وها هنا في هذا الميدان سيصل مصيره إلى الأبد بمصير رفاقه.

شهر كايا سيفيه وقاد الرجال حوله في هجوم ضار مجتذباً إلى نفسه النيران المركزة من العدو. فجرح جرحاً قاتلاً، وندت عنه صرخة أخيرة: «هاتشيمان، يا إله المعارك!» وخرَّ صريعاً.

في حوالي ذلك الوقت لقي ثمانية عشر رجلاً من رجال العصبة مصرعهم، ومن بينهم القائد المخضرم كايو سابورو سايتو جنباً إلى جنب مع هيتوشي أراكي وهيرونوبو سارواتاري وتومو نوجوتشي. وجرح عشرون

آخرون، بمن فيهم ماساموتو آيكو ويوشينوري يوشيمورا وكينجو يونيو ويوشيو توميناجا.

اندفع أوتاجورو وهو يحدق غاضباً ومتجاهلاً أولئك الذين هتفوا به أن ينسحب، وألقى بنفسه في الميدان قاصداً صف العدو، فاخترقت رصاصة صدره.

وقام جونشيرو واثقاً بقدرة سيوف أونيهارو ورفاقه الحادة على كبح جماح هجوم القوات الحكومية المتسلحة بالبنادق المثبتة في مقدمتها الحراب، بحمل أوتاجورو على كاهله، ومضى به عبر منحدر هوكي، ومن هناك وبمساعدة زوج أخت أوتاجورو المدعو هايديو آونو أحضره إلى إحدى الدور.

كان جرح أوتاجورو قاتلاً. فراح يفقد وعيه ويسترده، ورغم ذلك أفلح في سؤال يوشيوكا وأونو عن اتجاه رأسه فأجابا واحداً وراء الآخر بأن رأسه في اتجاه الغرب. فقال لهما: «إن سمو الإمبراطور الإلهي يقطن في الشرق، فسارِعا بتحديدي بحيث يتّجه رأسي إلى هذا الاتجاه!» فقاما بذلك.

ثم أمر أوتاجورو أونو بأن يضرب عنقه، وبصوت أخذ منه الوهن طلب منهما أن يحملا رأسه إلى مزار شينجاي جنباً إلى جنب مع أيقونة هاتشيمان الإلهية.

كان من الممكن أن يقتحم العدو الدار في أية لحظة. ولم تكن لدى هايديو أونو إرادة توجيه مثل هذه الضربة إلى شقيق زوجته. ولكن حينما استحثه يوشيوكا على القيام بذلك جرد أخيراً حسامه من غمده. وبمزيد من الحرص مسح دم الأعداء الذي يلطخه وطهر النصل، ثم رفعه فوق رأسه وسدده نحو عنق شقيق زوجته. وكان يوشيوكا قد ساعد أوتاجورو على

الجلوس معتـدلاً ورأسه يتـداعى، ولكنه يـواجه المشرق. وفي اللحـظة عينها التي أوشك فيها جذع شقيق زوجته الذي وضع في هذا الوضع المرتبك على التهاوي إلى الأمام، اندفع نصل أونو إلى أسفل محتزّاً العنق.

الجزء الثالث
التوحد مع الآلهة

يقع جبل كيمبو على بعد أقل من أربعة أميال إلى الغرب من قلعة كوماموتو، وشأن الجبل الواقع في ياماتو الذي يستمد اسمه منه، فإنه يلقى التوقير باعتباره قمة مقدسة، وعلى قمته ينتصب مزار مكرس للإله زاو.

وعلى الرغم من صغر المزار فإن له تاريخاً طويلاً. ففي عام ١٣٣٣ ـ العام الثالث من عهد جينكو ـ صعد إليه الأمير تاكيشيجي كيكوتشي سائلاً اللطف الإلهي قبل الانطلاق إلى المعركة. وانعقد له لواء النصر فأمر بإعادة بناء المزار عرفاناً وامتناناً. وبحسب ما هو متداول فقد قام بنفسه بنحت أيقونة العبادة مردداً صلاة ثلاثية بعد كل ضربة إزميل. وتمثل هذه الأيقونة الإله واقفاً على قمة الجبل وقد رفع إحدى يديه عالياً، ومضى يحدق في الحشد المسلح الذي باركه. لقد كانت أيقونة نصر.

غير أنه الآن، عشية الانتفاضة، وفي وقت مبكر من اليوم التاسع الميمون من الشهر التاسع، وهو موعد مهرجان الأقحوان، اجتمع حول المزار ستة وأربعون من الناجين من القوة المهزومة الذين تجري مطاردتهم. وقف بعضهم، وجلس البعض الآخر، وراحوا يحدّقون فيما حولهم في شرود، على الرغم من أن برد الخريف الذي اخترق العظام جعل جروحهم تنبض ألماً. وألقى ضوء الشمس المشرقة الجلي مزيجاً متجانساً على الأرض وهو يتألق عبر أغصان أشجار الأرز العتيقة القليلة المحيطة بالمزار. ومضت الطيور تغرد، وبدا الهواء بليلاً وصافياً. وأما آثار قتال الليلة الماضية الدموي فقد بدت جلية في الملابس المتسخة الملطخة بالدم، والسِحَن التي علاها الإرهاق، والعيون المتّقدة كالجمرات.

وكـان بين النـاجين الستـة والأربعين يـونشيرو إيشتيهـارا وكـاجيكي آبي وكيسـو أونيهارو وجـورو فوروتـا وتسونيتـارو كوبـاياشي، والأخَـوان كاشيـما وكانجو هايامي. وسـاد الصمت الجميع، وغـرق الكل في رحـاب التفكير متطلعين إلى البحر أو إلى الجبال أو إلى الدخان الذي كان ما يزال يتصـاعد من كومامونو.

أولئـك كانـوا رجال العصبـة الـذين راحـوا عـلى هـذا النحـو يلتقـطون أنفاسهم على منحدر كيمبو، وقد اصفرّت أصابع بعضهم من جـراء تمشيط بتلات زهور الأقحوان البرية التي قطفوها، فيما هم يحدقون عبر الماء في شبه جزيرة شيمبارا.

قبل طلوع النهار كان الطريق المؤدي إلى البحـر يمتد مفتـوحاً أمـامهم في هربهم، فقد عرضت على رجـل من رجال العصبـة، هو جـورو كاجـامي، ستـة قوارب من قبـل عائلة كـانت لها قـوتها في أيـام العشائـر، ولكن هذه القوارب التصقت غائرة في الوحل مع الجزر الصباحي، وما كان يمكن لأي قدر من الشدّ أو الدفع أن يحرّرها من الوحل. ولما كانت المطاردة قائمة على قدم وساق فلم يكن أمام رجال العصبـة من خيار إلا التخـلي عن القوارب وشقّ طريقهم نحو جبل كيمبو.

تشـابكت سفوح التـلال من حولهم مـع وديان صغـيرة تـرقشهـا القـرى وامتدت حقول منتزعة من الجبال وأخرى مسطحة زرعت بالأرز بعيداً حتى المنحـدرات الموغلة في انحـدارها. وتنـاثرت هنـا وهناك أيكـات تتوّج زهـوراً بيضاً أشجارَها، على امتداد حقول الأرز الذي كان يشق طريقـه موغـلاً في النضج. امتدت الغابة الجبليـة عبر الأرض المتمـوجة حـول مجموعـة القرى الصغيرة المتناثرة وكأنها وسـائد وضعت في الشمس لتجفّ، وامتصّت أوراق الأشجار التي كانت لا تزال عميقة الخضرة، في هذا الوقت المبكر من فصل الخـريف، الضوء الصبـاحي المـراوغ لتشكّـل تمـوّجـات رقيقـة من الضـوء

والظل. في تلك القرى قبعت دور رجال كانت تربيتهم تختلف عن تربية رجال العصبة. ترى هل يقدر لهم في وقت ما أن يستشعروا بدورهم المشاعر القوية التي تثيرها معركة حاسمة في النفوس؟ هل يقدر لهم ذلك هم الذين كانت حياتهم الآن تبدو مسالمة للغاية ولا يتخلّلها حادث يذكر؟

إلى الغرب من كوتشي امتدّ رأس بحري على شكل فرس بحر بعنق أخضر ممتد في البحر. وإلى الغرب منه كانت هناك دلتا نهر شيراكاوا الموحلة التي تأخذ شكل مروحة. ولو أن رجلاً حوَّل ناظريه هابطاً بهما من الحدآت المدوِّمة في السماء، فوق القرى الجبلية القريبة، لرأى المسطح الطيني الذي يضجّ بالطيور الهائلة التي ترفّ بأجنحتها البنية التي تبدو ملوثة ومرقشة بالوحل.

في البحر المترامي بعيداً كانت شبه جزيرة شيمبارا الواقعة قبالتهم تدفع نفسها بين خليج أرياكي وقناة أماكوسا، وطرفها يطبق على المضيق عند سفح جبل كيمبو. وبدا لون البحر أزرق قاتماً في كل مكان، باستثناء لمسة عرضية من اللون الأسود في منتصف المضيق من جرّاء تيار المد. وبالنسبة لرجال العصبة بدا ذلك نذيراً إلهياً لا يتسم مغزاه بالوضوح.

لم يسبق للطبيعة قط أن كانت على مثل هذا الجمال وهي تتيه بحسنها في ذلك الصباح غداة الهزيمة. كان كل شيء صافياً منعشاً وهادئاً.

وعبر الماء، في شبه جزيرة شيمبارا، امتدت أكناف جبل أونزين مترامية على الجانبين. وبدت صفوف من الدور الصغيرة جلية وسط السفوح. وقبعت قمة جبل أونزين محتجبة وراء السحب السامقة. وبعيداً إلى الجنوب الغربي في ساجا التفّت قمة جبل تارا بالغمام الذي لم يكشف إلا عن خطوطها الخارجية. واخترق وهج بدا أنه يوحي بحضور إلهي كتلة السحب المتجمعة في السماء.

ذكّر هذا المشهد، على نحو مفعم بالحيوية، الرجال على جبل كيمبو

بالتعاليم الصوفية المتعلقة بالصعود إلى السماء التي سمعوا بها من المعلم أوين.

ذهب المعلم إلى القول بأنه ليس هناك إلا سبيلان للصعود إلى السماء، وهما سبيلان متشابهان في طبيعتهما. فعلى المرء أن يستعمل إما أعمدة السماء، وإما جسر السماء الطافي. وعلى الرغم من أن الأعمدة والجسر ما تزال موجودة على حالها من قديم الزمان فإن الناس العاديين الذين استسلموا للتلوث لم يستطيعوا مجرد رؤيتها، دع جانباً الصعود إلى السماء عن طريقها. وإذا طهّر الناس أنفسهم مما أصابها من أدران، وعادوا بقلوب نقية إلى طرق الأقدمين، فإنهم، شأن المخلوقات الشبيهة بالآلهة التي تعود إلى العهود الخوالي، سيوهبون القدرة على رؤية أعمدة السماء وجسر السماء الطافي ماثلة أمام أعينهم، ويستخدمون هذه الوسائل التي أتيحت لهم على هذا النحو للرقي إلى المقام السامي حيث تقطن الآلهة.

الآن بدت القداسة متجسّدة في السحب المرقّشة بالضياء فوق الذرى الجبلية، حتى شعر الرجال الذين راحوا يرقبونها بأنهم يرون تجلّياً للجسر السماوي الطافي. ألا ينبغي أن يغمدوا سيوفهم في أجسامهم مبتهجين ويضعوا حداً لحياتهم؟ غير أنه كان هناك أولئك الذين اتّخذوا لهم موقعاً على الحافة الصخرية المواجهة للشرق، وواصلوا التحديق في قلعة كوماموتو التي كان عمود رفيع من الدخان ما يزال يتصاعد فوقها.

انتصبت أمامهم إلى اليسار قليلاً كتلة جبل أراو، وفيما وراءها ترامت غابة من أشجار الأرز والأشكال المحتشدة لجبل تينجو وجبل هوميوجي وجبل ميبوتشي وغيرها من الجبال. وفيما وراءها انتصب جبل إيشيجامي كأنه كلب حارس يشبه الأسد ينظر إليه من الخلف، وقد توغلت سفوحه في المدينة. وكانت كوماموتو وفيرة الخضرة، وقد أفصح مشهدها من جبل كيمبو عن معالم غابة كثيفة بأكثر مما تجلى كمنطقة سكنية، ونهض برج

القلعة العظيم بحدّة من وسط الأشجار الملتفّة، كما لاح مشهد عام لإقليم مرتفعات فوجيساكي.

أحسّ المطلون من قمة الجبل وكأنما معركة البارحة التي اندلعت في الساحة الحادية عشرة، ولم تدر رحاها إلا لثلاث ساعات أعقبها الهروب التعس، يعاد تجسيدها أمامهم. ومن جديد راحوا يقتحمون المعسكرات بسيوف مشهرة، أو بالأحرى كان محاربون من الأشباح وألسنة لهيب شجية يتقافزون الآن في ميدان المعركة الذي اكتسحه نور الصباح، وإن كانت هذه الأشباح أكثر تجسّداً منهم، هم هاربو كيمبو الذين أطلّوا على مشهد معركة البارحة وكأنهم يطلّون على ساحة قتال عتيقة.

فيما وراء المدينة، بعيداً إلى الشرق، كسا تلك الرقعة من السماء الدخان المتصاعد من فوهة بركان جبل آسو مختلطاً بالسحب التي اجتذبها. وبدا الدخان وكأنه يترامى هنالك في سكينة، ولكنه كان يتبدل من لحظة إلى أخرى ويواصل التصاعد من فوهة البركان كأنه يدفع إلى أعلى الدخان الذي سبقه، وتتشرّبه بلا توقف السحب التي لا تفتأ تتضخّم.

بث مرأى الدخان الشجاعة في قلوب الرجال الذين راحوا يرقبونه، وتدافعت في أعماقهم إرادة توجيه ضربة ثانية.

في هذه اللحظة بالضبط عاد رفاقهم من جولة ناجحة للبحث عن الطعام في القرى المترامية عند السفح حاملين معهم برميلاً مترعاً بشراب الساكي وأطعمة تكفيهم طوال اليوم، فأقبل الجميع منهم على الطعام والشراب، وأحس كل منهم بأنه يستردّ قوته، سواء أكان قد عقد العزم على ملاقاة حتفه أم شفّه التوق إلى القيام بهجوم آخر. وقبل انقضاء وقت طويل استقرّوا على رأي يأخذ بعين الاعتبار ظروفهم الفعلية. فقد استحثّهم كيسو أونيمارو على القيام بهجوم ثان على الحامية، بينما أشار عليهم تسونيتا

روكوباياشي بالإحجام عن ذلك، فتقرّر أخيراً بما يشبه الإجماع تشكيل فريق استطلاع يتمّ إرساله أولاً لتحديد مدى قوة الخصم وطبيعة نواياه.

بعد رحيل فريق الإستطلاع عكف من بقوا على الجبل على التشاور فيما بينهم من جديد ليقرّروا هذه المرة ما يتعين القيام به بالنسبة للأعضاء الأصغر سناً في المجموعة، فقد كان هناك سبعة أعضاء ليسوا إلا صبية تراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والسابعة عشرة، وهم: كاتارو شيمادا وتاداو ساروواتاري وسابورو هايكو أوتا وتامونتا يانو وكاكوتارو موتوناجا وسوسومو موريشيتا وكانجو هايامي.

مضى هؤلاء الفتية السبعة يتهامسون فيما بينهم بحيوية الشباب التي لا يكبح لها جماح: «ما الذي يعتزمه الكبار بتأجيلاتهم المتواصلة؟ ولمَ لا يقرّرون في الحال ما يعتزمون القيام به؟ دعونا نقم بطقس السيبوكو أو هلمّوا بنا لنهاجم من جديد!». ولكنهم عندما علموا بالقرار المفاجىء المتمثل في أنهم سينسحبون من الجبل تحت قيادة جويتشيرو تسورودو الذي أعجزته ساقه المتورمة، ذهلوا حيال هذا التحوّل غير المتوقع في مسار الأحداث، واحتجّوا بضراوة على هذا القرار.

استسلموا أخيراً لحجج الكبار المتوقّدة، وتبعوا مكتئبين تسورودا وهو يهبط من الجبل. وأما ابن تسورودا، ويدعى تانا، فقد بقي مع الآخرين لأنه كان في العشرين من عمره. وسرعان ما أرخى الليل أستاره.

كان من المتعينّ الاستماع إلى تقرير فريق الاستطلاع في دار أحد المتعاطفين مع العصبة في قرية شيمازاكي. فانسل الرجال من الجبل في جماعات يتألف كلّ منها من رجلين أو ثلاثة رجال عاد رفاقهم من جولتهم الاستطلاعية. وأوضحت الأنباء التي حملوها أن قوات الجيش والشرطة تفرض رقابة صارمة في كوماموتو وأرباضها، وأن الحكومة أصدرت أوامر

تحظر على كل السفن مغادرة المرفأ، وأوغلت دوريات العدو في مسيراتها حتى بلغت حافة شيمازاكي.

شقّوا جميعهم طريقهم سرّاً إلى شاطىء تشيكوزو حيث سعوا للحصول على مساعدة أحد الصيادين، وهو خادم سابق لجورو فوروتا، لكي يعبروا الخليج. غير أن الصياد لم يستطع القيام بما يتجاوز تقديم مركبه الوحيد لهم، وكان هذا المركب غير مناسب بالمرة للرفاق الباقين الذين يزيد عددهم على الثلاثين.

وبناء على هذا قرّروا حلّ قوتهم ليمضي كل منهم في طريقه للسعي إلى الملاذ الذي يمكنه أن يعتصم به. وأما فوروتا نفسه وكاجامي والأخوان تاشيرو وتيريوشي موريشيتا وشيجيتاكا ساكاموتو فقد استخدموا المركب الثمين، وانطلقوا مبحرين به إلى كونورا. وبهذا انتهت الانتفاضة.

كان عدد من تراجعوا إلى جبل كيمبو يبلغ أقلّ من ثلث من امتشقوا السلاح وقت الانتفاضة. وأما الباقون جميعاً فإنهم ذهبوا ما بين مُلاقٍ حتفه في المعركة مباشرة وجريح طاردته القوات الحكومية في مأمنه فلقي حتفه على نحو بطولي بالسيبوكو. وقد هرب أحد الكبار، وهو ماساموتو، حتى وصل إلى ممرّ ميكوني الجبلي، ولكنه حينما أطبق عليه ثلاثة من ضباط الشرطة اقتعد الأرض فجأة، على جانب الطريق، وبقر بطنه ولفظ أنفاسه الأخيرة. وكان في الرابعة والخمسين من العمر.

عاد سابورو ماتسوموتو، البالغ الرابعة والعشرين من العمر، وسوهايكو كاسوجا، وهو في الثالثة والعشرين، إلى داريهما وانتحرا. وعاد تاتيناو أراو، وهو في الثالثة والعشرين إلى داره، وأفضى إلى أمه بعزمه على الانتحار معتذراً عن الحزن الذي سيجلبه لها، غير أنها أشادت به، وعندئذ بكى أراو من فرط سعادته بموقف أمه ومضى ليقدم آيات التوقير والإجلال عند قبر أبيه، وإلى جانب القبر أقدم على أداء طقوس السيبوكو ببسالة.

وأما جويتشيرو تسورودا الذي عهد إليه بالانطلاق بالفتية السبعة بعيداً عن جبل كيمبو، فقد مضى بكل فتى إلى داره، ثم عاد هو إلى داره واستعد لانتزاع حياته بيده.

بعد أن قدمت زوجته هايدكو الطعام والشراب تبادل قدحاً أخيراً من الساكي معها، وكتب قصيدة وداعية، وحدّثها بأن عليها أن تتجلد، إذ إن ابنها الوحيد تاناو ما يزال على قيد الحياة. وكان ليل اليوم الثاني بعد الانتفاضة قد أرخى سدوله. وكان تسورودا قد أنجب كذلك ابنتين، إحداهما في الرابعة عشرة من عمرها، والأخرى في العاشرة. وقد رغبت زوجته في إيقاظهما لتودّعا أباهما، ولكن تسورودا أصرّ على تركهما لتنعما بالرقاد. وبعد أن فكّ عرى ثيابه بقر بطنه، ثم غرس نصله في عنقه، وانتزعه بيده وتهاوى فيما كانت ابنته الكبرى التي استيقظت مصادفة تلج الغرفة وتنخرط في نحيب مرير.

وفي حوالي الفجر وصل نبأ مفاده أن الابن الوحيد تاناو قد أدى بدوره طقوس السيبوكو. وفي الصباح، بعد أن لقي زوج هايدكو حتفه محدثاً إياها بأن عليها أن تضع كل ثقتها في ولدها، بلغت أنباء مصرع هذا الولد مسامعها.

بعد حلّ القوة في تشيكوزو كان تاناو قد شقّ طريقه إلى مزار شينجاي بصبحة بويتشيرو سوجي وماسورا إيتو. وعندما افترق عن صديقيه ارتحل بمفرده إلى قرية كينجون. وكانت خطته هي الهرب إلى تشوشو.

كان له عمّ في كينجون يدعى تاتياما، وعندما قصده طالباً عونه علم أن أباه قد زار عمّه في وقت سابق من ذلك الأصيل نفسه، وأوضح مقاصده، وطلب منه أن يرعى عائلته. ولا شك أن أباه قد قتل بالفعل. وعندما علم بكل هذا فقد كلّ رغبة في الهرب.

سمح لتاناو باستخدام الحديقة الممتدّة أمام دار عمّه ففرش حصيرة من

القش الجديد تحت شجرة سامقة. وواجه الشرق وانحنى متبتلاً ثلاث مرات للقصر الإمبراطوري النائي، وبعد ذلك التفت باتجاه دار أبويه التي لا تقع بعيداً، وانحنى من جديد، ثم استلّ سيفه القصير وبقر بطبه به، ثم غرسه في عنقه. وقد نقل خبر ذلك في الحال إلى دار تسورودا.

بعد أن فارق ماسورا إيتو وتويتشيرو سوجي رفيقهما تاناو تسورودا انطلقا نحو يودو، وهي منطقة تقع إلى الشمال مباشرة من كوماموتو. وكانت قرية ميكا في يودو هي موطن شقيق إيتو الأكبر ماساكاتسو. غير أن هذا الأخير حينما رأى شقيقه الأصغر مضى في تقريعه بجفاء على رعونته، ولم يسمح له بولوج بيته، فلم يجد الشابان بدا من الانصراف. وفي تلك الليلة جلسا أحدهما قبالة الآخر على ضفة غدير رائق وراء القرية، وأديا طقوس انتحارهما بصورة فذّة في جمالها. وقد سمع المقيمون في المنطقة المجاورة صدى تصفيق متوالٍ آتياً من اتجاه الغدير في وقت متأخر من الليل، واغرورقت عيونهم بالدمع حينما أدركوا أن شخصاً يصفّق توقيراً وإجلالاً للآلهة والإمبراطور قبل القيام بطقوس السيبوكو.

وكان إيتو في الحادية والعشرين من عمره، وأما سوجي فلم يكن يتجاوز ربيعة الثامن عشر.

وأما فيما يتعلق بالفتية السبعة الذين اصطحبهم جويتشيرو تسورودا إلى دورهم فإن ثلاثة منهم، هم أوتا وسارووواتاري وشيمادا، انتزعوا أرواحهم بسيوفهم على نحو بطولي.

قبيل الانتفاضة كان تاداوا سارووواتاري البالغ من العمر ستة عشر عاماً قد نظم القصيدة التالية، وكتبها على عصابة الرأس البيضاء التي أعدّها ليلفّ بها جبينه ليلة المعركة:

أرضنا قسِّمت، وللبرابرة بيعت،
العرش المقدس يتعاوره الخطر.
ألا فَلْتَرْعَ آلهة السماء والأرض
بعيونها إخلاصنا المترع بالولاء.

عندما بلغ داره علم بانتحار العديد من رفاقه. وضرب بعرض الحائط كل محاولات تثبيط عزمه، وتبادل قدح وداع من الساكي مع أبيه وأمه وأقاربه، ثم اعتكف وحيداً في غرفة أخرى. وهنالك بقر بطنه وغرس سيفه في عنقه فاصطدم النصل بالعظم وانثلم قليلاً، فنادى ساروواتاري أحد أفراد أسرته ليجلب له سيفاً آخر. وفي هذه المرة، وإذ اخترق النصل دون أن يعترضه شيء هوى ساقطاً إلى الأمام.

كان سابورو هايكو أوتا في السابعة عشرة من عمره. وما إن عاد إلى داره حتى ألقى بنفسه في الفراش وغطّ في نوم عميق. وعندما استيقظ في اليوم التالي كان وجهه يتألّق عافية وحيوية. وأعلن مقصده لأخته، وطلب منها أن تدعو صديقين شابين من أصدقائه هما شيباتا ومايدا إلى الدار. وعندما أقبلا أبلغهما بأنه يودّعهما وداعاً لا لقاء بعده، وطلب منهما أن يهتمّا بالأمور التي تركها قبل أن تُحسم.

بعد أن انصرف الشابان نهض أوتا ومضى وحيداً إلى غرفة أخرى. ومضى عمّ له، هو فوسانوري شيباتا، ينتظر في غرفة مجاورة دون أن يفصلهما إلا باب منزلق من الورق. وأدرك العم أن أوتا قد بقر بطنه، ثم سمع ابن أخيه يصيح بصوت يقطع نياط القلب: «عمّاه! عمّاه! ساعدني قليلاً!» وعندما نحّى شيباتا الباب المنزلق جانباً كان خنجر أوتا قد انغرس بالفعل في عنقه، ووصل الشاب بحياته إلى نهاية شجاعة بيده التي أرشدتها يد شيباتا.

كان كاتارو شيمادا في الثامنة عشرة من عمره. وبمجرد عودته إلى داره

أرادت أسرته أن يلوذ بالهرب متنكراً في هيئة كاهن بوذي، ولكنه لم يقبل بشيء من هذا، فقد عقد العزم على الانتحار، وبعد قدح الساكي الوداعي ناشد جوزو يوتشيشيبا، وهو رجل عرف ببراعته في الجودو، القدوم إلى الدار وتلقينه كيفية أداء طقس السيبوكو.

بعد أن بقر شيهادا معدته غرس نصله في عنقه.

سأل: «أيها المعلم، أهذا هو الموضع الصحيح؟» وعندما رد يوتشيشيبا بأنه كذلك، غرس الشاب النصل غائراً بطعنة نجلاء.

بعد أن حاقت الهزيمة بالانتفاضة آوت عائلة بارزة تدعى عائلة أويانو ثلاثةً من رجال العصبة هم كازو جوجي وناميهاي إيمورا وهيساهارو أودا في قرية كاكيهارا. وبعد أن مضوا إلى أبوميدا ذات يوم التقوا باثنين من رفاقهم كانا بين أولئك الذين هبطوا لتوهم من جبل كيمبو، وهما تاتيو نارازاكي وتاكيتسوني موكوناشي. وقد طلبوا السماح لهذين الأخيرين بالانضمام إليهم، فأخفت عائلة أويانو الرفاق الخمسة. وكان مخبأهم هو غار معبد راكوجين، وقامت عائلة أويانو بتلبية احتياجاتهم كافة.

انقضى أسبوع على الانتفاضة. وفي خلال تلك الفترة شرع الرجال الخمسة يتلقون أنباء من مصادر شتى عن انتحار رفاقهم، فقرروا أن الاستمرار في الاختباء أمرٌ يستحيل مجرد التفكير فيه، ومن هنا فقد غادروا المغارة ومضوا إلى دار أويانو لوداع العائلة الوداع الأخير. وحزنت العائلة أشدّ الحزن لهذا الفراق وقدمت لهم الطعام والشراب.

لم يتناول جوجي إلا القليل، محدّثاً نفسه بأن المشهد سيبدو أمراً لا يليق حينما يندفع الطعام من معدته إذ يبقرها السيف. غير أن مثل هذه الاعتبارات لم تمنع على الإطلاق النهم نارازاكي من الأكل والشرب حتى الامتلاء. وفيما بعد طلب هذان الاثنان بعض مواد التجميل من إحدى نساء العائلة،

ووضعا بخفة القليل من الحمرة على وجناتها، فقد كانا يـرغبان في أن يبقى وهج الصحة في تلك الوجنات حتى بعد مصرعهما.

انتـظر الرجـال الخمسة أن يـرخي الليل سـدوله لكي يغـادروا الدار، ثم مضوا إلى بقعة قريبة تعرف باسم ناريوا. وكان ذلك في اليوم الخامس عشر من الشهر التاسع، في ليلة اكتمل فيها البدر وبدا أن أشعته الوهّاجة تتناثـر جواهر على النجيل المكسو بالندى. جلس الرجال الخمسة منتصبي الجذوع عـلى العشب، وبعـد أن أنشـد كـل منهم قصيـدة وداعيـة بقـر أودا، وهـو أصغرهم سناً وكان في العشرين من عمره، معدته، وعقب ذلـك سقط كل منهم بدوره على ظُبة سيفه. وكان إيمورا في الخامسة والثـلاثين، ونـارازاكي ومـوكـونـاسي في الســادسـة والعشرين، وأمـا جـوجي فكـان في الخــامسـة والعشرين.

عـاد تسـونيتـارو كـوبـايـاشي الـذي افـترق عن كـاجيكي آبي ويـونشـيرو إيشيهارا في أبوميـدا إلى داره في وقت متأخـر من مساء اليـوم الحادي عشر من الشهر التاسع، وبصحبته كيسو أونيهارو وميتسو نوجوتشي.

وعلى الرغم من أن تسونيتارو كوباياشي لم يكن إلا شاباً في مقتبل العمـر فإنه كان يجمع بين الشجاعة والذكاء بدرجـة ملحوظـة. وقد سبق أن اتّخـذ بصفة عامة موقفاً معارضاً للآراء المندفعة التي أدلى بها أونيهارو الجـريء على نحو مبالغ فيه. ولكن هـذين الرفيقـين اللذين يتسمان بمـزاجين متعـارضين اختـارا ملاقـاة الموت في الـوقت ذاتـه، وفي الـزمن عينـه. والآن وقـد علم الرفاق الثلاثة بـالعقبات الهـائلة التي تقف في وجه القيـام بانتفـاضة ثـانية، وبالانحلال التام للعصبة، قـرروا أداء طقوس السيبـوكو جنبـاً إلى جنب في مساء اليوم التالي.

قبل أن يقدم كوباياشي على الانتحـار أعرب لأمـه عن أسفه لأنـه يسبقها إلى رحاب الموت، ثـم انسحب إلى غرفة منفصلة مع زوجته مـاشيكو، وهي

امرأة في التاسعة عشرة من عمرها كان قد تزوجها في الربيع الماضي. وإشفاقاً عليها من أن يدفع بها إلى قضاء باقي عمرها أرملة عرض عليها أن يطلقها، ولكنها انفجرت باكية ورفضت ذلك.

مضى الرجال الثلاثة إلى غرفة في مؤخرة الدار، بينما راحت الأسرة تنتظر في المطبخ. ونادى كوباياشي قائلاً: «لا تدعوا أحداً يدخل هذه الغرفة، اجلبوا بعض الماء من البئر وضعوه في الشرفة!» ثم أخذ الرجال الثلاثة حصيرة من قلب الغرفة ووضعوها فوق حصيرة أخرى. وجلس أونيهارو مواجهاً الشرق على الحصيرة المزدوجة وفك عرى الكيمونو الذي يرتديه.

سمع من في المطبخ كوباياشي وهو ينادي من جديد قائلاً: «لقد أدى نوجوتشي الخدمة المتمثلة في فصل رأس أونيهارو». ولوقت طويل لم يند صوت عن الغرفة.

وعندما ولج أفراد الأسرة الغرفة ألفوا الرجال الثلاثة مواجهين الشرق، أونيهارو في الوسط وقد نفذ طقس بقر البطن على درجة رفيعة من الإتقان بلغت حد الكمال.

كان أونيهارو في الأربعين، وكوباياشي في السابعة والعشرين، ونوجوتشي في الثالثة والعشرين.

كانت إكيكو آبي زوجة كاجيكي آبي، وهي الابنة الكبرى لكيشينتا توري، وقد وُلدت في كوماموتو في عام ١٨٥١، أي العام الرابع من عهد كاي. وقد درس أخوها الأكبر ناووكي الأعمال التقليدية اليابانية تحت إشراف المعلم أوين، وتعلم الأساليب العسكرية من تايزو ميابي، وهكذا أصبح وطنياً شديد التمسك بوطنيته تحت شعار: «مجّدوا الإمبراطور واطردوا البرابرة!» الذي لم يكن يفارق شفتيه قط.

نشأت إكيكو وهي تسمع آراء أخيها ورفاقه، الأمر الذي ترك أثراً

عميقاً في نفسها. وكانت أسرتها فقيرة، وكان عليها أن تعمل بجد لتساعد أمها.

وعندما بلغت السادسة عشرة من عمرها رغب رجل ثري في الزواج منها، ولكن لما كانت إكيكو قد عقدت العزم على ألا تتزوج إلا من رجل وطني فإنها لم ترغب في الموافقة على الإطلاق، والتزم أخوها وأمها موقفاً مماثلاً. غير أن كبير القرية كان وسيط الزواج، وعلاوة على ذلك كانت الأسرة مدينة للرجل الثري، ومن ثَمَّ لم يكن هناك مفر من هذا الزواج.

سألت إكيكو أمها قائلة: «طيب، لئن تزوجت هذا الرجل فهل سيؤدّي ذلك إلى وفائنا بكل التزاماتنا؟» فردّت أمها بالإيجاب. وأقيم حفل الزفاف، وفي تلك الليلة جلست إكيكو بجذع منتصب، ولم تسمح لزوجها بالاقتراب منها. وعندما تنفس الصبح هربت إلى دار أمها وانحنت في إجلال أمامها قائلة: «لقد احتملت مسيرة الزواج. هل هناك شيء آخر مطلوب مني؟» وفي اليوم ذاته طلّقها زوجها.

بلغت الثامنة عشرة من عمرها. وفي عام ١٨٦٨، أي العام الأول من عهد ميجي، عُيّن أخوها ناووكي في خدمة البلاط الإمبراطوري.

وتصادف في ذلك الوقت أن كاجيكي آبي ورفيقه موريكوني توميناجا انطلقا للصلاة في معبد هوميو الذي أقيم تكريساً لذكرى الأمير كيوماسا. وفيما هما يقتربان من البوابة السوداء صادفا حسناء في سن الزواج، وعندما أدركا أنها أخت رفيقهما ناووكي انحنيا لها انحناءة مجاملة رقيقة. وبعد أن سارا قليلاً سأل توميناجا فجأة: «ما قولك في الزواج من تلك الفتاة؟» فردّ آبي بقوله إنه ما كان ليعترض على ذلك، وهكذا، عبر وساطة توميناجا، تمّ الزواج سريعاً. وكان آبي في ذلك الوقت في التاسعة والعشرين من عمره. وتحقّقت آمال إكيكو إذ أصبحت زوجة لرجل وطني النزعة، ولكنها لم تنجب من زوجها.

بلغت إكيكو العشرين من عمرها. وقُدِّر لرفيق في كورومي يدعى كاي كاجامياما أن يهرب من السجن، وأن يؤويه آبي، ثم بعد رحيل حاجامياما أودع آبي نفسه السجن، وجرى التحقيق معه بصورة قاسية، وأعيد إلى السجن.

طوال سجن زوجها لم تكن إكيكو تتناول طعام الإفطار، وعكفت طوال الوقت على الابتهال للآلهة أن يتم رفع هذا العقاب الظالم عن كاهل زوجها، وفي الليل كانت ترقد دون الاستعانة بكلة تقيها البعوض، على الرغم من أن الصيف كان في سمته. ومن تحتها ألواح خشبية لا يعلوها شيء وذلك كيلا تغيب ألوان العناء التي يتعرّض لها زوجها عن بالها.

بعد إطلاق سراح آبي مضى يتريض في أرجاء المدينة فصادف في أحد المحال حزاماً بديعاً، ولكن الثمن كان مرتفعاً بالنسبة له فيما حدّث به زوجته، فتخلّى عن التفكير في شراء الحزام، وقامت إكيكو سرّاً ببيع كيمونو ونطاق من ملابسها وقدّمت لزوجها المبلغ الذي كان بحاجة إليه فشكرها وابتاع الحزام الذي تمنطق به ليلة الانتفاضة.

مع اقتراب موعد الانتفاضة أصبحت دار آبي بمثابة مقر قيادة، ولم تدّخر إكيكو وحماتها وسعاً في إكرام الضيوف، وعندما كان حوالي عشرة رجال يجتمعون للإعداد لاقتحام الميدان كانت المرأتان تقدّمان لهم العون بكل السبل، وتُعِدّان الطعام والشراب. وإذ لاحظت إكيكو بعين صائبة أن أحد أفراد المجموعة على شيء من الاضطراب لامته بهدوء قائلة: «على المرء أن يمضي إلى المعركة ثابت الجنان».

وفي ليلة المعركة ذاتها، وعندما رأت إكيكو وحماتها من بُعْدٍ ألسنة اللهب الغاضبة وهي تندلع متطاولة إلى عنان السماء من كوماموتو في منطقة القلعة، والحرائق تتقد في خمسة مواضع في أحياء كيوماتشي ويامازاكي وموتوياما، وثبت من فرط السعادة صائحة: «قامت الانتفاضة، قامت». وأوقدت مصابيح السهر أمام مزار الدار، وتوسّلت إلى الآلهة من أجل

نجاح الانتفاضة وحسن طالع زوجها في المعركة.

ولكن مع مقدم الصباح توالت الأنباء سراعاً وثقالاً عن حدوث نكسات، وراجت إشاعات لا نهاية لها عن تساقط الرجال في المعركة أو انتحارهم بسيوفهم. وإذ كانت إكيكو تجهل مصير زوجها فقد راحت تتضرّع للآلهة من جديد بمزيد من اللهفة من أجل طيب مآل زوجها.

تعين أن تنقضي ثلاثة أيام قبل أن يعود زوجها، وكان ذلك قبيل انبلاج فجر اليوم الثاني عشر من الشهر الثامن.

بعد حلّ قوتهم عند شاطىء تشيكوزو، غادر كاجيكي آبي المنطقة بصحبة يونشيرو إيشيهارا لقضاء اليوم التالي، وهو اليوم العاشر من الشهر، مختفيْن في شعاب شيويا المترامية. وما إن حل الظلام حتى انطلقا إلى معبد كيتسوكي في أبوميدا فبلغا في منتصف الليل دار أوكي ساكاموتو كاهن المعبد. وهناك التقيا من جديد بتسونيتارو كوباياشي وأونيهارو ونوجوتشي فأمضوا ليل اليوم الحادي عشر، وناقشوا ما سيقومون به، وعندما جاء ردّ بالإيجاب من الآلهة على سؤال طرحه أوكي ساكاموتو وأحيا الأمل في القيام بانتفاضة ثانية، تشجّع الجميع وغادر آبي وإيشيهارا كوباياشي وجماعته ومضى كل منهما إلى داره.

استيقظت إكيكو على صوت يناديها في رفق عبر شقّ في المصاريع الخشبية. وكان صوت زوجها. وثب فؤادها من موضعه وهي تفتح المصاريع، فولج الدار دون أن يتفوّه ببنت شفة، ثم واجه إكيكو وأمه التي استيقظت وانضمت إليهما، وقدم لهما صورة موجزة عن الهزيمة. ونزعت إكيكو عنه كيمونوه الملطخ بالدم ودفنته في أجمة خيزران وراء الدار. وفي الأيام التي تلت ذلك أمضى آبي ساعات النهار مختبئاً تحت أرضية مكتبه وقد أحكم قبضته على خنجره. وعندما كانت الشمس تغرب كان يخرج إلى مكتبه. وقد بعث بإكيكو سرّاً إلى دار إيشيهارا لتتشاور مع ياسوكو زوجة إيشيهارا.

قامت إكيكو وياسوكو ببحث مفعم بالاهتياج عن مركب يقطع المسافة إلى شبه جزيرة شيمبارا، ولكن الحظر على مغادرة المرفأ كان مفروضاً بصورة صارمة، وتبدّد كل أمل في الهرب بحراً.

في فجر اليوم الرابع عشر قام يونشيرو إيشيهارا الذي عقد العزم على تجاوز النطاق الذي ضربته الشرطة وسدًّ الطرق، أو على أن يلقى حتفه بيده، بتوديع زوجته وأطفاله وغادر داره.

كان آبي قد دعا عمّه، وهو رجل يدعى بابا إلى داره، وفي ساعات الفجر قام الرجال الثلاثة، إيشيهارا وآبي وبابا، بمناقشة خطة للعمل. وأوضح بابا أن الإجراءات الصارمة التي فرضتها الشرطة تجعل الفرار مستحيلاً، فيما يبدو، وعقب قوله هذا غادر الدار.

مضت ياسوكو إيشيهارا إلى دار كيمورا شقيق زوجها الأكبر تناشده العون، وكانت قد سمعت وقع أقدام دورية تفتيش على الطريق إلى دارها، ونصحها كيمورا بأن تسرع إلى دار آبي لإبلاغهما بأن وقت الفرار قد فات.

استأجرت ياسوكو عربة ريكشو، ولكنها ترجّلت منها قبيل الوصول إلى دار آبي، وطرقت الباب الخلفي برفق، وطلبت مجيء إكيكو، وأوضحت لها بإيجاز أن دورية تدنو من دارهما في غياب إيشيهارا.

أتت إكيكو بإشارة دالّة على طعن عنقها، فأومأت ياسوكو موافقة، واستحثت إكيكو ياسوكو على رؤية زوجها مرة أخرى، ولكن ياسوكو قالت إنها لا ترغب في أن تصبح عقبة في طريق زوجها إلى العالم الآخر، ثم غادرت الدار وكأنما هي تهرب منها.

أبلغت إكيكو على التوّ هذا كله لزوجها وإيشيهارا، وبدورهما، ومنذ سماعهما الأنباء التي جلبها بابا استبعد القائدان كلاهما كل أمل في القيام بانتفاضة ثانية، وعقدا العزم على ملاقاة حتفيهما.

انحنيا بمزيد من التوقير أمام لفافة من الورق تصوّر مزار آيسي العظيم. ووضعت إكيكو ثلاثة أقداح فخارية على حامل من الخشب العاري من الزخارف ذي ثلاث قوائم قوائم واستحثّت الرجلين على ارتشاف جرعة أخيرة من الساكي، ورفعت بنفسها أحد الأقداح.

فتح كل من آبي وإيشيهارا كيمونوه واستلّ سيفه القصير. وأما إكيكو فقد استلّت خنجراً صغيراً من نطاقها.

أثار تصرفها فزع زوجها وإيشيهارا، وحاولا إيقافها، ولكنها أبت التراجع عما عقدت العزم عليه. فلم يكن لها أطفال، فيما مضت تحدث به زوجها، ولذا فلم يكن يتعيّن عليه منعها من مصاحبته. ولما لم تُبْدِ ما يشير إلى عزمها على التراجع فإنه لم يجرؤ على حرمانها مما انتوته.

كان ذلك في اليوم الرابع عشر من الشهر التاسع، بعد انتصاف النهار بقليل. وكان آبي في السابعة والثلاثين، وإكيكو في السادسة والعشرين، وإيشيهارا في الخامسة والثلاثين.

لم تكد تمرّ لحظة واحدة على انتحارهم حتى اهتزّت دار آبي بطرق عنيف، فقد جاءت الدورية. وصاحت والدة آبي بصوت عال قائلة: «لقد أدوا طقوس السيبوكو لتوّهم». شقّ ضابط تحيط به قواته طريقه عنوة إلى الدار فواجهته الجثث الثلاث التي غابت عنها الحياة للتوّ.

وعندما تفرّقت القوة في تشيكوزو كانت المجموعة التي تتألّف من أولئك الذين ركبوا مركب الصيد الوحيد، وشقّوا طريقهم نحو كونورا في يودو، تضمّ ستة رجال.

كان هناك جورو فوروتا، وهو في الثامنة والعشرين من العمر، وكان مع تسوينتارو كوباياشي من أصغر القادة سنّاً. وفي الصراع الذي دار داخل أسوار الحامية حطم سيفين وانتزع ثالثاً وواصل القتال. وكان هو الذي

قضى على العقيد كونيهايكو أوشيما والعديد من الآخرين، على الرغم من أنه أصيب بدوره بجرح.

وكان هنالك جورو كاجامي، وهو في الأربعين من عمره وخبير في موسيقى البلاط العتيقة.

وهناك جيتارو تاشيرو الخبير بالسيوف ذو الستة والعشرين ربيعاً. وكان أول من اعتلى السور المزوّد بالحراب الخشبية المحيط بمعسكر رجال المدفعية.

وأما جيمورو، وهو الأخ الأصغر لتاشيرو، فكان في الثالثة والعشرين من عمره، وقد حارب ببسالة في المعركة التي دارت رحاها مع المشاة.

وكان تيريوشي موريشيتا في الرابعة والعشرين، وقد قضى على القائد تانيدا، ثم خاض غمار القتال في حامية المشاة حيث قتل ضابطاً آخر فتميز كثيراً عن أقرانه.

وأما سيجيتاكا سكاموتو فكان في الحادية والعشرين.

علق الرجال الستة آمالهم على تلقي العون من كاهن مزار كونورا الذي كان رفيقاً لهم ومن أتباع المعلم أوين، وهو تاكيو كاي. ومن المؤكد أنه كان سينضم إلى الانتفاضة لولا أن نبأها لم يصل إليه في هذا الموضوع النائي. وقد استقبلهم كاي استقبالاً ودياً.

أمضوا الليلة في دار كاي عاكفين على تداول الرأي فيما بينهم في ما يتعلق بالقيام بانتفاضة ثانية. وطرح كاجامي بجلب الأموال من أجل السفر والإمدادات العسكرية. وكان قد علم أن قائده السابق إيجيرو ميبوتشي تصادف نزوله في دارة ماتسوي في يوياناجي، فعهد برسالة إلى كاي يطلب فيها من ميبوتشي تقديم الأموال الضرورية للقيام بالرحلة. وانطلق كاي بالرسالة على الفور.

انتظر الجميع بقلق عودة كاي، وانقضى اليوم التالي، وهو اليوم الثاني عشر من الشهر التاسع، دون أن تُقَدَّر له العودة.

عندما وصل كاي إلى دارة ماتسوي لم يقتصر سوء الحظ على أن ميبوتشي كان قد غادرها، وإنما تعرف عليه رجال الشرطة الذين كانوا يحرسونها، باعتباره واحداً من المتعاطفين مع العصبة، وتمّ إلقاء القبض عليه.

أدرك الرجال الستة الذين كانوا في الانتظار أن كل لحظة يتأخر فيها كاي عن العودة تفاقم الخطر المحدق بهم. ولدى الوصول إلى حدّ معين علموا أن عليهم التأهّب للقاء حتفهم.

صعد ثلاثة منهم، هم جيجورو تاشيرو وموريشيتا وساكاموتو الذين ضاقوا ذرعاً بالانتظار، إلى قمة أوميجاتاكي القريبة، فيما كانت الشمس آخذة في الغروب، وراحوا يحدّقون في قلعة كوماموتو البعيدة. ولم يبد على مشهد برج القلعة، وهم يرمقونه على هذا البعد، ما ينمّ عن نشاط غير عادي بداخله. ولكن عندما سأل الرفاق سكان الجبل بطريقة عابرة قيل لهم إن القلعة تتوهّج بالأضواء ليلاً وإن دوريات التفتيش تُرسل نهاراً في كل الجهات دونما انقطاع. وعندها هبط الثلاثة من الجبل، واستحثوا رفاقهم على أن يركنوا لما هو محتّم.

عقدوا العزم على ملاقاة حتفهم. وأما فيما يتعلق بالمكان فقد اختاروا أوميجاتاكي. وكان الأَخَوان تاشيرو قد اختارا في المساء السابق بقعة من الأرض المسطحة لم تمتدّ إليها يد، فوضعوا عليها علامات حوّلتها إلى مربع حدوده حبل مقدس علّقوا عليه رايات الشنتو المرفرفة. والآن، عند الفجر، كان النسيم يداعب هذه الرايات فتنطلق مرفرقة خفّاقة. راح جورو كاجامي يحدّق في السحب المتتابعة، فيما كان الفجر يطل على الجبال، ونظم هذه القصيدة الوداعية:

طويلاً عشت في رحاب هذه الدنيا،
في ظل عناية آلهة ياماتو،
واليوم أضع قدمي، أخيراً،
على الجسر السماوي الطافي.

وغنّي عن القول إن قصيدته تقوم على أساس التعاليم الصوفية التي قال بها المعلم أوين عن الصعود إلى السماء. وحدَّث كاجامي رفاقه بأنه كان يتمنى كثيراً أن يكون بمقدوره في هذه الساعة الأخيرة أن يعزف لهم الموسيقى العتيقة التي تعلمها، وأن افتقاره إلى آلة موسيقية قد أحزنه.

ولج الرفاق الستة البقعة التي يسيّجها الجبل، وارتشفوا معاً جرعات من قدح الساكي الوداعي. واختار الآخرون جيتارو تاشيرو بالإجماع ليشرف على الضربة القاضية لكل منهم، وهنا حدَّث كاجامي نفسه بأنه مما يدعو للرثاء أن يخوض تاشيرو غمار المعاناة الأخيرة وحيداً، وقال إنه سينتظر ويلقى حتفه معه.

كان جورو فوروتا أول من عرّض لحمه لنسيم الصبح الخريفي، وبقر معدته بضربة عرضية متطاولة، وعندئذ فصل تاشيرو الرأس عن الجسد.

بعد ذلك أدى موريشيتا وجيجورو تاشيرو وشيجيتاكا ساكاموتو طقوس السيبوكو على التوالي. وأخيراً أدى جيتارو تاشيرو وكاجامي الطقوس معاً فبقرا معدتيهما، ودفع كل منهما بنصله في عنقه.

شرع المفتش يوشيتاكا نيمي، بعد أن أبلغه أحد المرشدين بجليّة الأمر، في صعود الجبل على رأس العديد من رجال الشرطة. وبينما كان ما يزال عند المنحدرات الوسطى التقى بصياد يندفع هابطاً في اهتياج، وأبلغه الأخير بأن ستة من أعضاء عصبة الريح الإلهية يقومون بأداء طقوس السيبوكو على قمة الجبل. أوقف نيمي مجموعته المتعجلة بقوله: «سنرتاح

هنا قبل مواصلة المسير». وجلس تحت إحدى الأشجار، وأشعل سيجارة، فلم يكن يرغب في إزعاج هؤلاء الرجال في لحظاتهم الأخيرة.

عندما بلغ رجال الشرطة قمة الجبل كانت آخر آثار ظلمة الليل قد تبدّدت. وداخل المربع الذي يسيّجه الحبل المقدس تمدّدت جثث الوطنيين الستة مرتمية إلى الأمام، في تحقّق كامل لطقوس السيبوكو. وتألّقت الرايات الورقية المتدلية من الحبل وقد أصاب العديد منها رشاش دم حديث السفك، تحت أشعة شمس الصباح.

بعد قمع الانتفاضة استخار أحد قادتها، وهو كوتارو أوجاتا، الآلهة، وأُبلغ بأن عليه الاستسلام فقام بذلك، وخلال وجوده في السجن الذي أودع فيه مدى الحياة دبّج كُتيِّباً صغيراً بعنوان «قصة النيران الإلهية» عالج فيه المشكلات المتعلقة بالسرّ في أن الرياح الإلهية لم تهبّ، وأن طقس اليوكاي لم يبرهن على أنه طقس معصوم من الخطأ.

كيف حدث أنه مع إصرار لا نظير لزخمه، وفي وجود إرادات على مثل هذا القدر الرفيع من التطهّر، لم تصل المساعدة الإلهية؟ كان هذا هو اللغز الذي مضى أوجاتا يجالده عبثاً في زنزانته طوال ما بقي من حياته. وأفكار أوجاتا، على نحو ما سجلها في المقطع التالي، لا تمثل إلا تفسيره الخاص وحدسه الشخصي، ذلك أن إرادة الآلهة تخفى على الأبصار، وليس بمقدور الإنسان أن يعرف كنهها:

«ما أعظم مدى البؤس والتعاسة الكامنين في أن رجالاً مخلصين على هذا النحو الرائع، وخلافاً لكل التوقّعات قضوا نحبهم في ليلة، مثلما براعم بدّدتها الريح، شأن الثلج الهشّ والندى المنقضيين سريعاً، وفي مشروع أعدّ ونفذ تحت رعاية الإرادة الإلهية! على هذا النحو رحت في قرارة فؤادي الأحمق أتساءل عن السر في أن الأحداث مضت على هذا النحو، بل وبدأ

يساورني شعور بالشك والمرارة، ولكنّني غدوت أعتقد أن النهاية كانت مقدرة، وأنها كانت ما انتوته الإرادة الإلهية.

ولو أن الآلهة كانت قد تجهّمت مرة أخرى في مواجهة هذا المشروع الذي سعى هؤلاء الرجال الجسورون بالغو الشدة والبأس للحصول على موافقتها عليه، فمن المؤكد أن ما خططوا له كان سيغدو معروفاً للعالم، ولنشأ عنه موقف بالغ الخطورة. وحتى لو أن هذا الخطر كان قد تمّ تجاوزه فإن بعضهم كان سيقدم يقيناً على الانتحار من جراء الإحباط واليأس.

وهكذا فإن الآلهة العوالي، وقد داخلها الإشفاق، صاغت لطفاً رائعاً يصون في ظله هؤلاء الرجال شرفهم بضربة واحدة، وعقب ذلك يؤدون خدماتهم في رحاب العالم الآتي.

ورغم أن الرهبة تلفني فإنني على هذا النحو أجادل نفسي».

إن شعوراً حاداً بالندم واللوعة يكمن خفياً في هذه الكلمات التي كتبها أوجاتا ليعزّي نفسه وأرواح رفاقه معاً. وفي التساؤل البسيط التالي الذي يعبّر بصورة صادقة عمّا دار بخلد هذه المجموعة من الرجال الذين لم يدعوا عقبة تردّهم، يمكن أن يقال إن أوجاتا قد عبّر عن روح الساموراي: «هل كان علينا أن نتصرّف كنساء مهيضات الجناح؟».

- ١٠ -

إن الفصل المطير بدأ بالفعل. وتوقف إيساو إينوما قبيل مغادرة الدار لتلقّي دروسه الصباحية لكي يُلْقِيَ نظرة على ما احتواه مظروف كبير وصل لتوه حاملاً اسم هوندا. وبعد أن رأى أنه يضمّ رسالة إلى جانب نسخته من كتاب «عصبة الريح الإلهية»، وضع المظروف في حقيبة كتبه معتزماً قراءة الرسالة بعد وصوله إلى المدرسة في وقت فراغه.

اجتاز بوابة كلية الدراسات الوطنية التي يدرس بها. وداخل دهليز المبنى الذي يضمّ غرفة دراسته انتصب طبل هائل يجسِّد خير تجسيد روح الكلية، فقد كان طبلاً جليل المظهر نقشت عليه الكلمات التالية «ياهاتشي أونوزاكي، صانع الطبول، تيما»، وكانت له حلقة حديدية ضخمة تتدلى من محيطه الدائري. وكانت الدائرة العريضة من الجلد المشدود تشبه رقعة من سماء الربيع الباكر يضبّبها غبار أصفر، ونقاط التحول التي أحدثتها ضربات لا حصر لها تشبه نثاراً من السحب الشهباء الطافية في مثل هذه السماء. ولكن في يوم رطب حار من أيام الفصل المطير، مثل هذا اليوم، فإن الطبل، فيما راح إيساو يحدث نفسه به، لن يند عنه، وقد فقد قوته، إلا صوت واهن مكتوم.

ما إن ولج صفه الدراسي الواقع في الطابق الثاني حتى تناهى إليه صوت الطبل لدى قرعه إعلاناً لبداية اليوم الدارسي. وكان الدرس الأول في الأخلاق، ولما كان يفتقر إلى الحماس حيال كل من هذه المادة ومدرسها الذي رُدَّ إلى أرذل العمر، فقد أخرج خلسة رسالة هوندا وشرع في قراءتها.

«عزيزي السيد إينوما،

أعيد إليك نسختك من كتاب «عصبة الريح الإلهية». وقد قرأته بعظيم التقدير، وإني لأشكرك.

أُدركُ حق الإدراك السرّ في أن هذا الكتاب أثار لديك كل هذا القدر من الإعجاب، وكن على يقين من أنني، وقد سبق لي أن نظرت إلى هذه الانتفاضة باعتبارها مسألة ساموراي يستشعرون السخط وقد كرّسوا أنفسهم بصورة متطرفة للآلهة، قد توسعت آفاق رؤيتي للأمر، بعلمي بنقاء دافع وشعور من تورطوا في الانتفاضة. غير أن تقديري قد يختلف عن تقديرك، وحول هذا الخلاف أودّ أن أكتب لك بمزيد من التفصيل.

أقصد أنني حينما أفكر، فيما لو كنت في مثل عمرك، في ما إذا كانت الانفعالات التي ستثور في أعماقي ستكون مماثلة لما تستشعره، فإنني لا أملك إلا الشك في أن الأمر يمكن أن يكون كذلك، بل بالأحرى فإنني أعتقد أنه، أياً كانت مشاعر الأسى والندم، وأياً كان الشعور بالحسد الذي قد يكنه فؤادي، فإنني سأبتسم ساخراً من هؤلاء الرجال، الذين علقوا مصير كل شيء على ضربة واحدة. فحينما كنت في مثل عمرك نظرت إلى نفسي باعتباري على الطريق المفضي إلى أن أغدو عضواً مفيداً وصالحاً في المجتمع. وفي ذلك العمر كنت أحافظ على توازني العاطفي بحرص، وغدا ذهني يعمل بطريقة صافية بشكل أو بآخر، وإن كانت عملية. فقد كنت مقتنعاً بأن العواطف العادية «غير ملائمة» بالنسبة لي كلية. وتماماً كما أن المرء لا يمكنه أن يتلبس جسماً آخر غير جسمه، هكذا اعتقدت أن المرء ليس بمقدوره أن يؤدي إلا الدور الذي قُدِّر له في حياة البشر. وعندما كنت أرى العاطفة لدى الآخرين، درجت على أن أبحث عن التضارب هنالك بأسرع ما أستطيع، ذلك التناقض الضروري، مهما كان ضئيلاً، بين الإنسان نفسه وبين عاطفته، ثم أبتسم في قليل من السخرية حماية لنفسي.

وعندما يكون لدى الإنسان هذا النزوع فإن من السهل عليه أن يكتشف «ما هو غير ملائم» في أي موضع. ولم يكن هذا النوع من السخرية بالضرورة مما يتسم بالخبث بل قد أغامر بالقول إن سخريتي ذاتها قد احتوت على نوع من الودّ والتسامح. لماذا؟ لأن الإدراك في هذا العمر قد بدأ في التشكل حول أن العاطفة بطبيعتها هي شيء يولد من جرّاء عجز الإنسان عن رؤية هذا النوع من التضارب في ذاته.

غير أنه حدث أن صديقاً مقرباً مني، هو كيواكي ماتسوجاي الذي حدَّثك أبوك بدوره عنه، شكّل قيداً كبيراً على وعي هذا الذي رتب بهذه العناية الفائقة. فقد وقع في غرام فتاة، وقُدِّر لي أن أرى بعيني صديق أن هذا لا يعدو من البداية أن يكون التضارب الأشد غرابة. ذلك أنني كنت أنظر إليه حتى ذلك الوقت باعتباره لا يعرف من الدفء أكثر مما يعرفه البلّور المتألّق. كان متقلباً على نحو يدفع للجنون، ويميل إلى الانفعال، ولكنني كمراقب ذهبت إلى أن حساسيته الفائقة ستحفظه من العاطفة الساذجة التي لا ترعوي.

غير أن الأمور لم تسر على نحو ما ظننت، وحتى فيما كنت أرقب الأمر رأيت هذه العاطفة الساذجة التي لا ترعوي وهي تغير صديقي. كان الحب يحدث أثره على نحو محموم فيغيره محوّلاً إياه إلى شخص ملائم للحب. بدَّلته عاطفته الحمقاء تماماً والعمياء كلية إلى شخص مناسب تماماً. وفي لحظة موته، على وجه الدقة، رأيت وجهه يغدو وجه امرىء ولد ليموت حباً. وفي تلك اللحظة اكتُسِح كل التضارب ولم يعد له وجود.

ولم أستطع، أنا الذي رأت عيناه هذا التحول العجائبي، أن أظلّ دونما تغيُّرٍ. فقد غدا يقيني الغرّ بأن طبيعتي لا تقهر ضحية للشكوك، وكان عليّ أن أبذل جهدي للحفاظ على هذا اليقين، وما كان عملاً من أعمال اليقين غدا الآن من أعمال الإرادة، وما كان شيئاً طبيعياً أصبح الآن شيئاً ينبغي السعي وراءه. كان هذا تبدّلاً حمل معه فائدة قيّمة بالنسبة لي في إطار

دوري كقاضٍ، فعندما أتعامل مع مجرم يكون بمقـدوري الاعتقاد، دون أن تؤرجحني نـظريات الجـزاء أو إعادة التـأهيل أو التفـاؤل أو التشـاؤم حيـال الـطبيعة البشريـة، بأن أي إنسـان بغض النـظر عن مـوقفـه، قادر على أن يحوِّل.

عـلى أية حـال دعني أرجع إلى المشـاعر التي خـالجتني بعد قـراءة «عصبة الريح الإلهيـة». من الغريب أنني، أنـا الذي أبلغ الآن الثـامنة والثـلاثين، اكتشفت في نفسي قدرتها على أن يحركها هذا السرد لحادثة تاريخية تخـالطهـا الرعونة، وتمثل ما خطر ببالي على نحو بالغ الحيوية في كيواكي ماتسوجـاي، فعاطفته لم تَعْدُ أن تكون عاطفة مكرسة لامرأة واحدة، لكن رعونتها كـانت هي ذاتهـا الرعـونة التي خـالطت تلك الحـادثة، وكـذلـك عنفهـا وتمـردهـا ومقاومتها لكل العلاجات باستثنـاء العلاج المتمثـل في الموت. ومـع ذلك، وحتى في غمار تقديري المفعم بالانفعال، أحسست بالأمن من خـلال علمي بأنه بمقدوري في عمري الحـالي أن أنفعل بمثـل هذه الصـور دون أن تترتب على ذلك أية مخاطر، وربما كذلك بسبب الحقيقـة التي لا سبيل إلى كتـمانها، وهي أنني لم يحدث أن قمت بمثل هذه الأمور بنفسي قط، فـإن بمقدوري أن أتأمل آمناً في سربي كلَّ شيء كان يمكن أن أقوم به في الماضي، وهكذا دونما خطر على الإطلاق، يمكنني تركيز خيالي على مثل هذه الأحداث وترك نفسي تسبح في الأشعة السابحة في أحلام يقظتي المنعكسة عنها.

غـير أنه في مثـل سنك يُعَـد كل انفعـال خطراً، وكـل انفعـال يمكن أن يجعل المرء يتخبّط هو انفعال خطر، وبعض هذه الانفعـالات خطر بصـورة خاصة، فعلى سبيل المثال، ومن خلال الحكم استناداً إلى ذلك البريق الذي يتألّق في عينيك ليريك مَنْ حولك، أعتقـد أن طبيعتك ذاتهـا تجعل حكـاية من هذا النوع «غير مناسبة» بالنسبة لك.

بعد أن وصلت إلى عمري الحالي لم أعد أجد نفسي ملتفتاً إلى التضـارب

بين البشر وعواطفهم. وعندما كنت في مقتبل العمر جعل حرصي على صالحي مثل هذا الالتفات إلى الأخطاء أمراً ضرورياً بالتأكيد، ولكن غياب التوافق في الآخرين الناجم عن عواطفهم، وقد كان حرياً بي في الماضي أن أعتبره ضعفاً جديراً بإثارة الضحك المفعم بالسخرية، أصبح لا يتجاوز افتقاراً إلى الكمال، يمكن التجاوز عنه، وبهذا التطور ربما فُقِد آخر آثار شبابي الذي جعلته قابليته للاختراق يخشى الجراح التي يجلبها الوصول عاطفياً إلى السلوك الخاطىء الذي يقدم عليه الآخرون. وما يؤثر فيَّ بحيوية بالغة الآن حقاً هو جمال الخطر، وليس خطر الجمال. وبالنسبة لي فليس في الشباب ما يثير الضحك، وربما رجع ذلك إلى أن الشباب لم تعد له سطوة على وعيي بذاتي. وعندما أتأمل هذا كله للحظة يبدو لي أن ثمة ما هو مخيف فيه. وحماسي، وهو حميد بالنسبة لي، قد يؤدي إلى نتيجة قوامها المزيد من إضرام نيران حماسك الخطر.

ولأنني أدرك ذلك أود كثيراً أن ألومك بشدة في هذا الصدد، وأن أدعوك إلى كبح جماح نفسك، على الرغم من أن جهودي قد تكون بلا طائل.

إن كتاب «عصبة الريح الإلهية» هو دراما مكتملة المأساوية. لقد كان هذا الحادث بالغ التميّز إلى حد أنه يبدو على وجه التقريب عملاً فنياً. لقد كان بوتقة اختبر فيها نقاء العزم على نحو نادراً ما نصادفه في رحاب التاريخ، لكن المرء لا ينبغي بحال أن يخلط هذه الحكاية ذات الجمال الذي يشبه ما يتراءى في الأحلام، والمنتمية إلى زمن آخر، بظروف الواقع الراهن.

يكمن خطر هذه الصورة في تنحيتها للتناقضات جانباً. ويبدو أن المؤلف، تسونانوري ياماو، قد كتب عمله وفقاً للحقيقة التاريخية، ولكنه من أجل الوحدة الفنية لهذا المجلد الرشيق استبعد دونما شك عدداً من التناقضات. وفضلاً عن ذلك فقد ركز بإصرار بالغ على نقاء العزم والقصد

المتعلق بجوهر هذا الحدث، بحيث ضحّى بكل إمكانية لتحقيق القدرة على رؤية الأشياء وفقاً لعلاقاتها الصحيحة وأهميتها النسبية. وهكذا فإن المرء لا يفقد القدرة على رؤية السياق العام بتاريخ العالم فحسب، وإنما كذلك الضرورات التاريخية التي أحاطت بحكومة الميجي التي اختارتها العصبة عدوّاً لها. وما يفتقر الكتاب إليه هو عنصر التقابل الذي يظهر التناقض. ولكي نضرب مثالاً نشير إلى أنك تُدرك بنفسك ـ أليس كذلك؟ ـ أنه وُجِدتْ في الوقت نفسه في مقاطعة كوماموتو مجموعة تطلق على نفسها اسم «زمرة كوماموتو».

في سبعينيات القرن التاسع عشر جاء نقيب مدفعي أميركي متقاعد يدعى ل. ل. جينز، متفوق على أقرانه في الحرب الأهلية، ليعمل مدرساً في مدرسة التعليم الغربي التي أنشئت في كوماموتو، وبدأ يعطي دروساً في تفسير الكتاب المقدس، وينزلق إلى دور مبشر بروتستانتي. وفي العام الذي شهد انتفاضة العصبة الإلهية، أي عام ١٨٧٦، تجمع خمسة وثلاثون من طلابه بقيادة دانجو إ يبينا على جبل هاناوكا في الثلاثين من كانون الثاني (يناير). وتحت اسم «زمرة كوماموتو» أقسموا على «إضفاء الطابع المسيحي على اليابان، وبناء أمة جديدة تقوم على هذه التعاليم». وبالطبع ثار اتجاه رافض لهذا، وأغلقت المدرسة، ولكن الرفاق الخمسة والثلاثين تمكنوا من الهرب إلى كيوتو حيث ساعدوا جو نيجيما في إقامة جامعة دوشيشا. وعلى الرغم من أن مُثُلهم العليا تتعارض رأساً مع مُثُل العصبة، ألسنا نرى هنا أيضاً مثالاً آخر على نقاء العزم والقصد؟ في يابان ذلك العهد، فإنه لم تخل حتى أغرب الأفكار وأكثرها بعداً عن الواقعية من إمكانية التحقق، وطرحت مفاهيم عن الإصلاح السياسي متعارضة كل التعارض بالسذاجة ذاتها وبالافتقار عينه إلى العمق. وعلى المرء أن يدرك مدى الاختلاف الكبير بين ذلك العهد وعصرنا الحاضر الذي اتخذ فيه هيكل الحكم شكلاً محدّداً وواضحاً.

لست من أنصار تجديدات المسيحية، ولست بالذي يسخر من التحمس للماضي وضيق الأفق الصارم الذي يتّسم به رجال العصبة. غير أنه إذا كان للمرء أن يتعلم من التاريخ فإن عليه ألا يركز على قطاع واحد فحسب من عهد بعينه، وإنما عليه أن يقوم بتحقيق شامل في العناصر العديدة المعقدة والمتناقضة فيما بينها التي جعلت ذلك العهد ما كان عليه. ويتعيّن على المرء أن يأخذ ذلك القطاع الواحد، وأن يضعه في موضعه الصحيح، وعليه أن يقوِّم العناصر المتعددة التي دخلت في عملية إعطائه طابعه الخاص. وهكذا فإن على المرء أن ينظر إلى التاريخ من المنظور الذي يتيح رؤية عريضة ومتوازنة.

هذا هو، فيما أعتقد، المقصود بالتعلم من التاريخ، ذلك أن رؤية أي إنسان لعصره هي رؤية محدودة، وأنه يواجه صعوبة كبرى في محاولته الحصول على صورة شاملة لهذا العصر الذي عاش فيه. ولهذا السبب على وجه الدقة فإن الصورة الشاملة التي يقدمها التاريخ تقدم في الوقت نفسه المعلومات، وتشكل نموذجاً لإرشاد المرء. والإنسان الذي يعيش مقيداً بضوابط الحاضر الممتدّ لحظة فأخرى بمقدوره، من خلال الرؤية العريضة التي يقدمها التاريخ المتجاوز للزمان، أن يستفيد من الصورة الشاملة لعالمه، وأن يصحّح رؤيته الضيقة للأمور. وتلك هي الميزة المبهجة التي يقدمها التاريخ للبشر.

والتعلم من التاريخ لا ينبغي أن يعني على الإطلاق الانغلاق على جانب محدد من عهد بعينه واستخدامه كنموذج لإصلاح جانب معين من جوانب الحاضر. وأخذ قطعة ذات شكل معين من لعبة ألغاز لإعادة تركيب الماضي ومحاولة جعلها تناسب الحاضر ليس بالمشروع الذي يمكن أن تكون له نتائج سعيدة. والقيام بذلك ليس إلا تلاعباً بالتاريخ، وتلك لعبة تناسب الأطفال. على المرء أن يدرك أن إخلاص الأمس وإخلاص اليوم، أياً كان

مدى تشابههما كبيراً، لهما ظروف تاريخية مختلفة. وإذا ما سعى المرء وراء نقاء عزم أو قصد ينتمي إلى الطبيعة ذاتها فإن عليه أن ينشده في «إيديولوجية معارضة كل التعارض» تنتمي إلى العصر الحاضر، وتوجد في كل الظروف التاريخية نفسها. وموقف معتدل من هذا النوع يُعَدّ مناسباً لـ «الذات المعاصرة» المحدودة بطبيعتها. ذلك أنه على هذا النحو يستطيع المرء أخيراً تلخيص نقاء العزم هذا كمشكلة تاريخية، وجعل هذا «الدافع الإنساني» الذي يتجاوز التاريخ موضوعاً لدراسة يقوم بها، وعندئذ تصبح الظروف التاريخية المألوفة في المرحلة التاريخية شيئاً لا يتجاوز العناصر الدائمة في المعادلة.

إن ما ينبغي أن ينحدر منه شاب مثلك هو الخلط بين نقاء القصد وبين التاريخ. ومن هنا فإن التقدير الكبير الذي تكنه لهذا الكتاب الذي يدور حول «عصبة الريح الإلهية»، يجعلني أمتلىء خوفاً.[وأحسب أنه سيكون أمراً طيباً أن تحاول التفكير في التاريخ باعتباره ساحة هائلة تحتشد بالأحداث، وفي نقاء القصد بحسبانه شيئاً يتجاوز التاريخ.

ربما كان هذا كله إفصاحاً عن الاهتمام المفرط، ولكن تلك هي نصيحتي لك. وأحسب أنني وصلت، دون أن أدرك ذلك، إلى سن صب النصائح صباً في أذني كل من هو أصغر مني سناً. ولكني، إذا نحينا ذلك جانباً، أقدر ذكاءك. وإلا فلماذا أوجه النصح والتحذير بمثل هذا التفصيل إلى شاب أتوقع ألا يصل إلى شيء؟.

أما فيما يتعلق بالقوة التي توشك أن تكون سامية، والتي أظهرتها في لقاء الكندو، وفيما يتصل بنقاء قصدك ومشاعرك المندفعة، فإني لا أستطيع إخفاء إعجابي ولكني إذ أعتمد بصورة أكبر على ذكائك وتحمسك للحق، أود أن أعرب لك عن الأمل الذي أستشعره عميقاً، بأنك ستكون على الدوام مدركاً لواجبك الرئيسي كطالب، مجداً في دروسك، وبذلك تغدو رجلاً له قيمته بالنسبة لبلادك.

ومرة أخرى فإني أرجوك، إذا ما قدمت إلى أوساكا، أن تنتهز الفرصة لزيارتي، وستكون على الدوام موضع ترحيب.

وأخيراً، وعلى الرغم من أنه ينبغي ألا تكون هناك حاجة إلى مثل هذا التخوف في وجود رجل رائع مثل والدك على الدوام بقربك، إلا أنه إذا ما طرأت أية مشكلة خطيرة على نحو خاص أمامك، وشعرت بالحاجة إلى استشارة شخص آخر، فإنني سأكون على استعداد، في أي وقت، لمناقشة الأمور معك. وأرجو ألا يخالجك أدنى شعور بالتردد في هذا الصدد.

المخلص

شيجيكوني هوندا

تنهّد الشاب عندما وصل إلى نهاية الرسالة الطويلة. فلم يدخل ما كتب فيها السرور على نفسه، وقد اعترض على ما ورد فيها من البداية إلى النهاية، ثم هناك شيء آخر، فعلى الرغم من أن هذا الرجل كان صديقاً قديماً لأبيه فإن الشاب لم يستطع سبر أغوار الدافع الذي حدا به إلى إرسال مثل هذه الرسالة الضافية التي كانت فضلاً على ذلك ودية للغاية، ومصوغة بعناية شديدة وبإخلاص جلي، لفتى قابله هو، قاضي محكمة استئناف أوساكا، مرة واحدة فحسب.

كان اهتمام القاضي بإيساو تكريماً فريداً له، ولكن ما أثّر في نفس الفتى لم يتمثل في الرسالة ذاتها، وإنما في صراحة أسلوبها ودفئه. فلم يسبق من قبل أن أبدى قط رجل بارز مثل هذا الاهتمام الصادق به.

لم يستطع إيساو التوصل إلا إلى استنتاج واحد: «ليس هناك شك في أنه قد تأثر بالكتاب، فلقد حوّلته سنّه وعمله إلى جبان، ولكنه بدوره رجل يتمتع يقيناً بالنقاء».

وعلى الرغم من أن الرسالة قد حفلت بعبارات جرحت مشاعره فإن

عينيه اليافعتين على الأقل، لم تتمكنا من العثور على ما يوحي بالفساد قابعاً بين سطورها.

ولكن على الرغم من ذلك، ألا يحدث تجميد هوندا الحاذق للتاريخ الذي يجرد من الزمن، تأثيراً قوامه تحويل كل شيء إلى خريطة؟ أعلى هذا النحو يعمل ذهن القاضي؟ إن تاريخ مرحلة ما من خلال «صورته الشاملة» التي رسمها من شأنه أن يصبح ما لا يتجاوز خريطة، لفافة من الورق، شيئاً مجرداً من الحياة.

إن هذا الرجل لا يفهم شيئاً على الإطلاق عن الدم الذي يتدفّق في عروق اليابانيين، عن تراثنا الأخلاقي، عن إرادتنا. بمثل هذا مضى الفتى يحدِّث نفسه.

تطلّع حوله فألفى المحاضرة ما تزال مستمرة، على نحو يدفع النعاس إلى الجنون. وكان هطول المطر خارج النافذة قد تزايد. وامتلأ هواء الصف الدراسي الرطب الحار بالرائحة الحمضية الثقيلة المنبعثة من أجسام فتية في عمر النموّ.

انتهت المحاضرة أخيراً. وساد الشعور بالارتياح الذي به يشاهد المرء دجاجة تقوقيء، على نحو مخيف، وهي تلفظ نفسها الأخير وتلزم السكون.

خرج إيساو إلى الدهليز الذي كان رطباً بتأثير المطر، فألفى إيزوتسو وساجارا في انتظاره.

تساءل إيساو:

- فيم تفكّران؟

أبلغه إيزوتسو:

- قال الملازم هوري إنه ليس مُنَوَّباً اليوم، وإنه سيعود إلى مسكنه في

الساعة الثالثة. وسيكون المكان هادئاً في ذلك الوقت، وسيغدو بمقدورك الحديث معه. وقال إننا سنتناول طعام الغداء معه كذلك.

ردّ إيساو دونما تردد:

ـ طيب، لن أحضر التدريب على الكندو اليوم.

ـ ألن يعقب النقيب على ذلك؟

ـ بمقدوره أن يقول ما يحلو له. فهو لا يجرؤ على استبعادي من الفريق.

رد ساجارا الذي كان صغير الجرم ويضع عوينات طبية:

ـ ما أروع أن تكون للمرء هذه القوة!

مضى الثلاثة معاً لحضور المحاضرة التالية، وكانوا قد اختاروا اللغة الألمانية لتكون اللغة الأجنبية التي يدرسونها.

سلم كل من إيزوتسو وساجارا بقيادة إيساو، فقد كان هو الذي أثار حماسهما بإعارتهما كتاب «عصبة الريح الإلهية». وبعد أن تلقى إيساو كتابه بالمصادفة ذلك الصباح قرر أن يعيره عقب ذلك للملازم هوري الذي سيقابله في ذلك الأصيل. ولم يكن من المحتمل أنه يشبه رد فعله في شيء الاستجابة الممزوجة بالمماطلة كسباً للوقت التي صدرت عن القاضي هوندا.

«المنظور الذي يتيح رؤية عريضة ومتوازنة». حدّث إيساو نفسه بهذه العبارة الواردة في الرسالة التي قرأها لتوّه. وابتسم ابتسامة خفيفة وهو يحدث نفسه قائلاً: «إن ذلك الرجل لن يقدر له قط أن يمس ملاقط النار المتوهجة، وإنما سيلمس الهيباتشي[1] فقط. ولكن ما أشد اختلاف ملاقط النار عن الهيباتشي، فالأولى تصنع من المعدن، وأما الأخرى فمن الفخّار. إنه رجل نقي، ولكنه ينتمي إلى فئة الفخار».

---

(١) الهيباتشي: أداة تستخدم للتدفئة في الدور التقليدية اليابانية. وهي قريبة الشبه بالمجمرة (هـ. م.)

كان مفهوم النقـاء شيئاً صـدر عن إيساو واستقـر عميقاً في ذهني زميليـه وفؤاديهما. وقد صاغ شعاراً قوامه: «تعلموا من نقاء عصبة الريـح الإلهية!» فأصبح شعاراً لمجموعتهم.

شكَّل النقاء، وهو مفهوم يعيد إلى الذهن الـزهور، وطعم النعنـاع الحادّ الذي يميّز غسـول الفم، وتشبُّث الطفـل بثدي أمـه الرقيق، شيئـاً يضم كل هذه العناصر مباشرة إلى مفهوم الدم، مفهوم السيوف وهي تجتاح الظالمين، مفهوم النصال وهي توغل في الكواهل فتملأ الهواء بنثار الدم، وإلى مفهـوم السيبوكو. واللحظة التي «يسقط فيها الساموراي كـأنه بـرعم كرزة» وتغـدو جثّته المضرجة بالدم مثل براعم الكرز الفواحة بالشـذا. ومن هنا فـإن مفهوم النقاء يمكن أن يتغيّر إلى النقيض بسرعـة تحكّمية، وهكـذا غدا النقـاء مادة الشعر.

بدا الموت بصـورة نقية، بـالنسبة لإيسـاو، أمراً يسـيراً. ولكن ماذا عن الضحك بنقاء؟ كانت كيفية غدوّ المرء نقيـاً من كل الجـوانب مشكلة تحيّره، فأياً كان إحكامه لقبضته على عواطفه كانت تأتي أوقات يبرز فيها شيء تـافه يجعله يضحك. وذات مرة ضحك، على سبيل المثال، من جـرو يمرح عـلى جانب الطريق وقد وضع في خطمه، من بين كل الأشياء، حذاء نسائياً ذا كعب عالٍ. وكان نوعاً من الضحك يُؤْثِر ألا يراه الآخرون مغرباً فيه.

ـ هل تعرف كيفية الوصول إلى مسكن الملازم؟

ـ ضع ثقتك فيّ، لسوف أمضي بكما إلى هناك.

ـ أتساءل كيف يبدو الملازم حقاً.

تحدث إيساو بصوت عالٍ:

ـ أعتقد أنه شخص سيمنحنا الفرصة كي نلقى حتفنا على نحو بطولي.

- ١١ -

ترجل الفتية الثلاثة وهم يحملون المظلات الواقية من المطر، ويعتمرون قلنسواتهم المدرسية ذات الخيط الأبيض الذي يزين الحواف، من الحافلة في محطة روبونجي، ومضوا هابطين مع الطريق الذي بدأ انحداره عند رقم ٣ كاسومي ـ تشو، وامتد متعرجاً حتى البوابة الرئيسية لمعسكر فوج أزابو الثالث.

ـ ها هو.

قالها إيزوتسو مشيراً بإصبعه نحو منزل يقع عند سفح المنحدر، وتوقف ثلاثتهم ليلقوا نظرة.

كان منزلاً مؤلفاً من طابقين، متهالكاً للغاية بفعل القدم، حتى ليتساءل المرء كيف استطاع الصمود في مواجهة الزلزال الجائح. بدت حديقته فسيحة للغاية، ولكن لم تكن هناك بوابة، إذ كان السياج المؤلف من ألواح خشبية يفتتح على الباب مباشرة. في المقدمة امتدت أبواب زجاجية بدت مترعة بانعكاسات ملتوية للسماء المعتمة المطيرة. وما إن لمح إيساو كتلة المنزل الذي انهمر عليه المطر غزيراً حتى سيطر عليه انطباع مخيف، فلا يمكن أن تكون تلك هي المرة الأولى التي أطل فيها عليه، فيما راح يحدِّث نفسه. هنالك انتصب المنزل وقد لفه المطر المنهمر، كأنه كوخ هائل الحجم على نحو يثير الضحك لفرط غرابته، عتيق بحيث لم يعد صالحاً لأي استخدام، ومتروك كلية لعناصر الطبيعة تمرح في أرجائه. وازدهرت دونما اعتدال الأشجار والشجيرات في حديقته، وقد تركت دونما تشذيب أو تقليم، وجعلت السياج يبدو كما لو كان صندوق مهملات امتلأ

بالأعشاب. وأحس إيساو بأن هذا المكان ذا المنظر البالغ الكآبة مرتبط بحادثة تنتمي إلى الماضي، وتفوق عذوبتها كل وصف، وقد تحركت ذكراها عميقة في داخله وكأنها فقاعات تتصاعد من شهد قاتم. ولكم بدا غريباً أن يتكون لديه هذا الانطباع الرهيب، وإن كان واضحاً ومتميزاً عن وجوده ها هنا من قبل! ربما قام هذا الانطباع على أساس تجربة فعلية قوامها إحضار والديه له إلى هذا الحي خلال طفولته، ثم ربما قُدِّر له ذات مرة رؤية صورة لهذا المنزل. وأياً ما كان الأمر فقد ساوره شعور بأن شكل هذا المنزل قد ظل محفوظاً بصورة كاملة في قرارة فؤاده وكأنه حديقة صغيرة، ولكنها مفصلة تماماً يلفها الغمام.

بعد انقضاء لحظة أخرى أبعد إيساو هذه التأملات التي ربما أثارها الظل المعتم الذي ألقته مظلته. وانطلق مسرعاً أمام الآخرين يكاد يعدو عدواً، هابطاً التل الذي اغتسل بالماء المختلط بالوحل.

وقفوا أمام الدهليز. كانت هناك لوحة للاسم مثبتة على أعلى الحلية المتصالبة التي لا تفصل مساحات كبيرة جزئياتها، والمصنوعة من الخشب على الباب، لكن الريح والمطر أثّرا كثيراً في خشب اللوحة بحيث أنه لم يبق من مادتها إلا الجزء الذي علاه بالحبر اسم «كيتازاكي». وكان المطر قد وصل في تغلغله إلى العتبة المهترئة.

كان ابن عم لإيزوتسو يعمل ضابطاً بالجيش قد قام بتقديمه إلى الملازم هوري، الضابط بسلاح المشاة الذي أقبلوا لزيارته اليوم. وكان بمقدور إيزوتسو أن يتوقع أن يلقى ترحيباً خاصاً من الملازم لإحضاره معه ابن عميد أكاديمية الوطنية.

بدت الحالة النفسية التي سيطرت على إيساو مثل الحالة التي عاشها شاب قوي ضُمَّ حديثاً إلى عصبة الريح الإلهية، وهو في طريقه للقاء هاروكاتا كايا، وقلبه يدق بقوة. غير أن الوقت الراهن هو عهد تنتمي فيه

العصبة إلى الماضي البعيد، وكان إيساو يدرك تمام الإدراك أن الموقف اليوم ليس موقف ساموراي العصبة الذين يمتشقون السيوف في مواجهة جنود حكومة ميجي فيتحدد العدو والصديق بجلاء مثل قطع متقابلة وضعت على رقعة شطرنج. وكان يعرف أن روح الساموراي تتدفق بالحياة في أعماق الجيش، وأن أولئك الذين تتّقد هذه الروح بين جوانبهم ينظرون بأسف وحنق إلى «عقلية ميجي» التي يتبنّاها العسكريون والوزراء ذوو الحيثية الذين كانوا حلفاء لهم، وبدا لإيساو أن اضطرار واحد ممن تتملكهم روح الساموراي للسكن في مثل هذا المنزل البائس هو بمثابة وجود شجرة برتقال في الظل الرطب لغابة ممتدة، وتألق برتقالة وهاجة اللون وهي تتدلى وحيدة من أحد أغصان هذه الشجرة.

تخلى إيساو تماماً عن التحفظ الفاتر الذي كان بمقدوره أن يعتصم به حتى قبيل مباراة كندو. الرجل الذي يوشك على لقائه شخصياً ربما كان بمقدوره التحليق به إلى عليين ـ على الرغم من أن كل حلم وأمل علّقه حتى الآن على شخص آخر كان مآله الخذلان.

بعث العجوز الذي فتح الباب الرعدة في أطراف الشبان الثلاثة. وكان طويل القامة، ولكنه انحنى بحيث بدا بشعره الأشيب وعينيه الغائرتين في محجريهما وقد تجسد في عتمة الدهليز منقضاً عليهم. كان من نوعية الكائنات الشبيهة بالطيور التي قد يتوقع المرء أن يقابلها في برية جبلية، عتيقة، طوت حولها أجنحتها المتكسّرة.

ـ الملازم ينتظر زيارتكم بلهفة. تفضلوا من هنا!

قالها العجوز ضاغطاً راحتيه على ركبتيه، وهو ينحني محيياً. ثم انطلق في عتمة الدهليز الرطب وكأنما هو يستخدم يديه لتوجيه حركة قدميه. وعلى الرغم من أن المواد التي استخدمت في بناء الدار لم تبد مختلفة عن مثيلتها في أية دار أخرى للسكن فإن الجدران ذاتها لفتها رائحة الجلود، وبدا أن

صوت نداءات النفير في الصباح والمساء في الفوج الثالث قد امتزجت بخشب محدِّدات الحوائط المائلة. ولم يكن أي ساكن آخر عدا الملازم قد عاد إلى المنزل الذي لفه صمت بالغ العمق. تزايد معدل تنفس العجوز فيما هو يبدأ في صعود الدرج المقرقع، ثم توقف في منتصف الدرج وكأنما ليكسب لحظة يرتاح فيها، ونادى باتجاه الطابق الثاني: «أيها الملازم هوري، لقد جاء ضيوفك». كانت هناك قوة مترعة بالشباب توشك أن تصل إلى حد الغطرسة في الصوت الذي تردد مجيباً النداء.

كانت الغرفة التي يقطنها الملازم هوري غرفة مفردة يعادل اتساعها امتداد ثماني حصر، وباستثناء قمطر وخزانة كتب، لم تكن تضمّ أية قطعة أثاث، وناسبت الموجودات الخشنة تماماً حياة ضابط أعزب.

كان الملازم هوري قد بدَّل ثيابه، وارتدى كيموناً صيفياً تزينه مؤثرات متناثرة، بزنار ربط كيفما اتفق، وبدا الضابط بزيّه هذا شاباً عادياً لوحت الشمس بشرته. وقد رتب زيه الرسمي بدقة على مشجب تدلّى من أحد العروق الخشبية. ومنحت العروة الحمراء على الياقة ورقم «٣» النحاسي الغرفة بقعة اللون الوحيدة التي تستوقف النظر.

تردد صوت الملازم مفعماً بالثقة وهو يقول:

ـ طيب، تفضلوا. كنت الضابط المنوَّب هذا الأسبوع، وأعفيت ظهر اليوم. وهذا سر عودتي مبكراً.

بدا شعره قصيراً، ولاحت فروة رأسه كأنها نصّ يعلن القوة الخشنة التي تفيض بها روحه. وعلى الرغم من أن عينيه كانتا صافيتين ونظرته متغلغلة فيما تقع عليه، إلا أنه بزيه هذا لم يكن هناك ما يميّزه عن أي شاب آخر من الأقاليم في السادسة أو السابعة والعشرين من عمره، اللهم آلا ساعده الغليظ الذي يوحي بتمكّنه من أسرار الكندو.

ـ استريحوا، ولا تكترث بالشاي أيها العجوز، فلسوف نعنى بأمره!

عندما خفت وقع أقدام العجوز على الدرج المقرقع شرع الملازم في الحديث بمرح، فيما كان ينحني لالتقاط زجاجة حافظة للحرارة تضم بعض الماء الساخن لإعداد الشاي، وبدا من الجلي أن كلماته قصد بها التخفيف من حدة توتر الفتية.

ـ هذا المكان يشبه منزلاً مسكوناً، ولكنه وذلك العجوز لهما تاريخ حافل. فقد كان العجوز بطلاً من أبطال الحرب مع الصين، وخلال الحرب الروسية ـ اليابانية فتح هذا المنزل، وقد شق العديد من كبار العسكريين طريقهم في الحياة ابتداء من هنا، وهكذا فإنه منزل يرتبط بأمور طيبة، فضلاً عن أنه رخيص وقريب من الثكنات، وهكذا فلم يحدث أن كانت به غرفة خالية قط.

وفيما كان الملازم يضحك راح إيساو يتفرس في ملامحه، ومضى يحدث نفسه بأنه من الأفضل لو تمت الزيارة وقت تفتح براعم الكرز وبدء سقوطها. كما كانت الزيارة ستغدو أفضل كثيراً لو أن الملازم عاد إلى الدار بعد التدريب في أرض الاستعراض التي تجتاحها الريح تحت سماء مصفرّة مغبّرة، وقد نزع حذاءه الذي التصقت به بتلات براعم الكرز وحيا الفتية وهو يرتدي زيه الذي يضوع منه عبق الربيع ورائحة السماء، وثمة بريق مرح من الحمرة والذهب على كتفيه وياقته.

بدا جلياً أن الملازم رجل لا يكترث كثيراً بالانطباع الذي يتركه في نفوس الآخرين، وتردد حديثه سهلاً وخالياً من التكلف حين تناول موضوع الكندو.

حبس إيزوتسو وساجارا أنفاسهما وقد اعتزما قول شيء ما. وما أرادا كلاهما قوله، هو أن إيساو الذي وصل إلى لاعب كندو في المستوى الثالث يُعَدُّ شاباً ينتظر منه عالم الكندو الكثير. وأخيراً تلعثم ساجارا الضئيل الجرم الذي يضع العوينات، وهو يفضي إلى الملازم بهذه المعلومات. فاحمرّ وجه

إيساو، واكتسى التعبير المرتسم على محيا الملازم بدفء رقيق، وهو يرمق إيساو.

كان هذا هو ما يأمله إيزوتسو وساجارا، فقد رأيا في إيساو التجسيد الكامل لآمالهما، وهكذا أرادا بعدوانية يتميّز بها الشباب أن يكون على قدم المساواة في أية مواجهة مع شخص من خارج المجموعة. وبالطبع ما كان إيساو ليلجأ إلى الحيل اللفظية قط إلا لكي يلقي على كاهل خصمه القوة النافذة للنقاء التي كرسوا أنفسهم جميعاً لها.

غيَّر الملازم فجأة إيقاع حديثه، وبعينين متألقتين وجَّه سؤالاً مباشراً، فأحس إيزوتسو وساجارا بقلبيهما يثبان في صدريهما، فقد حانت اللحظة التي كانا ينتظرانها.

ـ طيب، دعوني أسأل إيساو: ما هو المثال الأعلى الذي تتطلع إليه؟

دفع إيساو الذي كان ما يزال جالساً بجذع منتصب، رغم أنه دُعي للاسترخاء في جلسته، صدره إلى الأمام وأجاب بإيجاز بليغ:

ـ «أن أشكل عصبة ريح إلهية لعهد شوا[1]» .

ـ لقد منيت انتفاضة العصبة بالإخفاق. ألا يثير هذا القلق في نفسك على الإطلاق؟

ـ لم يكن ذلك إخفاقاً.

ـ لم يكن؟ طيب. وفيم ستضعون ثقتكم؟

ـ في سيوفنا.

قالها إيساو دون أن يتكلف أن يصطنع كلمة واحدة في دوره.

(١) عهد شوا: وفقاً للتقاليد اليابانية يطلق على مدة حكم كل إمبراطور لقب خاص يميزها، والمقصود بعهد شواء هو فترة حكم الإمبراطور الراحل هيروهيتو. (هـ. م.)

لزم الملازم الصمت برهة. وبدا كأنه يقلب السؤال التالي في ذهنه:
- طيب، أحسنت. ولكن دعني أوجه إليك هذا السؤال: ما الذي ترغب فيه أكثر من أي شيء آخر؟.

في هذه المرة كان إيساو هو الذي لزم الصمت. كان يركز ناظريه في عيني الملازم، لكنه الآن أشاح بهما قليلاً. وانتقلت نظرته من الجدار الرطب إلى النافذة الزجاجية الرحبة المحكمة الإغلاق. وكانت أبعد ما يستطيع رؤيته. فقد كان يعرف أنه وراء خشب النافذة المتصالب عبر مسافات ضيقة انسدلت ستارة سميكة من المطر المنهمر. وحتى لو كانت النافذة مشرعة فلن ترى العين إلا المطر. ورغم ذلك بدا أن إيساو يوشك على الحديث عن شيء لم يكن قاب قوسين أو أدنى، وإنما ترامى في البعيد.
عندما تحدث، ورغم أن صوته تلعثم قليلاً، فإن كلماته تناهت جريئة:
- أمام الشمس... على قمة صخرة، عند الشروق، وفيها أحيّي الشمس... بينما أُطِلُّ على البحر المتألّق، تحت شجرة صنوبر سامقة جليلة... أنتحر.

قال الملازم:
- إحم!

تطلّع إيزوتسو وساجارا إلى إيساو مصدومينْ. فعلى الرغم من أنه لم يدل بمثل هذا الاعتراف الشامخ من قبل قط، ويقيناً لم يدل به لصديقيه، ها هو يعرب عما في دخيلة نفسه على هذا النحو لرجل يلقاه للمرة الأولى.

من حسن حظ إيساو أن الملازم لم يُرُدَّ مبدياً نزعة تشككية خشنة، وإنما أبدى كافة المؤشرات الدالة على أنه يزن بأقصى قدر من الجدية هذا الإفصاح الذي بدا أنه لا يختلف عن الجنون كثيراً. وأخيراً تحدث قائلاً:
- هكذا الأمر إذن، ولكن ليس من الهين أن يموت المرء على هذا النحو الجميل، كما تعلم. لأن اختيار اللحظة ليس منوطاً بك. وحتى بالنسبة

لرجل عسكري، ليس هناك ضمان يكفل له أن يموت على نحو ما يريد تماماً.

لم يُعِرْ إيساو كلمات الملازم اهتماماً، فالجدل المراوغ والتأويل والمنهاج القائل بأنه «من ناحيةٍ هناك هذا ومن ناحية أخرى هناك ذاك» كل هذه الأمور كانت غريبة على طريقته في التفكير. لقد رسم مثاله الأعلى على ورق أبيض نقي بحبر أسود جديد. كان نصه غامضاً، ولم يستبعد الترجمة فحسب، وإنما كذلك كل نقد أو تعقيب.

غدا أسلوب إيساو الآن متوتراً للغاية، وباستعداد كامل حتى لتلقي صفعة على الوجه، تطلع إلى عيني الملازم وتحدث وقد استقامت كتفاه:

ـ أيُسمَح لي بطرح سؤال؟

ـ إمضِ قُدُماً!

ـ أصحيح ما يشاع من أنه قبل حادث الخامس عشر من أيار (مايو) قام الملازم كومورو من البحرية الإمبراطورية بزيارة للملازم هوري؟

للمرة الأولى التمع تعبير بارد صارم على محيا الملازم.

ـ أين سمعت بإشاعة كهذه؟

ـ ردّدها أحدهم في كلية أبي.

ـ أكان أبوك نفسه هو الذي ردّدها؟

ـ كلا، لم يكن أبي.

ـ لا أهمية لذلك. لسوف يظهر كل شيء خلال المحاكمة. لا ينبغي أن تدع نفسك بحيث تستدرجك شائعات سخيفة.

ـ أهي شائعة سخيفة؟

ـ أجل، إنها شائعة سخيفة.

لاذ الملازم بالصمت، وبدا الغضب الذي كبح جماحه وكأنه يتذبذب في غضون ذلك شأن إبرة بوصلة.

ـ ثق بنا! أبلغنا بالحقيقة رجاء! هل قابلته؟
ـ لا، لم أقابله. إنني لا أقابل أحداً من البحرية على الإطلاق.
ـ أتلتقي بأحد رجال الجيش.

حاول الملازم إطلاق ضحكة توحي بعدم الاكتراث:
ـ إنني ألتقي بهم كل يوم. فأنا جندي، في نهاية المطاف.
ـ ليس هذا بردّ على سؤالي.

تطلع إيزوتسو وساجارا أحدهما في الآخر بخوف. ترى إلى أي مدى يجرؤ إيساو على المضي؟

تساءل الملازم بعد فترة صمت:
ـ هل تقصد اللقاء مع رفاق؟
ـ نعم.
ـ هذا أمر ليس من شأنك.
ـ أرجوك. لا بد لنا حقاً أن نعرف!
ـ ولِمَ يتعيّن أن تعرفوا؟
ـ لأنه إذا. . إذا قُدِّر لنا أن نأتي لنطلب شيئاً منك فيتعين أن نعرف قبل أن يحين أوان ذلك ما إذا كان الملازم هوري رجلاً سيحاول كبح جماحنا من عدمه.

حتى قبل سماعه رد الآخر، أحس إيساو الذي تعلم، كما حدث في غالب الأحوال من قبل، أن الوقت السيء قد حان، إذ كانت تعزله رعدة عن الرجل الجالس أمامه، فتفقد شخصية رفيقه التي كانت قبل لحظة واحدة بالغة التألق كلَّ بهائها. ربما كان هذا التحول مؤلماً بما يكفي للشخص الذي يتعرض له، ولكنه بالقطع أشد إيلاماً لمن يشهده، وكأنما تراخى اشتداد قوس فجأة، وأطلق السهم، وتهدل الوتر ثانية أمام ناظري المرء. كأنما الأمد المتراكم للحياة اليومية، مثل كومة نفاية، أعلن بضربة واحدة.

ألا يوجد رجل واحد بين كبارهم يلقي جانباً بالحرص والحذر، ويرد في الحال على الاندفاع الحاد لنقائهم باندفاع حاد لنقائه؟ وإذا لم يكن أحد على هذا الشكل بالتحديد فإن النقاء الذي تصوره إيساو لا بد أن يكون شيئاً تخنقه قيود السن. (هذا على الرغم من مثال رجال عصبة الريح الإلهية) وإذا كان من طبيعة النقاء أن يسقط ضحية للسن فهو إذن شيء مقدّر له أن يذهب جفاء أمام ناظريه. ما من فكرة كان يمكن أن تملأ نفس إيساو بالخوف أكثر من هذه الفكرة، ولئن صدقت فمعنى ذلك أنه ليس أمامه وقت ليهدره.

إن السبيل المتاح أمام الكبار لعلاج اندفاع الشباب هو أن يمنحوهم موافقتهم التامة. ولكن هذه الحكمة لم يقدر لهم فيما يبدو تعلّمها قط. وهكذا يضع الشباب كل ثقتهم في النقاء المتوقّد، ويمضون إلى الحدود القصوى في اتباعهم له. ولا يقع الخطأ إلا على كاهل الكبار.

مكث إيساو وصديقاه في غرفة الملازم هوري حتى الساعة التاسعة من ذلك المساء، فدعاهم الملازم لتناول طعام العشاء الذي أحضره متعهد لتوصيل الطلبات إلى المنازل. وبعد أن تخلى عن أسئلته المراوغة أصبح حديثه مشوقاً ومفيداً في الوقت نفسه، وقادراً على إثارة حماسهم. وتطرق حديثه إلى الحالة المزرية للشؤون الخارجية، البرنامج الاقتصادي الحكومي الذي لم ينجز شيئاً للتخفيف من حدة الفقر في المناطق الريفية، فساد السياسيين، نهضة الشيوعية، ثم قيام الأحزاب السياسية بخفض عدد فرق الجيش إلى النصف، وبتبنيها لقضية تخفيض الأسلحة جلبت ضغطاً دائماً يقع على كاهل العسكريين احتماله. وفي سياق حديثه طرحت جهود مجموعة «زايباتسو» التي يتولى رئاستها شينكاوا، تلك الجهود المبذولة في شراء الدولار الأميركي، وهو أمر كان إيساو قد سمع به من أبيه. وقال الملازم إن مجموعة شينكاوا تظهر قدراً كبيراً من كبح جماح النفس منذ حادث

الخامس عشر من أيار (مايو). غير أنه مضى قائلاً إنه لا أساس على الإطلاق لإمكانية وضع الثقة في الانضباط الذاتي لإناس من ذلك الطراز.

كانت الأخطار محدقة باليابان على نحو موجع. وراحت سحب العواصف تتجمع في كتلة ما تفتأ تتضخم، وبلغ الموقف حداً يدفع المرء لليأس. وحتى الذات السامية لسمو الإمبراطور المقدس تتعرض للإهانة. واتسع نطاق معرفة الفتية بالشرور الراهنة التي يتعين استنكارها إلى حد كبير. وعلى أية حال فقد كان الملازم رجلاً جيداً.

وفيما هم يتأهبون للمغادرة قال إيساو:

ـ إن مُثُلنا العليا بكاملها متضمنة في هذا.

وسلم كتاب «عصبة الريح الإلهية» للملازم. وحدث نفسه بأنه لما كان لم يوضح ما إذا كان يعطيه الكتاب أو يعيره إياه فسوف يكون أمراً كافياً، إذا ما أراد زيارة الملازم مرة أخرى، أن يقول إنه جاء للحصول على الكتاب.

- ١٢ -

في ساعة مبكرة من صباح الأحد قام إيساو بإجراء تدريب على الكندو للصبية في قاعة التدريب التابعة لمخفر شرطة الحي. وكان الضابط المسؤول من المعجبين بأبيه، وقد تردد بين الحين والآخر على أكاديمية الوطنية. وإذ توسط أبوه في الأمر لم يستطع رفض طلب الضابط. أما المدرب المنتظم الذي يشرف على تدريب الصبية، فبما أنه تمكن على هذا النحو من الاستيقاظ في وقت متأخر يوم الأحد على الأقل، فقد رحب بهذه الفرصة ليعهد بمسؤولياته إلى إيساو الذي لم يكن الصبية مولعين به فحسب، وإنما هم ينظرون إليه باعتباره بطلاً.

شكَّل التلاميذ صفاً، وقد خرجت أذرعتهم الناحلة من أكمام ملابس تدريبهم، وقد حيكت زخارف في شكل وريقات القنب باللون الأسود على القماش الأبيض، وراحوا ينقضون واحداً بعد الآخر على إيساو بوفرة لا ترعوي. ومع متقدم كل عينين يقظتين وراء قناعهما باتجاهه كان يساور إيساو شعور بأنه تنهال عليه دفقات من الأحجار المتألقة. وراح يثني جسمه بحسب ارتفاع كل خصم، ويتراخى عمداً في الاحتفاظ بحذره، ويراوغ جيئة وذهاباً، متلقياً ضربة وراء الأخرى من السيوف الخيزرانية التي شهرها الصبية، تماماً كأنما تلطمه الفروع الصغيرة المتقافزة نحوه وهو يشق طريقه في أجمة كثيفة. وأحس بجسمه يتوهج على نحو سارّ، فيما كانت صيحات الصبية المتزايدة الضراوة تبدد استرخاء الصباح الشتائي.

وبينما كان إيساو يجفف عرقه بعد التدريب أقبل لمحادثته أحد رجال الشرطة السريين، ويدعى تسوبوي، وهو رجل في أوائل الخمسينات من

عمره مضى يرقب التدريب بعيني المتفرج المهتم.

قال تسوبوي:

ـ عندما كنت أتابعكم أدركت ما الذي يقصدونه بقولهم إنه ما من نوع من التدريب على الكندو يقتضي جهداً كالذي يتطلبه تدريب الصبية. يا له من مشهد رائع! ثم في النهاية تأتي مراسيم الإجلال للآلهة عندما يهتف أكبر الصبية سناً بالأمر: «استعداد للحضور الإلهي!» بقوة بالغة، على الرغم من أنه في سن يافعة. لقد رأيت أمام عيني أثر التربية الحسنة، وأقول لك إن المشهد كان رائعاً!

كان تسوبوي من لاعبي المستوى الثاني للكندو، ولكن أسلوبه لم يتسم بالمرونة ولا القوة، فقد كانت قوته بكاملها في كتفيه. وفي بعض الأحيان عندما كان يتدرب إيساو مع رجال الشرطة في المخفر، كان تسوبوي يضع نفسه بمزيد من اللطف تحت إرشاده، على الرغم من أن الفتى أصغر منه بخمس وثلاثين أو ست وثلاثين سنة. وبعينيه الغائرتين في محجريهما، والمجردتين من أي تعبير، وأنفه الطويل بمسحته الوردية التي لا ترتاح لها العين، لم يكن تسوبوي الثرثار والعاطفي يبدو شبيهاً برجل شرطة سري عهد إليه بالسيطرة على الأفكار.

فيما كان الصبية ينصرفون في جماعات تضم كل منها اثنين أو ثلاثة عبر البوابة الواقعة أمام قاعة التدريب، وصلت سيارة دورية إلى الفناء. وعندما توقفت ترجلت منها مجموعة من الشبان ذوي الشعر المسترسل، مقيدي الأيدي، وقد ربط كل منهم إلى الآخر. كان أحدهم يرتدي ملابس العمال والاثنان اللذان يقفان وراءه يرتديان حلتين من حلل رجال الأعمال الرمادية، بينما يرتدي الرابع كيمونو حديث الطراز.

ـ طيب، طيب! يبدو أن لدينا بعض الزوار في صبيحة الأحد هذه.

قالها تسوبوي وهو ينهض متوانياً. قبض على سيف مما يستخدم في

الكندو بيديه العاريتين ووجه عدة ضربات فيها هو موشك على الرحيل. فلم يتمالك إيساو إلا أن يلاحظ أن يديه ناعمتان وضعيفتان على نحو يثير الاستياء وقد نفرت عروقهما كأنما بتأثير توتر عصبي.

سأل إيساو تسوبوي دون أن يدفعه إلى ذلك إلا الفضول العادي:

ـ من هؤلاء؟

ـ إنهم حمر. ليس بمقدورك أن تحدد ذلك بمجرد النظر إليهم؟ ذلك أن أولئك الحمر اليوم لم يعودوا يرتدون ما درجوا على لبسه. وهم يحرصون إما على ألا يلفت مظهرهم النظر إليهم، وإما على أن يبدوا في صورة الفتية العابثين، إما هذا وإما ذاك. وربما كان ذلك الذي يرتدي ملابس العمل منظماً. وأما الباقون فهم غالباً من الطلاب الجامعيين. طيب، يتعين علينا أن نجعلهم يحسون بأنهم في بيوتهم.

قال ذلك ولوى يديه الضعيفتين بصورة موحية على مقبض سيفه، ثم أنزلهما ومضى في سبيله.

أحس إيساو بلمسة حسد لأولئك الشبان إذ يودعون السجن. لقد سجن ساناي هاشيموتو في الخامسة والعشرين من عمره وأعدم في السادسة والعشرين.

ترى هل يحتمل أن يأتي حين من الدهر على إيساو يصبح فيه سجيناً مثل ساناي؟ لعدد من الأسباب ألفى نفسه ساخطاً لبُعد السجن البالغ عنه. ولكن ألن يُؤْثر الانتحار على الخضوع لنير السجن؟ لم يسجن من رجال العصبة الإلهية إلا القليلون. من المؤكد أنه ما إن يمضي في غمار مشروع بطولي حتى يرفض انتظار السجن وكل ألوان الإذلال التي ترتبط به، ولكنه سيضع حداً لحياته بنفسه.

تمنى لو يكتسب ذات صباح ـ إن أمكن ذلك ـ الموتَ الذي كان حريصاً عليه ـ أن يموت على قمة صخرة تعبق بنسيم عليل يضوع برائحة

الصنوبر، صخـرة تطلّ عـلى بحر يتـألق بشمس الصباح ـ شيئـاً من طبيعة الجـو الممتليء بـرائحة البـول الذي تضمـه أسوار السجن الإسمنتيـة الخشنة الرطبة. ولكن كيف يمكن أن يختلط هذان الأمران.

كان يفكر على الدوام في الموت، وقد نقّى ذلك سريرتـه للغايـة، بحيث بدا ما هو عضوي كما لو كان يتداعى محـرراً إياه من قبضـة ما هـو أرضي، ومتيحـاً له أن يسـير على مسـافة من سـطحه. وقـد شعـر حقـاً بـأن عـدم استساغته، بل وكراهيته لشؤون العالم، لم يعد يثيره ويحـرك كوامنـه بعمق. وقـد كان ذلـك ما يخشـاه. ربمـا إذن، يمكن إذن لـرطـوبـة أسـوار السجن ولطخات الدم التي تعلوها، ولرائحة البـول الحِرّيفـة أن تعجل بكـراهيته، وربما كان السجن شيئاً تمس حاجته إليه.

لما كان أبوه والطلاب قد فرغوا من تناول طعام الإفطار لدى عودتـه فقد تناول طعامه الذي قدمته له أمه بمفرده.

غدت أمه مفرطة السمنة بحيث غدت تحركاتها ثقيلة ومرهقة.

قبعت الفتاة الشابـة المرحـة ذات العين الفضـولية، ذات المـظهر المشرق والمـوحي بربـاطـة الجـأش، تحت ثقـل كثيب من اللحم الـوافـر الـذي بـدا معبراً عن مزاج عكـر، مثل سـماء تكسوهـا الغيوم الثقيلة. اتسمت نـظرتها بحدة توحي بغضب دائب، ولكن على الرغم من ذلـك فإن حـركة عينيهـا الشهوانية لم تتغير عما كانت عليه منذ سنوات خلت.

لما كانت وظيفة مايني في أكاديمية الوطنية هي القيام على تلبية احتياجـات عشرة طـلاب أو يزيـدون، فمن المؤكد أنـه كان أمـامها الكثـير للقيام بـه. ورغـم أن واجبـاتها اقتضت منهـا الكثير من الجهـد، إلا أنها قد وصلت إلى سن كان يتعين فيها أن يمنحها القيام بدور الأم لهذا العدد الكبير من الشبان قدراً معيناً من السرور، ولكنها ضربت حول نفسهـا سوراً، وكـأنها لسبب ما ترفض كل حميمية يمكن أن تربطها بالآخرين. وأياً كان وقت الفـراغ المتاح

لها فإنها مضت تكرسه بمزيد من الحماس لصنع الحقائب، وامتلأ كل ركن في الدار بنماذج من صنع يدها. وكان مشهد أعمالها المصنوعة من القماش المقصب وقماش «يوزين» الثمين، والمتناثرة في مؤسسة متقشفة بصورة متعمدة مثل الأكاديمية، يشبه مشهد أعشاب بحرية مشرقة اللون تلف الهيكل غير المطلي لقارب مما يستخدم في صيد الأسماك.

وهنا في المطبخ، كانت قاعدة زجاجة ساكي كبيرة مكسوة بقماش أحمر مقصب، أما وعاء الأرز الذي مضت مايني تقدم منه لابنها فقد اكتسى بقماش موسلين فاخر سميك من إنتاج يوزين. وكان من الجلي أن زوجها يكره هذا الولع الذي يليق على نحو أكبر بوصيفة، ولكنه لم يمضِ قطّ إلى حد لومها عليه.

- ليس بمقدوري أن أرتاح حتى يوم الأحد، وكما تعلم فإن محاضرة المعلم كايدو ستلقى في الساعة الواحدة. ولما كان من المؤكد أن الفتية سيهملون شيئاً فسيتعين عليّ أن أكون هناك كذلك لأشرف على كل الترتيبات.

- كم عدد الذين سيحضرون؟

- ربما حوالي الثلاثين. ولكن يبدو أن المزيد يأتون في كل مرة.

كانت الأكاديمية تستخدم كساحة للاجتماعات العامة في أيام الآحاد، فإلى جانب الطلاب كان يتوافد كلّ من في الحي ممّن يعنيهم الأمر لحضور محاضرات كايدو ماسوجاي في تاريخ المراسيم الإمبراطورية، وكانت تسبقها كلمة ترحيبية يلقيها العميد نفسه. وكانت هذه الجلسات تنتهي بمشاركة جميع الحاضرين في ترتيل صلاة الرخاء معاً بصوت واحد، وتقدّم مناسبةً للدعوة لتقديم تبرعات للمدرسة. وفي هذا الأصيل كان من المقرر أن يتناول المعلم كايدو مرسوماً أصدره الإمبراطور كايكو، وهو «تخويل ياماتو كيرو سلطة إخضاع البرابرة الشرقيين». وقد استظهر إيساو من هذا المرسوم النص التالي: «ثم اجتاحت الأرواح الشريرة الجبال من جديد، وعاثت الشياطين فساداً في الريف، وأوصدت الطرق الرئيسية، وقطعت الدورب، وتكبدت

جموع الناس ألواناً من المعاناة». ونظر إلى هذا النص باعتباره فقرة يمكن أن تنطبق خير الانطباق على العصر الذي يعيش فيه، فها هي الأرواح الشريرة في الجبال والشياطين التي تعيث فساداً تواصل الازدهار.

من الجانب الآخر من المائدة راحت مايني تحدق بنظرة ثابتة في محيا ولدها الوحيد الذي بلغ ربيعه الثامن عشر، فيما كان يلتهم صُحفة من الأرز ثم أخرى. استغرقها الاهتمام بالرجولة البادية تحت وجنتيه في خط فكه المنهمك بقوة في مضغ الأرز. وتحولت بنظرتها لتطل على الحديقة لدى سماعها صيحة بائع متجول ينادي عارضاً نبات نجمة الصباح وشتلات الباذنجان. كان هناك سياج يحفّ بوفرة النماء الكثيبة للشجيرات تحت السماء المكفهرة، ولكنه كان من العرض بحيث لم يسمح لها بأن تلمح الرجل. ونمّ صوت الرجل عن إعياء نابع من شعوره بالحر، وفي عيني خيال مايني لاحت نباتات نجمة الصباح متهدلة، ونقلت نغمة صوت الرجل المترعة بالخمول الشعور السائد في الحديقة الحافلة بالحلزونات الصغيرة في هذه الساعة من الصباح.

وجدت مايني نفسها فجأة تفكر في إجهاضها، في ذلك الوقت الذي فقدت فيه أول طفل تحبل به. كان الإجهاض قراراً فرضه إينوما عليها فرضاً لأنه ما من قدر من الحساب للوقت كان يمكن أن يقنعه بأن الطفل من صلبه لا من صلب الأمير ماتسوجاي.

راحت تحدِّث نفسها قائلة:

ـ هذا الفتى، إيساو، إنه لا يبتسم. ترى ما السر في ذلك؟ إنه لا يكاد يعرف النكات، ومؤخراً غدا يمكث وقتاً طويلاً دون أن يتفوّه بكلمة لي.

ذكّرها ذلك بإينوما الشاب في دار آل ماتسوجاي، ولكن كان هناك فارق يُعتدّ به، فإينوما ذلك العهد لم يكن بمقدوره أن يخفي العذاب الذي تستعر فيه روحه، حتى عن المراقب العابر. ولكن إيساو، أياً كانت الظروف،

يحظى برباطة جأش تملأ النفس رهبة، وذلك في فترة المراهقة المحتدمة، حينما يشبه معظم الصبية الجراء التي تملأ الدنيا نباحاً تحت الشمس.

من شأن إجهاض الحمل الأول أن يجعل ميلاد الطفل الثاني عسيراً، ولكن إيساو خرج إلى الدنيا بسهولة ملحوظة، ولم تعان مايني من آثار سيئة إلا في وقت لاحق. وسواء أكان إينوما قد قصد إظهار الشفقة من خلال إلقاء اللوم على مشاعرها لا على عجزها العضوي أم لم يقصده، فإنه في بعض الأحيان، وبينما هما مستلقيان جنباً إلى جنب خلال الليل، كان يمضي في تقريعها بمزيد من القسوة والسخرية، أكثر من أي وقت مضى على علاقتها السابقة بالأمير ماتسوجاي. وكان هذا كله عبئاً ذهنياً وعضوياً قاسياً على مايني، ولكنها بدلاً من أن تغدو نحيفة اكتست بثقلها الكثيب ذاك من اللحم.

كانت أكاديمية الوطنية قد ازدهرت. وعندما كان إيساو في الثانية عشرة من عمره غدت مايني شديدة الود تماماً في صلتها بأحد الطلاب، وعندما علم إينوما بهذا أوسعها ضرباً على نحو مخيف، حتى إنها مكثت في المستشفى خمسة أيام تقريباً.

منذ ذلك الحين، وبقدر ما يستطيع أحد أن يحدّد، ساد الهدوء العلاقة بين الزوج والزوجة. فقدت مايني كل حيوتها، وكان ذلك هو الثمن الذي تعيّن دفعه مقابل كبح الجماح القاسي الذي فرضته للأبد على فؤادها الشرود. وأما إينوما نفسه، وكأنما تحرر من سحر ساحر، فإنه لم يأت على ذكر الأمير ماتسوجاي مرة أخرى. وغدا الماضي شيئاً لا مجال للاقتراب منه قط.

ورغم ذلك فإن مكوث مايني في المستشفى ما كان يمكن إلا أن يترك نوعاً من الانطباع الذي لا يمحى في نفس إيساو. إنه لم يحدث أمه بكلمة

واحدة عن الأمر، بالطبع، ولكن عدم إشارته إليه حتى عرضاً أظهر بجلاء أن هناك ما يكنّه في قرارة نفسه.

كانت مايني على يقين من أن أحدهم قد حدث إيساو بجرمها القديم، ومن الغريب أنها قد وجدت نفسها نهب رغبة في سماع اتهام يوجه لها من شفتي إيساو. فلم تكن مساورة شكوك لابنها عن مؤهلاتها كأم بالشيء الذي يخلو من بعض الإرضاء لها. وقد لفت عذوبة غامضة هذا الاحتمال. وإذ ضايقها صداع جعلها تتخيّل أن هناك في مؤخرة رأسها بركة ضحلة من الماء الراكد، فقد واصلت التحديق في ابنها من بين أهدابها الثقيلة التي كان التجعد يصيبها حينما يحل الإجهاد بمايني. كان فمه ما يزال مليئاً بالأرز.

منعها إينوما من أن تدع إيساو يعلم بأي حال بمدى إشراق الموقف المالي للدار عقب حادث الخامس عشر من أيار (مايو) مباشرة. كما أن إينوما نفسه لم يبلّغ إيساو بظروف الأكاديمية، مشدداً على أنه حينما يصل ابنه إلى سن الرشد سيتاح ما يكفي من الوقت لإبلاغه بما يتعين أن يعلمه. غير أن مايني، مع مقدم هذا الرخاء الجديد، لم تستطع منع نفسها من زيادة المبلغ الذي تنفحه به سرّاً.

عندما انتهى إيساو من تناول طعامه أخرجت مايني ورقة مطوية من فئة الخمسة ينات من زنارها ومرّرتها إليه خلسة من تحت المائدة قائلة: «الآن، لا تبلّغ أباك بأمر هذا المبلغ».

ابتسم إيساو ابتسامة خفيفة للمرة الأولى وأعرب عن شكره فيما كان يسارع بدس النقود في كيمونوه. وبدا أنه يضن بالابتسامة.

كان مقر أكاديمية الوطنية في قطاع نيشيكاتا من هونجو، وقد امتلك إينوما المبنى منذ عشر سنوات. وكان مالكه من قبل مصوِّراً شهيراً يبدع فنه على الطريقة الغربية، وقد أعيد تصميم استوديو يقع في جناح منفصل هائل الأبعاد ليغدو قاعة اجتماعات ومزاراً. وأما الدار الرئيسية التي كان من الجليّ

أن عـدداً من المتدربـين عـلى أصـول الفن كـانـوا يشغلونها، فقـد خصص بصورة جزئية لطلاب الأكاديمية. وردمت البركة القائمة في الحديقة الخلفية، وتـركت على هـذا الحال مـع اتجاه التفكـير إلى أنها ستصبح مـوقعـاً لقـاعـة تـدريب. وحتى يحـين أوان ذلـك كـان عـلى الـطلاب الاكتفـاء بقـاعـة الاجتماعات ليتدربوا فيها على ممارسة الفنـون العسكريـة. غير أن الأرضيـة كـانت تفتقـر إلى الغـطاء اللدن الضروري لـذلـك، وكـره إيسـاو التـدرب هنالك.

لتجنب عـزل إيساو عن الـطلاب الآخرين جعله إينـوما ينضمّ إليهم في تنظيف الأرضية كل صباح قبل المضي لتلقي الدروس. ومارس ضبطاً دقيقاً بحيث لم يسمح بمعاملة إيساو باعتبـاره نجل العميـد لا بحسبانـه على قـدم المساواة كلية مع زملائه الطلاب. وحـاول إبعاده عن أن يكـون على عـلاقة ودية بأكثر من اللازم مع أي منهم. وعلى الرغم من أنه درب الطلاب على أن يثقوا فيه، هو عميد الأكاديمية، في كل الموضوعات كائنة ما كانت، فـإنه لم يشجعهم على فتح قلوبهم لزوجته وابنه.

غير أنه، على الرغم من هذا، أرسى إيساو بصورة عفوية دعائم تقـارب ودي مع أكبر الـطلاب سناً، وهـو رجل يـدعى ساوا. ولـما كان الأخـير في الأربعين من عمره وقد ترك زوجته وأطفالـه في موطنـه للقدوم إلى طـوكيو، فإن حالته كانت من الخروج عن المألـوف بحيث تثير الـدهشة. كـان بدينـاً ومضحكاً، وما إن تتاح له دقائق قلائل من وقت الفراغ حتى يدفن رأسه في مجلة متخصصـة في المغامـرات المتهورة هي «نـادي كـودان». ومـرة في كـل أسبـوع يمضي إلى الفناء الـواقع أمـام القصر الإمبراطـوري فيجلس جلسـة رسمية على سطح الفناء الحافل بالحصى الخشن، وينحني إلى أن يمس جبينه الأرض. وفي غمار اعتقاده بأن على الـرجل أن يكـون على استعـداد لتقديم حيـاته لتحقيق الإرادة الإمـبراطـوريـة في أي وقت، فقـد اعتـاد أن يغسـل ملابسه بهمة ونشاط كل يوم ليبقي نفســه نظيفـاً أشد النـظافة. ومن نـاحية

أخرى كان يقامر مع الطلاب الآخرين، وفي غمرة أحد الرهانات نثر على وجبة أرزه مسحوق طرد البراغيث قبل أن يلتهمها، دون أن يناله سوء من جراء ذلك. وحينما يبعث به العميد حاملاً رسالة فإنه ينقلها بطريقة بالغة التجريد، بحيث أن الشخص المقصود بها يقع في حيرة بالغة، وهو ما كان ساوا يتلقى التوبيخ عليه من العميد. ولم يكن له مع ذلك نظير في إمكانية الاعتماد عليه في الموضوعات السرية.

ترك إيساو أمه تنهمك في تنظيف المائدة ومضى عبر الدهليز المفضي إلى قاعة الاجتماعات. انتصب المزار بأبوابه المصنوعة من الخشب الخالي من الزخارف على منصة مرفوعة في منتصف النهاية القصوى للقاعة. وفوقه انسدلت ستارة أخفت صورتي سمو الإمبراطور والإمبراطورة. وإذ وقف إيساو عند باب القاعة فقد واجه ذلك الاتجاه وانحنى في إجلال.

على الرغم من أن إينوما كان على مبعدة يصدر التوجيهات لمجموعة من الطلاب داخل القاعة، فإن انحناءة الإجلال التي صدرت عن ابنه لفتت نظره، فقد بدا له أن إيساو يُمضي دائماً وقتاً بالغ الطول في هذه الانحناءة. وكذلك أتيحت لإينوما في غمار الرحلة الشهرية إلى مزار ميجي ومزار سوكوني الفرصة لملاحظة كيف أن إيساو يستغرق وقتاً أطول من وقت الآخرين في رفع آيات التوقير، ولم يُفضِ قط بسر هذا لأبيه. وعندما يستعيد إينوما ذكريات شبابه فإنه يحاول استعادة ذكرى تلك الأمور التي كان يتضرع من أجلها متلفظاً بتلك اللعنات الغاضبة خلال توسلاته الصباحية أمام أومياساما في دار ماتسوجاي. وبالمقارنة بما كان عليه هو في شبابه فإن إيساو يُعَدُّ فتى آمناً في سربه، وليس هناك ما يدعوه للحنق في مواجهة العالم واستمطار اللعنات على من حوله.

تطلع إيساو، فيما كان الطلاب منهمكين في إعادة ترتيب المقاعد في الضوء الخافت المتسرب من السماء المتشحة بالغيوم، وبسبب تلك الغيوم

الثقيلة خلع الضوء الواهن في الأعالي على القاعة ذلك الوهج الخافت الذي يُرى في متاحف الكائنات البحرية.

كان الفتية في غضون ذلك قد رتبوا المقاعد، ولكن ساوا وحده من بينهم جميعاً كان ما يزال يواصل العمل بطريقته التي لا تتسم بالكفاءة دافعاً المقعد ذاته بهذه الطريقة وتلك، متأملاً وضعه، ثم محركاً إياه من جديد وقد بدا جزء كبير من جذعه الممتلىء كالمعتاد عبر عنق كيمونوه غير المحكم.

لم يفلح ساوا في تجنب إينوما إلا أن الأخير كان مشغولاً بالإشراف على ترتيب المنصة، آخذاً قطعاً من الطباشير من صحفة السبورة ومرتباً إياها بشكل جذاب. وحمل الطلاب الذين كانوا يرتدون هاكامات كوكورا القمطرَ الذي سيستخدم لوضع نصوص المراسيم عليه ليقرأها المحاضر، ووضعوا عليه مفرشاً قماشياً ثم وضعوا فوقه شجيرة صنوبر. وفيما هم يقومون بذلك انهلّ النور من السماء والتمع على الشجيرة فجعل مزهريتها الخزفية تأتلق، وإبرها تتوهّج وكأنما تدافعت الحياة بداخلها.

- ماذا تفعل هناك؟

قالها إينوما منادياً، فيما هو يلتفت فوق المنصة باتجاه ابنه، وأضاف:

- أتراك ستسرع بمساعدتنا أم لا؟

أقبل إيزوتسو وساجارا، صديقا إيساو، للاستماع للمحاضرة الخاصة بالمراسيم الإمبراطورية، وعقب ذلك اصطحبهما إلى غرفته.

قال ساجارا الضئيل الجرم دافعاً إلى الوراء عويناته الكبيرة بإصبعه السبابة، وقد بدا أنفه مدبباً ومرتعشاً من فرط الفضول وكأنه أنف ابن مقرض فضولي:

- أرنا إياها!

- صبراً، لحظة، دعاني أبلغكما أولاً بأنه تصادف وجود مبلغ كبير من النقود معي، ولذا سأدعوكما إلى وليمة حافلة، فيما بعد.

قالها إيساو مداعباً صديقيه على نحو بارع. فتألّقت عيون الفتيين، إذ جعلتهما طريقة إيساو في الحديث يشعران بأن شيئاً يوشك على التحقّق ها هنا في التو واللحظة.

أقبلت أمه حاملة بعض الفاكهة والشاي، وبعد أن خَفَتَ وقع قدميها في الدهليز فتح إيساو جاروراً مستخدماً مفتاحاً لقفله وأخرج خريطة مطوية ونشرها على الأرض. كانت خريطة لطوكيو، وقد ظُلِّلت أجزاء منها على نحو مكثف بقلم أرجواني اللون.

قالها إيساو متنهداً:

- على هذا النحو يبدو الأمر.

قال إيزوتسو متسائلاً:

- أوقد بلغ هذا الحد من السوء؟

- أجل، هذا الحد من السوء، فالفساد مضى قُدُماً على هذا النحو.

قالها إيساو، والتقط ثمرة من ثمار فاكهة ليمون الجنة من الوعاء، وشرع في حك قشرها الأصفر الوهاج الذي يشبه لون الحمم المصهورة، بيده وأضاف:

- لو كان جوف هذه الثمرة على الدرجة نفسها من الفساد لما كانت صالحة للتناول، ولألقيتها بها خارجاً.

كان إيساو قد استخدم القلم الأرجواني ليشير إلى وجود الفساد، محدداً كل بقعة وصل الأمر فيها إلى مرحلة حرجة. ومن جوار القصر الإمبراطوري إلى ناجارا، امتداداً حتى منطقة مارونوتسي قرب محطة طوكيو، كان اللون أرجوانياً قاتماً، وحتى منطقة القصر ذاتها لم تخل من لمسة أرجوانية، واكتسى مبنى البرلمان بطبقة ثقيلة من الأرجوان، وارتبطت منطقة التشبع هذه بخط منقّط يمتد حتى كتلة أرجوانية تكسو مارونوتشي، معقل الزايباتسو.

تساءل ساجارا مشيراً إلى بقعة من الأرجوان على مسافة قصيرة من حي تورانومون:

ـ ما هذا؟

وردّ إيساو بفتور:

ـ إنه نادي النبلاء، وهم يحبون أن يطلقوا على أنفسهم لقب «درع اللحم الحي» الذي يقي الإمبراطور الشرّ، ولكنهم مجرد طفيليات تفرض نفسها على العائلة الإمبراطورية.

في منطقة كاسوميجاسكاي، وكما هو متوقع، اكتست الجادة التي اصطفت على جانبيها المكاتب الحكومية باللون الأرجواني من البداية حتى النهاية، بغضّ النظر عن اختلاف الدرجات، ولقيت وزارة الخارجية التي كانت المهندس الرئيسي الذي يقف وراء السياسة الخارجية الضعيفة والمتساهلة عقاباً بالغ القسوة من قلم إيساو، إلى حد أنها شعت بوهج أرجواني.

ـ إلى هذا الحد انتشر الفساد وامتد كذلك إلى وزارة الجيش والأركان العامة!

قالها إيزوتسو مندهشاً وعيناه تتوهجان، وقد غدا صوته مرتفعاً وخشناً بالنسبة لسنه. غير أن صوته أفصح عن إيمان حقيقي، ووشت نغمة حديثه بتأكيد سريع ومندفع ينطلق عبر قناة مجردة من كل أشكال الافتقار إلى النقاء.

ـ بالطبع، لقد أعملت قلمي في المناطق التي حصلت على معلومات مؤكدة عنها فحسب.

ـ أتساءل ما الذي نستطيع القيام به لتطهير هذا كله بضربة واحدة.

رد إيساو قائلاً:

- ربما اختلف رجال عصبة الريح الإلهية معي، ولكن إذا أردت القيام بإنجاز الأمر في الحال فليس هناك سبيل إلا هذا.

رفع إيساو ثمرة ليمون الجنة في يده فوق رأسه وتركها تسقط على الخريطة فلطمتها الثمرة بصوت كئيب، واندفعت بثقل مرة واحدة قبل أن تتدرج إلى أحد الجانبين وتستقر فوق حديقة هيبايا. وعندما توقفت عن التدحرج تشكل انعكاسها واهناً في صورة دائرة واسعة من الصفرة الشاحبة على بحيرة حديقة هيبايا التي تتّخذ شكل الشرنقة، وعلى الممرات التي تجتاحها الريح وتحيط بالبحيرة.

صاح ساجارا بانفعال بالغ ترك معه عويناته تنزلق عن أنفه:

- فهمت. علينا إسقاط القنابل من طائرة.

رد إيساو مبتسماً في يسر:

- ذلك هو الأمر.

قال إيزوتسو:

- بالطبع. ماذا غير ذلك؟ وفي هذه الحالة، وعلى الرغم من أن الملازم هوري رجل قوي، فعلينا أن نتصل بشخص في سلاح الطيران. وإذا أبلغنا الملازم بالخطة فسوف يقدمنا إلى الرجل المناسب. إنني على يقين من أن الملازم هوري سيكون واحداً من أكثر رفاقنا فائدة لنا.

كانت سرعة تصديق إيزوتسو شيئاً يرقى إلى رحاب الجمال، وقد سمح إيساو لنفسه بلحظة ليستمتع بها. فلسوف يكون إيزوتسو مطيعاً حتى النهاية لأي قرار يصدره إيساو. غير أن شخصيته كانت مركبة بحيث تسيطر عليه المزايا الطيبة التي يكتشفها في أولئك الذين يقابلهم. وقد حولت سرعة التصديق هذه عالم مثله العليا إلى شيء متألّق ومسطّح مثل مرج وافر الخضرة. ولم يكن يخشى مصادفة التناقضات، وفي عالمه الخالي من التعقيدات اتخذ الشر على نحو ما تصوَّره أكثر الأشكال التي يمكن تصوُّرها

تسطُّحاً. ولا شك أنه كان ينظر إلى نفسه باعتباره محطاً للعديد من الشرور بحيث تتهاوى كالرقاق الهشة، وهنا يكمن نبع جرأته المندفعة.

ـ كل شيء على ما يرام.

قالها إيساو تاركاً سرعة تصديق إيزوتسو تتراكم، وأضاف:

ـ ولكن فيما يتعلق بالقنابل دعني أذكرك بأن كينجو يوينو المنتمي إلى عصبة الريح الإلهية أراد استخدام الأسلحة النارية، ولكن خطته رفضت. واعتمادنا المطلق بدورنا ينبغي أن يكون على السيف، لا تنسَ هذا أبداً! بمقدورنا أن نعتمد على سيوفنا فحسب، وعلى قنابل صنعت من لحمنا الحي.

- ١٣ -

كانت دار القائد كيتو في هاكوساناماي تقع على مسافة يسهل قطعها سيراً على الأقدام من أكاديمية الوطنية. وكان إيساو يعرف عن ظهر قلب عدد الدرجات الحجرية الست والثلاثين التي يتعينّ على المرء صعودها للوصول إلى الدار عقب عبور الجسر الحجري الممتد عند سفح التل الذي شيدت الدار فوقه. وقد بدا ذوق القائد رفيعاً، بصفة خاصة، في المكوِّنات المحيطة بداره، وقنع بأن يعهد بإدارة شؤون داره كلية إلى ابنته ماكيكو التي عادت إلى الدار بعد زواج لم يكلل بالنجاح. واتسمت علاقته بالأكاديمية بطابع ودي، ولما كان قد أبدى على الدوام وداً خاصاً نحو إيساو فإن إينوما لم يقم بما من شأنه منع ابنه من قضاء جانب كبير من وقته في دار القائد، بخلاف تحذيره من أن يجعل من نفسه عنصر إثارة للضيق بأكثر مما ينبغي.

لدى مضيّ إيساو إلى هناك مع أصدقائه كانت مهمة الترحيب بالشبان تقع على كاهل ماكيكو دائماً. وقد تميزت رقّتها بطابع غير عادي، وأكّد كل من القائد وابنته لهم أنهم على الرغم من مقدمهم على الرحب والسعة في الوقت الذي يودّونه فإنهم سيلقون ترحيباً خاصاً قبيل العشاء، إذ ما من شيء يسعدهما قدر تقديمهما الطعام لشبان تظهر شهيتهم مدى تقديرهم لما يُقدَّم لهم.

اتسم أسلوب ماكيكو في التعامل معهم بكمال لا تشوبه شائبة. وكانت مرحة رشيقة على نحو رقيق، ومتحفظة بشيء من الفتور، فلا تسمح بأن تكون شعرة في غير موضعها، ولا بوجود أدنى اضطراب في هندامها.

لما كان ليل الأحد قد أرخى سدوله، ولم يكن لدى إيساو وساجارا

وإيزوتسو مكان محدد يذهبون إليه، فقد قرروا قضاء الأمسية في دار القائد كيتو. وأقنع إيزوتسو وساجارا إيساو بنسيان وعده بدعوتها إلى وليمة، وأن يضع المبلغ، مهما كان ضئيلاً، جانباً حتى يمكن استخدامه على نحو ما عندما يحين وقت تنفيذ خطتهم. وهكذا كان على ثلاثتهم المضيّ إلى مكان لا يقتضي منهم إنفاق النقود.

قابلتهم ماكيكو في الدهليز وهي ترتدي كيمونو من نسيج صوفي متين يتألق بلونه الأرجواني الفاتح. وأحسّ إيساو برعدة مفاجئة لمرآه، آملاً ألا يكون قد أعاد إلى ذهني إيزوتسو وساجارا الخريطة المرقّشة برقع الفساد التي أطلعهما عليها لتوّه.

حيّتهم ماكيكو في الدهليز وقد انحنت ذراعها برشاقة كأنها مقبض مزهرية رقيقة:

- طاب مساؤكم، تفضلوا، لطفاً! أبي خارج الدار في رحلة قصيرة، ولكن لا بأس بذلك. تفضلوا. آمل ألا تكونوا قد تناولتم الطعام بعد؟

كانت طريقتها في الحديث ودية كعهدها، ثم حينما شرع المطر في الانهار فجأة تطلّعت خارجاً نحو الغسق وقالت:

- يا لكم من شبّان محظوظين!

امتزجت نغمة حديثها الرقيقة بالوقع الخفيف الذي يحدثه المطر في هطوله. ولدى حديثها على هذا النحو كانت تبدو أحياناً كأنها تحادث نفسها. ولزم إيساو الصمت فيما هو يدلف إلى الدار المعتمة، شاعراً بأنه سيكون من قبيل مفارقة الذوق أن يحاول طرح أي نوع من الردود الحاذقة على ما قالته.

أضاءت ماكيكو مصباحاً من المصابيح المتدلية من سقف قاعة استقبال الضيوف. ولكن فيما كانت تمدّ يدها إلى المفتاح الكهربائي فوق الظل تأرجح المصباح وانزلقت يدها. أضاء المصباح وانطفأ للحظة، ثم أضاء

مجدداً. وخلال البرهة القصيرة التي وقفتها هنالك على أطراف أصابعها، لفت البياض المغري لقدميها اللتين دستهما في التابي[1] نظر إيساو. وساوره شعور كما لو كان قد انتهك أحد أسرار هذه المرأة.

شكلت قدرة دار كيتو على تقديم مجموعة مختارة مناسبة من الأطباق، بغض النظر عن قدوم ضيوفهم فجأة، مصدراً لدهشة الفتية، غير أن تلك القدرة نبعث من عادة قديمة درجت عليها الدار منذ الوقت الذي كان ينبغي فيه الاستعداد لقدوم ضباط شبان يتميزون بشهيتهم المفتوحة في أي وقت. وقدم طعام العشاء على الفور، وتناولته ماكيكو معهم بعد أن جعلت الخادم تقوم على أمر تقديم الأطباق. لم ير إيساو واحداً يمكنه تناول الطعام برشاقة ماكيكو قطّ، فقد كانت تُحني رأسها بصورة لدنة، وتحرك عَضَويْ تناول طعامها بدفق من الرشاقة، ممسكة بينهما حتى بأصغر حبة أرز أو قُطَيْعة سمك. وفضلاً عن ذكل فإنها حتى فيما هي تضحك للنكات التي أطلقها الفتية، مضت تأتي برشاقة على عشائها، وكأنها تنجز بمهارة مهمة بسيطة تليق بامرأة.

تساءلت ماكيكو عندما انتهوا من تناول طعام العشاء:

ـ هل نسمع بعض التسجيلات الموسيقية؟

كان الجو حاراً ورطباً، ولذا، فعلى الرغم من المطر الهيّن المتساقط، جعلت ماكيكو الخادم تفتح الأبواب الزجاجية المواجهة للرواق، وجلسوا

(١) التابي: جورب قطني خاص تستخدمه النساء اليابانيات، ويتميز بلونه الأبيض، وبأن النسيج يفصل كل إصبع من أصابع القدم عن الأخرى، وغالباً ما يستخدم مع نعل أبيض. ومن الطريف أنه في مهرجان يحتفل به اليابانيون تقليدياً في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) من كل عام يقوم به الرجال والفتيان باستخدام التابي الأبيض والنعل الذي ينتعل معه، والذي تستخدمه النساء، وذلك بدلاً من الجوارب والأحذية السوداء التي يستخدمونها عادة (هـ.م).

قريباً منها. وفي أحد أركان الغرفة كان جهاز حاكٍ في خزانة لها لون خشب الماهوجايني. وعلى الرغم من أن أجهزة الحاكي الكهربائية غدت رائجة في كل مكان فإن آل كيتو تمسكوا في عناد بحاكيهم الذي يعمل بإدارة يد التشغيل، وقد تولى إيزوتسو هذه المهمة. وكان حرياً بإيساو أن يقوم بأداء هذه المهمة بنفسه، ولكن ماكيكو كانت في تلك اللحظة تقف بالقرب من الحاكي وهي تتطلع إلى الأسطوانات الموسيقية، وقد جعلته فكرة الذهاب ليقف إلى جوارها يتردّد.

اختارت ماكيكو أسطوانة من ذات الاثنتي عشرة بوصة لها علامة حمراء مميزة، هي «المعزوفة الليلية» لشوبان من عزف كورتو، ووضعتها على القرص الدوّار. وعلى الرغم من أن هذه الأسطوانة كانت شيئاً يقع خارج الخلفية الثقافية للفتية، وأنهم لم يتظاهروا بأنها مألوفة لهم، فقد استسلموا عن طواعية للاختيار الذي قُدِّم لهم. ولقد أحسوا وكأنهم انزلقوا إلى ماء بارد على نحو مناسب فمضوا يستحمون فيه. وعندما قارن إيساو سلبية الروح الهادئة التي يعايشها الآن بالحالة المألوفة في أكاديمية أبيه، شعر بأن هذه الأخيرة تشبه حفلة تنكر مستمرة.

وكأنما لتأكيد هذه الرؤية أطلقت الموسيقى حالته المزاجية راحلة بشكل ما ثم بشكل آخر مخالف، وتدفقت ذكريات متوهجة بالحيوية عن أمور رآها وسمعها خلال زيارته لدار كيتو، عبر ذهنه، واحدة إثر أخرى، يمضي بها قُدُماً تيار موسيقى البيانو، وكل منها تحمل صورة صغيرة لماكيكو وكأنها تحمل شارة زخرفية.

ذات مرة، في أصيل ربيعي، وبينما كان القائد وماكيكو وإيساو يتجاذبون أطراف الحديث، حلّق طائر تدرج هابطاً إلى الحديقة. وصاحت ماكيكو في دهشة: «آه انظر! لا بد أنه آت من حدائق النباتات النادرة». وما زال صوتها المرح يتردّد صداه بوضوح في سمع إيساو. وفيما راحت الذكرى

تأتلق كالوهج أمامه بدا الصوت النسائي وكأنه يتناهى من التدرج القرمزي الأجنحة ذاته. «لا بد أنه آت من حدائق النباتات النادرة». فلقد بدت نغمة صوتها موحية ببقعة وارفة الأشجار لم يسبق له أن رآها من قبل قط، من عالم للنساء وحدهن.

عندئذٍ أمسكت موسيقى البيانو بناصية ذاكرة إيساو من جديد، واكتسحتها على هذا النحو وذاك.

ذات مساء من أمسيات أيار (مايو) تناهى الصوت نفسه: «كنت خارجة لتوّي في طريقي لتلقّي درس في ترتيب الزهور، في صبيحة يوم لم يبعد به العهد، وكان المطر قد واصل الانهمار طوال عدة أيام؛ ولذا فتحت مظلتي ورحت أهبط الدرج عندما حلّقت قُبَّرة قريباً مني للغاية، فأوشكت على الارتطام بالمظلة. صدقاني، كان ذلك إشارة لها ما وراءها». ولكن عندما قال القائد إنه كان من حسن الطالع حقاً أنها لم تنلها سقطة مؤلمة على الدرج، احتجّت ماكيكو قائلة بأن هذا! ليس ما قصدته، وإنما بالأحرى خشيت من أن تجرح القبرة نفسها بالاصطدام بأسلاك المظلة المدببة. وإذا أصغى إيساو إليها فقد أعاد في الحال، على صفحة خاطره رسم هذه اللحظة الحرجة وظروفها الآسرة. تألق محيا امرأة أمامه، شاحباً بعض الشيء في الضوء الأخضر الخافت الملتمع عبر مشمع المظلة التي تقيها المطر، تندى خداها من جراء المطر الملتف بالغمام، وبدت ملامحها متوترة من جراء القلق. ها هنا الجوهر الحقيقي لامرأة، امرأة تقف على جرف الأنوثة، ثم القُبَّرة الآمنة في رحاب قلق المرأة عليها، تبتهج بشفقتها تلك مخاطرة بالتعرض للخطر المطلق وهي تغازل الموت. وقاصدة إيقاع ألم الجرح، رغم أنها هي نفسها قد تتعرض له، أطاعت دافعاً متمرداً، شأن نصل يحتزّ سوسنات أيار (مايو) الأرجوانية، وقد وضعت عينها على اللحظة الفائقة، ولكن هذه اللحظة لا تأتي، ويتحول القلق إلى حالة مزاجية شعرية رقيقة:

امرأة جميلة في طريقها لممارسة ترتيب الزهور وقُبَّرة جريئة تحتكان إحداهما بالأخرى، وتمضي كل منهما في طريقها.

سألت ماكيكو إيساو:

ـ هل تعتني عناية جيدة بزهور السوسن التي تلقيتها في مزار إيزاجاوا؟

كان سؤالها مباشراً للغاية، وغير متوقع، بحيث لم يستطع إيساو أن يقول في معرض الرد إلا:

ـ عفواً؟

ـ زهور السوسن التي أُعطِيتَها هناك، السوسنات التي جلبتها من مزار أوميوا

ـ لا، لا، لقد أعطيتها للآخرين كلها.

ـ لم تحتفظ حتى ولو بواحدة منها لنفسك؟

ـ كلا.

ـ يا للعار! مهما طالها الذبول فإنه ينبغي على المرء الاحتفاظ بها حتى العام المقبل. يقول الناس إنها بمثابة حماية من الأوبئة. ونحن في دارنا نضعها بإجلال على مذبح العائلة.

تساءل ساجارا دونما تفكير:

ـ هل تحفظونها بوضعها بين صفحات كتاب؟

ـ لا، لم يدر بخلدي أنه سيكون من المناسب سحق زهور الآلهة تحت جسم ثقيل؛ ولذا وضعتها على المذبح على نحو ما كانت عليه، وأقوم بريها بالمساء منذ ذلك الحين.

ـ لكنها قطفت منذ شهر!

ـ إنه شيء عجيب، ولكنها لا تذوي قط متحولة إلى لون غير مقبول. سأريكم. لا يمكن أن يوجد شك في أنها زهور الآلهة.

قالت ماكيكو ذلك وخرجت من الغرفة لتعود بعد لحظات قلائل

بخطوات وئيدة وقور حاملة بيدين مرفوعتين مزهرية من الخزف الأبيض مليئة بقدر وافر من زهور السوسن، ووضعتها على المائدة ليتأملها الفتية. من المؤكد أن السوسنات كانت قد ذوت، كما هو حري بأي زهور تقطف، ولكنها لم تتحول إلى اللون القبيح المألوف الذي تبدو معه وكأنما اجتاحتها النار اجتياحاً. لقد غدا لونها الأبيض عاجياً قاتماً وكأنما أصابتها الانيميا، وأصبح الظل الأخضر لعروقها محدداً بشكل جليّ، وبدا كل برعم وكأنه انكمش بالنسبة ذاتها، ولاحت وكأنها تحولت إلى زهور من نوع لم يتم اكتشافه بعد.

- سأعطي واحدة لكل منكم، وعليكم حملها إلى بيوتكم وحفظها بعناية، فهي ستحفظكم من المرض.

بمقص صغير شرعت ماكيكو بالتقاط سوسنة لكل منهم بقص السوق قريباً من البراعم.

ضحك إيزوتسو وقال:

- حتى لو لم تسدي إلينا هذا الجميل فإننا لن نقلق بشأن إمكانية إصابتنا بالمرض.

ردت ماكيكو بصورة ملغزة وهي تمضي في إعمال المقص:

- ينبغي ألا تتحدث على هذا النحو بعد أن أبدى إيساو مثل هذا الإخلاص بإحضاره هذه السوسنات من مزار أوميوا. وبالإضافة إلى ذلك فإن فائدتها لا تقتصر على الوقاية من المرض.

ظل إيساو بعناد في موضعه قرب الرواق مستشعراً الحرج حيال احتمال اضطراره إلى قبول زهرة من امرأة. ولقد أحس بشيء لم يكن بمقدوره تحديده فيما يتعلق بماكيكو التي لزمت الصمت الآن، ومن دون أن يدرك ما هو فاعل نظر إليها فيما كانت منحنية على المائدة المصنوعة من خشب الورد التي وضعت عليها المزهرية وكان جانب وجهها في مواجهته. في تلك اللحظة

عرف إيساو أنها تدرك تمام الإدراك أن عينيه تتركزان على جانب وجهها.

لدى رؤية إيساو صديقيه وهما يقفان بقربها متأهبين لأخذ زهور السوسن تحدّث كأنما يوجه تهديداً إليهما، وقد بدت لهجته الغريبة غير مناسبة بالمرة للمشهد:

ـ أصغيا إليّ، أنتما الاثنان! إذا كان بمقدوركما في يابان اليوم أن تقتلا رجلاً واحداً فمن تظنان أن من الأفضل قتله؟ أي ذلك النوع من الرجال الذي سيكون قتله خطوة على الأقل نحو تطهير اليابان؟

رد إيزوتسو مقلّباً السوسنة التي أعطتها له ماكيكو بين أطراف أصابعه:

ـ جوجورو إتسوي؟

ـ لا تكن غبياً! إن لديه المال، ولكنه لا أهمية له.

تساءل إيزوتسو فيما هو يدنو من إيساو ليسلمه السوسنة التي أخذها له، وعيناه تلتمعان:

ـ ما رأيك في الشريف شينكاوا؟

ـ لو أن بمقدروك قتل عشرة رجال، فأحسب أنه سيكون أحدهم. ولكنه مجرد انتهازي، وقد تعلم شيئاً من حادث الخامس عشر من أيار (مايو)، وهو يلبس لكل حال لبوسها، ومن الطبيعي أنه يستحق العقاب باعتباره خائناً.

ـ رئيس الوزراء سايتو؟

ـ من المؤكد أنه سيكون أحد القتلى إذ قتلت خمسة رجال، ولكنه يقف أمام ستارة سوداء تحجب عالم الأموال الطائلة، فمنذا وراء الستارة؟

ـ آه! بوسوكي كوراهارا؟

رد إيساو وهو يسارع بدس السوسنة في كيمونوه:

ـ إنه من أعني، اقتله فيغدو حال اليابان أفضل بسبب ذلك.

حتى فيما كان إيساو يتحدث تعلقت عيناه بمشهد كأنما كان يتراءى في

البعيد ليد امرأة بيضاء شيقة منحنية على مائدة من خشب الورد، ويصدر بريق عن مقص كأنه ماء ملتمع تحت ضوء المصباح. ما كان لما تقوم به ماكيكو أن يؤثر قط على حوار الفتية فيما بينهم، ولكنها ما كان يمكن أن تعجز عن الإدراك، من خلال نغمة تتخلل أسلوب إيساو في الحديث، أنه يريدها أن تعي ما يقوله. ولاحت النظرة التي رمقته بها دافئة بفعل عاطفة أمومية، ولكن عينيها تركزت نظرتها على البعيد وكأنها تنظر إلى ما وراءه، إلى الحديقة المترامية في الخارج، ساعية وراء آخر الوهج الدامي للشمس الغاربة، الوهج الذي حجبته خضرة شجيرات الحديقة المثقلة بالمطر.

قالت ماكيكو:

ـ الدم الفاسد دم يصرخ مطالباً بأن يُسفك، وقد يشفي من يسفكونه بلادنا حقاً من سقمها. وأما أولئك الجبناء الذين يقفون إلى جوار فراش أمتنا المريضة فإنهم لا يحيرون شيئاً إلا ليَّ أيديهم المتشابكة توجّعاً، وهم غارقون في تفاهتهم. لسوف تموت اليابان إن ترك الأمر لهم.

كانت نغمة حديث ماكيكو متوهجة وكأنها تلقي قصيدة، فأحسّ إيساو بانفراج توتره الكئيب.

سمع صوت لهاث ثقيل خلفه، ومقدم شيء عبر النجيل، فألقى نظرة وراءه. وساوره شعور بالحرج إزاء تسارع دقات قلبه، فربما كان كلب ضالّ قد ولج الحديقة التي يكسوها المطر، وقد أكد هذا الانطباع صوت التشمم القبيح الذي أحدثه فيما كان يدفع بخطمه عبر المزروعات.

- ١٤ -

تميز النصف الأخير من الفصل المطير بسقوط قدر يسير من المطر. ويوماً بعد آخر واصلت السماء المثقلة بسحب رمادية تميل إلى اللون البني حجب أشعة الشمس، ولكنها غدت صافية أخيراً. وبدأت الكليات عطلتها الصيفية.

تلقى إيساو بطاقة بريدية من الملازم هوري كتبت عليها رسالة سريعة بقلم رصاص غليظ خشن. فقد وجد كتاب «عصبة الريح الإلهية» مثيراً للاهتمام تماماً، حسبما كتب يقول، وإذا أراد مشاركة أصدقائه فيه فإنه يحتفظ به في مقر قيادة الفوج، وسيسعده أن يرى إيساو في أي وقت يرغب في الحضور فيه لاسترداد الكتاب.

مضى إيساو ذات أصيل لزيارة الملازم في حامية فوج أزابو الثالث. وامتدت الثكنات وأرض التدريب وكأنما ثبتها في موضعها وهج شمس الصيف.

وإلى يمين الداخل من البوابة الرئيسية امتدت الثكنات الحديثة على نحو جليّ وكان الفوج شديد الاعتداد بها، ولكن الغبار الذي ثار فيها وراء الأشجار قرب ميدان التدريب، والرائحة التي انبعثت من إسطبل في مكان ما، لا من الثكنة الحديثة، كانت هي العناصر المميزة التي نقلت الشعور بالجيش، والتي تخللت كل شيء رآه إيساو ممتداً أمامه، عناصر امتزجت بالشهرة المدوية للفوج وقد حلّقت إلى السماء التي حجبها النقع.

فيما اجتاز إيساو البوابة لفتت نظره فصيلة تتدرب في ركن قصيّ من

أرض الاستعراض. وقد لاحت شخوص الرجال وكأنها أقلام شمعية كاكية اللون، تحت شمس الأصيل الحارقة.

مضى معه جندي كان يقف في الحراسة ليريه الطريق، وقال:

ـ الملازم هوري يقوم بتدريب بعض المتدربين هناك. سيفرغون من التدريب، في غضون ثلث الساعة، ويمكنك متابعتهم إذا أردت.

تبع إيساو الجندي عبر أرض التدريب شاعراً بأن حرارة الشمس تطبق عليه. وامتد كل شيء محدد الملامح بدقة تحت أشعتها. وحينما بلغا الفصيلة أخيراً برزت اللمعة النحاسية لأزرار الجنود ورقم ثلاثة الذي يميّز جنود الفوج، متألقة تحت الشمس وقطع الياقات الحمراء المميزة للمشاة المتراصة بعضها إلى جوار بعض في مفارقة متوهجة للكتلة الكاكية.

كان الرجال يمشون مشية عسكرية إلى الأمام، والصدى المكتوم لأقدامهم المنتعلة أحذية طويلة يحاكي صوت أسنان هائلة تعض على الشكائم. وأمسك الملازم هوري بمِغْوَله المجرّد على كتفه الأيمن، وفيما كان يجأر بأوامر التدريب الخاصة بالصفوف المتقاربة، حلّق صوته فوق صفوف الرجال الصامتين عالياً وكأنه طائر وحشي من طيور الصيد.

ـ فصيلة يميناً . . .

هكذا جاء جزء الإيقاظ من الأمر يتبعه جزء الحكم: «سر!» وفي تلك اللحظة حوَّل الرجل الارتكازي في الصف الداخلي توّاً وجهه المتعرّق إلى اليمين، وخلال الخطوات القليلة التالية سار في محله منتظراً أن يؤدي الصف الخارجي التفافه واسع النطاق، وفي غضون ذلك بدت الصفوف الأخرى وكأنها تنفتح مثل أسيجة تتباعد المسافات بين أعمدتها، لا لشيء إلا لتنضمّ إلى بعضها من جديد بيسر إغلاق مروحة قابلة للطيّ.

ـ جماعات على الخط الأيسر. . . سر!

لدى صدور صيحة الملازم حاملة الأمر انحل التشكيل من دون لحظة

تأخير واحدة، واندفع الجنود إلى الأمام بدقة معادلة رياضية ليشكلوا صفاً واحداً مرتكزين على حامل الراية. وعندما اكتملت المناورة بانتقال الصف الواقع على الجانب الخارجي إلى موقعه واصلت الفصيلة المسير.

ـ بالتخاطي إلى اليمين. . . سر!

كانت صيحات الملازم القوية المصحوبة بالتماع مِغْوَله تشبه رصاصات تطلق نحو السماء الصيفية. ومرة أخرى غيَّر الصف الطويل خط مسيرته من جديد. والآن فيما كان الرجال يبتعدون عن إيساو، كان بمقدوره رؤية ظهورهم وقد تلطخت القمصان واسودت من جراء العرق. ومن الجهد الذي بدا جلياً للغاية في شكل أكتافهم أدرك إيساو أي مجهود عاجل يبذلونه في كبح جماح التنفس اللاهث الناجم عن المناورة التي أنجزوها لتوّهم.

ـ انصراف!

هتف الملازم بالأمر، والتفت، واندفع عدواً باتجاه إيساو قبل أن يتوقف فجأة، ليصيح: «اصطفاف!». وبينما كان الملازم يعدو رأى إيساو تحت مقدمة قبعته الناتئة السوداء التي كانت تلتمع في ضوء الشمس حبات من العرق تتقاطر من أرنبة أنفه الذي لوحته الشمس، ومن شفتيه المطبقتين بإحكام.

اندفع الجنود بدورهم، بحسب الوضع الجديد لضابطهم، باتجاه إيساو وكأنهم يتسابقون فيما بينهم، وبعد المناورة التي مضت بهم بعيداً كل هذه المسافة شكلوا صفين أمام إيساو مباشرة، دافعين أحدهم الآخر في تعجلهم المترع باللهفة.

بعد تفقد نظامهم بدقة قاسية هتف الملازم مرة أخرى بالأمر «انصراف»، ثم «اصطفاف»، فاندفع الرجال منفذين فوق الأرض التي ألهبتها الشمس بسياطها، متشبثين ببنادقهم. وتكرّرت الأوامر مرات

عـديدة. وفي بعض الأحيـان كانت البقعـة الواقعـة أمـام إيسـاو والجنـدي الحارس مباشرة تجتاحها دوامـة من الغبار والعـرق ورائحة الجلد والأنفـاس اللاهثة لحـوالي عشرين رجلاً. وبعـد قليل اسـودت الأرض بفعل قـطرات العرق، كما غطت بقع سوداء كذلـك ظهر المـلازم الواقف عـلى مسافـة من إيساو.

تحت السماء الصيفية التي تتحلّق فيها جبهة خفيضـة من السحب النائيـة التي تبدو كما لو كانت في حلم، مضت المجموعة الصغيرة من الرجال غافلة عن الظل الظليل للأشجار المحيطة بميدان التدريب، تؤدي تدريباتها وكأنها محرك أُجيد ضبـطه، وهي تصطف وتنصرف وتغـير اتجاههـا. وبدا الـرجال وكأنهم تحركهم يد عملاقة خفية تمتدّ من الأعالي. ومضى إيساو يحدث نفسه بأن تلك اليد لا يمكن أن تنتمي إلا إلى الشمس. ولم يكن المـلازم إلا ممثلاً وحيداً لتلك اليد التي راحت تحرك الجنود كيفما شاءت، وعندما يفكـر المرء من خلال هذا الفهم فإن الأمر يصل إلى حد أنه حتى صوته القوي يكتسب رنة جوفاء. فاليـد الخفية التي تحـرك البيادق عـلى رقعة الشـطرنج تكمن في الشمس ذاتها، في الأعالي، القوة التي ترشـدها الشمس المتـألقة التي تـوجه الموت بدوره حيثما تشاء. ها هنا تكمن قوة الإمبراطور نفسه.

على أرض التدريب هـذه وحدهـا تعمل هـذه اليد المنتميـة إلى الشمس بجـلاء ودقة بـالغين. هـا هنا فحسب تغلغلت إرادة الإمـبراطور في العـرق والدم واللحم الحي لهؤلاء الشبان، مخترقة أجسامهم شأن الأشعـة السينية. ومن الأعالي فوق المدخل إلى مقر قيادة الفوج أطلت زهرة الأقحوان الذهبية المنتميـة للشعار الإمـبراطوري متـألقة في سنى الشمس وعـلى رقصـة المـوت الجميلة المتداخلة هذه.

وغـير ذلك؟ في غـير ذلك من المـواضع، عـلى امتداد اليـابـان، حُجبت أشعة الشمس.

وعندما انتهى التدريب أقبل الملازم هوري، ولفافة ساقة الجلدية المقرقعة بيضاء من أثر الغبار، على إيساو وقال:

ـ يسعدني أن أراك هنا.

ثم صرف الجندي الحارس قائلاً:

ـ طيب، اترك لي الأمر الآن.

سار نحو البناء الهائل المصفر الزيتوني الشكل.

تساءل الملازم بشعور بالفخار:

ـ ما رأيك فيها؟ إنها أحدث الثكنات في اليابان، بل إنها تضم مصعداً.

فيما كانا يرتقيان الدرج الحجري المفضي إلى المدخل المواجه للإصطبلات، قال الملازم هوري ملاحظاً:

ـ لقد أجهدتهم تدريباً اليوم، ولكني أتصور أنه كان بمقدورك القول بأنهم مجندون حديثاً.

ـ لا، لم ألحظ على الإطلاق ما يشوب أداءهم.

ـ آه؟ طيب، دعهم ينعمون بقيلولة الصيف، وفيما بعد، عندما تجهدهم على هذا النحو، توقظهم حقاً مما ينغمسون فيه.

كان الملازم هوري، باعتباره ضابط سرية، يعمل في غرفة بالطابق الثالث مخصصة لضباط الكتيبة الأولى. وكانت الغرفة على جانب من التقشف، تتدلى على جدرانها خمس مجموعات وقاية أو ست، مما يستخدم في التدريب على القتال المتلاحم. وكان قمطره بجانب إحدى النوافذ، وقد شرع الحشو المؤلف من القش في البروز من كساء مقعده. وفيما نزع الملازم سترته ومضى ليجفف عرقه، أطلّ إيساو من النافذة على الفناء الداخلي البيضاوي الشكل للبناء. وجلب جندي الارتباط الشاي وتركه على القمطر.

عكفت مفرزة من الجنود على التدريب على القتال المتلاحم في الفناء.

وبدا صوت اشتباكهم وكأنه يندفع صاعداً متجاوزاً النافذة. كانت ستة مخارج تواجهها درجات حجرية تفضي إلى الفناء. ولهذا الجانب أربع طبقات نصف إحداها تحت الأرض، ولكن على الجانب المقابل كانت هناك ثلاث طبقات، بما فيها الطبقة التي يقع نصفها تحت الأرض. وقد طليت أرقام مسلسلة كبيرة باللون الأبيض على كل باب.

مدت ثلاث شجرات جنكة أغصانها الحافلة بالوريقات، وهو شيء بدا موحياً بالوعيد على وجه التقريب، وتدلّت براعم بيضاء من أطراف أغصان أشجار أرز الهيمالايا العديدة، دونما نسمة واحدة تحركها.

وأقبل الملازم من جديد مرتدياً قيمصاً أبيض قصير الكمين، وبعد أن شرب شايه على نحو موحٍ بشعوره بالظمأ، استدعى جندي الارتباط وطلب منه إحضار المزيد من الشاي.

قال لإيساو:

ـ طيب، إذن، دعني أعيد إليك كتابك.

مد يده بصورة عابرة إلى جارور قمطره، وأخرج كتاب «عصبة الريح الإلهية» ووضعه أمام إيساو.

ـ وما رأيك فيه؟

ـ لقد أثر فيَّ حقاً، والآن أتفهّم بصورة أكبر مشاعرك. فلديك الروح نفسها. أليس كذلك؟ ولكن أودّ أن أطرح عليك سؤالاً.

قالها الملازم بابتسامة ساخرة، على نحو عابر. وأضاف:

ـ حينما يأتي الوقت الذي ينبغي أن تحارب فيه أحداً، هل ستختار كما فعلت العصبة الجيش الإمبراطوري خصماً لك؟

ـ لا، بالطبع.

ـ طيب، من إذن؟

ـ حسبت أنه إذا لم يتفهمنا أحد فإن الملازم هوري، على الأقل، سيفعل

ذلك. إن الخصم الحقيقي للعصبة لم يكن الجيش، وإنما كان هناك شيء يقع وراء قوات الحامية، وهذا الشيء كان الزمرة العسكرية النامية. وقد نظر رجال العصبة إلى ذوي النزعة العسكرية باعتبارهم عدوهم، وتصدوا لهم في الميدان، إذ كانوا يعتقدون جازمين أن جيش ذوي النزعة العسكرية ليس بجيش الآلهة. وآمنوا بأن عصبتهم الإلهية هي جيش الإمبراطور.

وقبل أن يرد، ألقى الملازم نظرة حوله في أرجاء الغرفة فوجد أنه وإيساو كانا وحدهما.

ـ ليكن، ليكن. لكن المرء لا يصيح بأمور كتلك فيسمعه الجميع.

جعل الولاء والودّ الباديان في كلمات الملازم روح إيساو تحلّق عالياً.

ـ لكن لا أحد غيرنا هنا. والآن ونحن معاً، يا سيدي، لا أستطيع منع نفسي من الإفضاء بكل الأمور التي كانت تتصاعد في أعماقي. لقد حارب رجال العصبة مستخدمين السيوف وحدها، وإنني لأشعر بأننا نحن بدورنا، عندما يحين الاختبار الأكبر، ينبغي أن نعتمد على السيف وحده. ومع ذلك فإنه إذا كانت خطتنا ستغدو على مستوى كبير، فهناك مجال لمناهج أخرى... ترى هل هناك أية فرصة لقيامك بتعريفنا بضابط في سلاح الطيران؟

ـ لم؟

ـ لكي نستطيع الإستعانة بدعم جوي؛ لقصف النقط الرئيسية بالقنابل.

زمجر الملازم فحسب في معرض الرد، ولكنه لم يبد غاضباً بشكل خاص.

ـ لا بد أن يفعل أحد شيئاً. فإن لم يحدث ذلك فسوف تذهب اليابان هدراً. ليس هناك شيء آخر يمكن القيام به إذا ما أريد إدخال السكينة على فؤاد الإمبراطور.

قال الملازم وقد غدا صوته قاسياً فجأة:

ـ لا تثرثر بأمور خطيرة.

غير أن إيساو أدرك أن الملازم لا يكن له عداء، واعتذر بصورة معتدلة:

ـ كنت مخطئاً. إنني آسف.

راح إيساو يحدّث نفسه متسائلاً: هل أدرك الملازم شيئاً يكمن في قرارة نفسه؟ نعم، فلا بد أن نظرة الملازم الضارية الفاحصة قد اخترقت روح فتى لم يبعد به العهد طويلاً عن المدرسة الثانوية. والملازم هوري، بحسب ما سمع إيساو عنه، ليس بالرجل الذي تؤرجحه اعتبارات السن أو المكانة.

أدرك إيساو حق الإدراك أن كلماته تفتقر إلى النضج، ولكن مضاء عزمه كان يعوِّض قصور كلماته. لقد كان واثقاً كل الثقة من أن نيرانه الداخلية ستضرم ألسنة اللهب في الرجل الذي يواجهه، ثم إن الوقت كان صيفاً، وقد جلس الرجلان أحدهما قبالة الآخر، في حر متقد وطاغٍ كالذي يثيره الالتفاف بغطاء صوفي ثقيل. وبدا الأمر كما لو أن شرارة ستشعل حريقاً هائلاً، وأنه إذا غابت الشرارة سيصهر الحر كل شيء وصولاً إلى أدنى البقايا، مثلما ينصهر المعدن في فرن عالٍ. وكان على إيساو أن ينتهز هذه الفرصة.

قال الملازم مبدّداً الصمت:

ـ بما أنك كنت من اللطف بحيث زرتني فإنني أحسب أن علينا القيام بشيء ينسينا الحر. ما رأيك في المضيّ إلى قاعة التدريب والانتقال بين أشكال الكندو دون الاستعانة بأقنعة؟ إنني أتدرب على هذا النحو في بعض الأحيان مع أحد الرقباء، وليس هناك ما هو أفضل من ذلك لشحذ إرادتك.

وافق إيساو متحمساً:

ـ نعم، يا سيدي، إنني أحب هذا النوع من التدريب.

يتخذ الفوز أو الهزيمة في صفوف العسكريين مغزى دقيقاً؛ ولذا فلا شك أن الملازم هوري نادراً ما تنافس جدّياً لأن عيون رفاقه مركزة عليه. وعلى أية حال فإن فكرة أن الملازم قد رغب في التواصل مع إيساو، من خلال السيف، كانت فكرة سارّة بالنسبة للأخير.

وإذ أحاطت بإيساو الجدران الخشبية العتيقة لقاعة التدريب فقد أحس برعشة ابتهاج موافقة لطبعه. فقد كان هناك ستة رجال يتدربون، ولكنه كان بمقدوره القول على الفور بأنهم من المستجدّين؛ فقد شاب الاضطراب معالجتهم للعصيّ، وحفلت حركة أقدامهم بالأخطاء.

صاح الملازم بصوت فظّ:

ـ عليكم بالاستراحة جميعاً! فسوف أتدرب على أشكال الكندو مع هذا الزائر، تابعونا، وسوف تتعلمون شيئاً!

خطا إيساو إلى منطقة التدريب وقد ارتدى حلة كندو مستعارة، وقبض على عصا من الخشب الصلب مستعارة بدورها. ونزع المتدربون الستة الذين تحولوا إلى مشاهدين أقنعتهم وجلسوا على الأرض بانتباه في صف منتظم. وبعد أن قام إيساو بانحناءة الإجلال للآلهة تقدم ليواجه الملازم. وتقرر أن يأخذ الأخير دور المهاجم، وأن يأخذ إيساو دور المدافع.

انهلت أشعة الشمس من النوافذ العالية في الجانب الغربي من القاعة، وتألقت الأرض تحت الأقدام وكأنها صُقلت بزيت يلتمع، فيما لف صوت الزيزان الملحاح المبنى من الخارج. وتميّزت ألواح الخشب الحارة تحت بواطن الأقدام بارتداد طيب؛ فكانت الطبقة اللدنة الواقية تشبه فطيرة أرز مسحوق.

أقعى كل منهما في مواجهة الآخر من أجل الطقس الافتتاحي المتمثل في

تماسّ طرفي عَصَوَيهما، ثم نهضا وأمسك كل منهما عصاه في وضع وسيط. وعلى الرغم من الامتزاج بصوت الزيزان فإن كل صوت بدا وكأنه يطرق السماء بجلاء حاد، حتى أدنى حفيف لثنايا هاكاما كل منهما.

سرعان ما تلمس إيساو موقف الملازم، فقد كان الانطباع الذي تلقاه انطباعاً قوامه شهامة نابعة من القلب، وبشكل ما كانت هناك لمسة من الإهمال الجسور لوضعه أنقذته من أن يكون وضعاً تقليدياً على نحو متصلّب. وزادت لمحة من صدره البارز عبر فتحة العنق المربوطة دونما إحكام لسترته الزرقاء الشاحبة، الشعور بالحيوية المنبعثة من الملازم، وقد بدت ندية كهواء الصباح الباكر في يوم من أيام الصيف. وميزته مرونته وكذلك انعدام توتره باعتباره رجل سيف بارزاً.

حرك كل منهما عصاه إلى يمينه، وتراجع خمس خطوات قصيرة، وأحناها ليتم تحيته، ثم بدأت الجولة الأولى. واجه أحدهما الآخر ثانية، وبعد المواجهة الأولية في الوضع الوسيط، رفع الملازم سيفه إلى اليسار عالياً، ورفع إيساو سيفه إلى اليمين عالياً، وتقدما بثبات أحدهما نحو الآخر.

ـ ياه ه ه!

هكذا صاح الملازم هوري وهو يتحرك إلى الأمام على قدمه اليمنى، ويوجه عصاه مستقيمة إلى الرأس.

هوت هذه الضربة القوية الأولى نحو رأس إيساو وعلى نحو مفاجىء، وكأنها اندفاعة سيل من الأحجار. لقد ركزت العصا الخشبية كل قوتها على نقطة واحدة، وباتجاه هذه النقطة تمزق الهواء الثقيل اللزج. واجتذب عصاه إلى الوراء في الوضع العلوي الأيمن، ثم أهوى بها على رأس خصمه صائحاً:

ـ توه!

تألقت عينا الملازم بضراوة، وأقبلت عصا إيساو صافرة وهي تهبط،

موجهة مباشرة إلى قمة رأس الملازم ذي الشعر القصير. وفي اللحظة ذاتها التقت أعينهما، واستشعر إيساو تواصلاً بينهما بالغ السرعة بحيث تعجز عن تحقيقه أية كلمات. كانت الشمس قد أحرقت بلا هوادة يوماً بعد الآخر فك الملازم وأرنبة أنفه، ولكن جلد جبينه الذي حمته مقدمة قبعته البارزة كان فاتح اللون، الأمر الذي جعل حاجبيه أكثر بروزاً. وكان هذا الجبين الأبيض هو الذي تهددته عصا إيساو بضربة مدمرة. وقبل أن تنهال الضربة، في اللحظة التي توقفت فيها العصا في منتصف الطريق، مرت بينهما قوة حدسية أسرع من الضوء.

بعد كبح جماح الضربة الموجهة إلى رأس الملازم، والاندفاع بهجوم اختراقي إلى عنقه، رفع إيساو ببرودة سيفه إلى الوضع العلوي اليساري مظهراً استعداده لتلقّي هجوم آخر.

وهكذا انتهت الجولة الأولى. وواجه الاثنان من جديد أحدهما الآخر في الوضع البسيط، وبدأت الجولة الثانية.

بعد أن صبّا الماء على أنفسهما لإزالة عرقهما، وفيما هما في طريق العودة إلى الثكنات تحدث الملازم الذي كان ما يزال في ريعان الشباب هو كذلك، والذي شعر في هذه اللحظة بالمرح والقوة على نحو خاص، مخاطباً إيساو وكأنهما ندان. ولا شك أن تجربته المكتسبة حديثاً لقدرة إيساو في الكندو قد عجّلت بهذه الألفة بينهما بصورة أكبر.

ـ هل سمعت الكثير عن الأمير هاروناري توين؟

ـ لا، يا سيدي!

ـ إنه الآن قائد فوج في ياماجوتشي. وهو رجل رائع تلقى تدريبه في حرس الفرسان الإمبراطوري؛ ولذا كنت في فرع مختلف، ولكن بعد أن تلقيت تكليفي العسكري مباشرة صحبني زميل في الأكاديمية العسكرية إلى لقاء معه فأظهر نحوي وداً حقيقياً، ومضى يحدثني قائلاً: «عليك بهذا يا

هوري»، «وما رأيك في ذاك يا هوري؟». وهو رجل قوي الشكيمة، ويحب بشكل خاص أن يسمع عن طموحات الشبان، ويرعى من يخدمون تحت قيادته، وهو أبعد ما يكون عن الصلف ـ إنه أمير من العائلة الإمبراطورية، وجندي شجاع ورائع. ما قولك إذا طلبت منه مقابلتك؟ لو أن بمقدورنا أن نريه أن هناك شباناً مثلك فإنني على يقين من أن ذلك سيدخل البهجة على نفسه.

ـ نعم، يا سيدي، أرجوك، قم بذلك!

لم يبتهج إيساو بصفة خاصة حيال احتمال لقاء مثل هذه الشخصية البارزة، ولكنه وافق لأنه أدرك أن هذا بمثابة جميل خاص من الملازم.

ـ سيمكث سموه في طوكيو لمدة أربعة أيام أو خمسة خلال الصيف، وقد طلب مني القدوم في ذلك الوقت، وحينما أقوم بذلك سآخذك معي.

- ١٥ -

تلقى الأمير ماتسوجاي الذي كان قد تخلص منذ زمن من دارة تشونج - نان الواقعة في كاماكورا، وأصبح الآن يقضي عطلاته الصيفية في كاريوزاوا، دعوة لحضور مأدبة في دارة الشريف شينكاوا بكاريوزاوا. ولم يثر وصولها إلا فكرة واحدة في ذهن الأمير، وهي فكرة تردّد إلى أبعد الحدود في مواجهتها. فعلى الرغم من أن جميع الضيوف الآخرين الذين وجهت إليهم الدعوة كانوا «أهدافاً»، فإن الأمير ماتسوجاي كان وحده من بينهم الذي لا يستهدفه أحد.

لم ترد على الأمير ماتسوجاي رسائل بلا توقيع، ولا حتى رسائل من نوع أكثر اعتدالاً من متطرفين ينتمون إلى اليمين أو إلى اليسار. كان وهو الذي تجاوز الستين من عمره وحظي بعضوية مجلس النبلاء، يسارع إلى مدّ يد المساعدة في تجميد أية مشروعات تشتمّ فيها أدنى رائحة للتطرف، ولكن لا يبدو أن أحداً كان قد لاحظ ذلك. وإذ يتأمل ماضيه يدرك، ويا للغرابة، أن الهجوم الوحيد الذي تعرض له هو ذلك المقال الغريب الذي نشره إينوما بتوقيعه قبل تسعة عشر عاماً في إحدى الصحف اليمينية. وفيما عكف على التأمل في فترة الهدوء غير الطبيعية التي تواصلت بلا انقطاع منذ ذلك الحين، فقد مال إلى التكهن بأن شخصاً ما يعمل وراء الستار لحمايته، وهذا الشخص لا يعدو أن يكون مهاجمه السابق إينوما.

كان في هذا النحو من التفكير ما يمس كبرياء الأمير، وكلما ازداد تفكيراً في موقفه بدا الأمر له أشدّ عبثية. وكان من اليسير بالنسبة له بسبب النفوذ المقترن بمكانته أن يكتشف جلية الأمر. ولكن إذا كان تكهنه في موضعه فإنه

سيجد نفسه مديناً لإينوما إلى حد كبير، وسيزداد وضعه تهافتاً. وأما إذا كان هذا التكهن بلا أساس فإن شعوراً بالعار سيلحقه من خلال إدراكه أنه، في نهاية المطاف، لم يكن بمقدوره إثارة حفيظة أحد تجاهه.

شكّلت مآدب الشريف شينكاوا، على الدوام، مناسبة للاستعراض والتظاهر. فالطعام يقدم للحراس الشخصيين للضيوف خلال المأدبة في غرفة ملاصقة. وهم يشكلون مجموعة تصل في ضخامتها إلى ما يقرب من مجموعة الضيوف. وهكذا تُقدَّم وجبتان في دارة شينكاوا في الوقت نفسه، ويصل الفارق في عدد الأطباق ونوعيتها إلى حدّ تستحيل معه المقارنة العادية. ومن بين هاتين المأدبتين، وعندما يأخذ المرء في الاعتبار أموراً، من نوعية المظهر الرث على نحو لا يوصف الذي تبدو به الثياب التي يرتديها رجال الأمن، وعيونهم الحادة القلقة، وملامحهم الخشنة، وطريقتهم في تناول الطعام صامتين وملتفتين برؤوسهم، شأن كلاب صيد فظة، باتجاه أدنى صوت، والطريقة التي يندفعون بها دونما ضابط، لالتقاط الأعواد التي يُخلِّلون بها ما بين أسنانهم وإعمالهم لها بلهفة فيها، فإنه سيتعين عليه أن يحكم على مأدبة رجال الأمن بأنها مشهد أرفع وأكثر جدارة بالمتابعة، ولكن من المحزن أنه لم يكن هناك حارس خاص للأمير ماتسوجاي بينهم.

لم يعلّق الأمير آمالاً تذكر على علاج هذا الوضع المخزي باللجوء إلى الحيلة، وذلك أن الشرطة قد أعلنت على نحو لا مجال للتراجع عنه أنه ليس هناك خطر يتربص بسلامة الأمير الشخصية، ومن هنا فإنه إذا طلب تعيين حارس له بمبادرة منه فلن يؤدي ذلك إلا إلى جعله مثاراً للسخرية.

واقتضى الأمر تبعات وجدها الأمير مستساغة إلى حد بعيد، وذلك أن العهد كان يفرض قياس قوة المرء بقدر الخطر الذي يتربص به.

وهكذا، فعلى الرغم من أن دارة شينكاوا كانت على مسيرة هينة من دارة الأمير، إلا أن الأخير كبَّد نفسه، على الأقل، عناء انطلاق سائقه به إلى

هناك في سيارته من طراز لنكولن، ووضعت الأميرة ماتسوجاي على حجرها دثاراً صوفياً صغيراً مطوياً، بسبب التهاب المفاصل الذي كان يعاود ركبة زوجها اليمنى. ذلك أن آل شينكاوا كانوا يؤثرون الترحيب بضيوفهم بتقديم مشروبات ما قبل العشاء في الهواء الطلق، إلى أن تغيب الشمس ويغدو الهواء بارداً. وطوال هذا الوقت بكامله، ووسط أشجار البتولا الشهباء التي تحفل بها حديقة شينكاوا الفسيحة التي أعدت لاستغلال منظر جبل أساما، يقف الحراس الشخصيين إلى أن تذوي شخوصهم متحولة إلى أشكال معتمة خشنة المظهر، وقد صدرت لهم التعليمات بأن يظلوا بعيدين عن الأنظار، ولكن هذا لم يؤدِّ إلا إلى جعلهم يبدون كما لو كانوا سفاحين متربصين بالضيوف الذين يحتسون مشروبات ما قبل العشاء في الحديقة.

كان الشريف شينكاوا قد تجاوز الخمسين من عمره. وقد اعتاد قراءة افتتاحيات صحيفة «التايمز» كل صباح في المناطق المحيطة بدارته ذات الطابع الإدواردي، قبل أن ينتقل إلى الصحف اليابانية. وشأن مسؤول ينتمي إلى العهد الاستعماري البريطاني، كان يرتدي كل صباح واحدة من ست حلل كتانية بيضاء. وأما الشريفة فقد ظل ميلها الغريزي للحديث عن نفسها على حاله عبر هذه السنوات. وقد أوتيت القدرة على أن تكتشف في ذاتها مصادر دائمة التجدد للإدهاش، على الرغم من أنها كان باستطاعتها في الوقت نفسه أن تتجاهل اكتشاف أنها كانت، في حقيقة الأمر، تزداد ترهلاً شيئاً فشيئاً.

ضاقت الشريفة ذرعاً بـ «التفكير الجديد، كما انحلت منذ زمن طويل «مجموعة النار السماوية» التي تصدت لبطولة حركة «الجوارب الزرقاء». وتمثلت المناسبة التي اكتشفت فيها خطر «التفكير الجديد» في انتحار ابنة أختها التي تركت الكلية النسائية لتنضم إلى الحزب الشيوعي، وفي المساء ذاته الذي عادت فيه إلى الدار، بعد إطلاق سراحها من السجن، قطعت وريدها الوداجي.

غير أن الشريفة شينكاوا كانت، كعهدها، تفيض بالطاقة، فلم تستطع النظر إلى نفسها باعتبارها عضوة في طبقة «في طريقها إلى الدمار». ولكن عندما وضع زوجها ـ وهو رجل كلبي النزعة على نحو يبعث الرعدة في الأطراف، ولا يرى أن هناك شيئاً جديراً بالقتال من أجله ـ على القائمة السوداء لليمين، ووجدت أن كلًا من أقصى اليمين وأقصى اليسار ينظران إليهما معاً باعتبارهما خصميهما العنيدين، ساورها شعور كما لو أنها وزوجها مخلوقات لها بشرة أصفى وينتميان إلى حضارة أرقى وقد أجبرا على العيش في أرض بربرية. ووجدت الموقف مثيراً من ناحية، وساورها من ناحية أخرى حنين إلى «العودة إلى الوطن»، إلى لندن.

ـ هذه اليابان، إنها مكان غير مستساغ بالمرة. ألا تعتقد ذلك؟

هكذا اعتادت الشريفة أن تقول ملاحظة بين الفينة والأخرى. وذات مرة أبلغتها صديقة لها كانت في زيارة للهند بأن إحدى معارفها الهنديات قد فقدت ابنها عندما دس الصبي يده في صندوق للعب فلدغته أفعى سامة كانت مختفية في قاعه، فعقّبت الشريفة بقولها:

ـ هكذا يسير الحال في اليابان، فكلّما كان على المرء أن يدس يده ساعياً للتسلية فحسب وجد أن هناك أفعى سامة في انتظاره، على استعداد للدغ وقتل شخص لم يلحق بها ضرراً، شخص بريء لا يملك إيذاء أحد.

كان المساء صافياً وقد تردّد صدى صوت الزيزان هادئاً عبر المرجة وتناهت دمدمة الرعد من أحد أركان السماء. وتجمع الضيوف، وهم خمسة أزواج مع زوجاتهم، في الحديقة. اقتعد الأمير ماتسوجاي كرسياً من أسل الهند، وأضفت الحمرة المتألقة للدثار المربع النقش الذي رتبته زوجته فوق ركبتيه لمسة من اللون على الغسق الذي حلّ بالحديقة.

قال أحد الرجال، وهو وزير دولة:

ـ أعتقد أنه من غير المحتمل أن يمر شهر أو شهران دون اعتراف الحكومة

بمـانتشوكـو، ذلك أن رئيس الـوزراء يعتزم القيـام بذلـك حقاً وعـلى وجـه الدقة.

وعقب ذلـك التفت إلى الأمير مـاتسـوجـاي وقـال مـلاحـظاً بمـا يـوحي بسروره:

ـ موضوع النبيل مومو‌شيما ذاك الذي تحدثنا فيه، أيمضي على ما يرام؟

غمغم الأمير بردّ لا يـوحي بالإيجـاب ولا بالسلب، ومضى يحـدث نفسه قائلاً: «هذا الشخص يحدث الآخرين عن مانتشـوكو، ثم يسـألني عن ابني بالتبني. يا لها من وقاحة!».

بعد وفاة كيواكي رفض الأمير والأميرة ماتسوجاي الإصغـاء لأي حديث يدور حول تبنيهما لوريث لهما، ولكنهما لم يعودا يشعران مؤخّراً بإرادة مقاومة حجج «مكتب الوصايا». وكانت المفاوضات في هذا الشـأن تمضي على قـدم وساق.

لاح جبـل أسامـا شامخـاً في الضوء المـتراجع، وتـرامى أمام الأنـظار من خلال مسافـة بين الأشجـار، حيث أفضى ممر إلى غـدير. وكـان من المتعذر تحديد الاتجـاه الذي تنـاهت منه دمـدمة الـرعد البعيـدة. غير أن الضيـوف استمتعوا بتأمل ظل المساء وهو ينسلّ على أيـديهم ووجوههم، بينـما الرعـد يتيح لهم اللذة الإضافية المتمثلة في الابتهاج حيال خطر يطلّ بعيداً عنهم.

قال الشريـف شينكاوا محدثاً زوجته بصوت عال بحيث يسمعه الجميـع، ويشاركون في الضحك:

ـ طيب، لمّا كان جميع السيدات والسادة الآخرين قد وصلوا فإني أتصـور أن الوقت قد حان لظهور السيد كوراهارا.

كان وصول بوسوكي كوراهارا بعد حضور كل المدعـوين قد غـدا بمثابـة عادة لا يحيد عنها، وهو تأخر في الوصول لا يبالغ فيه قط، ولكنه يفصح به بجلاء عن سلطته الهائلة.

لم يحظ مظهره الشخصي بأي اهتمام منه، فيما كان يبدو، دون أن يوجد ما يشير أدنى إشارة إلى أنه يتكلف هذا تكلفاً، وكان عجزه عن الحديث، إلا بطابع رسمي متصلّب، شديد الجاذبية. ومن المؤكد أنه لم يكن يشبه بأي حال الرأسمالي الاحتكاري الذي يظهر في الرسوم الكاريكاتيرية اليسارية. وقد اعتاد، لدى جلوسه، أن يختار المقعد الذي وضع قبعته عليه لتوّه. وللزر الثاني من صديرية حلته جاذبية كبرى لعروة الزر الثالث. وكان يكف عن ترتيب ربطة عنقه قبل وقت طويل من استقرارها تحت ياقته وعلى مائدة المأدبة كان من المحتم أن يمد يده اليمنى ليمسك بلفافة الخبز في طبق خبز جاره.

كان يقضي عطلات نهاية الأسبوع الصيفية في كاريوزاوا، وكل العطلات الأخرى في إيزوسان حيث يمتلك بستان يوسفي مساحته خمسة هكتارات أو ستة، وكان يفخر ببهاء ثمار يوسفي بستانه وطعمها الحلو، ويسعده كثيراً أن يقدم هدايا منها لا لأصدقائه فحسب، وإنما لدور رعاية الأيتام والمستشفيات الخيرية. وكان من الصعب إدراك أنه حقاً مناط غيظ الكثيرين وضيقهم.

ولا شك أنه بدا مدهشاً أن رجلاً على مثل هذا القدر من المرح في حياته الخاصة يمكن أن تكون له مثل هذه الآراء المتشائمة، على نحو جهم، فيما يتعلق بالشؤون العامة. غير أن الضيوف المتجمعين في حديقة الشريف شينكاوا كان يبهجهم على الدوام ويدغدغهم أن يسمعوا من فم الرأسمالي الفائق في اليابان صور المأساة والنذير الماحق والشرور الداهمة.

أصاب كوراهارا حزن على تقاعد وزير المالية تاكاهاشي يفوق حزنه على وفاة رئيس الوزراء إينوكاي. وبالطبع فإنه لم يكد رئيس الوزراء سايتو يشكل مجلس وزرائه حتى قام بزيارة كوراهارا، وقال محتجاً، ربما بشيء من المبالغة الزائدة عن الحد، إنه ليس بمقدوره القيام بشيء دون تعاون كوراهارا معه. ورغم ذلك فإن كوراهارا أدرك من وراء طريقة رئيس الوزراء الجديد أن وراء الأكمة ما وراءها.

كان تاكاهاشي حقاً من العالمين ببواطن الأمور في مجلس الوزراء برئاسة إينوكاي الذي فرض خطراً آخر على تصدير الذهب في مقدمة الأعمال التي قام بها، ولكنه لما كان متأثراً في الباطن بدعاة العملة الصعبة التقليديين فقد تحرك باتجاه تخريب هذه السياسة الحكومية المتبناة حديثاً، بحيث يمكنه عقب ذلك القول بأنه لما كانت هذه السياسة لم ترقَ إلى مصافّ ما كان متوقعاً منها ولا قدّمت مخرجاً سريعاً، ولّما لم تكن الأحوال قد تحسّنت وكانت الأسعار على ركودها، فإن الفشل إلى هذا الحد قد برهن على أن الأساليب العتيقة هي الأفضل في النهاية.

ومن ناحية أخرى قام الشريف شينكاوا الذي تابع بيقظة كل ما كان يجري في لندن، بدراسة دقيقة عبر «التايمز» لكل تفاصيل تخلّي إنجلترا عن قاعدة الذهب في أيلول (سبتمبر) من العام الماضي، وحسم أمره في الحال. فقد كان مجلس وزراء واكاتسوكي قد واصل الإعلان عن أنه لن ينفّذ أبداً حظراً على تصدير الذهب، ولكن مع كل إعلان حكومي كانت المضاربات على الذهب تتزايد، رغم غضب اليميني الذي أدان مشتري الذهب باعتبارهم سارقي الأمة. وقد كان الشريف نفسه من المضاربين بالذهب، ولكنه بعد أن أودع بعيداً في مصرف سويسري كل الأموال التي لا تصمد في مواجهة التدقيق، لم يرغب في تحوُّل يحدث بين عشية وضحاها في سياسة الحكومة، وساند أولئك الذين يساندون حظراً على تصدير الذهب وسياسة «العودة إلى أوضاع ما قبل الانكماش». وهكذا فقد ضاق ذرعاً بالإجراءات التي اعتمدها مجلس الوزراء السابق وقامت على الأخذ بالحلّ الوسط، وعلق آماله على مجلس الوزراء الجديد. وفيما وراء قضية الانتعاش الداخلي من خلال العودة إلى أوضاع ما قبل الانكماش امتد الاحتمال المتألّق المتعلّق بتصنيع منشوريا، وعلى الرغم من أن مظهر الشريف كان مجرّداً كعهده، إلا أنه هنا، في قلب كاريوزاوا التي كانت أرضها البركانية قاحلة ومجردة من الموارد تماماً، ارتفعت في عين خياله صورة الثروة الكامنة تحت أرض

منشوريا وكأنها شبح طافح بالغواية، تلك المصادر التي كانت غنية ومتنوعة كقائمة أطعمة ومشروبات «الكافيه رويال». وحدَّث الشريف نفسه بأنه بمقدوره حتى أن يكنّ حباً للجنود الأغبياء.

قبل سنوات اكتشفت الشريفة شينكاوا أنه من الصعب السيطرة على انفعالات رجال يعكفون على النقاش فيما بينهم، ولكن مع تقدمها في العمر تغيّرت مشاعرها، وغدت الآن على استعداد تام لترك الرجال ينغمسون في حديثهم، بشرط أن تقوم النساء بمهمة الإشراف.

ـ طيب، لقد غرقوا في الحديث.

قالتها ملتفتة إلى السيدة كوراهارا الأميرة ماتسوجاي والسيدات الأخريات، بعد أن لاحظت تجمّع الرجال حول كوراهارا.

ارتفع حاجبا الأميرة ماتسوجاي اللذان كان انعقادهما يخلع على وجهها مظهراً حزيناً، حتى بلغا تقريباً شعرها الذي غدا الآن رمادياً على نحو ملحوظ، وممشطاً بحيث يغطّي أذنيها.

مضت الشريفة شينكاوا في ثرثرتها:

ـ في هذا الربيع ارتديت كيمونو لحضور حفل في السفارة البريطانية، ولم يستطع السفير الذي لم يرني من قبل إلا في ملابس غربية تجاوز الأمر، وتفوق على نفسه في كيل المجاملات لي مؤكداً ملاءمة الكيمونو التامة لي، وما إلى ذلك. حقاً، كم هذا مضجر! حتى رجل على مثل ذوقه الرفيع لا يلحظ النساء اليابانيات إلا باعتبارهن نساء يابانيات. بالطبع، كان الكيمونو الذي ارتديته في تلك الليلة يشبه زي شخصية في مسرحية النو «موموياما»، أحمر اللون مع شجرة حور يتوجها الثلج وزخرف دائري على شكل فراشات، وقد طرّز بكامله بخيط في لون اللك الذهبي والفضي، ومن الجلي أنه كان مبهرجاً تماماً. ولأنه كان يلتمع على هذا النحو البرّاق

للغاية، أحسست بأنني لا أبدو يابانية أكثر مما لو كنت أرتدي ملابس غربية».

في غمرة سعيها لإكرام وفادة ضيفاتها، بدأت الشريفة بطرح نفسها كموضوع للحديث.

قالت زوجة وزير الدولة:

ـ جونكو، ربما قصد السفير أن الملابس التي تخطف الأبصار تليق بك، فحينما ترتدين الملابس الغربية لا تبدين جريئة تماماً، بل تميلين حقاً إلى الظهور بمظهر من تكبح جماح نفسها.

ردّت جونكو شينكاوا موافقة على وجه السرعة:

ـ ما أصدق قولك! إن ألوان الملابس الغربية كئيبة حقاً، وإذا ما ارتدت الواحدة منا ملابس مزخرفة بزهرة مبهرجة فإن ذلك لن يؤدي إلا إلى جعلها تبدو أكبر سناً، مثل جدة من ويلز.

ـ لكن لون ذلك الرداء بالغ الجمال يا جونكو!

قالتها الأميرة ماتسوجاي مقدمة المجاملة التي جعلتها الظروف شيئاً واجباً. وحقيقة الأمر أن كل ما كان يهمّها في تلك اللحظة هو ألم ركبة زوجها، فقد كان ألماً يبدو لها على نحو ما مرتبطاً بالألم الذي أثر في دار ماتسوجاي بأسرها، مرض بدا أنه على وشك إزعاج مفاصل كل من يعنيهم الأمر. وألقت نظرة عجلى باتجاه زوجها الجالس والدثار على ركبتيه. لقد راح الرجل الذي بدا في الماضي بالغ الصراحة، ولا يقيده شيء وشديد الولع باحتكار الحديث لنفسه، يصغي الآن بهدوء لما يقوله الآخرون.

لما كان من دأب الشريف شينكاوا الحرص على تجنب الخلاف فقد استحث النبيل ماتسوديرا على تولي أمر كوراهارا. وكان النبيل شاباً يوافقه في الآراء، وفضلاً عن ذلك لم يكن في موقع مسؤولية حقيقية. وهكذا التفت هذا الفتى العابث، وهو عضو في مجلس النبلاء، وتربطه صلة ودّية

بالعسكريين، إلى كوراهارا وقد أفصح أسلوبه عن تحدٍّ هادىء، وقال:

ـ لست أهتم بشكل خاص بكل هذا الحديث الذي يدور حول ما نفعله أياً كان، نحن في خطر، هذا وقت أزمة، وما إلى ذلك، فقد بدأ كل شيء في التحول إلى الأفضل. بالطبع، كان حادث الخامس عشر من أيار (مايو) حادثاً مأساوياً، ولكنه منح الحكومة القوة للتصرف على نحو حاسم لانتزاع اليابان من هذا التدهور. واعتقد، في التحليل النهائي للأمر، أنه سيؤدي إلى وضع اليابان على الطريق الصحيح. ولسوف يكون هذا الأمر هو الذي يحول حظنا من السوء إلى الانتعاش. وفي نهاية المطاف، ألا يتحرك التاريخ إلى الأمام على هذا النحو؟

رد كوراهارا متهجماً، وفي صوته بحة هادئة:

ـ لسوف نكون سعداء حقاً لو سارت الأمور على نحو ما تقول. وأنا، على سبيل المثال، لا أتوقّع مثل هذه التوقّعات. ما هي سياسة العودة إلى أوضاع ما قبل الانكماش هذه في نهاية المطاف؟ من الممكن وصفها بأنها تضخّم يتم التحكم به، والفكرة قوامها أنه على الرغم من أن وحش التضخّم الضاري يمضي مطلق السراح فإنه ما يزال بمقدورنا التنفس بسهولة، لأن هناك غلاً مثبتاً في عنقه، ولكن ذلك الغلّ لن يتماسك طويلاً، والأمر الحيوي هو ألا ندع الوحش يغادر قفصه، وبمقدوري أن أتصوّر كيف ستمضي الأمور ـ ننقذ المزارع، ونبقي على حياة العاطلين، وندخل العودة إلى أوضاع ما قبل الانكماش ـ وهي أمور تبدو كلها رائعة في البداية، وما من أحد يرغب في أن يردّد أنشودة مناقضة، ولكن سرعان ما تتحوّل العودة إلى أوضاع ما قبل الانكماش فتغدو تضخّماً يقوم على أساس الحاجة للإمدادات العسكرية. سينتزع الوحش الضاري الغلّ فيحطمه ويمضي هادراً، وما إن يبدأ انطلاقه حتى يعجز الجميع عن إيقافه، وعندما تستيقظ المؤسسة العسكرية نفسها على الخطر سيكون أوان الإمساك به من جديد قد فات. ومن هنا فإن السبيل المتّسم بالحكمة هو حبسه في قفص

من الاحتياطات الذهبية المتألقة، ذلك أنه لا شيء يفوق أماناً مثل ذلك القفص الذهبي، فهوايتميّز بمرونة صلبة، وإذا أصبح الوحش أكبر حجماً فإن المسافة بين القضبان تزداد اتساعاً، وإذا غدا أصغر حجماً فإن المسافة تصبح أضيق. وإذا أبقينا على احتياطياتنا النقدية في وضع مناسب فإننا نمنع تردّي معدل تبادل عملتنا، ونكتسب ثقة الأمم الأخرى. ذلك هو السبيل الوحيد المتاح أمام اليابان لتساير الأمور في العالم. وأما إذا تركتم الوحش الضاري يغادر قفصه كوسيلة من وسائل تحقيق الإنعاش، فلن تحققوا إلا نتائج عابرة للغاية، وستضربون بآمال اليابان في المدى البعيد عرض الحائط. غير أنه على الرغم من أن ما يتعين القيام به في ضوء هذا التطبيق للخطر الثاني لتصدير الذهب، هو تبني سياسة تقوية العملة بدعمها بالمسكوكات، بهدف العودة العاجلة إلى قاعدة الذهب، فإن حادث الخامس عشر من أيار (مايو) قد أثار ذعر الحكومة، وهي تندفع الآن في الاتجاه المضادّ، وهذا هو ما يدعوني إلى القلق.

قال النبيل رافضاً التراجع عن موقفه:

ـ هذا رأيي فحسب، ولكن إذا كانت معاناة المزارعين وسخط العمال سيتواصلان على نحو ما هما الآن، فإن الأمر لن يصبح شيئاً في اعتدال حادث الخامس عشر من أيار (مايو). فقد تندلع ثورة، وعندئذ سيكون وقت جميع العلاجات قد فات. هل رأيتم المزارعين الذين شقّوا طريقهم إلى الجلسة الخاصة التي عقدها البرلمان في حزيران (يونيو)؟ وهل تدركون مدى القوة المتجسدة في المجموعات التي قدمت الالتماس الذي تطالب فيه بقرار رسمي فوراً بتأجيل رفع الديون المستحقة على المزارعين؟ وفضلاً عن ذلك فإنهم حينما لم يحصلوا على ما أرادوه من البرلمان مضوا إلى الجيش، وكانت النتيجة صياغة التماس مشترك من المزارعين والعسكريين رفع تقرير عنه إلى العرش ذاته من قبل قائد أحد الأفواج.

ثم إنك قلت، يا سيدي، إن محاولة تحقيق الإنعاش من خلال العودة

إلى أوضاع ما قبل الانكماش لن تقدم إلا ميزة مؤقتة، ولكن إذا أصبح الاقتصاد متضخماً بالفعل فإن الطلب الداخلي الفعال سيزيد، ثم بانخفاض في معدل الفائدة سيكتب لصغار رجال الأعمال والصناعيين عمر جديد، وبفتح أبواب منشوريا ستمضي تنميتنا إلى القارة، ومع زيادة الانفاق العسكري سيتم تنشيط بناء الصناعة الثقيلة ومصانع الكيماويات، وسيرتفع سعر الأرز، وسيتم إنقاذ المجتمعات الريفية، وسيعود المزارعون الذين يفتقرون لفرص العمل إلى عملهم ـ وإجمالاً سيحدث حشد من التأثيرات الطيبة. ألا تعتقد ذلك؟ ألن يكون شيئاً طيباً، بالنسبة لنا، في غمار سعينا لتجنب خطر الحرب أن نرتقي بحركة تصنيعنا خطوة فأخرى؟ ولو أنني كنت بين يدي اقتراح الخطة التي أظن أنها المثلى فستكون تلك هي الخطة التي اقترحها.

قاله كوراهارا:

ـ الشباب متحمسون، ولكن الأكبر سناً منهم يجدون من المتعذر عليهم، بسبب المعرفة التي تلقنوها عبر الأعوام، أن يتوقعوا مثل هذه التوقّعات المتألّقة. إنني أسمعك تقول: «المزارعون، المزارعون». لكن تلك مجرد نزعة عاطفية، ولا أثر لها على المحنة التي تواجهها الأمة. وفي حين يتعيّن على كل مواطن أن يشدّ الحزام ويتحمل الصعاب فإن هذه الشكاوى التي تصدّع الوحدة الوطنية ـ «آه، يا لخسة الطبقات العليا! آه يا لخسة رجال المال!» ـ تصدر عن رجال لا يسعون إلا لصالحهم وحدهم.

ما عليك إلا التفكير في الأمر لحظة واحدة! لقد جعلتنا اضطرابات الأرز في عام ١٩١٨ ندرك أن «بلاد الأرز الوفير» قد يتهدّدها العوز. أما الآن مع العائد المتزايد من محاصيل تايوان وكوريا فهناك إمداد أكثر من كريم بالأرز على امتداد البلاد. أليس الأمر كذلك؟ ولما كان جميع مواطنينا، بخلاف المزارعين، قد استفادوا من الانخفاض الحاد في أسعار المحاصيل

الزراعية، وبالتالي لم يعودوا يشعرون بـالقلق حيال مـا يحتاجـونه من طعـام فإنه لم يحدث جيشان في الروح الثوريـة التي يغذيهـا الجناح اليسـاري، على الرغم من معدل البطالة العالي الذي جلبـه هذا الكسـاد القاسي. وأمـا فيما يتعلق بالمزارعين أنفسهم فإنهم ليسوا من النوع الـذي يصغي إلى مراهنـات الجناح اليساري، مهما كان عمق الخطر الذي يتهدّدهم من جراء الجوع.

دمدم النبيل قائلاً:

ـ ولكن ألا تبدأ الحوادث دوماً على يد العسكريـين؟ أليس الجيش جيشاً تفرّع من قرى المزارعين؟

على الرغم من أن طريقة حديث الشاب المفعمة بالتأكيد كـان حريـاً بها أن تبدو للناظـرين مفتقرة إلى حـد ما لقـوة الدفـاع، فإن كـوراهارا لم يكن بالرجل الذي يستدرج إلى رد فعل عاطفي. راحت كلماته التي كـان يسيطر عـلى ناصيتهـا دوماً، والتي تحتفظ بـالتـأثير ذاتـه دائمـاً، تنسـاب من شفتيـه وكـأنها الرايـات البيضاء المنطلقة من أفـواه القديسـين والخـطاة في الصـور الدينية التي تعود إلى القرون الوسطى. ولما كان يحتسي شراب المـانهاتن فقد أدى ريقه الذي يبلل شفتيه إلى تهدئة صوتـه الخشن، وإضفاء لمسـة عذوبـة عليه. وبدت ابتسـامة وكأنها على حافة الإشراق على ملامحه الجهمة، وعندما وضع ثمرة الكرز الحمراء بعصا التقاطهـا الصغيرة بـين شفتيه، لاح وكـأنه يبتلع معها مجموعة المخاوف التي كانت تقضّ مضجع المجتمع.

قال في ردّ رقيق:

ـ ولكن من ناحية أخرى ألا يطعم الجيش أبناء المزارعـين الفقراء الـذين يتميزون بالقدرة الجسدية؟ حينما أقارن محصول العام الماضي الذي يرقى إلى مستوى الكارثة، بالمحصول الذي يشكل أرقاماً قياسية للعامـين الماضيـين، لا أملك إلا التشكّـك في وجود لمسـة تخريب من جـانب أولئـك المـزارعـين الذين يعارضون بشدة استخدام الأرز المزروع في الخارج.

تساءل النبيل الرقيق الوجنتين:

ـ لئن قاموا بأي شيء من هذا القبيل أفلا يعرّضون أنفسهم لخطر الموت جوعاً؟

قال كوراهارا دون أن يجيب على السؤال المطروح عليه:

ـ طيب، على أية حال، مع أن المرء قد يحلّل الموقف الراهن، فقد كنت أتحدث وعيني على المستقبل. مواطنو اليابان ـ أي نوع من الناس هم؟ أتصور أنه في ضوء هوية من ستوجه إليه هذا السؤال ستتلقى جميع أنواع التعريفات. ولكن فيما يتعلق بي سأردّ بأن مواطني اليابان يشكلون جنساً يعجز عن رؤية مخاطر التضخم الرهيبة، جنس من البشر يفتقر، حينما يضرب التضخم ضربته حتى إلى حكمة تحويل نقوده إلى ممتلكات لحماية نفسه. وينبغي علينا ألا ننسى أبداً للحظة واحدة أن هؤلاء الناس الذين نتعامل معهم هم مواطنون سذج وجهلة وعاطفيون وانفعاليون. ثمة جمال معين في أمة تفتقر حتى لحكمة حماية نفسها. بل هو حقاً جمال لا سبيل إلى إنكاره. ولأنني أحب شعب اليابان فإنني لا أستطيع الامتناع عن كراهية أولئك الذين سيستغلون هذا الجهل الجميل ليحظوا بتعاطف جماهيري.

ولم يقدر للإجراءات الاقتصادية التقشفية أن تحظى بالشعبية قط، ومن المؤكد أن أية سياسة حكومية تعانق التضخم ستلقى تحبيذاً من الناس. غير أننا، من جانبنا، نحن الذين نعرف ما هي السعادة المطلقة لهذا الجنس من البشر الذي ننتمي إليه، علينا أن نكافح واضعين هذا موضع الاعتبار، حتى ولو سقط عدد معين من الناس، على نحو لا سبيل إلى تجنّبه، ضحايا.

تساءل النبيل الشاب بصورة عدوانية:

ـ تقول السعادة المطلقة للناس، ما هي تلك السعادة؟

ـ ألا تعرف؟

هكذا تساءل كوراهارا معذِّباً، ومحولاً رأسه جانباً، فيما كانت ابتسامة

تضيء ملامحه، فحذا حذوه مستمعوه الذين أصغوا إليه، وقد وقعوا تحت تأثير سحره، على الرغم منهم. بدت جذوع أشجار البتولا البيضاء قلقة في الغسق الضارب أطنابه، كأنها مقدمات السيقان الشاحبة لصف من الصبية. كان غبش المساء شبكة صيد هائلة ألقيت على المرجة. في تلك اللحظة واجه كل الحاضرين الشبح المتألق للسعادة المطلقة كأنهم رجال يوشكون على أن يتلقوا إلهاماً. وعندما تحدث كوراهارا بدا الأمر كما لو أنه أمام أعينهم قفزت سمكة عملاقة بقوة من شبكة المساء المطبقة، وحراشيفها الذهبية تتألق.

ـ لست تعرف، إهه؟ طيب... تصادف أنها العملة الثابتة.

بلغ الذهول من الحاضرين الحد الذي وقفوا معه صامتين، فيما رعشات خوف مجهول تسري في أقفيتهم. لم يلق كوراهارا بالاً إلى رد الفعل الذي أثاره. وشأن طبقة ورنيش خفيفة بدا أن طلاء خفيفاً من الحزن ينتشر تدريجياً ليطغى على التعبير المتعاطف المرتسم على ملامحه.

ـ ثمة أمر غريب فيما يتعلق بالأسرار، فللسبب ذاته الذي يجعل من أمور معينة أشياء بسيطة ومعروفة للغاية تغدو هذه الأمور أسراراً. أياً ما كان الوضع فإن أولئك الذين يعرفون من بيننا هذا السرّ قد وضعوا على كاهلنا مسؤولية ثقيلة حقاً.

وعلى الرغم من أننا نقود هذا الشعب الجاهل، السادر في جهله، خطوة فأخرى على الدرب الذي يفضي إلى السعادة المطلقة فإنه فقد شجاعته بسبب وضاعته، وأبناؤه يصغون بآذان مرهفة للشر الذي يهمس: «هلموا، انظروا إلى أي مدى هذا الطريق أكثر سهولة»، وعندما ينظرون، ويرون كم هو مبهج ذلك الطريق الآخر، إذ يحفل بالزهور اليانعة على امتداده، يندفعون فيه، وينتهي بهم الحال إلى التردي في هاوية الدمار.

ولما لم يكن الاقتصاد مشروعاً خيرياً فإنه يتعين على المرء أن يرى مسبقاً

أن عشرة في المائة سيصبحون ضحايا، بينما سيتم إنقاذ التسعين في المائة الأخرين. ولكن إذا لم نتدخل على الإطلاق فإن المائة في المائة سيمضون سعداء إلى حتفهم.

رد النبيل الشاب:

- أفترض، إذن، أن العشرة في المائة، وهم المزارعون، عليهم أن يوطدوا أنفسهم على الموت جوعاً.

كان النبيل الشاب من الاندفاع بحيث تحدث عن الموت جوعاً، ومثل هذا الاختيار للكلمات أمام مثل هذا الجمع لم يكن من المحتمل أن يكون له الأثر الذي أراده. فبعض الكلمات تبدو جوفاء ولكنها أخلاقية على نحو حافل بالنذر. وحتى دون صفة تلحق بها فإنها تتضمن عنصراً فطرياً من عناصر المبالغة. ومن وجهة نظر الذوق فإنها تترك الكثير مما يتطلع إليه، حيث أنها متجاوزة بأكثر مما ينبغي، وتحمل بطبيعتها جرس النزوع إلى التطرف. أحس النبيل الشاب بالحرج، كما هو حريّ به، لافتقاره إلى اللباقة على مثل هذا النحو.

فيما كان كوراهارا سادراً في حديثه على نحو بليغ أقبل النادل الفرنسي ليهمس في أذن الشريفة بأن العشاء جاهز للتقديم، ولكنها لم يكن أمامها إلا الانتظار ريثما تنحسر حماسة كوراهارا لحديثه. وعندما تمكنت من التدخل أخيراً نهض كوراهارا من مقعده، وهنالك على المقعد، واضحة للعيان رغم الظلام المتكاثف، كانت علبة سجائر فضية مفتوحة لتكشف محتوياتها التي تناثرت كصف من الأسنان البيضاء، غير أنها سحقت تماماً تحت ثقل كوراهارا.

- آه، لا، ليس مرة أخرى!

صاحت زوجته بهذه الكلمات عندما رأتها، فضحك الجميع من قلوبهم على نحو ما يفعلون دائماً حيال خاصيات كوراهارا المميزة.

قالت السيدة كوراهارا وهي تلتقط السجائر المسحوقة:

ـ حقاً، كيف استطعت إتيان ذلك!

ـ لقد عانيت قبلاً من انفتاحها بهذه السهولة

ـ ولكن، يا إلهي! ألم تستطع الشعور بها وهي تحتك؟

قالت الشريفة شينكاوا مداعبة، وهي تشق طريقها عبر بقع الضوء المتسربة إلى المرجة من النوافذ:

ـ هذا هو الشيء الذي يمكن للسيد كوراهارا وحده أن يفوز بالجائزة فيه، فيما أعتقد.

قالت السيدة كوراهارا:

ـ ما زلت بعيدة عن فهم الأمر. لا بد أنها قد آذتك وهي مفتوحة على ذلك النحو.

ـ لقد حسبتها جزءاً من مقعد الأسل الهندي فحسب.

قالت الشريفة مفجرة المزيد من ضحك ضيوفها:

ـ نعم، نعم، ذلك صحيح فمقاعدنا من الأسل الهندي تسبب بعض الألم.

قال الشريف شينكاوا بطريقته الشاردة، كعهده دائماً:

ـ ورغم ذلك فإنها أفضل كثيراً من المقاعد الموجودة في دار السينما تلك.

وكان الشريف يشير بذلك إلى دار السينما العتيقة في كاريوزاوا، وكانت أصلاً إسطبلاً أعيد استخدامه كدار للسينما.

لم يكن للأمير ماتسوجاي مكان في مثل هذا الحوار. وعندما اتخذ مجلسه على مائدة العشاء ألفت زوجة وزير الدولة التي جلست إلى جانبه نفسها مفتقرة إلى موضوع مناسب للحديث.

بادرت بقولها:

ـ هل تحدثت مؤخراً مع الأمير يوسيتشيكا توكوجاوا؟

فكر الأمير لحظة. بدا أنه لم يتحدث مع توكوجاوا منذ وقت طويل للغاية، ثم بدا مجدداً أنه قد تحدث معه قبل يومين أو ثلاثة فحسب. وعلى أية حال فإن الأمير توكوجاوا لم يناقش مع الأمير ماتسوجاي، في أي وقت، أي شيء له أهميته، فحينما يلتقيان، سواء في بهو مجلس النبلاء أو في نادي النبلاء، لا يتبادلان قط ما يزيد عن بضع كلمات عن المصارعة.

رد الأمير ماتسوجاي:

- طيب، لم أره كثيراً في الفترة الأخيرة.

قالت السيدة:

- لقد نشط بشكل بالغ مؤخراً في دوائر المحاربين القدامى، وعمل على ضمّ جماعات مثل «جمعية الضياء الأخلاقي». إنه مغرم بهذا النوع من النشاط.

وافق السيد الجالس عبر المائدة بقوله:

- نعم، يبدو أنه يبتهج كثيراً من جراء ترك الساخطين اليمينيين يستخدمونه كشخصية بارزة في صفوفهم، وشيئاً فشيئاً سيتحول هذا اللعب بالنار إلى أمر خطير.

- إذا كان على الرجل اللعب بالنار فالنساء هن المفضلات، فيما أحسب.

قالتها الشريفة شينكاوا بصوت بدا أنه من الارتفاع بحيث يفصل بتلات الزهور التي تجمل المائدة بعضها عن بعض. وعندما تحدثت عن اللعب بالنار، دون أي أثر للشعور بالتعريض، بدا للتوّ جلياً أنها امرأة غير قادرة على إساءة السلوك.

عندما قدم الحساء تحوّل الحديث إلى نوعية الموضوعات التي اعتادت الطبقات العليا بصورة أكبر تناولها. وثارت مناقشة في نوعية الأزياء التي تناسب المشاركة، دون أن يتعرف أحد على صاحب الزي، في مهرجان النار الذي يقيمه القرويون في ذلك العام. وفي كاريوزاوا كان مهرجان النار

يتمّ الاحتفال به في شهر أغسطس بحسب التقويم العتيق. عادت إلى ذاكرة الأمير ماتسوجاي مهرجانات النار في دارته بطوكيو عندما كانت قناديل جيفو تتدلى من طنف قاعة الاستقبال، ثم تذكر كيف أن شيئاً ما قد أثار ضيق أمّه حتى لحظة وفاتها فقد كانت اشترت ضيعة ماتسوجاي في شيبويا المؤلفة من مائة واثني عشر هكتاراً، لقاء ثلاثة آلاف ين حصلت عليها من بيع الماشية. وفي منتصف عهد تايشو، في حوالي عام ١٩٢٠، باعت خمسة وسبعين هكتاراً منها بخمسة ملايين ين، ولكن المشترية، وهي شركة هاكويني ريالتي، تأخرت إلى أقصى الحدود في دفع المال المستحق عليها، وهو سبب لحزن ظل ملازماً لأمه حتى لفظت نفسها الأخير.

ـ هل دفعوا ما عليهم؟ هل تلقينا المال؟

هكذا راحت تتساءل مراراً وتكراراً خلال مرضها الأخير، فما كان من أولئك الذين يحيطون بها، في غمار رغبتهم في وضع حد لهذا الإظهار المسيء لها للاهتمام بالمال، إلا أن أبلغوها بأن المال قد دفع حقاً. لكن المرأة الراقدة على فراش موتها ما كانت لتُخْدَع.

قالت:

ـ لا فائدة ترجى من الكذب، لو أن كل ذلك المال جاء يسعى على قدميه للدار لقرقعت الأرض ومضت تئن تحت قدميه. لم أسمع أي شيء من هذا القبيل. أليس كذلك؟ أريد أن أسمع وقع قدميه لكي أموت بسلام.

بعد موت أمه، ومع مرور الوقت، وإثر تقلبات عديدة، دفع المبلغ بالكامل. غير أنه في عام ١٩٢٧، وفي بداية عهد شوا خسر الأمير أكثر من نصف هذا المبلغ في تعثر المصرف الوطني الخامس عشر. وإذ شعر يامادا مدير المصرف بثقل المسؤولية القاصم فقد أقدم على شنق نفسه.

ولأن أمه لم تنبس ببنت شفة عن كيواكي، وإنما تحدثت عن المال وحده،

فقد سلب موتها، من وجهة نظره، كل ما هو غنائي وشامخ. وما كان بمقدوره، في أعماق قلبه، أن يتجنب النذير الموحي بأنه لن يكون هناك وهج نبيل يتألق ليضيء اضمحلاله وموته.

لما كانت دار آل شينكاوا تدار على الطريقة الإنجليزية فقد مكث الرجال في غرفة المائدة بعد العشاء ليقدم لهم السيجار، بينما انصرفت السيدات إلى قاعة الاستقبال، وفضلاً عن هذا فإنه وفقاً للعرف الفيكتوري لم يلحق الرجال بالسيدات إلا بعد أن استمتعوا بمشروبات ما بعد العشاء حتى الامتلاء. وقد كان هذا مصدراً لضيق حاد حلّ بالشريفة شينكاوا، ولكن بما أنه كان عادة إنجليزية فقد تقبلته باعتباره شيئاً لا سبيل إلى تعديله على الإطلاق.

كان المطر قد بدأ يهمي في منتصف الوقت المخصص لطعام العشاء، ولما كان المساء قد غدا أكثر برودة من المألوف فقد بادر الخدم إلى إضرام النار في كتل بيضاء من شجر التنوب في المدفأة، ومن ثم لم يعد الأمير بحاجة إلى دثاره، وخفضت الإضاءة في القاعة، واسترخى الرجال حول المدفأة.

بدأ وزير الدولة الحديث مخاطباً كوراهارا، وعائداً إلى موضوع لا يميل الأمير إلى الخوض فيه:

ـ فيما يتعلق بما كنت تقوله من قبل، أتمنى أن أراك تقدم إيضاحاً مفصّلاً على هذا النحو لرئيس الوزراء. فعلى الرغم من أنه يود البقاء بعيداً عن مستوى مثل هذه الأمور إلا أنه لا يملك إلا أن يجد نفسه تحت ضغط فيض من الأحداث.

رد كوراها:

ـ الإيضاحات التفصيلية هي موطن قوتي، ولم أوفر على رئيس الوزراء عناء الاستماع لها. لا بد أني كنت مصدر ضيق له.

أجاب وزير الدولة:

ـ لكنك لا تخاطر فحسب بأن تغدو مصدر ضيق لرئيس الوزراء، فقد كان هناك شيء اضطررت إلى الإحجام عن قوله من قبل حرصاً على أعصاب السيدات، ولكنني أود حقاً، يا كوراهارا، أن أراك تبدي الاهتمام المناسب بأمنك وسلامتك. فبما أنك أحد أعمدة اقتصادنا فسيغدو من قبيل الكارثة أن تمضي على الدرب الذي سار عليه إينوي ودان. وأياً كان مقدار حرصك فليس هناك احتمال لأن تكون مبالغاً في الاهتمام بنفسك.

رد كوراهارا، بصوته الخشن، ودون أن تنم ملامحه عن شيء، وحتى إن كانت موجة حزن قد اكتسحت محياه، فإن ألسنة اللهب القلقة التي ألقت بظلالها على وجنتيه اللحيمتين كانت ستخفيها:

ـ بما أنك كنت من رقة الحاشية بحيث تخبرني بهذا فإنني أفترض أنك ملم بالظروف الحقيقية، إذ تنهال على داري جميع البيانات من القتلة المحتملين، وتبدي الشرطة الكثير من الاهتمام. غير أنني بعد أن عشت طويلاً بهذا القدر لا أشعر بأدنى قلق على سلامتي الشخصية، والمخاوف التي تساورني لا تدور حولي، وإنما حول مستقبل أمتنا، وإني لأسعد أعظم السعادة، كالطفل تماماً بالتسلل بعيداً عن حراسي والقيام بما يطيب لي. وهناك من يساورهم خوف بالغ بحيث يدعونني إلى فرض إجراءات مضجّرة على نفسي، وهناك من يحدثني بضرورة استخدام أموالي لحماية نفسي، عارضين عليّ أن يكونوا وسطاء في هذا الصدد. ولكني لا أميل إلى القيام بأي شيء من هذا النوع، وفي هذا الوقت المتأخر من العمر لست أعتزم البدء بشراء الحياة.

كان طرح كوراهارا متميّزاً بالقوة البالغة، بحيث ساور رفاقه القلق والضيق، ولكنه لم يكن بالرجل الذي يلحظ سريعاً ردود الأفعال هذه.

مضى النبيل ماتسودايرا يدفىء يديه البيضاوين الناعمتين فوق النار. كانتا قد تحولتا إلى لون أحمر وردي رقيق ابتداء من أظافره التي أجيد تقليمها.

ومحدقاً بثبات في رماد السيجار الذي أمسكه بين أصبعيه، شرع يسرد قصة كان مقصدها الجلي هو إثارة الاستياء.

ـ سمعت بهذا الأمر من شخص كان قائد سرية في منشوريا. وقد طفر من نفسه إلى ذاكرتي لأنني لم أسمع قط بقصة مأساوية إلى هذا الحد. ذات يوم تلقّى هذا الضابط رسالة من والد جندي في سريته قادم من مقاطعة ريفية فقيرة. كتب الوالد يقول إن الفقر قد سحق العائلة سحقاً، وإن الجوع أذاقها الأهوال، وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك سبيل أمامه ليستميح ابنه المخلص عذراً حيال ما يتمناه إلا أنه كان رغم ذلك يأمل في موت ذلك الابن في ميدان القتال بأسرع ما يمكن، لأنه من دون المعاش الذي سيتلقونه عقب موته، ما كان لهم من سبيل آخر لمواصلة البقاء على قيد الحياة. وكما هو متوقع فإن قائد السرية لم يجرؤ على إطلاع الإبن على هذه الرسالة، وإنما حجبها عنه، وبعد ذلك بوقت قصير لقي ذلك الابن، كما حدثني الضابط، مصرعه في ميتة بطولية على أرض المعركة.

تساءل كوراهارا:

ـ أحدث ذلك حقاً؟

ـ لقد سمعت بالقصة من قائد السرية نفسه.

ـ حقاً!

تناثر النسغ الخارج من كتل الخشب في ألسنة لهيب المدفأ مقرقعاً في الصمت الذي أعقب استجابة كوراهارا حيال القصة. وبعد لحظات قلائل أخرج كوراهارا منديله وجذب صوت تمخطه انتباه الآخرين، فرأوا العديد من قطرات الدمع المتألقة في الضوء المنبعث من المدفأة، وهي تنهمر على وجنتي كوراهارا اللحيمتين المغضنتين.

تركت هذه الدموع المحيرة تأثيراً عاطفياً قوياً في نفوس الحاضرين جميعاً. وكان النبيل ماتسودايرا أكثر الرجال اندهاشاً لرؤيتها، ولكنه اكتفى

بتهنئة نفسه على قدرته على رواية القصة. غير أن دموع كـوراهارا اجتـذبت المزيد من الدموع من الأمير ماتسوجاي. وكـون رجل عـلى مثل هـذا القدر من البعد عن النزعة العاطفيـة يبكي تعاطفـاً مع شخص آخـر هو أمـر ربما يمكن تفسيره فحسب من خلال استنتـاج أن شخصيته المصـوغة عـلى نحـو متمحـور حول الـذات قد عجـزت عن التماسـك أمام الإيغـال في العمـر. ولكن فيما يتعلق بدموع كوراهارا التي ستظل أقرب إلى نوع من الأحجية في مواجهة كل التفسيرات، فإن الشريف شينكاوا وحده هو الذي كان بمقدوره النظر إليها من منـظور دقيق. فبما أن قلب الشريف كـان متحجراً فـإنه مـا كان ليتعرض للمخاطر في أي موقف. غير أن الدموع كانت شيئاً خـطيراً، ما لم يُفْتَرَضْ أنها قد نبعت بالضرورة من مقدم الشيخوخة.

من هنا فقد تأثر الشريف، إلى حد ما، وأخذ على حـين غرة؛ وكنتيجـة لهـذا فإنـه رغم اعتياده التخلص من السيجـار، بعد تـدخين نصفـه، أهمل إلقاء السيجار الذي كان يمسكه، إلى النار.

- ١٦ -

عقد إيساو العزم على أنه لدى لقائه بالأمير تووين سيجلب معه كتاب «عصبة الريح الإلهية» بدلاً من أن يعبر عما يجيش بداخله من خلال الحديث الشخصي. ولما لم يكن هناك مجال لإعارة هذا الكتاب فقط للأمير فإنه سيبتاع نسخة جديدة ليهديها له. وللمرة الأولى وجد أن لمواهب أمه بعض الفوائد، فقد طلب منها أن تصنع غلافاً مقصباً للنسخة التي سيهديها للأمير، مع اختيار زخارف وفورة بقدر الإمكان. وقد عكفت على العمل بإبرتها بحماس بالغ.

غير أن الأمر بلغ مسامع أبيه فاستدعى إينوما ولده وأبلغه بأن عليه ألا يرى الأمير.

تساءل إيساو، وقد أخذ على غرة:

- ولكن لِمَ؟

- لأنني قلت ذلك، وما من حاجة تدعو إلى التفسير.

لم يكن هناك سبيل أمام ابن إينوما لمعرفة مدى تشابك خيوط عواطف أبيه، وإلى أي عالم عميق وغامض تفضي. والأبعد من ذلك احتمالاً أن يعرف الدور الذي قام به الأمير تووين في الأحداث التي أدت إلى موت كيواكي.

لما كان إينوما يدرك أنه من المستحيل إيضاح السر في غضبه فقد تفاقم شعوره بعدم الارتياح حيال هذا الغضب. وعلى الرغم من أنه يدرك تمام الإدراك أن دور الأمير في هذه المسألة كان دور الطرف الجريح فإنه إذ يتتبع مسار الأحداث عائداً في الأسباب البعيدة لموت كيواكي يجد نفسه دوماً وقد

اعتراه الضيق حيال صورة رجل لم يقدر له الالتقاء به قط، هو الأمير توين. لو أن الأمير لم يكن له وجود، لـو أنه لم يكن حـاضراً في ذلك الـزمان وذاك المكان المحددين... هكذا كانت شكوى إينوما تتجه دائماً إلى هذه الخـاتمة نفسها. والحقيقة هي أنه لو لم يوجد الأمـير توين لكـان من المحتمل، عـلى أغلب الظن، أن افتقار كيواكي لصدق العزم سيمنعه من الظفر بساتوكـو، حتى ولو لبعض الوقت. ولكن لما كان إينوما لا يدري إلا القليل من دخائل الأمور فقد مال إلى تركيز حنقه بعناد على شخص الأمير.

وقد تواصل عذاب إينوما النابع من التضـارب الذي استمـر طويـلاً بين معتقداته السياسية والانفعالات المتلاطمة التي كانت مصـدراً لها، ذلـك أن الولاء العاطفي المتّقد الذي تشكـل في أعماق إينـوما في يفـاعته ـ وهـو ولاء امتزج به، في بعض الأحيـان، الحنق والازدراء، وفي أحيان أخـرى تدافـع مثـل شـلال، وفي أحيـان ثـالثـة انفجـر كـبركـان ـ هـذا الـولاء الـذي كـان جزءاً لا يتجزأ منه، كان ولاء ينصرف كليةً إلى كيواكي. ولتحديده بشكـل أكثر دقة قد يذهب المـرء إلى القول بـأنه ولاء مكـرس لجمال كيـواكي. كان ولاء يوشك أن ينحرف إلى الخيانة، ولاء يختنق دائماً بحنق مظلم، ولذلك السبب عينه كان عاطفة لا يستطيع المرء أن يطلق عليها اسماً آخر.

كان يدعوه ولاء. طيب. ومع ذلك فقد كان شيئاً آخر تماماً، غير كـونه مكرساً لمثال أعلى. لقد كافح ضد الإغواء الجميل عـلى نحو يستعصي عـلى الإيضاح الذي كان يستدرجه بعيداً عن نزعته المثـالية. كـان حريصـاً أشد الحرص على أن يوائم مـا بين المثـالية والجـمال، وكلاهمـا يحكم قبضته عـلى فؤاده. وفضلاً عن ذلك فقـد كانت عـاطفته تتـدفق من نوعٍ من الاحتيـاج القوي للمواءمـة بين هـذين العنصرين. كان ولاؤه ولاءً يتسم، منـذ لحظة انطلاقه، بـطابع الإخـلاص المترع بـالوحـدة، لا يخالـطه شيء آخر. كـان عاطفه كتبت في لوح قدره، منذ يفاعته، خنجراً دفع بمقبضـه في قبضته.

شغف إينوما في إلقائه الدروس باستخدام تعبير «حب الإمبراطور»، وعندما كانت تنطق شفتاه بهاتين الكلمتين كان يحس بقوة فياضة تنبعث منه وتجعل طلابه يرتعدون من فرط الانفعال، وتتألق أعينهم بالبريق. ومن الجلي أن مصدر هذا الإلهام قد تمثل في تجربةٍ ما من تجارب يفاعته. وإلا فمن أي مصدر جاء؟

لما لم يكن إينوما يتمتع إلا بقدر محدود من الوعي الذاتي، فقد كان بمقدوره نسيان كل ما يتعلق بالمصدر البعيد لعواطفه. ومتجاوزاً الزمن كيفما حلا له، قام بتوجيه النيران القابعة في أعماقه حيثما شاء، مضرماً الحرائق أينما طاب له، تاركاً نفسه تقبع في ألسنة اللهب، متيحاً لها المجال لتذوق النشوة الحارقة، دون أن يعاني من ألم يذكر في غمار هذا كله. ومع ذلك، فلو أنه كان أكثر صدقاً مع نفسه للاحظ دونما شك أنه قد استخدم عدداً كبيراً من الصور المجازية المتعلقة بالعاطفة، ولرأى بغير شك في نفسه شخصاً ظلّ حياً خلال القصيدة الأصلية، ولكنه الآن لا يستخدم إلا مجرد أصدائها، مطبقاً باستمرار صور القمر والثلج والبراعم التي بعد بها العهد، على مشاهد لا تفتأ تتغير مع كل عام يمر. وباختصار فإن ما لم يدركه هو أن بلاغته قد غدت جوفاء.

وهكذا فإنه فيما يتعلق بإجلال العائلة الإمبراطورية، حدَّث نفسه بأنه هو، إينوما، كان ينبغي أن يكون على تمام الاستعداد لأن يقتل بالسيف في موضعه أي شخص يلقي ظلاً من ظلال الشكّ على هذه الفضيلة، وسقط ظل بارد مثل صورة متماوجة، لكنها مستمرة، للمطر وهو يهطل على سقف زجاجي، على شعوره بالإجلال - اسم الأمير توين.

- من الذي كان سيصحبك لرؤية توين؟

- ليس بمقدوري الردّ على هذا السؤال.

- ولم لا تستطيع الردّ عليه؟

لزم الفتى الصمت من جديد فاشتعل حنق إينوما. أن يقول «لا تقابل

الأمير توين» كان بالنسبة له أمراً صادراً من أب لابنه. لم تكن هناك حاجة إلى إيضاح. ولكن من منظور إينوما كان قيام إيساو بحجب اسم وسيطه يعادل تمرده على أبيه. وحقيقة الأمر هي أن إينوما، باعتباره والد إيساو، كان ينبغي عليه أن يتمكن من إيضاح أساس رفضه للأمير لكي يتمكن ابنه، عن طواعية، من تفهُّم الأمر. كان يتعيَّن عليه أن يتمكن من القول إن إيساو لا ينبغي أن يقابل الأمير لأنه كان متورطاً في الظروف التي قادت السيد الشاب الذي كان إينوما يخدمه، إلى حتفه. غير أن الخجل وقف كحجر متّقد لفرط الحرارة في حلق إينوما، ومنع كل إيضاح ممكن.

بالنسبة لإيساو كانت معارضة إرادة أبيه على هذا النحو أمراً غير مألوف قطّ. فقد كان في حضور أبيه يتحلى على الدوام بالتوقير ويلزم الصمت. وللمرة الأولى أدرك إينوما أن في أعماق ابنه بؤرة جوهرية تستعصي على الاختراق. والآن استشعر، هو الذي فشل في محاولة تشكيل كيواكي في زمان آخر، وفي ظروف مختلفة تماماً، نفس الإحباط الذي يمزّق الأعصاب مع إيساو، ولم يستطع كبح جماح اندفاعة غضب مفاجئة.

فيما جلس الأب والابن على هذا النحو، يواجه أحدهما الآخر، تألق ضوء الشمس الغاربة متوهجاً غبّ مطر خفيف صاحَبَ مقدم المساء، ومنعكساً على البريكات التي خلفها المطر في أرجاء الحديقة خارج الغرفة. والتمعت خضرة وريقات الشجر، كأنما الأشجار والشجيرات تنمو في «الأرض النقية»[1]. وانساب النسيم ناعماً منعشاً وهو يمس وجهيهما. كان غضب إيساو شديد الجلاء كأنه شيء قابع في قاع غدير صافٍ. وقد

---

(١) الأرض النقية: أو الأرض السعيدة، هي بالسنسكريتية «سوخاڤاتي»، وبالصينية «تشينج تو»، وباليابانية «جودو»، ويقال لها كذلك «جنة الغرب» وهي أرض مثالية لا وجود للشر فيها، يحيا الناس عليها طويلاً ويتلقون ما يرغبون فيه، وهي مرحلة قد يرقون منها إلى النرڤانا. (هـ. م.)

استشعر وجوده كأنه حجر بمقدوره أن يضعه على لوح الإلقاء من السفينة متى شاء. ولكن الانفعالات التي راحت تعصف بأعماق إينوما كانت كعهدها غامضة بالنسبة لإيساو، لا يملك لها فهماً. وواصلت الجنادب صريرها الحادّ.

استقرت على المائدة نسخة كتاب «عصبة الريح الإلهية» في غلافها المقصّب القاتم الجامع بين اللونين البني والأخضر. التقطها إيساو فجأة وهبّ واقفاً، معتزماً مغادرة الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة. لكن أباه كان أسرع منه فانتزع الكتاب من ابنه وهبّ واقفاً بدوره.

للحظة واحدة التقت عيونهما. أدرك إيساو أن عيني أبيه تفصحان عن جبن بالغ، وأنه ما من شجاعة تتألّق فيهما. ولكن في هاتين العينين، ومثلما حوافر جياد بعيدة تنهب الأرض في دنوها، كان الغضب ينبعث متصاعداً من أغوار فؤاده.

ـ ألك لسان في رأسك أم لا؟

ألقى إينوما بالكتاب إلى الحديقة. انشق السطح البرتقالي المتألق لإحدى البريكات، فيما كان الكتاب الذي أعدّ ليكون هدية الأمير يغوص فيها ويستقرّ. في اللحظة التي رأى فيها إيساو الماء الموحل يطبق على الشيء الذي تعامل معه بمثل هذا التقديس، أحس بصدمة قوامها الغضب، وكأنما انفجر جدار أمام عينيه فجأة، فأطبق قبضتيه دونما وعي منه. ارتجف أبوه غضباً وصفعه على وجهه.

أقبلت أم إيساو إلى الغرفة على دوي الصفعة. بدا قواما الرجلين الواقفين هنالك عملاقين. في اللحظة التالية لاحظت اضطراب كيمونو زوجها، بينما بدا كيمونو ابنها الذي تعرّض للصفع لتوه مهندماً. نظرت فيما وراءهما إلى الحديقة المتألقة في سنى الشمس الغاربة، وتذكرت انفعال زوجها العنيف في المرة التي ضربها فيها حتى شارفت على الهلاك.

انـزلقت مايني عـلى الأرضية المكسـوة بحصر التاتـامي، ووضعت نفسها بينهما وصاحت:

ـ إيسـاو! ما الـذي تفعله؟ اعتذر لأبيـك! كيف تجـرؤ عـلى النـظر إليـه هكذا؟ انْحَنِ أمامه واعتذر له توّاً!

ـ أنظري إلى ذلك!

قـالها إيسـاو دون أن يبدي اكـتراثاً بـالصفعة التي تلقـاهـا عـلى صفحـة وجهـه. انحنى على ركبـة واحدة وجـذب ردن رداء أمه مـوجّهاً نـظرتها إلى الحديقة. سمعت مايني فوق رأسها زوجها وهو يلهث كالكلب. بـدا داخل الدار معتماً للغاية بالمقارنة بالحديقة المتألقة بالسنى. ساور مـايني شعور بـأن شيئاً ما يطفو في تلك الظلمة، مالئاً إياها ـ شيء مخيف للغـاية، حتى إنها لم يعد بمقدورها إبقاء عينيها المتطلعتين إلى أعلى مفتوحتين. كانت تفكر، فيـما يشبـه الحلم، في ذلـك الـوقت الـذي بعــد بـه العهــد في مكتبـة الأمــير ماتسوجاي. ورغم ذلك مضـت تقول وكأنها في غيبوبة:

ـ اعتذر! اعتذر في الحال!

فتحت عينيها على مهل. كان الشيء الذي تجلّى أمامها مكسـواً بالقـماش المقصّب الذي يجمع بين اللونين البني والأخضر، وقـد غاص حتى منتصفـه في بريكة من ماء المطر. فـذهلت وأثر فيهـا القماش المقصّب الـذي تألّق في سنى الشمس الغاربة من وسط الماء الموحل تأثيراً بالغـاً، حتى لقد سـاورها شعور بأنها هي التي تتلقّى العقاب. أما فيما يتعلق بنوعية هذا الكتـاب فلم يخـطر أدنى خاطـر على ذهن مـايني عن أي كتاب هـو ذاك الذي استقـرّ في الوحل.

كـان الأمـير قـد أبلغ المـلازم هـوري بـأنـه سيستقبلهما مسـاء الأحـد، واصطحب الملازم معـه إيساو لتحيـة الأمير في مسكن آل تـوينومـايا بمنـطقة شيبا. وكانت سلسلة من الأحداث الأليمة قد حلّت بساحـة عائلة الأمير.

فبعد وفاة أخيه الأكبر الذي لم يحظ بصحة طيبة قط، لحق به خلال فترة قصيرة أبوه وأمه. وهكذا أصبح الأمير هارونوري القوي هو الوارث الوحيد لآل توينومايا. ولدى مضيه إلى عمله بعيداً كان مقر العائلة يضمّ زوجته وأطفاله وحدهم. ولما كانت زوجته سيدة من النوع الذي يميل ميلاً شديداً إلى الهدوء، وكانت تنحدر من عائلة تنتمي إلى نبلاء البلاط، فقد ساد سكون موحش، كما هو متوقع، أرجاء الدار معظم الوقت.

واجه إيساو صعوبة شديدة في الحصول على نسخة ثالثة من «عصبة الريح الإلهية»، ولكنه وجد أخيراً نسخة في مكتبة لبيع الكتب القديمة، وقد تأبطها وهو منطلق في زي كوكورا الصيفي الرسمي إلى جوار الملازم هوري. وقد حرص على الأقل على تغليفها بورق جيد، وعلى أن يكتب بالحبر الكلمات الخاصة بالإهداء. وفي مغادرته الدار هذا المساء، لجأ إلى الحيلة في مواجهة أبيه، للمرة الأولى.

لاحت بوابة دارة توينومايا الهائلة موصدة، ولم يبد أمامها إلا ضوء خافت فحسب. لم يكن هناك ما يشير إلى أن رب الدار موجود فيها. كان هناك باب صغير مفتوح إلى جوار البوابة، وتألق ضوء خافت ملتمعاً على الحصى. وعندما اجتاز الملازم هذا الباب قرقع غمد سيفه خلال احتكاكه احتكاكاً خفيفاً بالإطار الخشبي.

وعلى الرغم من أن الحارس كان قد تم إبلاغه مسبقاً بمقدمهما فقد حرص على إبلاغ الدار بوصولهما، عن طريق هاتف داخلي. وفي غضون الانتظار لاحظ إيساو مدى قدرته على سماع أصوات أجنحة الفراشات والخنافس الصغيرة، وغيرها من الحشرات التي راحت ترف حول المصباح المتدلي من طنف موقع الحارس العجوز، فأدرك الصمت العميق الذي يلف الأشجار المحيطة بالدار والطريق المنحدر المكسوّ بالحصى وقد تألّق بياضه تحت ضوء القمر.

بعد لحظات قصار انطلقا صعداً عبر الطريق المكسوّ بالحصى وتردّد صدى الصوت الثقيل الذي أحدثه حذاء الملازم، وكأنما كان في مسيرة ليلية. وأحس إيساو بدفء خفيف كان الحصى لا يزال يحتفظ به، الأمر الذي ذكّره بحر الظهيرة الملتهب.

خلافاً لدارة آل تونوميايا الكائنة في يوكوهاما، ويشمل الطراز الغربي كل شيء فيها، كانت هذه الدار يابانية الطراز. وفوق الامتداد الرحب المكسوّ بالحصى الذي كان يتألق أشهب تحت ضوء القمر، ارتفع سقف ثقيل لجملون صيني يعلو المدخل.

كان المكتب الإداري، فيما يبدو، على جانب الدهليز، ولكن لم تكن هناك أضواء في مثل هذا الوقت المتأخر. وأقبل الوكيل العجوز لملاقاتهما، وبعد أن تولى شأن سيف الملازم صحبهما إلى داخل الدار. لم يكن هناك مؤشر للحياة في أي مكان. وقد امتدت بطول الممشى سجادة ذات لون أحمر داكن، وكان أحد الجدارين مكسواً بخشب السنديان الفاخر، على الطريقة الغربية. وبعد فتح باب يفضي إلى غرفة مظلمة، ضغط الوكيل على زر للإضاءة فلطم الضوء عيني إيساو، صادراً عن ألق مشع من ثريا هائلة تتدلى في وسط الغرفة، وطغت جزئيات بلورها التي لا تحصى في الهواء وكأنها غمامة من إشعاع.

جلس إيساو والملازم متصلّبين في مقعدين وثيرين مكسوّين بالكتان، فيما كان الهواء الذي تحركه مروحة بطيئة يمسّ وجناتهما. وسمعا صوت حفيف أجنحة الحشرات وهي ترتطم بالنافذة. ولما كان الملازم قد لاذ بالصمت فقد حذا إيساو حذوه. وبعد انتظار قصير جلب لهما خادم بعض الشاي المثلج.

علقت على الجدار لوحة نسيجية مطرزة هائلة من نوع «الجوبلان» تصوّر مشهداً من مشاهد المعارك. راح نبيل يغرس حربته في صدر جندي من

جنود المشاة مال إلى الخلف بتأثير الطعنة. نصلت ألوان اللوحة بفعل الزمن، واكتسى الدم المنبثق المزدهر عند صدر الرجل، بلمسة من اللون الأسمر المحمر لفوروشيكي عتيق. حدَّث إيساو نفسه بأن وجه الشبه بين الدم والأزهار هو السرعة في الجفاف وتغيّر المادة؛ ومن هنا فإنه لهذا السبب على وجه الدقة يمكن للدم وللزهور مواصلة الحياة باستيعاب جوهر المجد. فمن المحتّم أن المجد بأشكاله كافة هو شيء معدني.

فتح الباب ودلف إلى الغرفة الأمير هاروناري مرتدياً حلّة من الكتّان الأبيض. وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك شيء من الافتعال في دخوله، ومع أن افتقار هذا الدخول إلى الطابع الرسمي جلب درجة من الدفء والارتياح إلى الجو المتوتّر إلى حد ما وقد ساد الغرفة، فإن الملازم وثب في الحال متخذاً وضع الانتباه المتصلّب، وحذا إيساو حذوه. وللحظة مضى إيساو يتفرّس في الأمير الذي كان أول عضو من أعضاء العائلة الإمبراطورية يقترب منه إلى هذا الحد. لم يكن سموه طويل القامة على نحو خاص، ولكن تركيبه أعطى انطباعاً محدّداً بالقوة. فقد نتأت حلته عن الوسط مشكّلة ضغطاً على أزرار السترة. وكان كتفاه وصدره من الامتلاء بحيث أن قوامه الذي كسته الحلة البيضاء وربطة عنقه الصفراء المائلة إلى الاحمرار، قد يبدوان للوهلة الأولى وكأنهما لسياسي، ولكن البشرة المسمرة على نحو جميل بتأثير التعرض للشمس والشعر القصير والأنف الرائع النَسْريّ والجلال الذي يشع من العينين المسحوبتين الرشيقتين والشارب الأسود المشذّب بعناية، كل ذلك أوضح دونما أدنى شك أنه ها هنا رجل يجمع بين حضور عسكري آمر ومظهر رشيق، وينتمي إلى عالم النبلاء. كانت عينا الأمير براقتين، تفيضان بالحياة، ولكنه أعطى الانطباع بأنه نادراً ما يبعد نظرته التي تخترق أعماق الآخرين.

قدم الملازم في الحال إيساو وانحنى انحناءة عميقة.

قال الأمير بدماثة:

ـ أهـذا هو الشـاب الذي حـدثتني عنـه؟ طيب، اجلسـا إذن، وعليكـما بجلسـة مريحـة! فيما يتعلق بشبـاب هذه الأيـام فإنني لم ألتق بشـاب واحـد خارج إطار العسكريين. وهكذا حدثت نفسي بأنه إذا كان هذا الفتى مدنياً وشاباً جديراً حقاً بهذا الاسم فإنني أرغب بشدة في مقابلته. إيساو إينومـا. أهذا اسمك؟ لقد سمعت بأبيك.

لما كان الملازم قد حـدث إيساو بأن عليه أن يقـول ما يعنّ لـه أياً كـان فقد سأل فجأة:

ـ هل تشرف أبي بلقاء سموّكم؟

عندما رد الأمير بالنفي غدا لغز أبيه أكثر عمقـاً وتعقّداً. لمـاذا يكن مثل هذه المشاعر حيال رجل لم يلتق به قط؟

بـدأ الأمير والمـلازم في سرد قصص قديمـة بحرية تنبع من أنهما رجـلان عسكريان. وراح إيساو يرقب سنوح فرصة لتقديم كتابه للأمير. ولم يساوره كبير أمل في أن الملازم سيبذل جهداً ليقدّم له مثل هـذه الفرصـة. فقد بـدا كما لو كان قد نسي كل شيء عن الكتاب.

ترتب على هذا أنْ ظل إيساو صامتاً دون أن يتاح لـه خيار غـير الجلوس منتصب الجـذع على نحـو متصلب، فيما هـو يرقب عـبر المائـدة الأمير وقـد انغمس في حـوار شائق. شـعَّ بياض جبـين الأمير الـذي لم تلفحه الشمس بإشراق صـافٍ تحت الـثريـا. وأظهـر التـألق المضيء عـلى شعـره القصـير المقصوص حديثاً واقفاً باستقامة في نظام تام.

وربما لإدراك الأمير لنظرة إيساو الفـاحصة، حـوَّل نظرتـه القويـة فجأة، وكانت متركزة من قبل على الملازم، نحو إيساو. التقت أعينهما للحظة. بدا الأمر كما لو أن لسان جرس حديدي عتيق علاه الصدأ، وطال صمتـه، قد أطلقت سراحه هزة خاطئة فصدر عنه دوي غـير متوقع. لـم يستـطع إيساو فهم ما قالته عينا الأمير، وعلى أغلب الاحتمالات فإن الأمير نفسه لم يتمكن

من فهم ما قالته عينا إيساو. ولكن لحظة التواصل العارضة تلك كانت مشحونة بانفعال يتجاوز الحب والكره العاديين، انفعال ينبع من رابطة مخيفة من نوع ما. للحظة بدا أن حزناً نائياً يتدفّق من عيني الأمير الثابتتين، وكأنه قصد أن يغرق نظرة إيساو المتّقدة في ماء حزنه.

حدَّث إيساو نفسه قائلاً: «لقد نظر الملازم إليَّ بدوره بالطريقة ذاتها خلال التدريب على الكندو. ولكن في ذلك الوقت كان هناك غائراً وعميقاً شيء محدد نقله إليّ دونما كلمات. وفي نظرة الأمير ليس هناك شيء من هذا القبيل. ربما لم يكن انطباع سموه عني مواتياً».

في غضون ذلك كان الأمير الذي عاد إلى حديثه مع الملازم يومىء برأسه موافقاً بقوة على شيء قاله الملازم، وغاب عن إيساو.

قال الأمير:

ـ إنك محقّ. فالنبلاء كذلك مذنبون. يبدو أمراً رائعاً أن نصف النبلاء بأنهم «الأسوار الواقية الحية» للعائلة الإمبراطورية، ولكن هناك من بينهم من يميلون ـ واثقين من قوتهم ـ حتى إلى الاستخفاف بجلالة الإمبراطور المقدّس. وليس هذا بالشيء الجديد. فقد كانت هناك أمثلة عليه، منذ أقدم العهود، كما تعلم. أما فيما يتعلق بضرورة ردع الخيلاء العوجاء لأولئك الذين ينبغي أن يكونوا قدوة للعامة، فإنني هنا بصفة خاصة أتفق تماماً في الرأي معك.

- ١٧ -

دهش إيساو حيال حدة الكراهية التي يكنها الأمير للنبلاء الذين تربطهم به صلة وثيقة. ولكنه حدَّث نفسه بأنه عندما يأخذ المرء في اعتباره وضع الأمير، فلا شك أنه كانت هناك مناسبات عديدة، اشتمّ فيها أنف الأمير الرائحة الكريهة المنبعثة من فساد النبلاء. وأما فيما يتعلق بفساد السياسيين ورجال الأعمال فإنه بغض النظر عن مدى بعده قد أصاب أنفه بحدة، شأن الرائحة المتحلّلة المنبعثة من هيكل حيوان والسارية عبر الحقول في الصيف. ولكن النبلاء كانوا قادرين على إخفاء رائحتهم الكريهة بعبق البخور. وقد أراد إيساو أن يسمع من الأمير أسماء أولئك الذين يعتبرهم الأسوأ في صفوف النبلاء، ولكن سموه أحجم في حرص عن ذكرها.

ولما كان إيساو يحس الآن بارتياح نسبي فقد التقط الكتاب في غلافه الورقي ووجه حديثه إلى الأمير قائلاً، والكلمات تنساب منه في يسر:
- رغبة مني في إهداء هذا لسموكم أحضرته معي. وعلى الرغم من أنه كتاب قديم تداولته الأيدي فإن روحنا بأسرها متضمنة فيه، وأملي أن أكون من يمضي بهذه الروح قدماً.

قال الأمير وهو يفض الغلاف الورقي عن الكتاب ويتطلع إلى غلافه:
- آه؟ إنه «عصبة الريح الإلهية» أليس كذلك؟

قال الملازم مبادراً إلى مساعدة إيساو:
- أعتقد أنه يقدم طرحاً رائعاً لروح العصبة. ويبدو أن هؤلاء الطلاب قد عقدوا العزم على تأسيس جماعة مماثلة تربطها روح الأخوة لعهد شوا.

ـ حقاً؟ طيب، إذن، بدلاً من حامية كوماموتو تُرى أيهاجمون الفوج الثالث في زابو؟

قالها الأمير، وعلى الرغم من أنه كان يمزح، إلا أنه لم يفصح عن أثر للضيق، فيما هو يقلب الصفحات مجاملاً، ثم رفع عينيه فجأة عن الكتاب وتطلع إلى الفتى بحدة وهو يحادثه:

ـ سأسألك شيئاً. لنفرض. . . لنفرض أن سموه الإمبراطوري أتى عليه حين من الدهر استاء إما من روحك أو من سلوكك، فماذا عساك تفعل حينئذ؟

ما كان يمكن لسؤال كهذا أن يصدر إلا عن أحد أعضاء العائلة الإمبراطورية، ثم حتى من بين أعضاء العائلة الإمبراطورية لم يكن يتوقع من أحد أن يطرحه إلا الأمير هارونوري. عاد الملازم وإيساو إلى التصلب من جديد، فقد أدركا بحدسهما شيئاً ما من طبيعة اللحظة، ذلك أنه على الرغم من أن سؤال الأمير كان موجهاً إلى إيساو وحده إلا أنه كان يضم الملازم تحت عباءته حقاً. وطموحات الملازم التي لم يفصح عنها وقصده من وراء تعمد إحضار هذا الفتى المجهول معه إلى مقرّ آل تواينومايا ـ تلك أمور كانت من بين الأشياء المحتم وجودها في ذهن الأمير وهو يطرح هذا السؤال. وقد أدرك إيساو أن الأمير، رغم أنه ليس القائد الأعلى المباشر، قد وجد أنه من المحرج له، باعتباره قائد فوج، أن يسأل الملازم هذا السؤال صراحة. وأدرك إيساو فجأة طبيعة موقفه، فكل من الأمير والملازم يستخدمانه كوسيط، أو كدمية تنقل نية الطرف الآخر، أو كقطعة على رقعة شطرنج. وعلى الرغم من أن الحوار المستمر لم يكن مما يثير الاهتمام كثيراً، وأنه لم يتح ميزة تذكر لأطرافه، فإن إيساو أحس لمرة في مقتبل عمره الفتي بأنه في قلب شيء يشبه دوامة سياسات يمارسها ساسة متمرسون. وعلى الرغم من أن ذلك ترك طعماً مريراً في حلق إيساو فإن الأمر ما كان ليتفق حقاً مع شخصيته لو أنه لم يردّ بأقصى ما كان في وسعه من الصراحة.

أحدث غمد سيف الملازم قرقعة خفيفة وهو يحتك بذراع مقعده.
ـ شأن رجال العصبة، كنت سأبقر بطني.

أشار التعبير المرتسم على محيا الأمير العسكري إلى أنه قد اعتاد سماع مثل هذه الإجابات. قال:
ـ طيب، إذن، لو أنه كان مسروراً ماذا عساك ستفعل؟

ردّ إيساو دون أدنى تردّد:
ـ في تلك الحالة كذلك، سأبقر بطني.

للمرة الأولى تألق شعاع اهتمام منطلقاً من عيني الأمير:
ـ آه؟ وماذا سيكون معنى ذلك؟ أوضح ما تعنيه!
ـ نعم، سموّكم، إنه أمر يشير إلى الولاء. لنفترض أنني أعددت كرات أرز يتصاعد منها البخار، والأرز حار للغاية، حتى إنه يحرق يدي. وغرضي الوحيد أن أقدم تلك الكرات إلى سمو الإمبراطور، أن أرفعها إلى عليائه المقدسة. الآن فيما يتعلق بالنتيجة، لو أن سموه ليس جائعاً فإنه سيرفض باقتضاب تقدمتي، أو ربما سيسره أن يقول: «هل عليَّ تناول مثل هذا الطعام الذي لا طعم له؟» ويلقيه في وجهي. وفي هذه الحالة سيتعين عليَّ الانسحاب وحبات الأرز ما تزال عالقة بوجهي، وبعرفان بالجميل أبقر بطني في الحال، ثم مرة أخرى لو أن سموه جائع وأسعده أن يأكل كرات الأرز، عن طيب خاطر، فإنه لن يكون هناك سبيل أمامي إلا الانسحاب، في الحال، وأن أقوم بامتنان ببقر بطني. لماذا؟ إن إعداد كرات أرز ليقدّم طعاماً لسموه المقدّس بيدين عاديتين للغاية يعد خطيئة يستحق مقترفها أن يعاقب بالموت ألف مرة. ولكن لنفترض أنني أعددت كرات الأرز كتقدمة، ولكني احتفظت بها في يدي ولم أقدمها. فما الذي سيحدث عندئذ؟ من المؤكد أنه بعد قليل سيفسد الأرز. وأحسب أن هذا بدوره سيكون عملاً من أعمال الولاء. ولكني أصفه بأنه ولاء بدون شجاعة. وأما الولاء

الشجاع فهو من نصيب الرجل الذي يجرؤ دونما خوف من الموت على تقديم كرات الأرز التي أعدها على هذا النحو بإخلاص مطلق.

ـ بينما يعلم أنه يقترف خطيئة؟ أهذا ما يتعينّ عليه القيام به؟

ـ أجل، سموكم، إن رجال الجيش، وسموكم في مقدمتهم، محظوظون حقاً، ذلك أن ولاء الجندي يقوم على التضحية بحياته تلبية لأوامر الإمبراطور. ولكن في حالة المدني العادي، يتعين عليه الاستعداد لاقتراف الخطيئة بسبب ولائه الذي لم يكرس في إطار رسمي.

ـ «اخضعوا للقانون» ـ أليس هذا أمراً من أوامر سمو الإمبراطور؟ والمحاكم التي تنفذ القانون أليست في نهاية الأمر محاكم الإمبراطور؟

ـ إن الخطايا التي أشير إليها ليس لها علاقة بالقانون. وأعظم خطيئة هي تلك التي يقترفها رجل يجد نفسه يحيا في عالم يخفت فيه الضوء المقدّس لسمو الإمبراطور، ورغم ذلك يقرّر مواصلة الحياة دون أن يحير حراكاً في هذا الصدد. والسبيل الوحيد للتطهّر من هذه الخطيئة هو أن يتقدم المرء بقربان ناري بيديه، حتى وإن كان ذلك خطيئة في حدّ ذاته، أن يعرب عن ولائه بصورة عملية، ثم يؤدي طقوس السيبوكو للتوّ. وبالموت يتطهّر كل شيء. ولكن ما دام الرجل يواصل حياته فليس بمقدوره أن يتحرك يميناً أو يساراً أو يقوم بعمل كائناً ما كان دون أن يقترف خطيئة.

قال الأمير مبتسماً، وكأنما أدهشه إخلاص إيساو:

ـ آه، لقد أصبح هذا أمراً معقداً للغاية حقّاً.

وتقديراً للموقف قام الملازم بكبح جماح إيساو بقوله:

ـ في هذا الكفاية، فقد أوضحت قصدك.

لكن الانفعال الذي ثار في أعماق إيساو من خلال تمحيص مثله العليا استمر. فقد كان هذا الحوار مع أمير من العائلة الإمبراطورية. وقد جعلت مواجهة مثل هذه الشخصية والاستجابة بصراحة تامة على أسئلتها إيساو

يشعر بأنه يواجه ألقاً لا ينتمي إلى هذا العالم يشع من وراء المدينة، وبأنه يوضح إيضاحاً تاماً ما يكمن في أعماقه. وقد تمكن من تقديم ردّ فوريّ على ما عنَّ للأمير من أسئلة، الأمر الذي كان برهاناً على أن أفكاره قد تبلورت وغدت صافية لبعض الوقت في أعماقه.

عندما تصور نفسه واقفاً، مكتوف اليدين، دون ان يحير حراكاً على الإطلاق، أخذته الرعدة كأنما تصوّر نفسه مجذوماً. وكان السبيل السهل هو قبول مثل هذا الوضع باعتباره الوضع العادي والمفعم بالخطيئة للإنسان ولا سبيل إلى تجنبه، كالأرض التي يمشي عليها المرء أو الهواء الذي يتنفسه. ولكن إن أريد له هو نفسه أن يغدو نقياً في غمار هذا فإن خطيئته يتعينّ أن تأخذ شكلاً آخر، وعليه أن يستمدّ على أية حال غذاءه من مصدر الخطيئة ذاته. وبالقيام بهذا وحده فإنه يربط معاً الخطيئة والموت، السيبوكو والمجد، فوق الحافة التي يلعب فيها النسيم المحمل بعبق الصنوبر أمام الشمس المشرقة. وكان السبب في عدم رغبته في دخول أي من الأكاديمية العسكرية أو البحرية هو أن المجد المعدّ مسبّقاً يقدّم هنالك، ويتمّ تطهير خطيئة التزام الجمود. ولكن ربما لكي يحرز المجد الذي يتجه إليه ذهنه وحده، بدأ يحبّ الخطيئة لذاتها.

لم ينظر إيساو إلى نفسه باعتباره إنساناً نقياً لا تشوبه شائبة، وفقاً لمذهب أوين هاياشي، المعلم الحبيب لعصبة الريح الإلهية، الذي علّم أن كل البشر هم أبناء الآلهة. ولكنه كان يشتعل بتوق دائب إلى الاقتراب من النقاء بما يكفي لكي يمسّه بيده مسّاً، ومن أجل أن تمسّه أطراف أصابعه استغلّ درجاً حجرياً لا يتيح إلا مواطىء قدم متقلقلة، مدركاً طوال الوقت أن الدرج قد يتداعى في اللحظة التالية. وكان يعلم أن طقس اليوكاي الذي استخدمه المعلم أوين لا يكترث به العصر الراهن. ولكن هذا الطقس الذي من خلاله يتساءل المرء عن الإرادة الإلهية بدا أنه يحتوي على عنصر من عناصر الخطر لا يختلف كثيراً عن موطىء قدم يمكن أن يتداعى

في أية لحظة. وما عسى أن يكون عنصر الخطر هذا إلا الخطيئة؟ من المؤكد أنه ما من شيء يمكن أن يشبه الخطيئة مثلما تشبهها حتمية الخطر.
ـ طيب، طيب، هكذا ظهر شاب مثل هذا على الساحة.

قالها الأمير وهو يعاود الالتفات إلى الملازم، وقد امتلأ صوته بالانفعال. خطر ببال إيساو أنه يبدو كنموذج يعرض على الرجلين، واخترمته صدمة مؤلمة بينما تملكته الرغبة في صياغة ذاته بما يتناسب والنمط الذي رآه مرتسماً في عيني الأمير، ذلك أن القيام بهذا يعني أنه يتعينّ عليه أن يلقى حتفه.
ـ عندما أدركت أن اليابان قد أنجبت طلاباً كهذا شعرت بصورة من الصور بأنني أكثر أملاً في المستقبل. إن المرء لا يسمع مثل هذا التعبير المتأجج ممن ينخرطون في سلك الجندية. لقد أسديت إليَّ جميلاً بإحضارك مثل هذا الفتى الرائع إلى هنا.

لما كان الأمير قد تجاهل إيساو عمداً وأعرب عن امتنانه للملازم فقد حظي هذا الأخير بالتكريم، وأحس إيساو بدفء عطف الأمير على نحو يتجاوز ما كان يمكن أن يحسه لو أنه أشاد به مباشرة.

استدعى الأمير قيّم الدار وجعله يجلب بعضاً من الويسكي الاسكوتلندي والكافيار. وصبّ الشراب بنفسه داعياً الملازم وإيساو أيضاً لاحتسائه:
ـ لا أحسب يا إينوما أنك بلغت من العمر ما تصمد معه للشراب، ولكنك أظهرت لمّاحية بالغة بحيث أعتبرك رجلاً ناضجاً، ولذا عليك بالشراب، ولا تقلق، فإذا أسرفت فإنني مرسلك إلى دارك بسيارتي.

على الرغم من أن الأمير تحدث برقة بالغة فقد ارتجف إيساو، ذلك أنه في تلك اللحظة صعدت إلى مخيلته صورة وجه أبيه وهو يستقبل ابنه عائداً إلى الدار ثملاً في سيارة آتية من دار آل تواينومايا. وكانت هذه الصورة

كافية لاهتزاز اليد الممسكة بالقدح فيما هو يقف لتلقي الويسكي من الأمير. انسكب الويسكي من القدح المائل على غطاء المائدة المزركش.

ـ آه!

صاح إيساو، وانتزع منديله، وراح يائساً يجفّف البقعة.

قال وقد أحنى رأسه إحناءة عميقة، ودموع الخجل تطفر من عينيه:

ـ أرجو عفوك!

ظلّ واقفاً محنيّ الرأس، وإذ رأى الأمير دموعه فقد تحدث على نحو مرح:

ـ ذلك يكفي الآن، ارفع رأسك! لا تمضِ قدماً كأنك بسبيلك إلى أن تبقر بطنك هنا الآن!

قال الملازم وهو يقف إلى جوار إيساو:

ـ اسمح لي أن أعتذر نيابة عنه، يا سمو الأمير، أعتقد أن انفعاله بهذه المناسبة هو الذي جعل يده ترتعش.

جلس إيساو أخيراً، ولكنه إذ سيطرت عليه أفكار متعلقة بهفوته تلك فقد عجز عن التفوّه بكلمة واحدة. غير أنه في الوقت نفسه، ورغم حزنه البالغ، كانت كلمات الأمير مثل تيار دافىء يشق طريقه في جسم إيساو، ويؤثر فيه على نحو يتجاوز تأثير الويسكي كثيراً، ثم شرع الأمير والملازم في مناقشة الوضع السياسي بالتفصيل، ولكن الذي انشغل بشعوره بالخجل لم يستطع الانتباه لما كانا يقولانه. وبينما كان الأمير منهمكاً في المناقشة بحماس على هذا النحو، غير ملقٍ بالاً فيما يبدو إلى إيساو على الإطلاق، التفت فجأة إليه متحدثاً بصوت عالٍ مرح أظهر إلى حدٍّ ما تأثير الويسكي الذي احتساه:

ـ هلمّ الآن! تمالك نفسك. إنك مجادل بارع. ألست كذلك؟

وإذ لم يجد إيساو أمامه خياراً آخر فقد شارك بدور متواضع في المناقشة. ولقد أحس الآن، على نحو ما حدثه الملازم تماماً، بأنه يدرك السرّ في أن الأمير يتمتّع بمثل هذه الشعبية الهائلة في دوائر العسكريين.

أوغل الليل في مسيرته. وبعد أن أبدى الملازم الذي دهش لتأخر الوقت، امتنانهما، أهدى له الأمير زجاجة ويسكي من نوع ممتاز وبعض السيجار في صندوق يحمل الشعار الإمبراطوري. وأعطى إيساو علبة فطائر تحمل كذلك الشعار الإمبراطوري.

قال له الملازم في طريق العودة:

ـ يبدو أن سموه قد أعجب بك، وأحسب أنه سيكون على استعداد لمساعدتك عندما يحين الأوان. وفي ضوء وضعه اعتقد أنه من غير المناسب إبداء مظهر الرغبة في الحصول على أي شيء منه. وعلى أية حال فإنك محظوظ. ولا تقلق بشأن تلك الهفوة الصغيرة لدى انسكاب الويسكي.

عندما تركه الملازم، وبدلاً من الذهاب إلى الدار مباشرة، توقف في دار إيزوتسو. وبعد أن أيقظ خادم إيزوتسو الذي كان قد أوى إلى فراشه بالفعل، سلّمه علبة الفطائر.

ـ اعتن بها أشدّ الاعتناء، ولا تدع أحداً في دارك يراها!

ـ ليكن.

أطل إيزوتسو برأسه من الباب الخارجي في قلب الليل، وقد تصلب مؤخر عنقه من فرط التوتر، وأخذ العلبة. وقد بدا على ملامحه ما يوحي بالحيرة، وهو يشعر بخفتها، فقد كان متأكداً من أن أية لفافة من رفيقه، في مثل هذه الساعة، يتعينّ أن تحتوي على متفجّرات.

- ١٨ -

في ذلك الصيف وصل عدد الذين ضمهم إيساو إلى مجموعته إلى عشرين شخصاً. ولم يسمح بالانضمام إلا للطلاب الأكثر جدارة بالثقة، بعد تمحيصهم من جانب إيزوتسو وساجارا، ثم مقابلة إيساو لهم وموافقته عليهم. وكان كتاب «عصبة الريح الإلهية» مفيداً للغاية في غمار هذه العملية، فبعد قراءته، كان على كل مرشح للانضمام أن يكتب مقالاً يصف فيه كيفية تأثره بالكتاب، الأمر الذي يشكل أسّاً للتقويم الأوّلي له. وكان من بينهم أولئك الذين على الرغم من تميز أسلوبهم وإدراكهم إلا أنهم كانوا يفتقرون إلى الكثير فميا يتعلق بقوة شخصيتهم.

فقد إيساو حماسه الشديد للكندو. وعندما أعلن أنه لن يشارك في معكسر التدريب الصيفي، تجنب بمشقة التعرض للتجربة الكريهة المتمثلة في محاسبته توّاً من طلاب الصفوف العليا الذين كانوا يعتمدون عليه في فوز الكلية بالمسابقة المقبلة. وكان أحد هؤلاء الطلاب عدوانياً بشكل خاص في مطالبته بمعرفة السبب في تغيير إيساو لرأيه فسأله:

ـ أتدبر شيئاً؟ أهناك ما يفتنك أكثر من الكندو؟ إنني أسمع بأنك تجعل الطلاب يقرأون نوعاً من الكتيبات. إنك متورط في حركة عقائدية ما. أليس كذلك؟

وأحبطه إيساو بالردّ عليه:

ـ أتصور أن ذلك كان كتاب «عصبة الريح الإلهية». وما أفعله هو الحديث مع الناس عن تنظيم مجموعة لدارسة تاريخ ميجي.

وفي حقيقة الأمر أن مسار إيساو في عالم الكندو كان خير عون في تجميع

الرفاق سرّاً، فحينما يواجه طالب بحضوره الصموت وبنظرته المتألقة النفاذة يتحوّل الاحترام لشهرته توّاً إلى إخلاص له.

قرر إيساو، بعد أن تقدم في المسيرة إلى هذا الحد، أن يجمع كل رفاقه معاً في زمان واحد لاختبار نضجهم وحماسهم. ومن هنا فإنه خلال العطلة الصيفية، وبينما معظم الطلاب بعيدون عن طوكيو، بعث إليهم ببرقيات يأمرهم فيها بالعودة، متعمّداً اختيار موعد يسبق الفصل الدراسي التالي بأسبوعين كاملين. ولسوف تشكل أراضي المدرسة خلال العطلة مكاناً مثالياً للحفاظ على سرية اللقاء. وكان على الطلاب الالتقاء أمام المزار في حرم الكلية في الساعة السادسة مساء، وهو وقت يكون حر النهار ما يزال جاثماً فيه لم يتبدّد بعد.

كان كل طلاب كلية الدراسات الوطنية يشيرون إلى هذا المكان باعتباره «المزار»، ولم يكن اجتماع الطلاب أمام مكان العبادة الصغيرة هذا المكرس للآلهة العديدة بالأمر غير المألوف، فالطلاب المنتمون إلى قسم الشنتو الذين كانوا سيحلون محل آبائهم كهنة المزار العائلي يحضرون إلى هنا لتلاوة تراتيلهم، وأعضاء الفرق الرياضية يجيئون للصلاة من أجل الفوز أو لتدبر دروس الهزيمة.

قبل ساعة من الموعد المحدد للاجتماع راح إيساو ينتظر مقدم ساجارا وإيزوتسو في الأجمات الواقعة خلف المزار مباشرة. وكان يرتدي هاكاما فوق كيمونو صيفي مزخرف بنقوش متناثرة وحرملة مدرسية ذات زخارف بيضاء. وعندما اقتعد الأرض المعشبة انهلت أشعة الشمس الغاربة المتألقة من وراء فناء مزار هيكاوا وهي تغوص باتجاه مرتفعات ساكوراجاوكا في شيبويا، على صدر كيمونوه الأبيض وجذوع أشجار البلوط القاتمة. وعلى الرغم من هذا، لم يسع إيساو اللجوء إلى الظل، فجذب بالأحرى قمة حرملته وأسدلها فوق عينيه، وجلس مواجهاً الشمس. تصاعدت الحرارة

المنبعثة من لحمه الذي كساه العرق تحت كيمونوه، وزحفت نحو جبينه ملتقية بنظيرتها المنبعثة من النجيل الذي كسته الشمس، وملأ الأجمات صوت الجنادب المتواصل بلا هوادة.

التمعت تحت الشمس الدراجات المنطلقة على امتداد شارع هاكادوري غير بعيد عنه. وبدت أشعة الشمس وكأنها تخيط معاً السقوف الخفيضة التي تصطف على جانبي الطريق. وفي نقطة محددة وسط الطنف التمع شيء ما يشبه كتلة مائلة من الزجاج، متألقاً كالشمس ذاتها. وعندما تطلع إيساو بمزيد من الدقة رأى شاحنة لنقل الثلج متوقفة هناك. وكان بمقدوره إدراك خطر امتصاص الثلج بقوة الشمس الغاربة بكاملها، وشعر كما لو كان بمقدوره سماع صيحات الألم البعيدة الحادة، فيما ألواح الثلج تذيبها بلا رحمة حرارة ختام الصيف.

عندما التفت إيساو إلى الوراء بدا له الظل الممتد لإحدى أشجار البلوط التجسيد الحيَّ لطموحه هنا تحت شمس نهاية الصيف، شيئاً اجتره وراءه بلا هدف. أثّر فيه الرحيل الوئيد للصيف بشدة. يا لفراق الشمس هذا! خشي التطلع إلى ذلك الرمز الهائل المتألّق بلون الأرجوان والمجسد للإخلاص المثالي وهو يبدأ بالتلاشي مع تغيّر الفصول. هذا العام أيضاً، ترك الفرصة تفلت من يديه دون أن يلقى حتفه ذات صباح أمام الشمس الصيفية المتوهجة.

رفع عينيه مجدداً فرأى مجموعات مدوِّمة من اليعاسيب الحمراء، وكأنما الوهج المنبعث من السماء المحمّرة تدريجياً في الأعالي، والمنهلُّ صافياً عبر الأغصان المتقاربة لشجرة البلوط، قد منح أجنحة لكل شقّ. كان هذا أيضاً مؤشراً آخر لمقدم الخريف. ومن شأن مؤشرات المنطق البارد هذه التي تتشكل وئيدة وعلى مهل في قلب العاطفة الحارة أن تجعل بعض الرجال سعداء، ولكنها لم تجلب إلا الحزن لإيساو.

ـ لم تنتظر في مثل هذا! المكان الحار؟

قالها إيزوتسو دهشاً لدى مجيئه مع ساجارا مرتديينْ قميصين أبيضين مع حرملتي المدرسة.

قال إيساو معتدلاً في جلسته على العشب:

ـ أنظرا هناك! في الشمس الغاربة هنالك وجه جلالة الإمبراطور.

كان لكلماته تأثير سحري على إيزوتسو وساجارا. وكالعادة سارعا لمشاركته حالته المزاجية، حتى وهما يشعران بالانزعاج. وأضاف:

ـ وجه جلالته يفصح عن الاضطراب.

جلس إيزوتسو وساجارا في صمت رهيب إلى جوار إيساو، وللحظة راحا يلويان أطراف العشب بين أصابعهما، وانغمسا في الشعور الذي يراودهما كلما اقتربا منه، وهو الشعور بأنهما اقتربا من سيف جرد من غمده. وفي بعض الأحيان كان إيساو يبدو مخيفاً للفتيينْ.

قال ساجارا دافعاً عويناته إلى أعلى، فيما هو يبدد الصمت آملاً في تبرير التخوف الذي لم يدرك سره:

ـ أتساءل عما إذا كانوا سيحضرون جميعاً؟

ردّ إيساو بتأكيد عَرَضيّ:

ـ سيحضرون. أي خيار آخر أمامهم غير هذا؟

ـ أخيراً أفلتَّ من معسكر التدريب. إه؟ هذا مناسب لك تماماً!

قالها إيزوتسو معرباً عن إعجابه إلى درجة محرجة. وكان إيساو على وشك إيضاح السبب الذي حدا به إلى هذا، ولكنه غيّر رأيه. فهم لم يصبحوا غارقين في الأنشطة إلى حدّ يحرم معه نفسه من أدنى ترفيه. وإنما السرّ في عدم مشاركته في معسكر التدريب هو أنه نال بالأحرى كفايته من السيوف الخيزرانية، وسئمها؛ لأن الانتصارات كانت تنقاد له في يسر بالغ، وقد ضجر منها لأن السيف الخيزراني لم يعد رمزاً، وملّها لأن هذا السيف لا يحمل معه خطراً حقيقياً.

وعكفوا على الحديث فيما بينهم عن مدى التميز الكامن في تمكنهم من ضمّ عدد يصل إلى العشرين من الرفاق. وفي ذلك الوقت، وفي الألعاب الأوليمبية المقامة في لوس أنجلوس، أحرز فريق السباحة الياباني مجداً لوطنه، ومن ثم كان من اليسير في أية مدرسة الحصول على مرشحين للمشاركة في مسابقات السباحة، ولكن ما كان يقوم به إيساو ورفاقه هو أمر مختلف تماماً عن ضمّ الطلاب إلى النوادي الرياضية. وجاذبية جماعتهم لا علاقة لها بالشعبية الاستحواذية. ذلك أن كل طالب اختاروه تعينّ أن يطلب منه أن يعهد بحياته لهم. وفضلاً عن ذلك فإنه إلى أن يعهد لهم بحياته دونما تساؤل لن يكون بمقدورهم أن يوضحوا له مفهوم هدفهم.

لم يكن العثور على شبان على استعداد للتضحية بحياتهم وجعلهم يعلنون عزمهم القيام بذلك بالأمر البالغ الصعوبة. غير أن كل شاب فيهم كان حريصاً على تبني قضية يستطيع التفاخر بها أمام الآخرين، ويعلق عليها الآمال في أن تُعدّ له لدى رحيله أروع باقات زهور الجنازات. وقد قرأ بعض الطلاب كتاب إيكي كيتا بعنوان «خطة عريضة الملامح لإعادة تنظيم اليابان». ولكن إيساو اشتمّ رائحة كبرياء شيطانية هنالك. ومن المؤكد أن هذا الكتاب الشديد البعد عن «الإخلاص المتفاني والولاء المتواضع» لهاروكاتا كايا قد حرك الدم الساخن في عروق العديد من الطلاب، ولكن هؤلاء الشبان لم يكونوا من النوعية التي أرادها إيساو.

ودونما شك فإن رفاق إيساو سيُختارون، لا لما يتعين أن يقولوه، وإنما بسبب شيء غائر لا يسبر له قرار، ولا يتجلى إلا حينما تلتقي عيونهم بعينيه. كان هذا شيئاً لا ينتمي إلى عالم الفكر، وإنما يمتدّ إلى أصل أبعد.

لم يأت المرشحون للانضمام للجماعة من كلية الدراسات الوطنية فحسب، وإنما من العديد من الكليات، وبعضهم جاءوا من جامعة

نيهون، بل كان بعضهم طلاباً بالمدارس الثانوية. وقُدِّم أحد طلاب جامعة كايو إلى إيساو كمرشح، ولكن على الرغم من أن هذا الفتى كان حاذقاً في التلاعب بالكلمات، إلا أن أسلوبه الذي جعله أقرب إلى الهواة صنفه باعتباره مرشحاً غير مناسب، بل كان هناك طالب أبدى أعظم الحماس لكتاب «عصبة الريح الإلهية»، ولكنه في حديث عارض كشف عن نفسه باعتباره ناشطاً يسارياً عقد العزم على التجسس على الجماعة.

في معظم الحالات توافق الأسلوب الهادىء البعيد عن التعقيد والابتسامة المرحة مع شخصية يمكن الاعتماد عليها وشجاعة لا تبارى، ومن ثم روح لا تكترث بالموت. وأما الثرثرة واللجوء إلى الكلمات الكبيرة الجوفاء والابتسامة الساخرة وما إلى ذلك فغالباً ما توافق مع الجبن. وفي بعض الحالات كان الوجه الشاحب والجسد الواهن مصدراً لحماس فذ. وبشكل عام كان الفتية المتميّزون بالبدانة لا يتسمون بالجبن فحسب، وإنما بعدم الحرص كذلك، على حين كان الناحلون وذوو العقول التي يحكمها المنطق يفتقرون إلى الحدس. وهكذا أصبح إيساو يدرك إلى أي مدى يمكن للمحيا والمظهر الخارجي أن يفصحا عما يعتمل في قرارة نفس صاحبهما.

غير أنه لم يكن هناك شيء في الفتية الذين نشأوا في المدن يشير إلى الصلة بما يزيد على مائتي ألف طفل يعانون الحرمان في القرى التي تعمل بالزراعة وصيد الأسماك، بل إن اصطلاح «طفل سيء التغذية» غدا تعبيراً يستخدم على ألسنة الناس للسخرية من الريفيين، وفُقد تقريباً كل الغضب القديم الكامن في النفوس. ومع ذلك فقد ذكر أنه حتى في طوكيو، في مدرسة ابتدائية في فوكاجاوا، شعر المفتشون بالضيق الشديد لاكتشافهم أن التلاميذ الذين تلقوا كرات الأرز المقدمة للأطفال ،سيّئي التغذية، كانوا يأخذونها إلى بيوتهم في الحال من أجل إخوتهم وأخواتهم الأصغر سناً. غير أنه في كلية إيساو لم يكن هناك أحد ينتمي إلى هذا الجزء من طوكيو، والكثيرون كانوا أبناء مدرسين في مدارس الأقاليم الإعدادية وكهنة الشنتو، وبينما انحدرت

قلّة من بينهم من عائلات ثرية فإن عدداً أقلّ كان ينتمي إلى عائلات تعاني من متاعب فيما يتعلق بغذائها. وباعتبارهم أعضاء في عائلات قادة أخلاقيين فقد كانوا يعرفون معرفة جيدة قسوة الظروف في القرى النائية المعدمة. وغالباً ما كان آباؤهم يحسون بالحزن حيال ما يرونه وبالغضب حيال ما لا يرونه. وكان كل ما بمقدورهم هو أن ينتابهم الغضب، ذلك أنهم باعتبارهم مدرسين وكهنة لم تقع على كاهلهم مسؤولية الفقر المدقع أو الحقيقة القائلة بأنه جرى تجاهل هذا الفقر.

برعت الحكومة في نفي الأغنياء والفقراء إلى عوالم منفصلة لا يرى كل منهم انطلاقاً منها الآخر. وفقدت السياسات الحزبية التي التزمت بروتين مألوف يستبعد أي تغيير للأفضل أو للأسوأ، القدرة على توجيه تلك النوعية من الضربات القاتلة إلى الروح التي تجسدت في الأمر الصادر في العام التاسع من عهد الميجي، ويقضي بحظر حمل السيوف. وتركت أساليبها ضحاياها ما بين الحياة والموت.

لم يكن إيساو قد وضع أي إعلان للمبادىء. ولما كان العالم قد أصبح في وضع يصفّق فيه كل ما هو شرير للقصور الذاتي وللضعف، فإن التصميم على العمل كائناً ما كان ذلك العمل، سيغدو مبدأهم الوحيد. وبناء على ذلك فلدى مقابلة إيساو للمرشحين للانضمام إلى الجماعة لم يكن يتلفظ بكلمة واحدة لهم عن نواياه، أو يدلي بأية وعود. ولدى وصوله إلى نقطة مع أحد هؤلاء الشبان يحس عندها بأنه قد يسمح له بالانضمام فإنه يخفّف من تجهّمه الذي لم يتخل عنه لحظة، ويسأله ببساطة متطلعاً إلى عينيه بتعبير ودود: ما قولك؟ أأنت معنا؟

أعدّ إيزوتسو وساجارا، اتّباعاً لتوجيهات إيساو، ملفاً مزوداً بصورة لكل من الطلاب العشرين الذين سمح لهم بالانضمام إلى الجماعة على هذا النحو. وعلى الرغم من أن المعلومات قد جاءت، بالطبع، من المرشح

نفسه، فإنها كانت تتضمّن تفاصيل كاملة عن أسرته، واهتمامات أبيه وإخوته، وشخصيته وتركيبه البدني، ومهاراته الخاصة، وكتبه المفضّلة، بل وحالة علاقته بالفتيات. وقد سرّ إيساو سروراً بالغاً لأن ثمانية من الطلاب العشرين كانوا أبناء كهنة شنتو، فقضية عصبة الريح الإلهية لم تكن بحال من الأحوال شيئاً وضع الموت نهاية له منذ زمان بعيد. وكان متوسط سن الطلاب العشرين هو ثمانية عشر عاماً.

فيما كان إيزوتسو يقدم لإيساو ملفّاً بعد آخر، راح الأخير يقرأ كل ملفّ من جديد، مودعاً المعلومات ذهنه، وحريصاً على ربط كل اسم في ذاكرته بالصورة الصحيحة. وحتى فيما يتعلق بالشؤون الخاصة لكل رفيق، كان عليه أن يستعدّ للحديث بصورة متعاطفة في اللحظة المناسبة، بكلمات تصل إلى قلبه.

وفي حقيقة الأمر أن الاعتقاد الجازم بأن الوضع السياسي بلغ حالة مؤسفة كان ملائماً للغاية لميل الشباب إلى الأعتق، وإلى أن الواقع نفسه في حالة مؤسفة. ولم يستشعر إيساو قط القلق حيال الخلط بين الأمرين. وفيما يتعلق به فإنه عندما كانت الحسناوات غير المهندمات اللاتي تغطي صورهن الأكشاك الصارخة الزخارف عند منعطفات الطرق تطارد خاطره وهو في الطريق إلى المدرسة، كان ذلك بالنسبة له مؤشراً إلى فساد حالة الحياة السياسية. وقد شكل هو ورفاقه اتحاداً سياسياً يقوم بالضرورة على شعورهم النابع من فتوتهم بالعار من هذا الوضع. وقد كان إيساو يشعر بالعار من الوضعية الراهنة للأمور.

قال ساجارا في غمار خلاف بسيط مع إيزوتسو:

ـ قبل شهر واحد فحسب لم يكن بمقدورك أن تفرق بين فتيل العبوة والمفجر.

ابتسم إيساو، ولم ينبس بكلمة؛ إذ كان قد طلب من صديقيه أن

يتحققا تماماً من طريقة التعامل مع المتفجرات. وقد طلب ساجارا من ابن عم له يعمل مهندساً أن يوضح لـه هذه الـطريقة، وتقـدّم إيزوتسـو بطلب مماثل إلى ابن عم له في الجيش.

دمدم إيزوتسو قائلاً:

ـ وأنت، أراهن أنـك لا تعـرف مـا إذا كـان ينبغي قـطع فتيـل العبـوة عمودياً أو أفقياً.

انتزع كلاهما أطرافاً من عشب البامبا عند أقدامهما لتمثّل فتائـل العبوات النـاسفة، وقـطعا جـزءاً من فرع شجـرة دقيق جاف مجوف ليكـون بمثـابـة الكبسولة. وتأهبا للتدرب على تفجير عبوة ناسفة.

قـال ساجـارا متباهيـاً وهو يـدفع الـتراب في الغصن القصـير بـأطـراف أصابعه:

ـ ها هي كبسولة جيدة الصنـع، معدّة من أجلك. دع نصفهـا أجوف، وادفع بأقصى قدر تستطيعه من البارود إلى النصف الآخر.

كان الغصن يفتقر، بـالطبـع، إلى الفتنة الـرهيبة للكبسـول المصنوع من النحاس الأحمر، وكان وكأنـه يَرَقَـة معدنيـة، ويخفي بافتقـار وحشي لإمكانيـة الاعتماد عليه ما يكفي من البارود المتفجّر لنسف يد المرء. لم يكن إلا فرعـاً دقيقاً تدنى به الحال فلم يعد إلا مجرد لحاء ذابل. غـير أن الأشعة المـتراقصة المنهلة من الشمس الصيفيـة الحـارة التي غـاصت في أجمـات مـزار هيكـاوا تألّقت من خلال أصابع الفتيينْ المنهمكة الملطّخـة. ومن الاتجاه الـذي كان الوقت ينزلق نحوه أقبلت الرائحـة النائيـة المحترقـة للقتل الحتمي الـوشيك الحـدوث. توحـدت الرائحـة التي ربمـا كـان يمكن ألا تكـون إلا الـدخـان المنبعث من نيران مطابخ الدور القريبة، مـع سنى الشمس لتحدثـا التحوّل المفاجىء للتراب إلى بارود، والفرع الجاف إلى كبسولة عبوة ناسفـة. غرس إيزوتسو ورقة عشب دقيقة في الكبسولة، وأخرجها ليقيس طـول الجزء غـير

المملوء بالبارود، وحدّده بظُفْره بعلامة على ورقة العشب، ثم وضعها في مقابل ساق عشبة البامبا التي ستغدو فتيل العبوة وقاس طولاً متساوياً. وأخيراً غرس ببطء هذا الفتيل في الكبسولة إلى العمق المناسب. ولو أنه غرس عن إهمال الفتيل بأكثر مما ينبغي لانفجرت الكبسولة.

- ليس لدينا مؤجل للانفجار.

- استخدم أصابعك، والزم الحذر خلال القيام بذلك.

قالها ساجارا محذّراً.

أوضح اللون الذي كسا محيا إيزوتسو، وقد علاه العرق، جدّيته. وكما علمه ابن عمه، على وجه الدقة، أمسك الكبسولة بيده اليسرى، وأصبعه السبابة عند طرفها، والوسطى في مواجهة الجزء المملوء بالبارود، وأصبعه الثالثة وإبهامه قرب فتحة الطرف المجوف، وفيما هو يضع إبهام يده اليمنى وسبابتها للقيام بمهمتها كمؤجل للانفجار، عند هذه الفتحة نقل يديه كلتيهما إلى أسفل بحزم، عند جانبه الأيسر، وحوَّل وجهه بحدة إلى اليمين، ولوى يده اليمنى مؤدياً بمهارة مهمة تأمين الفتيل في الكبسولة. وواصل إبقاء وجهه مبتعداً نحو الجانب الآخر خلال هذه العملية من دون أن ينظر إلى ما يقوم به، من أجل حماية وجهه، في حال انفجار الكبسولة على غير توقّع.

قال ساجارا مداعباً إياه إلى حد الإغاظة:

- إنك تبالغ بالنظر بعيداً على هذا النحو. وقد لويت جسمك بشدة، إلى حدّ أن يديك لن تتمكنا من أداء المهمة التي يفترض أن تنجزاها. ولم تكترث كثيراً بحماية وجه مثل وجهك؟

كان كل ما بقي هو غرس الكبسولة بأمان في عبوة ناسفة وإشعال الفتيل. وساعد ساجارا الذي بدت عليه الجدية، في القيام بهذا، واستخدمت كتلة ترابية متجمعة كمتفجرات. والآن يتعين إشعالها بعود

ثقاب. استمر لهب عود الثقاب مشتعلاً في مواجهة ساق عشب البامبا التي كانت ما تزال خضراء، وبدا واضحاً بجلاء أنه يفتقر إلى القدرة على إشعال النار فيها. وتواصل اللهب الذي لم يكن ليخفى في ضوء الشمس الغاربة، حتى وصل إلى منتصف عود الثقاب قبل أن ينطفىء. ومن شأن فتيل يبلغ طوله ثلاثين بوصة السماح بأربعين أو خمس وأربعين ثانية قبل الانفجار. وقد كسرت ساق عشب البامبا عند طول يبلغ خمساً وثلاثين بوصة، وهكذا راح الفتيان يحدّقان في العقرب الثاني لساعة كل منهما وهو يعبر خمسين ثانية.

ـ أسرعْ، اركضْ!

ـ كل شيء على ما يرام، إنني على بعد مائة متر.

تظاهر الفتيان، وهما على حالهما، بأنهما هربا بعيداً عن بقعة الانفجار، وتصرّفا كما لو أن أنفاسهما قد تقطعت، وراحا يضحكان فيما هما يتطلعان أحدهما إلى الآخر.

انقضت ثلاثون ثانية، ثم عشر ثوان أخرى. وبفضل خيالهما والوقت الذي انقضى، كانت العبوة الناسفة والكبسولة الغائرة فيها بعيدتين الآن عنهما. ولكن الفتيل أشعل وتمّ تحقيق جميع الشروط الضرورية للانفجار. وزحف اللهب على امتداد الفتيل كأنه دعسوقة حددت لنفسها هدفاً لا تحيد عنه.

أخيراً انفجرت العبوة المتصورة عند مسافتها المتخيَّلة. انطلق شيء قبيح وفاسد فجأة، كأنما أفسح المجال لفراق عنيف، وللحظة انشقت السماء. اهتزت أشجار البلوط في الأجمة المحيطة بهم، وأصبح كل شيء شفافاً، وغدا الانفجار نفسه شفافاً وهو يلطم السماء الحمراء، وينشر ضراوته. وأخيراً ساد السكون كل شيء.

قال إيساو فجأة مطلاً من الملفّ الذي كان يفحصه:

ـ السيف الياباني أفضل. إننا نحتاج إلى عشرين سيفاً، دونما تقصير.

وبمقدور بعض أصدقائنا بالتأكيد تسريبها من اجلنا من منازهم.

ـ أليس شيئاً طيباً أن نتعلم كيفية تجريد السيف والضرب به من قريب وكيف نختبره على مجرم ميت؟

قال إيساو بصوت هادىء، وإن بدت كلماته مترعة بحماس شعري بالنسبة للفتيين:

ـ ليس لدينا كل هذا الوقت، وبدلاً من ذلك، وقبل انتهاء العطلة إن أمكن، وإلا فبعد بدء الفصل الدراسي الخريفي، يتعينّ علينا جميعاً الاشتراك في معسكر التدريب على طقوس التطهر الذي يقيمه كايدوماسوجاي. ويمكننا الحديث عن أي شيء هناك، وهو لن يعترض على أيّ نوع من التدريب نقوم به، وإذا كان هذا هو مقصدنا فسوف يكون لدينا مبرر وجيه لترك بيوتنا.

ـ ليس بالأمر المبهج كثيراً الاستماع إلى المعلم كايدو من الصباح إلى المساء وهو يحاضر عن شرور البوذية.

ـ ذلك شيء يتعينّ عليك احتماله، إنه رجل يتفهمنا تماماً.

قالها إيساو ثم نظر إلى ساعته ونهض في الحال واقفاً على قدميه.

انتظر إيساو ورفيقاه عن عمد حتى تجاوز الوقت الساعة السادسة المحددة للقاء، وراحوا يحدقون باتجاه المزار عبر الباب الخفيض المجاور للبوابة الرئيسية الموصدة. غمر سنى الشمس الغاربة مجموعة الطلاب، ومضوا يتطلعون نحو مختلف الاتجاهات من دون أن يكونوا متأكدين مما سيرونه، وقد تجلى عدم ارتياحهم للعيان.

قال إيساو بصوت خفيض:

ـ أحْصِهم!

ـ جميعهم هنا.

قال إيزوتسو ذلك وقد عجز عن كبح جماح سعادته. غير أن إيساو كان

يعرف إلى أيّ حد سيفارق الحكمة إن ترك نفسه ينغمس في الشعور بالرضا لكونه موضعاً لمثل هذه الثقة. من المؤكد أن وجود كل الرجال أفضل من أن يكون هناك غائبون. ولكنهم تجمعوا هنالك بسبب برقية، لأنهم يتوقعون عملاً، أو بتعبير آخر بسبب شجاعة الشباب التي لا تهاب شيئاً، ولكي يكبح جماح إصرارهم هذا كان عليه أن ينتهز هذه الفرصة ليدفع بهذا الإصرار إلى غمار الماء البارد.

بدا سقف المزار ذو القرميد النحاسي قاتماً، فيما كانت الشمس الغاربة وراءه. ولكن أشعة الشمس مست العوارض المتقاطعة الزخرفية الرائعة لجملونه وسط الفروع الملتمعة لأشجار البلوط الأخضر والزيلكوفا المحيطة به، وسقط ضوء الشمس المتهافت على الحصى الجرانيتي الأسود المفروش داخل سياج المزار، ممسكاً بالقليل من كل حصاة ومانحاً إياها ظلها الخاص، أسود كعناقيد الكروم في نهاية الخريف. غرقت شجرتا ساكاكي حتى منتصفيهما في ظل المزار، بينما راحت فروعهما العليا تتألّق متوهجة.

التفّ الرجال العشرون حول إيساو الذي وقف يواجههم والمزار خلفه. وفيما هم يرقبونه صامتين أحس بتألّق أعينهم الراجع إلى النار المتوهجة في أعماقهم، بتوقهم إلى قوة ساطعة ترفعهم إلى عِلّيين، وأحس باعتمادهم الذي يوشك أن يكون مسعوراً، عليه.

قال، مبدّداً الصمت:

ـ لقد أحسنتم التصرّف بالتجمع هنا اليوم. وما من شيء كان يمكن أن يجعلني أكثر سعادة من حضوركم إلى هنا، على هذا النحو، من مناطق بعيدة تصل إلى كيوشو، من دون أن يتخلّف رجل واحد. لكن استدعاءاتي لكم لم تكن، على نحو ما ظننتم، لأن لي غرضاً من ورائها. لم يكن هناك غرض على الإطلاق. من كل أنحاء اليابان جئتم، متمسكين برؤية استقرّت في أفئدتكم، وقد تجمعتم هنا بلا جدوى قطّ.

ساد الجمعَ فجأة اهتياجٌ، وارتفعت غمغمة صادرة عنه.

رفع إيساو صوته:

ـ أتفهمـون؟ هذا الاجتـماع اليوم بـلا معنى على الإطـلاق. وليس هناك هدف له. وليس لديّ عمل على الإطلاق أعهد به إليكم.

لم يضف المـزيـد، وانحسرت الغمغمــة، وهيمن الصمت عـلى الفتيــة المجتمعين فيما كان الليل يحتويهم.

ثم ارتفع صوت غاضب بالصياح. وكان صـوت فتى يدعى سـيريكاوا، وهو ابن كاهن شنتو في أقصى الشمال الشرقي:

ـ ما الذي تفعله بنا؟ لو ظننت أنني أتعرض للسخريـة لما كـان بمقدوري احتـمال ذلك. لقـد احتسيت قدح مـاء وداعي لأبي قبل مغـادرتي الدار. لم يكفّ أبي عن الاشتعـال غضباً حيـال محنة القـرى الـزراعيـة، وقـال لي إن الوقت قد حان ليقوم الشبـاب بعمل شيء. ولـذا عندمـا وصلت البرقيـة لم يقل شيئاً، وإنما رفع قدحاً وداعياً معي، وأرسلني بعيداً. ولو أنه علم بأنني كنت موضعاً للسخرية أفتظن أنه لن يجد ما يقوله؟

تدخّل فتى آخر في الحديث متعجّلاً:

ـ ذلك صحيح، ما يقوله سيريكاوا صحيح.

قال إيساو مطالباً ومبقياً على هدوء صوته، فيما هو يسخر منهم:

ـ أي نوع من الهراء هذا؟ لست أتذكر أنني قدمت أية وعود. لقد تلقيتم برقيتي التي تبلغكم بالقدوم إلى هنا فحسب، وقد أطلقتم العنان لخيـالكم. أليس هذا هو مـا فعلتموه؟ أكـان هناك أي شيء آخـر في برقيتي ـ أي شيء بخلاف الزمان والمكان؟ قولوا لي!

ـ هناك شيء اسمه الفطرة السليمة. فلو أنك قرّرت القيـام بعمل مهم، أفكنت تبلغ النـاس بـه في بـرقيـة؟ كـان ينبغي أن نتفق عـلى مؤشر رمـزي والتزام واضح منك. ولو أننا فعلنا ذلك لما حدث هذا.

قالها سياما، وهو طالب في المدرسة الثانوية الأولى، وفي مثل عمر إيساو. ولما كان يقطن في شيبويا فإن القدوم إلى هنا لم يكن بالأمر الصعب بالنسبة له.

قال إيساو، مفنّداً ما طرحه بهدوء:

ـ ما الذي كان يمكن ألا يحدث على وجه الدقة؟ أليست هذه ببساطة عودة إلى موقف لن يحدث فيه شيء؟ ألا يعني ذلك ببساطة إدراككم أن ما تخيلتموه كان خطأ؟

أوغل الغسق في مسيرته بحيث ازدادت المشقة في تعرف أحدهم على ملامح الآخر. ساد صمت طويل. ولم يملأ العتمة إلا صرير الحشرات.

ـ إذن ما الذي يتعيّن علينا القيام به؟

عندما طرح أحدهم هذا السؤال في همس بائس جاء رد إيساو فورياً:

ـ من يُرِدِ العودة إلى داره فليعد!

انفصل شخص يرتدي قميصاً أبيض، في الحال عن الجمع، وأسرع نحو بوابة الكلية، ثم ابتعد آخران وغذّا الخطى. ولم يغادر سريكاوا الجمع، وإنما أقعى إلى جوار سياج المزار وأمسك رأسه بيديه، وخلال دقائق سمع الرفاق نشيجه المكتوم. بدا الصوت وكأنه يتخلل العتمة في أفئدتهم كموجة صقيع.

غمغم سيريكاوا في بكائه:

ـ لا أستطيع العودة إلى الوراء! لا أستطيع!

صاح إيساو:

ـ لم لا تعودون جميعاً إلى بيوتكم؟ رغم ما حدثتكم به ما زلتم لا تفهمون؟

لم يجبه صوت واحد. وفضلاً عن ذلك فإن هذا الصمت اختلف على

نحو ملحوظ عن الصمت الّذي سبقه. كان صمتاً يبعث الشعور بأن وحشاً هائلاً حارّ الدم قد نهض في الظلام. وللمرة الأولى استشعر إيساو استجابة حازمة. كانت استجابة حارّة تحمل رائحة حيوانية، كانت مترعة بالدم ومتدفقة بالنبض.

ـ ليكن، إذن، أنتم يا من تركتم دونما آمال وبلا توقعات كائنة ما كانت، هل أنتم على استعداد للتضحية بحياتكم في عمل قد لا يصل إلى شيء على الإطلاق؟

تحدث أحدهم بصوت مترع بكبرياء مضمّخة بالقوة:

ـ أجل.

هبّ سيريكاوا واقفاً وبدأ في السير باتجاه إيساو. دنت عيناه المخضلّتان بالدموع عبر الظلمة البالغة الكثافة، حتى إن محياه لم يبد ظاهراً إلا عندما أصبح قريباً للغاية. واختنق صوته بسبب البكاء، وعندما رفعه بجرأة كانت نغمته خفيضة على نحو مخيف:

ـ ما زلت هنا بدوري، وسوف أمضي وراءك حيثما ذهبت، وألزم الصمت.

ـ طيب، ليكن، دعونا نؤدّ قسمنا معاً أمام علياء الآلهة، دعونا نتقرب إليها ثم سأتلو مقاطع القسم، فرددوا كلاً منها ورائي، كلكم معاً.

تردّد صدى تصفيق إيساو وإيزوتسو وساجارا والسبعة عشر الآخرين حادّاً في غمار تعبُّدهم خلال الظلام، بانتظام كارتطام البحر الذي لفّه الظلام بمقدمة المركب.

ردّد إيساو مرنّماً:

ـ ليكن، على هذا النحو، أننا، نحن الذين ننسج على منوال نقاء عصبة الريح الإلهية، نخاطر بأرواحنا من أجل إبعاد كل الآلهة الشريرة والأرواح الضالة.

استجابت الأصوات الشابة الصادرة عن الآخرين وكأنها صوت واحد يرنم:

- ليكن على هذا النحو أننا نحن الذين ننسج على منوال نقاء عصبة الريح الإلهية نخاطر بأرواحنا من أجل إبعاد كل الآلهة الشريرة والأرواح الضالة.

جاء رجع صوت إيساو من الأبواب شبه المرئية المصنوعة من الخشب الخالي من الزخرف للمزار الداخلي. تصاعد الصوت قوياً وعميقاً من صدره مثقلاً بكل عذاب خيالات الشباب الملتفة بالغيم. وكانت النجوم قد أطلت من مكامنها، وتناهت ضوضاء الحافلات من بعيد. رنَّم إيساو من جديد:

- ليكن، على هذا النحو، إننا، نحن الذين ربطنا أنفسنا بأواصر الصداقة العميقة نساعد أحدنا الآخر كرفاق في مجابهة المخاطر التي تواجه الأمة.

- ليكن، على هذا النحو، إننا، نحن الذين لا نسعى إلى السلطة قط، ولا نحفل بالتقدم الشخصي، نمضي قُدُماً نحو موت مؤكد لنصبح أحجار الأساس للإصلاح.

ما إن انتهوا من ترديد قسمهم حتى أمسك أحد الفتية بيد إيساو بكفيه، ثم شبك كل منهم يديه بيدي الآخر، واندفعوا على عجل ليمسكوا بيدي إيساو. وتحت السماء المرقشة بالنجوم، وفيما غدت عيونهم أكثر اعتياداً على الظلام، دفعوا أيديهم مراراً وتكراراً في كل الاتجاهات، ساعين وراء الأكف التي لم تتلاحم معهم بعد. لزم الجميع الصمت، فما من كلمة كان يمكن أن تناسب الموقف.

امتدت الأيدي المتماسكة في كل صوب، وكأنما انبثق فيض من اللبلاب المعترش العنيد من قلب الظلام. وكل حالق من هذه النبتة المعترشة، سواء

أكساه العرق أم كان جافاً، صلباً أم ليناً، امتلأ بالقوة وهو يتماسك للحظة قصيرة تميّزها المشاركة المتبادلة، في دفء الأجساد والدماء. حلم إيساو بأنه ذات ليلة سيقف على هذا النحو مع رفاقه على أرض المعركة، مودعين بعضهم بعضاً وداعاً صامتاً قبل أن يلقوا مصارعهم، ومضى سابحاً في الشعور الرائع بالرضا النابع من المضيّ بالمهمة حتى نهايتها، وفي الدم المتدفق من جسمه مسلماً وعيه لذروة الحساسية تلك، حيث تنسج معاً الخيوط الأرجوانية والبيضاء للألم المطلق والنشوة المطلقة...

لما كان إجماليّ عددهم عشرين رفيقاً لم يكن بمقدورهم الالتقاء على نحو آمن في أكاديمية الوطنية. فمن المحتمل أن عيني إينوما ستصلان إلى قرار خطط إيساو. ومن ناحية أخرى كانت دار إيزوتسو أصغر من أن تصلح ملتقى لهم، ولم تكن دار ساجارا مناسبة كذلك. وقد كان هذا الأمر موضع اهتمامهم ثلاثتهم منذ البداية، ولكن ما من خطة عملية طرحت ذاتها، وحتى لو وضع الثلاثة المبالغ الصغيرة المتاحة لهم معاً لما كان بوسعهم التكفّل بأمر تكلفة لقاء الرفاق العشرين في أحد المطاعم. ثم إن المقهى ليس بالمكان المناسب للحديث في الأمور الخطيرة.

والآن، وبعد عناق الأيدي تحت النجوم الذي كرس تحالفهم، كان إيساو هو الذي شعر بالتردّد في وضع نهاية للأمور في تلك الليلة، دون إضافة المزيد، ثم إنه شعر بالجوع كذلك، ولا شك أن كل الفتية كانوا جوعى. والتفت بعينين حائرتين نحو البوابة الرئيسية حيث يتخايل ضوء خافت.

تحت ضوء البوابة، وإلى أحد الجانبين، كان ثمة شيء يشبه زهرة القمر، بدا كما لو كان يطفو في الهواء. كان محيا امرأة تقف هنالك، ورأسها محنيّ قليلاً، لأنها لم تكن ترغب في أن يراها أحد. وما إن اكتشفتها عيناه حتى وجد أنه لا يستطيع إبعادهما عنها.

في موضع ما من فؤاده أدرك هويتها. غير أن الرغبة التي تملّكته تمثّلت في أن يُمضي وقتاً أطول قليلاً من غير أن يعرف من هي. فقد كان لمحيا المرأة في عزلته المعتمة، وبغير أن يرتبط به اسم، بُعْدُ الطابع الغامض البديع لشبح يتراءى في البعيد. كان يشبه عبق شجرة زيتون مزهرة يوحي للمرء وهو يمضي على درب في قلب الليل، بالبراعم قبل أن يراها. أراد إيساو أن يبقي الأمور على ما هي عليه تماماً، ولو للحظة أخرى. وفي هذه اللحظة تبقى المرأة امرأة، لا مخلوقاً يرتبط باسم ما.

لم يكن هذا كل ما هنالك، فبسبب اسمها المحتجب، والتوافق على عدم البوح بذلك الاسم، تحولت إلى ماهية رائعة، مثل زهرة القمر، تحتجب ساقها التي تدعمها وتطفو عالية في الظلمة. وهذه الماهية التي تسبق الوجود، هذا الوهم الذي يسبق الواقع، هذا النذير الذي يسبق الحدث، إنما ينقل بقوة لا سبيل إلى الخطأ بشأنها حضور جوهر أكثر قوة. وهذا الحضور الذي أفصح عن نفسه طافياً في الهواء ـ كان امرأة.

لم يقدر لإيساو أن يعانق امرأة من قبل. ومع ذلك فإنه لم يشعر أبداً بأنه يعرف بدوره معنى النشوة على نحو ما عرفه في هذه اللحظة، حينما استشعر بحدّةٍ «الأنوثة التي تسبق المرأة». فقد كان ذلك حضوراً يمكنه الآن أن يعانقه. ذلك أنه في الزمان اقترب بلطف رائع، وفي المكان لم يعد نائياً بل على شيء من البعد. كان الانفعال الرقيق الذي امتلأ به صدره يشبه ضباباً يمكن أن يلفها. ولكن، مع ذلك، ما إن تمضي هذه المرأة حتى يغدو بمقدور إيساو، مثلما الطفل، أن ينساها تماماً.

غير أن إيساو، بعد أن ترك أفكاره تحوم حول هذا الحضور، ألفى نفسه، على الرغم من رغبته السابقة في الحفاظ على هذه اللحظة، عاجزاً عن احتمال الحيرة أكثر من ذلك.

ـ انتظرني!

أصدر إيساو أمره لإيزوتسو بصوت فيه من الارتفاع ما يكفي ليسمعه الجميع، ووثب مسرعاً نحو البوابة. تردّد صوت جاف خافت لنعلين خشبيين ينطلق صاحبهما عدواً بأقصى سرعته، فيما كان الكيمونو المرقش بالزخارف البيضاء يختفي تحت جنح الظلام.

مضى إيساو مجتازاً الباب الخفيض إلى جانب البوابة. وعلى نحو ما تخيّل تماماً كانت المرأة الواقفة هناك هي ماكيكو.

كان شعر ماكيكو مصفّفاً بطريقة مختلفة، وهو شيء لاحظه إيساو في الحال، رغم افتقاره إلى الخبرة في هذا المجال. كانت تسريحة حديثة يغطي الشعر في إطارها الأذنين من دون أن يترك إلا أطرافاً حول صدغيها ووجنتيها، مطبقاً على ملامحها، ومضفياً على محياها سمة غموض رفيع القدر. وعلى الرغم من أنها لم تكن بالمرأة التي تميل إلى استخدام الكثير من أدوات الزينة فإن مؤخرة عنقها بدت بارزة كما لو كانت جزءاً من نقش بارز فوق قماش الكريب الذي صنع منه كيمونو أكاشي الذي كانت ترتديه، والذي بدا بلون زرقة البحر في الظلام. لفت موجة من عبير منبعث من جسمها إيساو بقوة تضغط على الأعصاب.

ـ السيدة ماكيكو! ما الذي تفعلينه هنا؟

ـ ما الذي أفعله؟ لقد جئتم جميعاً إلى هنا في الساعة السادسة، أليس كذلك؟ لتؤدوا قسمكم.

ـ كيف عرفت ذلك؟

تألّقت أسنان ماكيكو وهي تردّد ضاحكة:

ـ لا تكن سخيفاً! ألم تقل أنت نفسك هذا لي؟

وإذ ووجه إيساو بالتحدي على هذا النحو اضطر إلى الإقرار بأنه قبل أيام، وفي غمار اهتمامه بالمشكلة الحاضرة دائماً، والمتمثلة في عدم وجود مكان للقاء، ربما تصادف أن زل لسانه فذكر موعد أداء القسم ومكانه بحضورها. وقد كان على الدوام على استعداد لإطلاع ماكيكو على أي

شيء حميم وسرّي، ولكنه شعر بالخجل حيال فكرة كشفه لشيء مهمّ، ونسيان كل ما يتعلق بالأمر بعد ذلك، ولها من بين الناس كافة. ربما كان يفتقر إلى إحدى المزايا الجوهرية التي ينبغي أن تتوافر لمن يقدر له أن يقود الرجال، ويفجر الأحداث. وكان بمقدوره أن يرصد في إهماله لمثل هذا الأمر الخطير اعتماداً مفتقراً للرجولة من جانبه عليها. وعلى الرغم من أنه مختلف أمام رفاقه، إلا أنه في حضور ماكيكو أحس برغبة مراوغة في أن يبدو شاباً طائشاً.

ـ طيب... كل ما هنالك أنك فاجأتني. ولكن فيمَ قدومك؟

ـ حسبت أنك بعد أن جمعت هذه المجموعة الكبيرة من الطلاب معاً سيتعذّر عليك توفير مكان للقاء على صعيد واحد. وتصورت، في المقام الأول، أن الجوع قد اشتد بكم. ألستم كذلك؟

حك إيساو رأسه بحيرة صبيانية.

ـ لسوف يسعدنا أن نقدم لكم العشاء في دارنا، ولكن بما أنها تقع بعيداً عن هنا فقد اقترح أبي دعوتكم إلى عشاء من السوكياكي[1] في شيبويا، وأعطاني هذه النقود لهذا الغرض. فقد دُعي إلى أمسية شعرية الليلة؛ ولذا فإنني هنا لأكون بديلة عنه، ولأدعوكم أيها السادة إلى رحاب كرمنا، لا تقلق، فسوف أتولّى أمر فاتورة الحساب.

ثم رفعت ماكيكو، وكأنها تسحب سمكة صيدت لتوّها، حقيبة يد من طراز بنها بحركة سريعة من يدها البيضاء. وعلى الرغم من الرشاقة الهشة للمعصم الناحل الذي أطل من زند الكيمونو، فقد كانت يداً توحي، فيما يبدو، بشيء من إرهاق أواخر الصيف.

---

(١) السوكياكي: من الأكلات اليابانية الشهيرة، وهي مؤلفة من شرائح رقيقة من لحم البقر، مع الخضر، والكونياكو، والتوفو، وعادة ما يقدم معها حساء مطعم بصلصة فول الصويا. وتعد من الوجبات المغذية، وقد شاعت فأصبحت من الوجبات العالمية، وتنتشر بصفة خاصة في المطاعم الأميركية. (هـ. م.)

- ١٩ -

في ذلك الوقت، على وجه التقريب، كان هوندا يشاهد عرض مسرحية «ماتسوكازي» في مسرح نو أوساكا في تينوجي ـ دوجاشيبا، بدعوة من زميل له كان مولعاً بأن يؤدّي بنفسه أناشيد النو. وكانت بطولة العرض لكانيسوكي نوجوتشي من طوكيو في دور شايتي بالاشتراك مع يازو تامورا الذي يساعده بأداء دور واكاي. وقد انتصب المسرح على سفح تل يوماتشي بين تينوجي وقلعة أوساكا. وقد كان هذا حيّاً يضمّ دارات منيفة في بداية عهد تايشو، ومنطقة قاصرة على سكانها، تحيط الأسوار العالية بداراتها. وقد استخدمت إحدى هذه الدارات مسرحاً للنو، برعاية عائلة سوميتومو.

تألف معظم الضيوف من تجار بارزين، وقد تعرف هوندا على الكثيرين منهم. أما فيما يتعلق بنوجوتشي، الممثل الشهير، ذي الصوت الصارم فقد بادر زميل هوندا إلى تحذيره من أنه على الرغم من أن أداء هذا الممثل قد يبدو، من الناحية الصوتية، شبيهاً بصوت أوزة تُخنق، فإن عليه ألا يضحك بحالٍ من الأحوال. وتنبأ بأنه على الرغم من جهل هوندا بمسرح النو فإنه لدى مضيّ العرض المسرحي قُدُماً سيجد نفسه فجأة وقد ثارت انفعالاته وعواطفه.

كان هوندا قد وصل إلى العمر الذي لا تؤدي عنده مثل هذه النوعية من النصائح إلى إثارة عداء طفولي. وعلى الرغم من أن العقل الذي كان أساساً يستند إليه قد شرع يتداعى، عندما التقى بإيساو وإينوما في مطلع الصيف، فإن عاداته المألوفة في التفكير لم تتغيّر. ومن جديد ألفى نفسه

مؤمناً بأنه كما لم يقدر له أن يُصاب بمرض تناسلي قطّ، فكذلك لا سبيل لأن تشقّ الإثارة العاطفية والانفعالية طريقها إليه.

ما إن انتهى الحوار بين «الواكاي» في هيئة كاهن وبين المهرج حتى دخل «الشايتي» ورفيقه عبر الممشى الواقع إلى يسار مؤخرة خشبة المسرح. وأوضح زميل هوندا له أن الموسيقى الهادئة الجليلة التي تصاحب هذا الدخول الآن لا تعزف عادة إلا مع مشهد الدخول في المسرحيات التي تدور حول الآلهة، ومسرحية «ماتسوكازي» تضم الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة. وقد نظر إلى هذه الموسيقى نظرة تقدير شامخة، بحسبانها تعبّر عن القوة الكاملة للغيب.

واجه ماتسوكازي وموراسامي أحدهما الآخر، وكلاهما يرتدي ثياباً بيضاء تكشف عن الملابس الأرجوانية التي تنسدل تحتها، على جسر الدخول، ثم شرعا ينشدان في توافق، وفي هدوء، فيحاكيان هطول المطر وانسيابه متخللاً شاطئاً رملياً: «جارين عربة ملحنا على الطريق، نحيا في هذا العالم الحزين حياة ما أقصرها، وما أسرع ما تنقضي!»

على الرغم من أن ذهن هوندا قد شتت تركيزه انعكاس أشجار الصنوبر المدببة الأطراف على الأرضية المتألّقة المصنوعة من خشب السرو، وكانت تشكل خشبة المسرح، وقد راحت تلتمع باهرة تحت إضاءة مسرح النو الحادة، إلا أن المقطع الأخير «ما أسرع ما تنقضي!» دوّى واضحاً في مسمعه، فيما كانت نغمة صوت المرافق الأخف والأكثر إشراقاً، تتشابك مع صوت كانيسوكي نوجوتشي الأكثر عمقاً والأشد كآبة الذي يتردّد دوماً وكأنه على حافة الانكسار.

لما لم يكن هناك، بالطبع، ما يشوش الإصغاء فقد كان من الممكن في يسر تذكر الكلمات:

ـ «جارين عربة ملحنا على الطريق، نحيا في هذا العالم الحزين حياة ما أقصرها، وما أسرع ما تنقضي!»

وبغضّ النظر عن مدى نحول الكيان ونحافته اتّخذ القوام الرشيق للمقطع الشعري هذا شكلاً بارزاً في ذهن هوندا. وفي تلك اللحظة أخذته رعدة لم يدرِ لها سراً.

ثم شرع المرافق في إنشاد المقطع الثاني: «الأمواج تتلاطم دانية منا، ها هنا في خليج سوما، رغم أن البدر يهيج فينا مكامن الدمع الذي يبلل أرداننا».

وبعد أن انضم الاثنان أحدهما إلى الآخر لينشدا كلمات الختام، شرع الشايتي، في هيئة ماتسوكازي، ينشد مفاجأة قوية للذات: «ريح الخريف تحزن الفؤاد غير بعيد عن البحر...».

على الرغم من أن كانيسوكي نوجوتشي كان يضع على وجهه قناع امرأة جميلة في مقتبل العمر، فإن صوته لم يكن به شيء مما يعيد إلى الأذهان جاذبية المرأة. كان صوتاً يدفع المرء إلى التفكير في الصوت الخشن الصادر عن ارتطام قطع من معدن صدىء ذهبت الأيام بألوانه. وفضلاً عن ذلك فإن إنشاده كانت تعترضه الانقطاعات، وبدا أن أسلوبه في الإنشاد يمزق بهاء الكلمات إرباً، ولكن على الرغم من هذا كله كانت الحالة النفسية التي يوحي بها شبيهة باندفاع غيمة غير بديعة معتمة تستعصي على التفسير، مثل مشهد شعاع من سنى البدر يتألق على ركن من قصر لحقه الدمار، ليسقط على أثاث في لون عِرْق اللؤلؤ. ولأن السنى ينساب عبر مصراع خيزراني بالٍ محطّم، فإن بهاء النثار يزداد تألقاً.

من هنا فإن صوته الصارم غدا، تدريجياً، بعيداً عن إثارة الضيق، بل كان الأمر على العكس من ذلك، فالمرء يساوره الشعور بأنه من خلال هذا الصوت الصارم فحسب يمكن له أن يدرك، للمرة الأولى، الحزن الممتزج

بدموع ملحية وقد ساور ماتسوكازي، والحب الكئيب الـذي يهيمن على من ينتمون إلى عالم الموتى.

وفي لحـظة ما وجـد هونـدا أن من المتعذّر عليـه أن يحـدد مـا إذا كـانت الصور التي تمضي جيئة وذهاباً أمامه تنتمي إلى عالم الواقـع أو عالم الـوهم. وعلى سطح خشب السرو المتـألق الذي يشكـل خشبة المسرح، وشـأن بحر سـاج يتـألق عنـد خط الـبر، انعكس زخـرف الأرديـة البيضـاء والملابس الأرجوانية التي تشف عنها، والتي ترتديها امرأتان جميلتان.

تأرجح في فؤاد هوندا، مختلطاً بكلمات مناجاة النفس، متشبثاً على نحـو عنيد، المقطع الشعري الأول: «جارين عربة ملحنـا على الـطريق، نحيا في هذا العالم الحزين حياة ما أقصرها، وما أسرع ما تنقضي!»

لم يكن يخطر بباله معنى هذا المقطع الشعري، وإنمـا مغزى الـرعدة التي لا تفسـير لها، والتي أخـذته عنـدما وقف الشـايتي ورفيقـه معـاً عـلى الجسر وأنشداه، ولحظة الإنشاد المثقلة بالسكـون التام، والإنشـاد يهمي مثل مـطر هادىء ينساب.

مـا عساه يكـون ذلك المغـزى؟ عند ذاك كـان الجمال نفسـه قد شرع في السـير أمامـه. مثل طـائر رسـول الغيث المحلّق على الشـاطىء، القويّ في طيرانه، غير المتوازن على الأرض، تحركت الأقـدام التي كساهـا التابي عـلى أطراف الأصابـع، وكأنمـا أقبلت للحظات عجـلى لتشقّ طريقهـا عبر العـالم الذي يعرفه الإنسان.

غير أن هذا الجمال لا يطرأ إلا مـرّة واحدة، وليس بمقدور الرجل إلا أن يحيله إلى ذكـرى، في التـوّ، في وقت لاحق، ثم إنـه كـان جمـالاً يستبقي إحباطاً نبيلاً، تجرُّداً من الهدف والغرض.

تـواصلت مسرحية النـو متوافقـة مع انـدياح خـواطر هـوندا غـديراً من عواطف لا تعرف الجمود.

«ساكنين في هذا العالم الذي نجده تعساً على هذا النحو، حتى ونحن نحسد البدر اللاهي في عليائه، دعنا نغترف المدّ الذي يجتذبه».

لم يعد ما ينشد ويتحرك على خشبة المسرح سابحاً في سنى البدر شجى امرأتين جميلتين، وإنما هو شيء يعلو على الوصف قد يدعوه المرء بجوهر الزمان، لب العاطفة، الحلم الذي يفرض نفسه بعنفوان على الواقع. لا غرض له، ولا معنى، وبين لحظة وأخرى يصوغ جمالاً لا ينتمي إلى هذا العالم. ها هنا أيّ أمل في أن لحظة من جمال ستعقب أخرى على الفور؟

على هذا النحو اجتُذِب هوندا تدريجياً إلى حالة من الانفصال الكئيب. وأصبحت أفكاره الآن متركزة بوضوح على بؤرة محدّدة. وجود كيواكي، حياته وما أسفرت عنه من عواقب ـ أدرك هنا أن وقتاً طويلاً قد انقضى حقاً منذ ركز بهذا الإصرار على هذا كله. وكان من اليسير أن يفكر في حياة كيواكي باعتبارها نسمة من عبير مرّت عابرة في وهن على عهد ما، قبل أن تتبدّد. ورغم ذلك فإن خطيئة كيواكي وتحطم قلبه بقيا لا يريمان. ولم يستطع هوندا نفسه قط أن يتصالح مع هذا.

تذكر هوندا صباحاً ذابت فيه الثلوج، في حرم مدرسة النبلاء، قبل بدء الدروس، وكان يجلس مع هوندا في تعريشة تحيط بها أحواض الزهور، يصغيان إلى صوت انسياب الماء. وقد استغرقا في حديث طويل، وهو شيء نادر بالنسبة لهما.

كان ذلك في مطالع الربيع، في العام الثاني لعهد تايشو، أي عام ١٩١٣. وكان كل من هوندا وكيواكي في التاسعة عشرة من عمره. وقد انقضى تسعة عشر عاماً من ذلك الحين. وتذكر هوندا تأكيده على أنه، شاء المرء أم أبى فإنه بعد قرن من الزمان سيدرج مع كيواكي في فكر العصر في كتلة واحدة مع أولئك الذين لا يكن لهم أدنى درجة من التقدير، ليصنفا معهم على أساس ضروب واهنة للغاية. وتذكر كذلك أنه تحدث عن

المفارقة الكامنة في علاقة الإرادة البشرية بالتـاريخ، ذاهبـاً في إصرار إلى أن كـل شخص قوي الإرادة مـآله في نهايـة المطاف إلى الإحبـاط، وأن السبيل الوحيد للمساهمة في التاريخ هـو «أن نعمل فحسب بـاعتبارنـا ذرة متألقـة، جميلة، خالدة، ولا تعرف التغيّر».

كانت الاصطلاحات التي استخدمها مجردة تماماً، ومع ذلك فإنه فيما كان يتحـدث في صباح ذوبـان الثلج ذاك ارتاحت عينـاه على مـلامـح كيـواكي الجميلة المتألقة. ومن الجليّ أنه بوجود كيـواكي أمامـه، شابـاً يفتقر إلى قـوة الإرادة، وقد كرَّس نفسه لتقلّبات العاطفة، رسمت كلمات هوندا من تلقاء ذاتها صورة لكيواكي نفسه «أن نعمل فحسب باعتبارنا ذرة متـألقة، جميلة، خالدة، لا تعرف التغيّر» ـ تحديداً واضحاً لطريقة حياة كيواكي.

ولا شك أنه عندما يمر قرن من الزمان على ذلك الصبـاح سيتغيّر منـظور الـرؤية. ومضيّ تسعـة عشر عامـاً لم يكن كافيـاً للتعميم، كما أنـه زمن من البعـد بحيث لا يسمح بـالتقـديـر الـدقيق. لم تختلط صـورة كيـواكي بعـد بالصورة الخشنة المفتقرة تماماً للحساسية التي تجـلى عليها فتيـة فريق الكنـدو في عكـوفهم على الخشـونة. ومـع ذلك فـإن صـورة كيـواكي الخـاصـة عن «الشخصية البطوليـة» كسابق لتلك الفـترة القصيرة والعجـلى في بدايـة عهد تايشو، عندما كان الاستسلام الكلّي للعواطف يحظى بالتحبيـذ، قد فقـدت الكثير من حيويتها لدى النظر إليها عبر السنين. وأصبحت العاطفة الجائحة لذلك العهد، باستثنـاء استمرارهـا الأثير في الإلحـاح على ذاكـرة الإنسان، شيئاً يثير الضحك.

وإذ يترك كل عـام يمرّ أَثَـرَه، فإن الأعـوام تواصـل تغيير مـا كان جليـلاً لتحوله إلى مادة لملهاة. هل يتآكـل شيء ما؟ وإذا كان المظهـر الخارجي هـو الذي يتآكل، فهل من الصحيح إذن أن السموّ لا يتعلق بـطبيعته إلا بمظهر يخفي وراءه جوهراً من الهباء؟ أم أن السموّ يتعلّق بالكل حقاً، ولكن ترابـاً جديراً بالضحك يكسوه؟

عندما تأمل هوندا شخصيته لم يجد خياراً أمامه إلا الوصول إلى أنه رجل له إرادته. غير أنه في الوقت نفسه لم يستطع تجنب الشكوك في قدرة تلك الإرادة على تغيير أي شيء، أو تحقيق أي شيء، في المجتمع المعاصر، دع جانباً المستقبل. وغالباً ما كانت الأحكام التي يصدرها في المحكمة تحدّد ما إذا كان رجل ما سيحيا أو سيلقى حتفه. وربما بدا مثل هذا الحكم بالغ الأهمية وقت صدوره، ولكن مع مرور السنين ـ وإذ كان البشر جميعاً مآلهم الموت ـ فإنه يتبين أنه لم يقم إلا بالتعجيل بدفع إنسان إلى قدره، وأن مصارع الرجال حزمت بعناية في أحد أركان التاريخ حيث سرعان ما تختفي. وأما عن الظروف الداعية للقلق التي تحيط بالعالم الراهن، فعلى الرغم من أن إرادته لا شأن لها بإيجاد هذه الظروف فإنه كان باعتباره قاضياً رهن إشارتها على الدوام. أما إلى أي حدّ نبعت الخيارات التي صنعتها إرادته من العقل الخالص، وإلى أي مدى فرضت عليه دون أن يدرك ذلك، من قبل الفكر السائد للعهد، فقد ظلت تلك مسألة عجز عن البتّ فيها برأي قاطع.

ثم من جديد، عندما يتطلع هوندا إلى العالم من حوله، وبغضّ النظر عن مدى تدقيقه، فإنه لم يقدر له أن يرى أي أثر يمكن تتبعه لشاب يدعى كيواكي ـ لعاطفته العنيفة، لموته، لحياة الجمال التي عاشها. لم يعثر في أي موضع على دليل يفيد أن شيئاً قد حدث نتيجة لموته، أو أن أيّ شيء قد تغيّر بسبب هذا الموت. لقد بدا وكأنه مُحي بلطف من التاريخ.

في غمار مثل هذه التأملات أدرك هوندا أن تفسيره للأمر، قبل تسعة عشر عاماً، قد تضمّن نذيراً غريباً. ذلك أن بعد إيضاح الإحباط الذي ينتظر إرادة تصرّ على أن يكون لها تأثير على التاريخ، اكتشف هوندا أخيراً أن جدواه هو نفسه تكمن، على وجه الدّقة، في إحباط تلك الإرادة. والآن، بعد تسعة عشر عاماً، يجد نفسه في موضع حسد لكيواكي؛

لافتقاره لأي شيء يشبه من بعيد تلك الإرادة، ولأنه لم يترك أثراً واحداً في العالم. ولم يستطع إلا أن يتعرف في كيواكي الذي غابت صورته عن التاريخ، على مادة داخلية أسمى من مادة هوندا لمساهمته في التاريخ.

كان كيواكي جميلاً. وكانت حياته بلا جدوى، مجرّدة من أي غرض، كائناً ما كان. لقد مرَّ سريعاً عبر العالم، واقتصر جماله بصورة قاسية على عمر واحد، على لحظة كتلك التي يصوّرها المقطع الشعري: «جارين عربة ملحنا على الطريق، نحيا في هذا العالم الحزين حياة ما أقصرها، وما أسرع ما تنقضي!»

نهض، في حدة، المحيا الوحشي لشاب آخر، ليظهر وسط الزبد المدوِّم للجمال الراحل. كان جمال كيواكي وحده هو الذي يمكن أن يطرأ مرة واحدة. وقد جعل فيضه ذاته من تجدد الحياة شيئاً جوهرياً. يتعيّن أن يحدث بعث. ثمة شيء ظل دوماً تحقق في كيواكي، شيء لم يجد تعبيراً فيه إلا كعنصر سلبي فحسب.

محيا ذلك الشاب الآخر... لقد نزع قناعه المستخدم في رياضة الكندو، ومضت عوارضه تتألّق في ضوء الشمس الصيفية. تقاطر العرق على ملامحه. انتفخ مِنخراه وهو يتنفس بعنف. وشكلت شفتاه خطاً في استقامة سيف.

لم يعد الشبحان اللذان حدّق فيهما هوندا على خشبة يلفّها ضوء كالغيم هما القوامان الفاتنان للشايتي ورفيقه في هيئة امرأتين تنقلان ماء البحر من موضعه[1]. كان الاثنان اللذان ينفذان مهمة مثقلة بالإحباط، واقفين حيناً

---

(١) قد يضيع المغزى الحقيقي للفقرة، بل للفصل التاسع عشر بكامله على القارىء، ما لم يعد بذهنه إلى حقيقة بسيطة تتعلق بمسرح النو. فالأعمال التي تقدم في إطار هذا المسرح ينقسم كل عمل منها عادة إلى قسمين. وفي القسم الأول تطل شخصية أو أكثر في هيئة امرأة عجوز، أو صياد فقير، أو فلاح في طريقه إلى أرض =

وجالسين حيناً آخر، برشاقة فريدة تحت أشعة البدر، شابين ينتميان إلى عهدين مختلفين. كانا شابين في عمر واحد. ومن بعيد يشبه أحدهما الآخر. ولكن لدى الاقتراب منهما فإن شخصيتيهما المتناقضتين تناقضاً كاملاً تظهران بجلاء. اليدان القويتان لأحدهما تعلوهما الجسآت من القبض على السيف، واليدان البيضاوان للآخر تظهران ناعمتين من التراخي، هذه الأيدي كرست بالتناوب لنقل ماء بحر الزمن. وبين الفينة والأخرى يتخلل أنين الناي، مثل شعاع من أشعة البدر ينساب عبر فرجة في السحب، الشكلين الفانيين للشابين، وبالتناوب يجران عربة الملح وعجلاتها التي يبلغ قطر الواحدة منها أربع عشرة بوصة يزينها الدمقس الأرجواني، خلال الماء المتألق السطح عند حافة البحر. غير أن ما تناهى إلى سمع هوندا هذه المرة لم يكن المقطع الشعري الرائع الفاتر على نحو ما: «جارين عربة ملحنا على الطريق، نحيا في هذا العالم الحزين حياة ما أقصرها! وما أسرع ما تنقضي!». فقد تغير المقطع الشعري إلى سوترا منظومة شعراً: «ستة دورب يتعينّ على الكائنات الرقيقة الحس التي ولدت من جديد أن تسلكها بلا هوادة، مثلما عجلة لا تكفّ عن الدوران». وعلى خشبة المسرح بدأت عجلات عربة الملح تدور وتدور.

فكر هوندا في المذاهب المختلفة لتناسخ الأرواح والبعث التي كان قد

= الحصاد، أو شخصية متواضعة من هذا النوع، ولكن في القسم الثاني من العمل تطل الشخصية، أو الشخصيات، نفسها، في هيئتها الحقيقية التي كانت لها في السابق، كامرأة جميلة، أو محارب عظيم. وغالباً ما ينقل العمل المفارقة بين شبح أو روح معذبة وبين شخصية تتوهج بالحياة والعنفوان، وربما كان مسرح النو هو الفن الأكثر عظمة في التجسيد المؤثر للفارق بين عالمي الأحياء والموتى. وميشيما الذي كتب مسرحيات النو، في إطار حديث، كما نعلم، يلتقط هذه الموضوعة وينسج عليها، ببراعة، مصوراً من ناحيةٍ ما يجري من انفصال موجع على المسرح، ومن ناحية أخرى الانفصال بين عالمي كيواكي وإيساو. (هـ. م.)

صادفها عندما كرس نفسه ذات مرة لهذة الدراسة. فالكلمة التي تعني كلاً من تناسخ الأرواح والبعث، في اللغة السنسكريتية، هي «سمسارة»[1]. ووفقاً لمذهب تناسخ الأرواح فإن البشر قدر لهم اجتياز الحالات الست لمجال الوهم دونما توقف ـ جحيم الأرض، جحيم التضور، جحيم الوحوش، جحيم الصخب، الوجود البشري، الوجود الأثيري. غير أن اصطلاح «البعث» يستخدم في بعض الأحيان ليعني الانتقال من مجال الوهم إلى مجال الاستنارة. وفي تلك الحالة فإن تناسخ الأرواح يصل إلى النهاية، فالتناسخ يتضمن بعثاً بالضرورة، وأما البعث فلا يتضمن بالضرورة تناسخاً.

وعلى أية حال فإن البوذية تسلم بأن هناك موضوعاً يتعرض لهذا التناسخ، ولكنها لا تقر هذا الموضوع بحسبانه يشكل جوهراً دائباً لا يتغير. ولما كانت تنفي وجود الذات فلا مجال فيها لوجود الروح أيضاً. فليس هناك شيء إلا نواة مراوغة للغاية في قرار نشاط عقلي، شيء يرتبط بدواخل دوران دولاب الظواهر المحيطة بالميلاد والموت المستمرين اللذين يصاحبان تناسخ الأرواح. ذلك، إذن، هو الموضوع ـ الشيء الذي يصفه مذهب اليويشيكي «أو الوعي وحده» بأنه «وعي الألايا».

ولما لم يكن لأي من أشياء هذا العالم، بما في ذلك الكائنات رقيقة الحس، روح هي بمثابة موضوعها الجوهري، ولما كانت الكائنات الغليظة

(١) سمسارة Samsara: وفقاً لكتاب «الأوباساد» البوذي، فإن السمسارة معناها الحرفي عودة الروح، فبعد أن تنال الروح نصيبها من النار أو من النعيم لا تستقر هناك، وإنما تولد من جديد، وتظل كذلك مراراً حتى تعرف حقيقتها فتنفرد بذاتها لإلهها، وتتخلص من مسؤولياتها الدنيوية، وتعود إلى ربها في عالم البهجة والسعادة. (هـ. م.)

الحس التي ظهرت عرضاً تفتقر حتى إلى موضوع جوهري، فإنه لا وجود في الكون لشيء يتملك حقاً ناصية ماهيته.

وإذا كان موضوع تناسخ الأرواح هو وعي الألايا فإن نمط نشاط التناسخ يشكل كارماه. وعند هذا الحد تتعدد النظريات، «التأويلات المائة ألف» التي تشكل طابع البوذية. وتذهب إحدى النظريات إلى أن وعي الألايا دنسته الخطيئة بالفعل، ومن ثم فإنه هو ذاته كارما. وتذهب نظرية أخرى إلى أن وعي الألايا نصفه مدنس، والنصف الآخر نقي؛ ومن هنا فإنه يمكن أن يستخدم جسراً للخلاص.

تذكّر هوندا أنه خاض في غمار دراسته عباب هذا النظريات المركّبة المتعلقة بالكارما وبأصل الأشياء، وكذلك الميتافيزيقا الصعبة لـ «الكليات الخمس»، التي هي منبع الاستمرار، ولكن قبضته على ناصيتها لم تعد في حقيقة الأمر قوية كذي قبل.

في غضون ذلك كانت مسرحية «ماتسوكازي» قد تقدّمت نحو ذروة نصفها الأول.

شايتي: إلى هذا الدلو دلفت صورة البدر.

الجوقة: يا له من حادث سعيد! إليه أيضاً دلفت صورة البدر.

شايتي: البدر ليس إلا واحداً.

الجوقة: اثنتان هما صورتاه. إننا نحمل البدر ذاته متألقاً في مياه المدّ، على عربتنا الليلية. الآن لم يعد كل هذا الكدح تعساً ونحن نجرّ حملنا إلى الدار.

بالنسبة لهوندا، عاد ماتسوكازي وموراسامي الجميلان ليشغلا خشبة المسرح. نهض الواكي في دور الكاهن من موضعه عند العمود المخصّص له. وكان بمقدور هوندا أن يميز محيا كل مشاهد، وأن يسمع كل ضربة على الطبل.

الآن بدت لهوندا تلك الليلة التي أمضاها مسهّداً في فندق نارا، بعد أن ظنّ أنه قد جوبه ببرهان على تناسخ روح كيواكي كأنها حدث ينتمي إلى الماضي البعيد، يتذكره على نحو غامض. فمن المؤكد أن صدعاً قد ظهر في أساس العقل، ولكن التراب قد ملأ الصدع في الحال، وبرعم منه عشب الصيف الوافر حاجباً ذكرى تلك الليلة تماماً. وكما في دراما النو المتجلّية أمامه، واجه شبح عقله، فكفّ عقله لفترة وجيزة عن العمل. فليس إيساو بالضرورة هو الشاب الوحيد الذي له مجموعة من الشامات في الموضع الذي كانت لكيواكي شامات فيه. واللقاء تحت الشلالات ليس بالضرورة تحت الشلالات التي تحدث عنها كيواكي في غيبوبته الأخيرة. وحدثان عرضيان من هذا النوع يقدمان أساساً واهياً لاستنتاج أن كيواكي قد بعث مجدّداً.

بدا لهوندا الآن، وهو المتمرس بالقواعد الإجرائية للقانون الجنائي، أن من قبيل الاندفاع البالغ الوصول إلى هذا الاستنتاج من دون دليل أكثر قوة. فقد تألقت في أعماقه الرغبة في تصديق بعث كيواكي وكأنها انبثاقة مائية في قرارة بئر جافة، ولكن عقل هوندا حدثه على نحو لا سبيل إلى مراجعته بأن البئر جافة. وأما وجود شيء ملتبس فيما يتعلق بأساس هذا العقل من عدمه فهو أمر من المؤكد أن تركه دونما تمحيص يعد السبيل الأفضل. وخير منهاج هو ترك الأمور على ما هي عليه.

صاح دهشاً وقد ساوره شعور بأنه قد ثاب فجأة إلى رشده:
ـ ما أحمقني! ما أشد حماقتي! ليس هذا بالشيء الذي يُتَوَقَّعُ من قاضٍ في الثامنة والثلاثين من عمره.

غير أنه أياً كانت دقة الأنساق التي شادت البوذية صرحها، فإنها تتعلق بمشكلات تقع خارج مجال اهتمام هوندا. ساوره شعور بالانتعاش، وكأنما استطاع في تلك اللحظة ببراعة أن يحلّ اللغز الذي أثار ضيقه، والذي

كدح في اكتناه أسراره كل تلك الشهور. لقد استعاد صفاء روحه، ولم يعد الآن بحال مختلفاً عن أولئك الرجال الذين حققوا ذواتهم من الميحطين به، والذين أقبلوا لمشاهدة مسرحية النو هذه؛ ليهربوا لبعض الوقت من المتطلبات العاجلة لأعمالهم.

تألقت خشبة مسرح النو البالغة القرب وكأنّ العالم وراءها. لقد سارت الأرواح هناك، وتحرك هوندا مستفيقاً. إن في هذا كفاية. وعندما فكر كيف أنه في تلك الليلة تسارع في نارا الألم المنبعث من فقده لكيواكي قبل تسعة عشر عاماً، في أعماقه من جديد، وحدا به إلى السقوط في قبضة وهم له هذه الأبعاد، أدرك أن ما بعث لم يكن في الغالب كيواكي نفسه، وإنما شعوره هو بالفقدان فحسب.

وعندما عاد هوندا إلى الدار أحس لأول مرة منذ فترة طويلة بدافع يحدوه إلى قراءة يوميات الأحلام التي خلّفها كيواكي له.

- ٢٠ -

بدأ شهر أكتوبر بإطلالة ممتدة من الطقس البديع. وكان إيساو عائداً من الأكاديمية، وقد أوشك على بلوغ الدار عندما اجتذبته القرقعة الصادرة عن العصيّ الخشبية التي تستخدم لاجتذاب الأطفال إلى راوي «مسرح الورق»، فانعطف في جادة جانبية، في مسيرة متفرعة عن طريقه المألوف. وكان حشد من الأطفال قد تجمع عند أحد المنعطفات.

انهلت أشعة الشمس الخريفية الدافئة على خشبة مسرح تعلو مؤخرة دراجة، حيث سيجسد حشد من الصور المتوالية الحكاية التي سيتابعها الأطفال. وبنظرة واحدة بدا جلياً أن الراوي هو أحد الذين حلت البطالة بساحتهم، فقد بدت لحيته كثة وسترته مجعدة فوق قميصه المتسخ.

بدا أن الذين أصابتهم البطالة في طوكيو، وكأنما بتنسيق فيما بينهم، يتخذون مظهراً يجعل من الجلي أنهم بدون عمل، دون أن تبدو منهم أدنى إشارة إلى أنهم يرغبون في تغيير وضعهم. ولاح أن أولئك الذين أصيبوا بمرض البطالة، شأن رجال أصابهم وباء سري، حريصون على أن يتم تمييزهم بعيداً عن الآخرين. ألقى الراوي وهو يضرب عَصَوَيْه إحداهما بالأخرى، بنظرة على نحو عاجل تجاه إيساو، وعرف الأخير أن الرجل يرى فيه فتى غراً يمرح في حمى أبويه.

راح الأطفال التوّاقون إلى فتح الراوي للستار يقلدون ضحكة «الخفاش الذهبي». ولم يتوقف إيساو، ولكنه خلال مروره لفتت نظره الصورة التي بدت عبر الستار المنفرج: قناع الجمجمة الأصفر المتوهج للخفاش الذهبي الذي يرتدي سترة قصيرة ورداء محكماً وعباءة قرمزية، وهو يحلق في

السماء. كانت صورة تقريبية مشوهة. وقد سمع إيساو ذات مرة أن هذه النوعية من الصور يرسمها صبية فقراء يدفع لهم أجر يعتدّ به، هو ين وخمسون سيناً في اليوم.

تنحنح الراوي، واستهل السرد التمهيدي: طيب، الآن، الخفاش الذهبي بطل العدالة...». وتبع صوته الأجش إيساو فيما هو يواصل المسير مخلفاً وراءه مسرح الورق وحشد الأطفال.

خلال انعطافه في شارع هادىء في منطقة نيشيكاتا، يمتد سور على أحد جانبيه، طارده ذلك الشبح ذو الجمجمة الذهبية الذي يحلق في السماء. ما أغربه من صورة للعدالة ذلك الشبح الذهبي المحيّر!.

لم يجد أحداً بالدار عندما بلغها، فانطلق إلى الفناء الخلفي. عكف ساوا على غسل ملابسه عند حافة البئر وهو يدندن بأغنية، وقد سره أن الطقس مناسب لتجفيف الملابس على هذا النحو.

ـ مرحباً بك. لا أحد هنا، فالجميع مضى للمساعدة في الاحتفال بعيد ميلاد السيد كوياما السابع والسبعين، ومضت أمك كذلك.

كان ذلك السيد العجوز شخصية متألقة في عالم اليمين. وكان إينوما من أولئك الذين حظوا برعايته طويلاً، وربما أمر ساوا بالبقاء في الدار لرعايتها تحسباً لإمكانية اقترافه ما يجافي قواعد السلوك.

لما لم يكن لدى إيساو شيء أفضل يقوم به فقد اقتعد كتلة من الأعشاب. الآن، وفي سمت الظهيرة، أفسح أزيز الحشرات الخافت المجال أمام الضجة التي أحدثها ساوا وهو عاكف على غسل ملابسه. انعكست السماء الصافية على نحو حادّ، ثم تبدّد بريقها مراراً وتكراراً في حوض الغسيل الذي عكف عليه ساوا. كان كل شيء في العالم على ما يرام. وبدت عناصر الطبيعة وكأنها تبذل قصارى جهدها لتحيل مخطط إيساو إلى خيال محلق. اشتركت الأشجار والسماء الصافية في تبريد إرادته المتّقدة

وتهدئة اندفاع عاطفته العنيفة، ومضت تحاول جعله يبدو لنفسه مثل إنسان منبّت الصلة تماماً بالواقع يتملك ناصيته وهم تحقيق إصلاح لا يريده أحد. غير أن فتوته كانت مثل نصل فولاذي، وكانت السماء الخريفية، الباهرة الزرقة، على الأقل، متجانسة مع هذا.

بدا أن ساوا لا يواجه صعوبة في تلمس ما يكمن وراء صمت إيساو.

سأله، فيما هو يدفع حشوة بيضاء في حوض الغسيل ويعجنها بيديه الغليظتين وكأنما يصنع كرات من أرز:

ـ هل ذهبت للتدريب على الكندو مؤخراً؟

ـ لا.

قال ساوا، دون أن يسأل عن السرّ في ذلك:

ـ حقاً؟

اختلس إيساو نظرة إلى حوض الغسيل. لم تبد كمية الملابس التي يغسلها ساوا متناسقة مع الجهود الكبيرة التي يبذلها، ذلك أنه لا يغسل ملابس أحد، باستثناء ملابسه.

قال بأنفاس متقطعة إلى حد ما:

ـ بقدر ما أجتهد للإبقاء على نظافتي أتساءل عما إذا كان سيقدر لي أن أشهد اليوم الذي أقدّم فيه خدمة ما.

قال إيساو مداعباً إياه برفق:

ـ قد يحلّ هذا اليوم غداً، وأين عسى يكون السيد ساوا إلا منحنياً فوق حوض غسيله؟

لم يوضح ساوا قط ما الذي قصده بقوله: «أقدّم فيه خدمة ما» بخلاف إصراره الذي لا ينثني على أنه عندما تحين الساعة، سيكون مما لا يليق بأي رجل أن يرتدي شيئاً إلا ملابس داخلية باهرة البياض.

عصر ملابسه أخيراً فتساقط الماء على الأرض الجافة في قطرات سوداء متألقة. ودون أن يتطلع إلى إيساو شرع في الحديث بنغمة مضحكة:

ـ طيب، يبدو لي أنه من الأفضل، بدلاً من انتظار المعلم، أن أتطلع إلى السيد إينوما الشاب ليتيح لي فرصة مبكّرة.

عندما سمع إيساو هذا القول، كان مناط اهتمامه الأول هو ما إذا كان التعبير المرتسم على ملامحه قد تغيّر. فلا شك في أن ساوا قد اشتم شيئاً. ترى هل ارتكب إيساو نفسه هفوة ما؟

ومن دون أن يبدي ساوا أدنى إشارة إلى أنه قد التقط ردّ فعل إيساو، وضع الملابس المغسولة على إحدى ذراعيه، ومسح مسرعاً بخرقة قائم نشر الملابس.

تساءل:

ـ متى تذهب إلى معكسر تدريب المعلم كايدو؟

ـ طيب، لقد اختير لي الأسبوع الذي يبدأ في العشرين من أكتوبر. فالمعسكر محتشد بالشباب حتى ذلك الوقت، وأسمع أن الكثيرين من رجال الأعمال يحضرون الدروس بالمعسكر هذه الأيام.

ـ من الذي سيذهب معك؟

ـ طلبت من الزملاء بمجموعتي الدراسية الذهاب معي.

ـ أتعلم؟ أود أن أذهب بدوري. دعني أرَ ما إذا كان ذلك سيناسب المعلم. فما هي جدواي اللهم إلا رعاية المكان حين يتغيب الآخرون؟ لذا فإنني أحسب أنه سيدعني أمضي معك إلى المعسكر. فمن شأن ذلك أن يعيد إليَّ لياقتي، وسأستفيد كثيراً بالمضيّ معكم أنتم معشر الشباب. فعندما تصل إلى مثل عمري، وبغضّ النظر عن مدى توهّج روحك، فإن جسمك تصبح له إرادته الخاصة. هلمّ الآن، ما قولك؟

ألفى إيساو نفسه لا يحير ردّاً. ولو أن ساوا طلب ذلك حقاً من والده

فمن المؤكّد أن الردّ سيكون بالموافقة. ولو أنه ذهب معهم فإن ذلك سيهدر الفرصة المنشودة للحديث الحاسم مع رفاقه، هذا الحديث الذي تكبد إيساو الكثير من العناء للترتيب له، بل إن ساوا قد يدرك جلية الأمر ويحاول جعله يتراجع عنه. وفضلاً عن هذا فإن ساوا إذا كان قد قصد إبلاغه بإخلاصه ووفائه فإن طلبه هذا قد لا يعدو أن يكون طريقة غير مباشرة لإبلاغه برغبته في الانضمام إلى رفاقه.

مرّر ساوا القائم في تضاعيف قميصه وسراويله التحتية ملتفتاً بعيداً عن إيساو، ثم ثبت فيه مئزراً من طراز إتشو عن طريق الخيط الخاص به. ولما لم يكن قد عصر هذه الملابس بأقصى ما يستطيع فقد انساب الماء من ملابسه على القائم المائل وتقاطر من نهايته، ولكن هذا لم يُثِر ضيقه على الإطلاق. وبينما كان مشغولاً على هذا النحو بدا الظهر المتضخم تحت القميص الخاكي وكتلة اللحم الثقيلة الفاترة بأكملها أمام عيني إيساو وكأنهما يضغطان عليه مطالبين بردّ. ورغم ذلك لم يدر إيساو ما عساه أن يقول.

ما إن ثبت ساوا قائم نشر الملابس عند مستوى ملائم حتى التقطت عصفة ريح طرف إحدى قطع الملابس المبللة، وصفعت به وجنته، فانزعج كأنما راح كلب أشهب هائل يلعق وجهه بلسانه، ودفع طرف قطعة الملابس المبلل وتراجع مسرعاً، ثم التفت إلى إيساو على نحو خال من الهمّ وسأله:

ـ أهناك سبب يدعوك حقاً إلى عدم الرغبة في ذهابي معكم؟

لو أن إيساو كان شاباً على قدر من الحنكة لتملّص من ساوا بردّ طريف، ولكن بما أنه كان يحسب حقاً أن قدوم ساوا من شأنه أن يسبب صعوبة ما فلم يكن هناك محل للحديث الطريف.

لم يتابع ساوا طرح الأمر، وإنما طلب من إيساو، بدلاً من ذلك، القدوم إلى غرفته لمشاركته بعض الفطائر الشهية الموجودة لديه. كانت الغرفة رحبة تمتد بامتداد ثلاثة حُصُر كاملة، وقد انفرد بها ساوا تقديراً لسنه. لم تكن

هناك كتب يمكن أن تقع عليها العين، وإنما بعض النسخ القليلة الممزقة من مجلة «نادي كودان». وحينما كان يوجِّه اللوم إلى ساوا على هذه النقطة كان يردّ بأن أولئك الذين يقرأون الكتب ليتشرّبوا الروح اليابانية هم «وطنيون زائفون».

صبّ لإيساو قدحاً من الشاي وقدّم له فطائر الأرز، من نوع يسمّى هيجوموتشي، كانت زوجته المقيمة في كوماموتو قد بعثت بها إليه.

قال بتنهيدة لا يبدو أن لها علاقة بشيء محدّد:

ـ على أية حال، ليس هناك شك في أن المعلم يحبك؟

عقب ذلك، وبعد التفتيش وسط الحطام المتناثر على الأرض، أخرج مروحة تزيّنها صورة امرأة جميلة، ولكنه عندما حاول تقديم هدية العطلة التي ابتاعها من تاجر الساكي بالحيّ، وكان اسمه ورقم هاتفه واضحين عليها لإيساو، صدّه الأخير رافضاً. كانت نظرة المرأة الرشيقة الرانية إلى البعيد تشبه ماكيكو فيما حول العينين، وقد كان هذا هو ما خلع قسوة لا يقتضيها الأمر على رفض إيساو الباتر. غير أن ساوا لم يقصد، فيما يبدو، الإشارة إلى أي شيء، ولم يكن عرضه للمروحة إلا نموذجاً آخر للسلوك الخاص الذي يتميز به.

سأله إيساو شاعراً بالندم على خشونة رفضه، وراغباً في أن ينهي في الحال التوتر القائم بينهما:

ـ أتودّ حقاً الذهاب إلى معسكر التدريب؟

ردّ ساوا متملصاً منه على نحو عَرَضيّ، وكأنما فقد اهتمامه بهذا الموضوع:

ـ كلا، ليس بصورة حقيقية. ربما سأكون مشغولاً، ولا أستطيع الذهاب على أية حال، إنما كنت أسأل فحسب.

ثم أضاف كأنه يحدث نفسه، مكرراً ملاحظته التي لا يبدو أن لها أهمية

خاصة: «نعم، ليس هناك شكّ في أن المعلم يحبك». ولفّ كلتا يديه، وقد علت لحمهما الممتلىء نقرات تشبه الغمازات عند انحناءة كل إصبع، حول القدح الضخم الذي يحتسي منه الشاي، وشرع يسرد قصة لم يكن الموقف يقتضيها كلية:

ـ هذا أمر أعتقد أنك، أنت السيد إيساو الشاب، قد كبرت بما فيه الكفاية لتعرفه. لم يقدر للأكاديمية إلا مؤخراً أن تكون على جانب من الثراء. وعندما بدأت مسيرتي هنا كنا نبذل كل ما نستطيعه لجعل الأمور تمضي. ولم يتمّ قطّ إبلاغك بذلك، وإني لأعلم أن هذا يتّفق مع نظرية المعلم في التربية، ولكن، إن جاز لي قول ذلك، فقد حان الوقت لكي تعلم بعض الأمور التي تدخل سروراً على النفس. لأنه إذا ترك تعليمك شيئاً ينبغي أن تعرفه دون أن يتمّ ذلك فإن هذا من شأنه أن يسيء إليك في وقت لاحق.

«أعتقد أنه منذ ثلاث سنوات نشرت صحيفة «اليابان الجديدة» مقالاً يهاجم السيد كوياما، وهو نفسه من يصادف اليوم عيد ميلاده، وقال المعلم إنه لا يليق ترك هذا الأمر يمضي دون قول شيء. وذهب للقاء السيد كومايا، ولكني لم أكتشف أبداً إلى أي قرار توصّلا. وعلى أية حال فقد أبلغني المعلم بأنّ عليّ الذهاب إلى مقرّ الصحيفة، والمطالبة بنشر اعتذار مفصّل. ومن المؤكد أن التعليمات التي أصدرها لي كانت غريبة: «إذا عرضوا عليك مالاً فلا تأخذه. ألقه إليهم غاضباً وغادر المكان، ولكن إن لم يعرضوا عليك مالاً فهذا مؤشر إلى أنك عالجت الأمور على نحو سيّء».

«إنه لأمر بالغ الطرافة أن تتظاهر بأنك غاضب بينما أنت لست كذلك في الحقيقة. وليس يضيرني أن أرى الخوف مرتسماً على وجوه الناس، وقد سهّل ذلك في هذه الحالة بصورة خاصة أن من اختاروه للتعامل معي كان محرراً شاباً على قدر كبير من الجبن».

«أفلحت استراتيجية المعلم بصورة رائعة، فهو يرسل شخصاً مثلي لبدء المفاوضات، وإذا جاز لي أن أقول ذلك عن نفسي فإنني أبدو شخصاً مقبولاً، وما من أحد يأخذ الأمر مأخذ الجد، حتى وأنا أغلي من فرط الغضب. وهكذا يظن ذلك الشخص أن بمقدوره تسوية الأمر بقليل من المال، ثم عندما يفاجأ بي أفضّ الاجتماع فإن الطرف الآخر يشرع في الشعور بشيء من عدم الارتياح».

«ويرتب المعلم الأمور بحيث لا يُعْقد أبداً اجتماع مباشر مع السيد كوياما. وفي غمار المفاوضات يدفع بخمسة ممثلين إلى خشبة المسرح، خمسة حواجز، كل منها أكثر ارتفاعاً من سابقه، وكل واحد من هؤلاء السادة أكثر ثباتاً وأرقى مكانة من سابقه. ويغوص الطرف الآخر أعمق فأعمق من دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن الشوط الذي سنقطعه قبل أن نصل إلى تسوية. وفضلاً عن ذلك فإنه لا مجال للابتزاز، إذ إننا نواصل التأكيد على أن «هذه المسألة لا علاقة لها بالمال». وهكذا فليس لديهم أساس يتوجهون إلى الشرطة بالشكوى انطلاقاً منه. وكان الممثل الثاني الذي اعتلى الخشبة هو السيد موتو الذي تورّط في حادث يونيو. وعند هذا المنعطف أدركت صحيفة «اليابان الجديدة» أن هذا الأمر ليس بالهينّ.

«أضف إلى ذلك أنه في غمار الانتقال من الممثل الثاني إلى الممثل الثالث، جعلت المدة الفاصلة غير محددة، بقدر الإمكان، وبينما يتاح المجال للأمل في أنه يمكن الوصول إلى تسوية من خلال اجتماع مع الممثل الثالث، فإن المعلم يرتب الأمر بحيث يبدو هذا الاجتماع كما لو أنه لن يتمّ، أبداً، ثم حينما يتمّ أخيراً بعد كل هذا القلق فإن السلطة تُنْقَل إلى طرف رابع مجهول بالنسبة لهم. وعند هذه المرحلة فإن عدد الشبان الذين لا يمكن كبح جماح غضبهم يحلّق متجاوزاً مائة شاب أو مائتين فحسب، رغم أن أياً منهم لا يظهر له أثر».

«وكما هو متوقع فإن الصحيفة سرعان ما تستعين برجل شرطة سابق، ويأتي هذا الشخص فاركاً يديه في تذلل، حاملاً خطاب اعتماده من ناشر الصحيفة. وكان المعلم حريصاً كذلك في اختيار الأماكن المناسبة تماماً للاجتماع. وعندما يمضي ممثلنا الرابع، السيد يوشيموري، إلى خشبة المسرح فإنه يجد المشهد كاملاً. إذ تربطه صلات بإحدى شركات المقاولات، وهكذا فإن الاجتماع يعقد في مكتب داخل كوخ في موقع لإنشاء أحد الأبنية».

«بعد أربعة أشهر من الملاحقة يظهر ممثلنا الخامس في إطار المشهد أخيراً، وهو يبدد شخصاً يسهل التعامل معه ليكون بذلك الطلقة الكبيرة المحكمة التصويب. وليس بوسعي إبلاغك باسمه، ولكن بفضل مساومته الصارمة يتمّ التوصّل إلى اتفاق. كان المكان في ياناجيباشي. وكان ناشر صحيفة «اليابان الجديدة» بنفسه هناك، وانحنى لنا محيياً، ولكن بصحبة هذا كله سلّمونا ما يقرب من خمسين ألف ين. ويبدو أن المعلم قد حصل كنصيب له على عشرة آلاف ين، وكفل هذا رعاية جيدة للغاية للأكاديمية على امتداد عام كامل».

حاول إيساو قمع شعوره بالضيق وهو يصغي لحديث ساوا. وقد اجبرته كبرياؤه على التظاهر بأن شروراً صغيرة من هذا النوع لا يمكن بحال أن تثير ضيقه. غير أن ما كان يصعب احتماله هو إدراكه أنه قد تمتع، حتى الآن، بثمار مثل هذه الشرور الصغيرة.

ومع ذلك فإن افتراض أن إيساو قد فُتحت عيناه للمرة الأولى على الوضعية الحقة للأمور هو من قبيل المبالغة، وهو لن ينكر أن عدم استعداده للنظر إلى جوانب أساسية معينة في حياته كان أساساً لشعوره بالنقاء ومصدراً للحنق الغريب والافتقار للسكينة اللذين يثيران ضيقه. إن غرس قدمي المرء في الشرّ وتوفية العدل حقه مع ذلك هو مفهوم متضخم يداعب

كبرياء الشباب. وقد تمثلت المشكلة في أن الشر الذي تخيّله إيساو كانت أبعاده أكبر. ولكن أياً كان الأمر فإن هذا لا يطرح سبباً مناسباً لأن تراود إيساو الشكوك في نقائه.

بذل جهداً لاستعادة هدوئه وسأل:

ـ أما يزال أبي يقوم بمثل هذه الممارسات؟

ـ أصبحت الأمور الآن مختلفة، فهو الآن رجل ذو شأن. ولم يعد مثل هذا النوع من الصراع ضرورياً. وما أردتك أن تعرفه هو ما اضطر المعلم إلى خوض غماره قبل أن يصل إلى حيث هو الآن.

وبعد صمت لم يدم طويلاً أدلى ساوا بعبارة أخرى لا يقتضيها المقام، وعلى الرغم من أنه طرحها دونما اكتراث، إلا أنها أذهلت إيساو:

ـ بمقدورك أن تطارد من تريد كائناً من كان، ولكن لا تستهدف بوسوكي كوراهارا. فلئن حلّ شيء لتجدنَّ أن أكثر من سيعاني من جراء هذا هو المعلم. وإذا تجاوزت شعورك بالولاء فإنك ستجد نفسك غارقاً في خيانة أبيك.

- ٢١ -

غادر إيساو غرفة ساوا فجأة، وإذ عقد العزم على أن يسبر أغوار ما تعنيه كلماته فقد اعتكف في غرفته.

وكما أن الفلفل الحارّ تتراجع حدة لذعته فيما يفقد الحلق إحساسه مؤقتاً بالطعم الحارّ، فكذلك الأمر بالنسبة للصدمة التي أحدثتها هذه الكلمات: «لا تستهدف بوسوكي كوراهارا!» التي لم تعد حادّة بعد مرور بعض الوقت. إنها لم تعنِ بالضرورة أن ساوا قد نفذ إلى أغوار السرّ الذي يكتمه إيساو. وقد كان بوسوكي كوراهارا في عيون الكثيرين تجسيداً للشرّ الرأسمالي.

لو أن ساوا كان قد أدرك أن إيساو تراوده خطّة أو أخرى فربما تصوّر أن اسم كوراهارا سيفرض نفسه، كأمر مسلّم به، باعتباره أحد المستهدفين. ونصيحته بعدم استهداف كوارهارا لا تعتمد بالضرورة على معرفته بأن إيساو قد فعل ذلك.

وبقيت مشكلة واحدة: ما تتضمنه كلمات ساوا من ربط اسم أبيه بكوراهارا. فهل كان كوراهارا بالفعل أحد الداعمين البارزين لأبيه بالمال؟ أهو راع لأكاديمية الوطنية بقي أمره طيّ الخفاء؟ بدت الفكرة لإيساو مما لا يمكن احتماله. ولكن لما كانت تلك مشكلة يعجز إيساو عن حلها، في ظل ظروفه الراهنة، فقد كان صدق هذا الزعم أو زيفه من الأمور التي يتعينّ تنحيتها جانباً لبعض الوقت. ونبع الضيق الذي اندلع بداخله من عدم يقينه من حقيقة الأمر بأكثر مما نبع من غضبه.

لم يكن إيساو يعرف بالفعل عن كوراهارا أكثر مما تبيّنه من دراسة صوره

المنشـورة بالصحف والمجـلات والقراءة المتـأنية عن أقـواله وأفعـاله. وكـان كوراهارا تجسيـداً لا سبيل إلى الخـطأ بشأنـه للرأسمالية المجرّدة من الـولاء الـوطني. ولئن شاء المـرء أن يرسم الصـورة المخيفة لـرجل لا يحب شيئـاً، فليس هناك نموذج يصلح لذلك أفضل من كوراهارا. وعلى أية حال فإنه في عهد يختنق الجميع فيـه قد شكلت الحقيقـة القائلة بـأن هذا الـرجل وحـده يمكنه بجلاء أن يتنفس في يسر أساساً للتشكّك في أنه مجرم.

وقـد أفصحت واحدة من أشهـر ملاحـظاتـه، وقـد نقلتهـا عنـه إحـدى الصحف، عن لامبـالاة بدا أنـه قد خـطط بعنايـة لافتعالهـا: «من الـطبيعي أن وجود عدد كبير ممّن يعانـون من البطالـة هو أمـر لا يبعث على السرور. غير أن ربط ذلك على نحو فـوري باقتصـاد غير سليم هـو أمر ينـطوي على مغالطة. فالفطرة السليمة تملي علينا القول بأن العكس هو الصحيـح. ذلك أن رفاه اليابان ليس مرتبطاً بأن يتوافر الطعام والشراب الجيـدين في مطابـخ الجميع». وقد أثـارت مثل هـذه الكلمات الحنق والغضب، ولم يُقَدَّر لهـا أن تنداح إلى عالم النسيان.

كان شرّ كوراهارا هو الشر المنبعث من ذهن لا تربطه وشـائج بـالدم ولا بالتراب الوطني. وعلى أية حال، فعـلى الرغم من أن إيسـاو لم يعرف شيئـاً عن كوراهارا كإنسان، فإن شره بدا له جلياً على نحو بالغ الحيوية.

كان هنالك بيروقـراطيو وزارة الخـارجية الحـريصون عـلى إرضاء إنجلترا وأميركا، الذين يقطرون لطفاً، والعاجزون إلا عن لعب دور المرأة المغناج. والمتمـولون الـذين يفوحـون بـالـرائحـة الكـريهـة للربـح والشره، والـذين يتشممون الأرض بحثاً عن عشائهم، مثل أكلة نمال عملاقة، والسياسيون الذين حوّلوا أنفسهم إلى كتل من الفساد، والزمر العسكرية المدرعة للغايـة بعبـادة النزعـة المهنية إلى حـد أنهم يشبهون الخنـافس التي لا سبيل أمـامها للتحرك. والمثقفون الذي يضعون عويناتهم عـلى قصبات أنـوفهم ويشبهون الدويدات البيضاء المتبلّدة، والمضاربون الحريصون على استغلال منشورياً،

طفلهم الحبيب ابن الحرام. وعكست السماء ذاتها بانوراما من الفقر مثل أضواء الشروق التي تناثرت على الأرض. كان كوراهارا يشبه قبعة باردة، سوداء، حريرية، وضعت في قلب هذا المشهد الوضيع. ودون أن يفصح عن هذا كان كوراهارا يتطلع إلى العديد من الميتات ويرحب بها.

ما كان بمقدور الشمس الحزينة، الشمس المتألقة ببياض بارد، أن تمنح لمسة دفء، ومع ذلك فهي تشرق حزينة كل صباح لتبدأ مسيرتها. ذلك كان حقاً شخص الإمبراطور، ترى منذا الذي لا يتوق إلى التطلع عالياً من جديد ليلمح بهاء الشمس البهيج؟

لو أن كوراهارا هذا...

فتح إيساو النافذة وبصق. لئن كان الطعام الذي تناوله في الإفطار، لئن كان غذاؤه أيضاً قد جاء من عطاء كوراهارا، إذن فقد أفسد، جاهلاً، جوانحه ولحمه بالسم.

لنفرض أنه واجه أباه وسأله بضراوة. ولكن هل يحدِّثه أبوه بالحقيقة؟ إنه يؤثر الإلتزام بالصمت والتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً على سماع المراوغات الحاذقة.

لو أنه لم يعلم بشيء، لو أن بمقدوره أن يواصل المسيرة دون أن يعلم بهذا... هكذا راح إيساو يحدث نفسه لاطماً الأرض بقدميه، ولاعناً نفسه لسماعه به. وشعر كذلك بالغيظ من ساوا الذي نثر السم في أذنيه. وأياً كان إيغال إيساو في ادعاء الجهل فإن ساوا قد يبلّغ أباه، في وقت ما، بأنه قد كشف جلية الأمر لابنه، ثم إنه سيصبح كذلك ابناً يخون عن علمٍ أباه. سيكون خائناً يقتل راعي عائلته. وسيوضع نقاء سلوكه موضع التساؤل. ها هو عمل خطط ليكون جريئاً ونقياً يتعرّض لخطر أن يغدو مغرقاً في البعد عن النقاء.

كيف يمكن لإيساو الحفاظ على نقائه؟ ألا يفعل شيئاً على الإطلاق؟ أن

يزيل اسم كوراهارا من قائمة من يتعيّن اغتيالهم؟ كلا. لئن فعل ذلك أفلا يكون ثمن غدوّه ابناً تعساً وباراً هو تجاهل شيء يهدر الأمة بأسرها؟ ألن يكون هذا خيانة لسمو الإمبراطور المقدس وخيانة لإخلاصه الذاتي؟

عندما فكر إيساو في الأمر أدرك أن عدم معرفته بكوراهارا معرفة جيدة تشكل ظرفاً يزيد من عدالة تحركه. إن شر كوراهارا ينبغي إبقاؤه بعيداً ومجرداً، بقدر الإمكان. ففعلة القاتل لا يكون لها أساس من العدل إلا عندما يستطيع لا أن ينحّي كل تفكير في الأيادي البيضاء التي قدمت أو في العداء الشخصي وحسب، وإنما كذلك أبسط الاعتبارات، كالحب أو البغض. وهكذا فإن إدراك إيساو لشرّ كوراهارا من بعيد كافٍ تماماً.

إن قتل رجل كريه عمل يسير، والقضاء على شخص وضيع أمر يبعث السرور في النفس. ولكن إيساو لم تساوره الرغبة في الاعتماد على افتقار عدو للإنسانية لكي يدفع نفسه إلى فعلة القتل. وشرّ كوراهارا الماثل على نحو ما هو مرتسم في ذهن إيساو لا علاقة له بالشرور الصغيرة التي لا عواقب تذكر لها، مثل شراء ذمة أكاديمية الوطنية كوقاية من الاغتيال. ورجال عصبة الريح الإلهية لم يقتلوا قائد حامية كومامـوتو لأية عناصر قصورٍ إنسانية.

ندَّ أنين نابع من ألم مبرح عن إيساو. ما أيسر ما يمكن القضاء على مثل هذا العمل الجميل! لقد انتزعت منه بصورة بالغة التعسف إمكانية تنفيذ هذا العمل الجميل. وكل هذا بسبب بضع كلمات.

كان السبيل الوحيد المتروك أمامه، إذا كان له أن يتحرك، هو أن يصبح شرّيراً بدوره. ولكنّه ملتزم بالعدالة.

كانت عصا كندو مسندة إلى الحائط في أحد أركان الغرفة. فأمسك بها واندفع إلى الفناء الخلفي. لم يبدُ أثر لساوا. تقدم إيساو خطوة فأخرى على الأرض العارية المسطحة وراء البئر. ووالى ضرب الهواء مرة فأخرى بوفرة

حانقة. أثار الصوت العادي المترع باللوم المنبعث عن السيف الخشبي القاطع في الهواء حنقه عندما اخترق أذنيه. وحاول جعل ذهنه صفحة بيضاء. رفع السيف عالياً فوق رأسه وأهوى به، وشأن رجل يتجرع الساكي دفعة واحدة استجلاباً للشكر. أراد لهذا الجهد الخارق الطاغي أن يتدافع عبر جسمه. وعلى الرغم من أن نفسه كان الآن لهباً حارقاً يحتبس وينطلق من صدره المنتفخ، فإن العرق الذي كان ينبغي أن يكسوه لم يظهر له أثر. كان ذلك كله بلا طائل. حلّق بذهنه إلى قصيدة علّمه إياها أحد كبار لاعبي الكندو:

إن محاولة تجنب التفكير
هي ذاتها تفكير.
وهكذا فحتى الأمر: «لا تفكر!»
هو ممّا لا سبيل إلى التفكير فيه.

ثم انتقل إلى قصيدة أخرى:
بما أن الشروق والغروب
سيّان بالنسبة للقمر اللاهي،
فما من قمة جبلية
يمكن، بالظلّ، أن تترع فؤاده غيظاً.

لكن هاتين القصيدتين لم تجلبا له شعوراً بالارتياح. تألّقت سماء صدر المساء البديعة، من خلل وريقات شجرة كستناء التهمت الديدان وريقاتها. وبدا غسيل ساوا وكأنه يزداد خفة، وبدا البياض وكأنه ينسل منها.

مضى إيساو وهو ما يزال يحمل العصا إلى غرفة ساوا مرة ثانية، وطرق الباب.

سأل ساوا وهو يفتح الباب:

ـ ما الأمر؟ أأنت جائع؟ بمقدورنا الليلة أن نبعث في طلب ما نتناوله فما قولك؟

دفع إيساو وجهه بحدّة بإزاء وجه ساوا.

قال ملحّاً:

ـ أكان ما قلته قبل قليل صحيحاً؟ هل لكوراهارا صلة ما بالأكاديمية؟

ـ لا تهددني بإحضارك لسيف من الخيزران على هذا النحو معك! على أية حال، أقبل!

كان إيساو في غمار تدريبه بالسيف قد وصل إلى استنتاج أنه أياً كان مدى الانفعال الذي سيصل إليه، خلال استجواب ساوا، فما من حاجة تدعوه إلى الخوف من أنه قد يفصح عما في قرارة نفسه حقاً، ذلك أنه من الطبيعي أن يصبح شاب بريء حانقاً تماماً لدى علمه بأن كوراهارا قد مدَّ يد المساعدة إلى الأكاديمية.

لزم ساوا الصمت.

ـ حدّثني بالحقيقة!

قالها إيساو، ووضع السيف إلى يساره، وجلس جلسة رسمية متصلبة.

ـ وإذا حدثتك بالحقيقة فما الذي تعتزم القيام به؟

ـ لست أعتزم القيام بشيء.

ـ لا شيء. إيه؟ إذن فهذا الأمر ينبغي ألا تكترث به.

ـ إنني أكترث به. أتراك تحسب أنه مما يسعدني أن أسمع أحدهم وهو يقول إن أبي على صلة بهذا النجس؟

ـ ولكن إذا لم يكن على صلة به، أتراك ستنهال ضرباً على ذلك الشخص؟

رد إيساو محاولاً إضفاء لمسة سفسطائية على ما يقول:

ـ ليس الأمر متعلّقاً بما إذا كنت سأنهال ضرباً أو لا على أي شخص، فما أريد القيام به هو الحفاظ على الصورتين اللتين أحتفظ بهما لأبي ولكوراهارا. صورتي عن كوراهارا باعتباره الوغد الكامل.

ـ هل من شأن هذا أن يجعلك كاملاً بدورك؟
ـ ليس الكمال من بين اهتماماتي.
ـ إذا لم يكن كذلك فلم تدع الأمور تثير ضيقك على هذا النحو البالغ؟

ألفى إيساو نفسه وقد غلب على أمره في الحوار.

ـ يا سيدي ساوا، الجبناء وحدهم هم الذين يحومون حول الموضوع دون طرقه مباشرة. إنني أنشد الوصول إلى الحقيقة، أريد أن أواجهها كما هي.

ـ لم؟ هل تستطيع الحقيقة أن تهز إيمانك القوي هذا؟ أوَكنت تمضي إثر نوع من السراب كل هذا الوقت؟ إذا كان إخلاصك للمثل العليا بمثل هذا الضعف فخير لك أن تتخلص منه. كل ما في الأمر أنني حدّثت نفسي بأن أضع قليلاً من الشك في دنيا إيمانك. وإذا كان ذلك يجعل الأمر كله يشرع في الاهتزاز فإن ثمة ما هو مفقود في إخلاصك للمثل العليا. أين ذلك اليقين الذي لا يقهر والذي ينبغي أن يتسلّح به الرجل؟ أتتملك ناصيته حقاً؟ ولئن كان الأمر كذلك فحدثني بهذا الآن توّاً وفي هذا المكان!

مرة أخرى أرتج على إيساو.

لم يعد ساوا يبدو بمظهر الرجل الذي لا يقرأ شيئاً إلا مجلة «نادي كودان». كان يهاجم إيساو، ويلوي ذراعه، لجعله يبوح بما يتّقد في أعماقه. أحسّ إيساو بالدم يندفع فيضرّج وجنتيه. ولكنه ببعض الجهد كبح جماح انفعاله وردّ قائلاً:

ـ سأمكث ها هنا إلى أن يبوح لي السيد ساوا بالحقيقة.
ـ فهمت.

لزم ساوا الصمت بعض الوقت وقد أعتمت الغرفة تحت وشاح الغسق. جلس، وهو الأربعيني الممتلىء، متقاطع الساقين في سروال فضفاض من سراويل عميد الأكاديمية القديمة. مال رأسه إلى الأمام حتى تضخم لحم كتفيه تحت قميصه الخاكي، وكأنما هو يحمل كنانة على كاهله. بدت

العدوانية الحادة فجأة وقد انثلم حدّها. ولم يكن بمقدور إيساو تحديد ما إذا كان قد غرق في التفكير أم أخذته سِنَة من النوم.

انتصب ساوا واقفاً على حين غرة، وفتح جاروراً وبحث فيه، ثم عاد ليجلس منتصب الجذع أمام إيساو من جديد. ووضع على الأرض أمامه خنجراً في غمد خشبي خلا من الزخارف. واستله من غمده فشق ظلمة الغرفة نصل شاحب حاد الشفرة.

ـ لقد قلت لك ما قلته لأنني أردت إقناعك بألا يكون لك شأن بالأمر. إنك وارث أكاديمية الوطنية، وهكذا فإن حياتك بالغة الأهمية. والمعلم يحبك كثيراً.

أما فيما يتعلق بي فالأمر سيّان. لي زوجة وأطفال، ولكني لست أشعر بالندم من جراء ذلك، وعلى الجانب الآخر كذلك قطعوا الرجاء مني. لذا فإني أشعر بأن عليَّ الاعتذار عن مواصلة الحياة، في حين كان يمكنني أن ألقى حتفي في أية لحظة. وفي حالتي لست أرغب في أن تكون للمعلم علاقة بالأمر، فبمقدوري تقديم إشعار انسحابي من الأكاديمية، والتحرر لطعن كوراهارا، بمقدوري أن أطعنه متحمّلاً المسؤولية بكاملها. وعلى أية حال فإنني أعرف شيئاً واحداً: إن ذلك الشخص هو منبع الشر. وحتى إذا ساءت العاقبة، وما دامت الطعنة ستنال منه، فإن كل أولئك السياسيين ورجال الصناعة سيغصّون بما في أفواههم خوفاً وفزعاً. وأياً ما كان الأمر فإنه الرجل الذي ينبغي أن يموت. تلك هي النتيجة التي توصلت إليها منذ فترة. لذا أرجوك، بما أنه سيعهد لأحدهم بالقضاء عليه، فدعني أكن القائم بهذه المهمة! دع هذا السيف القصير يقوم بهذا العمل! أرجوك، اعهد إليّ بأمر كوراهارا!، ثم حينما يلقى حتفه على يدي، وإن لم يتحسن وضع اليابان، فعند ذاك يحلّ أوان اجتماعكم معاً، أنتم معشر الشباب، والقيام بما يتعينّ عليكم إنجازه.

ولكن إن ظننتم أن عليكم أن تقتلوا كوراهارا بأنفسكم فدعني أكن واحداً من رفاقكم! وإني لأعلم أن بمقدوري تقديم يد العون لكم، فأنا الوحيد الذي يمكنه إنجاز عملية القتل دون إلحاق ضرر بالأكاديمية. أرجوك، ضمني إلى صفوفكم! انظر، إنني أنحني وأتوسّل إليك، أرجوك صارحني بما يدور في ذهنك!

ترددت مناشدة ساوا الدامعة في مسمع إيساو، وهو يرقبه، فيما راح ساوا يجفف دموعه بردن قميصه الخاكي. وأحسّ بأنه فقد الآن كل الفرص المتاحة له للضغط على ساوا فيما يتعلق بكوراهارا وأبيه. بدت كلمات ساوا وطريقته في الحديث بأسرها وكأنها تفترض ضمناً وجود علاقة بين الرجلين، ومع ذلك، فإنه بحسب تفسير المرء لها فقد لا يعدو كوراهارا أن يكون مجرد وسيلة استخدمها ساوا ليُعِدَّ خشبة المسرح لمناشدته المحمومة. وعلى أية حال فقد كان إيساو هو الطرف الذي وجد نفسه محاصراً.

لم يدرِ ما عساه يفعل، ولكن على الأقل لم يعد هناك أي خطر فيما يتعلق بفقده للسيطرة على نفسه. وقد ألفى نفسه الآن في موقف القاضي. وبينما راح يحدق في الشعر البالغ النحول الذي يعلو رأس ساوا المحنيّ خلال غرقه في دموعه، أتيح له الوقت لصياغة قرار أعدّ بعناية.

في تلك اللحظات القصار وقفت جنباً إلى جنب اعتبارات الربح والخسارة، الفائدة والضرر، مثلما تعلو نحو السماء الأوتاد المدببة التي تشكّل سياجاً من الخيزران. كان بمقدور إيساو أن يجعل من ساوا أحد رفاقه، وبمقدوره أن يرفض ذلك. بإمكانه أن يفصح له عما يدور بذهنه أو مراوغته والإصرار على السياق الذي حدّده لنفسه، باستطاعته التشبث بالجمال والنقاء أو التخلّي عنهما.

لو أنه سيجعل ساوا أحد رفاقه فإنه سيفضي إليه بدخيلة نفسه، وبالمقابل يمكنه أن يطلب منه جلاء الحقيقة فيما يتعلق بكوراهارا. ومنذ تلك اللحظة

فإن إصلاح إيساو المزمع لا يمكن أن يظل المثل الأعلى الذي لا تشوبه شائبة على نحو ما كان. لكن اندفاع ساوا المتعجل نحو التحرك يمكن على هذا النحو كبح جماحه، وتجنب الخطر المترتب على ذلك وتحويل طاقات ساوا إلى الضربة التي يعتزم إيساو توجيهها.

أما إذا لم يكن يعتزم جعل ساوا واحداً من رفاقه فلن تكون هناك حاجة لإطلاعه على جلية الأمر، وكنتيجة لذلك فلا حاجة لإفشاء سرّ ما يمكن أن يكون حقيقة بشعة. ولكن إن اندفع ساوا نحو اغتيال خاطف لكوراهارا فسوف يلزم الأعداء الآخرون الحذر، وقد يتعرض الإصلاح نفسه لنكسة.

توصّل إيساو لقرار قاسٍ. فلكي يحمي جمال سلوكه ونقاءه وعدالته، من الأفضل أن يدع ساوا يقضي على كوراهارا، ولكن دون كلمة موافقة واحدة. ولن يدلي بأية إيماءة قط، إلى أن يفوّض هذه المهمة لساوا. ذلك أنه إذا قام بذلك فإن إيساو سيكون قد استخدم وسائل بعيدة عن النقاء ليحمي نقاءه. ويتعيّن أن يحدث كل شيء بصورة طبيعية. وربما بحلول الوقت الذي بلغ فيه إيساو هذا القرار، كان قد بدأ، على نحو غير واعٍ، يكره ساوا.

ترك ابتسامة رجل ناضج ترتسم على شفتيه. إنه القائد الآن.

قال إيساو:

ـ يا سيدي ساوا، لقد تحدثنا بما فيه الكفاية، وقد تملّكني الانفعال، منذ قليل، تجاه أمر هين. وربما أعطيتك انطباعاً يجافيه الصواب. إنك تتحدث عن رفاق! وأنا وأصدقائي لا تدور بأذهاننا أية مؤامرة، فنحن نلتقي لندرس تاريخ عهد ميجي، وهناك بعض الثرثارين في صفوفنا. ذلك كل ما هناك، وبما أننا في مقتبل العمر فذلك أمر طبيعي. أليس كذلك؟ لقد أسأت تفسير كل هذا، يا سيد ساوا. ولكن عليك حقاً أن تلتمس لي العذر الآن. فقد دعاني صديق لتناول طعام العشاء معه الليلة، وعليّ المضيّ

الآن. لذا، أرجوك ألا تزعج نفسك بالحصول لي على ما أتناوله.

كان يخشى التوتّر الذي سيصاحب تناوله العشاء وحده مع ساوا. وهبّ واقفاً، تاركاً النصل المجرد يلتمع على الأرض وكأنه صدع في الظلام. ولم يُبْد ساوا حراكاً لإيقافه.

قرر الذهاب إلى دار إيزوتسو. وفجأة ألفى نفسه قلقاً على ما إذا كان إيزوتسو قد اهتم برعاية زهرة السوسن التي أعطتها ماكيكو له. ولكن ماذا عن زهرته هو؟

ولكي لا تلقى هذه الزهرة خارجاً في غيابه فقد وضعها إيساو في مزهرية رشيقة، ووضع تلك بدورها في صندوق لحفظ الكتب له باب زجاجي. وفي البداية قام بتغيير الماء يومياً، ولكنه يشعر بالخجل لتذكره أنه غدا مهملاً مؤخراً، ونسي القيام بذلك. فتح الباب الزجاجي للصندوق، ونحّى الكتب التي وضعها ليحجب المزهرية خلفها، وأطلّ داخل الصندوق. كانت السوسنة منحنية في تهافت في الظلام.

وعندما أخرجها ليمسك بها، تحت الضوء، رأى أنها قد انحدرت فغدت هيكل سوسنة، ولو أنه وضع إصبعه على البتلات المائلة إلى اللون البني، ولو بقليل من التعجل، لتهاوت يقيناً متحولة إلى رماد في الحال، ولسقطت من ساقها التي كانت ما تزال تحتفظ بلمسة من خضرة خفيفة. ولم يعد بالإمكان تسميتها بزهرة سوسن، وإنما بذكرى لظلّ سوسنة. كانت مثل الإهاب الخارجي المتروك، بعد أن مضت السوسنة الرائعة الخالدة في طريقها. ومع ذلك فقد كانت هناك نفحة من عبير تشي بأنه كانت هناك زهرة تتدفق بالحياة. والآن، مثل جمرة تحتضر، ما تزال تحتفظ بدفء واهن.

مس إيساو برفق البتلات بشفتيه. لو أنه أراد تلمس نسيجها بوضوح

لمضى إلى أبعد مما ينبغي، ولتداعت السوسنة. ومن ثم فلمسته يجب أن تكون مثل لمسة الفجر لقمّة جبلية.

لم تكن شفتا إيساو الشابتان قد لمستا بعد أية شفاه أخرى، وقد مررهما على بتلات سوسنته الذاوية بكل الحساسية الرائعة التي تحظيان بها.

ومضى يحدث نفسه:

ـ ها هنا نبع نقائي. وبرهان على هذا النقاء. إنني على يقين من أنه هنا. وعندما يحين أوان إغمادي لسيفي في بطني ستنهض السوسنات يقيناً من قلب ندى الصباح، وتفتح بتلاتها للشمس المشرقة وسيطهّر عبيرها رائحة جثماني. ليكن، إذن! كيف يمكن أن يساورني المزيد من الشكوك؟

- ٢٢ -

درج أعضاء «نادي الشؤون الراهنة» على الالتقاء مرة في كل شهر في مقر المحكمة. وهنالك علم هوندا بأمر الثورة التي نشبت في سيام في حزيران (يونيو) الماضي، والتي أسفرت عن وضع دستور لتلك البلاد. ولما كان النادي قد أقيم بناء على اقتراح من كبير القضاة فقد ضمن الإحساس بالالتزام. وقد تردّد عدد كبير من الأعضاء عليه في البداية. ولكن مع مرور الوقت تراخى تدريجياً معدل قدوم الأعضاء إليه نظراً لانشغالهم بعملهم. وفي هذا الاجتماع الذي عقد في قاعة الاجتماعات الصغرى، تمّ إحضار مُحاضرٍ من خارج أعضاء النادي، وأعقبت محاضرته مناقشة غير رسمية.

على الرغم من أن هوندا لم يتّصل قطّ بالأميرين باتاناديد وكريدساوا، بعد عودتهما إلى بلادهما، إلا أن ذكرى الصداقة الغابرة جعلته يهتم بالمحاضرة أشد الاهتمام، فأصغى باهتمام للمتحدث، وهو رئيس فرع أجنبي لمؤسسة كبرى تصادف وجوده في سيام وقت قيام الثورة.

بدأت الثورة، وانتهت، في هدوء، في الصباح المشرق من يوم الرابع والعشرين من حزيران (يونيو)، ومن دون أن يحس بها مواطنو بانكوك. وتدفقت المراكب والزوارق ذات المجاديف في نهار ماي نام، كالمعتاد، وملأت صيحات المتساومين حول الأسعار أرجاء السوق. وفي المباني الحكومية واصلت الأمور زحفها الوئيد المعهود.

لم يدرك أن شيئاً ما ليس كالعهد به إلا أولئك المواطنون الذين مرّوا بجوار القصر ولاحظوا كيف أن مظهره قد تغيّر. فقد سيطرت الدبابات والمدرعات على كل الطرق، وقام الجنود الذين ثُبّتت الأسلحة البيضاء في

مقدمات بنادقهم بإيقاف أية سيارة تقترب، وغصت النوافذ السامقة للطوابق العليا من القصر بمواسير المدافع الرشاشة المتألقة في ضوء الشمس.

كان الملك راما السابع في منتجع با ـ إن المطل على البحر، مع زوجته. وكانت البلاد تحيا في ظل حكم ملكيّ مطلق، ولكن الحاكم الفعلي كان نائب الملك، وهو عمه. وقد تعرّضَ مقر نائب الملك للهجوم عند الفجر، من قبل عربة مدرعة واحدة، وسمح الأمير لنفسه، في استخذاء، وهو يرتدي منامته، بأن يُجلَب إلى القصر جلباً. وجرح في هذا الحادث أحد رجال الشرطة، وكان هذا هو الدم الوحيد الذي سفك في غمار الثورة.

وإلى جانب الأمير نفسه تمّ جلب أعضاء العائلة المالكة، والمسؤولين الذين يشكلون العماد الرئيسي للنظام الملكي، إلى القصر واحداً بعد آخر وحشدوا معاً للاستماع إلى العقيد باهون بونبايوهاسينا، قائد الانقلاب، وهو يوضح لهم العقيدة التي تستند إليها الحكومة الجديدة. فقد سيطر الحزب الوطني على مقاليد السلطة وشكّلت حكومة مؤقتة.

نقلت هذه المعلومات إلى الملك نفسه، وبعد أن بعث في صبيحة اليوم التالي ببرقية يشير فيها إلى أنه يحبّذ الملكية الدستورية، عاد إلى العاصمة مستقلاً قطاراً خاصاً، فحيته الجموع بهتافاتها.

في السادس والعشرين من حزيران (يونيو) أصدر راما السابع بياناً يصدّق فيه على تشكيل الحكومة الجديدة، وذلك فور استقباله للقائدين الشابين اللذين يتزعمان الحزب الوطني، وهما المدني لوانج براديت والعقيد بايا باهون بونبايوهاسينا، ممثل الضباط الشبّان. وأظهر الملك تحبيذه التام لمشروع الدستور الذي عرضاه عليه، وفي السادسة من مساء ذلك اليوم ختمه بالخاتم الملكي. وأصبحت سيام ملكية دستورية اسماً وفعلاً.

تطلع هوندا لسماع شيء عن الأمير باتاناديد والأمير كريد سادا ولكن لما

كان الدم الوحيد الذي جرى سفكه هو دم الشرطي الجريح فقد تيقّن من أنه لم يلحق ضرّ أو أذى بأي منهما.

ولم يستطع من أصغوا إلى صورة الأحداث هذه، على الرغم من عدم إفصاحهم عما يعتمل في قرارة نفوسهم، وفي ضوء إدراكهم للوضع المستهجن الذي تعيشه اليابان، مقاومة النزعة لعقد المقارنات، والتساؤل عن السرّ في أن محاولات القيام بالإصلاح السياسي في بلادهم كانت محاولات مجهضة، مثل حادث الخامس عشر من أيار (مايو)، تتسم بسفك عبثي للدماء، ولا يقدر لها أبداً أن تمضي باعتدال إلى نهاية مكلّلة بالنجاح.

في أعقاب هذه المحاضرة تلقّى هوندا تعليمات بحضور مؤتمر قضائي في طوكيو. ولم تكن تلك المهمة التي تثقل على كاهله بشكل خاص، وكان من دوافع كبير القضاة لتكليفه بها تقديم مكافأة له على خدمته الطويلة. وتقرّر أن يغادر في مساء العشرين من تشرين الأول (أكتوبر)، أي في عشية انعقاد المؤتمر. وكان اليوم التالي، الحادي والعشرون، يوم عطلة، ولم تكن هناك من حاجة تدعوه للعودة إلى أوساكا حتى يوم الاثنين. ومن المؤكد أن أمه سيسعدها بأن يقضي ابنها الذي طال غيابه، عطلة نهاية الأسبوع في طوكيو.

وطيء هوندا رصيف محطة طوكيو في ساعة مبكرة من الصباح. ولما لم يكن أمامه ما يكفي من الوقت للمضيّ إلى دار أمه للتخلّص من وعثاء سفره فقد قرر أن يحظى بحمام ساخن في نزل شوجي القريب من المحطة، بمجرد الانتهاء من تحية الوفد الذي جاء لاستقباله. وربما كان الأمر راجعاً إلى الساعة المبكرة التي وصل فيها. لكن جوّ طوكيو الذي لم يستنشق هواءه منذ وقت طويل بدا له وكأن شيئاً غير مألوف يخالطه.

بدا حشد الناس الذين يمضون بين أرصفة المحطة وبهوها على حاله. وبين الفينة والأخرى كانت تلفت نظر هوندا امرأة ترتدي تنورة طويلة على

نحو غريب، ولكن هذا كان ممّا تقع عليه العين في أوساكا. ولم يستطع وضع يده على الفارق بدقة. ولكن شيئاً يشبه غازاً خفياً بدا كما لو كان يلفّ كل شيء دون أن يلحظه أحد. كانت أعين الناس مخضلّة، ومضوا يسيرون كأنهم في حلم. ولاح كأنما الجميع في انتظار يكتنفه القلق لحدث وشيك الوقوع. صغار الموظفين بحقائبهم ورواتبهم المتدنية، الرجال في زيهم الياباني الرسمي، النساء في ملابسهن الغربية، الفتيات في أكشاك بيع السيجار، الصبية الذين يلمعون الأحذية، عمال المحطة في حرملات زيهم الرسمي، جعلت الحالة المزاجية المسيطرة على هؤلاء جميعاً، كلاً منهم يبدو وكأنما ثمة رابطة سرية تجمعه بالآخرين. وماذا كانت تلك الحالة المزاجية؟

عندما ينتظر المجتمع خائفاً وقوع حادث ما، وعندما يحين الأوان تماماً وتغدو الظروف قائمة، بحيث أنه ما من شيء يمكن أن يحول دون وقوعه، ألا يظهر تعبير من هذا النوع على محيّا كل إنسان؟

كان ذلك أمراً لم يشق طريقه بعد إلى أوساكا. وأحسّ هوندا كما لو كان يصغي للضحك التشنجي الصادر عن طوكيو الخائفة، المرتجفة، مدينة تواجه شبحاً هائلاً، محيّراً، لم يظهر منه بعد إلا نصف كيانه. ولم يستطع هوندا السيطرة على قشعريرة عمّت بدنه.

حينما فرغ هوندا من عمله أمضى معظم يوم السبت مسترخياً في دار أمه. وفي ذلك المساء خطر له فجأة أن يتّصل هاتفياً بأكاديمية الوطنية. وأتاه الرد من إينوما الذي تردّد صوته مثقلاً بحنين مبالغ فيه:

ـ يا لها من مفاجأة أن أجدك هنا في طوكيو! ويشرّفني أن تكلّف نفسك عناء الاتصال بي. وقد أبديت كرماً بالغاً نحوي في دارك، وشمل هذا الكرم ابني، وتأثرت كثيراً لذلك.

ـ كيف حال إيساو؟

ـ غادر طوكيو أمس الأول. وهو في مكان يسمى ياناجاوا، حيث يقيم

كايدو ماسوجاي معسكر تدريب هناك على طقوس التطهّر. وفي حقيقة الأمر فإنه يتعينّ عليَّ زيارة ياناجاوا غداً، الأحد، للإعراب عن شكري للمعلم كايدو لاهتمامه بولدي. وإذا كان لدى سعادتكم وقت فراغ كافٍ، فما قولكم في مصاحبتي إلى هناك؟ إنني على يقين من أن الأشجار في الجبال ستكون في ريعان اخضرارها تسرّ الناظرين.

تردد هوندا. فقد كانت صلته الماضية بإينوما سبباً كافياً للقيام بزيارة داره، وداخلته المخاوف من أنه باعتباره قاضياً إذا ما توجه عمداً لزيارة معسكر تدريب يميني، حتى وإن أحجم عن المشاركة في طقوس التطهّر ذاتها، فإن ذلك سيثير شائعات لا مبرّر لها.

ثم إنه يتعينّ عليه أيضاً، إما في الليلة التالية، وإما في الصباح الباكر الذي يعقبها، أن يلحق بالقطار المنطلق إلى أوساكا. وعليه فقد رفض الدعوة لكن إينوما ازداد إلحاحاً، وربما بدا أن تلك الدعوة هي السبيل الوحيد لإبداء كرم ضيافته. وأخيراً وافق هوندا شريطة أن يحجب هويته. ولما كان قد أراد السهر حتى وقت متأخر، على الأقل خلال وجوده في طوكيو، فقد رتبا اللقاء بحيث يتم في محطة شينجوكو في الحادية عشرة من ضحى غدٍ. وأبلغه إينوما بأن الأمر سيستغرق ساعتين بالقطار على خط تشو للوصول إلى شيوزو. ومن هناك سيتعينّ عليهما السير مع مجرى نهر كاتسورا لمسافة ميلين ونصف الميل.

تقع ياناجاوا في مقاطعة ميناميتسورو، بينما كانت ذات يوم إقليم كاي. وفي قطاع منها يسمى موتوزاوا يشكّل نهر كاتسورا زاوية قائمة، ويتحوّل إلى جنادل. وفي ذلك الموضع كان كايدو ماسوجاي يمتلك ستة هكتارات من الأرض المزروعة بالأرز تنتأ بارزة في النهر، مثل ذلك الجزء من خشبة المسرح الذي يقع أمام الستار المسدل. وفي مواجهة الأرض المزروعة بالأرز كانت هناك قاعة للتدريب تستخدم كذلك مهجعاً لعدد كبير من الطلاب.

وكان هناك مزار. وإلى الغرب من قاعة التدريب كوخ في بقعة تمتدّ عند جسر معلق فوق النهر، ومن هنالك يفضي درج إلى موضع التطهّر. وكان طلاب أكاديميته هم الذين يزرعون حقول الأرز.

كانت كراهية كايدو ماسوجاي للبوذية أمراً معروفاً. ولما كان من المعجبين بأتسوتانتي فقد كان هذا من الأمور التي يمكن توقعها، وقد درج على انتحال انتقادات أتسوتانتي الساخرة لبوذا والبوذية، ونسبتها إلى نفسه، وإلقائها كما هي على مسامع طلابه. وقد أدان البوذية لإنكارها للحياة وبالتالي لإنكارها أن يكون بمقدور المرء أن يموت من أجل الإمبراطور، ولعدم معرفتها بشيء عن «الحياة الثرية للروح» وكنتيجة لذلك انغلاقها في مواجهة النبع الجوهري المانح للحياة الذي هو موضوع الإيمان الحق. أما فيما يتعلق بالكارما فهي ليست إلا فلسفة الشرّ التي تتدنّى بكل شيء إلى العدمية.

ـ سيدهارتا هو اسم مؤسس البوذية، وهو رجل بالغ الحمق، دفن نفسه في الجبال، وكرّسها لألوان التقشف والزهد كافة من دون أن يفلح في اكتشاف سبيل للإفلات من المصائب الثلاث، الشيخوخة، والمرض، والموت... ولكنّه خامره الإلهام المرتكس المتمثل في البقاء بالجبال سنوات عديدة أخرى أصبح خلالها حاذقاً في فنون السحر. وبوجود هذه الذخيرة من ألوان المعرفة الغيبية التي تسانده أصبح ما يسمى بوذا... ولفّق النظرية القائلة بأن بوذا هو كائن يستحقّ كل آيات التوقير. وهكذا فإن مؤسس البوذية هذا، بفضل مغالطته المهرطقة، فتح أمام البشر الطريق إلى الهلاك، وحوّل نفسه إلى شيطان تنصبّ عليه العذابات الثلاثة... وحتى قبل قدوم البوذية فإن مجيء ما يسمى بالكونفوشية قد جعل قلوب البشر بالفعل مترعة بالفساد والمكر، ثم مع الخرافة الباذخة المتعلقة بالثواب والعقاب التي حملتها البوذية معها، اكتسحت كل آثار الرجولة، ولم يطل

الوقت حتى أصبح العلية والسفلة على السواء عبيداً لمذهب زائف. وفضلاً عن ذلك فإنه من الطبيعي، مع ازدياد ازدهار هذا المعتقد، أن يكون البشر قد نأوا عن ذلك المصدر الحيوي الذي كان ينبوعهم منذ أقدم العهود، أي مشاورات آلهة الأسلاف، وأن يشرعوا في إهمال الطقوس القديمة، بل لقد أفسدت التأثيرات البوذية هذه الطقوس...

على هذه الشاكلة كانت عظات أتسوتانتي التي يصبها المعلم كايدو صباً في مسامع الطلاب، بحماس لا يعرف التراجع؛ ولهذا طلب إينوما من هوندا خلال الرحلة ألا تفلت منه أية ملاحظة عرضية تشي بتحبيذ البوذية على الإطلاق.

تبيّن أن كايدو ماسوجاي ينتمي إلى نوع آخر من الأشخاص يختلف عن العجوز المهيب ذي اللحية الشهباء المسترسلة الذي تصوّره هوندا بناء على المعلومات التي تناهت إليه، فقد كان عجوزاً ودوداً، صغير الجرم، أهْتَم، ولكنّ عينيه كانتا عيني أسد، وكان الانطباع الذي تركه في نفس هوندا قوياً.

بعد أن قدم إينوما هوندا بوصفه مسؤولاً حكومياً أبدى عطفاً كبيراً عليه منذ سنوات، حدقت عينا كايدو الشبيهتان بعيني الأسد في هوندا بثبات، وهو يرد قائلاً:

- إنك تبدو رجلاً تعامل مع كل أنواع البشر، ومع ذلك فعيناك لا تشوب صفاءهما أدنى شائبة من الافتقار للنقاء. وذلك أمر نادر. وليس يدهشني التوقير الذي يبديه إينوما نحوك، رغم أنك لا تبدو موغلاً في العمر.

وإذ فرغ من أمر المجاملات فقد شرع توّاً في الهجوم على بوذا:

- إنني أدرك أننا التقينا لتوّنا فحسب، ولكن ذلك الشخص بوذا ليس إلا

خدعة، وإني لأشتبه في أنه الوغد الذي سلب اليابانيين روح ياماتو التي حظوا بها، وحرمهم شجاعتهم الرجولية. ألا تنكر البوذية الروح؟

ولما كان إينوما قد مضى مسرعاً لأداء التطهّر الطقوسي فقد ألفى هوندا نفسه جالساً وحده مع كايدو في قاعة التدريب، متروكاً ليحتمل وقر العظة التي أمطره بها.

عندما لمح هوندا إينوما وقد عاد إلى الظهور في رداء أبيض وهاكاما بيضاء، بصحبة كبير أتباع كايدو، شعر بموجة من الارتياح.

قال إينوما:

- إن ماءكم عذب ونقيّ حقاً، وقد تطهّرت ذهناً وبدناً، فشكراً لكم. والآن ترى أين يمكنني أن أجد ولدي؟

أمر كايدو كبير أتباعه باستدعاء إيساو. وثار اهتمام هوندا حيال توقع رؤية إيساو يقبل مرتدياً الزي الأبيض والهاكاما البيضاء اللذين يرتديهما أبوه.

ولكن لم يكن ثمة أثر لإيساو. فعاد التابع وركع عند العتبة:

- يقول الطلاب إن إيساو غضب أشد الغضب لتعنيفكم إياه قبل قليل، واستعاد بندقية صيد من دار حارس البوابة، وقال إنه ماضٍ لاصطياد كلب أو قطة لإبعاد الأمر عن ذهنه. ويبدو أنه قد اتجه نحو الجبال، ربما إلى تانزوان.

هبّ كايدو واقفاً وعيناه اللتان تشبهان عيني الأسد تتوهجان غضباً:

- ماذا؟ يسفك دماء الحيوانات بعد أن تطهّر؟ يا للعار! اجمع كل الرجال في مجموعة إيساو الدراسية تلك، وقل لهم إن على كل منهم أن يأخذ عصا تقدمة بيده ويمضي لمواجهة إيساو. لسوف يكون سيئاً كالأمير سوزاو نفسه إذا لوّث رحابنا المقدسة.

بدت القوة وكأنها تتسرب من إينوما، فيما الضيق يأخذ بخناقه، وهي محنة اضطر هوندا الواقف إلى جواره لمراقبتها بشيء من التفكّه.

ـ ولكن ما الذي يمكن أن يكون ولدي قد جناه؟ لم اضطررت إلى تعنيفه؟

ـ لم يكن ذلك من أجل أمر خطير، فهوِّن عليك. ولكن في قرارة ولدك هذا يبرز الإله الضاري البالغ القوة، وقد عنفته لأنه ما لم يعمل بجد ليكون أكثر تفتّحاً للإله المعتدل، فسوف ينحرف عن الطريق السويّ. على ولدك تسيطر الروح الطائشة التي لا سبيل إلى ردّها على أعقابها. ولما كان فتى فإنه لا بأس بالأمر، ولكنه يوغل أكثر مما ينبغي. وعندما عنفته أحنى رأسه في إذعان، وأصغى لما أقول، ولكن عقب ذلك لا بد أن الإله الضاري قد انطلق من عقاله.

ـ يتعين عليَّ أخذ عصا تقدمة بنفسي والانطلاق لتطهيره.

ـ سيكون ذلك أمراً طيباً. فامضِ مسرعاً، إذن، قبل أن يدنّس نفسه!

لدى سماع هوندا هذا كله أحس في البداية بالتراجع في مواجهة الجو المخيف، ولكنه فجأة شعر بأن عبثية الأمر المطلقة تشكل إهانة لذكائه. فهؤلاء الناس من حوله لا يفكرون في الجسم البشري وإنما هم غارقون في التفكير في الروح. ها هنا حادث عادي تماماً قوامه تفجّر حنق شاب مستقل لدى تعرضه للتعنيف، ولكنهم نظروا إلى ذلك باعتباره تجلّياً للقوة الرهيبة النابعة من عالم الأرواح.

الآن، ساور هوندا شعور بالندم على أن إحساسه الغريب بالتقارب مع إيساو قد جعله يحضر إلى مثل هذا المكان، ولكنّ خطراً مجهولاً محوّماً حول إيساو بدا أنه كان يتشكّل أمامه، وأحسّ بأن عليه القيام بكل ما في وسعه لردّه على أعقابه.

عندما خرجوا من قاعة التدريب كان هناك حوالي عشرين شاباً، كل

منهم يمسك بغصن ساكاكي تدلت منه رايات ورقية، وقد ارتسمت تعبيرات متوترة على ملامحهم. رفع إينوما غصنه وشرع في المسير، فسارت المجموعة بأسرها وراءه، واتخذ هوندا الذي كان وحده يرتدي حلة مكانه وراء إينوما مباشرة.

في تلك اللحظة ساور هوندا شعور غريب. فقد بدا له أن ما يفعله مرتبط بشكل من الأشكال بذكرى بعيدة، على الرغم من أنه ليس من المحتمل على الإطلاق أن يكون قد ألفي نفسه يوماً وسط مجموعة ترتدي أردية بيضاء مثل هذه المجموعة. غير أنه بدا كما لو كان يسمع صوتاً معدنياً، كأنما هناك مجراف يتحرك ليزيح التراب عن ذكرى نفيسة للغاية، ويرتطم بالصخرة الأولى التي تعترض طريقه. وتردّد صدى الصوت قوياً في رأسه، ولكنه مضى عندئذ وكأنه شبح. لم يسيطر عليه هذا الانطباع إلا للحظة. ترى ما الذي سبّبه؟

بدا الأمر كما لو أن خيطاً طويلاً، جميلاً، غليظاً، ذهبياً، قد شق طريقاً أشبه بقوس رشيق كاد يتجاوز إبرة إدراك هوندا، وأوشك على المساس بها، بل مسها بالفعل، ولكن فيما كان يبدو أنه على وشك ولوج عينها انحرف جانباً، ومضى. وكأنما من جراء الخشية من أن ينسج بقوة ضمن المادة المنسوجة التي يسودها لون واحد، اللهم إلا النموذج التجميلي المرسوم عليها. فقد انحرف الخيط إلى أحد جانبي العين، ومرّ إلى جوارها. وكانت الأصابع التي ترشده هائلة، ولكنها رشيقة وبالغة اللين.

- ٢٣ -

كان ذلك في حوالي الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم من أيام شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وهي ساعة تكون الشمس فيها قد شرعت في الاحتجاب وراء الجبال المحيطة بالمنطقة. وعمّ الضوءُ المنهلُّ من السماء التي ترقشها السحب القممَ المكسوة بالأشجار، وكأنه غمامة.

عبر الموكب الذي يتقدمه إينوما الجسر المعلق العتيق، في صمت، وكل ثلاثة رجال أو أربعة معاً. وفيما هوندا يتطلع إلى أسفل رأى أنه إلى الشمال من الجسر كان الماء ساكناً وعميقاً، ولكن على الجانب الجنوبي، حيث يقطع المطهر، كان النهر ينطلق مسرعاً وضحلاً بين الشاطئين اللذين يكسوهما الحصى والصخور. وقد شكّل هذا الجسر المتآكل فاصلاً بين المناطق العميقة والضحلة.

وبعد أن عبر الجسر التفت إلى الوراء وتطلع إلى الشبان السائرين خلفه متجهمي الوجوه، وخطاهم المقتربة تحرّك كل درجات الجسر الخشبية.

مضى الشبان يحمل كل منهم فرع السكاكي الخاص به، قُدُماً إلى الأمام، ووراءهم خلفية من أشجار السنديان على الضفة المقابلة، وبساتين أشجار التوت والوريقات الحمراء الأشجار النورودي والكوخ فوق الضفة وشجرات برسيمون سوداء الجذع تدلت منها شجرة واحدة في جمال حسيّ بارز. وتألقت أجسام الشبان في الأشعة القليلة المنسابة من الشمس الغاربة التي انسلت، عند ذاك، عبر السحب المحومة فوق قمم الجبال. ولقد ألقت الشمس من أطراف هاكاماهم زخرفاً حادّ التراكيب، وخلعت ألَقاً على أرديتهم البيضاء بحيث بدا كل سائر وكأنه يستمدّ ضياءه من ذاته،

وشـع بهاء أخضر قـاتم من أوراق فرع السـاكـاكي الـذي يحمله، ورقشت ظلال رقيقة الرايات البيضاء المتدلية منه.

حدث بعض التأخـير قبل أن تعـبر المجموعـة المؤلفة من اثنـين وعشرين رجلاً تقريبـاً الجسر. وحدَّق هـوندا النـظر فيها حـوله من جـديد مستشرفـاً مشاهد الجبـال التي كساهـا الخريف بلمسـاته، والتي أتيـح له وقت الفـراغ لدراستها بالفعل خلال المسيرة التي امتدت ميلين ونصف الميل، من شيـوزو إلى ياناجاوا.

لما كان هذا يحدث في قلب الجبال فإن الألـوان المتنوعـة القاتمـة والفاتحـة للمنحدرات القريبة والبعيدة قد فرض كـل منها نفسـه على الآخـر، وبدت كما لو كانت تطبق على الناظر إليها. وقد حظي كـل جبل بنصيب وافـر من أشجار الأرز التي انتصبت على نحو معتم في تفرّد قاسٍ عن الدفء الأحمـر المحيط بها. ولم يكن الخريف قد أوغل في مسيرته بعد، وعلى الـرغم من أن ألوان هذا الموسم بدت جليـة، إلا أنها كانت مثـل عباءة من صـوف خشن مصفـرّ ترقّشـه حمرة في لـون الصدأ. وبـدا جوّ من فتـور وكأنـه يثقـل عـلى النبـاتات والأشجـار الحمراء والصفـراء والخضراء والبنية فيـطفىء بريقهـا. ولفت رائحـة دخان الخشب وضـوء الشمس الذي يشبـه الغيم كـلَّ شيء، ولاحت المنحدرات الأكثر بعداً وكأنما رسمت بحدّة باللون الأزرق الشاحب تحت غطاء الضوء الغائم الذي يلفّها.

عندما عبر الجميع الجسر انطلق إينوما في المقدمة من جديـد، وهونـدا ما يزال في إثره. واكتست الأرض الممتدة تحت أقدامهم بالأوراق المتساقطة من أشجـار السنديـان، على الضفـة الأخرى. وأمـا الآن، وعـلى امتـداد هـذا الطريق الصخري المرتفع، فقـد كانت الأوراق السـائدة هي أوراق أشجـار الكرز. وابتداء من الجسر فصاعداً امتدت هذه الأوراق وكأنها زهور حمـراء منسـاقـطة، وشحب لـون بعض الأوراق المبتلة التي شرعت في الـتحـلّل

بالفعل، فضربت إلى لون أحمر وردي يحاكي لون إطلالة الفجر. لم يتعيّن أن يأخذ التحلّل لون الفجر؟ هكذا راح هوندا يتساءل، والسؤال العبثي يثقل كاهله. وانتصب برج إنذار من الحريق على قمة الصخرة، وقد غرق جرسه الصغير في الظلال بإزاء السماء الشاحبة الزرقة. والآن اكتسى الدرب بأوراق أشجار البرسيمون. وعلى الجانبين كليهما امتدت حقول القنبيط ودور الفلاحين. وتناثرت في كل مكان زهور الأقحوان البرية ذات اللون الأرجواني المحمرّ، وضم كل فناء أشجار البرسيمون الخاصّة به وقد بدت عارية إلا من ثمرة باقية تدلت من فروعها وكأنها مما يجمل الاحتفال به احتفالاً بالعام الجديد، وتعرج الدرب في هذا الاتجاه وذاك بين أسيجة بيوت الفلاحين.

ما إن اجتازوا إحدى هذه الدور حتى انفسح مجال الرؤية على نحو أكبر، أمامهم فجأة. وبدوره تحول الدرب على حين غرة، عند موضع ينتصب فيه حجر ليكون بمثابة صلاة بوذية على أرواح الراحلين، إلى طريق عريض ينساب وسط المزارع.

وإلى الجنوب الغربي لم يكن هناك إلا جبل صغير واحد يقع أمام المستنقعات مباشرة، هو جبل جوزين العالي الذي ارتفع مع الجبال الأخرى التي ملأت الأفق الشمالي، فيما وراء النهر والطريق. وحتى الآن، في غمار رحلتهم، وباستثناء هذه القرية الواقعة عند سفح جبل جوزين، لم يكن هناك أثر لمسكن بشري.

ازدهرت مجموعات من نباتات عصا الراعي الحمراء الزهور، على امتداد جانب الطريق الذي تناثر عليه القش. وكان بالوسع سماع صرير الجنادب الخافت. وحفت حواجز تجفيف القمح بالعديد من الحقول، وفي حقول أخرى نشرت الحزم التي صعدت حديثاً على الأرض القاتمة المتشققة.

والتفت صبيّ صغير فخور بدراجته الجديدة ليحدق ببلاهة في هذا الموكب الغريب، فيما يمضي هو على مهل بدراجته.

كست لمسات الخريف، وكأنها ذرور ضبابيّ، الجبل الصغير الواقع إلى الجنوب الغربي. وأمامهم امتدّ الطريق إلى الشمال مفتوحاً ونائياً حتى ضفة نهر كاتسورا. وبدت شجرة أرز وحيدة مزقتها صاعقة، في حقل قريب، وقد انحنى جذعها المتصدّع إلى الخلف، ولاحت أوراقها الإبرية في لون الدم الجاف، وانتزعت جذورها جزئياً من الأرض، ونما منها في كل الاتجاهات عشب يكسوه الحسك.

حينئذ لاح شبح يرتدي البياض أمامهم، على الطريق، وهتف أحد الشبان: «هو ذا!».

أحسّ هوندا برعشة لا مبرر لها تجتاح عموده الفقريّ.

وقبل ذلك بنصف ساعة كان إيساو قد تجول في هذه المنطقة عينها، ببندقية صيد من طراز موراتا في يده، وعيناه محمرّتان. لم يكن غاضباً من تعنيف المعلم كايدو له. ولكنه، في غمار هذا التعنيف، طرأت له فكرة لا سبيل إلى احتمالها، وألفى نفسه لا يستطيع تجنّب التفكير في أن إنهاء الجمال والنقاء البلوري الذي سعى إليه، قد هوى إلى الأرض واستقرّ حطاماً، وأنه يرفض بعناد الإقرار بالأمر. ومضى يتساءل: أليس صحيحاً أنه إذا أراد العمل فلا خيار أمامه إلا القيام على نحو ما باستغلال اندفاع الشرّ سرّاً وترك قوته تدفعه قُدُماً إلى الأمام؟ تماماً على نحو ما فعل أبوه؟ كلا، كلا، بالتأكيد، فلا علاقة لهذا بسلوك أبيه، فبالنسبة له، لن يكون هناك مزج للصلاح بالشر، ولا للشر بالصلاح. فالشر الذي يريد أن يودعه في أعماقه ينبغي أن يكون شرّاً محضاً خالصاً لا يقلّ في ذلك عن الصلاح الذي يكنه في أعماقه. وعلى أية حال فإنه ما إن يحقق هدفه حتى يدفع سيفه

في بطنه. وأحسّ بأنه في تلك اللحظة سيموت الشر الخالص القابع في نفسه أيضاً، في غمار الصدام مع الصلاح النقيّ الذي يتّسم به عمله.

لم يسبق لإيساو من قبل قط أن أحسّ بأنه يودّ قتل أي شخص بسبب كراهية شخصية. وراح يتساءل عن الكيفية التي تثور بها الرغبة في القتل. وما هي العلاقة التي تربطها بالأحداث الكئيبة للحياة اليومية؟ كانت تلك مشكلة طالما أرّقته. لسوف يتعينّ عليه أولاً أن يقترف عملاً صغيراً من أعمال الشرّ الخالص، تدنيساً هين القدر.

كان المعلم كايدو، باعتباره تابعاً متحمساً لأتسوتانتي، قد ألقى محاضرة عن الدنس الذي يجلبه لحم الحيوانات ودمها. وهكذا استعار إيساو بندقية صيد وانطلق آملاً أن يصيد غزالاً أو دبّاً في الجبال التي كساها الخريف. ولئن ثبت أن هذا أمر صعب للغاية، فليكن إطلاق النار على كلب أو قط وحملُ جسد الذبيحة الملطّخة بالدم إلى ياناجاوا. وإذا كان ذلك يعني أنه سيطرد مع رفاقه من المعسكر فإنه على استعداد لقبول الأمر. ومن المؤكد أن ذلك سيبثّ فيهم لوناً جديداً من الشجاعة والإصرار.

يمّم صوب الجنوب الغربي، وقد استقرت عيناه على الجبل الصغير الملتف بأوراق الأشجار القرمزية. كان بمقدوره أن يرى أن بستاناً من أشجار التوت قد جثم على المنحدر الغربي الرقيق للجبل وأن الدرب الضيق الصاعد إلى أعلى يمتد بين البستان وأجمة الخيزران. ولاحت أشجار الأرز كثيفة فيما وراء بستان التوت، ولكن أحدهم حدّثه بأن الدرب يخترقها.

بدت البندقية الموراتا التي يبلغ طولها قدمين وربع القدم وكأنها قضيب حديدي في يده، وجعل هواء الخريف الأجزاء المعدنية فيها باردة، بحيث كانت تحدث صريراً تحت لمسة أصابعه. وكان من الصعب الاعتقاد بأن الطلقة التي استقرت بالفعل في غرفة النار تملك قوة منح الدفء للمعدن. ولم تبد الطلقات الثلاث التي يحملها في ردائه، وملمسها المعدني البارد

يضغط على صدره خلال سيره، ثلاث طلقات قاتلة، بقدر ما بدت ثلاث عيون باردة تركزت عليه.

لما لم يكن هناك كلب أو قط تقع عليه العين فقد قرّر إيساو أن يرقى الدرب الصاعد ما بين أجمة الخيزران وبستان التوت. وقد تمثل هذا الدرب داخل الأجمة في مزيج متشابك من نبات معترش له ثمار حمراء ولبلاب متسلق. واعترضت طريقه كومة من جذور أشجار التوت علتها الأشنة وقد انتزعت وكومت بجوار البستان. سمع من مكان جد قريب شقشقة حسون أخضر. فتصور شبح أيل متخلٍ عن حرصه يتشكّل أمام ماسورة بندقيته. كان على يقين من أنه سيطلق النار بلا تردد. سيتعين عليه أن يريد القتل، ولن تدرك الضحية ذلك. ليست هناك حاجة للكراهية. وفي غمار احتضاره سيكشف الأيل للمرة الأولى النقاب عن قوة الشر الكاملة، وستتألق في البريق المعتم للدم وهو يشخب من قلب الحيوان.

أرهف إيساو سمعه. ليس ثمة صوت حركة فوق أوراق الأشجار المتساقطة. حدَّق في الدرب الممتد أمامه. لم يبدُ ثمة شيء يشبه أثر غزال. أحسّ إيساو بأنه إذا كان هناك ما يمسك أنفاسه فإنه يفعل ذلك لا خوفاً ولا عداء، وإنما سخرية من اعتزامه الإقدام على القتل. وساوره شعور بأن الصمت الحافل للغابة ذات الأوراق الأرجوانية ولأجمة الخيزران ولصفوف أشجار الأرز يسخر منه.

صعد إلى حيث يبدأ امتداد أشجار الأرز. حفلت الفراغات القائمة بالذات بين الأشجار بصمت معتم. ولم يبدُ ما يشير إلى وجود حياة. وشرع في السير عبر المنحدر، وألقى نفسه في غيضة قليلة الأشجار تنيرها الشمس. وفجأة اندفع تدرج محلِّقاً من تحت قدميه. كان هدفاً متفجراً ملأ مجال رؤيته. لا بد أن تلك هي لحظة «الإطلاق»، كما لقنه حارس البوابة. ورفع البندقية، في الحال، وأطلق النار.

حفلت صُفرة أوراق الأشجار وحمرتها فوق رأسه بوهج الشمس الغاربة. وبدا أن تاجاً ثقيلاً متألقاً من الخضرة يتدلى متوازناً للحظة في مواجهة رقعة من سماء مسائية جهمة. وانحل هذا التاج في جناحين مصطفقين، وقد تبدّد مجده. ولاح أن هذا الاصطفاق يخضّ الهواء محوِّلاً إياه إلى سائل غليظ القوام، لزج الملمس، تشبث في الحال بالجناحين، كالدابوق، وأحدث أثره. ولم يعد الطائر فجأة، ودونما وعي، طائراً، فقد جعله كدّه لإبقاء جناحيه طليقين ينحرف عن مساره المقصود، فاندفع فجأة باتجاه الأرض، محتجباً وسط الأشجار. ولم تكن هذه البقعة بالبعيدة، وقدّر إيساو أن الطائر قد هوى في الأجمة التي عبرها قبلاً.

وإذ كان حريصاً على بلوغ تلك البقعة فقد تجاهل الدرب، وهو يندفع منحدراً خارجاً من الأيكة، ممسكاً بالبندقية تحت ذراعه، ودخان أسود ما زال ينساب من ماسورتها. واشتبكت أشواك بردني ردائه ومزّقتهما.

ملأ وهج منعكس عن صفحة الماء أجمة الخيزران. واستخدم البندقية لتنحية النبات المعترش الذي أطبق عليه. حدّق في الأرض، متفحصاً، خوفاً من أن يفقد التدرج، وسط ألوان الأوراق المتساقطة من أشجار الخيزران. وأخيراً عثر عليه. ركع، وهو يلتقط جثة الطائر الهامدة، فانبثق الدم من صدرها وسقط على هاكاماه البيضاء.

كانت عينا الطائر مغمضتين في إحكام، والريش المحيط بالعينين المطبقتين تزينه بقيعات أرجوانية تشبه فطر الجاريقون. كان طائراً ممتلئاً على نحو قاتم، له بريق معدني بدا أنه يحيل الريش الرقيق إلى درع، ولاح لونه قوس قزح وسط سماء سوداء. وفيما تدلّى رأسه على ذراع إيساو لاحظ أن ريش جثته المنثنية أقل سمكاً، وأن بريقه من نوع مختلف.

بدا الريش المحيط بالرأس أرجوانياً، في عمق حبّات كرم قاتمة، على وجه التقريب وتجمع كثيفاً كأنه حراشف السمك. ومن العنق حتى البطن

تشابك ريش قاتم الخضرة وكأنما ليشكل رداء واقياً راح يتألق في السنى الآخذ في الشحوب. وفي أسفل هذا الريش القاتم الخضرة راح الدم يتدفق وكأنه من جرح خفيّ.

أولج إيساو إصبعه مقدّراً موضع الجرح فلم يلق مقاومة وهو يدفعه عميقاً في الصدر الذي مزقته الطلقة، وحينما سحبه ألفاه مكسواً ببلل دموي. ما طبيعة الشعور الذي يثيره الذبح؟ هكذا ساءل نفسه محترقاً بالرغبة في الحصول على إجابة. لقد كانت الفعلة، لحظة تصويب البندقية والضغط على الزناد، دفقاً سريعاً من الحركة، لا يصحبه إلا أدنى شعور بالرغبة في القتل. ولم يرقَ هذا حتى إلى أقل من انبعاثة الدخان الأسود الذي ظل ينساب فيما بعد من ماسورة البندقية.

من المؤكد أن الطلقة قد قامت مقام النية. فهو لم يبدأ بصعود الجبل حاملاً معه فكرة قتل هذا التدرج، ولكن البندقية نفسها ما كانت لتدع مثل هذه الفرصة الباهرة تمر مرور الكرام. وهكذا وقع سفك صغير للدماء وموت هينّ على الفور، ثم كان هذا التدرج المرتمي ساكناً على ذراعه أمراً أبعد ما يكون عن الخروج على ما هو طبيعي.

أما فيما يتعلق بالصلاح والنقاء فقد نبذهما في برودة كأنهما عظام تركت في صفحة طعام، وما كانت شهيته لتثور لمرأى العظام، وإنما حيال اللحم. لقد أراد هذا الشيء السريع التحلّل، هذا الشيء الذي تألّق، هذا الشيء الذي كان بالغ اللين. لقد عرف هذا المذاق، ومنه جاءت النشوة التي تشارف حدود الألم التي يستشعرها الآن، وسكينة التحقّق. ذلك هو ما استغرق حواسّه.

هل تحوّل التدرج إلى تجسيد للشرّ؟ كلا، إطلاقاً. وإذ أمعن إيساو النظر فقد رأى حشرات دقيقة ذات أجنحة تتحرك في ريشه. ولو أنه تُرك ملقىً هنالك فمن المؤكد أن النمال واليرقات سرعان ما تلتف أسراباً حوله.

شعر بالضيق إزاء عيني الطائر المطبقتين في إحكام فقد بدتا وكأنهما تعزلانه، في برودة، في مثل رفض تعسفي، عن شيء يتوق يائساً إلى معرفته. ولكن هذا الشيء الذي أراد معرفته ـ ألفى إيساو نفسه عاجزاً عن تحديد ما إذا كان في المقام الأخير الشعور بالقتل أو الشعور بموته هو.

أمسك الطائر بخشونة من عنقه وشق طريقه بصعوبة إلى خارج الأجمة مستخدماً بندقيته في لطم النباتات المتطاولة. قطع فرع نبات معترش مثقل بالثمار الحمراء فسقط حول عنقه، وتدلّى وثماره تهتزّ على صدره وكتفيه. ولما كانت يداه كلتاهما مشغولتين فقد تركه كما هو.

انحدر إلى بستان التوت وشرع في عبوره على درب يسير بمحاذاة إحدى مرتفعاته. وإذ غرق في التفكير فإنه لم يُبْدِ اهتماماً بوفرة الزهور الحمراء التي راح يدهسها.

انتصبت أمامه شجرة أرز ضربتها صاعقة. وكانت أوراقها الإبرية نصف بنية بالفعل. وفي زاوية قائمة على هذا الدرب، وهو ما لم يلحظه من قبل، امتد الطريق الذي قَدِمَ منه، طريقٌ عريض يتخلل الحقول التي لا يحدّها شيء، فانعطف نحوه.

على مسافة منه راحت مجموعة ترتدي الثياب البيضاء تحثّ الخطى مقتربة منه. وعلى الرغم من أنه لم يكن بمقدوره بعد تمييز وجوههم فإن الأغصان التي تتدلى منها الرايات، والتي يحملها كل واحد منهم، أثارت في نفسه شعوراً غريباً. يتعينّ أن تشير الأردية البيضاء في مثل هذا المكان إلى طلاب المعلم كايدو، ولكنه ما كان ليتوقّع مجيء رفاقه سائرين على هذا النحو الوقور، وتحت قيادة شخص غيره. بدا القائد أكبر سناً، وسار خلفه رجل يرتدي حلة. وذهل حينما أدرك أخيراً أن الرجل الذي يمضي في المقدمة له الشارب المشذّب الذي يميّز أباه.

في تلك اللحظة امتلأت السماء التي كان وهج الغروب ما يزال ينيرها،

على حين غرة بصيحات سرب كبير من طيور صغيرة ظهرت مقبلة من حمى الجبل. وبدا أن ذلك قد شتّت انتباه السائرين ذوي الأردية البيضاء، فتوقفوا لبرهة قصيرة حتى مرّت الطيور مبتعدة.

مع تضاؤل المسافة التي تفصل إيساو عن المجموعة، بدأ شعور يساور هوندا بالانفصال عن المشهد الذي راح يتشكل في الضوء المتراجع الذي يغمر الحقول الفسيحة. وانحرف عن الطريق تدريجياً حتى انفصل عن الطابور، ومضى يشق طريقه عبر حزم الأرز التي تركت لتجف. كانت لحظة ذات أهمية بالغة تقترب. ترى ما الذي غابت عنه معرفته؟ كان شخص إيساو ظاهراً بوضوح الآن. ولمح هوندا على صدره شيئاً بدا مثل قلادة من حبات هلالية حمراء، هي فيما يبدو نوع من الثمار الصغيرة.

نبض قلب هوندا بعنف. كانت قوة لا تقاوم تدنو، قوة ستوجه ضربة ساحقة إلى رؤيته العقلانية. كان بمقدوره بالفعل استشعار اندفاع أجنحتها وتنفسها وهي تدنو منحدرة. لم يكن يؤمن بالنذر والهواجس التي تسبق الأحداث، ولكنه راح يتساءل: لئن كان هنالك شيء يمكن أن يجيء ليحذّر رجلاً من موته أو موت شخص قريب منه أفلا يكون هذا الشيء إحساساً كالذي يعتريه الآن؟

ـ هكذا، فقد اصطدت تدرجاً فحسب. إيه؟ طيب. ليس هذا بالشيء البالغ السوء.

تردد صوت إينوما بهذه الكلمات. ولم يملك هوندا الواقف هنالك في الحقل إلا التطلّع نحوه.

ـ ليس هذا بالشيء البالغ السوء.

قالها إينوما مجدّداً، ثم، وكأنما على سبيل الدعابة، رفع غصن الساكاكي الذي يحمله ولوح به فوق رأس إيساو. فتألقت راياته بياضاً ناصعاً في الغسق. وكانت لحفيفها نضارة تثير الألم.

ـ يا لها من طريقة سلوك! بل وتأخذ بندقية معك! لقد قال المعلم كايدو رأيه فيك بالفعل. إنك طائش وعنيد. وقد برهنت على ذلك بما لا يدع مجالاً للشك.

في لحظة سماع هوندا لهذه الكلمات تكشّفت الذكرى التي كمنت في أعماقه جليّة، أخيراً، بوضوح لا يعرف الشفقة فعلى نحو يتجاوز أي شك كان ما تحقّق أمام ناظريه هو الحلم الذي ساور كيواكي ماتسوجاي ذات ليلة صيفية في العام الثاني من عهد تايشو. وقد سجل كيواكي هذا الحلم غير المألوف، بتفصيل شديد، وقد أعاد هوندا في الشهر الماضي فحسب، قراءة ذلك المقطع من يوميات الأحلام. وقد تحقّق بصورة متدفقة بالحياة، وبكافة تفاصيله، أمام عينيه، وغدا جزءاً من الواقع، بعد مرور تسعة عشر عاماً.

شكّل كون إيساو هو كيواكي وقد بعث من جديد، على الرغم من أن إيساو نفسه لا يدرك ذلك، شكّل بالنسبة لهوندا شيئاً لا يمكن أن تخترقه كل القوة التي في وسع العقل أن يحشدها ضدّه. فقد كانت تلك حقيقة.

- ٢٤ -

في مساء اليوم التالي، وبعد انتهاء الدورس، قاد إيساو رفاقه إلى المكان الذي يعقدون فيه اجتماعاتهم السرّية كل يوم. فهناك لن يراهم أحد، وحتى إن قدّر لأحد أن يراهم فإن الملابسات لن توحي بما يتجاوز مشهد مجموعة من الفتية يلتقون ليتبادلوا حديثاً لاهياً. وفي البقعة التي تواجه عندها المزرعة العائدة لأكاديمية كايدو صخرة موتوزاوا، تنتصب صخرة هائلة تكسوها الخضرة، شأن الجبل الصناعي في حديقة تحاكي معالم الطبيعة. وما إن يحتجب المرء خلفها حتى يغيب عن ناظري أي شخص يتطلع من اتجاه قاعة المحاضرات. وإلى الأسفل هناك الجنادل، وعلى الجانب المقابل يشمخ الحائط الصخري. كانت البقعة المعشبة الصغيرة الواقعة وراء الصخرة مناسبة، بصورة مثالية، للجلوس في شكل حلقة وإجراء مناقشة وفي الصيف كان من شأنها أن تكون بقعة تدخل السرور على النفس. ولكن الرياح المسائية كانت في كاي، في أواخر تشرين الأول (أكتوبر) شديدة البرودة. غير أن حماس الفتية الذين تجمّعوا هنا كان بالغاً، حتى إن البرد لم يُثِرْ ضيقهم.

وفيما كان إيساو يمضي بهم على الدرب الذي يجتاز الحقول، لاحظ الآثار المتخلفة عن حريق، ولم تكن هناك أمسِ. وكان الرماد الخفيف للقشّ المحترق قد خلف أثراً رمادياً على الدرب. ولكن حيثما تجمّع مشكّلاً أثر درب، بدا أسود قاتماً. اختلط هذا السواد مع حمرة الطفال الرمليّ، على نحو أسر إيساو. ومن الغريب أنه لم يكن خليط الرماد والبقايا القليلة من القش الجديد هو الذي بعث أفكاراً عن النار المتوهّجة في ذروتها، وإنما

الرماد الثقيل الذي دهسته في التربـة عجلة دوّارة. الحمرة القـوية الهمجيـة للهب، والسـواد الفاحش القـوة للرماد الثقيـل ـ هـا هنـا التعبـير الكـامـل والمفارقة الكاملة. كل منهما يتعالى ثم يُداس، كل منهما له القوة ذاتها المترعة بـالحيويـة. ومن الجـليّ أن الارتبـاط الـوثيق الـذي أثـاره هـذا كله في ذهن إيساو، كان مناطه شبح الانتفاضة.

تبعت المجموعة إيساو، في صمت، حتى الصخرة الهائلة بأشجـارها التي تكفل الحماية عند الطرف الجنوبي للحقول، وجلسوا على هيئة حلقة، وكان بمقدورهم سماع خرير الماء المندفع عبر الجنـادل في الأسفل، حيث يقـوم نهر كاتسورا بانعطافه الحادّ. بدا السطح الصلد الـرمادي للصخـرة التي تشمخ سامقة على الضفة المقـابلة من النهر، وكـأنه تجسيـد لصمود صـارم يتحدّى الـدهور. علت لمسـة كثيبة الأوراق الحمـراء المتدليـة من الأشجار المتشبثـة بـواجهة الصخـرة، وهي أولى الأشجار التي انحسرت عنهـا الشمس، بينما كـان من الممكن في الأعـالي، ومن خـلال الأشجـار التي حفّت بقـمـة الصخرة، رؤية السماء المتوشّحة بالمساء وقد احتشدت بالسحب التي وشّـاها الضياء.

ـ حان الوقت اليوم لتقرير الموعد الذي سنوجّه فيه ضربتنا. وقـد عقدنـا جميعنـا العزم عـلى هذا. أليس كـذلك؟ ولكننـا سنصدّق أولاً عـلى الخـطة العامة ومسؤولية كل رجل. وسيقدّم لنا ساجارا تقريراً عن أرصدتنا المالية. وأما فيما يتعلق بموعد توجيه الضربة، على وجـه الدقـة، فسوف يكـون أمراً مناسباً بالتأكيد، إذا ما أمكننا تحديده عن طريق طقس اليوكاي، عـلى نحو ما فعل رفاق عصبة الريح الإلهية. وعلى أيـة حال دعـونا نبحث هـذا الأمر فيما بعد.

كانت نغمة حديث إيساو وهو يفتتح الاجتماع ذات طابع عملي، غير أن الأمر الهامشي الذي وقع بالأمس كان ما يزال يؤثر في نفسه. وقد تناول أبوه

وهوندا عشاءً خفيفاً وعادا إلى طوكيو على الفور. ولكن على الرغم من أن الأمر يفترض أنه مجاملة ودية للمعلم كايدو فما الذي دفع أباه إلى التعجيل بالقيام بمثل هذه الرحلة الطويلة لتفقد الوضع هنا؟ ترى أيمكن أن يكون قد تجاذب أطراف الحديث مع ساوا؟ وماذا عن سلوك هوندا الغريب؟ لم يكن هناك أثر بالأمس للرقة المنطلقة التي أجيد التعبير عنها فتبدّدت بجلاء في الحوار الأول، ثم في الرسالة الضافية، إذ لم يتبادل هوندا كلمة واحدة مع إيساو، وبدت بشرته شديدة الشحوب، ثم لاحظ إيساو، خلال تناول طعام العشاء، أن هوندا واصل التحديق فيه من مجلسه في مقعد الشرف.

نحّى إيساو جانباً هذا التأثير الكئيب الذي أعاد أفكاره إلى رحاب الماضي، ووضع على العشب أمامه الخطة المكتوبة:

«١ ـ الشهر، اليوم، الساعة.

٢ ـ ملخص الخطة:

إن هدفنا هو إثارة الفوضى في العاصمة، واستجلاب حالة الأحكام العرفية، وبمقتضى ذلك الترويج لتشكيل حكومة إصلاحية. وقد عقدنا العزم تماماً على التضحية بأنفسنا من أجل مثل هذا الإصلاح، آملين أن نحقق أقصى نتيجة بأقل عدد من الرجال. ونحن نؤمن بأن آخرين ممن يشاركوننا مثلنا العليا سينهضون على امتداد البلاد استجابة لنا. وسوف نلقي بنسخ من بياننا من طائرة، موضحين في هذا البيان أن أمراً إمبراطورياً تكليفياً قد صدر للأمير توين وسنحرص، في غضون فترة قصيرة، على أن يصدر هذا الأمر. وبإعلان الأحكام العرفية، ستكون مهمتنا قد تحقّقت، وفي وقت أقصاه فجر اليوم التالي، وسواء أكنا قد فشلنا أو تكلّل مسعانا بالنجاح، فسنؤدي طقوس السيبوكو معاً، وعلى نحو مشرف.

لقد كان الهدف من إصلاح عهد ميجي هو إعادة سلطة الحكم

والسيطرة على المهام العسكرية إلى جلالة الإمبراطور، وأما الغرض من إصلاح عهد شوا الذي نقوم به، فهو وضع المالية والصناعة تحت السيطرة المباشرة لسموه الإمبراطوري، وانتزاع الرأسمالية والشيوعية، هذين المذهبين المنتميين إلى النزعة المادية الغربية من جذورهما، وعلى هذا النحو تخليص شعبنا من البؤس الذي يعانيه، وها هنا تحت ضوء الشمس الوهاج السعي وراء حكم الإمبراطور المباشر الذي سيمجّد الطريق الإمبراطوري.

أما فيما يتعلق بإثارة الاضطراب في العاصمة، فسوف نقوم أولاً بنسف جميع محطات التحويل الفرعية، على امتداد المدينة، وسنقوم، في قلب الليل، باغتيال قادة زمرة الرأسمالية الصناعية: بوسوكي كوراهارا وتورو شينكاوا وجويمون نجاساكي. وسنقوم في الوقت نفسه باحتلال مصرف اليابان الذي يشكل عصب الاقتصاد الياباني، ونشعل النار فيه، ثم نتجمع مع شروق الشمس كحدّ أقصى، أمام القصر الإمبراطوري، ونقضي على أنفسنا بأداء طقوس السيبوكو، كرجل واحد. أما إذا عجزنا عن اللقاء فلن يكون هناك ما يمنع من إغمادنا السيف في بطوننا أيّاً كان المكان الذي يتّفق أن يجد فيه كل رجل نفسه.

٣ ـ قائمة التنظيم:

أ ـ الوحدة الأولى (وتتولى الهجمات على محطات تحويل الكهرباء الفرعية في طوكيو).

محطة كاميدو: هاسيجاوا وساجارا.

محطة كينودين: سياما وتسوجيهارا.

محطة هاتوجايا: يونيدا وساكا كيبارا.

محطة ساباتا: هوراي وموري.

محطة ميجيرو: أوهاشي وسيريكاوا.

محطة يودوباسي: تاكاهاسي ويوي.

ب ـ الوحدة الثانية (عمليات الاغتيال)

تورو شينكاوا: إينوما ومياكي.

جويمون نجاساكي: مياهارا وكيمورا.

بوسوكي كوراهارا: إيزوتسو وفوجيتا.

ج ـ الوحدة الثالثة (احتلال مصرف اليابان وإحراقه).

هذا العمل سيقوم به أربعة عشر رجلاً تحت قيادة الملازم أول مشاة هوري، مع انضمام رجلين، هما تاكاسي وإينوي، إلى الاثني عشر رجلاً الذين سيتجمعون سريعاً باستخدام الدرّاجات، فور تدمير محطات تحويل الكهرباء.

د ـ مهمة خاصة.

ستقوم طائرة يقودها الملازم أول شيجابا بإسقاط مشاعل مضيئة وإلقاء منشورات».

وفي الحقيقة أن إيساو كان ما يزال يشعر بالقلق فيما يتعلق بمهمة قتل كوراهارا. فقد كانت مهمة يريد حقاً الاحتفاظ بها لنفسه، ولكن شيئاً ما منعه من القيام بذلك. فقد غاصت كلمات ساوا في قرارة فؤاده.

ساوره شعور بأنه، وهم عاكفون على الحديث الآن، قد يطرأ على ذهن ساوا أن يمضي بمبادرة منه، ويقدم على قتل كوراهارا. ولئن فعل ذلك فلن يكون أمامهم خيار إلا تأجيل خطتهم الشاملة إلى أن يموت صدى هذا الحادث، ثم ربما كان ساوا يوهمه فحسب، محاولاً إجباره على الإذعان، ولن يقوم في حقيقة الأمر بشيء على الإطلاق.

لو أن إيساو قام بقتل كوراهارا، بغض النظر عن كل ما قاله ساوا، لقام بذلك بالدور الذي تصوره لنفسه على الدوام. ومن الجلي أن كوراهارا سيكون أكثر الرجال دقة في إحاطة نفسه بالحراس. وقد استخدم إيساو حجة الصداقة في التنازل لإيزوتسو عن كوراهارا. وقد غلب التأثر

إيزوتسو، ذلك الشاب المرح السريع التصديق الذي يتمتع بقدر وافر من الشجاعة، وأحس بالامتنان الشديد حيال إيساو. لكن هذا الأخير شعر، للمرة الأولى في حياته، بأنه قد أحجم عن القيام بشيء ما بعد أن همَّ به.

وفيما يتعلق باستخدام الطائرة كانت نصيحة الملازم هوري وراء إحلال المشاعل المضيئة والمنشورات محل القنابل. غير أن هوري ضمن أن صديقه الحميم الملازم شيجا سيشارك معهم.

مثلت الأسلحة مشكلة، فمن بين الشباب العشرين، كان بوسع عشرة الوصول إلى سيوف يابانية، ولكن في الهجمات على محطات المحولات قد يكون السيف بمثابة عقبة. ولو أنهم تقلدوا خناجر يخفونها في تضاعيف ثيابهم لكان هذا كافياً. وأما فيما يتعلق بالمتفجرات المختلفة التي ستستخدم فقد كان هدفهم الحصول على بعض المتفجرات من أحدث الأنواع التي تمّ تطويرها.

ـ ساجا، اقرأ علينا قائمة الأشياء التي سنحتاج إليها!

ـ ليكن.

قالها ساجا، وشرع في القراءة بصوت خفيض، وكأنه يخشى أن يسترق أحد السمع إليه:

١ ـ ثوب كبير من القماش المبيضّ، وسيستخدم حوالي ستة عشر قدماً فيه لصنع راية تحمل مثلنا العليا، لترفع حيث سنقدم على الانتحار. وأما باقي القماش فسوف يستخدم لصنع حزام لكل رجل.

٢ ـ عصائب للرؤوس وأربطة للأذرع ودبابيس لأربطة الأذرع وأحذية مطاطية النعل تكفي لعشرين رجلاً.

٣ ـ ورق: ماعون من الورق الأبيض واثنان أو ثلاثة من الورق المختلف الألوان والعريض بما يكفي لطبع المنشورات.

٤ ـ بنزين: للاستخدام كمادة حارقة يقوم رجال مختلفون بالشراء من ثلاثة أو أربعة باعة، بحيث يشتري كل منهم صفيحة أو صفيحتين.

٥ ـ آلة ناسخة مع قطع غيارها.

٦ ـ ريشات للكتابة، حبر، إلخ.

٧ ـ ضمادات، مواد لتضميد الجراح، مشروب روحي قوي لاستخدامه كمادة لتجديد النشاط والحيوية.

٨ ـ مزادات لماء الشرب.

٩ ـ مصابيح نقالة.

ذلك كل ما هناك تقريباً، وسنقوم بشراء كل شيء، على حدة، ثم تجميع ما تم شراؤه في مخبأ جيد في موضعٍ ما. وسنعكف بمجرد عودتنا إلى طوكيو على محاولة العثور على مكان.

ـ هل خصصنا ما يكفي من المال؟

ـ نعم، فقد اقتصد إينوما مبلغاً إجمالياً قدره خمسة وثمانون يناً، ولو وضعنا هذا المبلغ مع مدّخرات كل منا لوجدنا أن لدينا إجمالياً قدره ثلاثمائة وخمسة وعشرون يناً، ثم قبيل قدومنا إلى هنا تلقيت رسالة معنونة كالتالي «نادي دراسة تاريخ ميجي» دون أن يكون هناك عنوان للمُرسِل، وقد أحضرتها معي بحيث يمكنني فتحها أمام الجميع. وربما كان بها بعض النقود، وإني لأشعر بعدم الارتياح حيالها.

فتح ساجارا المظروف ليجد عشر ورقات كل منها من فئة المائة ين. فسرى شعور بالصدمة في المجموعة بأسرها. وقرأ ساجارا بصوت عال مضمون السطرين أو الثلاثة التي سطرت على الورقة الوحيدة: «كانت لديّ قطعة أرض من أراضي الغابات فأمرت ببيعها، وذلك هو مصدر هذا المال. فهو مال لا تشوبه شائبة. أرجوكم استخدامه على نحو ما يتراءى لكم. ساوا».

«ساوا». أحسّ إيساو عندما سمع هذا الاسم وكأنّ قلبه يصدر عنه دويّ مكتوم. فها هو ساوا يتصرف من جديد على نحو لا يسبر له غور. وحتى إذا صدّق إيساو أن هذا المال «لا تشوبه شائبة» فإن هدف ساوا من تقديمه أثار حيرته. فهل قصد بهذه الهدية أن تكون بديلاً لعرضه القيام باغتيال كوراهارا؟ أم قصد بمبلغ الألف ين الطائل هذا أن يكون مساهمة وداعية تحمل معنى الاعتذار قبل أن يقدم على التحرك وحده؟

لكن إيساو تعينّ عليه أن يقدّم ردّاً فورياً، فقال:

- إنه من السيد ساوا بالأكاديمية، وهو منضمّ إلينا سرّاً: ولذا فلا بأس من أخذه.

- يا لها من لقية ثمينة! ليس هناك ما يدعو إلى القلق بشأن الجوانب المالية الآن. فالعناية الإلهية ترعانا.

قالها ساجارا وهو يرفع المال إلى مستوى عويناته كأنما يرفع آيات شكره للآلهة.

- الآن علينا أن نعكف على بحث التفاصيل. دعونا أولاً نستقرّ على رأي فيما يتعلق باليوم والوقت المحدّد. ومن الطبيعي أن الوقت عنصر دقيق في خطتنا. فإذا كان متأخراً في الليل فإن تأثيرات وقف التيار الكهربائي ستكون مما لا يؤبه له. ولذا فإن العاشرة مساء ستكون الحدّ الأقصى فيما أعتقد. وفي غضون ساعة ينفّذ الهجوم على المصرف. وأما فيما يتعلق بيوم التحرك...

فيما كان إيساو يتحدث رأى بعين خياله صورة تومو أوتاجورو، في المزار الواقع في شينجاي، وهو راكع أمام الآلهة منتظراً إرادتها.

لقد قدم الراهب صياغتين لليوكاي في الحرم، وسط حر الظهيرة الصيفية:

وضع نهاية لإساءة تسيير دفة الحكم من خلال حثّ السلطة على أداء واجباتها، حتى ولو كان ذلك يعني التخلّي عن الحياة.

القضاء على الوزراء غير الجديرين بمناصبهم، وذلك بالضرب في الظلام بالسيف.

غير أن الآلهة لم تحبّذ أياً منهما. كما لم تكن رغبتهم الأحدث عهداً تلك التي يقدّمها لهم إيساو ورفاقه.

الصيف والخريف، كوماموتو وكاي، عهد ميجي وعهد شوا ـ على هذا النحو كانت الفروق. ولكن سيوف هؤلاء الشبان كانت متعطّشة للدم، وقد أرادوا حقّاً أن يضربوا في ظلام الليل.

لقد تدفّقت القصّة التي يرويها ذلك الكتيب في موضع أو آخر عبر سدّ التقاليد الأدبية، واندفعت جارفة باتجاه الحاضر. وقد أشعلت قراءة تلك القصة اللهب في أفئدة أولئك الشبان، والآن لن يقرّ لهم قرار إلا بعد أن تستحيل النار التي أضرمت في أعماقهم إلى حريق هائل.

مثلما التم الأشهب يحلّق إلى عليين،
لا تتركوا ها هنا في الأسفل أثراً وراءكم!

خطرت قصيدة المعلم أوين فجأة في ذهن إيساو، مخضلّة ومترعة بالحيوية، وكأنما صيغت البارحة فحسب.

لم يقدم أحد على طرح رأي. وجلس الفتية صامتين وهم يتفرسون بلهفة في ملامح إيساو. وكان هو نفسه قد رفع عينيه نحو السماء الممتدة فوق الصخرة على الضفة الأخرى للنهر. وبدا الألق الذي حف بنثار السحب الآن أكثر تراجعاً، ولكن الشكل المتعرج الأطراف الذي يحاكي مشطاً بديع الأسنان ظلّ على حاله متماسكاً. وساور إيساو شعور بأن عيون الآلهة قد تلقي نظرة من خلاله.

كان غبش المساء قد هيمن على واجهة الصخرة الصلدة بالفعل. وبرز الماء الأشهب المنساب في هيئة الجنادل بالأسفل وحده في العتمة. وساور إيساو شعور بأنه أصبح شخصية من شخصيات الروايات العاطفية. ربما كان هو ورفاقه على حافة مجد ستدوم ذكراه طويلاً. وأياً كان مدى صحة هذا من عدمها، فقد حملت ريح المساء الباردة القشعريرة التي تصيب من يمسّ لوحة برونزية تذكارية. بدت اللحظة مناسبة لتجلّي الآلهة.

ما من إلهام تناهى إليهم، لا شيء على الإطلاق يتعلق بيوم أو بوقت، لا شيء جاء من التألق الشامخ للسماء التي توشّحت بالمساء، ورقّشتها السحب، لا تواصل فورياً من مشاعر مجرّدة من الكلمات. بدا الأمر كما لو أنّ أوتار آلة كوتو قد قطعت، ولم يعد من الممكن انتزاع نغمة واحدة منها.

ولكن على الرغم من ذلك فإن الآلهة لم تعرب عن عدم موافقتها بجلاء، على نحو ما فعلت مع تومو أوتاجورو. لم توضح رفضها.

شق إيساو طريقه وسط عواقب ذلك. الآن، في هذه اللحظة، ركزت مجموعة من الشبان يقل عمر كل منهم عن عشرين عاماً، ويتدفقون شباباً، عيونهم عليه وهي تتألق حماساً، بينما واصل هو التحديق في الألق الذي يعلو الصخرة الشامخة كالجدار. لقد مضت الأمور في سبيلها بلا هوادة حتى بلغت هذا الموضع، ولن تتاح قط لحظة أكثر ملاءمة. يتعينّ أن يحدث نوع من الإلهام. غير أن الآلهة لم تبد موافقتها ولم تعلن رفضها. لقد تخلّت عن القرار وكأنه خُفٌّ تُرِك لينزلق هناك في ألق السماء، كما لو كان يحاكي غياب اليقين والكمال الذي يتسم به هذا العالم.

تعينّ على إيساو أن يردّ على الفور. انغلق شيء في فؤاده للحظة، تماماً كما يغلق بطلينوس قوقعته مغطياً لحمه «النقي» الذي ينبغي أن يكون معرّضاً على الدوام للماء المطهّر. واندفعت فكرة شريرة ضئيلة، مثل قملة بحرية، عبر أحد أركان فؤاده. فعلى الرغم من أن ذكرى الانغلاق في

معرض الدفاع قد تكون غامضة، إلا أنه لا شك في أن هذا الانغلاق ما إن يتم القيام به حتى يكتسب قوة العادة. وبعد مرتين أو ثلاث مرات، لا بد أن يبدو أمراً عادياً كالأكل والشرب.

لم ينظر إيساو إلى نفسه باعتباره منغمساً في الكذب. فإذا لم تحدّد الآلهة شيئاً ما باعتباره حقيقياً أو زائفاً فإنه سيكون أمراً اعتباطياً، إلى حد كبير، أن يقدم إنسان على الاندفاع للتفكير فيه باعتباره كذبة. ولم تكن حالة إيساو لتختلف عن حالة طائر يتعيّن عليه أن يطعم صغاره، إذ ينبغي أن يطعمها، وأن يقوم بذلك على الفور.

ـ الوقت المحدد هو العاشرة من مساء الثالث من كانون الأول (ديسمبر). تلك تبدو إرادة الآلهة. دعونا نجعل الأمر قاطعاً. لقد بقي من الوقت ما يزيد على ثلاثة أشهر، ولذا أعتقد أنه سيتاح لنا وقت طويل للاستعداد. والآن، يا ساجارا، إنك تنسى شيئاً مهمّاً، لسوف يكون نضالنا نقيّاً لا شائبة فيه، مثل سوسنة بيضاء، ولكي يستطيع الرجال في قابل الأيام الحديث عن «حرب زهور السوسن»، أريد أن يتأكد كل منكم، عندما تمضون إلى المعركة من أن يحمل في جيبه قريباً من صدره بتلة من زهور سوسن مهرجان سايجوسا التي وزعتها علينا ابنة القائد كيتو. ومن المؤكد أننا سننال حماية الربّ الصلب لمزار ساي. والآن فيما يتعلق بموعد الثالث من كانون الأول (ديسمبر) الذي سيوافق يوم جمعة، أهناك من يعترض؟ إذا كان الأمر كذلك فتحدثوا، قد لا يناسب هذا الموعد أحدكم.

ـ إذا كنا سنلقى حتفنا جميعاً فكيف يمكن أن يكون غير مناسب؟

قالها أحد الفتية بصوت عال، فضجّ الجميع بالضحك.

ـ ليكن، إذن، دعونا ننتقل إلى التقارير الخاصة بالمهام الفردية. يا أوهاشي وياسيركاوا، دعونا نسمع التقرير الخاص بتحرّيكما لأمر محطة ميجيرو وخطتكما لنسفها بالقنابل!

لدى صدور أمر إيساو، حاول كل من أوهاشي وسيركاوا مراعاة خاطر الآخر. ولكن في النهاية بدأ أوهاشي الأريب في تقديم الصورة. وكان سيركاوا قد اعتاد وهو يحادث إيساو الوقوف منتصباً، والتوتر يسيطر عليه، وكأنه مجنّد حديث العهد بالجندية، ولكن لأن مشاعره القوية كانت تخنق فيض كلماته فقد عانى الآخرون صعوبة في فهمه. ومع ذلك فقد كانت إمكانية الاعتماد عليه في الأداء شيئاً لا نظير له. فلم يحدث أن فشل في تنفيذ أي أمر صدر له تنفيذاً حرفياً. وعندما كان يتحدث بانفعال عن شيء ما، كان صوته يتردد كما لو أثقلته الدموع. ولم يكن تقديم التقارير المفصّلة بصورة واضحة موطن قوته، وهكذا وقعت هذه المهمة على كاهل أوهاشي البارع، الأريب، فيما وقف سيركاوا إلى جواره يومىء موافقاً بقوة عند كل نقطة مهمة.

ـ عندما وصلنا إلى محطة محولات ميجيرو ألفينا عند المدخل رجلاً يرتدي زيّاً عمالياً سابغاً، وقد عكف على إصلاح سلك نحاسي. وكنا قبلاً، لدى ذهابنا إلى المحطات الأخرى وإبلاغنا العمال بأننا طالبان من طلاب الدراسات المسائية في مدرسة متخصّصة بالكهرباء، كان أحدهم يرغب، على الدوام، في رؤية بطاقتي هويتنا، أو يبدي اعتراضاً أو آخر، وسرعان ما كانوا يرفضون دخولنا المحطة، ولكن هذا الرجل الذي يرتدي الزي العمالي الفضفاض كان ودوداً، على نحو مدهش، فاصطحبنا إلى الطابق الثاني، وعندما ارتقينا الدرج كان هناك ثلاثة كتبة يعملون في أحد المكاتب، وقال أحدهم للرجل الذي يصحبنا إن عليه القيام بجولة معنا في المحطة. وهكذا نحّى هذا الشخص عمله المعتاد جانباً، وقام مسروراً بجولة لإطلاعنا على المكان. وبدا فخوراً أشدّ الفخر به. وعندما كنا نطرح عليه سؤالاً عن المعدّات، أو أي شيء آخر، كان يبادر إلى تقديم إيضاح كامل. وهكذا اكتشفنا أن تلك المحطة بها محوّل يبرّد بالماء، وآخر يبرّد بالوقود.

وبصفة عامة فإن أكثر أجزاء محطة المحولات حساسية هي المحوّل،

ولوحة التحكّم، ومضخّة الماء المستخدمة في التبريد. ولتدمير محطة التبريد فإن كل ما عليك القيام به هو تحطيم لوحة محرك المضخّة بمطرقة، أو شيء من هذا القبيل، ثم إلقاء قنبلة يدوية، ولكن هذا لن يكون فعّالاً للغاية. وبالطبع، إذا دمرت مضخّة التبريد فسوف يتوقف دفق الماء الذي يبرّر المحوّل، وسترتفع درجة حرارة المعدّات وتصبح عديمة الجدوى. ولكن هذا سيأخذ وقتاً معيّناً في المقام الأول، وسيستمر المحوّل الآخر الذي يبرّد بالوقود في العمل.

غير أنه من منظور سهولة المهاجمة، وبما أن المضخّة تقع خارج المبنى الرئيسي وليس هناك من يحرسها، فإنها ستكون أبسط الأهداف. وأما لشنّ هجوم معرقل للمحطة، بصورة حقيقية، فإن أفضل شيء هو جعل أحد الرجال يقتل الحارس ويمضي إلى المبنى ذاته، ثم يقوم الرجل الآخر ببث المتفجرات وتلغيمها عن طريق لوحة التحكّم، وبمجرد إشعال الفتيل يمكنهما الانسحاب. ولكن إذا طرأت عقبة غير متوقعة فكل ما يمكنك القيام به هو تدمير المضخّة.

وفيما يتعلّق بالرجال الذين يمضون لتحرّي أمر المحطات الأُخَر، فإننا نعتقد أن خير سبيل للوصول إلى داخل المحطة هو أن تبحثوا ما إذا كنتم تعرفون طالباً في مدرسة كهربائية وأن تستعيروا بطاقة هويته. وهذا كل ما لدينا لإبلاغه لكم.

سر إيساو لوضوح تقريرهما ومباشرته.

ـ عظيم، دورك، يا تاكاسي، قدّم لنا تقريراً عن الحصول على مخطط لداخل مصرف اليابان!

ردّ تاكاسي الذي كان رفيقه، إينوي، غائباً. وتردّد صوته أجش من جراء التهاب رئته، ولكنّ كتفيه كانتا قويتين، وقد تركزت عيناه المحمرّتان المحمومتان على إيساو بصورة تخترق الحجب:

ـ ليكن، الحق أقول لكم إنني تحيّرت فيما يتعلق بهذا الأمر لفترة ليست بالقصيرة، ولم أستطع الخروج بخطة جيدة، ثم توصلت إلى أن السبيل الوحيد هو الدخول كحارس ليلي. ولكن قبل أن يُسند إليك المصرف هذا العمل فإنهم يجرون عنك تحرّيات دقيقة، ويتعينّ عليك اجتياز اختبار بدنيّ مرهق. ولما لم يكن لديّ أمل في اجتياز هذا الاختبار فقد استعنت بإينوي، وهو حائز الدرجة الثانية في الجودو كما تعلمون. وهكذا، فإن إينوي المستعدّ للتضحية بحياته في أيّ وقت انطلق لأداء هذه المهمة دون أدنى خوف أو تردد، فمضى للقاء المشرف على الأنشطة الطلابية وأبلغه بأنه يرغب في العمل كحارس ليلي للمساعدة في دفع نفقات تعليمه، فكتب المشرف توصية له حملها مع شهادة نيل الدرجة الثانية في الجودو، ومضى إلى المصرف حيث جرى تعيينه دونما عناء. وعندما يذهب إلى المصرف يصحب معه بعض الكتب التي لا ضرر من ورائها، ويتظاهر بدراستها. وقد ذهبت للقائه مرة، ويبدو أن للحراس الآخرين رأياً فيه. وقد أبلغني أنهم في وقت عشائهم يدعونه في بعض الأحيان لتناول طبق من المعكرونة. وعلى الرغم من أنه مَنْ نعرف فإنه لم يستطع مقاومة الشعور بأنه مذنب، إلى حدٍّ ما، لدى تفكيره في أنه سيأتي عليه حين من الدهر يحرق فيه هذا كله فيحيله إلى أنقاض.

علا صوت الفتية بالضحك في العتمة.

ـ وإلى أن يأتي اليوم الذي سنتحرك فيه، سيواصل إينوي العمل كحارس ليلي في المصرف، متمسكاً بمظهر بريء. ولما كان لدينا مساعد من الداخل فإن الملازم هوري والباقين منا يتعينّ عليهم التوصّل إلى نوع من الإشارة، بحيث يعلم إينوي الموعد الذي يتعين أن يفتح فيه الباب. وأما فيما يتعلق بمخطط داخل المصرف فإنني وإينوي سنتولى مسؤولية رسم هذا المخطط قبل أسبوعين من حلول يوم التحرك ذاته، ونعتزم إطلاع الملازم هوري عليه. ويقول إينوي إنه بدلاً من إظهار نفسه بمظهر مريب، من

خلال بحثه عن تصميم المصرف بأسرع مما ينبغي، فإنه سيبدع في معرفة كل شيء عن المصرف بطريقة طبيعية، فيما هو يبدو متيقّظاً في أداء عمله. إنه حقاً شخص صارم، ولكن عينيه ضيّقتان، ويبدو ودوداً للغاية حين يضحك، ولذلك فإن الناس تعتاد عليه بسهولة.

ألقى تاكاسي نظرة على ساعته وأضاف:

ـ آه، لقد حان الوقت لانصراف أمناء الصناديق والكتبة، وسرعان ما يبدأ إينوي نوبة حراسته. وقد شعر بالأسف حقاً لعدم تمكّنه من المجيء معنا، ولكن العمل الذي ينجزه الآن له أهمية مطلقة. وتلك نهاية تقريري.

فيما تتالت تقارير أخرى من هذا النوع على نحو متتابع استطاع إيساو الذي استمع إليها كلّها من قبل أن يطلق العنان لأفكاره. ولكن فيما هو سادر في ذلك أطلت أسماء يؤثر تجنّب التفكير فيها ـ اسم أبيه، ساوا، هوندا، كوراهارا ـ في ذهنه في الحال لتثير ضيقه، شأن مجموعة من الفراشات. وقد قبض على ذراع الدفّة ومضى بمركب ذهنه نحو أفكار مرغوب فيها على نحو أكبر، أفكار تتألق، أفكار تثير النشوة: فوق قمة صخرة عند الشروق أمام بحر متألق الصفحة عند قاعدة شجرة صنوبر شامخة نبيلة... أن أقتل نفسي. ومع ذلك فإنه بعد الانتفاضة سيكون من الصعب الوصول من طوكيو إلى صخرة مثالية على الشاطىء. فإذا قُدِّر للهجمات على محطات المحوّلات أن تكلّل بالنجاح فإن كل المواصلات ستتوقف، بل قد يكون الهرب بالقطار مستحيلاً. بدا أن الأمل محدود في تحقيق انسحاب مناسب من مواقع عمليات الاغتيال، يتبعه هرب إلى مسافة بعيدة.

ومع ذلك فإن إيساو لن يتخلّى عن حلمه: في موضع ما انتظره مكان تجتمع فيه كل العناصر التي تنتمي إلى تنفيذ لا تشوبه شائبة لطقوس

السيبوكو. وبالطبع، كانت الرؤية التي يتشبّث بها هي ذلك المشهد على قمة جبل أوميجاتاكي، حينما أغمد الرفاق الستة الأعضاء في عصبة الريح الإلهية سيوفهم في أجسامهم، رؤية الاحتضار على قمة جبلية، فيما السماء تتّشح بالضوء تدريجياً لتتكشّف سحب متتابعة ورايات بيضاء تخفق في نسيم الصبح.

لم تساور إيساو رغبة في أن يقرّر الآن مكاناً لنفسه. فلا معنى للقيام باختيار مسبّق يمكن للأحداث التي ستعقب الانتفاضة أن تحبطه. لسوف يترك نفسه حراً، وسيدع الإرادة الإلهية ترشد خطاه، إذ ستكون علاماتها قاب قوسين أو أدنى منه على الدوام. من المؤكد أن الريح ستهبّ في موضع ما، متخلّلة أشجار الصنوبر، عند الشروق، عندما يحلّ عرى كيمونوه، وسوف يجعل هواء الشتاء الحادّ عند الشاطىء لحمه يتقبّض، في موضع ما سيلتمع الدم الذي يلطّخ جثمانه، وجذع شجرة الصنوبر الحمراء التي تنتصب إلى جواره برّاقاً في الشمس المشرقة.

وإذا نجح في الهرب إلى الساحة الواقعة أمام القصر الإمبراطوري... تشكّلت صورة جليلة في ذهن إيساو. قد يعبر سباحة الخندق المحيط بالقصر محطّماً السطح الجليدي الهشّ الذي يكسوه، ويرقى الضفة المنحدرة على الجانب الآخر. وهناك، محتجباً بين أشجار الصنوبر على قمة الضفة، يمكنه انتظار مقدم الصباح. قد يمكنه التطلع فيما وراء السفن الراسية خارج تسوكيشيما لرؤية الفجر وهو يطلّ على الخليج. وعندئذ، وقبل أن ينتصب خط أفق مارونوتشي أمامه، بارزاً في أشعة الشمس الأولى، بمقدوره أن يدفع النصل إلى مستقرّه.

- ٢٥ -

لم تغب عن فطنة هوندا الثرثرة التي تدور حول أنّه تغير كثيراً حتى لم يعد الرجل الذي كانه قبل ذهابه إلى طوكيو، ذلك أنه بالنسبة له تهاوت الواجهة التي كانت جليلة يوماً للواقع الراهن. وبدت مهنته التي تتضمن التحليل الدقيق لمادة ذلك الواقع الراهن، وقد فقدت فجأة نكهتها.

غرق هوندا في معظم الأحيان في التفكير، وغاب عنه الردّ على الملاحظات التي يبديها زملاؤه. وعندما بلغ هذا الأمر مسامع كبير القضاة خشي أن يكون ضغط العمل قد شاب صفاء ذهن مرؤوسه الذي لا نظير له.

وعلى الرغم من أن هوندا كان يعكف بولاء على بحث العمل المطروح على مكتبه في غرفة القضاة، إلا أنه غالباً ما كانت تأخذه الرعدة، فيما أفكاره تحلّق من جديد عائدة إلى ذلك المشهد الذي امتد أمامه في ياناجاوا، في تلك اللحظة التي تحقق خلالها الحلم الذي تراءى لكيواكي قبل سنوات عديدة، بكل تفاصيله، واستعاد كذلك ذكرى ما حدث صباح اليوم التالي، قبل أن يستقلّ القطار عائداً إلى أوساكا بوقت قصير، عندما استسلم لدافع غريب يحدوه إلى أن يمضي إلى مقبرة أيوياما لزيارة قبر كيواكي.

بدت أمه وكأن الانزعاج قد غلب عليها، فيما كان يسرع مجتازاً الباب في صبيحة ذلك اليوم في وقت مبكر بأكثر مما ينبغي للحاق بقطاره. ولكن هوندا أمر السائق بالمضيّ به إلى مقبرة أيوياما أوّلاً، فانطلقت السيارة في الطريق الذي يمضي صاعداً مخترقاً المقبرة الهائلة إلى المسار الدائري الذي

يصل إلى قلبها ذاته. وبعد أن ترجل من السيارة، ها هنا، وأمر السائق بالانتظار، سار مسرعاً على امتداد الطريق نحو بقعة الأرض التي تشغلها قبور آل ماتسوجاي. وحتى لو أنه كان قد نسي الطريق فإن النصب الهائل الذي يميّز قبورهم كان سيبدو بارزاً للعيان.

مضى يغذّ السير على امتداد الطريق لمدة قصيرة فحسب، ثم انعطف في درب يتعرج وسط القبور، مديراً ظهره لضياء الصباح. وعندما التفت إلى الوراء رأى شمس أواخر الخريف تتألّق، وإن كان ذلك في وهن، من خلال ستار رقيق من أشجار الصنوبر. بدت أشعة الشمس المنسابة من الفروع القاتمة دائمة الخضرة، وأخذت تسقط بين الأعمدة الحجرية، كما لو كانت تخفّف من رونق أحجار القبور المرمرية الجديدة، بدلاً من أن تزيده بهاء.

أوغل هوندا في الدرب، ولكي يصل إلى البقعة التي تضمّ قبور آل ماتسوجاي، والتي بدا نصبها شاهقاً بالفعل، كان عليه أن ينعطف يمنةً في درب أضيق تكسوه الأشنة وأوراق الأشجار المتساقطة. ولاح النصب المرمري الأبيض الهائل في مقبرة آل ماتسوجاي عملاقاً يطلّ على شواهد القبور الصغيرة كما لو كانت هذه الأخيرة أعضاء في بلاط اجتمعوا في خدمة عاهلهم. وقد نحت النصب على طراز نصب «أوميا ـ ساما» المنتصب في مزرعة آل ماتسوجاي. وقد بدا هذا النموذج لعظمة عهد ميجي لعيني هوندا الآن سقيم الذوق.

كان أوّلَ ما لفت انتباهه، بعد أن مرَّ تحت النصب، حجرٌ تذكاري هو عبارة عن لوح ضخم من الصخر يبلغ ارتفاعه نحو خمسة عشر قدماً، وقد رسم عنوان الكلمة المكتوبة على القبر بحروف خاصة الأمير سانجو وحفرها

في الصخر فنان صيني شهير قام بالإضافة إلى نقش تفاصيل حياة جد كيواكي، بمدح نفسه بهذه الكلمات:

إذ تحدّق في هذا الصرح،
ستهيمن الرهبة على أجيال لا تحصى.

وفي ظل هذا الصرح التذكاري قبعت قبور آل ماتسوجاي الراحلين جميعاً، وقد نقشت كلمة على شاهد قبر كل منهم. ولكن الصخرة الضخمة كانت بالغة التأثير في النفس بحيث أن المرء لا يكاد يلحظ القبور نفسها. وإلى يمين الصخرة، وعلى مستوى يصل إليه المرء بارتقاء درج غير مرتفع، كان هناك قسم يحدّه سياج من المرمر، وهنا جنباً إلى جنب كان قبرا كيواكي وجدّه. ولما كان المكان مألوفاً بالنسبة لهوندا فإنه نظر نظرة عابرة إلى اللوح الصخري فيما هو ينعطف يميناً ويرقى الدرج.

على الرغم من أن القبرين قبعا أحدهما إلى جوار الآخر، إلا أنه بدا جليّاً أن هناك فارقاً في المرتبة بينهما، فقد ارتفع شاهد قبر جدّ كيواكي الضخم في قلب هذه المساحة المسيجة. واستقرّت أربعة مصابيح، نحتت من أحجار نيشينويا، عند جانبي المدخل المفضي إلى القبر. وإلى اليمين، كان هناك شاهد قبر كيواكيْ الأكثر تواضعاً، وقد بدا مقحماً بوضوح على تناسق عالم جدّه. ولاح قبر كيواكي صغيراً بالمقارنة بكتلة الأحجار المنقوشة التي شكّلت قبر جده، على الرغم من أنه يصل ابتداء من أساسه حتى قمته إلى ارتفاع مهيب هو ستة أقدام. ولكن الحجر نفسه وجرة الماء والمزهرية التي تحمل شعار العائلة ـ كل ذلك كان على غرار طراز مثيله في قبر جدّه، ومحفوراً من الصخور ذاتها، وكان الخلاف الوحيد في الحجم. وقد نُحِت بإزميل على نحو رشيق على المرمر الضارب للقتام بالحروف العتيقة المربعة: «كيواكي ماتسوجاي». ولم تكن هناك زهور في المزهرية، بل غصون ناعمة من اليانسون الصيني.

وقف هوندا أمام القبر لحظات قلائل قبل أن يرتّل صلاة. لم يستطع التفكير في شيء أقلّ مناسبة لمقتضى الحال من أن شاباً وهب حياته بملء القلب للعاطفة يرقد الآن تحت هذا الثقل الحجريّ. فمن المؤكد أن كيواكي الذي ينتمي إلى ذكريات هوندا كان يحمل ميسم الموت. ولكن حتى هالة الموت تلك كانت مثل لهب شفاف، وكأنما كان الموت ذاته في داخله متألّقاً ومهتزّاً. إنه ليس لدى هذا الحجر البارد ما يقوله عن كيواكي.

أشاح هوندا بناظريه بعيداً، تاركاً نظرته تضرب عبر امتداد المقبرة، فيما وراء قبر جدّ كيواكي. وبدا المسار الدائري حيث ترك سيارته بين الأشجار الملتفة بوشاح شتوي أبيض اللون، ووسط الفروع الدائمة الخضرة القاتمة اللون، لاحت شواهد قبور عائلات أخرى، مقدماتها بعيدة عنه، وقد بدت متكوّمة فوقها إلى حدّ التدفق على الجانبين تقدمات من زهور الأقحوان الصفراء والأرجوانية.

ومن الغريب أن هوندا استشعر احتجاباً يتقلقل في أعماقه، وبدلاً من أن يضمّ راحتيه معاً أراد أن يستدعي كيواكي في خشونة، ثم يمسك بكتفيه ويهزّهما. وفي غمار شعوره بالإحباط ترك عينيه تشردان إلى السياج الحجري الذي يحدّد موقع القبر بدقة بالغة. وهنالك على قمة السياج لمح محلاقاً صغيراً للغاية من اللبلاب المائل إلى اللون الأحمر. وعندما تقدّم لإلقاء نظرة عن كثب، شاهد كيف أن هذا المحلاق قد شق طريقه منسلاً فوق المرمر المصقول، متسلقاً بثبات إلى قمة السياج حيث يمتدّ الآن نحو قبر كيواكي. وارتسمت في رقّةٍ عروق صفراء على الوريقات الحمراء المسطحة التي كانت كقطع الحلوى البديعة، وأطرافها مصطبغة بلون أرجواني عميق. وحيال هذا المشهد أصبح قلب هوندا أكثر هدوءاً إلى حدٍّ ما، والتفت مجدداً إلى

قبر كيواكي. أحنى رأسه إحناءة عميقة، وضمّ راحتيه معاً، وأغمض عينيه. فلم يتناهَ صوت يقلقه.

فجأة نفذ إليه حدس بقوة لا سبيل للخطأ بشأنها فأخذته الرعدة. فلقد أنهى إليه حدسه أنه ما من أحد في قرارة هذا القبر.

- ٢٦ -

لم يكن إيساو قد أطلع الملازم هوري بعد على ملخص خطة الانتفاضة أو مسوّدة البيان الذي سيتمّ إلقاه المنشورات التي تضمه من طائرة، فقد انشغل الملازم تماماً بمناورات الخريف، ولم يلبِّ طلب إيساو عقد اجتماع معه. كان هناك ما يزيد على شهر قبل حلول اليوم المحدّد. ومع حلول تشرين الثاني (نوفمبر)، يفترض أن يقضي الملازم كل وقت فراغه في توجيه جهودهم.

بعد أن عاد إيساو إلى الدار لقي ترحيباً حاراً، كالمعتاد، من أمه، ومن ساوا والطلاب الآخرين. ولم يشر ساوا مرة واحدة، ربما لأنه لم تتح له فرصة الحديث على انفراد مع إيساو، إلى المشكلة التي ناقشها مؤخّراً بحرارة بالغة. ولذا لم تتح لإيساو فرصة شكره على المال الذي قدّمه.

في مساء عودته كان أبوه قد مضى لحضور أحد الاجتماعات، ولما كان طلاب الأكاديمية قد أبلغوا إيساو بأنهم يودّون سماع حديثه عن معسكر التدريب في ياناجاوا فقد قرّر تناول الطعام معهم، في قاعة الطعام، في تلك الليلة. وحرصت أمه على بذل جهود خاصة لتقديم وجبة رائعة لهم.

قالت أمه وهي تسلّمه صحفة من الخزف الملون مليئة بالساشيمي[1]، وهو واقف في الدهليز، إذ درجت العادة على حظر دخول الفتية للمطبخ:

---

(١) سبق لنا أن أوضحنا، في هامش صفحة ٣٠٠ من الجزء الأول من رباعية «بحر الخصيب»، أن الساشيمي ليس إلا شرائح غير مطهية من أنواع مختلفة من الأسماك مثل التونة والشبوط وسمك موسى والاسقمري وغيرها من الأنواع (هـ. م.)

ـ بوجودك أنت والطلاب وحدكم هناك، يمكنكم الحديث بمزيد من الحرية، فخذ هذا وانقله إلى هناك نيابة عني!

رتبت في الصحفة على نحو جميل شرائح من سمك أبو منقار والابراميل والاسقمري وأصفر الذيل والسمك المفلطح، وهي وجبة ما كانت لتزدان بها الوجبات العادية التي يتناولها الطلاب. فساوره الشكّ حيال هذا الكرم الذي لم يَسْعَ إليه. أما فيما يتعلق بمايني نفسها فقد صدمها التعبير الفاتر الذي ارتسم على محيا ابنها الوسيم وهو يتناول الصحفة بتردّد. وفي عتمة الدهليز بدت ملامحه متقلّصة وعاجزة عن الاستجابة.

سألها:

ـ لِمَ تُبدين كل هذا الإسراف؟

ـ إنه احتفال صغير بعودتك إلى الدار.

ـ لكني لم أغب إلا أسبوعاً في الإقليم المجاور. ماذا كنت ستفعلين لو أنني كنت خارج البلاد؟

لم يستطع إيساو إبعاد كوراهارا وأمواله عن ذهنه. وما من شيء جعله يشعر ببؤس بالغ في عقر داره مثل كونه تحت التأثير السلبي الدائب لهذا الاسم. كان هذا الاسم مثل التوكسين السام في جوّ أكاديمية الوطنية، في الماء، وفي لقيمة من الطعام.

ـ ها أنذي أعاني الكثير لأقدّم لكم وجبة طيبة، ولكن ذلك لا يسعدك على الإطلاق!

تطلع إيساو بملء عينيه إلى أمه التي راحت تجأر بالشكوى، والتي كان بؤبؤاها يتذبذبان في اضطراب، مثل فقاعة في سائل روحي. وفيما هو في غمار هذا تجرّد محياها من أي تعبير، وأشاحت بناظريها فجأة بعيداً.

حدَّث إيساو نفسه بأن هذه الوجبة قد لا تكون إلا إحدى نزعات أمه المزاجية، ولكنه أدرك أن قلقه الكامن كان من الكثافة بحيث كان من

المحتّم أن يهيمن الارتياب عليه. وكل شيء غير عادي في الدار، سواء أكان طيّباً أو خبيثاً، كان كافياً لجعله يشعر بعدم الارتياح، ومن شأن أي تغير أن يثير شعوره بالألم.

ـ لقد عنّفك المعلم كايدو. أليس كذلك؟ سمعت بالأمر كله من أبيك.

قالتها أمه بنغمة مرحة، بل نغمة يشوبها الدلال. وفيما هي تتحدث خُيِّل لإيساو أن سيلاً من لعابها كان يتناثر على شرائح أبو منقار الرائقة في الساشيمي، وأخذت بخناقه بادرة رغبة في التقيّؤ. وقد شتّت انتباهه عن عناصر الدنس الأخرى التي تثير ضيقه، فكرة أن لعاب أمه ينهال في فيض مفاجىء على الساشيمي الطازج وعشب البحر الأخضر الذي يجمّله.

ـ لم يكن ذلك بالأمر الذي يؤبه له.

لم يكن ردّ إيساو الذي ألقاه دونما أثر لابتسامة بالذي يرضيها.

ـ لِمَ ينبغي أن تكون على هذا النحو؟ إنك تحدّثني كما لو كنت غريبة عنك، مهما كان مدى قلقي عليك.

بحركة مفاجئة التقطت ماييي شريحة ساشيمي من الصحفة ودسّتها في فم إيساو. ولما كان ممسكاً بالصحفة فقد عجز عن الحيلولة دون هذه الدفعة القوية من يدها. وربما كان فتح فمه لتلقّيها ردّ فعل تلقائياً لاندفاع حركتها العاجلة. واغرورقت عيناه من هذه التغذية الإجبارية، وراح يرقبها، فيما كانت تتحوّل عنه مسرعة، وكأنما لتخفي دموعها، وتعود إلى المطبخ. أثار ضيقه أن يعامل على هذا النحو، وكأنه ابنٌ ماضٍ إلى الحرب.

استقرّ حزن أمه في فمه وكأنه جسم غريب، وأخذ الضيق بخناقه حيال طريقة التصاق الساشيمي بأسنانه.

ما الذي يجري؟ لقد أطيح بكل شيء من مساره السليم. ومع ذلك فقد كان من الصعب تصديق أن حدس أمه قد رصد في عينيه تصميمه على الموت.

عندما ولج قاعة الطعام حاملاً صحفة الساشيمي، حياه الطلاب بهتافات عالية. وبدت الوجوه المألوفة لديه والملتفة حول المائدة فجأة غريبة تماماً بالنسبة له. كان هو الوحيد هنالك الذي عقد العزم على التحرّك. ولكن هذه المجموعة مضت في أمرها كسابق عهدها، دون أن تقوم بشيء إلا نظم قصائدها عن الإخلاص الممتزج بالوفاء وعن المواثيق النبيلة، وعن الإصلاح، وعن المشاعر المتّقدة. وكان لمحيا ساوا أيضاً مكانة بينهم، ساوا الذي كان يبتسم وكأنه كاهن زن[1] كسول، ساوا الذي لم يقم بأيّ تحرك حتى الآن، ويبدو واضحاً أن قرار عدم السماح له بالانضمام إلى الجماعة كان قراراً حكيماً.

ساور هوندا، على نحو حادّ، شعور بأنه لا بد له من أن يمتلك ناصية القدرة على وضع قناع يُخفي مشاعره في التعامل مع الآخرين. فقد أصبح الآن رجلاً غير عادي. وحتى إذا لم يفصح مظهره عن هذا، فإن أقل إهمال قد يتيح للناس إدراك الأمر. وقد يرصدون أن في أعماقه رائحة فتيل قنبلة يشتعل.

قال أحد الطلاب موضحاً لإيساو أنهم جميعاً يعلمون بالحادث الذي وقع في معسكر التدريب:

---

(١) زن Zen: شكل فريد من أشكال البوذية المهاينية، يوجد أساساً في اليابان، وإن كان مؤثراً بعض التأثير في الدول الغربية، وخاصة الولايات المتحدة. وكلمة «زن» تعني حرفياً «التأمّل» وهي مستمدة من الكلمة الصينية «تشان»، وتلك بدورها مستمدة من الكلمة السنسكريتية «ذيانا». وتشدد بوذية الزن على نوع من الانضباط الروحي الذي يساعد في إحداث استنارة فجائية. (يقال لها باليابانية «ساتوري») وتلك بدورها ليست إلا مرحلة على الطريق نحو التنوير الكامل. (هـ. م.)

ـ سمعنا أن المعلم كايدو يوبِّخ بشدة طلابه المفضّلين الذين يحبّهم أكثر من غيرهم، وأنك قد خضت غمار هذه التجربة.

ـ ماذا فعلت بذلك التدرج؟

ـ لقد التهمناه جميعاً في طعام العشاء.

ـ أراهن أن طعمه كان طيباً، ولكن لم نكن ندري، يا إيساو، أنك صياد ماهر.

رد إيساو في فرح:

ـ آه، لم أقم بالصيد، وإنما كما قال المعلم كايدو، كان الإله الضاري بداخلي هو الذي قام بالرماية، ومن هنا لم يكن مجال للخطأ فيها.

ـ آمل أنه في يوم من الأيام ستقوم إحدى الفتيات الحسان بإخراج الإله المعتدل الكامن في أعماقك من مرقده.

عكف الجميع على الطعام والثرثرة، باستثناء ساوا الذي تواصلت ابتسامته، ولم يَفُهْ بكلمة واحدة. وخلال هذا الحوار المرح ألفى إيساو نفسه عاجزاً عن منع عينيه من الشرود باتجاه هذا الرجل، ثم تدخل ساوا فجأة ليقطع استرسال الحديث.

قال:

ـ أود أن ألقي قصيدة احتفالاً بإكمال إيساو لمعسكر تدريبه وغدوّه رجلاً أكثر قوة.

وبينما كان ساوا يلقي القصيدة مضى صوته يتردّد عالياً في قاعة الطعام التي سادها الصمت. رنَّ عالياً، إلى حدٍّ ما، ورئتاه تتقبّضان من فرط الانفعال، شأن جواد يصهل، وهو يستشعر عاصفة توشك أن تهبّ:

مكتسحين شرور الغرب،
دعونا نتمسك بعروة الإخلاص لبلادنا.

راسخي الإيمان، ضاربين صفحاً عن توسلات الخونة،
سنمضي إلى الأمام بقضيتنا الكبرى.
دونما أدنى خوف من الموت.

تعرّف إيساو فوراً على هذه القصيدة، باعتبارها قصيدة من نظم إينوكيتشي ميورا، ولكن هذه الكلمات الأخيرة التي نظمها قائد السرية الشاب الذي شارك في حادث ساكاي، لم تكن مناسبة على الإطلاق لمناسبة احتفالية.

ما إن تقبل ساوا التحية التي وجهها له الطلاب بالتصفيق حتى بادر إلى القول:

ـ والآن، هناك قصيدة أخرى. وهي قصيدة من شأنها أن تثير الابتهاج في فؤاد المعلم كايدو.

وبعد هذه المقدمة ألقى قصيدة من نظم كوهاي توموباياشي:

نحن، يا من كنا أبناء
أرض نقية ومقدسة،
غدونا في حماقة أتباع بوذا الخانعين،
ورحنا نكرز بأننا جميعاً واحد.
الآن سنلقى بوذا خارجاً
(لا تبتئس كثيراً، يا بوذا!)
نحن، يا من كنا أبناء
أرض نقية ومقدسة.

لدى سماعهم الكلمات القائلة «غدونا في حماقة أتباع بوذا الخانعين»، انفجر الجميع ضاحكين، وقد ارتسمت أمامهم صورة محيا المعلم كايدو، وأثار توبيخهم التقريع الساخر «لا تبتئس كثيراً، يا بوذا».

وعلى الرغم من أن إيساو ضحك مع الآخرين، إلا أنه في قرارة فؤاده كان ما يزال يستجيب للعاطفة الكامنة في قرار قصيدة ساوا الأولى قابعة تحت وضوحها وانفتاحها، عاطفة كانت نابعة من الموت الغاضب الذي أودى بحياة شاب في مقتبل العمر. إن ساوا هذا الذي أقسم على أن يلقى حتفه، لم يبد أية بادرة خجل على الإطلاق إزاء كونه ما يزال على قيد الحياة. وإنما لاح بدلاً من ذلك محاولاً أن يغرس في نفس إيساو حماس شاب أنهى حياته نهاية غاضبة في فجر عهد ميجي. استشعر إيساو اندفاعة خجل حادّة تغمره، وبدلاً من أن يعاني ساوا من الخجل الذي كان جديراً أن يحل بساحته فإن هذا الشعور بالخجل اخترم إيساو.

كان خجلاً مبعثه الاقتناع بأن ساوا، وساوا وحده، قد رآه في غمرة السرور والكبرياء المتصلبة لشاب غارق في الشعور العذب بأنه قد عقد العزم على أن يلقى حتفه. وبمعنى من المعاني فإن ساوا قد ابتاع خجل إيساو بالمال.

- ٢٧ -

في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر)، بعث الملازم هوري بكلمة مُفادها أن على إيساو الحضور إلى النزل الذي يقيم في إحدى غرفه في الحال. ومضى إيساو إلى هناك. فألفى الملازم جالساً وهو ما يزال في زيه الرسمي. كان فيه شيء من الاختلاف عن المرات السابقة.

- ما رأيك في تناول طعام العشاء معي؟ لقد قلت لهم في سفل الدار إنك ستتناوله معي.

نهض الملازم خلال حديثه وأضاء المصباح.

- أفضل سماع ما لديك.

- لا تتعجل الأمور!

لما كانت الغرفة المتقشّفة التي تمتد عبر مساحة ثمانية حُصُر، مجردة من الأثاث تقريباً، فقد اتخذت مظهر صندوق فارغ مُضاءٍ على نحو باهر. كان الهواء بارداً داخلها، ولكن لم يكن هناك أثر للنار في الهيباتشي. ومن الدهليز الواقع خارج الباب الموصد تناهى صوت وقع أقدام عسكرية سرعان ما ابتعد صاحبها، ثم عاد من جديد، ثم دوت صيحة من أعلى الدرج: «أنت أيها العجوز! أسرع بجلب عشائي!» وانحسر وقع الأقدام فيما كان صاحبها يتراجع عبر الممر.

- يقطن ذلك الملازم الغرفة الواقعة في نهاية الممشى على الجانب الآخر. وليس بمقدوره سماع ما تقول، فلا تقلق! والرجل الذي يسكن الغرفة المجاورة ليس موجوداً اليوم، فهو ضابط منوّب هذا الأسبوع.

تردّدت هذه الكلمات مراوغة على نحو ما في مسمع إيساو، فهو لم يحضر إلى هنا ليقول أي شيء، وإنما ليستمع إلى الملازم.

أشعل الملازم سيجارة فعلقت قطعة من الطباق بشفته، وفيما هو يزيلها بطرف ظفر إبهامه سحق علبة سجائره الفارغة من طراز «الخفاش الذهبي» بيده الأخرى. وللحظة بالغة القصر كشفت الفراغات بين أصابعه عن أجنحة خفاشات ذهبية وسط خلفية خضراء، وهي تسحق بلا رحمة في قبضته. وقد ذكر لإيساو في وقت ما أن راتبه الشهري يبلغ خمسة وثمانين يناً. والآن انبعثت ذكرى هذه الحقيقة، جنباً إلى جنب مع برودة الغرفة والشعور بالوحدة، في حياة النزل، من قلب صوت الضغط على الورق.

تساءل إيساو هو يمسك بزمام المبادرة:

ـ أَحَدَثَ شيء؟

لم يحر الملازم جواباً.

وأخيراً أعرب إيساو عن أسوأ مخاوفه:

ـ فهمت. لقد تسرّب السرّ.

ـ لا، ليس الأمر كذلك. لا تقلق بهذا الخصوص. الحقيقة أنني فجأة تُتّخذ إجراءات إرسالي إلى منشوريا. وقد صدر أمر في هذا الشأن من القيادة. وأنا الوحيد الذي سيمضي إلى هناك من الفوج الثالث. والتكتم الشديد يحيط بالموضوع، فلم أبلغ به أحداً غيرك، ولكنني ألحقت بقوة أمنٍ منشورية، سرّية، مستقلة.

ـ متى سترحل؟

ـ في الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر).

ـ ولكن. . . لم يبقَ على هذا الموعد إلا أسبوع واحد.

ـ هذا صحيح.

ساور إيساو شعور كما لو أن الأبواب المنزلقة أمامه توشك أن تهوي

متداعية عليه، إذ فقدوا قيادة الملازم لهم. لم يكونوا يعتزمون بأي حال ترك كل شيء ليكون وقفاً عليه، ولكن الإرشاد المحنك من قبل رجل عسكري من شأنه أن يكون عوناً جليل القدر في الهجوم على مصرف اليابان. وفضلاً عن ذلك فقد كانوا يتطلعون إلى تعليمات الملازم التكتيكية والتنظيمية المفصّلة، خلال الشهر الأخير من الاستعداد. لقد كان إيساو يحظى بالروح، ولكنه يفتقر إلى المهارة الفنية.

تساءل إيساو، وقد عجز عن الحيلولة دون امتزاج صوته بالأسى:

ـ أليس هناك من سبيل للبقاء وقتاً أطول؟

ـ إنه أمر، وليس بمقدورك أن تغيّر شيئاً كهذا.

بعد هذه الكلمة الأخيرة لزم كل منهما الصمت لبعض الوقت. ومرّت صورة إثر الأخرى بذهن إيساو، فيما هو يواصل محاولة الاستقرار على الدور الأكثر ملاءمة للملازم الآن. وفيما استسلم لهذا التفكير بالتمنّي منحّياً جانباً ما تقضي به الفطرة السليمة، أحسّ كما لو أن الملازم يوشك على تحويل ذاته إلى شخص مثالي. كانت هنالك القدوة التي ضربها هاروكاتا كايا الذي اتخذ قراره البطولي قبيل الانتفاضة. وكانت الصورة التي سيطرت على خيال إيساو هي صورة الملازم وهو يستقيل من الخدمة ويغدو مجرد رجل آخر من الأقاليم، مضحّياً بنفسه ليقود إيساو ورفاقه في الانتفاضة. وكان إيساو قد أحسّ في ذلك الأصيل الخريفي عندما تدرّب على أشكال الكندو في قاعة التدريب وسط ضجيج أصوات الجنادب بأن تلك هي الروح التي أطلّت متألقة من عيني الملازم بالذات.

ولكن، ربما كان الملازم قد اتخذ قراره بالفعل، وأنه سيعلن عزمه بعد أن يترك إيساو يشعر بالابتئاس بما فيه الكفاية.

ـ في تلك الحالة فإن الملازم لن يشترك معنا؟

ـ لم أقل ذلك...

تألّقت عينا إيساو وهو يسمع نفي الملازم العاجل.

ـ أتشارك إذن؟

ـ في الجيش، الأمر هو الأمر. ولكن إذا قدمت الموعد ليكون قبل الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) فإني سيسعدني أن أشارك.

ما إن سمع إيساو هذا حتى فوجىء بعبث كلمات الملازم، وأدرك في الحال أنه لا يعتزم المشاركة. فقد كان الملازم يدرك حقّ الإدراك أنه من المستحيل الإعداد للانتفاضة، في غضون أسبوع، ومن ثم فإن العرض الذي تقدّم به لم يكن له معنى، وشعر إيساو بخيبة أمل حيال سفسطة الملازم تفوق مرارتها عدم مشاركته في الانتفاضة.

الآن، شرع إيساو يرتاب في أن لدى الملازم سبباً وجيهاً يدعوه للبقاء في زيه الرسمي حتى مقابلته له، فعندما أعلن ما قاله كان ينبغي أن يكون مرتدياً ما يوحي بمكانة لا مجال للنيل منها. وفيما جلس أمام إيساو على الجانب الآخر من المنضدة الخشنة، ظلّ حقاً محتفظاً بجلسته الرسمية المتصلّبة، وقد ارتفعت كتفاه في السترة العسكرية. وتألقت رتبته العسكرية على كتفيه العريضتين اللتين توحيان بالثقة البالغة، وأبقى ذقنه القوي الحازم متصلباً فوق شارة المشاة الحمراء التي تزيّن ياقته مع الرقم «٣» الذهبي المثبت بها. كان يستعرض قوته عامداً ليعلن أنه لا يستطيع تقديمها لقضيتهم.

ـ هذا محال.

قالها إيساو، ولكن دون أدنى إشارة توحي بالهزيمة. فقد شعر بأنه من خلال الردّ على هذا النحو، وعلى صورة غير متوقعة تماماً، انتقل إلى وضع أكثر رحابة وأشدّ تحرّراً.

شرع الملازم الذي يبدو أنه لم يلحظ التغيّر المفاجىء الذي طرأ عليه، يحدّث إيساو بلهجة من يلقي محاضرة، وكأنما الأخير انسحق تماماً.

ـ إذا كنت تعتقد أن هذا محال فتخلَّ عن الأمر! ألك في ذلك؟ كانت لي منذ البداية ذاتها شكوك معيّنة حول ضروب القصور في التخطيط، والعدد غير المناسب من الرجال المشاركين، ومن ثم عبث محاولة استجلاب الأحكام العرفية، وتوقيت المشروع السابق لأوانه. . . وأحسب أن الأمر قد أصبح ميؤوساً منه تماماً. الآن لا يبدو أن أياً من السماء أو الوقت معنا. إن إصرارك رائع، وقد أدركت ذلك، وهذا هو سبب مساعدتي لكم، ولكن التحرك الآن سيكون بلا طائل تماماً. أتدرك ذلك؟ انتظر إلى أن يحين الوقت المناسب. وأمر نقلي المفاجىء هذا ـ ذلك هو صوت السماء يتحدّث ويقول لك: «قف!» لن أبقى في منشوريا طويلاً، فانتظر حتى أعود. وعندئذ سيسعدني أن أشارك. وما يتعينّ القيام به حتى ذلك الحين هو أن تراجع استراتيجيتك، وتتجنّب ضروب النقص وتقوم بالمزيد من البحث. وحتى في منشوريا سأفكر فيكم، أيها الشبان، وفي الأوقات البهيجة التي أمضيناها معاً. . . طيب. ما رأيك في ذلك؟ هل ستأخذ بنصحي وتبلغني على التوّ بأنك لن تمضي قُدُماً في الأمر؟ ألا تظن أن الرجل الحقيقي هو الذي يمكنه أن يكون حاسماً ويكبح جماح اندفاعه؟

التزم إيساو الصمت. وقد أدهشه ألا يجد نفسه على الإطلاق مذهولاً حيال كلمات الملازم. وأدرك تمام الإدراك أنه كلما طال صمته ازداد توتّر الملازم.

على نحوٍ ما غدا إيساو معتاداً على الفكرة القائلة بأنه حينما يتداعى واقع فإن واقعاً آخر يتبلور ونظاماً جديداً يقوم. وقد استبعد الملازم بالفعل النظام الجديد، وهكذا فإن شخصه الجسور بزيه الرسمي راح يدور بلا هدف حول طرفي كتلته التي لا تخترق من البلور الشفاف. وقد شق إيساو طريقه إلى درجة أرفع من النقاء، إلى مستوى من المأساة أعظم نبلاً.

ربما كان الملازم قد تصوّر أن هذا الشاب سيصاب بالذعر ويتشبّث

بركبتيه، ويتوسّل إليه دامعاً. غير أن إيساو جلس بجـذع منتصب متصلباً، دون أن ينبس ببنت شفة، وقد غدت ملامحـه أكثر بـروداً وتماسكـاً من ذي قبل. وعندما تحدث كانت كلماته بعيدة تماماً عن صراحته المعتادة حتى أطلّ الخطر المتمثل في أن الملازم قد يتصوّر أن إيساو يسخر منه.

ـ ولكن هل لك على الأقل في التفضّل بجعلنا على صلة بالمـلازم شيجا؟ فإني أود بالتأكيد مناشدته أن يقدّم لنا مساعدته في توزيع المنشورات.

وفيما كان إيسـاو يتحدث عقـد العزم عـلى ألا تقع عينـا الملازم قط عـلى مسوّدة المنشور القابعة في حقيبة أوراقه. غير أن الملازم هوري الذي كان لا يزال بعيداً عن ملاحظة أي تغيّر فيه، قدّم ردّاً صريحاً.

ـ لا. لن يجدي هذا نفعاً. تخلَّ عن الأمـر، كما قلت لـك. إنك حتى لم تجبني بعـد. أَوَتَحْسَبُ أني أستمتع بقـول هذا؟ المشروع لن يكلّل بـالنجـاح، وذلك كلّ ما في الأمر، ولذا عليّ ابتـلاع مشاعـري الخاصـة وتحذيـركم من المضيّ قدماً فيه. وذلك ليس نتيجة قرار اتخذ بوحي اللحظة. أما الآن وقـد قلت لك إن عليك التخلّي عن المشروع فإني سأبلغك أيضـاً بأن عليـك ألا تعتمد على أيـة مساعـدة كائنـة ما كـانت من الجيش، ولست في حاجـة إلى إبلاغك بأنني لم أقرّر دون استشارة الملازم شيجـا. إن بمقدورك إدراك هـذا القدر، أليس كذلك؟

صمت الملازم لحظة، ثم أضاف:

ـ بالطبـع، إذا أردتم تنفيذ المشروع عـلى مسؤوليتكم فذلـك أمر راجـع لكم، ولكن بمـا أنني كنت مستشاراً لكم فـإنني أحـذّركم منـه، من أعـماق قلبي، وليس بمقـدوري أن أراكم وأنتم تهدرون حيـاتكم. ألا تفهم؟ تخلَّ عن الأمر!

هكذا صاح الملازم وكأنه يصدر أمراً في ميدان التدريب، وقد استقـرّت عيناه على محيا إيساو.

حدث إيساو نفسه بأن ما يمكنه القيام به هو أن يعد الآن توّاً بالتخلّي عن خططه. ذلكم هو السبيل! ذلك أنه إذا ما ترك الملازم بإجابة غامضة فقد يساوره القلق، ويستخدم الأسبوع المتبقي على رحيله للتوصّل إلى وسائل لإحباط المشروع. ولكن ألن ينتهك هذا النوع من الخداع نقاءه؟

أدّى ما قاله الملازم بعد ذلك إلى تغيير المزاج النفسي المسيطر على إيساو.

ـ أتفهم؟ ولست أرغب حتى في أن تبقى أصغر وريقة عليها اسمي أو اسم شيجا. إني أطرح عليك هذا بمزيد من القوة إذا كانت لديك أية نيّة للمضيّ متجاوزاً نصيحتي بالتخلّي عن المشروع. تخلّص من اسمينا بأسرع ما يمكنك!

رد إيساو بنعومة:

ـ نعم، يا سيدي، سنقوم بأداء هذا، إنني أفهم ما قلته، وأضمن أنه ما من أثر لاسميكما سيبقى. وأما فيما يتعلق بالتخلّي عن الخطة فإنه سيكون من المستحيل إقناع الجميع؛ ولذلك فسوف أؤجلها إلى ما لا نهاية، وسيكون الأثر النهائي واحداً.

ـ هل ستفعل ذلك؟ هل أوصلتُ رسالتي إلى ذهنك؟

قالها الملازم وقد تحول التعبير الذي يكسو ملامحه إلى الابتهاج فجأة.

ـ لقد أوصلتَها، يا سيدي!

ـ هذا من حسن طالعكم! فلا حاجة لفاصل جديد في أحداث عصبة الريح الإلهية. لسوف نفرض الإصلاح مهما كلّف الأمر. وسيأتي حتماً يوم تتاح لنا فيه الفرصة للقتال جنباً إلى جنب. ما قولك في كأس؟

التقط الملازم زجاجة ويسكي من خزانة في الحائط وهو يتقدم بهذا العرض، ولكن إيساو رفض في حزم، ونهض استعداداً للمغادرة. ولأنه لم يرغب في إعطاء الانطباع بالابتئاس فقد اضطر لبذل قصارى جهده للظهور بمظهر مرح.

غادر إيساو النُزُل عبر الباب المزخرف بالنقوش الذي يحمل لافتة «كيتزاكي» إلى جانبه. لم ينهمر المطر غزيراً، كما كان الحال في الأصيل الأول الذي جاء فيه إلى النُزُل. ولكن الرصيف تألّق تحت ماء المطر الشتوي. لم يكن يحمل أياً من أدوات الوقاية من المطر، ولكنه في غمار رغبته في السير وحيداً لبعض الوقت لاستجماع شتات أفكاره مضى في طريقه باتجاه رايودو. انتصب السور الطوبي لمجمّع الفوج الثالث عالياً على الجانب الأيسر من الطريق، والتمع سطحه الأحمر الناعم مبلّلاً من الوهج الواهن الذي يستمد مصدره من مصابيح الشوارع. ولم يكن هناك أحد غيره يواصل السير في الطريق. وقد عقد العزم حتى هذه اللحظة على أن يحشد في ثبات كل قوته الذهنية، ولكن عند ذاك فحسب خانته دموعه.

تذكر حادثة كانت قد وقعت، وهو ما زال عضواً متحمساً في فريق الكندو، ومنح المزية المتمثلة في التدرب مع فوكوتشي، مدرب الكندو الشهير الذي تصادف أن زار قاعة التدريب. وقد عمد إيساو الذي أحبطه دفاع المعلم المرن عند كل انعطافة، إلى المهاجمة بقوة لا ترعوي، لا لشيء إلا ليحبط من جديد. وفيما كان ينسحب غريزياً تحدث صوت أجش في هدوء من وراء أعمدة قناع خصمه:

ـ لا تتراجع! إنك بحاجة إلى بعض الجهد هنا، فيما أعتقد.

- ٢٨ -

اجتمع رفاق إيساو، انتظاراً له، في مقر قيادتهم السرّي، الدار المستأجرة حديثاً في يوتسويا سامون. ولما كان الملازم هوري قد طلب لقاء إيساو على انفراد فقد افترض الجميع أن لدى الملازم تعليمات بالغة الأهمية سيصدرها لإيساو.

كانوا قد أطلقوا على ملجأهم هذا اسم كاميكازي، الريح الإلهية، كرمز للرابطة التي تصلهم بالعصبة، ومن هنا فإن اللقاء في كاميكازي كان يعني اللقاء في هذه الدار، المؤلفة من طابقين، وتضم أربع غرف، ويمكن الوصول إليها بالترجّل من الحافلة في سامون والسير حوالي مائة وعشرين متراً. وقد سعد صاحب الدار بتأجيرها لهم، على الرغم من كونهم طلاباً، ولم يعلموا السبب في ذلك إلا في وقت لاحق، فقد شهدت الدار حادثة انتحار في الصيف الماضي ولم يُبْدِ أحد غيرهم استعداداً لاستئجارها. وغطيت الواجهة الجنوبية بكاملها بألواح خارجية تدعمها قوائم من الخيزران، مشقوقة من الوسط، باستثناء نافذتين صغيرتين، وواجهت الشرفة الشرق، وهي سمة أخرى غريبة في الدار. وعندما كان المستأجرون السابقون على وشك المغادرة قامت سيدة عجوز من العائلة، وقد رفض فؤادها الرحيل بتثبيت حبل في أعمدة سقف الدهليز، وشنقت نفسها. وقد سمع ساجارا هذه القصة في مخبز الحيّ، وأبلغها للآخرين. وقد أبلغته المرأة في المخبز هذا الفاصل من أحداث الدار، فيما هي تملأ حقيبة ورقية بفطائر المربى المحلاّة ببذور الخشخاش، وتمسك بالطرفين العلويين للحقيبة وتطويها بحذق بأصابعها لإغلاقها وتمرّرها نحوه على النضد.

عندما أزاح إيساو باب المدخل جانباً وخطا إلى داخل الدار، تجمعت المجموعة التي كانت في الطابق، وقد سمعت الضجة الصادرة عنه، عند أعلى الدرج، وقد أصدرت أغطية النصف السفلي من الجسم من كيمونوهم، المطرز بالزخارف الزرقاء، حفيفاً، وهي تتماسّ فيما بينها في الممشى المعتم.

ـ ما الأخبار؟

قالها إيزوتسو متسائلاً، وقد اترع صوته بالفرحة النابعة من نزوعه إلى التفاؤل. وعندما اكتفى إيساو بتجاوزه مرتقياً الدرج، من دون أن يحير ردّاً، استشعر الجميع انتكاسة وكأنما أصابتهم صدمة كهربائية. كانت خزانة مغلقة في نهاية دهليز الطابق الثاني تستخدم لحفظ أسلحتهم، وقد اعتاد حينما كان يمر إيساو بها أن يجعل ساجارا يقوم بفتحها لكي يتمكن بنفسه من التدقيق في عدد السيوف. وأما اليوم فقد نسي حتى القيام بذلك، ومضى مباشرة إلى قاعة الاستقبال. كانت كتفا سترته مبتلتين من جراء المطر، وبعد أن جلس أحسّ برعدة تشمل بدنه. كان أصدقاؤه يتناولون حبّات من الفول السوداني، وقد تناثرت القشور فوق صحيفة أفردوها لذلك الغرض. وإذ جثمت القشور هناك في ضوء المصباح فقد بدت كئيبة وشاحبة، وكأنما التوت من فرط التوتّر.

جلس إيساو متربعاً والتقط في عصبية ثمرة من ثمار الفول السوداني، وضغط على قشرتها، فيما كان الآخرون يلتفون حوله، فتداعت القشرة محدثة صوتاً مسموعاً تحت ضغط أطراف أصابعه، وانقسمت إلى شطرين في كل منهما حبة فول.

ـ لقد نقل الملازم هوري إلى منشوريا. وهو لا يكتفي برفض تقديم أية مساعدة أخرى لنا فحسب، وإنما يصرّ كذلك على أن نتخلّى عن كل شيء. أما عن طائرتنا فإن الملازم شيجا قد تخلّى عنا بدوره؛ ولذا لم تعد لنا صلة

بالعسكريين، وأعتقد أن الوقت قد حان للتفكير فيما يجب أن نقوم به.

قال إيساو هذا كله في اندفاعة واحدة. بدا الأثر الذي انعكس على الوجوه من حوله شبيهاً بماء بلغ الحافة ينحسر على حين غرّة. ومضى يحدّق في كلّ منهم، وقد أجبره على ذلك شعوره بأن عليه أن يتواصل بصرياً معهم جميعاً. كانت تلك هي لحظة تجرّد النقاء، ولم يكن ثمة من يجسّده سوى إيساو.

أفصح إيزوتسو عن جسارته الجميلة، وتحدث في جرأة، وقد احمرّ وجهه، وتوهّج، وكأن الأنباء التي حملها معه هي أفضل الممكن من الأمور.

ـ أقول: فلْنُعِدْ رسم خطتنا، وليمضِ كلّ شيء على ما يرام، ولكن ما من حاجة تدعونا إلى تأجيل الموعد. فالأمر المهم هو الروح ـ عليكم بالإصرار! يا لهؤلاء الفتية الجنود! حينما يجدّ الجدّ فإن كل ما يعنيهم هو حياتهم العملية.

أرهف إيساو سمعه ليلتقط أيّ ردّ فعل معارض، ولكنه لم يسمع شيئاً. كان الصمت يشبه صمت عدد من الحيوانات الصغيرة التي يمسك كل منها أنفاسه في حمى الأجمة التي لاذ بها. ولم يكن مما يجافي طبائع الأمور أن يشعر إيساو بما يغريه بأن يكون على شيء من القسوة، وأحسّ بأنه ليس أمامه خيار إلا التصرف بقوة تعسّفية.

ـ الأمر على نحو ما يقول إيزوتسو. سنوجّه الضربة في اليوم المحدد. وإذا ضربنا صفحاً عن مشكلة القيادة فإن كل ما فقدناه هو فرصة إسقاط منشوراتنا بالطائرة، ووضع أيدينا على بعض المدافع الرشاشة الخفيفة، ولسوف نطبع البيان على أية حال، ثم يمكننا أن نقرر كيفية توزيعه. هل ابتعنا آلة كاتبة بالفعل؟

رد ساجارا:

ـ سنقوم بذلك غداً.

ـ طيب. لدينا سيوفنا. وهكذا تبيّن أنه كما بالنسبة لعصبة الريح الإلهية لعهد شوا سيكون الاعتماد المطلق على السيف الياباني. وما من شيء يمكن أن يكون مناسباً على نحو يفوق هذا، دعونا نقلل اتساع نطاق هجومنا، ولكن مع مضاعفة زخمه. لقد أقسمنا جميعاً، وأعلم أن كل رجل هنا سيظلّ على ولائه حتى النهاية.

قوبلت كلماته حقاً بصيحات موافقة عالية، ولكن اللهب المتوهج لم يتواثب عالياً على نحو ما توقع إيساو، ولو أن هذا النوع من اللهب تقافز بأقل مما توقع المرء بقدر يسير فحسب فإن فؤاده لا يملك إلا الشعور بدرجة لا تتفق مع مقتضى الحال من البرودة.

أظهر سيريكاوا وحده انفعالاً بالغاً.

ـ سننجز الأمر! سننجز الأمر!

هكذا صاح لاطماً الأرض، ناثراً القشور الملقاة على الأرضية. وأمسك يد إيساو بحزم وصافحه، وكالمعتاد بدا على مشارف الدمع. وقد أثّر هذا الفتى في نفس إيساو، وكأنه فتاة تبيع علب الثقاب وتستخدم جاذبية عاطفية صريحة لتفرض على الآخرين الشراء. وكان ذلك إفصاحاً لا يحتاج إليه إيساو كثيراً في تلك اللحظة.

ظلّ الجميع، في تلك الليلة، حتى وقت متأخر عاكفين على بحث سبل لملمة أطراف خططهم. وتشكل جناحان، أحدهما يحبّذ التخلّي عن الهجوم على مصرف اليابان، والآخر يؤثر المضيّ قُدُماً فيه. وعندما عجزا عن التوصّل إلى اتفاق حدد موعد للقاء في الليلة المقبلة، وانفضّ الجمع.

وفيما كان الجميع يغادرون الدار أبلغ ثلاثة من الفتية، هم سياما، وتسوجيمورا، ويوي، إيساو بأن لديهم شيئاً آخر يودون مناقشته. وكان إيزوتسو وساجارا بسبيلهما إلى البقاء كذلك، ولكن إيساو طلب منهما العودة

إلى داريهما، وكذلك صرف يونيدا وساكاكيبارا اللذين كان يفترض أنهما سيقومان بنوبة حراسة ليلية في الدار.

عادوا أربعتهم إلى الغرفة التي لم تكن بها لمسة واحدة من نار تدفئها. وعلى الرغم من أن إيساو كان بسبيله إلى سماع ما يودون قوله، إلا أنه كان يعرف تمام المعرفة ما سيقولونه له.

شرع سياما، الطالب بالمرحلة الثانوية، في القيام بمهمة الحديث بأسرها. مضى بزوج من ملاقط الجمر يفتت كتلة من الرماد تجمعت في الهيباتشي البارد، وتبدّت على وجنتيه الآثار الباقية من البثور وهو يتحدث خافض الرأس، بصوت لا مبال:

ـ أرجو أن تدرك، فيما يتعلق بما يتعين عليّ قوله، أنني أقوله من منطلق الصداقة. أعتقد، على أية حال، أنه يتعيّن أن نؤجّل الهجوم لبعض الوقت. ولم أطرح هذا أمام الجميع لأنني اعتقدت أن ذلك قد يثير فكرة خاطئة، كما لو كنت أسكب ماء بارداً على مناقشة الهجوم ذاته. والآن، فيما يتعلق بهذا الأمر، لقد أدينا القسم بدورنا عند المزار في رحاب الآلهة. ولكن القسم ـ القسم بشرط ألا يحدث تغيّر كبير في الظروف ـ أليس ذلك بمثابة شيء يتمّ القيام به بالروح التي يرتبط المرء من خلالها بوعد؟

ـ القسم والوعد مختلفان!

كان تسوجيمورا هو الذي قاطع الحديث غاضباً على هذا النحو. وكان تأثير كلماته هو التعجيل بحدوث الاستجابة المتوقعة من إيساو، وأن يبدو متحدثاً باسم نفسه، وهو أسلوب يومىء من طرف خفيّ إلى تملق ذليل مراوغ من جانبه لسياما. وزادت في ضيق إيساو الطريقة التي التقط بها سياما هذه الكلمات، باعتبارها إشعاراً ببدء دوره في الحديث.

ـ آه، هما مختلفان؟ ما كان ينبغي عليّ الخلط بينهما على هذا النحو. أرجو غضّ النظر عن فلتة لساني هذه، ولكن إن كانت تساورنا أية فكرة عن دفع

الأمور باتجاه فرض الأحكام العرفية فإن تعاون العسكريين هو أمر أساسي. وما تمسّ الحاجة إليه حقاً ليس إسقاط بيان من طائرة، وإنما كما قلت أنت في البداية قصف مبنى البرلمان بالقنابل. وأن نحصل على المساعدة من العسكريين المحترمين أو لا نحصل، أليس هذا هو الأمر الذي سيغدو العنصر البارز في تنسيق الهجمات المحلية؟ ألن يكون مضيّنا قُدُماً بدون هذه المساعدة معتمدين على روحنا وسيوفنا فحسب أمراً حافلاً بالمخاطر بأكثر مما ينبغي؟ أحسب أنه علينا أن نحرص على ألا تمضي بنا روحنا بعيداً.

تحدث إيساو، للمرة الأولى، وتردّد صوته خفيضاً:

- سيكون ذلك مخاطرة، هذا أمر مؤكّد. لقد خاض رفاق العصبة غمار المخاطرة.

بدا أسلوبه في الحديث موحياً بتمالكه لجأشه، ولاحت جلية الحقيقة القائلة بأنه قد تخلّى بالفعل عن محاولة إقناعهم بوجهة نظره، حتى إن الثلاثة لاذوا بالصمت وتبادلوا النظرات فيما بينهم.

راح شلال معتم كئيب يتساقط في قلب إيساو. وراح تقديره لذاته يتآكل في بطء. ولكنه تصرّف على نحو ما فعل لأن الشيء الثمين الذي يعنيه الآن لم يكن تقديره لذاته. غير أنه كنتيجة لذلك انتقم هذا التقدير للذات المتخلّى عنه بألمٍ ما كان يمكن تنحيته جانباً. ووراء هذا الألم كمن نقاؤه، مثل سماء المساء الشتوي التي تلوح من خلل السحب المتصدّعة. ورأى إيساو، كما في حلم من أحلام اليقظة وجوه أولئك الذين نهبوا الأمة ويستحقون الاغتيال، وكلما غدا أكثر عزلة وأشد تجرّداً من القوة تزايدت واقعيتهم اللحيمة الوافرة وطأة وجثوماً على الصدر. وتفاقمت الرائحة الكريهة الصادرة عن شرّهم مع مضيّ كل لحظة. لقد انغمس إيساو ورفاقه في عالم يتفاقم قلقه وافتقاره لليقين، عالم يشبه انعكاس قمر يمضي موغلاً على بحر كساه الليل. كانت جرائم هؤلاء النهابين هي التي فعلت هذا،

جرائمهم التي غيّرت عالمه إلى شيء شديد الافتقار إلى اليقين، غير جدير بالتصديق إلى حد بعيد، الواقعية الغريبة لهؤلاء الرجال الذين يواجهون إيساو ـ ها هنا يكمن نبع خيانة الدنيا بأسرها. وعندما يقتلهم، وحينما يقطع نصله الذي لم يفقد بريقه في لحمهم المتورّم بالشحم الذي عبث به ضغط الدم العالي ـ حينئذ فحسب، وللمرة الأولى، يمكن للعالم أن يعود إلى نواميسه من جديد، وإلى أن يحدث ذلك. . .

ـ إذا كنتم تريدون تركنا فلن أوقفكم.

ما كانت لتتاح فرصة لإيساو لكبح جماح هذه الكلمات؛ ولذا تجاوزت شفتيه عن طواعية.

اعترض سياما مبتلعاً ريقه بصعوبة، وقد احمرَّ وجهه:

ـ مهلاً لحظة، كل ما قصدناه هو أنه إذا لم يقبل اقتراحنا فلن يكون أمامنا خيار إلا ترك المجموعة.

ـ اقتراحكم غير مقبول.

قالها إيساو. وفي غمرة رده بدا له صوته وكأنه يتناهى من بعيد.

عقب ذلك كانت الاجتماعات تُعقد بصورة يومية.

في اليوم الأول لم يحذ أحد حذو تاركي المجموعة. وفي اليوم الثاني، وبعد جدال عنيف بين الجناحين، انسحب الرجال الأربعة المنتمون إلى الجناح الأصغر، ثم ترك رجلان آخران الجماعة في اليوم التالي. وهكذا تقلّص عدد الرفاق، بمن فيهم إيساو، إلى أحد عشر رفيقاً. ولم يكن قد بقي على اليوم المحدد إلا ثلاثة أسابيع.

جاء إيساو متأخراً نصف ساعة عن اجتماع الثاني عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) وهو الاجتماع السادس منذ تخلّي الملازم هوري عنهم في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر). وعندما ارتقى الدرج إلى الطابق الثاني كان رفاقه العشرة مجتمعين، وجلس هنالك كذلك ضيف لم توجه إليه الدعوة،

وللوهلة الأولى لم يتبيّنه إيساو؛ لأنه جلس في أحد الأركان، بعيداً إلى حد ما عن الآخرين. ولم يكن إلا ساوا.

كان ساوا قد وضع موضع الاعتبار دهشة إيساو وغضبه لحضوره إلى المنزل. وأدرك إيساو أنه لن يكون هناك معنى لإبداء ردّ فعل طفولي يستفيد منه ساوا. وكانت أول خاطرة قفزت إلى ذهنه أن كل شيء قد انتهى الآن وقد عرف ساوا مخبأهم. فلو أن واحداً من الرفاق العشرة كان قد مضى سرّاً إلى ساوا طالباً العون منه لما عاد بمقدوره هو الوثوق بأيّ منهم. ولكنه سرعان ما استبعد هذا باعتباره خاطراً غير جدير بالتفكير فيه. فالأمر الأكثر احتمالاً أن واحداً ممن تركوا المجموعة قد مضى إلى ساوا آملاً في أن يخفّف من تأنيب ضميره له بدعوة ساوا إلى أن يحلّ محله.

ـ حسبت أنكم جميعاً ستكونون جائعين؛ ولذا أحضرت لكم بعضاً من سوشي أوساكا.

قالها ساوا وقد بدا شخصه الجالس شبيهاً بطبل خشبي مما يوجد في المعابد، وهو متربع على الحشيّة الوحيدة الموجودة بالمنزل. كان يرتدي، على نحو بدا معه ضيقه جلياً؛ حلة غربية الطراز. وعمد الرجل البالغ التدقيق في حالة ملابسة الداخلية إلى وضع ربطة عنقه البارزة حول ياقته التي لوثها العرق.

ـ شكراً لك.

قالها إيساو بأقصى ما يستطيع من الهدوء.

ـ من المؤكد أنه لا بأس من قدومي إلى هنا. أليس كذلك؟ ففي نهاية الأمر من تراني أكون إلا أحد المؤيدين إن جاز التعبير؟ هلم، تفضلوا بتناول شيء من هذا. فقد لزموا العناد جميعاً، وأبوا تناول شيء منه، بل لم يمسوا عصي تناول الطعام حتى مجيئك. أقول لك إنهم رفاق طيبون. وأية بهجة أعظم يمكن للرجل أن يحققها من أن يكون له رفاق يصمدون من أجله.

ولما لم يكن هناك شيء آخر يمكن القيام به فقد ردّ إيساو، بصوت تشوبه لمسة من حماس زائف، وهو يمد عَصَويْ تناول الطعام لالتقاط القطعة الأولى:

ـ لكن، دعونا نمضِ قُدُماً!

وفيما هو عاكف على تناول الطعام أخذ يفكر في خير سبيل لمعالجة أمر ساوا، ولكن المضغ عاق تقديراته. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الصمت الذي ساد خلال تناول السوشي مصدر ارتياح له. لم تبق إلا ثلاثة أسابيع. شرع يتساءل كم من المرات قبل أن يلقى حتفه سيعايش لذة التهام الطعام على نحو عفوي هكذا؟ ومضى يفكر في الواقعة الواردة في كتاب «عصبة الريح الإلهية» التي قام تاتيو نارازاكي خلالها بالتهام الطعام والعكوف على الشراب بشهية مفتوحة قبيل قيامه ببقر معدته. وعندما تطلع حوله ألفى الآخرين جميعاً وقد عكفوا على الطعام بدورهم في صمت.

تساءل ساوا مبتسماً:

ـ أتراك ستعرّفني برفاقك، إني أرى وجهين أو ثلاثة من الوجوه المألوفة في الأكاديمية.

رد إيساو مقدماً كلًّا من رفاقه:

ـ هذا إيزوتسو، هذا ساجارا، ثم سيريكاوا، هاساجاوا، مياكي، مياهارا، كيمورا، فوجيتا، تاكاسي، إينوي.

الآن أدرك إيساو وهو يفكر في الأمر أنه من الوحدة التي عهد إليها بمهاجمة محطات المحولات لم يبق معه إلا ثلاثة رجال، هم هاسيجاوا، وساجارا، وسيريكاوا. أما فيما يتعلق بوحدة مصرف اليابان، فقد ظل إينوي صامداً، جنباً إلى جنب مع تاكاسي، على الرغم من أن مهمتهما ستكون مختلفة. ولم يغب رجل واحد من وحدة الاغتيال. وقد كان اعتزم أن يشرك في هاتين الوحدتين الأخيرتين أكثر الأشخاص جرأة في صفوف

رفاقه، ولم يبتعد تقديره وحكمه على شخصياتهم عن كبد الحقيقة.

إيزوتسو المندفع على نحو مرح، ساجارا الحاذق الصغير الجرم، بعويناته، سيريكاوا ابن الكاهن الريفي، ذو المظهر الصبياني، هاسيجاوا الصموت، وإن كان مضحكاً في غالب الأحوال، مياكي المخلص، برأسه المستطيل، مياهارا بالمظهر الصلب الكئيب الذي يحاكي حشرة مصبّرة، كيمورا بحبه للأدب وإجلاله العميق للإمبراطور، فوجيتا الدائم الصمت، رغم عنفوانه العاطفي، تاكاسي الذي تكذِّب كتفاه العريضتان القويتان إصابته بالسل، إينو الهائل الجسم، وإن كان معتدل الظهر بدرجته الثانية في الجودو. . . أولئك هم رفاقه الحقيقيون، الرفاق الذين اجتازوا الاختبارات كافة. وكان أولئك الشبان الذين بقوا يعرفون ما تعنيه مواجهة الموت. وهنالك، تحت مصباح يتدلّى من السقف، يترامى نوره الخافت على حصر التاتامي التي تنبعث منها رائحة الغبار، رأى إيساو أمامه برهاناً إضافياً على صدق إيمانه المتوهّج. إن بتلات الزهرة الذاوية تتحلّل، وتتهاوى، دون أن تبقى منها بتلة واحدة، ولكن الأسديات القوية الاحتمال تقف صلبة معاً، وهي ما تزال على ازدهارها، ويمكن لهذه الأسديات الحادّة الأطراف أن تخترق زرقة السماء. وكلما أوغل حلمه وحلم رفاقه في البعد عن الأمل تراصّت أجسامهم بمزيد من القوة معاً، دون أن تترك ثغرة لحجة عقلانية، محوّلين أنفسهم إلى كتلة من العقيق الأبيض شكّلت للاندفاع نحو القتل.

قال ساوا:

ـ إنكم فتية رائعون، وأولئك الفتية في أكاديمية الوطنية ينبغي أن يحنوا رؤوسهم تقديراً لكم.

وبعد أن جرّب فيهم تأثير أسلوب خطابي استوحاه من مجلة «نادي كودان»، مضى في حديثه متعجلاً:

ـ أيها السادة، هذا هو ما آل إليه الأمر: إما أن تعتبروني الليلة واحداً منكم وإما أن يتعينّ عليكم قتلي على الفور ها هنا. لا مفرّ من سلوك أحد هذين السبيلين، واحرصوا على ألا تدعوني أخرج من هنا، فعندئذ لن يقدر لكم أن تعرفوا قط ما سأقدم عليه. وتذكروا أنني لم أرتبط بأيّ قَسَم بعد. طيب، إذن، أيها السادة، إما أن تثقوا بي بلا حدود، وإما ألا تثقوا بي على الإطلاق. لا خيار أمامكم إلا هذا الأمر أو ذاك. ومن منظور النفع الذي سيعود عليكم فإن أحسب أن من البراعة والحذق أن تثقوا بي. وصدّقوني، فإن التخلص مني لن يؤدي إلا إلى إلحاق الضرر بكم. طيب، أيها السادة، ما قولكم؟

عندما تردّد إيساو في الإجابة، أذهلهم بالشروع في تأدية القَسَم بصوت عالٍ: «ليكن على هذا النحو أننا نحن الذين ننسج على منوال نقاء عصبة الريح الإلهية نخاطر بأرواحنا من أجل إبعاد كل الآلهة الشريرة والأرواح الضالة. ليكن على هذا النحو أننا نحن الذين ربطنا أنفسنا بأواصر الصداقة العميقة نساعد أحدنا الآخر كرفاق في مجابهة المخاطر التي تواجه الأمة».

وفيما كان إيساو يصغي إلى ترديد ساوا للقسم غاصت في فؤاده هذه الكلمات «ربطنا أنفسنا بأواصر الصداقة العميقة».

واصل ساوا أداء القَسَم: «ليكن على هذا النحو أننا نحن الذين لا نسعى إلى السلطة قطّ، ولا نحفل بالتقدّم الشخصي، نمضي قُدُماً نحو موت يقيني لنصبح أحجار الأساس للإصلاح».

ـ كيف علمت بأمر قسمنا؟

قالها إيساو متسائلاً على نحو يشي بالاتهام، وقد شابت صوته رنة ضيق صبياني، رغماً عنه. وبغريزة الصياد المرهفة، غير المتوقعة في جسم بهذه الضخامة وبذاك الوضوح، انقضّ ساوا على نقطة ضعف إيساو في الحال.

ـ إنــه الإلهــام الإلهي! طيب، الآن وقــد أديت القَسَــم، إذا أردتم أن أكرّسه بدمي فإنني فاعل ذلك.

ألقى إيساو نظرة خـاطفة عـلى وجوه رفـاقه، ثم ارتسمت ابتسـامة عـلى شفتيه اللتين علتهما آثار لحية خفيفة.

ـ ليس ثمـة سبيل للتغلب عليـك، يا سيـد سـاوا؛ لـذا. . . أرجـو أن تنضمّ إلينا!

ـ أشكركم.

كانت الفرحة التي ارتسمت على محيا ساوا طاغية، وشـع كيانـه بالـبراءة التي تشير إلى الرفض المطلق لتدبّـر العواقب. ولاحظ إيسـاو الآن، وللمرة الأولى، أن أسنـان ساوا لم تكن أقـل نصاعـة من مـلابسـه الـداخليـة التي يغسلها بإصرار بالغ.

تحـول اجتماع الليلة إلى اجتـماع مثمر. فقـد تحدث سـاوا بلهفة، وأقنـع الآخرين بالتخلّي عن الآمال السامية من قبيل إعلان فرض الأحكام العرفية وبالتركيز بكامل قوتهم على عمليات الاغتيال.

إن سيف العدل لا يحتاج إلا إلى التألق مرة واحـدة في الظلام. ولسـوف يحـدِّث البريق الـذي يلتمع نصله الـدنيـا بـأن الفجـر ليس ببعيـد. ولكن الرجال يعلمون أن لمعة واحدة من سيف ياباني تشبه إطلالة الفجر الشاحبـة الزرقة على امتداد قمة جبلية.

مضى ساوا إلى القول بأن القائمـين بعمليات الاغتيـال ينبغي أن يكونـوا ذئاباً متـوحّدة. إنهم في الغـرفة اثنـا عشر رجلاً، ومن ثم فـإن عليهم اتخاذ القرار الجريء على نحو يبعث الـرعدة في الأطـراف، وهو يقضي بقتـل اثني عشر شخصاً. والموعد المضروب في الثالث من كانون الأول (ديسمبر) يمكن أن يظل دونما تغيير، ولكنهم بعد استبعـاد الهجمات عـلى محطات المحـوّلات ينبغي أن يستهدفوا توقيتاً يتزامن مع فترة ما قبل الفجر مبـاشرة، لا التحرك

ليلاً. فالفجر هو الوقت الذي يتمدّد فيه أولئك الأثرياء الأرقون بسبب تقدمهم في العمر، مستيقظين في أسرّتهم. وذلك هو الوقت الذي سيكشف الضوء الخفيف فيه وجوههم، فما يعود هناك مجال للخطأ فيما يتعلق بهويتهم. ذلك هو الوقت الذي يصغون فيه، وقد استقرت رؤوسهم على وسائدهم إلى سقسقة قُبَّرات الصباح الأولى، ويقدّرون كم هو اليوم الأفضل ذاك الذي يلفون فيه اليابان بأسرها برذاذ النَفَس السامّ لحكمهم. ذلك هو الوقت الذي ينبغي استهدافه. الآن يتعينَ على كل رجل أن يتحقق من مخدع ضحيته، ثم يمضي قُدُماً في أداء مهمته بإخلاص متّقد يتعالى لهيبه إلى عنان السماء.

هكذا كانت نصيحة ساوا، وقد أسفر تبيّنها عن تغيير خطة الإغتيال على النحو التالي، للقضاء على الشخصيات الرئيسية في عالم الاقتصاد:

بوسوكي كوراهارا ـ ساوا
تورو شينكاوا ـ إينوما
جويمون نجاساكي ـ مياهارا
نوبوهيسا ماسودا ـ كيمور
شونوسوكي ياجي ـ إيزتسو
هيروشي تيراموتو ـ فوجيتا
زيمباي أوتا ـ مياكي
رايوتشي كاميا ـ تاكاسي
مينورو جوتا ـ إينوي
ساداتارو ماتسوبارا ـ ساجارا
جينجيرو تاكاي ـ سيريكاوا
توشيكازو كوبيناتا ـ هاسيجاوا

تلك كانت خطة توجه ضرباتها إلى كل عائلة رأسمالية كبرى في اليابان.

كل الصناعات الثقيلة التي تسيطر عليها الزايباتسو[1]، الحديد والصلبْ، المعادن الخفيفة، بناء السفن ـ كان هناك اسم بارز في كل قطاع من هذه القطاعات في القائمة. ومن شأن صبيحة ذلك القتل الجماعي أن تحدث، دونما شك، صدمة قاسية يتردد صداها على امتداد الهيكل الإقتصادي للأمة.

ذهل إيساو للبراعة في الإقناع التي أبداها ساوا الذي احتفظ لنفسه بمهمة اغتيال كوراهارا. وكانت حمية إيزوتسو قد أثارتها قوة حرس كوراهارا عينها، ولكن إيساو نحّاه جانباً بقوله: «يقوم آل كوراهارا بصرف رجل الشرطة الذي يحرسهم في التاسعة من كل ليلة، ولا يتركونه يعود إلى موضع حراسته إلا في الثامنة من صباح اليوم التالي، وسيكون الأسهل في الهجوم عليه، لذا فعليك بتركه لعجوز مثلي».

مدَّ ساوا يده، في ثنايا سرواله، وأخرج الخنجر المغمد في الغمد الخشبي الخالي من الزخارف الذي أطلع إيساو عليه قبلاً. وقال:

ـ من الآن فصاعداً سأحضر إلى هنا كل يوم، وسأوضح لكم كيف تنجزون قتل رجل. وسيكون شيئاً طيباً أن نصنع دمية من القش، فالتدريب هو أهم شيء. وسأريكم كيف تقومون بالمهمة... ليكن؟ ها هو ذا عدوك. إنه يرتجف خوفاً. شخص يثير الإشفاق، عادي المظهر، ومن ناحية أخرى ياباني مثلك تماماً. الإشفاق أمر محرّم تماماً! لقد أوغل شر هؤلاء الرجال عميقاً في أغوارهم بحيث لا يعون بأنفسهم. عليك ألا تبعد نظرك عن ذلك الشرّ. أتراه؟ إن كونك تراه أو لا تراه سيحدد ما إذا كنت

(١) لعل القارىء يذكر أننا أشرنا في هامش ص ١٨٤ من الجزء الأول من الرباعية إلى الزايباتسو، وقلنا إنها مؤسسة صناعية كبرى ستزداد جبروتاً وتعملقاً مع التطور الاقتصادي للمجتمع الياباني. والاسم خيالي، بالطبع وإن المرء لا يغيب عنه الاسم الحقيقي لمؤسسة موازية في حياة اليابان الحديثة وتطورها (هـ. م.)

ستنجح أو تفشل. يتعيّن عليك أن تقضي على اللحم الذي يعترض طريقك، عليك أن تنقضّ على الشرّ الذي يقبع في الداخل. دعونا نجرّب هذا! انظروا!

واجه ساوا الحائط، واستجمع قواه وقد تقوست كتفاه.

وفيما كان إيساو يرقب ساوا أدرك أنه لكي يشنّ المرء الهجوم مثله بكل كيانه فإن هناك العديد من الأنهار التي يتعيّن عليه أن يثب عبرها. ومن الغدران الكدِرة التي لا تجف أبداً الغدير الذي يغصّ بالنفاية المتمثلة في النزعة الإنسانية، السمّ الذي ينفثه المصنع القائم عند منبعه. هو ذا هناك، وأضواؤه تلتمع متألقة، فيما هو يواصل العمل، حتى خلال الليل، مصنع المثل العليا الأوروبية الغربية. والتلوث النابع من هذا المصنع يتدنّى بالتوجّه المتحمّس السامي نحو القتل، ويؤدي إلى ذبول خضرة وريقات شجرة الساكاي.

إذن، فليكن كذلك، القفز، الهجوم المباشر! الجمر، ممسكاً عالياً بعصا من الخيزران، يقتحم حاجزاً خفياً دونما وعي بذلك، ويصل إلى الجانب الآخر. فتندلع شرارات من الاحتكاك العاطفي السريع العجيب. وعدو المرء يقوم، كأنما من تلقاء ذاته، بضغط نفسه ثقيلاً في مواجهة ظُبَة سيف المرء، ثم يدفع نفسه إلى الشحوب. وتماماً كما تتشبث البذور الشائكة بردني الرداء حينما يشقّ الرجل طريقه في أجمة، كذلك فإن كيمونو القائم بالاغتيال يخضبه الدم دون أن يلحظ ذلك.

ضغط ساوا مرفقه الأيمن قبالة جانبه الأسفل، ثم بيده اليسرى دافعة إلى الأسفل على رسغه الأيمن لمنع النصل من الالتفاف إلى أعلى، ونصله الجليدي الذي بدا كما لو كان يثب مباشرة من جسمه اللحيم، صرخ: «ياه ه ه !» وضرب الحائط بكامل قوته مخترقاً إياه.

في اليوم التالي بدأ إيساو في تحرّي أمر تصميم دار شينكاوا. كانت الدار

تنتصب على هضبة صغيرة مدورة يحيط بها سور مرتفع. غير أن إيساو اكتشف موضعاً عند قمة منحدر وراء الدار، قُطِع فيه جزء من أعلى السور ليناسب وضع شجرة صنوبر عتيقة في الحديقة. انحنى فرع منها فوق الطريق. سيكون من اليسير الحصول على موطىء قدم هنا، وتَسَلُّق الشجرة، ثم الانزلاق منها إلى الحديقة. وقد أحيط جذعها، بالطبع، بالسلك الشائك تحسّباً لمقدم اللصوص، ولكن إذا تجاهل المرء بعض الجروح فإن الأمر لن يكون شيئاً يؤبه له.

كان آل شينكاوا، في غالب الأحوال، يغادرون الدار في عطلات نهاية الأسبوع، ولكن لا شك في إمكانية العثور عليهم غافين في الدار ليلة الجمعة. ولما كان الشريف وزوجته شديدي الولع بالعادات الإنجليزية فربما كانا يلوذان بفراش مزدوج. وعلى أية حال فإنه من المؤكد أنهما يتقاسمان مخدعاً واحداً. ومن شأن دارة كبيرة كهذه أن تضمّ العديد من المخادع، ولكن بدا من المحتمل أن الزوجين شينكاوا سيستخدمان غرفة تتيح لهما إطلالة جنوبية بهيجة. غير أن الإطلال على البحر لا يتاح إلا من الشرق؛ ومن ثم أحسّ إيساو بأن غرفتهما تقع في الركن الجنوبي الشرقي من الدار لتجمع بذلك بين الراحة والمنظر الجميل.

لم تكن محاولة وضع رسم سريع لتصميم المنزل بأجنحته العديدة بالشيء الهيّن. وبالمصادفة اتفق أن إيساو اطلع على عدد قديم من أعداد مجلة «بونجاي شونجو» لفت نظره فيه مقال حافل بالتكلّف كتبه تورو شينكاوا. وقد كان شينكاوا واحداً من أولئك الذين طالما تباهوا بقدراتهم الأدبية، ولكن عبارات من نوع «زوجتي قالت هذا» و«زوجتي فعلت ذاك» كانت ملموسة في أسلوب كتابته. وربما لم يكن هذا إلا تكلّفاً لا يعيه كاتبه. ولكن ربما كان من قبيل الإلماع إلى انتقاد العرف الياباني القائم على تجنب الإشارات المباشرة إلى أهل المرء.

حمل المقال كعنوان له الكلمات «جيبون على امتداد الليل»[1]. وقد استطاع إيساو أن يستخرج منه هذا المقطع البالغ الأهمية:

«يعدّ عمل جيبون، بكل المعايير، رائعة متميّزة. وغني عن البيان أنني أقل كثيراً في الثقافة واللماعية من أن أدرك حكمته. ولكني قد أستطيع، دونما تجاوزٍ، الذهابَ إلى القول إنه ما من ترجمة يابانية يحتمل أن توحي بالأهمية الصرحية لـ (أفول وسقوط الإمبراطورية الرومانية). وتعدّ طبعة عام ١٩٠٩ ذات الصور العديدة، وقد تولى إعدادها البروفسور باري، وهي تقع في سبعة مجلدات، دون تبسيط للنص الأصلي، عملاً لا نظير له على الإطلاق. وعندما أسلم نفسي لمتعة قراءة جيبون، على الضوء الذي يتيحه المصباح المجاور لفراشي، فإن الليل يوغل حتماً في مسيره فيما أواصل القراءة، ويصبح صوت تنفس زوجتي الغافية إلى جواري، وحفيف صفحات طبعتي من كتاب جيبون في طبعة باري، وتكتكة ساعة أثرية ابتيعت من متجر لوروا الباريسي، تدريجياً، الأصوات الوحيدة التي تشغل صمت مخدعي مشكّلة ضرباً من الثلاثي الليلي الرقيق. ويغدو المصباح الصغير الذي يضيء صفحات جيبون، في الدار بأسرها، الشعلة الذهبية الأخيرة التي تنطفىء كل ليلة».

عندما قرأ إيساو هذا تصور كيف أنه إذا تسلّل إلى الحديقة تحت جنح الظلام فإن بمقدوره أن يحتل موقعاً في الركن الجنوبي الشرقي من الدارة، ثم إذا رأى ضوءاً يشعّ من ستار نافذة، وإذا واصل الضوء اتّقاده بعد

---

(١) جيبون، إدوارد (١٧٣٧ ـ ١٧٩٤) المؤرخ البريطاني الشهير الذي يستمد شهرته من العمل المشار إليه في المتن، والذي اعتبر منذ طبعته الأولى رائعة جيبون، والعمل الأكثر صموداً في موضوعه، رغم صدور مائة كتاب، قبل وفاة مؤلفه، تعارضه وتفنّد حججه. وطبعة باري المشار إليها في المتن صدرت أجزاؤها السبعة في لندن، منجّمة، خلال الفترة من ١٨٩٦ إلى ١٩٠٠ (هـ. م.)

انطفاء كل الأضواء الأخرى فإنه سيكون بمقدوره تمييز غرفة الشريف. ولكي يحقّق هذا عليه أن يتسلل إلى الحديقة في وقت متأخر من المساء، وأن يخفي نفسه هنالك إلى أن يختفي آخر ضوء. ومثل هذا النوع من المقارّ سيكون له بلا شك حارس ليلي يجوب أرجاء الحديقة، ولكن حمى الأشجار سيكفل له مكاناً مناسباً يختفي فيه.

بعد التفكير في المشكلة حتى هذه النقطة، ساور إيساو شك من جانب آخر. ما أغرب أن يقوم الشريف الذي يعرف الجميع أنه معرّض لخطر دائم، بالكتابة عامداً في صحيفة سيّارة بطريقة تعرّضه للمزيد من الخطر. ترى أيمكن أن يكون من المحتمل أن هذا المقال قصد به أن يكون فخّاً؟

- ٢٩ -

مع اقتراب شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من نهايته ألفى إيساو نفسه في صراع مع الرغبة في وداع ماكيكو كيتو على نحو يبدو عرضياً ومألوفاً. وكان قد أهملها مؤخراً؛ إذ أخذ الانشغال منه كل مأخذ، وتبدلت ظروف مشروعه بصورة متواترة، ولم يكن بمقدوره صرف الوقت أو المشاعر لأي شيء آخر، ثم كان في الوداع بعد اتخاذ قرار الموت ما يثير حرجه. وفضلاً عن ذلك فقد خشي أن يبدو بالغ التوتر أمام كيواكي بحيث تغلبه مشاعره القوية على أمره.

ساوره شعور بأن أجمل شيء هو أن يلقى حتفه دون أن يراها، ولكن القيام بذلك، على نحو ما تنظر الدنيا إلى الأمور، سيكون من قبيل مجافاة السلوك القويم. وبالإضافة إلى ذلك فإن كلاً من الشبّان سيمضي لملاقاة حتفه حاملاً معه بتلة من زهور السوسن المقدّسة التي قدّمتها لهم ماكيكو. ومن هنا فإن ماكيكو هي بمثابة الروح الملهمة التي ستطلّ من علٍ على الصراع المكرّس إلهياً، ويتمثل في «حرب زهور السوسن». كيف إذن يمكن أن تسير الأمور على نحو مخالف لمضيّ إيساو إلى ماكيكو، باعتباره موفداً من رفاقه ليودعها وداعاً غير ملموس؟ وفي نهاية المطاف منحته هذه المخاطرة الشجاعة.

أخذت الرعدة إيساو حيال احتمال ألا يجدها في الدار إذا ما قام بزيارة فجائية، وعلى الرغم من أنه أدرك أنه مما ينتهك الطابع العارض والعفوي الذي أراد أن يدبّره للأمر فقد أقدم على الاتصال هاتفياً، للتأكد من أن ماكيكو ستكون في الدار. وقد تصادف أن أسرته تلقت في ذلك اليوم هدية

مؤلفة من كمية من المحار، وكان بمقدوره التذرع بالقول بأنه يريد إحضار بعض من المحار لهم.

اعتاد طالب سابق من طلاب أبيه، يقيم في هيروشيما، أن يبعث بالمحار كل عام في مثل هذا الموسم، وسيكون من الطبيعي أن تطلب منه أمه أن يأخذ بعضاً من المحار إلى آل كيتو الذين عاملوه بمثل هذا اللطف. وكانت تلك المصادفة من حسن الطالع حقاً.

ارتدى زيه المدرسي وانتعل قبقاباً خشبياً وغادر الدار حاملاً برميلاً صغيراً مليئاً بالمحار. ولما كان الوقت قد تجاوز بكثير موعد تناول طعام العشاء فإنه لم يكن هناك ما يدعو إلى التعجّل.

امتعض إيساو، باعتباره رجلاً أقسم على ملاقاة حتفه ويوشك على وداع لا يحس به الآخرون، من تنافر هويته مع مقصده. وبدا صوت الإرتطام المتناهي من البرميل الصغير، فيما هو يمضي في طريقه، مثل أمواج خفيفة ترتطم بقاعدة صخرة حادّة. وراح يتخيل البحر وقد دفع به في ذلك الحيّز الصغير المظلم، وقد استسلمت نضارته للتحلّل.

ربما قد تكون هذه هي المرة الأخيرة التي يسلك فيها هذا الدرب المألوف. وقد يكون هذا هو وداعه للسلّم ذي الدرجات الست والثلاثين التي يعرفها حق المعرفة. وفيما هو يرتقي هذه الدرجات بدت له وكأنها تنداح إلى أسفل كالشلال. بدت برودة الليل وكأنها توشك أن تجمّد العظام، على الرغم من أن الريح لم تكن تهبّ. وفجأة، ساوره شعور غريب بأنه يريد أن يتحوّل، ويلتفت إلى الوراء نحو الطريق الذي قدم منه. وعلى المنحدر نمت اثنتان أو ثلاث من نخيل القنب إلى الجانب الجنوبي من الدار. وبدا اللحاء المشعر الذي يكسو جذوعها وكأنه يشتبك مع النجوم في السماء الشتوية. ولم تكن هناك إلا أضواء قليلة في الدور المترامية في الأسفل، ولكن طنوف المتاجر القريبة من محطة هاكوساناماي راحت تتألّق

على نحو برّاق. لم ير الحافلة، ولكن الضوضاء المزعجة التي كانت تحدثها تردّدت في الليل وكأنها جارور قديم يتمّ جذبه.

بدا المشهد عادياً تماماً. ولم يكن هناك شيء له علاقة بالموت أو سفك الدماء. بل إن مشهد أشجار البونسيه الأربع أو الخمس، الممتدة في صف منتظم على الإطار الآخذ في الجفاف، خارج الدار التي كانت مصاريعها مغلقة بالفعل، أوحى له بالكيفية التي ستواصل بها الحياة مسارها العادي بعد موته. وداخله يقين من أن موته سيكون على الدوام بعيداً عن إدراك من يقطنون هذه الدار. ولن تقضّ حال الغليان التي سيحدثها هو ورفاقه مضجعهم.

اجتاز بوابة كيتو ودق الجرس، فأزاحت ماكيكو الباب جانباً في الحال، وكأنما كانت تنتظر في الدهليز.

في أي وقت آخر كان حرياً به أن يخلع قبقابه ويلج الدار، ولكنه خشي إذا هو أطال الحديث مع ماكيكو أن تشي ملامحه بانفعالاته، ولذا فقد سلمها البرميل الصغير وقال:

ـ طلبت مني أمي إحضار هذا إليك. إنه يضمّ عدداً من المحارات التي تلقّيناها من هيروشيما.

ـ شكراً لك. ليست تلك حتماً هدية ممّا يتلقاه المرء كل يوم!

طيب، إذن، هلمّ إلى الداخل!

ـ لا أستطيع اليوم ذلك، أرجو أن تعذريني!

ـ لِمَ لا؟

ـ لديّ الكثير من المذاكرة.

ـ يا لك من ملفّق للأكاذيب! منذ متى بدأت العكوف على كتبك على هذا النحو؟

أصرّت ماكيكو على بقاء إيساو، ثم اختفت في الدار، وسمع إيساو صوت القائد وهو يطلب منها دعوته للدخول.

أغمض إيساو عينيه وأسلم نفسه في لهفة لصورة ماكيكو وقد كانت ماثلة أمامه منذ لحظة. محياها الجميل الباسم ببشرته الرقيقة ـ أراد أن يختزن هذه الصورة في فؤاده على نحو ما هي عليه دون أني تشوبها شائبة، ولكنه إن كان متلهّفاً لذلك بأكثر مما ينبغي فإنها ستتشظى كمرآة انزلقت من قبضة المرء.

حدَّث نفسه بأن أفضل شيء هو الرحيل في الحال. وكان على يقين من أنه إذا قام بذلك فإن آل كيتو لن يروا في رحيله المفاجىء إلا قليلاً من الخشونة الصبيانية، وسيدركون، فيما بعد، مغزاه باعتباره وداعه لهم. وقد أفاد ضوء المدخل الخافت في إخفاء التعبير الذي ارتسم على محياه.

برز بياض من الحجر المسطح، حيث يخلع المرء نعليه، وسط بحيرة الظلمة المعتمة التي أطبقت على مسطح أرضية المدخل الذي بدا لإيساو وكأنه مرفأ تلقي فيه السفن مراسيها. كان هو نفسه سفينة توشك على الإقلاع. وكانت حافة الأرضية على هذا هي الرصيف المستقيم الذي يُستقبل فيه الناس، أو لا يسمح لهم بالرسوّ، أو تلوّح لهم الأيدي مودّعة. وكان هو سفينة محمّلة بشحنة كاملة من الانفعالات، تنطلق خفيضة في بحر الموت الشتائي المظلم.

انعطف إيساو ليغادر المدخل، في حين عادت ماكيكو إلى الظهور، فصاحت به:

ـ ما هذا؟ لِمَ تذهب؟ بعد أن طلب أبي إدخالك!

ـ أرجوك، اعذريني!

قالها إيساو في معرض الردّ جاراً الباب المنزلق جانباً ليغلقه وراءه. وراح قلبه يدق بعنف، وكأنما أنجز شيئاً بالغ الصعوبة. أحسّ

بالرغبة في الركض. ولكنه فكّر في أنّ الركض لن يكون أمراً مناسباً وأنه سيقضي على كل شيء. وسيكون من المناسب أن يغادر سالكاً طريقاً آخر. وبدلاً من العودة عن طريق هبوط الدرج فإن بمقدوره الانعطاف نحو مؤخرة الدار باتجاه مزار هاكوسان. ويمكنه العودة إلى داره باجتياز حرم المزار. ولكنه فيما كان يوشك على الانعطاف إلى هذا الدرب الذي بدا مقفراً، في هذا الوقت المتأخر من الليل، والذي يفضي عبر هاكوسانماي إلى المزار نفسه، لمح وراءة شال ماكيكو الأبيض. فقد كانت تتبعه، ولم تكن تجدّ في أثره على الإطلاق، وإنما تسير بالمعدل ذاته.

واصل إيساو السير إذ كان قد اتخذ قراراً بألاّ يرى ماكيكو مرة أخرى. كان يجتاز درباً على امتداد حافة حديقة هاكوسان الواقعة في مؤخرة المزار.

ولكي يمرّ عبر أراضي المزار عليه أن ينحني ويمر تحت ممرّ مرفوع، عند مستوى آخر أمامه مباشرة، يربط القاعة الأمامية بمقرّ المزار. وتألق الضوء على نحو خافت عبر الزخارف الخشبية المتقاربة للممرّ.

أخيراً نادته ماكيكو فاضطر للتوقّف. ولكنه أحسّ بأنه إذا تطلّع إلى الوراء، ونظر إليها، فإن حدثاً مشؤوماً قد يقع.

وبدلاً من أن يردّ عليها إيساو انعطف وسار إلى قمة تلّ صغير مواجه للحديقة. كانت سارية علم تنتصب فوق القمة، وقد شكلت واجهة التل منحدراً حادّاً تكسوه الأشجار والشجيرات.

وأخيراً سمع صوت ماكيكو الهادىء يندّ عند متسوى كتفه.

-لِمَ أنت غاضب؟

تردد صوتها في الظلام مشحوناً بالقلق، فاضطر إيساو إلى مواجهتها. كان شالها الأبيض الفضي يخفي فمها. ولكن الضوء الخافت المترامي من

المتاجر البعيدة كشف عن الدموع المتألقة في عينيها. أحسّ إيساو وكأنه كان يختنق.

ـ لست غاضباً من شيء.

ـ لقد جئت لتودّعني. هذا صحيح. أليس كذلك؟

نطقت ماكيكو بهذا الاستنتاج غير المتفق مع مقدّماته، بمزيد من التأكيد، وكأنما تضع قطعة شطرنج بيضاء على مربع جديد.

لم يحر إيساو ردّاً وهو يواصل التحديق في المشهد المترامي في الأسفل. وقد شمخت شجرة زلكوفا قوية تعرت جذورها العليا، بغصونها لتكشف عن شكل زخرفيّ رقيق عبر محيا الليل، ولتحجب النجوم التي تحول أغصانها بين العين والنجوم. وانتصبت اثنتان أو ثلاث من أشجار البرسيمون على حافة الصخرة، وقد بدت وريقاتها القلائل سحماء في مواجهة السماء. وفيما وراء الوادي ارتفع مستوى الأرض مجدّداً، وألقى تألّق منطقة التسوّق بغمامة على طنوف الدور الممتدة على قمة التلّ. من هنا لاح عدد كبير من الأضواء مواصلاً توهّجه، ولكن الأثر الذي تحدثه هذه الأضواء في النفس لم يكن على الإطلاق الأثر الذي تحدثه مدينة تعجّ بمن فيها. وإنما بالأحرى كانت المواضع المتألقة تشبه أحجاراً صغيرة ملقاة في قاع غدير.

قالت ماكيكو مرة أخرى:

ـ هذا صحيح. أليس كذلك؟

في هذه المرة تردّد صوتها قريباً منه للغاية، مشعلاً اللهب في وجنته. وعندئذٍ شعر بيدي ماكيكو تضغطان على مؤخرة عنقه. بدت أصابعها الباردة وكأنها نصل سيف في مؤخرة قفاه الذي غطاه شعره المقصوص. وعندما يحين وقت تلقي الضربة الأخيرة، عندما يرتجف عنقه في انتظار

النصل الذي سيهوي عليه، فلا شك في أنه سيحس ببرودة كتلك. أخذت الرعدة إيساو، ولكن عينيه لم تفصحا عن شيء.

ومع ذلك، فلكي تمدّ ماكيكو ذارعيها وتطبق بيديها على عنقه، على نحو ما تفعل الآن، يتعينّ أن تكون واقفة أمامه. وهذا ما لم يفهمه إيساو، وسواء أكانت سريعة على نحو لا يصدق، أو بطيئة على نحو يستعصي على الإدراك، فلا بد أنها تحركت أمامه ولم يرها.

لم يكن محيا ماكيكو مرئياً بأكثر مما كان عليه قبلًا. ولم يكن ما استطاع رؤيته إلا شيئاً أشدّ سواداً من الليل، الوفرة الثرية لشعرها عند مستوى صدره. فقد دفنت وجهها هنالك. وبدا أن العطر المتصاعد منها يحجب عنه الرؤية. وتملكت تلك الرائحة ناصية حواسه تماماً فارتجفت قدماه في قبقابه الذي صدر عنه صوت خفيض. وبدا أن قدميه تخونانه، وشأن رجل يتشبّث به رجل آخر على شفا الغرق، مدّ يده مدافعاً عن نفسه واحتوى ماكيكو بين ذراعيه.

عانقها، ولكن ما أحس به تحت معطفها الخفيف لم يكن إلا صلابة زنارها السميك المشدود بإحكام، بطياته المبطنة، وقوسه الهائل. وكانت تلك مادة يبدو أنها تضعه على مسافة من ماكيكو تفوق كثيراً المسافة التي كان عندها قبل أن يعانقها. ومع ذلك فإن ما نقله هذا الإحساس إليه كان هو الواقع الكامن وراء كل تصوّراته الذهنية عن جسم المرأة. وما من عري كان يمكن أن يبدو أشدّ تجرّداً.

هنا بدأت نشوته فجأة. بدا الأمر كما لو أن فحلًا هارباً قد انطلق من عقاله. وتدفقت قوة وحشية في ذراعيه وهو يمسك بالمرأة. ضمّها إليه بقوة أكبر، شاعراً بجسميهما وهما يرتجفان، وكأنهما شراع سفينة تغوص في الماء. رفع الوجه الذي دفن في صدره. لقد رفعت ماكيكو وجهها! كان

التعبير المرتسم على محياها هو، على وجه الدقة، ما حلم ليلة إثر أخرى بأنه سيكون عليه حينما يودّعها الوداع الأخير. وتناثرت الدموع على ذلك الوجه الجميل الذي خلا من أي أثر لمواد التجميل. وتطلعت عيناها المغمضتان إلى إيساو بقوة تفوق كثيراً قوة الإبصار. وكان وجهها يشبه فقاعة رقيقة مضت تطفو الآن أمام عينيه، بعد أن طلعت من عمق يستعصي على التخيّل. وفي الظلام ارتجفت شفتاها فيما كانت تتنهّد مراراً وتكراراً. ولم يستطع إيساو تحمّل أن تكون شفتاها على مثل هذا القرب منه. ولكي ينفيهما بعيداً كان كل ما استطاع القيام به هو أن يمسّها بشفتيه. وعلى نحو يماثل في تلقائيته سقوط وريقة شجر واستقرارها فوق وريقة أخرى، حقّق إيساو قبلة عمره الأولى والنهائية. وقد ذكرته شفتا ماكيكو بوريقات حمراء من وريقات أشجار الكرز التي رآها في ياناجاوا. وقد أذهلته العذوبة التي بدأت بالتدفّق في رفق في كيانه لدى التقاء فميهما. لقد ارتجف العالم عند نقطة التقاء شفاههما، ومن هذه النقطة شعَّ التحوّل الذي غيّر لحمه ذاته. ووصل الإحساس بالانغماس في شيء دافىء وناعم على نحو يستعصي على الوصف إلى ذروته عندما أدرك أنه قد ارتشف بعضاً من رضاب ماكيكو.

عندما ابتعدت شفاهما تشبّث أحدهما بالآخر وبكيا.

ـ أخبرني بشيء واحد لا غير. متى سيحدث الأمر؟ غداً؟ بعد غد؟

ولأن إيساو أدرك أنه لو كان متمالكاً نفسه لما أجاب على مثل هذا السؤال قط، فقد قال لها في الحال:

ـ سيكون ذلك في الثالث من كانون الأول (ديسمبر).

ـ بعد ثلاثة أيام من الآن. هل أراك ثانية؟

ـ لا. أخشى أن يكون ذلك مستحيلاً.

وشرعا في السير وقد لفهما الصمت. واختارت ماكيكو طريقاً دائرياً، فاضطر إيساو إلى اتّباعها عبر فضاء مفتوح محدد في حديقة هاكوسان، وعبر

درب مظلم على امتداد المباني الخارجية التي يُحتَفظ فيها بمحفّات المزار المقدّسة.

قالت ماكيكو وهي إلى جواره تحت جنح الظلام:

ـ أعرف ما سأقوم به. بمقدوري أن أستقلّ القطار إلى ساكوراي غداً، والذهاب إلى مزار أوميوا. سأصلّي في مزار ساي لكي يواكبكم الحظ الطيّب في المعركة. وسأحضر تعويذة لكل منكم، وسأحرص على إيصالها لكم في الثاني من كانون الأول (ديسمبر). كم تعويذة ينبغي أن أحضر؟

ـ إحدى عشرة... كلا، فهناك اثنا عشر شخصاً في جماعتنا.

حال نوع من الحياد دون أن يجرؤ إيساو على أن يحدّث ماكيكو بأن كل رجل سينفّذ مهمته وهو يخفي في ثيابه بتلة من زهور السوسن التي كانت قد قدّمتها لهم.

دخلا معاً المنطقة المضاءة الواقعة أمام المزار، ولكن لم يبدُ ما يشير إلى وجود أحد غيرهما. ولما لم تكن ترغب في أن تسبّب أية متاعب في الأكاديمية فقد سألته عن كيفية الوصول إلى مقرّهم السرّي، فكتب توجيهات الوصول إلى هناك على رقعة صغيرة من الورق، وأعطاها إياها.

مثل هذا الضوء الذي كان هنالك لم يكن له إلا مصدر واحد هو مصباح ليلي صغير تبرع به استديو للتصوير في هاكوسانشيتو. وقد ألقى وهجاً خافتاً على التماثيل الحجرية للكلاب الحارسة، وعلى اللافتة ذات الحروف الذهبية، ومجسم التنين الذي ينفث النار، والدرج الخشبيّ المفضي إلى المزار. ولم يبرز بوضوح إلا الرايات البيضاء المعلّقة في الحبال المقدّسة. وعلى الرغم من ضعف الضوء، إلا أنه وصل حتى الجدار الأبيض لمقر المزار، على بعد عشرين قدماً. وتركت ظلال وريقات أشجار الساكاكي أثراً جميلاً على الجدار.

ردّد كل منهما صلاته في صمت، ثم مرّا تحت «التوري» وافترقا عند أعلى الدرج الحجري الممتدّ.

- ٣٠ -

في صبيحة أول كانون الأول (ديسمبر) تظاهر إيساو بأنه في طريقه لتلقّي محاضراته، ومضى مباشرة إلى الملجأ. وكان العميد قد بعث ساوا في مهمة، فعجز عن حضور الاجتماع. ولكن العشرة الآخرين كانوا حاضرين جميعاً. لم يبقَ على التحرك إلا يومان، وعلى الرغم من أنه كان من الضروري إنجاز بعض التفاصيل فإن الغرض الرئيسي من الاجتماع كان تجديد عزم الجميع على الإقدام على الانتحار مهما كانت صعوبة ذلك، عقب توجيه الضربة مباشرة.

بدت التعبيرات المرتسمة على وجوه الرفاق بالنسبة لإيساو واضحة وممتزجة بالإصرار. وكانت الجماعة قد باعت سيفين عاديين وابتاعت ستة سيوف قصيرة. وهكذا أصبح لكل منهم خنجره الحادّ النصل. ولكن أحدهم اقترح، كإجراء احترازي إضافي، أن يكون مع كل منهم كذلك خنجر يخفيه في طيّات ملابسه، فوافق الجميع على هذا الاقتراح. وكانوا يعلمون أن السم هو أكثر الوسائل فعالية في إنجاز انتحار سريع، ولكنهم كرهوا هذه الوسيلة النسائية لوضع نهاية للحياة.

جرت العادة على إغلاق باب الدار حينما تعقد الجماعة اجتماعاً. وعندما تردّد صوت طرق على الباب افترض الجميع أن إيساو قد جاء، في نهاية الأمر، مختلساً الوقت من المهمة التي أرسل لإنجازها.

هبط إيزوتسو الدرج ونادى:

ـ السيد ساوا؟

ـ نعم.

هكذا جاء الردّ في صوت خفيض، ولكن عندما نحى إيزوتسو الباب جانباً فاتحاً إياه اقتحمه رجل غريب متجاوزاً إياه، وشرع يرقى الدرج عدواً، وهو ما يزال ينتعل حذاءه.

ـ ابتعدوا!

صاح إيزوتسو فيما كان رجل ثان ثم ثالث يندفعان ويلويان يديه وراءه.

ألقى رجال أمن كانوا قد أطبقوا على الدار من الخلف، القبض على الرفاق الذين حاولوا الهرب بالقفز إلى الفناء من السقف المنحدر. وشهر إيساو أحد الخناجر أمامه تأهباً لدفعه في بطنه، ولكن أحد رجال الأمن أمسك برسغه، وفي غمرة الصراع الذي أعقب ذلك، أصيب رجل الأمن إصابة أسفرت عن قطع إصبعه، وصارع إينوي رجال الأمن طارحاً أحدهم أرضاً، ولكن اثنين أو ثلاثة آخرين ثبتوه جاثمين عليه.

وهكذا تم تقييد الرفاق الأحد عشر واقتيادهم إلى مخفر يوتسويا. وفي أصيل اليوم ذاته ألقي القبض على ساوا، فيما كان عائداً إلى الأكاديمية.

- ٣١ -

اعتقال اثني عشر من غلاة القوميين في مخبأ
مصادرة سيوف ومنشورات تحريضية
السلطات تؤكد وجود مؤامرة خطيرة

كان ردّ فعل هوندا الأول عندما رأى هذه العناوين في صحف الصباح، هو «مرة أخرى؟» ولا شيء أكثر من ذلك. ولكن سكينته تمزقت إرباً على حين غرة عندما وقعت عيناه على اسم إيساو إينوما في قائمة الذين تمّ اعتقالهم. وأراد أن يسجل مكالمة مع طوكيو على الفور ليحادث إينوما في الأكاديمية، ولكن الحذق والإلمام بأحوال الدنيا منعاه من هذا، وكانت العناوين التي نشرت في صباح اليوم التالي أكثر بروزاً:

التفاصيل الكاملة لقضية الريح الإلهية لمعهد شوا
الهدف توجيه ضربة قاصمة إلى عالم المال
كل عضو كلّف باغتيال رجل
قائد المجموعة شاب في التاسعة عشرة

ظهرت للمرة الأولى صورة لإيساو، وكان تنفيذها سيئاً، ولكن لم يكن هناك موضع للخطأ بشأن هاتين العينين الصافيتين على نحو لا يصدق، اللتين أثر تألقهما في نفس هوندا عندما زار الفتى وأبوه داره لتناول طعام العشاء، هاتين العينين بنظرتهما النفّاذة التي لا يمكن قطّ أن تندمج في إطار المجاملات العادية. فلا شك أنهما كانتا تتطلعان إلى هذا اليوم.

ساور هوندا شعور متأخر عن وقته بالأسف حيال ميله إلى أن يكون

قادراً على الرصد فحسب، بعد أن يكون أمر ما قد وقع بين مخالب القانون.

لقد تجاوز إيساو بالفعل الثامنة عشرة من عمره؛ ومن ثم فلن يكون من الممكن أن يعامل أمام القانون معاملة القاصر الذي لم يبلغ سن الرشد. وقد جاء في تقرير الصحيفة أن المجموعة بأسرها، باستثناء ساوا الغريب الأطوار الذي يجتاز منتصف سنوات العمر، مؤلفة من شبان يدنون من، أو هم في، أوائل العشرين من العمر، ومن هنا فإن البعض سيحاكم باعتباره قاصراً، دونما شك، ولكن إيساو لم تكن أمامه فرصة لهذا.

تصوّر هوندا سوء موقف قانوني ممكن. وقد بدا أن ثمة أمراً غائباً عن تقارير الصحف التي يلفها الغموض. وعلى السطح بدت هذه القضية مجرّد مؤامرة اغتيال طائشة حاكها بعض الفتية المندفعين، ولكن التحقيق قد يكشف عن مؤامرة أكثر عمقاً وأوسع نطاقاً بكثير.

وفي حقيقة الأمر أن السلطات العسكرية، في غمار رغبتها في تفنيد الشائعات وتخفيف حدة التحامل الذي أثارته حادثة الخامس عشر من أيار (مايو)، قد أصدرت بياناً في صحيفة ذلك اليوم جاء فيه: «ليس لأي ضابط بالجيش أية صلة، كائنة ما كانت، بهذه الحادثة الأخيرة. ومن سوء الحظ أنه في كل مرة تقع فيها حادثة من هذا النوع ينبري من يستعدون لتصديق أن الضباط الشبان ينبغي أن يكون لهم ضلع فيها، وقد تم إبداء أعظم قدر من الاهتمام بالتطبيق الصارم لقواعد الانضباط في كل وحدة من وحدات القوات المسلحة. والجمهور على تمام العلم بالطاقة الفذة التي أظهرناها في ترتيب بيتنا من الداخل».

على هذا النحو جاء البيان، غير أن الأثر الذي تركه لم يتجاوز إثارة الاشتباه، أياً كان مدى تجرّده من الأساس، في أن قوة ما أكبر كانت تقف وراء المتآمرين.

وإذا ما اتّسع نطاق القضية، وكشف عن أي قصد يندرج تحت المادة السابعة والسبعين من قانون العقوبات، بـ «تخريب الدستور»، فإن الموقف سيغدو حرجاً. ولم تكن الصور التي رسمتها الصحف واضحة عما إذا كان جانب عدم اكتمال الأركان أو عنصر سبق الإصرار هو الذي سيكون الأكثر بروزاً حينما تحال القضية على المحكمة. وتذكر هوندا كتاب «عصبة الريح الإلهية» الذي قرأه بناء على إلحاح إيساو. ولم يستطع دفع شعور ساوره بسوء اختيار إيساو ورفاقه عندما أطلقوا على أنفسهم اسم «عصبة الريح الإلهية لعهد شوا».

في تلك الليلة حلم بكيواكي، وبدا أن هذا الأخير يطلب عونه، وأنه يبكي موته المبكّر. وعندما استيقظ من نومه كان قد حسم أمره.

لم تبدُ سمعة هوندا في المحكمة محلّقة تماماً كعهدها. وعندما كان يحادث زملاءه كانت طريقتهم في الردّ منذ عودته من طوكيو في الخريف تبدو على نحو ما أكثر فتوراً. وذهبت الشائعات الملتفة بالغموض إلى القول إنه إما المتاعب العائلية وإما المتاعب النابعة من الوقوع في هوى امرأة قد جعلت هوندا رجلاً آخر. ولم تعد فطنته التي كانت في السابق تلقى أعظم التقدير، ممّا يؤبه به كثيراً. وعلى الرغم من أن كبير القضاة لزم الصمت حيال الأمر، فقد أحس بالحزن عندما أدرك الموقف. فلم يكن هناك من يفوقه تقديراً لعلوّ نجم هوندا.

بالنسبة للغالبية العظمى من الناس، ترتبط الأحلام الرومانسية، على نحو حتميّ بامرأة. وهكذا فإنه عندما شخّص زملاء هوندا بصورة حدسية المحنة التي حلّت به، منذ رحلته في الخريف إلى طوكيو، على أنها علاقة بامرأة، كانوا على الأقل على صواب في إضفاء لمسة رومانسية على الأمر. وكان حدسهم متميّزاً حقاً في تصوير هوندا، في حذق، باعتباره رجلاً ضلّ عن درب المنطق وراح يضرب بلا هدف في درب عاطفةٍ ما يكسوه

العشب. ولكن ما قد يمكن توقّعه من شاب في العشرين من عمره نظر إليه باعتباره أمراً لا يليق برجل في سن هوندا، على الرغم من الطابع الإنساني لعثرته. وعلى هذا تركز الجانب الأعظم من الانتقاد وعدم الموافقة.

وباعتبار زملاء هوندا من المشتغلين بمهنة يمثّل العقل فيها الجوهر، فإنهم ما كان يمكن أن يُتَوَقَّع منهم أن ينظروا باحترام إلى أي رجل تمسّه عدوى مرض النزعة الرومانسية، وإن لم يدرِ بذلك. وعلى الرغم من أن هوندا لم يمضِ إلى حدّ اقتراف أية جريمة فإنه من المؤكد أنه لوَّث نفسه موقف «غير صحي».

ولكن أكثر الجميع اندهاشاً، حيال هذا الوضع، لم يكن إلا هوندا نفسه. فوكر النسر الذي بناه على ارتفاع شاهق، على شكل هيكل الشرعية التي غدت طبيعة ثانية له، يتهدّده الآن، وهو شيء ما كان يمكن التنبؤ به قطّ وفق فيضانات الأحلام بفيض من الشعر. وأما أكثر الأمور إثارة للرهبة فهو أن الحلم الذي هاجمه لم يدمّر علياء العقل الإنساني الذي آمن به على الدوام، ولا استمتاعه الفخور بالحياة، مع إبداء اهتمام أكبر بالمبادىء منه بالظواهر. وكان الأثر الذي تركه ذلك هو تقوية معتقداته وزيادة استمتاعه؛ ذلك أنه كان بمقدوره أن يلمح، شاهقاً على نحو متألّق وراء مبادىء هذا العالم، سوراً للمبدأ لا مجال لإحداث ثغرة فيه. وبمجرد رؤيته إياه فإن هذه اللمحة من المطلق تتجلّى باهرة حتى ليعجز عن الرجوع إلى الإيمان اليومي الجهم الذي عرفه من قبل. ولم يكن هذا ليعني التراجع، وإنما التقدم، لم يكن ليعني التطلع إلى الوراء، وإنما النظر إلى الأمام. ومن المؤكد أن كيواكي قد ولد من جديد في إهاب إيساو. وانطلاقاً من هذه الحقيقة شرع هوندا متجاوزاً نوعاً واحداً من القانون، في رؤية الحقيقة الجوهرية للقانون.

تذكّر فجأة أنه في ريعان شبابه، ومنذ الوقت الذي سمع فيه عظة كبيرة

كاهنات معبد جيشو، فقدت فلسفة القانون الطبيعي الأوروبية جاذبيتها بالنسبة إليه، واجتذبته كثيراً قوانين مانو الهندية العتيقة التي تمتدّ موادّها حتى إلى البعث. وقد ضرب شيء ما جذوره في ذلك الوقت في فؤاده. إن قانوناً تتمثّل طبيعته في عدم فرض النظام على الفوضى، وإنما الإشارة إلى المبادىء التي تقبع في أعماق الفوضى، وهكذا تضفي شكلاً على مجموعة من المبادىء القانونية، تماماً كما تلتقط صفحة الماء صورة القمر ـ مثل هذا القانون يمكن أن ينبع من نبع أكثر عمقاً من العبادة الأوروبية للعقل التي تكمن في قرار القانون الطبيعي. ومن هنا فربما كان شعور هوندا الغريزي سليماً. ولكن تلك لم تكن السلامة التي يُتَطَلَّع إليها لدى قاضٍ هو حارس القانون الإجرائي. لقد كان بمقدوره أن يتخيّل، في يسر، إلى أيّ حد كان مما يثير القلق والاضطراب أن يكون هناك رجل من هذا النوع من العاملين معه في مبنى واحد. إنه أمر يشبه وجود قمطر يعلوه الغبار في غرفة تهيمن عليها روح النظام الصارم. ومن وجهة نظر العقل فإنه ما من شيء يشبه البقع على ملابس رجل رث قدر الوقوع في قبضة الولع بالأحلام. فالأحلام تحيل المرء، بشكل ما، إلى شخص مجعّد المظهر. ياقة ملوثة، ظهر قميص مجعّد، وكأنما ارتدي خلال النوم، سروال مترهل ـ ثمة شيء مماثل لهذا يسيطر على رداء الروح. وعلى الرغم من أن هوندا لم يقل شيئاً، ولم يفعل شيئاً، فإنه في وقتٍ ما وصل إلى حد انتهاك قواعد الأخلاق العامة. وهكذا فقد عرف أنه في نظر زملائه كان يشبه ورقة تمّ الاستغناء عنها وألقيت نثاراً على درب في حديقة تلقى رعاية بالغة.

وأما فيما يتعلق بحياته العائلية فإن زوجته رابي لم تنبس ببنت شفة. فلم تكن بالمرأة التي تنسلّ بفضول إلى عالم أفكار زوجها الخاصة. ولا بد أنها أدركت أنه تغير، وأنه يبدو مشغولاً، ولكنها لم تقل شيئاً.

لم يكن الخوف من السخرية أو الإهانة، إذن، هو الذي منع هوندا من أن يفضي بدخيلته لزوجته، بل شعور معين بالحياء والخجل. وقد خلع هذا

النوع المراوغ من الحياء طابعاً خاصاً على زواجهما. وربما كان هذا هو أكثر الجوانب جمالاً في علاقتهما البالغة الهدوء، العتيقة الطراز. وعلى الرغم من أن هوندا نفسه قد أدرك على نحو واهن أن شيئاً ما في اكتشافه الأخير وتغيّر نظرته قد انتهك حرمة هذه العلاقة، فإن الزوج والزوجة استغلا هذا الطابع البالغ الجمال للحفاظ على الصمت والسرّ الذي لم يكشف النقاب عنه.

ولا بد أن رايي قد تساءلت عن السر في أن عمل زوجها قد غدا مؤخراً شديد الوطأة عليه. كما أن الأطباق التي تتكبد عناء إعدادها لتقديمها له في وجبة العشاء لم تعد تدخل على نفسه السرور الذي كانت تدخله من قبل.

ولم تتذمر، ولم يرتسم الحزن على ملامحها، ولم تعاقبه بافتعال مرح يعتصم بأهداب الشجاعة. وفي وقتٍ ما غدا التعبير الطفولي الذي يكسو وجه دمية من دمى البلاط، والنظرة الغامضة التي ترتسم في عينيها حينما تؤلمها كليتاها، هما المظهر الذي تطلّ به على الحياة اليومية. وعلى الرغم من أنها كانت على الدوام مبتسمة وودودة فإنها لم تظهر أيّ تطلّع إلى معرفة جليّة الأمر. فقد كانت القوة التي شكّلتها وجعلتها المرأة الكامنة في إهابها تنتمي في جانب منها إلى أبيها، وفي جانب آخر إلى زوجها. وعلى الأقل، لم يحدث قطّ أن سبب هوندا ما يدعو زوجته إلى المعاناة من الغيرة.

وعلى الرغم من أن قضية إيساو غطتها الصحف على نطاق واسع فإن زوجها لم يقل شيئاً فيما يتعلق بها، وبالمثل لم تتحدث رايي عنها. ولكن ذات ليلة، فيما امتدّ في أثناء العشاء صمت بدا غير طبيعي، تحدثت على نحو عَرَضي:

ـ أمر فظيع ذلك الذي حدث لابن السيد إينوما. عندما رأيته هنا ظننته فتى بالغَ الجِدّ حَسَنَ السلوك...

ـ طيب، بالنسبة لهذا النوع من الجرائم فإن الفتية الجادين حسني السلوك هم الذين غالباً ما يتورطون.

قالها هوندا في معرض الردّ، ولكن أسلوبه كان شديد الرقة والتفكّه إلى حد ثار معه قلق رايي.

جاش ذهن هوندا بالأفكار. ولأن فشله في محاولة إنقاذ كيواكي كان أعظم مصدر للأسف في شبابه فقد ساوره شعور بأنه لا بد أن ينجح هذه المرة، وأنه يتعينّ عليه «إنقاذه» من الخطر والفضيحة مهما كان الثمن.

سيكون عطف الرأي العام شيئاً يؤخذ في الاعتبار. فقد بدا أن صغر السن المذهل للمتآمرين قد منع الناس من الإغراق في الانجراف ضدّهم، وأحسّ هوندا وراء ذلك بتشكّل شعور جارف بالتعاطف القوي.

اتخذ هوندا قراره في صبيحة ليلة حلمه بكيواكي.

عندما قابل إينوما في محطة طوكيو، لدى وصوله من أوساكا، كان يرتدي سترة ذات حزام ودثار للكتفين، لها ياقة من فراء الفقمة. وقد بدا شاربه وكأنه يرتعش في برد أواخر كانون الأول (ديسمبر). وبدا الإعياء الذي حلّ به من جرّاء الانتظار على الرصيف جليّاً في صوته وعينيه المحمّرتين الدامعتين. وما إن ترجل هوندا من القطار حتى صافحه إينوما وأمر أحد الطلاب بأن يحمل عنه أمتعته في الحال، ثم شرع في صبّ فيض متتابع من آيات الشكر في مسمع هوندا.

ـ ما أشد امتناني لاختيارك القدوم إلى هنا! ويساورني الشعور بأنني تقف إلى جانبي كل القوة التي يمكن تصوّرها. ما من فتى يمكن أن يكون أكثر حظاً من ولدي. ولكن يا له من قرار هائل ذلك الذي اتخذته، أيها القاضي هوندا، لصالحنا!

بعد إصدار تعليماته للطلاب بحمل الأمتعة إلى دار أمه، قبل هوندا

الدعوة التي وجهها إينوما إليه، ومضى لتناول طعام الشعاء معه في مطعم بمنطقة جينزا هو مطعم «جينتشاريو». وقد بدت الشوارع متألقة بزينات عيد الميلاد. وكان هوندا قد سمع بأن سكّان طوكيو قد بلغوا الآن خمسة ملايين وثلاثمائة ألف نسمة. وعندما تطلّع إلى الشوارع المزدحمة بدا أن الجوع والكساد يشبهان حرائق تندلع في ركن من أرض قصيّة، أمرين أبعد من أن يظهرا للعيان من هنا.

ـ عندما قرأت زوجتي رسالتك بكت بدورها فرحاً. وقد وضعنا الرسالة على مذبح الآلهة ونحن ننحني أمامها إجلالاً صباح مساء. ولكن ألم يكن تعيينك قاضياً لمدى الحياة؟ لماذا قدمت استقالتك؟

ـ المرض. ما من أحد يمكنه الحيلولة دون ذلك. ومهما بلغ عظم محاولتهم الاحتفاظ بي فقد كانت لديّ شهادة الطبيب أدافع بها عن نفسي.

ـ ولكن أي نوع من المرض؟

ـ انهيار عصبي.

ـ حقاً؟

لم يضف إينوما المزيد. ولكن صراحة التشكّك العابر التي ارتسمت في عينيه بعثت في نفس هوندا شعوراً ودياً نحوه. وكان يعلم أن لمعة صراحة من جانب متّهم كريه يمكن أن تخلق درجة من حسن النية في نفس القاضي، مهما كان حرصه على تجنب الانفعال. وحاول استشفاف طبيعة الشعور الذي يساور المحامي حيال موكّله. فلا شك أنه ينبغي أن يكون أكثر اتساماً بالطابع المسرحي. ومن الطبيعي أن حسن النية الذي يساور القاضي سيكون له دافع أخلاقي، ولكن مشاعر المحامي يتعيّن استغلالها بالكامل.

ـ كان الأمر هو إعفائي من واجباتي بناء على طلبي. وهكذا فإنني ما زلت قاضياً فيما يتواصل هذا الوضع، ولكن مكانتي هي مكانة القاضي

المتقاعد. وسأنضم غداً إلى نقابة المحامين، وعندئذ تبدأ مسيرة عملي كمحام. وهو عمل قررت القيام به، ولذا أعتزم تكريس كل قدراتي له. والحقيقة هي أنه بما أنني لم أنطلق في معراج الترقية قبل استقالتي فإنني لن أضفي أكثر مما ينبغي من المكانة على عملي كمحامٍ. ولكن الأمر بأسره كان من اختياري، ويتعينّ عليّ القبول بالنتائج المترتبة عليه. ففي نهاية الأمر يتوقّف أمر اختيار محاميك عليك. ولكن فيما يتعلق بالألقاب فقد أوضحت لك في رسالتي...

- آه، أيها القاضي هوندا! كيف يمكنك أن تكون صاحب فضل علينا على هذا النحو كله؟ سيكون أمراً مقيتاً مني أن أستغلّ طبيعتك السمحة، ولكن في ظل الظروف الراهنة...

- أمر طيب للغاية. دعنا إذن نتفق على أنني لن أتقاضى منك أية أتعاب على الإطلاق. سأتولى القضية على هذا الأساس وحده.

- أيها القاضي هوندا... إن الكلمات لا تسعفني.

قالها إينوما جالساً في وضع رسمي متصلب، وأحنى رأسه مراراً وتكراراً وأضاف:

- ولكن بعد قرارا له هذه النتائج الخطيرة، ألم تدهش زوجتك؟ ووالدتك أيضاً، ألم يثر الأمر ضيقها؟ يبدو لي أنهما ستعترضان بشدة.

- تلقت زوجتي الأمر بهدوء تام. وعندما اتصلت بأمي لإبلاغها أمسكت بأنفاسها لحظة ثم قالت ببساطة إنني ينبغي أن أتصرّف بما أراه الأفضل.

- حقاً؟ يا لها من أم عظيمة! يا لها من زوجة عظيمة! أيها القاضي هوندا، إن زوجتك وأمك سيدتان متميّزتان. وما كان من المحتمل أن تكون زوجتي في مستوى هذا الموقف. لا بد لك، في وقت ما، من أن تعلّمني سرّ تدريب الزوجة على مثل هذا السلوك الرفيع. إذ يتعين عليّ أن

أغرس في نفس زوجتي القليل ممّا لدى زوجتك. ولكن أحسب أن الوقت قد فات بالنسبة لذلك.

للمرة الأولى تراجعت الشكليات بين الضيف والمضيف فراحا يضحكان. وفي غمره ذلك اندفع الحنين في فؤاد هوندا، وساوره شعور بأنه انطوت عشرون سنة والتقى الطالب هوندا والمعلم إينوما لمناقشة أفضل السبل لإنقاذ كيواكي الغائب.

تألّقت أضواء منطقة جينزا من وراء زجاج النافذة الذي غبّشه البرد. ولكن، كما أن حياة الليل المبهرجة على نحو سقيم، لم تستطع الهرب كلية من واقع المجاعة والأيام الكئيبة، كذلك فإن قلب الليل أفصح عن ازدواجية بالغة الوضوح. وحتى بقايا الأسماك الملونة التي تركاها على الصحفة دون أن يلتهماها أوحت بصلة ما بالظلام البارد لزنزانة سجن في الليل. والماضي الذي تم الاعتراف ببعض التردّد بآماله التي لم تتحقق، ارتبط بدوره بحاضر هذين الرجلين اللذين بلغا الآن أوجهما.

مضى هوندا يحدّث نفسه بأنه لن يحدث ثانية طوال عمره قط أن يقدم على تخلٍّ بمثل هذه الضخامة، وعقد العزم على أن يثبت في ذاكرته العاطفة المحيّرة التي مضت تتّقد الآن في أعماقه. لن يكون بمقدوره أن يستعيد إلى ذاكرته شيئاً يمكن أن يوضع موضع المقارنة مع الاهتياج والشعور بالابتهاج الذي ساوره بعد اتخاذه القرار الذي سيصفه العالم كله بالحمق، القرار الذي اتّخذ في سن كان ينبغي فيها لقوى الحذر والحرص أن تكون في سمتها.

كان يتعينّ عليه أن يشكر إيساو بأكثر مما يحق له أن يتلقاه منه، فلو أنه لم تصبه الصدمة الكهربائية المتمثلة في بعث كيواكي في إهاب إيساو، وفي سلوك الأخير، فلربما كان قد تحول إلى رجل يسعده أن يحيا على قمة جبل ثلجي، ذلك أن ما نظر إليه باعتباره سكينة لم يكن إلا نوعاً من الثلج، ولم

يكن مفهومه عن الكمال إلا نوعاً من التجفيف وسلب القدرة على إثارة الفكر أو العاطفة، وبدت له قدرته على النظر إلى الأمور على نحو غير تقليدي مجرد افتقار للنضج، ولكن الحقيقة لا تعدو أنه لم تكن لديه أدنى فكرة عمّا يعنيه النضج.

مضى إينوما، وكأنما يدفعه شيء ما إلى ذلك دفعاً، يعبّ كأساً من الساكي بعد الآخر، مبلّلاً طرفي شاربه المشذّب. وفيما مضى هوندا يتأمل قطرات الساكي تلك، راح يفكر فيها باعتبارها جزيئات من الرؤية العقائدية تتشبث ببراءة بشارب هذا الرجل الذي كسب عيشه بالاتّجار في معتقد تتعلق به النفوس بشدّة. وبعد أن جعل إينوما من الإيمان رزقاً له ومن العقيدة سبباً من أسباب الرزق، أضفت حماقاته وتجاوزاته على محياه مسحة من البلاهة المنتمية إلى عالم خداع النفس. وإذا جلس جلسة رسمية، ومضى يعبّ الساكي عبّاً بقوة لا تفصح عن اهتمام بولده المرتجف في زنزانة باردة، مضى يؤدّي عاطفته وافتعاله لهذه العاطفة كنوع من الأدوار المسرحية. بدا النهج الذي يدفعه قُدُماً مؤسلباً على نحو نمطي كأنه تنّين أسود مرسوم على ستار في قاعة الاستقبال في نُزُل. لقد اختار المضي قدماً بمعتقداته كنزعة للتأنق وأسلوب في التصرف المفتعل. ومضى في وقت طويل منذ كان في شرخ شبابه، حينما كان يعطي بعينيه السوداوين الغائرتين في محجريهما انطباعاً بالغ القوة، حتى ليوشك أن يكون عضوياً، بالكآبة. والآن لم يكن مما يثير الدهشة أن انتكاساته الدنيوية، وعذاباته، وفي المقام الأول ألوان الهوان التي تعرّض لها، جعلته يصعّر خدّه خيلاء وفخراً بمجد ابنه.

وفيما كان هوندا يجلس متفكهاً أدرك أن إينوما قد حوّل شيئاً ما في صمت إلى ولده، فضروب الإذلال القديمة التي تعرض لها الأب، عهد بها إلى براءة الإبن الذي انطلق ضدّ أقوياء هذا العالم هادراً بصرخة قوية وسيف مشهر.

ساور هوندا شعور قويّ بأن عليه أن يسمع كلمة صريحة عن إيساو من إينوما.

سأله:

ـ أتقول إن الحقيقة هي أن ولدك قد حقّق حلماً راودك منذ الأيام التي كنت فيها معلماً لماتسوجاي؟

ردّ إينوما بلمسة من تحدٍّ:

ـ كلا. إنه ابني. هذا كل ما هو عليه.

ولكنه بعد هذا الإنكار شرع في الحديث عن كيواكي:

ـ عندما أتوقف اليوم وأفكّر فإنني أجد أن وفاة السيد الشاب على نحو ما وقع ربما كانت الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحدث. لا بد أن تلك كانت مشيئة السماء. وأما فيما يتعلق بإيساو، طيب، إنه يشبه أباه إلى حدّ بعيد. وهو في مقتبل العمر، وقد تغير العهد، ومن هنا فقد تورّط في شيء من هذا القبيل. نعم لقد حاولت غرس فضائل الساموراي في نفس السيد الشاب، ولكن ربما كانت جلافتي الريفية هي التي دفعتني إلى القيام بذلك. وأحسب أن السيد الشاب مات من جراء الإحباط...

هنا تهدّج صوت إينوما إذ غلبه الانفعال، وما إن كان يستسلم أدنى استسلام لمشاعره حتى تبدو النتائج كما لو أن سدّاً قد انهار:

ـ ولكن مع ذلك... لقد تصرف حسبما أملى عليه فؤاده، وإنني على يقين من أنه، في هذا الصدد على الأقل، كان يشعر بالرضا. ومع مضيّ الوقت فإن هذا هو على الأقل ما أجد نفسي راغباً على نحو متزايد في تصديقه. وإلا لوجدت الأمر ممّا لا يطاق، وإن كانت تلك رؤيتي المفعمة بالأنانية. وعلى أية حال فقد عاش السيد الشاب ومات بطريقة تناسبه. وأما فيما يتعلق بي، أنا الذي لا شأن له بالأمر، ورغم كل قلقي، فإن كل ما حاولته لم يكن له معنى، وما كان إلا هدراً للوقت.

أما إيساو فهو ولدي، وقد ربيته في التزام صارم وفقاً لمعتقداتي، وكانت استجابته هي كل ما كان بوسعي أن أرغب فيه. وقد سعدت لوصوله إلى الدرجة الثالثة في الكندو قبل أن يصل إلى العشرين من عمره. ولست بحاجة إلى القول بأنه قد انطلق من عقاله منذ ذلك الحين، وربما كان قد تأثر بحياتي بأعمق ممّا ينبغي، ولكن الأمر لم يقتصر على ذلك، فقد كان حريصاً أكثر ممّا ينبغي على التحرّر من إرشاد أبيه له، ووثق في نفسه بأشدّ ممّا يجب، وكان هذا سرّ ضلاله. والآن في هذه القضية فإنه إذا تم عبر جهدك الكبير، أيها القاضي هوندا، إصدار حكم خفيف الوطأة نسبياً، فإن العقاب سيفيد ذلك الفتى أعظم الفائدة. من المؤكد أنه ليس هناك احتمال لعقوبة الإعدام أو السجن المؤبد. أهناك مثل هذا الاحتمال؟

قال هوندا بتأكيد موجز:

- ما من حاجة بك إلى الشعور بالقلق في هذا الصدد.

- آه، أيها القاضي هوندا! شكراً لك على كل شيء. لم يقدر للأب والابن، أنا وإيساو، أن نلقى كفيلاً أعظم رعاية لنا منك.

- تُحسِنُ صنعاً بادّخار امتنانك حتى نهاية المحاكمة.

أحنى إينوما رأسه من جديد. فالآن وقد ترك نفسه ينغمس في المشاعر العاطفية اختفت فجأة السوقية التقليدية للتعبير المرتسم على ملامحه. ومع اشتداد ثمله شرعت عيناه تترقرقان بطريقة تثير القلق، وأفصح كيانه كله عن شعور يشبه بخاراً خفيّاً بأن هناك شيئاً ما يريد قوله.

أخيراً أعلن ما في دخيلته، وقد ارتفعت نغمة حديثه فيما كان يمضي قُدُماً فيه:

- أعرف ما تفكر فيه، أيها القاضي هوندا، أقول لك إني أعرفه. أعرف أنني دَنِسٌ على نحو تعجز الكلمات عن التعبير عنه، وولدي نقيّ، ذلك هو ما تفكر فيه.

ـ ليس الأمر كذلك حقاً.

هكذا ردّ هوندا وقد ساوره بعض الضيق.

ـ لا، بل هو كذلك. ليس هناك شك حيال هذا. وبما أنني مضيت قُدُماً إلى هذا الحدّ فدعني أوغل في الإفضاء، لقد أُلقِي القبض على ولدي قبل يومين فحسب من قيامه ورفاقه بتوجيه ضربتهم. فمنذا الذي تعتقد أن عليه أن يشكره على حدوث ذلك.

ـ طيب، الآن...

قالها هوندا مدركاً أن إينوما على وشك قول شيء من الأفضل أن يظلّ طيّ الكتمان، ولكن لم يكن هناك سبيل لإيقافه.

ـ إنك تقوم بالكثير من أجلنا، أيها القاضي، وإني لأجد من المؤلم أن أدلي بهذا الاعتراف بعد كل شفقتك علينا. ولكني أحسب أن على الموكِّل ألا يخفي شيئاً عن محاميه. ولذا فإني سأفضي إليك بجليّة الأمر. إنني من قام بالإبلاغ. فقد أبلغت عن ابني للشرطة سرّاً. وفي آخر لحظة ممكنة أنقذت حياة ولدي.

ـ لِمَ فعلتها؟

ـ لِمَ؟ لأنني لو لم أقم بذلك لانتهى ولدي.

ـ ولكن إذا نحّينا جانباً كون ما تم التخطيط له شيئاً خيّراً أو شريراً، ألم تشعر بأي شكل من الأشكال بأنك ربما كان يتعين عليك ترك ابنك يحقّق ما عقد العزم عليه؟

ـ مردّ هذا إلى أنني كنت أتطلّع إلى الأمام. وأنا أتطلع دائماً إلى الأمام، أيها القاضي!

وفجأة، مدّ إينوما الذي احمرّ وجهه من تأثير الشراب يده إلى سترته ذات الياقة المصنوعة من جلد الفقمة وقد تكومت على خزانة ثياب في ركن

الغـرفة. ودونمـا إدراك للغبار الـذي أثاره فتـح الستـرة محـدثاً ضجـة، فقـد أمسك بها عالياً كأنها رف مدفأة وقال:

ـ هاك، ها أنذا. هذه الستـرة هي ذاتي. لا مجال لخفّـة اليد هنـا. الستـرة هي الأب، إنها تشبـه السماء المعتمـة في ليلة شتائيـة. وهكـذا فـإن طيّـات الستـرة تمتدّ بعيـداً، وفي اتجاهـات شتى، مغطّيـة أيّة بقعـة قد تـطؤها قـدما الابن. وهـذا الأخير ينـطلق ليرى النـور، ولكنه لا يملك إلى ذلـك سبيلاً. فـالستـرة السـوداء الهائلة تنتشر ممتـدة فوق رأسـه، وما دام الليـل يوغـل في مسيرته فإن الستـرة ترغمه في عناد على الإقرار بالليل. وعندمـا ينبلج الصبح فإن الستـرة تهـوي إلى الأرض وتدع عيني الابن تنبهـران بالنـور. هكذا هـو حـال الأب. ألستُ على صـواب أيها القـاضي هونـدا؟ لم يرغب ولـدي في الاعتـراف بهذه الستـرة، وأراد القيام بمـا يـودّه، وهكـذا فمن الـطبيعي أن يحمل المسؤولية عن ذلـك، فالليـل ما زال يضرب أطنـابه، والسـترة تعرف هذا، وتريد منع الابن من ملاقاة حتفه.

«هؤلاء اليسـاريـون الأوغـاد ـ كلما فـرضت عليهم المـزيـد من الضغط اشتدت قوتهم. إن جراثيمهم تغزو اليابان، والذين يجعلون اليابـان ضعيفة بحيث تغـدو عرضـة للإصـابة بهم هم السيـاسيون ورجـال الأعمال، وقـد علمت بالأمر كله دون أن يبلغني ابني به. وأولئك الـذين يقفون حـرساً في الطليعة وهم مستعدون للقفز دفاعاً عن العائلة الإمبراطورية إذا مـا تهددت الأمة أزمةٌ، ليسوا إلا نحن أنفسنا، على نحوٍ يبـدو غنياً عن القـول. ولكن هناك مسألة اختيار الـوقت المناسب، فهنـاك ما يـوصف باللحـظة المواتيـة. وهكذا فإن عليَّ استنتاج أن ابني أصغر عمراً مما ينبغي، وأن الفطنـة ليست من المزايا التي يتمتّع بها».

«إنني، أنا الأب، أتمتع بالقدرة على التصميم وبالإصرار. وقد يكون حقاً بمقدوري القول بأن نزعتي الوطنية ومعاناتي الروحية تفوقان نـظيرتيهما لـدى

ولـدي، فلقد حـاول إخفـاء كـل شيء ينـوي القيـام بـه عني. ألا يمكنـك القول بأنه كان عاجزاً عن رؤية أبيه على حقيقته؟»

«إني دائماً أتطلع إلى الأمـام، وبدلاً من التحـرك فإن أفضـل منهاج هـو تحقيق النتائج دونمـا تحرك. أعـلى صواب أنـا أم لا؟ لقد سمعت بـأنه وقت وقوع حادثة الخامس عشر من أيار (مايو) انهال فيض من الالتماسات يطلب أصحابها التزام الرأفـة. ومن هنا فمن المؤكـد أن النقاء السـاذج الذي يميّـز المتهمـين الشبان سيثـير تعاطف الـرأي العام. ويمكننـا الاعتماد عـلى ذلك، ولسوف يعود ولـدي إلى داره مكلّلاً بالغـار بدلاً من أن يفقـد حياتـه. ولن يكون هناك طوال عمره ما يدعوه إلى القلق على مصـدر وجبته التـالية، لأن العالم سيظلّ على الدوام ينظر إليه بإجلال باعتباره إيساو إينومـا بطل عصبـة الريح الإلهية لعهد شوا».

بهت هوندا في البداية، ثم راح يتساءل عمّا إذا كان إينوما يلتزم الصراحة فيما يقول.

فوفقاً لما يقوله إينوما فإن المنقـذ الأول لإيساو هـو إينومـا نفسه، وهـوندا بمسارعته إلى إنقاذ الابن لم يتجاوز كونه وسيطاً عُهِد إليه بمهمة تحقيق خـطة إينـوما. ومـا كان يمكن لكلمات أخـرى أن تفوق مـا قالـه إينومـا في فعاليـة الإطاحة بحسن النية الذي أبـداه هونـدا بالتضحيـة بحياتـه العملية وتـولي الدفاع عن إيساو دونما أتعاب. كما لم يكن بمقدورها أن تفوق قول إينوما في تلويث نبل ما أقدم عليه هوندا.

ولكن من الغريب أن الغضب لم يستبد بهـوندا؛ فـالشخص الذي كـان معنيّاً بالدفاع عنه هو إيساو، وليس والده. وأياً كان مـدى تلوث الأب فإن اللطخات التي تلوّثه لا صلة لها بابنه، وليس لها أدنى تـأثير عـلى نقاء قصـد الابن.

وفوق هذا فإن هوندا الذي كان ينبغي أن يشعر بالضيق إلى حدّ مـا من

جراء طرح إينوما المتّسم بـالجلافـة، كان لـديه سبب آخـر يدعـوه إلى عدم التأثّر بما سمع، ذلك أنه فيما واصل إينوما بعد أن قال كل هذا صبّ المزيد من الشراب لنفسه في هذه الغرفة الصغيرة التي أمر المضيفات بعدم دخـولها منـذ وقت طويـل، أدرك هونـدا الرجفـة التي تسري في يديـه المشعـرتـين. وعندئذ فطن هوندا إلى انفعالٍ ما كان إينـوما ليبـوح به قط، شيء ربمـا كان الدافع الأكثر عمقاً الكامن وراء الخيانة التي أقدم عليها. وبتعبير آخر، كان الابن على وشك تحقيق مجد دموي وموت سامٍ، وقـد عجز الأب عن كبـح جماح شعوره بالغيرة من ابنه.

- ٣٢ -

كان سمو الأمير هارونوري توين شخصيّة أخرى شكّلت هـذه القضية بالنسبة لها صدمة قاسية. ولم يكن حريّاً به أن يتذكر أولئك الذين يـزورونه مرة أو مرتين للإعراب عن تقديرهم له، ولكن ذكرى زيارة إيساو لدارته في تلك الليلة كانت ما تزال متوهّجة بالحياة في ذهنه. ولمـا كان المـلازم هوري هو الذي أحضر الفتى إلى دارته فإنه لم يكن بمقدوره بصفـة خاصـة أن يتبنى نظرة متّسمة بعـدم الاهتمام حيـال هذه الحـادثة. ومن الـطبيعي أنه بمجـرد الإعلان عن القضية قام الأمير بإجراء اتصال هاتفيّ بعيد المدى بوكيله لكي يلزم الصمت فيما يتعلق بزيارة إيساو. ولكن لما كان هذا الوكيل عملياً مجرّد آلة مسخّرة لدى الديوان الإمبراطوري فإن الأمير لم يكن بمقدوره الوثوق بـه كثيراً.

منذ بعض الوقت وجد الأمير في المـلازم رفيقاً يمـاثله في توجّهـه الفكري يمكنـه معه أن يستنكـر ما يشهـده العصر. ولم يلق هذا تـرحيباً من جـانب المسؤولـين في الديـوان الإمبراطـوري. وغالبـاً مـا عـاتبـوا الأمـير للسماح بمقـابلات عشـوائية لا يؤخـذ فيها بـاعتبار الـرتبة العسكـريـة. ولكن هـذا السلوك عينه نبع من رفض الضوابط التي يفرضهـا الديـوان، والتي تتطلب منه الإبلاغ حتى عن أقصر رحلة يقـوم بها. وهكـذا لم يكن من المتوقـع أن يصغي في إذعان إلى هذه النصيحة.

أظهـر الأمـير منـذ تعيينـه قـائـداً للفـوج المتمـركـز فـي يـامـاجـوتشي إفـراطاً معينـاً في الحديث والحـركة، لم يفت رئيس الـديوان الإمـبراطـوري ومدير قسم الشؤون الخاصة. فانتظرا حتى جاء إلى طوكيو فرتّبـا أمر القيـام

بزيارة وديّة له لكي يعاتباه برفق. وقد أصغى إليهما دونما كلمة واحدة، ولم يجب، حتى بعد أن فرغا من حديثهما. وساد صمت طويل.

كان رئيس الديوان ومدير القسم يتوقعان أن يتّهمهما الأمير غاضباً بالتدخل في شؤون عسكرية. ولو فعل ذلك لما كان بوسعهما الردّ عليه.

غير أن التعبير الذي ارتسم على محيا الأمير أوحى على نحو بالغ بكبح الجماح، وانقضت اللحظة التي كان يمكنه فيها أن يهاجمها. وفي النهاية تطلّع بعينيه البديعتين نصف المغمضتين اللتين تشعان كبرياء، من مسؤول إلى آخر ثم قال:

ـ ليست هذه هي المرة الأولى التي تعينّ علي فيها احتمال تدخّلكما. وإذا كان لا بد لكما من التدخّل فإنني آمل أن تبديا قدراً مماثلاً من الاهتمام بباقي العائلة الإمبراطورية. كيف تأتّى أن تعينّ عليّ وحدي احتمال هذا الوقر منذ وقت طويل؟

وقبل أن يتمكن رئيس الديوان حتى من إبداء احتجاجه شرع الأمير وهو يكافح من أجل كبح جماح غضبه، في إطلاق فيض من الحديث الهادر:

ـ قبل سنوات أساء الأمير ماتسوجاي إليّ بأعظم وقاحة فيما يتعلق بالمرأة التي كانت ستغدو زوجتي، وقد ساند الديوان الإمبراطوري الأمير، ولم يقدّم لي أية مساعدة على الإطلاق. وكانت تلك حالة واضحة أهينت فيها العائلة الإمبراطورية من قبل أحد رعاياها! من الذي يفترض أن يخدمه الديوان الإمبراطوري؟ هل من العجيب إذن أنني منذ ذلك الحين أنظر إلى مناوراتكما، أيها السيدان، بمزيد من الشكّ؟

لم يستطع رئيس الديوان الإمبراطوري ومدير قسم الشؤون الخاصة طرح شيء في معرض الردّ، فاستأذن في الانصراف على عجل.

كان الإصغاء للكلمات العنيفة التي يردّدها الملازم هوري وضابطان أو ثلاثة غيره عنصر تخفيف لوقر مشاعر الأمير، وقد استمتع بأن ينظر إليه

باعتباره السماء الزرقاء التي تطلّ من بين السحب المعتمة التي تنوء بكلكلها على اليابان. كان ثمة جرح ناغر في أعماق فؤاده. وقد أسعده أن هذا كان بمثابة منارة تشع نوراً بالنسبة للبعض، وأن روحه الحزينة المتوهّجة قد غدت مصدراً للأمل بالنسبة للكثيرين. غير أنه لم يكن يميل على الإطلاق إلى القيام بتحرّك محدّد.

ما إن أعلنت قضية إيساو ورفاقه حتى انقطع ورود أي جديد من الملازم هوري في منشوريا. ولم يكن لدى الأمير إلا ذكرى تلك المقابلة الوحيدة مع إيساو ليبني عليها استنتاجاته. ولكن عندما استعاد ذكرى البريق الذي تألّق في عيني الفتى الصريحتين، في تلك الليلة الصيفية، أدرك أنهما عينا رجل كرّس نفسه للموت.

كانت نسخة كتاب «عصبة الريح الإلهية» التي قدّمها له إيساو قد حظيت منه بمطالعة سريعة فحسب، في ذلك الوقت، وهي ما تزال على رفّ الكتب في غرفة قائد الفوج. وهكذا التقط الأمير هذا الكتاب ثانية، على أمل البحث عن المعنى الحقيقي للقضية، ومضى يتصفحه خلال اللحظات القصار من الفراغ التي تتاح له وسط الأعباء الملقاة على كاهله. وتمثل ما بدا له أنه يتوهج، أشد قوة من القصة ذاتها، من بين سطور الكتاب في زخم عيني إيساو والنار المندلعة من كلماته في تلك الليلة.

شكّلت البساطة الخشنة للحياة العسكرية التي يشاركه فيها الآخرون شيئاً أقرب إلى النعمة السابغة بالنسبة للأمير الذي كان محميّاً تماماً من العالم الخارجي، وقد وجدها شيئاً متجانساً مع طبيعته إلى أبعد الحدود، ولكن في إطارها كان هناك كذلك ذلك الاحترام والتوقير للرتبة العسكرية، ولم يقدّر له، إلى أن قابل ذلك المدني الشاب، أن يصادف من مثل هذا القرب مثل هذا النقاء المتّقد المشتعل بالنار، وهكذا فإن الحوار الذي دار في تلك الليلة، كان ممّا لا سبيل إلى نسيانه.

ما هو الولاء؟ لقد قال ذلك الفتى الناري إن الجنود ليسوا بحاجة إلى التساؤل عن هذا، فولاؤهم باعتبارهم جنوداً هو جزء من واجبهم.

أدرك الأمير أن تلك الكلمات قد أصابت موضعها في قلبه. فهو إذ تبنى الأسلوب العسكري الخشن اعتاد ذلك المستوى الجليّ من الولاء من قبل الجندي. وربما لاذ به في غمرة هربه من حشد من الآلام التي تهدّد بالانقضاض عليه. ولم يعرف شيئاً مباشراً من تلك النوعية من الولاء التي تتّقد في اللحم البشري وتقضي عليه القضاء المبرم.

كما أنه لم يكن لديه أي سبب يدفعه إلى ملاحظة الوجود المحتمل لتلك النوعية من الولاء. وقد شكّلت الليلة التي أُحْضِر فيها إيساو لمقابلته المرة الأولى التي يصادف فيها مثل هذا الولاء الناري، ذلك الولاء الفجّ الذي ينطلق منفلتاً من كل الضوابط. وقد أدخلت هذه التجربة البهجة على نفسه.

كان الأمير هاروناري على استعداد بالطبع للتضحية في أية لحظة بحياته من أجل الإمبراطور. إنه أكبر من جلالته بأربعة عشر عاماً، فالإمبراطور في الحادية والثلاثين من عمره، والأمير يكنُّ له حباً يشبه حب الأخ لأخيه الأصغر الأثير. ولكن تلك كانت مشاعر جادة هادئة وولاء بهيجاً يشبه الظلّ الذي تلقيه على الأرض شجرة هائلة. ثم إن الأمير اعتاد كذلك أن ينظر ببعض الشك إلى ولاء مرؤوسيه، ودرج على أن يدع مسافة تفصل بينه وبينهم.

وإذ تأثر الأمير توين على نحو عميق بإيساو فقد كرّس نفسه بمزيد من السرور، يفوق ما هو عليه في أي وقت مضى، لبساطة الروح العسكرية. والآن خطر له أن السبب في عدم ظهور دليل على تورّط العسكريين في هذه الحادثة هو أن المتهم قد لزم الصمت لحماية الملازم هوري. وقد زاد هذا التكهّن من تعاطفه معه.

استعاد الأمير توين فقرة من كتاب «عصبة الريح الإلهية» لا بد أن يكون إيساو قد قرأها بتقدير كبير مطبقاً إياها على نفسه: «لم يعتد معظمهم على الترف والدعة، وكانوا يحبون القمر وهو يتألق على ضفاف نهر شيراكاوا حب من يؤمنون بأنه آخر قمر ليالي حصاد يشاهدونه في هذه الحياة. وكانوا يعجبون ببراعم الكرز إعجاب رجال يعتقدون أن براعم هذا الربيع هي آخر براعم تزدهر بالنسبة لهم». لقد جعل الدم المتوهّج الذي يسري في عروق هذا الشاب قلب قائد الفوج، البالغ الخامسة والأربعين من العمر، يتحرك في صدره منفعلاً.

عكف الأمير توين على التفكير فيما إذا كان بمقدوره أم لا إنقاذ هؤلاء الفتية. وكان قد درج طوال عمره على الإصغاء إلى موسيقى غربية الطراز عندما كان يتعبه التفكير أو تبدو له مشكلة ما بلا حلّ.

استدعى عامل ارتباطه وجعله بضرم النار في مدفأة قاعة الاستقبال الباردة في مقرّه الرسمي المترامي الأطراف. ثم اختار إحدى الأسطوانات ووضعها على القرص الدوار بيده.

ولأنه أراد الاستماع لموسيقى بهيجة فقد اختار «تيل أويلنشبيجل» لريتشارد شتراوس، من أداء فرقة برلين الفيلهارمونية بقيادة ويلهلم فيرتوانجلر، وصرف عامل ارتباطه كي يستطيع الاستمتاع بها منفرداً.

كان هذا العمل حكاية شعبية ساخرة تعود إلى القرن السادس عشر. وكانت مسرحية هوبتمان[1] وقصيد شتراوس السيمفوني الذي يقوم على أساسها، عملين مشهورين.

(١) هوبتمان، جيرهارت (١٨٦٢ - ١٩٤٦) كاتب مسرحي ألماني يُعدّ الكاتب الرئيسي من بين كتاب الحركة الطبيعية الألمانية، وإن كانت أعماله المسرحية الأربعون لا تقتصر على الأعمال الطبيعية وحدها وإنما تمتد لتأخذ بأكناف الرمزية. وربما كانت

مضت رياح أواخر كانون الأول (ديسمبر) تصدر زفيفها عبر الحديقة الفسيحة التي غمرها الظلام خارج مقر قائد الفوج، وبدا أنه يمتزج بصوت ألسنة اللهب في المدفأة.

ومن دون أن يفكّ ياقة قميصه العسكري استقرّ الأمير توين في مقعده ذي المسندين والغطاء الكتاني الأبيض الذي بدا بارد الملمس. وقد وضع ساقاً على ساق، وهما مكسوتان بالسروال العسكري، واستقرّ طرف إحدى قدميه بجوربها القطني الأبيض دونما حراك في الهواء. وكانت أزرار الركبة لهذا النوع من السراويل العسكرية تضغط على ربلة الساق، ومن ثم يعمد المرء عادة إلى فكّها حينما يخلع حذاءه العسكري الطويل العنق، ولكن الأمير لم يكترث بأدنى مصدر للضيق من هذا النوع، ومضى يداعب بخفة طرف شاربه المجعد المفتول بالشمع، وكأنه يمس ريشات ذيل طائر وحشي.

كان قد مرَّ وقت طويل منذ سماعه لهذه الأسطوانة، فأراد الاستماع لشيء يروّح به عن نفسه، ولكنه عندما سمع الأصوات الضعيفة الأولى للبوق

= أشهر أعماله على الإطلاق وأفضلها مسرحية «النساجون»، التي قُدّمت عام ١٨٩٢، والتي تقوم على أحداث انتفاضة النساجين في سايليزيا عام ١٨٤٤، وتتميّز بأن البطولة فيها مسندة إلى مجموعة من الشخصيات، لا إلى بطل واحد. وتنتمي المسرحية المشار إليها في المتن إلى سلسلة من المسرحيات الساخرة التي قدمها الكاتب ومنها «معطف فراء القندس» التي قدمت عام ١٨٩٣، والمسرحية المكملة لها «الديك الأحمر» التي قدمت عام ١٩٠١. مع ذلك فربما كان ما يُذْكَر به هوبتمان هو النقيض تماماً من هذه الأعمال الساخرة، أي عمله الذي قدّمه في ظلّ الحرب العالمية الثانية، وأعرب فيه عن الشعور المرير النابع من مواجهته حربين عالميتين خلال حياته، وهو ثلاثية شعرية تستوحي المصير المرير لآل أتريوس، وتتّسم هذه الثلاثية بقتامة مطبقة لا تخفّ قليلاً إلا في مسرحية «أفيجينيا في دلف» التي قدمت عام ١٩٤١ وقد قدّم بسكاتور صياغة موجزة للثلاثية في الاحتفال بمئوية هوبتمان عام ١٩٦٢. وقد مُنح جائزة نوبل للأدب في عام ١٩١٢ (هـ. م.)

وهي تعزف موضوعة العمل، أحس على الفور بأنه أخطأ الإختيار، وأن هذه الموسيقى ليست من نوع الموسيقى التي سيمتعه الاستماع إليها في الوقت الراهن. فلم يكن هذا الأداء عزفاً مرحاً وحاذقاً للعمل، وإنما كان عزفاً حزيناً وموحياً بالوحدة، تماماً مثل البلّور الشفاف، وهو طابع أضفاه قائد الفرقة الموسيقية نفسه على العمل.

ولكن الأمير واصل الإصغاء. من جنون «تيل» عندما بدا أنه سيحيل حزمة أعصابه الفضية إلى منفضة تشق طريقها في أرجاء قاعة الاستقبال وصولاً إلى النهاية، عندما تلقّى الحكم عليه بالإعدام، ونُفِّذ فيه الحكم. سمع الأمير توين العمل بكامله. وعندما انتهت الأسطوانة نهض فجأة ودق الجرس مستدعياً عامل ارتباطه، وأصدر إليه تعليماته بتسجيل مكالمة هاتفية طويلة المدى، وطلب وكيل أعماله على الخط.

كان الأمير قد وصل إلى قرار. سيطلب بمناسبة عودته إلى طوكيو مع اقتراب إجازات العام الجديد لقاء يستغرق عدة دقائق مع جلالة الإمبراطور، وسيجرؤ على أن يرفع إلى علياء اهتمام جلالته الولاء الذي لا نظير له من جانب إيساو ورفاقه. وعندما يصدر ردّ فعل كريم من جلالته ينهي الأمير هذا الأمر بأكبر قدر ممكن من السرية إلى كبير قضاة المحكمة العليا. ولكن يتعين عليه في المقام الأول، وقبل أن ينتهي العام، أن يدعو المحامي المكلف بالدفاع عن إيساو ليناقش معه كل تشعبات القضية.

ومن هنا فقد أمر وكيل أعماله هاتفياً بالعثور على اسم المحامي، وأن يدعوه للقدوم إلى مقر الأمير في وقت يعقب مباشرة وصوله إلى طوكيو في التاسع والعشرين من كانون الأول (ديسمبر).

كان هوندا، قبل أن يتمكن من العثور على مكان مناسب خاص به، قد استقر في غرفة تشكّل جزءاً من مكتب صديق له في الطابق الخامس من بناية مارونوتشي. وكان ذلك الصديق محامياً وزميلاً من زملائه في الدراسة.

وذات يوم أقبل مسؤول من دارة تورين لينقل طلباً سرياً من سموّه. ولمّا كان ذلك في الحق شيئاً لم يسبق له مثيل فقد ذهل هوندا. وعندما شاهد الرجل الضئيل الجرم الذي يرتدي حلّة سوداء ويسير في حذر على الأرض المكسوة بغطاء بني من غير أن يُحْدث صوتاً في مشيته، ساوره شعور بالامتعاض لا سبيل إلى وصفه. وبعد أن مضى به إلى قاعة الاجتماعات حيث ازداد هذا الشعور حدّة، ارتسم تعبير متجمّد، وإن كان لا يبعث على الارتياح، على ملامحه وهو يتطلع حوله في الغرفة الصغيرة التي كان يفصلها عن المكتب جدار من الزجاج المموّج. وكان يبدو عليه القلق من أن يسترق أحد السمع إلى ما سيقوله.

بدا وجهه وكأنه وجه سمكة شاحبة ثبّتت أمامه عوينات مذهبة الحواف. وأوحى بالحياة في موطنٍ قِوامه مياه باردة مظلمة لا يشق نور الشمس طريقه إليها أبداً، وبالتنفس من خلال خياشيم فحسب تحت عشب بحريّ مشتبك.

بدا هوندا الذي كان ما يزال يتّسم بقليل من اعتزاز القضاة بأنفسهم، بأن تجاهل بحدّة المجاملات المألوفة.

ـ أما فيما يتعلق بحماية الأسرار فهذا هو عملنا، ولذا فإنني أدعوك إلى الاطمئنان. وإذ كانت مهمّتك تتعلّق بمثل هذه الشخصية الرفيعة المقام فإنني سأتولاها بأقصى قدر يمكن تخيّله من العناية.

تحدث المسؤول بصوت خفيض للغاية وكأنه يعاني علّة في رئته، فاضطر هوندا إلى الانحناء لإصاخة السمع.

ـ لا، لا، ليس هناك مجال للالتزام بأي نوع من السرّية، فسموه يسعده أن يهتم بعض الاهتمام بهذه القضية، وهو لا يطلب إلا أن تكون من الكرم بحيث تزور سكنه في الثلاثين من كانون الأول (ديسمبر). وإذا كنت من سماحة الصدر بحيث تخبره في ذلك الحين بما هو متاح لك من معلومات فإنه سيكون شديد الامتنان، غير أنه. . .

هنا تلعثم الرجل الضئيل الجرم بصورة متقطعة وكأنه يحاول كبح جماح نوبة فواق أصابته:

ـ غير أنه، فيما يتعلق. . . أعني، إذا قُدِّر لسموه أن يعلم بما يتعينّ عليّ قوله عقب ذلك فمن المؤكد أن مشكلة خطيرة ستنشأ، ولذلك أستميحك عذراً أن تمتنع عن ذكره له.

ـ فهمت. أرجو أن تتحدث بحرية.

ـ طيب، بما أن هذا ليس بالرأي الذي يقتصر عليَّ وحدي فإنه سيسعدني أن تتسم بالحساسية في هذا الصدد. ولكن، إن صح القول، في حالة منعك على هذا النحو من الحضور، وإذا كنت ستخطرنا بذلك، فإن هذا بدوره سيكون مقبولاً تماماً، بما أن رغبة سموه قد نقلت إليك على النحو الملائم.

حدّق هوندا بدهشة في وجه هذا المندوب الذي أرسله الأمير توين، وجهه المجرّد من التعبير. فرسالته هي تسليم دعوة، ولكنه يلمّح إلى أن هوندا ينبغي أن يجد وسيلة لتجنّب تلبية هذه الدعوة. وقد كان تلقّي هذه الدعوة من الأمير توين، بعد تسعة عشر عاماً من ضلوعه غير المباشر في موت كيواكي، تحوّلا غريباً من تحوّلات القدر. وقد ساور هوندا شعور بعدم الارتياح وهو يصغي لطلب سموه. أما الآن، وقد ووجه بمثل هذه الدعوة البالغة الغرابة، فقد عقد العزم على القيام بزيارة الأمير في دارته للإعراب عن تقديره لسموه.

ـ طيب، إذن، إذا كنت في ذلك اليوم دون أدنى بادرة إصابة بنوبة برد، وأُعَدُّ تجسيداً لاكتمال الصحة، فإن عليَّ تقديم نفسي لسموه. أهذا صحيح؟

للمرة الأولى أفصح محيا المسؤول عن تعبير محدود. فقد ارتسم شعور محزن بالخيبة، على نحو عابر، على أرنبة أنفه الباردة. وكأنما لم يحدث شيء

استمرّ الصوت الذي يشبه هبوب النسيم بين أشجار الخيزران:
- أجل، بالطبع، أجل. لذا أرجو التفضّل بالقدوم إلى دارة شيبا في الساعة العاشرة في صباح الثلاثين من كانون الأول (ديسمبر)، وسأبلّغ الحارس عند البوابة الرئيسية بالأمر، وما عليك إلا أن تفصح عن اسمك.

على الرغم من أن هوندا كان طالباً في مدرسة النبلاء، إلا أنه لم يعش قط تجربة زيارة دار عضو من أعضاء العائلة الإمبراطورية، ربما لأنه لم يتفق وجود شخصية على مثل هذا المستوى الرفيع في الصف الدراسي معه. كما أنه لم يسعَ أبداً إلى مثل هذه الفرصة.

كان هوندا يعلم أن للأمير ضلعاً في موت كيواكي، ولكن من المؤكد أن الأمير لم يكن يدرك أن هوندا كان صديقاً لكيواكي. وبما أن الأمير توين كان بحقّ الجانب المضادّ في هذا الأمر فإن السبيل الأفضل هو التزام الصمت فيما يتعلق به ما لم يطرحه الأمير نفسه. ذلك أن ذكر اسم كيواكي في ذاته سيكون بمثابة إهانة. وقد أدرك هوندا بالطبع ذلك حق الإدراك، وعلم كيف ينبغي عليه التصرف.

غير أنه استناداً إلى أسلوب المسؤول في التصرف في اليوم السابق، حدس هوندا أن الأمير يبدو لسبب ما متعاطفاً مع هذه القضية الأخيرة دون أن يحلم مجرد حلم بأن إيساو ليس إلا كيواكي بُعث من جديد!

عقد هوندا عزمه على أنه كائناً ما كان ما سيعتقده المسؤول فإنه بحسب طلب الأمير سيبلّغه بكل ما يعرفه، وسيقدم صورة حقيقية للقضية دون أن يتفوّه بشيء يقترب أدنى اقتراب من الإخلال باحترام الأمير.

وهكذا فإنه عندما مضى إلى موعده في اليوم المحدّد كان ذهنه صافياً. أخذ يهمي المطر الشتائي الذي كان قد بدأ أمس، وبلّلت الجداول الصغيرة التي جرت عبر حصى الدرب المنحدر المفضي إلى مسكن توين حذاء هوندا. وقد حياه المسؤول نفسه في الدهليز، ولكن على الرغم من أن

المجاملة قد وسمت كل كلمة وكل حركة من حديثه وسلوكه فإن البرودة التي وسمت أسلوبه كانت بادية على نحو صارخ. ولقد بدا حقاً أن بشرة هذا الرجل الضئيل الجرم البيضاء تفرز برودة.

كانت قاعة استقبال الزوار غرفة صغيرة غربية. وشكّل جداران من جدرانها زاوية منفرجة تضمّ باباً ونافذة يطلان على شرفة بلّلها المطر. وبدت في الجدار الثالث فجوة تشبه التوكونوما، وملأ البخور الذي يحترق فيها الغرفة بعبق قوي زادت من حدّته الحرارة المنبعثة من المدفأة الغازيّة المتوهّجة.

أخيراً أقبل الأمير توين تحفّ به مهابة قائد فوج يرتدي حلة ذات لون بنّي قاتم، وقد تعمّد اللجوء إلى أسلوب مرح في الحديث ليتيح لضيفه الشعور بالارتياح.

قال بصوت أكثر ارتفاعاً مما يقتضيه المقام:

ـ طيب، ها قد أحضرتك إلى هنا في هذه الساعة من الضحى. فما أكرم أن تبادر بالمجيء!

قدّم هوندا بطاقة زيارة للأمير وانحنى انحناءة عميقة.

ـ أرجو أن تدع نفسك على سجيتها. إن ما دعاني إلى أن أطلب منك القدوم إلى هنا يرتبط بالقضية التي تقوم على أمرها. وقد قيل لي إنك مضيت في اهتمامك إلى حدّ الاستقالة من منصبك كقاضٍ لتتولّى مهمة الدفاع عن هؤلاء الشبان.

ـ هذا صحيح، يا سمو الأمير، فأحد هؤلاء الشبان هو نجل أحد معارفي الوحيد.

سأل الأمير بصراحة جديرة بجندي:

ـ أحسب أنه إينوما.

ضبّبت النافذة قطراتٌ من جراء الحرارة في الداخل والمطر في الخارج.

ولاح المطر غيمة وهو ينهمر على الأشجار في الحديقة الفسيحة، وعلى أشجار الصنوبر ونخيل القنب البادية خارج النافذة وقد لُفّ كل منها بالحصر المجدولة من القش لحمايتها من الثلج. وقدّم ساقٍ يضع يديه في قفازين أبيضين شاياً على الطريقة الإنجليزية. وملأ الأقداح الخزفية البيضاء بدفق رشيق كهرمانيّ اللون، متدفق من بُلْبُلة إبريق شاي فضيّ. سحب هوندا يده من الحرارة المفاجئة التي نقلتها ملعقته الفضية. وفي الحال ذكّره الدفء البالغ الحدّة بموادّ العقوبات في التقنين الإمبراطوري، وقد بدا أنها تتذبذب هنالك في الفضّة.

قال الأمير في هدوء:

ـ الحقيقة أن أحدهم قد اصطحب إيساو إلى داري. وفي ذلك الوقت ترك انطباعاً قوياً في نفسي، فقد أعرب عن مشاعره على نحو عاطفي محتدم، وبدا مخلصاً تماماً، ورأسه مليء بالأفكار السامية التي جعلت له عقلية متميّزة. وأياً كانت الأسئلة المليئة بالأحابيل التي طرحتها عليه، فقد كان ردّه يصيب كبد الحقيقة على الدوام. إنه فتى خطر إلى حدّ ما، ولكنه مستقيم على طول الخط. ومما يدعو للأسى حقاً أن يتعثّر مثل هذا الشاب الجدير بالتقدير، على هذا النحو. وهكذا، فحينما علمت أنك قد نحّيت مهنتك جانباً لتصبح محاميه سررت ورغبت في لقائك.

ـ إن هذا الفتى، يا سمو الأمير، مخلص تماما للإمبراطور. وبمناسبة حضوره إلى هنا هل أعرب لكم عمّا في دخيلة نفسه بما يؤكد ذلك؟

ـ نعم. لقد قال إن الولاء هو أن يقدّم للإمبراطور كرات من الأرز الحارّ بيديه، وبعد ذلك، وكائناً ما كانت النتيجة، فإن الولاء يقتضي أن يبقر بطنه. وقد أعطاني كتاباً بعنوان «عصبة الريح الإلهية»... ولكن من المؤكد أنه لن يُقْدِم على الانتحار. أتراه يفعل هذا؟

ـ إن الشرطة وسلطات الأمن متأهبة لمواجهة مثل هذا الاحتمال؛ ولذا فإنه لا داعي فيما يبدو للشعور بالقلق. ولكن، يا سمو الأمير... إلى أيّ

حدّ تشجعون سلوك هؤلاء الفتية؟ وإلى أي مدى تمضون في دعمهم، لا في الأعمال التي ظهرت على النور بـالفعل وحسب، وإنما في مؤامرتهم بـأسرها أيضاً؟ أو هل تجشّمون أنفسكم حقاً عناء تشجيع ما سينجم عن إخلاصهم المتّقد كائناً ما كان؟

قالها هـوندا، وقـد ازداد جرأة تـدريجياً، وبـدأ يحوّل دفّـة الحديث نحـو الاتجاه الذي يريده.

ـ ليس هذا بالسؤال السهل.

قالها الأمير وقد ارتسم تعبير يوحي بالضيق على محياه، وهو يـوقف قدح شـايه أمـام شاربـه، وقد ارتفـع شريط متموّج من البخـار من القدح. وفي تلك اللحظة استشعر هوندا دافعاً لا سبيل إلى تعليله يـدعوه لإبـلاغ الأمير بظروف موت كيواكي المؤسف.

من المحقّق أن تقـدير الأمـير لنفسه قـد عانى من جـرح قاسٍ من جـرّاء الحادثة التي كان كيواكي طرفاً فيهـا. ولكن هونـدا لم يكن على يقـين ممّا إذا كانت العاطفة هي المأخذ الذي أوتي الأمير منه. غير أنه لو كان كيان الأمير بأسره قد أصبح قبل سنوات مترعاً بالروعة التي تشعّ من ذلك الوهم البرّاق الـذي يجتذب كـل البشر ـ السامـين وذووي المكانـة المتواضعـة، الأثـريـاء والفقراء على حد سواء ـ إلى الموت، إلى الجحيم، لو أنه كان مديناً بجـرحه لتلك العاطفة الجاهلة تماماً بمراتب النـاس، والنبيلة كلية، التي تُعمي البشر بروعتها. . . ثم فيما يتعلق بساتوكو، لو أنها كانت هي نفسها لا غيرها التي حوّلت عاطفة الأمير إلى رماد. . . لو أمكن جعل هذا معروفاً الآن وفي هذه المكان. . . لما كانت هناك صلاة يمكن أن تدخـل العزاء عـلى روح كيواكي أكثر من هذا. أخـذ هونـدا يحدث نفسـه بأنـه ما من شيء يمكن أن يـدخل الارتياح على روح كيواكي أكثر من هـذا. فالحب والـولاء يفيضان من نبـع واحـد. ولو أن الأمـير تورين قـدّم برهـاناً واضحـاً على هـذا لوجـد هونـدا في

نفسه الدأب المترع بالإخلاص على المغامرة بكل شيء لحماية الأمير. وهكذا، وعلى الرغم من أن اسم كيواكي يعدّ كلمة محرّمة فإن هوندا، باستخدام القضية الراهنة كمجاز يوضح عاصفة العاطفة التي دفعت بكيواكي إلى حتفه، ستواتيه الشجاعة لاختبار الأمير بالحديث عن شيء احتفظ به حتى الآن لنفسه، انطلاقاً من الخوف من إظهار عدم الاحترام للأمير. ولربما كان ذلك في غير صالح إيساو خلال المحاكمة، وربما كان عليه كمحامٍ أن يتركه في رحاب الصمت. ولكنه لم يستطع كبح جماح الفكرة القائلة بأن صَوْتَيْ كيواكي وإيساو يصرخان معاً في أعماقه.

ـ الحقيقة، يا سمو الأمير، أنه وفقاً لما أظهره التحقيق، وعلى الرغم من أن هذا ما يزال موضع تكتّم شديد، فإنه يبدو أن مجموعة إينوما كانت تفكّر في شيء يتجاوز اغتيال رجال معنيّين في العالم المالي.

ـ هل ظهر شيء جديد؟

ـ لقد أحبطت بالطبع مؤامرتهم في مهدها، ولكن كما يمكن توقّعه من مثل هؤلاء الشبان فقد حركتهم رغبة عاتية في أن يروا سلطة الحاكم في قبضتي جلالة الإمبراطور الرحيمتين.

ـ هذا أمر مفهوم.

ـ أعتقد أن هدفهم الأول كان تشكيل مجلس وزراء يتولّى رئاسته أحد أعضاء العائلة الإمبراطورية. وإني لأجد صعوبة في قول هذا، ولكن الشرطة اكتشفت منشورات طبعوها سرّاً، وقد احتلّ اسم سموكم موضع الصدارة فيها.

ـ اسمي؟

هكذا صاح الأمير متسائلاً وقد انقلبت سحنته فجأة.

ـ لقد طبعت المنشورات بقصد توزيعها على وجه السرعة بعد عمليات الاغتيال لجعل الجمهور يصدق زيفاً قوامه أن الإمبراطور قد خوّلكم سلطة

التصرّف في الأمر. وما إن أدرك مكتب المدّعي العام وجودها حتى تصلّب موقف المسؤولين فيه على نحو لا يقاس بموقفهم في السابق. وغدت مهمتي الآن أكثر صعوبة. ووفقاً للشكل الذي سيعالجون به الأمر فإن هذا يمكن أن يؤدّي إلى أن تصبح الاتهامات بالغة الخطورة.

ـ هذه إهانة موجّهة ضد الإمبراطور! إنه أمر عبثيّ. إنه شيء يثير الشعور بالصدمة.

وعلى الرغم من أن صوت الأمير ازداد ارتفاعاً فإن هذا لم يُخْفِ رنّة خوف خالجته. وطرح هوندا الذي كان ما يزال مصرّاً على اختبار حالة الأمير الذهنية، سؤالاً آخر في هدوء. وتطلع بثبات محدّقاً في عيني الأمير اللوزيتين:

ـ إنها جرأة مني، يا سمو الأمير، أن أطرح عليكم هذا السؤال، ولكن أيمكن أن يكون هناك شعور مماثل في صفوف العسكريين؟
ـ كلا، على الإطلاق. فالعسكريون لا شأن لهم بالأمر قطّ، ومن العبث محاولة ربطه بالعسكريين. لقد جاء هذا الشيء بكامله من أذهان الطلاب المحمومة.

أدرك هوندا أن الأمير توين يوصد الباب غاضباً في وجه ضيفه لحماية العسكريين، وهكذا تبدّدت أغلى آماله.
ـ تخيّل أن فتى على مثل هذا القدر من الذكاء يخرج بمثل هذا الهراء.

قالها الأمير كأنما يدمدم محدّثاً نفسه، وأضاف:
ـ لقد خاب أملي بشدة. ومن بين كل الأمور يقوم على استغلال اسمي! يستغلّ اسمي بتلك الطريقة بعد زيارة واحدة، اسم أمير إمبراطوري! لقد فقد كل شعور بالالتزام ـ إنه على الأقل لا يعرف أين يتعيّن عليه التوقف. إنه لا يدرك أنه ليس هناك ما هو أعظم افتقاراً للولاء من توجيه إهانة

للإمبراطـور. هل هـذا هو مفهـومه للولاء؟ لـلإخلاص؟ كم هـو محزن أن يكون الشبان قد أصبحوا على تلك الشاكلة!

لم يعد هناك أدنى أثر لشهامة قائـد فوج عسكـري، فقد شملت الـبرودة قلبه فجأة. وأدرك هوندا بسهولة، وهو يصغي إليه، التغـيّر الذي طـرأ على حماسته. فالنار التي اتّقدت في الصدر الإمبراطوري خبت لهيباً وجمراً.

راح الأمير توين يحدِّث نفسه بأنه من حسن الطالع أنـه قرر مقـابلة هذا المحامي. وأما الآن فإنه حينما يرفع آيات الولاء لسمو الإمبراطور، بمنـاسبة قدوم العام الجديد، لن يـأتي على ذكـر هذا الأمـر أمامـه، وهكذا سيتجنّب كل شعور بالخزي قد يعقب ذلك. ولكن الهـواجس تدفّقت في ذهنـه. فلا يبدو ممكناً أن مجموعة من الطلاب قد دبّرت مثل هذه الإهانة للإمـبراطور. وما أغرب أن لا يصله شيء عـلى الإطلاق من المـلازم هوري منـذ انطلاق هذه القضية! لقد شعر الأمير توين بـالأسف حين علم بنقله إلى منشـوريا، وأما الآن، وفيما هو يمحّص الأمر، فقـد بدأ يتسـاءل عما إذا لم يكن المـلازم هو الذي تـطوّع للذهاب هـارباً قبـل انطلاق القضيـة من عقالهـا. ولو أن الأمر كان كذلك فمعناه أن الأمير قـد جرى استغـلاله وخـانه هـذا الضابط الذي وثق فيه كل الثقة.

ولمـا كانت كـراهيتـه تضرب جـذورهـا في الخـوف فقـد استمـرت عـلى تعـاظمها. ولأمـر طويـل كان مـوقف تـوين حيـال المسؤولـين في الـديـوان الإمـبراطوري والنخبـة التي تشكّل الـطبقة العليـا موقفـاً قوامـه عدم الثقـة والاشمئـزاز. والآن ها هي ذي رائحـة الخيانـة العفنـة تنبعث من الجـانب الذي كان يَعُدُّه مأمنه. لقد كانت هذه الرائحة مألوفة تماماً بالنسبة له. ومـا كان عليه إلا أن يفكر قليلاً لتتناهى إليه ذكرى أنه منذ طفولتـه كانت هـذه الرائحة تنبعث من كل الجوانب حوله. رائحـة وجار الثعلب. ومهـما حاول إبعادها عنه فإنها تعود لتلوّث محيطه الرفيع، كـريهةً تلطم الخيـاشيم، رائحة فضلات الخيانة.

أطل هوندا من النافذة على المطر المنهمر. لقد ازداد الزجاج تضبباً والتمع على نحو كئيب لون الحصر الجديدة التي لُفَّت على سبيل الحماية حول نخيل القنب، وسط المشهد الذي أغرقه المطر معطياً الانطباع بحشد من الرجال يرتدون زياً خاكياً، وقد احتشدوا حول النافذة. وكان هوندا يعلم أنه يوشك على القيام بمقامرة خطرة، مقامرة ما كان يمكن أن تخطر له قطّ على بال خلال السنوات التي عمل فيها قاضياً. ولم يكن بالطبع قد وصل إلى دارة الأمير وفي ذهنه هذه الاستراتيجية بالفعل. ولكن، حيال رماد عاطفة سموه المثير للإشفاق وقد بدا أمام عينيه، تواثب في أعماقه أمل مفاجىء لا يرعوي، لسوف يكون هذا المنهاج مختلفاً، ولن يكون أمراً متعلقاً باهتمام الأمير بإنقاذ إيساو. لسوف يكون للمنهاج الباقي أمام هوندا، وهو المنهاج الأكثر قوة وتماسكاً، تأثير محدّد هو تحويل الأمير توين بلطف باتجاه بذل جهد لإنقاذ إيساو من غير أن تكون لديه أدنى نيّة للقيام بذلك. وفي هذه اللحظة لم يكن هناك شخص، إلا هوندا، يمكنه أن يغرس مثل هذا التصميم في نفس الأمير، كما أنه لن تتاح فرصة أخرى كهذه الفرصة المتاحة الآن. وهكذا شعر دون أدنى تردّد بأنه ملزم بدفع الأمير إلى هذا بصورة حاذقة. فقد كانت المنشورات التحريضية المذكورة في يد الادّعاء دون أن يعرف الرأي العام عنها شيئاً.

قال هوندا محاولاً الحديث بهدوء بقدر ما يستطيع:

ـ فيما يتعلق بتلك الوريقات التي ورد اسم سموكم فيها، إذا سمح لها بأن تظلّ حيث هي، وإذا ترتبت على ذلك أية تبعات محرجة بالنسبة لسموكم، فإنني أخشى أن يفرض نفسه موقف مترعٌ بسوء الحظ.

ـ تبعات محرجة؟ تنشأ من شيء لا صلة لي به؟

للمرة الأولى تطلع الأمير إلى هوندا بعينين يتجلى فيهما الغضب بوضوح. غير أنه لم يرفع صوته إلا قليلاً، الأمر الذي كشف عن أنه يشعر ببعض

الخوف من الاستسلام للغضب. ولكن غضبه كان شيئاً ثميناً بالنسبة لهوندا الذي ساوره شعور بأن عليه أن يستفيد من هذا الغضب أعظم استفادة ممكنة.

ـ أستميح سموّكم عفواً، ولكن يبدو لي أن هذه المنشورات خطيرة، وعلى الرغم من حرصي على كل ما يتعلّق بسموكم فلست أملك القدرة على حجب هذه المنشورات. وما لم تتحركوا بسرعة فإن أمرها سيغدو عاجلاً أو آجلاً معروفاً للرأي العام. وعلى الرغم من أنكم لا صلة لكم على الإطلاق بهذه القضية، فسيفسح المجال للتكهّن بأنكم ضالعون فيها.

ـ أتقصد أنني أملك القدرة على حجبها؟

ـ أجل، سموكم، إنكم تحظون بالقدرة على ذلك.

ـ كيف؟

ردّ هوندا بلا تردّد:

ـ إنها مسألة تتعلّق ببساطة بقيام سموكم بتوجيه تعليمات في هذا الشأن إلى رئيس الديوان الإمبراطوري.

ـ أتقول إن عليَّ الركوع أمام رئيس الديوان الإمبراطوري؟

لقد علا أخيراً صوت الأمير كذي قبل، وارتعشت الأصابع التي أخذ يطرق بها على ذراع مقعده من فرط الغضب، واتسعت عيناه المؤثرتان وجمد بؤبؤاهما. وبدا متجهماً كأنما يصيح مُصدِراً أوامره إلى قواته من فوق صهوة جواد.

ـ كلا، على الإطلاق، يا سمو الأمير، فلو أنكم أصدرتم أوامركم لقام رئيس الديوان بترتيب الأمور على نحو مقبول. ذلك أنني عندما كنت قاضياً طرأ أمر له بعض التأثير على العائلة الإمبراطورية، وقد عاملت الأمر بأقصى قدر من الاهتمام، ولسوف يلتقي رئيس الديوان الإمبراطوري وزيرَ العدل،

ويُصدر وزير العدل أوامره للمدّعي العام، ويتمّ تجاهل وجود هذه المنشورات كلية.

ـ هل يمكن القيام بذلك في يسر؟

طرح الأمير هذا التساؤل مصحوباً بتنهيدة قصيرة. فقد ارتسمت أمامه سحنة رئيس الديوان الإمبراطوري بابتسامته الناعمة المقيتة تلك.

ـ نعم، يا سمو الأمير، في ضوء سلطة سموكم...

بدت لهجة حديث هوندا متلهّفة وحاسمة للغاية، حتى إن الأمير توين لاح وقد استمدّ منها كثيراً من التشجيع.

حدَّث هوندا نفسه قائلاً إنه بهذا أُزيح ظلّ خطر مشؤوم كان يتراقص فوق جريمة إيساو. ولكن إذا تمّ هذا على نحو يُدخل السعادة على النفوس، فإن ما يتعين التخوف منه الآن هو الانتقام المراوغ من جانب المدّعي العام.

- ٣٣ -

بعد أن أمضى إيساو فترة أعياد العام الجديد في زنزانة تابعة للشرطة، نُقل إلى سجن إتشيجايا في نهاية كانون الثاني (يناير)، وهو الوقت الذي صدر فيه قرار الاتهام. ومن خلال نسيج غطاء الرأس الذي يشبه السلّة، والذي يعتمره السجناء، لمح البقايا الملطخة لنتف الثلج التي هَمَت عبر يومين وتراكمت في البقاع الظليلة على امتداد الشوارع. وزاد من تألّق ألوان اللافتات الإعلانية المعلقة على واجهات المحلّات أشعة أصيل الشمس الشتائية. وفتح مدخل السجن الحديديُّ الجنوبيُّ الذي يبلغ ارتفاعه خمسة عشر قدماً، بقعقعة عالية صدرت عن مفصّلاته، مفسحاً المجال للسيارة التي تقلّ إيساو، ثم أُوصد من جديد.

تمّ استكمال بناء سجن إيتشجايا في عام ١٩٠٤. وكان بناءً خشبيَّ الهيكل طُلي خارجه بالملاط الرماديّ، وجدرانه الداخلية كلّها على وجه التقريب بالجصّ الأبيض. وبعد ولوج السجن من البوابة الجنوبية ترجّل السجناء الذين ينتظرون المحاكمة، من السيارة التي أقلتهم، وساروا عبر ممر مسقوف أفضى بهم إلى قاعة التدقيق التي تُدعى «القاعة المركزية».

كانت مساحة هذه القاعة الجرداء تزيد على ستين قدماً مربّعاً. وقد اصطفّت على امتداد أحد الجدران مهاجع خشبية ضيقة تشبه أكشاك الهاتف. وهنالك انتظر السجناء أدوارهم. وعلى الجانب الآخر كان مرحاض له باب زجاجي. وقد جلس الضابط المختص على ما يشبه رصيفاً عالياً محاطاً بحاجز خشبي، وإلى الوراء مباشرة كان ثمة مكان لتغيير الملابس، لا تغطّي أرضيته إلا حصر رقيقة.

لفّهم برد قارس. واقتيد إيساو مع الآخرين إلى موضع تغيير الملابس، وهناك دفع إلى التجرّد من ملابسه تماماً. وقد اضطر إلى فتح فمه، وأرغم على أن تُفحص الصفوف الداخلية من أسنانه، وراح الحراس يحدّدون النظر داخل تجاويف أذنيه وأنفه. ونُشرت ذراعاه، وتمّ تمحيص واجهة جسمه، ثم تعين عليه الاستناد إلى أطرافه الأربعة، وتمّ فحصه من الخلف. وإذ يعامل جسم المرء على هذا النحو الغليظ فإنه يبدأ بالظهور ككيان غريب عن صاحبه، وتظلّ أفكار المرء وحدها آمنة في سربها. وكانت هذه الحالة الذهنية بالفعل ملاذاً يلجأ إليه المرء من الإذلال. وإذ تجرّد إيساو من ملابسه، وعمّت القشعريرة جسمه بكامله، فقد شعر بسياط البرد تنهال على كل جزء منه عندما لاح له شبح متألق يجمع بين اللونين الأحمر والأزرق. ماذا كان هذا؟ واتفق أن استعاد ذكرى فنان مبدع للوشم أدمن المقامرة وكان معه في زنزانة مشتركة. وقد فتن هذا الرجل ببشرة إيساو وتوسّل إليه مراراً وتكراراً أن يدعه يصوّر بالوشم على جلد ظهره الفتيّ أسوداً وزهرات فاوانيا. ولماذا الأسود وزهرات الفاوانيا؟ ربما لأن هذا النسق المؤلف من اللونين الأحمر والأزرق، شأن انعكاس سحب مغيبية متوهّجة على المياه القائمة في مستنقع يكسو أرض أحد الأودية، كان اندلاعاً مغيبياً للون ينبعث من حضيض الإذلال ذاته. ولا شك في أن فنان الوشم قد رأى الشمس الغاربة وهي تنعكس غائرة في أحد الأودية. وما من شيء إلا الأسود وزهرات الفاوانيا يكفي للإمساك بها(1).

(1) أتساءل عما إذا كان ميشيما يحيل القارىء هنا إحالة غير مباشرة على عمل جونيتشيرو تانيزاكي الجميل الموسوم بـ «الوشم»، بما في ذلك مصير مبدع الوشم والبطلة التي رسم بالوشم صورة عنكبوت هائل على ظهرها. ويمكن للقارىء أن يحكم بنفسه. فلقصة تانيزاكي هذه ترجمات عربية عديدة، بل لعلها من النصوص اليابانية النادرة التي ترجمت إلى اللغة العربية مراراً وتكراراً، فإن لم =

غير أنه عندما شعر إيساو بيد الحارس تتحسس الشامات على جانبه وتعتصرها للحظات، أدرك من جديد أنه ليس بمقدوره أن يقدم على الإنتحار قطّ من جراء شعوره بالإذلال. وكان خلال لياليه المسهّدة في الزنزانة التي احتجز فيها، قد داعبت خياله فكرة الانتحار. ولكن مفهوم الانتحار ظلّ بالنسبة له على نحو ما كان دائماً، شيئاً متوهجاً ومترفاً على نحو بالغ الغرابة.

كان بمقدور السجناء الذين ينتظرون المحاكمة ارتداء ملابسهم الخاصة، ولكن إذ اضطر إيساو لتسليم ملابسه لكي يتم تبخيرها فقد ارتدى زي السجن الأزرق يوماً واحداً. كما تعين عليه جَمْعُ مقتنياته الشخصية وتسليمها للحراس، باستثناء ما يحتاجه في حياته اليومية. ثم أصغى إلى تعليمات مختلفة من الضابط المسؤول الذي وقف معتلياً منصته السامقة، عن الهدايا التي ترسل إليه في السجن، والزيارات، والرسائل، وما إلى ذلك. وأرخى الليل سدوله.

باستثناء الأوقات التي يتمّ فيها المضي بإيساو إلى المحكمة الجزئية لحضور الجلسات الأولية وقد أحاط القيد بمعصميه، والتفّ حبل حول خاصرته، فقد أمضى أيامه وحيداً في زنزانة في المبنى الثالث عشر من سجن إيتشجايا.
وكانت تدوّي في السابعة صباحاً صفارة بخارية مطلقة إشارة الاستيقاظ. وتقع هذه الصفارة فوق المطبخ مستمدة طاقتها من غلاياته. وعلى الرغم من أن دويّها ليس من النوع الذي يخترم الآذان فإنه يبدو كما لو كان يتردّد مترعاً بدفء الحياة المرح الذي يلفّه البخار. وفي السابعة والنصف مساء

= يفلح القارىء في العثور عليها في أي من هذه الترجمات، فسوف يجدها في:
Morris, Qvan ed. - Modern Japanese Stories - Charles E. Tuttle - Tokyo - 1987 - Q. S. B. N. 0 - 8048 - 1226 - 8.

(هـ. م.)

تـطلق الصفارة ذاتها شارة الإخـلاد إلى النـوم. وذات ليلة سمـع إيسـاو، والصفـارة تطلق دويهـا، صرخة أعقبتهـا على التـوّ صيحات سبـاب. وتكـرّر هذا في الليلة التاليـة. وفي تلك الليلة الثانيـة أدرك إيساو أن الصرخـة التي انـطلقت متسـترة بـدويّ الصفـارة كـانت صـادرة عن سجـين يهتف «تحيـا الثورة!» في تواؤم مع زميل مُـودَع في زنزانـة تطل نـافذتهـا عليه من الجـدار المقـابل لـه. وكانت صيحـات السبـاب هي الصيحـات التي أطلقهـا أحـد الحـراس وقد سمعهـا. ولم يقدر لإيسـاو سماع صـوت هذا السجـين مـرة أخـرى قطّ، ربما لأنـه نقل إلى زنـزانة عقـاب. وأدرك إيساو أن الكـائنـات البشريـة يمكن أن تتواصـل مشاعـرهم كالكـلاب النابحـة في المدى في ليلة باردة. وبدا الأمر كما لـو أن بمقدوره أن يسمـع الاضطراب القلق للكـلاب المقيّدة بالأغـلال وصوت المخالب وهي تخمش الأرضية الإسمنتية.

وقـد افتقد إيسـاو بدوره رفـاقه بـالطبـع. ولكن حتى في زنزانـة الحجـز المشتركة التي أودع فيها بعد نقله بالحافلة لانتظار جلسات المحكمة الأولية لم يتمكن من معـرفة أي شيء عنهم، دَعْ جـانباً أن تقـع عينـاه عـلى محيـا أي منهم.

شكّل التطاول التدريجي للنهار المؤشر الـوحيد لاقـتراب الربيـع. وكانت الحصر المجدولة من القش التي تكســو أرضية زنـزانته مـا تزال تبـدو كما لـو صنعت من ثلج هشّ. وجعل البرد ركبتيه تتصلّبان.

تـاق لرؤيـة رفاقـه الذين اعتقلوا معـه. وأما فيـما يتعلق بأولئـك الـذين ابتعدوا مسرعين، دونما جهد، قبيل موعد توجيههم الضربة فإنه حينما يفكر فيهم يشعر، بدلاً من الغضب، بشيء غامض. فقد جلب تراجعهم شعوراً بالهدوء، بخفة شجرة قلّمت حديثاً. ولكن ما الذي كان يقبع في قلب هذا الغموض؟ ما الذي جلب هذا الشعـور المناقض؟ إنـه كلما أمعن في التفكير في هذين السؤالين ازداد تجنّباً لكلمة «خيانة».

قبل أن يُودَع إيساو السجن، لم يكن بالذي يطيل التفكير في التاريخ. وإذا ما فكر فيه يوماً فإن ذهنه يتجه في الحال إلى عصبة الريح الإلهية، والعام السادس من عهد الإمبراطور ميجي. غير أن كل شيء الآن فرض عليه التفكير في الماضي البالغ القرب. فلقد كان الملازم هوري، بالطبع، هو السبب المباشر في مثل هذا السقوط السريع بالنسبة له ولرفاقه الذين أدّوا القسم. ولكن رفاقه كانوا منذ البداية، قد أقسموا دون انتظار التيقن من أن المشروع ممكن. ولقد تداعى شيء ما على حين غرة، تَيْهورٌ من أعماق فؤاده، شيء لا يمكن كبح جماحه. ولم يكن إيساو نفسه ببعيد عن إدراك ذلك التَيْهور الداخلي. وكان إيساو على يقين مع ذلك من أنه ما من أحد من المجموعة التي أدّت القسم كان بمقدوره، في ذلك الوقت، التنبؤ بالموقف الراهن. فلقد كان ما سَعَوا وراءه وقتذاك هو الموت. وقد عزموا تماماً على القتال والموت. حقاً إنهم قد افتقروا للحذر اللازم لتحقيق أهدافهم. وقد كانوا على يقين من أن اندفاعهم لا يمكن أن يجلب إلا الموت. فكيف وصلوا إلى هذه النهاية المترعة بالذل والعذاب؟ كانت فكرة إيساو عن النقاء فكرةً عن طائر نبيل أُريد له أن يفنى بالتحليق على ارتفاع شاهق للغاية حتى لتحرق الشمس جناحيه، ولم يقدَّر له قطّ أن يحلم بأن أيّ يد يمكن أن تنال ذلك الطائر حيّاً. وأما فيما يتعلق بساوا الذي لم يكن معهم لحظة اعتقالهم، فلم يخطر ببال إيساو شيء عمّا قد يؤول إليه مصيره، ولكن على الرغم من أنه لم يرغب في التفكير في الأمر فإن محيّا ساوا أخذ يأتلق على نحو مقيت في ركن عميق وناءٍ من المشاعر التي كانت تصطخب في صدر إيساو.

تطرح المادة الرابعة عشرة من قوانين الحفاظ على السلام الأمر بوضوح قاطع: «تحظر حظراً باتاً كل التنظيمات السرّية». والتنظيمات الموالية، كتنظيم إيساو ورفاقه، وهي تترابط بقوة في رفقة سداها الدم ولحمتها استعداد أعضائها لسفك دمهم الفائر لكي ينطلقوا إلى علّيين، هي تنظيمات

محرّمة بحكم طبيعتها ذاتها. ولكن فيما يتعلق بالتنظيمات السياسية المتهالكة على المزيد من تضخيم كروش ذوي المصالح المعنية، وبالنسبة للمؤسسات العاكفة على تحقيق الأرباح، فلم يكن هناك اعتراض على تشكيل أي عدد منها. فمن طبيعة السلطة أن تخشى النقاء أكثر ممّا تخشى أي نوع من أنواع الفساد. تماماً كما أن الهمج يخشون العلاج الطبّي أكثر ممّا يخشون المرض.

وصل إيساو أخيراً إلى الأسئلة التي كان قد تجنّبها حتى الآن: «هل الجماعة التي تربطها صلة الدم تستدعي في حدّ ذاتها الخيانة؟ لقد جسد هذا السؤال أكثر الأفكار إثارة للفزع.

لو أن البشر وحّدوا قلوبهم متجاوزين درجة معيّنة، لو أنهم عقدوا العزم على جعل قلوبهم قلباً واحداً، أفلا ينطلق ردّ فعل عقب انحسار ذلك الخيال العابر، ردّ فعل يتجاوز مجرّد الاغتراب؟ ألا يثير على نحو حتمي خيانة تؤدّي إلى الانفصام التام؟

ربما كان هناك قانونٌ غير مكتوب من قوانين الطبيعة البشرية يحظر بوضوح العهود بين البشر. ترى هل انتهك بصفاقة مثل هذا الحظر؟ في العلاقات العادية بين البشر يظهر الخير والشر، الثقة والتشكك، بصورة بعيدة عن النقاء والوضوح، إذ يختلط هذا كله بمقادير صغيرة. ولكن عندما يجتمع البشر ليشكّلوا جماعة تكرّس ذاتها لنقاء لا ينتمي إلى هذا العالم فإن شرّهم قد يبقى. لقد تطهّر منه كل عضو من أعضاء هذه الجماعة، ولكنه يلتحم ليشكل بلّورة واحدة خالصة. وهكذا فإنه في قلب مجموعة من الجواهر البيضاء النقية، ربما كان من المحتّم أن توجد كذلك جوهرة سوداء كالقطران.

إذا مضى المرء بهذه الفكرة إلى الأمام قليلاً فإنه يصطدم بسلسلة أفكار بالغة التشاؤم: إن جوهر الشرّ يوجد في الجماعات التي تربطها رابطة الدم بأكثر ممّا يوجد بحكم طبيعته في الخيانة. ذلك أن الخيانة شيء يُستَمَدّ من

هذا الشرّ، ولكن الشرّ يضرب جذوره في الجماعة التي تربطها آصرة الدم ذاتها. وبتعبير آخر فإن الشرّ الخالص في أوضح صورة، الشرّ الذي يمكن للجهود البشرية أن تحقّقه، قد يتحقق على يد أولئك الذين يوحّدون إرادتهم ويجعلون عيونهم ترى الدنيا بالطريقة ذاتها، الذين ينطلقون ضد نمط تنوع الحياة، الذين تُحطِّم روحُهم السورَ الطبيعي المتمثّل في الجسم الفردي، مبدّدة هذا الحاجز الذي أقيم ليقف في وجه التآكل المتبادل، الذين تُحقِّق أرواحهم ما لا يستطيع اللحم البشري أن يحقّقه قطّ. فالتواطؤ والتعاون تعبيران هشّان يربطهما علم دراسة الإنسان. ولكن الجماعة التي تربطها آصرة الدم... تلك مسألة تتعلّق بالاندفاع المتلهّف لربط روح المرء بروحٍ آخَر. ويفصح هذا في حدّ ذاته عن هزء صارخ بالتطور البشري المحبط الشاقّ الذي في إطاره يُعيد تطوُّرُ الكائن الفرد على نحو مختصر التطوُّرَ الجمعي بلا انتهاء، ويحاول الإنسان إلى الأبد الاقتراب قليلاً من الحقيقة، فلا يبقى إلا الإحباط على يد الموت، وهو تطور طالما تعيّن البدء به من جديد، خلال الإغفاء في السائل الأميني. ومن خلال الإخلال بهذا الشرط الإنساني فإن الجماعة التي تربطها آصرة الدم تحاول اكتساب نقائها. وهكذا فربما كان من الأمور المتوقعة أن تجلب هذه الجماعة بدورها، وبحكم طبيعتها، خيانتها. ومثل هؤلاء الناس لم يحترموا الإنسانية قطّ[1].

(١) هذا، بالطبع، استطراد آخر من استطرادات ميشيما التي أشرنا إليها في أكثر من موضع على امتداد نص الرباعية. ولكن الاستطراد الماثل بين أيدينا هنا هو بمثابة نص ثمين يفنِّد من خلال كلمات ميشيما نفسه ـ وهي كلمات يبدو خروجها على السياق جلياً تماماً ـ الصورةَ المغلوطة التي تحاول بعض الأقلام الغربية أن ترسمها لميشيما، باعتباره رجلاً يمينياً يؤمن بمجموعة ضيّقة من الأفكار قادته إلى اعتناق منهاج تآمري أفضى به إلى موت طقوسي عبثي. إن ميشيما يعلن هنا، وكأنما في رسالة من وراء القبر، رفضه التام لهذه الرؤية، بل وإدانته لها. (هـ. م.)

لم يتابع إيساو، بالطبع، الفكرة إلى هذا المدى. ولكن من الجليّ أنه وصل إلى موضع تعينّ عليه فيه أن يحقّق نوعاً من الإنجاز، من خلال إمعان التفكير. وقد ساوره شعور بالضيق من أن ذهنه يفتقر إلى نواجذ كلبية حادّة لا ترحم.

كانت السابعة والنصف مساءً وقتاً مبكّراً للهجوع، وفاقم من أرقه ضوء المصباح ذي العشرين وات الذي يظلّ طوال الليل، والأثر الذي يحدثه القمل إذ يشرع في التحرّك، ورائحة البول الكريهة المنبعثة من الوعاء الخشبي الزيتوني في ركن الزنزانة، والبرد الذي يدفع الحمرة إلى وجهه. ولكن سرعان ما كانت تبلّغه صفارات قطارات البضائع التي تمر بمحطة إيتشجايا بأن الليل قد أوغل في مسيرته حتى الذورة.

وكان يحدِّث نفسه ضاغطاً على أسنانه: «لِمَ؟ لِمَ؟ لِمَ لا يُسمح للناس بالقيام بما هو الأكثر جمالاً، بينما الأعمال القبيحة الوضيعة، الأعمال التي تستهدف الكسب، يُسمح بها بملء الحرية؟

وفي حين لا يُشكّ في أن أسمى الأخلاق تقبع مختفية في نية القتل فحسب فإن القانون الذي يحظر هذه النية يطبق بالاسم المقدس لجلالة الإمبراطور، الشمس الملتفة بالكمال. وهكذا فإن أسمى الأخلاق تُعاقَب من قبل من هو تجسيد لأسمى الأخلاق. منذا الذي يمكنه أن يضع جنباً إلى جنب عناصر هذا التناقض؟ أيمكن أن يكون لجلالة الإمبراطور أي علم بمثل هذه الحيلة المروّعة؟ أليس هذا نظاماً تجديفياً أنفق الافتقار البارع للولاء الكثير من الوقت والجهد لاستنباطه؟

لست أفهم. لست أفهم الأمر على الإطلاق. إننا بعد أن ننجز القتل لن يُخْلِفَ أحدنا عهده بأن ينتحر في الحال. وهكذا فإنه لو أمكننا القيام بما عقدنا العزم على أدائه فإنه ما من غصن واحد، ما من وريقة شجر واحدة في أجمة القانون المتشابكة، كان سيمسّ طرف ردن أو حاشية الكيمونو

الذي يرتديه أحدنا. كنا سننسلّ على نحو رائع من خلال الأجمة ونمضي مندفعين إلى سماء علّيين المؤتلقة. وكذلك كان الحال بالنسبة لعصبة الريح الإلهية. وإني لأعرف أن أعشاب القانون المشتبكة لم تكن قد نمت بهذه الكثافة في العام السادس من عهد ميجي. وما القانون إلا تراكم محاولات لا تعرف الكلل لسدّ الطريق في وجه رغبة الإنسان في تغيير الحياة إلى دفق فوريّ من الشعر. ومن المؤكد أنه لن يكون من الصواب ترك كل شخص يستبدل حياته لقاء بيت من الشعر مكتوب بنثار من الدم. ولكن كتلة البشر التي تفتقر إلى البسالة تنفق حياتها دون أن يُقدَّر لها قطّ الشعور بأدنى لمسة من هذه الرغبة. ومن هنا فإن القانون موجَّه بحكم طبيعته إلى أقلية صغيرة من البشر. النقاء الفذّ لقبضة من الرجال، الإخلاص المترع بالعاطفة الذي لا يعرف شيئاً عن معايير العالم... القانون نسق يحاول التدنّي بهما إلى «الشرّ» على المستوى الذي تقع عنده حوادث السطو والجرائم العاطفية. إنه شَرَك مُحْكَم ذلك الذي تردّيت فيه، لا لشيء إلا لأن أحدهم أقدم على اقتراف الخيانة!».

نفذت طعنة صفير قطار لنقل البضائع يجتاز محطة إتشيجايا أفكاره مخترقة إياها. وحملت إلى ذهنه صورة رجل هيمن عليه انفعال بالغ الطغيان، إلى حد بدا معه ذلك الرجل وكأنه شخص يتدحرج على الأرض ليطفىء كيمونو مشتعلاً. وقد التفّت الصرخة التي تمزق نياط القلب، وقد أطلقها الرجل المتردّي في السواد، بفيض من جزئياتها النارية، وتألقت حمراء بفعل وهجها المتّقد.

غير أن صفير هذا القطار قد اختلف عن صفير السجن بدفء الحياة الزائف الذي ينتحله. فهذا الصوت، وعلى الرغم من أنه يدوي ملتوياً من جراء العذاب، إلا أنه ينبض بحرية لا حدود لها، ويتيح وصولاً هيّناً إلى المستقبل. جزء آخر من البلاد، يوم آخر - حتى إطلالة يكسوها الصدأ

لصباح أشهب يشف الألم وجهها، تتجلّى فجأة في صف المرايا الذي يعلو أحواض الغسيل على رصيف محطة ما، لم تكن كافية لإبعاد الجاذبية القوية التي تحظى بها الغرابة التي يحملها الصفير على جناحيه.

ثم أهلّ الفجر على نافذة السجن. ومن نافذة الزنزانة الواقعة في أقصى الشرق، على يمين الصفوف الثلاثة في المبنى رقم ١٣، وبعد ليلة مسهّدة، أخذ إيساو يرقب الشمس الشتائية الحمراء وهي تشرق.

بدا الأفق شبيهاً بسور شاهق، وتشبثت الشمس بذلك الخط وكأنها كعكة أرز لينة دافئة قبل أن تمضي في رفق صاعدة في مسيرتها. لقد رفضت اليابان التي تشرق عليها تلك الشمس المساعدة التي تقدّم بها إيساو ورفاقه، وقبعت طريدة المرض والفساد والكارثة.

وبعد ذلك، وللمرة الأولى في حياة إيساو، بدأت الأحلام تتراءى له.

لم تكن تلك بالطبع المرةَ الأولى التي يحلم فيها بصورة فعلية، ولكن أحلامه السابقة كانت من نوعية الأحلام التي ينساها شاب مترع بالصحة مع مَقْدم الصباح. ولم يحدث أن تطاول حلم من أحلامه قطّ بحيث يؤثر على ساعات يقظته. وأما الآن فالأمر مختلف. لم يكن حلم البارحة يواصل حضوره على امتداد الصباح فحسب، وإنما خلال يومه بكامله، وفي بعض الأحيان كان يتصل بحلم ليل أمس الأول أو يستمرّ في حلم الليلة المقبلة. وكانت أحلامه تشبه ملابس متوهّجة الألوان عُلّقت لكي تجفّ، وتُركت منسية تحت المطر، متدليةً من عصا نشر الملابس دون أن يُقدَّر لها قط أن تجفّ. تواصل المطر. ربما كان ثمة رجل مجنون يقطن في الدار، وربما أضيفت أثواب أخرى من الحرير المطبوع إلى عصا نشر الغسيل فبدت بقعاً زاهية من الألوان في مواجهة السماء الكابية.

وذات ليلة تراءى له حلم عن ثعبان.

كان المشهد يـوحي بأجـواء استوائيـة، ربما هي حـديقة دارة فسيحـة في مكـان ما، تحيط بهـا أدغال بـالغة الكثـافـة، حتى إن الأسـوار التي تشكـل حدودها لم يكن من الممكن أن تقع عليها العين.

بدا أنه في وسط هذه الحديقة القريبة من الأدغال كان يقف في شرفة من حجر رمادي متداع ، ولم يكن بمقدوره رؤية الدار التي يشكل الدرج جـزءاً منهـا، ولم يكن هناك إلا هـذه الشرفة المـربعة التي حـدّدت منطقـة رمـاديـة حجرية من السكون، تجثم في كل ركن من أركانها، ناهضـة من الأعمدة، صُوَرٌ حجرية لثعابين الكوبرا وكأنها أيادٍ أربع ممتـدّة تدفـع إلى الوراء الهـواء الاستوائي الثقيل. مربّع حارّ من الصمت نحت من قلب الأدغال.

تناهى إلى سمعه طنين البعوض، وسمع أزيز أجنحة الذبـاب. ورفرفت حوله فراشات صفراء، وانهمرت صيحـات الطيـور من أعلى كـأنها قطرات من ميـاه زرقاء لا تكفّ عن التسـاقط. وبين الفينـة والأخـرى كـان تبلغـه صرخـة طائـر أخرى، صرخـة مهتاجـة بدا أنها تنـدفع ممـزقة قلب الكثـافة المتشابكة للنباتات الخضراء. ومضت زيزان الحصاد تصدر أزيزها.

غير أن ما لطم الأذن بقوة تفوق هذه الأصوات المتنوعـة، كان تصخـابـاً يشبه زئير عـاصفة رعـدية مفـاجئة. غـير أنه لم يكن كـذلك بـالطبـع. فقد مضت ريـح عابـرة تهز نبـاتات الأدغـال التي تربط أطـراف قمم الأشجـار بعضها ببعض على ارتفاع بعيد عن الشرفة المسقوفة. ولكن بما أن تأثيرها لم يكن ملموساً في الأسفل فإن المؤشّر الوحيد لمرورها تَمَثَّل في حركة نقاط سنى الشمس التي ترقّش رؤوس الكوبرا.

وإذ قبضت الـريح في الأعـالي على وريقـات الأشجار فـإنها مـا لبثت أن انزلقت عبر خضرة الأدغال، وتردّد الصوت الذي أحدثته وكأنه صوت مطر ينهمر. ولم تكن الوريقات كلها حديثة الانـتزاعِ من غصونها، فقـد تدافعت أطراف الأشجار بعضها في مواجهـة بعض لتزنـر كتلة الأغصان غـير القابلة

للاختراق، على وجه التقريب، تلك الكتلة التي تحتجز الوريقات وهي تهوي إلى الأرض. ومن شأن هبوب ريح جديدة أن يدفع هذه الوريقات إلى السقوط من جديد، شاقّة طريقها عبر الغصون محدثة صوتاً يشبه صوت انهمار المطر، وبما أن الوريقات كانت عريضة وجافة فقد أحدثت جلبة مضى صداها يتردّد. ولاحت كل وريقة سقطت على الشرفة الحجرية وقد تضخّمت بأشنة في بياض الجذام كبيرة الحجم.

حاكى الضوء الاستوائي الآلاف من رؤوس الحراب المتكتلة، تنطلق بها قوات تغذّ السير. وسقطت الانعكاسات في كل مكان حول إيساو، فيما تسربت بقع من سنى الشمس عبر الأغصان الممتدة فوقه. ومن شأن النظر إلى ذلك الضوء مباشرة أن يبهر البصر، كما أن من شأن لمسه أن يحرق أصابع المرء. ومن وراء نباتات الأدغال أبقى ذلك الضوء كل شيء تحت الحصار. وأحس إيساو بوجوده يتدفق هادراً، حتى على الشرفة.

في تلك اللحظة لاحظ إيساو ثعباناً صغيراً أخضر(1) يطل برأسه عبر الحاجز. وكان ما بدا نباتاً معترشاً ممتدّاً قد ازداد طولاً على نحو مفاجىء. كان الثعبان غليظاً للغاية، كأنه تمثال شمعي، ملوّن بظلال قاتمة وبلمسات فاتحة من اللون الأخضر. ولم يكن جسمه الوافر الاصطناعي المظهر نباتاً معترشاً، وهو أمر أدركه إيساو متأخراً بأكثر مما ينبغي، ذلك أن نابيه شقا طريقهما في الوقت الذي أدرك فيه أن الثعبان قد التفّ على نفسه ليوجّه ضربته إلى كاهله.

انسلّ برد الموت إلى إيساو عبر الهواء الاستوائي فأخذته الرجفة.

(1) لعل القارىء يراجع هامش ص ٢٥٣ من الجزء الأول من الرباعية، حيث أشرنا إلى الدلالة الخاصة في الميثولوجيا اليابانية للثعبان الأخضر، وقد كان ميشيما مولعاً بالإحالة عليها. (هـ. م.)

عُزل فجأة عن الحرارة الجاثمة على الأنفاس، فقد استل السم الدفء كله من جسمه. وصحت كل مسامه، على نحو مخيف، على برودة الموت، ولم يكن بمقدوره التنفس إلا بصعوبة، وغدا كل نفس يلتقطه أكثر سطحية من سابقه. وسرعان ما فرغ العالم من المزيد من الأنفاس التي يمكنه أن يستافها. ولكن حركة الحياة مضت تنبض بحدّة فيه. وعلى الرغم من إرادته تغضّن جلده، شأن سطح بحيرة يهمي عليها المطر. «ما كان لي أن ألقى حتفي على هذا النحو. ما كان لي أن أموت إلا ببقر بطني. لم أتوقع أبداً أن أموت على هذا النحو موتاً سلبياً بائساً، بفعل مصادفة من مصادفات الطبيعة، لمسة ضئيلة من لمسات الشر». وفيما كان هذا يدور بخلد إيساو بدا أنه يشعر بجسمه يتجمد ليغدو كتلة صلبة، حتى لكأنها سمكة بلغ بها التجمّد أنّ ضربة مطرقة ما كانت لتفتّتها. وعندما فتح عينيه أدرك أنه دفع عنه غطاءه وأنه يرقد في زنزانته في الضوء الفجري المؤتلق لصبيحة يوم من أيام الربيع الباكر الباردة على نحو غير مألوف.

وفي ليلة أخرى تراءى له هذا الحلم.

كان هذا الحلم من الغرابة بحيث أنه حاول، فيما بعد، مراراً وتكراراً أن ينفيه من ذهنه، فقد كان هذا حلماً حوّل فيه إيساو إلى امرأة.

غير أنه لم يكن على يقين إطلاقاً فيما يتعلق بنوعية المرأة التي حوِّل إليها جسمه. وربما لم يكن بمقدوره لأنه بدا كفيفاً إلا التلمس بكفيه في محاولة الاكتشاف. أحس كما لو أن الدنيا انقلبت باطناً لظاهر، وجلس في فتور مقتعداً كرسياً إلى جوار نافذة، وقد غطى العرق على حد ما جسمه، ربما بُعَيْد الاستيقاظ من قيلولة الأصيل.

ربما كان حلمه السابق بالثعبان يصطدم بهذا الحلم. فما سمعه لم يكن إلا صيحات طيور الغابة وطنين الذباب وحفيف سقوط الأوراق من الأشجار وهو يشبه انهمار المطر، ثم كانت هناك رائحة تشبه عرف خشب

الصندل ـ وقد تعرف عليها لأنه ذات مرة رفع الغطاء وتشمّم داخل صندوق تبغ من خشب الصندل كان أبوه يعتز به ـ عرف كئيب يوحي بالعزلة، العرق، الرائحة الشبيهة برائحة الجسد المنبعثة من خشب عتيق. وفجأة فكر في شيء يشبه هذا العرف: عرف الجمرات المسودّة التي رآها على الدرب الذي يخترق حقول الأرز في ياناجاوا.

ساور إيساو شعور بأن لحمه قد فقد شكله المحدّد واستحال إلى لحم لدن ومتأرجح. لقد فغمته غمامة من لحم لدن فاتر. والتفّ كل شيء بالغموض. وما كان بوسعه حيثما بحث العثور على نسق أو هيكل. لم يكن هناك عمود يقوم بمهمة الدعامة. واختفت شذرات الضوء اللامعة التي كانت تأتلق حوله وتجتذبه على الدوام. الراحة والتعب، الفرحة والحزن ـ انزلق هذا كله على جسمه كأنه الصابون. وغاص غارقاً في هذا كله في حمام دافىء من اللحم.

لم يشكل هذا الحمام سجناً له بأي حال من الأحوال. فقد كان بمقدوره الخروج متى طاب له ذلك، ولكن اللذة الفاترة منعته من التخلّي عنه. وهكذا فإن البقاء هناك إلى الأبد وعدم اختيار المضي بعيداً أصبحا «حريته». وعلى هذا النحو، لم يكن هناك شيء يحدّده، ويبقيه، في ظل سيطرة صارمة.

كان كل شيء آمن به بشدة مجرّداً من المعنى، فالعدالة شابهت ذبابة هوت في علبة لذرور الوجه واختنقت، والمعتقدات التي قصد أن يقدم حياته فداء لها نُثر عليها العطر وذابت. وانحل المجد كله في الدفء المعتدل للوحل.

ذاب الثلج المتألق كلية. وأحس في أعماقه بالدفء غير القاطع لوحل الربيع. وتشكّل شيء ما تدريجياً من وحل الربيع ذاك. رحم. ارتجف إيساو وكأنما أدرك أنه يوشك أن يلد. لقد كانت قوته تنخسه على الدوام

بنفـاد صبر عنيف دافعـة إياه إلى التحـرك، واستجاب دومـاً لصـوت بعيـد يستحضر صورة برية شاسعة. ولكن الآن ها قـد فارقتـه هذه القـوة، ولزم الصوت الصمت. والعالم الخارجي الذي لم يعد يناديه، غدا الآن بالأحرى يدنو منه ويلمسه لمساً، وأحس بأنه أكثر إعياء من أن ينهض ويمضي بعيداً.

ماتت آلية من الصلب حـادة الحافـة. ومحلها تخللت بـدنه عـلى نحو مـا رائحة تشبه رائحة عشب بحري متحلّل، رائحة عضويـة تمامـاً. العدالـة، الحماسة، الوطنية، التـطلّعات التي يعـرّض المرء من أجلهـا حياتـه للخطر ـ كلها تبدّدت. وحلّت محلها حميمية لا سبيل إلى وصفها مع الأشياء المحيـطة به ـ الملابس، الآنية، وسادة الـدبابيس، أدوات التجميـل ـ حميمية بـدا أنه في إطارها يتدفّق نحو تفاصيل الأشياء الرقيقة، الجميلة، ويختلط بها. كانت حميمية قوامهـا الابتسامـات والغمزات، حميميـة توشـك أن تكون داعـرة، خارج نطاق تجربة إيساو السابقة. فالشيء الـوحيد الـذي كان عـلى علاقـة حميمة معه هو السيف.

تشبثت الأشيـاء به كـاللصوص، وفي الـوقت نفسه فقـدت كل مغـزاها التجاوزي.

لم تعد محاولة الوصول إلى هدف ما مشكلة. فكل شيء يصل إلى هنا من موضع آخر. وهكذا لم يعـد هناك أفق، ولم تبق أيـة جزر. وفي ضـوء عدم وضـوح أي منظور عـلى الإطلاق كـانت الرحـلات أمراً مستبعـداً. لم يكن هناك إلا بحر يمتد بلا انتهاء.

لم يحدث أن شعر إيساو قط بأنه قد يرغب في أن يصبح امـرأة. لم يرغب أبداً في أي شيء آخر بخلاف أن يكون رجـلاً، وأن يحيا عـلى نحو رجـولي ويموت ميتة الرجال. وأن يكون المرء رجلاً على هـذا النحو كـان يقتضي منه أن يقدّم رهاناً دائباً على رجولتـه ـ أن يكون اليـوم أكثر رجـولة منـه بالأمس، وأن يكون غداً أكثر رجولة من اليوم. أن يكون المرء رجـلاً يعني أن يندفـع

على الدوام نحو ذروة الرجولة، وأن يلقى حتفه هناك وسط الثلوج الشهباء التي تكسو تلك الذروة.

ولكن أن يكون امرأة؟ بدا أن ذلك يعني كينونة نسائية عند البداية، وكينونة نسائية للأبد.

انساب دخان البخور إليه. كان هناك صدى أجراس وصفارات ـ فيما يبدو من مواكب جنازة يمرّ قرب النافذة. التقط الصوت المكتوم لأناس ينشجون. ولكن شيئاً ما لم يشب صفاء غبطة المرأة التي يداعبها النعاس في أصيل صيفي. كست قطرات بديعة من العرق بشرتها. وكانت حواسها قد اختزنت العديد من الذكريات المنوعة. وكان بطنها الذي تضخّم قليلاً فيما هي تتنفس في نومها، منتفخاً كأنه شراع بالكمال البديع للحمها. واستقرّت سرتها الرقيقة تحت بحيرة صغيرة من العرق، كابحة جماح ذلك الشراع بالجذب من الداخل وقد حاكى لونها اللمسة الوردية اليانعة لبرعم زهرة كرز بريّة. وبدت الصلابة الجميلة للنهدين البديعي التكوين وكأنها تعبّر بالمزيد عن جهامة اللحم. وبدت البشرة التي امتدت صافية وكأنها تتوهّج كأنما ثمة مصباح يتّقد تحتها. وامتدت نعومتها حتى أطراف نهديها، حيث برز النسيج الناهض للحلقات الملونة كموجات تطبق على جزيرة مرجانية. وكانت الحلقات الملونة في لون زهرة أوركيد أرجوانية خفيفة مليئة بعداء هادىء مراوغ، لون سامٍ أريد به اجتذاب الفم اجتذاباً. ومن ذلك الأرجوان العميق نهضت الحلمة على نحو فاتن كأنها سنجاب مفعم بالحيوية يرفع رأسه. وكان التأثير مراوغاً بالإضافة إلى أنه مخاتل.

عندما رأى إيساو بوضوح صورة هذه المرأة الغافية، على الرغم من أن النعاس لف برداثه محياها، ورغم عدم وضوح تفاصيلها الخارجية، حدّث نفسه بأنها لا بدّ أن تكون ماكيكو. وعندئذ لفّته هبة قوية من العطر الذي كانت ماكيكو تتعطر به عندما افترقا، فقذف منيّه واستيقظ من نومه.

جثم شعور بالحزن يستعصي على التصديق. وعلى الرغم من أن الإحساس بأنه قد تحوّل إلى امرأة قد استمرّ في حلمه، إلا أنه لم يستطع تذكر الموضع الذي تحول فيه مسار الحلم، بحيث أنه بدا كما لو كان يحدّق في جسم امرأة اعتقد أنها ماكيكو. وقد كان هذا التشوش هو منبع إحساسه المضطرب. وفضلاً عن ذلك فإنه على الرغم من أنها كانت امرأة تلك التي دنسها، وهي على ما يبدو ماكيكو، فإنه هو الذي قام بالتدنيس لم يستطع، ويا للغرابة، أن يخلّص نفسه من شعور متوهج بالحيوية كان قد داخله من قبل بأن الدنيا بأسرها قد انقلبت باطناً لظاهر.

تواصل الانفعال الذي لفه في عباءة الحزن مظلماً على نحو مخيف ـ لم يعرف من قبل قط مثل هذا الانفعال الذي لا سبيل إلى فهمه ـ واستمرّ حتى بعد أن فتح عينيه، وظل جاثماً في الهواء تحت الضوء الكابي الصادر عن المصباح الكهربائي الواهن المعلق في السقف وكأنه زهرة مصفرّة مسحوقة.

لم يلتقط إيساو وقع صوت نعلي الحارس المبطنين من أسفل بالقنّب، وإذ بوغت على هذا النحو لم يتح له الوقت لإغماض عينيه قبل أن تلتقيا بعيني الحارس المحدّقتين عبر فتحة المراقبة.

ـ عليك بالنوم!

قالها الحارس بصوت خشن، ثم مضى في طريقه.

بدأ الربيع يدنو.

غالباً ما جاءت أمه حاملة له لفافات، ولكنها لم يسمح لها برؤيته قط. وقد حدثته في إحدى الرسائل بأن هوندا سيتولى الدفاع عنه في القضية، فكتب ردّاً مطولاً يقول فيه إن مثل حسن الطالع هذا يفوق كل ما كان يعقد عليه الآمال، ولكنه سيضطر إلى رفضه ما لم يوافق هوندا على الدفاع عنه جنباً إلى جنب مع رفاقه باعتبارهم مجموعة واحدة. ولم يُقدَّر لردٍّ على هذا الكلام أن يصل إليه قط. كما لم تتح له فرصة لقاء هوندا، وهو شيء

كان ينبغي السماح به عن طواعية. وفي الرسائل التي تلقاها من أمه كانت هناك كلمات وعبارات عديدة كُسِيت بحبر أسود ـ ولا شكّ أنها كانت أنباء رفاقه التي أراد بشدة الاطلاع عليها. وكائنة ما كانت محاولاته في تمحيص الأجزاء التي غطيت بالحبر الأسود فإنه لم يستطع تبيُّن حرف واحد، كما لم يتمكن من استنباط شيء من السياق.

وأخيراً شرع إيساو في كتابة رسالة إلى الرجل الذي أحس بأنه آخر رجل يرغب في الكتابة إليه. وقد بذل قصارى جهده للتغلّب على كل انفعالاته. واختار كلماته بقصد عدم جلب المزيد من المتاعب إلى ساوا الذي لا بد أن السلطات قد حقّقت معه على الأقل فيما يتعلق بمساهمته بالمال. غير أنه عقد الآمال على أنّ تأنيب الضمير سيدفع ساوا إلى القيام بما يستطيع فعله لتحسين موقفهم. وانتظر الردّ طويلاً، ولكن ما من رد وصل إليه، فاتخذ غضبه منعطفاً مترعاً باليأس.

وبما أنه لم يصله المزيد عن طريق أمه فقد كتب خطاباً مليئاً بالتقدير لهوندا نفسه، معنوناً إياه بعنوان الأكاديمية، وأعرب فيه عن رغبته المحمومة في أن يتولّى هوندا مهمة الدفاع عن المجموعة بأسرها. وجاءه رد على الفور فقد أعرب هوندا بعبارات أجاد اختيارها عن تعاطفه مع ما يشعر به إيساو، وقال إنه بما أنه تصدّى لجانب من القضية فإن من الممكن أن يقطع الشوط كاملاً، ومن هنا فإنه سيكون على استعداد للدفاع عنهم كمجموعة، اللهم، بالطبع، أولئك الذين سيحاكمون باعتبارهم من القصر. ولم يكن بمقدور شيء أن يشدّ أزر إيساو في زنزانته بالسجن قدر هذه الرسالة.

أثرت فيه كثيراً الطريقة التي استجاب بها هوندا لرغبته التي أعلنها بجلاء في أن يتحمل العقاب كله على كاهله وأن تبرأ ساحة رفاقه: «إنني أتفهم رغبتك في القيام بهذا، ولكن أياً من القضاة أو المحامين لا يتصرّفون على أساس عواطفهم. وبما أن المشاعر المأساوية ليست بالقطع ممّا يدوم طويلاً،

فإن الأمر المهم الآن هو الاعتصام بـالهدوء، وأحسب أن بمقـدوري الاعتماد عليك، بوصفك خبيراً في الكنـدو، في تفهم ما أقصـده. دع كل شيء لي ـ فذلك هو ما يناط بي ـ اهتمَّ أعظم الاهتمام بصحتك، وتحمَّلْ قدرك بصبر. وعليك خلال فترات التريض أن تمنح جسمك فرصة للتـدريب بقوة. لقـد أدرك هوندا، محقّاً، أن الشعور بـالنزعـة البطوليـة المأسـاوية في قـرارة فؤاد إيساو يشحب ويذوي مثل ألوان المغيب.

وذات يوم، وبما أنه لم تَلُحْ إشارة إلى أنه سيسمح له بلقاء هوندا، وضع إيساو ثقته في الأسلوب الموحي بالتعـاطف الذي اتبعـه القاضي في التحقيق الأولي، وسأله على نحو عابر:

ـ سيدي القاضي، متى سيسمح لي برؤية أحد؟

تردّد القاضي للحظة، وقد بدا جلياً أنه ليس على يقين ممّا إذا كان يتعينّ عليه الردّ أم لا، ثم قال:

ـ لن يكون ذلك ما دام الحظر المفروض لا يزال ساري المفعول.

ـ ومن الذي فرض هذا الحظر يا سيدي؟

وردّ القاضي على نحو يوحي بسخطه على هذا الإجراء:

ـ مكتب المدّعي العام.

- ٣٤ -

استمرت رسائل أمه في الورود إليه على نحو متواتر. ولكن ما من رسائل أخرى تضمنت مثل هذه الأجزاء العديدة المبتورة بتراً. وفي بعض الأحيان كانت فقرات بكاملها تتعرّض للقصّ، أو تنتزع صفحة بأسرها. وقد افتقرت أمه بوضوح إلى الفطنة التي تدفعها إلى الكتابة بطريقة لا تعرض ما تكتبه لصرامة الرقيب. ولكن ذات يوم طرأ تغيير، فقد تولّى مهمة الرقيب، فيما يبدو، شخص جديد، وغدت الأجزاء المبتورة أقل على نحو ملحوظ. ولكن بما أن أمه كانت تكتب في ظل انطباع قوامه أن كل شيء في رسائلها السابقة قد بلغه، فقد ضاق ذرعه حيال صعوبة كشف مغاليق ما تكتب عنه. بدا الأمر كما لو أنه يتلقّى الرسائل التي بعثت مؤخراً قبل أن تصله سابقاتها. ثم كان هناك سطر واحد، كالتالي: «الرسائل... تتراكم كأنها جبل. ويقولون إن عددها بلغ خمسة آلاف رسالة، وعندما أفكر... تفيض عيناي بالدمع» تم تمرير الحبر على مقطعين فيه، ورغم ذلك فقد وضع الحبر بخفة وكأن الرقيب يهمل أداء مهمته. وأدرك إيساو أن الرجل قام بذلك عمداً لتشجيعه. ففي أحد المقطعين استطاع إيساو أن يقرأ دونما صعوبة: «الرسائل التي تطالب بالرأفة». وفي الآخر، وعلى الرغم من أنه كان أكثر غموضاً «عندما أفكر في التعاطف الذي يبديه الناس معك». وللمرة الأولى علم إيساو بردّ فعل الرأي العام حيال القضية.

لقد كان محبوباً! هو الذي لم يرغب أدنى رغبة في أن يكون محبوباً! ربما استثير اهتمام رقيق ومتعاطف بفضل شبابه، بفضل النقاء الذي لم يُقدَّر له النضج، والذي توقّعه الناس بصورة طبيعية في الشباب، بفضل الاعتبارات

الخاصة بمستقبله «الواعد». وقد ألهم هذا الناسَ كتابة رسائل المطالبة بالتزام الرأفة في قضيته. وكان ذلك تخميناً أثار بعض الألم في نفس إيساو. ولا بد أن كتلة الالتماسات التي أرسلت بعد حادثة الخامس عشر من أيار (مايو) كانت ذات طبيعة مختلفة.

منذ إيداعه السجن طاردته بلا هوادة فكرة واحدة «إن العالم لا ينظر إليّ بجدية. ولو أن الناس استشعروا النقاء الرهيب المخضّب بالدم الذي أوقره، لما استطاعوا أن يكنوا أيّ حب لي».

إنه ليس موضع خوف، دع جانباً أن يكون موضع كره، وكل ما هنالك هو شعور بالحب نحوه. هكذا ألفى نفسه في وضع يجرح كبرياءه. كان الربيع قد أقبل. ساوره الحنين أكثر من أي شيء آخر، إلى رسائل ماكيكو التي كانت تصل إليه واحدة إثر الأخرى في فترات منتظمة، على الرغم من إدراكه حق الإدراك مدى سوء تلك الرغبة التي فككت عرى تصميمه على الرغم من أنه كان قبلاً صلباً كالبلّور.

مضى إيساو يحدث نفسه: في حقيقة الأمر أنني كنت على الدوام مفضّلاً على نحو غريب. وثمة شيء مظلم يكمن في أغوار ذلك التفضيل.

أليس من المحتمل أن الأمة، قوانين الأمة، ربما بالطريقة التي اتبعها الرأي العام، قد رفضت أن تحمله على محمل الجدّ؟

ثم إنه عندما يجري استجوابه في قاعة تحقيق في يوم بارد، كانت الشرطة تحثه على الجلوس في موضع أقرب من الهيباتشي. وإن شعر بالجوع أحضر رجالها طبقاً من المعكرونة مع خثارة اللوبيا المحمّرة. وذات مرة أشار مفتش مساعد إلى الزهور الموضوعة على المنضدة وقال: «ما قولك في زهور الكاميليا هذه؟ أليست جميلة؟ هناك زهور كاميليا شتوية تزدهر في حديقتي، وقد قطفت هذه الزهور صباح اليوم وأحضرتها إلى هنا. وكما ترى فإنه من المهم للغاية خلال التحقيق أن يهدّىء المرء أعصابه، والزهور تجعل الجميع

أكثر اتّساقاً مع طبيعتهم». التصقت بكلمات المفتش المساعد مسحة من الترف الفظّ الذي لا يتردّد في استغلال الطبيعة، تماماً كتلك المسحة التي يوحي بها القميص الأبيض الذي يرتديه يوماً بعد يوم، على الرغم من ذلك الاتساخ الذي يأخذ شكل السحابة ويفرض نفسه عليه. ومع ذلك فقد نحّت ثلاث زهرات كاميليا بيضاء نقيّةٍ جانباً الوريقات الخضراءَ الخشنةَ القاتمةَ ببتلاتها المنتشرة. وقبعت قطرات من الماء عليها كأنها جاثمة على خثارة بيضاء.

ـ أشعة الشمس هذه بديعة. أليس كذلك؟

قالها المفتش المساعد وهو يطلب من الشرطي الواقف قريباً أن يفتح النافذة. ومن حيث جلس إيساو احتلت زهرات الكاميليا الشتوية نصف مجال رؤيته. وسمحت القضبان الحديدية بمرور أشعة شمس دافئة، مجرّدة، تقطعها ظلال القضبان بدقة جعلتها تبدو أكثر تجرّداً من المادة.

شعاع الشمس المتغلغل وكأنه يد دافئة على كتفه ـ كان هذا، بالنسبة لإيساو، شيئاً مختلفاً تمام الاختلاف عن الشمس الصيفية المتألقة التي رآها تجثم بجلال باهر على رؤوس الجنود الذين كانوا يتدربون في أرض الاستعراض، في ثكنات فوج أزابو. فهذا الشعاع يتحدث عن رفق النظام القضائي الذي يمسّ كتفه بعد العديد من الانعطافات والتحولات، ولا علاقة له على الإطلاق بالشمس الصيفية للنزعة الخيرية الإمبراطورية في ما كان إيساو يحدّث نفسه.

ـ ليس هناك بوجود وطنيين أمثالك وأمثال أصدقائك ما يدعوني إلى القلق على مستقبل اليابان. ما كان يجب أن تنتهكوا القانون، بالطبع، ولكن إخلاصكم المتألّق ذاك شيء يستطيع الجميع، ونحن كذلك، تفهمه. والآن فيما يتعلق بقيامك مع أصدقائك بأداء القسم. متى وأين وقع ذلك؟

ردّ إيساو على نحو تلقائي. ذلك المساء في الصيف الماضي أمام

المزار. . . هنالك انبعثت في ذهنه ذكرى الرفاق العشرين جميعاً وقد تشابكت أيديهم، واحدةً فوق الأخرى، مثل ثمار شهباء تنحني الفروع التي تحملها تحت تأثير ثقلها. غير أن استرجاع هذه الذكرى غدا مؤلماً. وفيما هو يردّ على السؤال أشاح بوجهه بعيداً عن المفتش المساعد الذي واصل التحديق فيه بانتباه، ومضى يمعن النظر في سنى الشمس وفي إحدى زهرات الكاميليا بالتناوب. وإذ بهرت الشمس عينيه فقد تراءى لهما بياض زهور الكاميليا سواداً تاماً. والزهرة خصلة شعر صغيرة بديعة. وعلى النحو نفسه بدت له خضرة الوريقات القاتمة وكأنها تشكل ياقة نقية البياض. كانت به حاجة مكنونة إلى تلاعب الحواس هذا لمساعدته على الصمود في وجه التضارب. القابع في أعماقه. ذلك أنه عندما تحدث ذاكراً «الحقيقة» بقوله: «نعم، يا سيدي، كنا عشرين رجلاً، انحنينا مرتين وصفقنا مرتين أمام المزار، ثم رددت القسم، فقرة منه في كل مرة، وردد الآخرون ما قلته في اتساق» ـ وراسماً صورة لا تشوبها نقيصة قطّ، بدت الكلمات بمجرد خروجها من فمه، هنا في حضرة السلطات العدلية، وكأنها تنمو لها قشور وتغدو ملتفة بزيف جعل الرعدة تأخذ بخناقه.

ثم سمع إيساو، على حين غرة، زهرة الكاميليا الشتوية البيضاء تئن.

أجفل وتطلع إلى المفتش المساعد. لم تبد الدهشة في عيني هذا الأخير. وقد أدرك إيساو، فيما بعد فحسب، أن الصدفة لم تفرض اختيار هذه القاعة في الطابق الثاني بنافذتها المفتوحة لإجراء التحقيق في ذلك اليوم بالتحديد. فقد كان ممشى ضيق يفصلها عن قاعة تدريب، وتوصد مصاريع نوافذها حتى في وضح النهار، ولكن مع نفاذ الضوء من خلال الروافد المستعرضة.

ـ لقد وصلت إلى الدرجة الثالثة في الكندو، فيما سمعت، ولو أنك لم تتورّط في هذا الأمر، وبقيت على ممارستك للكندو، فلربما أتيح لي ولك أن

نخوض مباراة بهيجة معاً، في تلك القاعة هناك.
ـ هل يمارسون الكندو الآن؟

هكذا تساءل إيساو شاعراً باليقين من أن الأمر ليس كذلك. ولم يحر المفتش المساعد رداً.

كانت بعض الأصوات التي تبلغ الغرفة تشبه صيحات الكندو، ولكن الأنين الذي بدا أنه يصدر عن زهرة الكاميليا لم يكن هناك ما يربطه بالكندو، فقد كان صوت ارتطام العصي بملابس الكندو سميكة الحشو مختلفاً. ولقد كان هذا هو الصوت الكئيب، الجهم، المنبعث من ضربات تهوي على اللحم البشري.

استدعى إيساو إلى ذهنه أن زهرة الكاميليا التي بدت غارقة في الحر الناجم عن أشعة الشمس الشتوية الصافية قد أصبحت على نحو ما مقدسة بعد أن رشحت من خلالها صرخات من يتعرضون للتعذيب وأناتهم. وإذ تخلصت من ترف المفتش المساعد الوضيع، بدأت الزهرة تفوح بشذى القانون نفسه. ولم تستطع عيناه مقاومة التطلع إلى ما وراء الوريقات البديعة لزهرة الكاميليا من خلال الرافدة المستعرضة، حيث تتقد الأنوار في الظهيرة، إلى الحبال الغليظة المتأرجحة إلى الأمام والوراء، بما لا بد أنه كان وقراً ثقيلاً من اللحم البشري.

نظر إيساو إلى عيني المفتش المساعد من جديد، فردّ الأخير على سؤاله الذي لم يتلفّظ به:
ـ نعم، إنه أحد الحُمْر. والعنيدون منهم يجلبون على أنفسهم هذه المعاملة.

بدا جلياً أن الشرطة قد قصدت جعله يدرك أنه، في مفارقة لهذا الوضع، يعامل بأقصى قدر ممكن من الدماثة، وأن القانون الرحيم يكفل له العديد من المزايا. ولكن ذلك أحدث تأثيراً عكسياً. ففي تلك اللحظة

أحس بـالغضب والهوان يـأخذان بخنـاقه. وسـأل نفسه في انـدفـاعـة حنق: «أفكاري ـ ما الـذي وصلت إليه؟ لئن كـانت الأفكار الحقيقيـة تضرب على هذا النحو، أفتكون أفكاري غير حقيقية؟» ضايقه الشعور بالإحبـاط: على الرغم من ضخامة ما أعد العدة للقيام به، فلم يكن هناك ردّ فعل يتناسب معه. وحدّث نفسه بأنهم لو أدركوا جوهر النقاء الرهيب القابع في أعـماقه، فمن المؤكد أنهم سيمقتونه. وعلى الرغم من أنهم ضباط تابعون للإمبراطـور فلن يملكوا إلا مقته. غير أنه، من ناحية أخرى، إذا ما تواصل الجهـل فإن أفكاره لن تكتسب ثقل اللحم البشري، ولن تكتسي يوماً بعـرق العذاب؛ وكنتيجـة لذلـك فإنها لن تصـدر عنها قط الصرخـات العاليـة المنـطلقـة من اللحم البشري الذي كان يتعرّض للضرب.

حملق إيساو في المحقّق وصاح:

ـ عـذّبني! عـذّبني الآن تـوّاً! لم لا تستـطيـع القيـام بـالشيء ذاتـه معي؟ أتستطيع أن تقول لي السرّ في عدم القيام بذلك؟

ـ عـلى رسلك! هـوّن عليـك ولا تكن أحمق! إنـه أمـر بسيط، فـأنت لا تسبّب لنا أية متاعب.

ـ وهذا راجع لأن أفكاري يمينية؟

ـ ذلـك جانب من الأمـر. ولكن كل من يثـير المتاعب في وجهنـا، يمينياً كان أو يسارياً، سيدفع ثمن ذلك. ومـع هذا، وقبـل كل شيء وبعـده فإن هؤلاء الحُمْر. . .

ـ أيرجع ذلك إلى أن الحُمْر لا يقبلون بهيكلنا الوطني؟

ـ أصبت. وفي مفارقة لهم، يـا إينومـا، فإنـك أنت وأصدقـاؤك وطنيون. وأفكـاركم تمضي في الاتجاه الصحيـح. وكـل مـا في الأمـر أنكم في شرخ الشبـاب. إن مقصدكم جيـد، والعيب يكمن في أسـاليبكم. مـا رأيـك في

جعلها أكثر تدريجية وكبح جماحها قليلاً؟ لو أنك جعلتها أكثر مرونة قليلاً لغدا كل شيء على ما يرام.

دمدم إيساو والرعدة تشمل جسمه:

ـ لا، لو أننا جعلناها أكثر مرونة قليلاً، فلن تظلّ على حالها. فذلك القليل هو لبّ الموضوع. والنقاء لا يمكن التخفيف من حدّته قليلاً، ولو أنك جعلته مرناً قليلاً، قليلاً فحسب، فإنه يغدو فكرة مختلفة تماماً، ليست من النوع الذي نؤمن به. وهكذا فإن أفكارنا إذا كان يستعصي التخفيف من حدّتها، وإذا كانت تشكل بوضعيتها تلك خطراً على الأمة، فذلك يعني أن أفكارنا خطرة، شأن أفكار الحُمْر. ولذا عليك بالمضيّ قدماً والقيام بتعذيبي، فليس هناك ما يدعوك للإحجام عن ذلك.

ـ إنك مجادل مشاكس. ألست كذلك؟ الآن، عليك ألا تنفعل على هذا النحو. سأحدّثك بشيء واحد خير لك أن تعرفه. فليس هناك رجل واحد بين الحُمْر طلب أن يُعذَّب، على نحو ما تطلب أنت الآن. إنهم يتحمّلون العذاب إذا ما اضطروا إلى ذلك، وهم ليسوا مثلك. فهم لا يستجيبون لنا حتى لو عذّبناهم.

- ٣٥ -

على الرغم من أن رسائل ماكيكو تجنبت بصورة طبيعية التعبيرات الصريحة، إلا أنها كانت مليئة بالتأكيدات على أن مشاعرها نحو إيساو ما زالت كعهدها، وحرصت دائماً على أن تضمّنها قصيدتين أو ثلاثاً نقّحها لها أبوها. ولم يختلف ختم الرقيب الذي يأخذ شكل برعم الكرز على الرسالة. ولكن عندما فكر إيساو في مدى سهولة وصول رسائلها وحدها إليه، ساوره شك في أن عون القائد كيتو يقف وراء ذلك. ومع هذا فلم يكن هناك مؤشر إلى أن ردوده قد بلغتها.

كتبت ماكيكو عن هذا وذاك، عن أمور جميلة أو مسلية، أو أمور بريئة تماماً، بحسب تبدّل الفصول، دون أن تطرح أسئلة أو تردّ على أسئلة قطّ، دون أن تشير إلى الظروف الراهنة أو تتجنبها، ودون أن تنقل معلومات أو تحجبها. وهكذا فقد كتبت عن طائر التدرج الآتي من حدائق النباتات النادرة محلّقاً إلى فناء دارهم، على نحو ما فعل طائر تدرج في الربيع الماضي، عن الأسطوانات الموسيقية التي ابتاعتها حديثاً، عن الخروج في غالب الأحيان للقيام بنزهة، في حديقة هاكوسان وفي الذهن أفكار عن ليلة بعينها، عن رؤيتها هنالك ذات ليلة للبتلات الملطخة لبراعم كرز أطاح بها المطر، وهي تتشبث، لأرجوحة أطفال خشبية وهي تتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف، وكأنما كان اثنان من الكبار يجلسان عليها كعهدهما قبل قليل، عن الظلمة الكثيفة حول مقصورة الشنتو التي توهجت للحظة من جراء انطلاق قطة بيضاء عَدْواً، عن براعم الخوخ التي تفتحت مبكرة والتي تستخدمها في دروس تدريبها على فن ترتيب الزهور، عن عشب الفريزية الذي تتخلله

زهور حمراء، عن العثور على بعض العشب النجمي خلال زيارة لمعبد جوكومو وانتزاعها له حتى امتلأ به ردنا ثوبها. . . ولما كانت القصائد تصاحب هذا كله فغالباً ما كان إيساو يحسّ أنه معها هنالك يشاركها ما يعنّ لها.

كانت ماكيكو تحظى بثروة وافرة من الموهبة التي افتقرت أمه إليها، وقد بدا أنها تعلّمت في يسر أسلوباً في الكتابة يمكّنها من الانزلاق بعيداً عن حذر الرقيب الصارم. وأياً ما كان الأمر فإن ماكيكو التي تبدّت هنا، لم تكن تشبه إلا أدنى الشبه أكيكو آبي التي قفزت مع حماتها من فرط الفرحة وهي ترى نيران الانتفاضة تندلع إلى عنان السماء في البعيد، ثمرة لما قام به زوجها ورفاقه في عصبة الريح الإلهية. قرأ رسائل ماكيكو مراراً وتكراراً. إنها لم تتعرّض للسياسة على الإطلاق، ثم فيما كان يكافح جاهداً من أجل فضّ مغاليق فقرات بدت له مزدوجة المعاني، أو متضمِّنة تلميحاً إلى عاطفة، ساوره فجأة شعور بالحاجة إلى مقاومة الجاذبية الحسية التي تشكّلها هذه الرسائل بالنسبة له. كان قد عقد العزم على أن يجد شيئاً آخر غير الاهتمام الرقيق وحسن النية. ولكن كيف كان من الممكن أن تكتب له ماكيكو بعداء؟ ولو أن شيئاً من هذا القبيل كان يقبع ها هنا فإنه على يقين من أنه ليس مقصوداً.

بدا جلياً أن أسلوبها الرقيق المليء بالحيوية في الكتابة هو نوع من السير على الحبال المشدودة. وكيف كان يمكن أن يلومها على الابتهاج الذي يستشعره أحد السائرين على الحبال المشدودة، والذي تزداد براعته في غمار عملية التعرّض للخطر ذاتها؟ ولكن بالمضيّ خطوة إلى الأمام، ما كان بوسع إيساو إلا الاعتقاد بأن ماكيكو تستشعر استمتاعاً غير لائق على وجه التقريب بالسير على حبل مشدود، بأنها انغمست متعللة بذريعة الخوف من السلطات في الولع بالمخاتلة العاطفية.

لم تكن هناك عبارة، في أي موضع من رسائلها، تنتمي إلى هـذا النوع. ولكن كانت هناك رائحة معيّنة. شعـور عابث. وبـدا في بعض الأحيان أن مـاكيكو تستمتـع بوجـوده في السجن. وقام فصـل قاس حـارساً عـلى نقاء الشعور، وتحوّلت آلام الانفصال بينهما إلى بهجة هادئة. وأثار الخطرُ الجانبَ الحسيّ، وتولّدت الأحلام من صلب غياب اليقين.

نقلت مـاكيكو بعبـارات بريئـة السرور الذي استشعـرته لـدى معرفتهـا بكيفية ارتجاف قلبه، وكأنما كان ذلك من النسيم الحافل بالغواية الذي يهب عليه من نافذة زنزانته. وكانت هذه العلاقة بينهما، على الرغم من أنها تطلّ على حافة الضراوة، تُعَدُّ بالنسبة لمـاكيكو تحقيقـاً لحلم أثير. ولـو تبنى إيساو هذا المنظور لكان بمقدوره أن يرى برهاناً في كل موضـع من رسائلهـا. وقد اكتشفت ماكيكو في هـذا النوع من المـواقف، على مـا يبدو، مملكـةً خاصـةً بها.

ولكي يحوّل ذهنه في اتجاه آخر، ولتقوية إرادته، طلب السماح لأبويه بأن يرسلا له نسخة من كتاب «عصبة الريح الإلهية». وقد رفض هذا الطلب، بالطبع، فبمقدور السجناء شراء بعض المجلات، ولكنها تقتصر على مجلات من نـوع «العلم للأطفـال» و«اليوم» و«البـلاغة» و«نـادي كودان» و«الملك» و«الماسة».

ولم يسمح للسجناء إلا بكتاب واحد كـل أسبوع، سـواء أكان من كتب السجن أم لم يكن، ولم يكن أي نوع من الكتب التي توفّـرها السلطات من النوع الذي يجعل النيران تتّقد في قلبه. ومن هنا فإنه عندما سمح له بتلقي كتاب كان قد طلبه من أبيه منذ فترة، وهو كتـاب دكتور تيسـوجيرو إينـوي المـوسوم «فلسفـة مدرسـة يانـج ـ مينج اليـابانيـة»[1]، أحس بسعادة تفـوق

(١) مدرسة وانج يانج ـ مينج: يقـال لها بـاليابـانية «أويـومي ـ جاكـوها» أو «يـومي ـ جاكوها»، وقد أشاد بها المتضلعون من الفلسفات البـابانيـة قديمـاً وحديثـاً لثلاثـة =

الوصف. فقد كان يتوق إلى أن يقرأ فيه عن تشوساي أوشيو. وقد استقال هايها تشيرو (المعروف باسم تشوساي) من منصبه كأحد مسؤولي الشرطة في عام ١٨٣٠، وهو في السابعة والثلاثين من العمر، وكرّس نفسه للكتابة وإلقاء المحاضرات، ونال شهرة باعتباره من مثقفي مدرسة الوانج يانج مينج، وكان كذلك خبيراً في استخدام الحراب. وخلال المجاعة التي ضربت البلاد فيما بين عامي ١٨٣٣ و ١٨٣٦ لم يتصدَّ سياسي أو تاجر ثريّ لمساعدة من ضربتهم المجاعة، وفضلاً عن ذلك فإنه عندما قام تشوساي ببيع كتبه الثمينة لتخفيف المعاناة تمّ النظر إلى ذلك باعتباره عملاً يستهدف استقطاب تعاطف الرأي العام، وتعرّض ابنه بالتبني كاكونوسوكي للتوبيخ. وأخيراً، في ١٩ شباط (فبراير) ١٨٣٧ شكّل قوة مسلحة، وبهذه القوة المؤلفة من عدة مئات من الرجال أحرق مخازن التجار الأثرياء وقام بتوزيع الذهب والحبوب على الناس. وقد التهمت النيران ربع مساحة أوساكا، ولكن رجال تشوساي تعرّضوا للهزيمة أخيراً، ولقي هو حتفه بقيامه بنسف نفسه باستخدام عبوة ناسفة، وكان في الرابعة والأربعين من العمر.

لقد حقّق تشوساي أوشيو بشخصه مفهوم الوانج يانج مينج عن وحدة

= أسباب محدّدة، هي أنها تؤدي إلى الدفع باتجاه قوة شخصية القائلين بها، وأنها تنحو منحى حدسياً، وهو المنحى الذي يلقى على الدوام تقديراً كبيراً في التقاليد الفكرية اليابانية، كما أن لها أهمية تاريخية باعتبارها المدرسة التي انخرط في صفوفها أبرز المساهمين في إصلاح ميجي لعام ١٨٦٨. وتوحد هذه المدرسة بين «الري» أو المبدأ و«الكي» أو القوة المادية، وتقول كذلك بتوحّد العقل مع الطبيعة الخارجية، وبأن إعمال العقل والرقيّ به هو مفتاح التحقّق من لبّ الأشياء، مع التشديد على السيطرة على الذات وتمحيصها في غمار القيام بالأشياء، وليس معرفتها فحسب. وهايها تشيرو المشار إليه في المتن، شخصية تاريخية فعلية (١٧٩٤ - ١٨٣٧) طارت شهرته بسبب دوره في اضطرابات التضوّر جوعاً في أوساكا عام ١٨٣٧. وقد لقي حتفه فيها، بالفعل، كما يشير ميشيما. (هـ. م.)

الفكر والعمل، مجسّداً المقولة: «أن تعرف دون أن تعمل معناه غياب المعرفة». غير أن ما اجتذب إيساو أكثر من قيام تشوساي وفقاً للوانج يانج مينج بدمج الفكر والعمل، الروح والعقل، تمثّل في مفهومه للحياة والموت.

وقد أوضح دكتور إينوي أنه: «فيما يتعلق بالموت كانت رؤية تشوساي مماثلة تماماً للنيرڤانا البوذية».

وبحسب تعاليم تشوساي فإن «الخواء العظيم» ليس وضعاً سلبياً تمحّي فيه كل أعمال الروح البشرية، وقد علم، بالأحرى أنه ها هنا يمكن لنور الحدس أن يتألق بكل بهائه من خلال القضاء على الشهوة الشخصية. وقال إن التحوّل إلى جزء من الخواء العظيم يُسلِم المرء ذاته كلية إلى خواء دائب أبداً ودائم أبداً، يعني ولوج مجال الخلود.

كتب إينوي: «ما إن تُسْلَمُ الروح إلى الخواء العظيم، وبالرغم من فناء الجسم، حتى يبقى شيء لا يناله الفناء. وهكذا، فلا خوف من موت الجسم، وإنما الخوف هو من موت الروح وحده. وإذ يعرف المرء بأن الروح الجوهرية لن تموت فإنه لا يخشى شيئاً في العالم. هذا، إذن، هو أساس ثبات المرء. وأياً كان ما يطرأ فليست له القدرة على زعزعة هذا الثبات. وهكذا يمكن أن يقال إن هذا يعني تحقيق مشيئة السماء».

في غمرة مناقشته هذه ضمّن دكتور إينوي مقتطفات عديدة من كتاب «صورة لتطهير الفؤاد». ومن هذه المقتطفات التي أثّرت بصفة خاصة في نفس إيساو هذه الفقرة: «لا خوف من موت الجسم، وإنما الخوف هو من موت الروح وحده». وقد كانت هذه الكلمات بالنسبة لإيساو في ظرفه الراهن، بمثابة ضربات انهالت بها مطرقة.

في العشرين من أيار (مايو) تم الانتهاء من التحقيق الأولي، وجاء في الجزء الرئيسي من القرار الذي صدر ما يلي: «تحال هذه القضية على محكمة

طوكيو الجزئية». فتحطمت آمال هوندا في طي صفحات القضية عند مستوى التحقيق الأولي.

ستبدأ القضية، حسب أرجح الاحتمالات، في نهاية حزيران (يونيو). وقد ظل قرار حظر الزيارات ساري المفعول حتى حلول ذلك الموعد. ولكن هدية جاءت من ماكيكو ففتحها إيساو وهو في حالة من الانفعال الشديد فألفاها زهرة سوسن برية من مهرجان سايجوسا.

وبما أن زهرة السوسن تعرضت، في نهاية رحلتها الطويلة، للتعامل الخشن من قبل الحراس، فقد ذوت قليلاً وتهدّلت بتلاتها. ومع ذلك فقد تمتعت بنضارة وبهاء يفوقان كثيراً ما كان لتلك الزهور التي اعتزم إيساو ورفاقه دسّها في ملابسهم صبيحة هجومهم. وكان زهرة السوسن هذه ما تزال تبدو متمتعة بلمسة من ندى الفجر الذي يسقط في المرجة الممتدة أمام مزار الآلهة.

لا بد أن ماكيكو قد قامت برحلة خاصة إلى نارا لكي تقدم زهرة السوسن الوحيدة هذه له، ومن بين زهور السوسن كلها التي عادت بها، لا بد أنها قد اختارت هذه الزهرة لبياضها الفاتن وجمالها.

أمعن إيساو في التفكير. ففي العام الماضي، حوالي ذلك الوقت بعينه، كان قد امتلأ بشعور بالحرية والقوة. وتحت شلالات سانكو، على جبل الآلهة المقدّس، أطفأ النيران التي كانت لا تزال تتّقد من أثر لقاء الكندو المكلّل بالغار الذي خاضه أمام المزار، ثم بفؤاد تطهّر كرّس نفسه للعبادة جامعاً كتلة زهور السوسن التي كانت ستُقدَّم للآلهة. وقد بلّل العرق جبينه المكسو بعصابة «الهاتشيماكي» البيضاء فيما هو يجر العربة المحملة بالزهور على امتداد الطريق إلى نارا، ولاحت قرية ساكوراي متألقة تحت شمس الصيف، وساد التناسق بين فتوة إيساو وخضرة جانب الجبل.

كانت زهور السوسن بمثابة الصورة الزخرفية التي تميّز هذه الذكرى. ثم

أصبحت، فيما بعد، رمزاً لثباته. ومنذ ذلك اليوم احتلّت زهور السوسن مركز القلب من كل شيء: حماسه، قَسَمه، قلقه، أحلامه، استعداده للموت، حنينه للمجد. والعمود الذي كان دعامة لخطته القائمة، العمود الشاهق لثباته ـ كانت تتألّق على الدوام في العتمة المحيطة بقمته زهورُ السوسن الزخرفية التي تخفي الكتل التي تضمّه بإحكام.

راح يحدق في السوسنة التي أمسكها في راحة يده، ومضى يدحرج الساق المنحنية بين راحتيه شاعراً بالبتلات تمس بشرته، فيما كانت السوسنة المتهدلة البتلات تدور، ثم تسقط على حين غرة من يده، ناثرة قليلاً من الغبار الذهبي. وغدا سنى الشمس في نافذته أكثر قوة فساوره شعور بأن زهرات سوسن العام الماضي قد بُعثت بعثاً.

- ٣٦ -

عندما سُلِّم القرار الصادر في نهايـة التحقيق الأولي إلى إيساو، رأى اسم ساوا بين المتهمين فساوره شعور بالخجل من الشكوك التي ساورته كـل هذا الوقت. وما كـان عليه إلا أن يفكـر في محيا سـاوا، في اسمه، لكي ينبعث على نحو لا يقاوم ذلك الشعور المقيت بالخجل. وفي بعض الأحيان، حينـما يسيطر عليه هـذا المناخ النفسي، يشعـر بأن عليـه أن يمعن التفكير في هـوية من لعب دور الواشي. وإذا لم يكن ساوا هو هذا الواشي فمن عساه يكون؟ وبمـا أنه لم يكن من الممكن تنحيـة شكوكـه بعيداً فقـد تعـين أن يكـون لهـا موضوع تدور حوله. وإلا فكيف له أن يتمالك نفسه؟

غير أن ما كـان مفزعـاً أكثر من غـيره هو مـا أعقب ذلك. فـإذا لم يكن ساوا، وهو الشخص المرجّح أكثر من غيره، موضع بحث بـاعتباره الـواشي فقـد خشي إيساو من نقـل الشـك الـذي كـان يسـاوره إلى شخص آخـر: مياهارا، كيمورا، إيزوتسو، فوجيتا، مياكي، تاكاسي، إينـوي، ساجـارا، سيريكاوا، هاسيجاوا. ومن بين هؤلاء فإن غياب اسمي سيريكاوا وساجارا كان أمراً متوقعاً، فإنهما، لكونهما دون الثامنة عشرة، سيحاكمان بـاعتبارهمـا قـاصرين. فكر إيسـاو فيهما، فسـاجارا قـريب على الـدوام منه كـأنه ظله، ضئيل الجرم، شديد اليقظة، يضع عـويناتـه على الـدوام، وسيريكـاوا الابن الصبياني لكاهن شنتو في إقليم توهوكو، الذي انفجر باكياً أمـام المزار: «لا أستطيع العودة!». لا يمكن لإيساو، كائنة مـا كانت الـظروف، أن يفكر في هذين الاثنين باعتبارهما خائنين له. إذن فهو شخص من خارج المجمـوعة؟ لقد خشي إيساو متابعة هذا الاحتمال بأكثر من هذا. فقد شعر بأن ثمة شيئاً

ما يقبع في الخفاء، إنها النوعية ذاتها من الشعور التي تكبح جماح المرء وتمنعه من البحث في ركام من العشب يخشى أن يكتشف فيه عظاماً بيضاء.

لقد كان أولئك الذين تراجعوا وتركوا المجموعة يعلمون، بالطبع، أن الثالث من كانون الأول (ديسمبر) هو اليوم الموعود. ولكن آخر رجل هجرهم لم يكن يعلم شيئاً يتجاوز ما كانوا يفكرون فيه قبل ثلاثة أسابيع من ذلك اليوم. ولما كانت الخطة قد تغيرت إلى حد كبير فإنه لم يكن هناك سبب يدعو للاعتقاد بأن اليوم الموعود لا يمكن تقديمه ولا تأجيله ولا إلغاؤه. وحتى لو كان أحد تاركي مجموعتهم قد وشى بهم فإن إيساو لم يستطع سبر أغوار السرّ في أن الشرطة قد أحجمت عن التدخل إلا قبل يومين على توجيههم الضربة. أفما كان من المحتمل أن يجعلهم تبسيط الخطة يوجهون ضربتهم في موعد مبكر.

واصل إيساو إصراره على عدم التفكير في هذه الأمور، ولكن فيما هو مستمر في مجالدة الأمر، ومثلما يتعين على الفراشة التي اجتذبت إلى اللهب أن تحوّل عينيها إليه، مهما كانت محاولتها النظر بعيداً، فقد عاد ذهنه إلى تلك الأفكار المشؤومة التي أراد تجنّبها أكثر من أي شيء آخر.

كان اليوم المحدّد لبدء المحاكمة، وهو الخامس والعشرون من حزيران (يونيو)، يوماً صافياً، وكانت الحرارة فيه شديدة.

اجتازت عربة الحراسة التي تقلّ المتهمين الخندق المحيط بالقصر الإمبراطوري وقد أخذ ماؤه يأتلق تحت سنى الشمس، ودخلت حرم مبنى المحكمة المشيّد من الطوب الأحمر عبر البوابة الخلفية. وكانت محكمة طوكيو الجزئية تقع في الطابق الأول. وولج إيساو قاعة المحكمة مرتدياً كيمونو مزيناً بزخارف بيضاء متناثرة، وهاكاما جلبت إلى السجن من أجله. لطم البهاء الكهرماني لمنصة القضاء عينيه. وعندما نزع الحارس أغلاله، عند الباب، جعله بلمسة رقيقة يلتفت بحيث يتاح له أن يلقي نظرة عجلى

باتجاه جمهور الحاضرين. هنالك جلس أبوه وأمه اللذان لم يرهما طوال نصف عام. وعندما التقت عيناه بعيني أمه غطّت فمها بمنديل، وبدا أنها كانت تكبح جماح دموعها. وأما ماكيكو فلم يبدُ لها أثر.

شكل المتّهَمون صفاً واحداً وظهورهم إلى جمهور الحاضرين. وإذحف به رفاقه على هذا النحو فقد شعر إيساو بشجاعته تتصاعد. كان إيزوتسو إلى جواره مباشرة. وعلى الرغم من أنهما لم يكن بمقدورهما تبادل الحديث أو النظر أحدهما إلى الآخر فإن إيساو أحس بجسم إيزوتسو يرتجف. وكان يعرف أن ذلك لا يرجع إلى وقوف صديقه أمام منصة القضاء. فقد نقلت إليه كل ارتجافة صادرة عن جسم صديقه إيزوتسو الحار الذي كساه العرق انفعاله لدى رؤيته إياه بعد كل هذا الوقت الطويل.

كان أمام إيساو والآخرين مباشرة قفص المتهمين، وفيما وراءه امتد خشب الماهوجني الفاتح اللون، المتألّق الذي صنعت منه منصة القضاء، وقد بدت الحبيبات واضحة في خشب عوارضها. كانت مهيبة الأبعاد، وفي الجانب الآخر منها بابٍ من خشب الماهوجني الفاتح اللون ذاته يتوّج جملون كالشعر المستعار صرامتَه. وقد جلس القضاة الثلاثة يتوسطهم كبيرهم على مقاعد نحت على ظهر كل منها تويج زهرة. وجلس كاتب الجلسة إلى يمين المتهمين، وإلى اليسار ممثل الادّعاء. والتمعت على نحو كئيب زخارف نباتية أرجوانية مطرزة على واجهة أردية القضاة السوداء ممتدة إلى الأكتاف. وكانت هناك كذلك أشرطة تزينية أرجوانية على قلنسواتهم السوداء الموحية برفعة الشأن. وبدا جلياً أن هذا المكان لا يشبه أي مكان آخر في العالم.

عندما تمالك إيساو جأشه بصورة أكبر إلى حد ما، ألقى نظرة سريعة إلى اليمين حيث جلس المحامي فرأى هوندا يحدّق فيه بملء عينيه.

سأله كبير القضاة عن اسمه وعمره. وكان منذ اعتقاله قد تعود أن يخاطب من علٍ صورة توحي بما لمن يطرح الأسئلة من سلطة، ولكن تلك

كانت تجربته الأولى في أن يُستدعى بصـوت شخصية بـارزة كهذه، صـوت بدا أنه يجسد عقلانية الأمة بأسرها، ويسقط كأنه بـرق بعيد من سـماء مليئة بغيمة متألقة.

أجاب:

ـ إيساو إينوما، يا سيدي القاضي، عشرون عاماً.

- ٣٧ -

عقدت الجلسة الثانية من جلسات المحاكمة في التاسع عشر من تموز (يوليو). وكان الطقس صحواً، ولكن نسمة هواء مضت تنسل بين الحين والآخر عبر قاعة المحكمة عابثة بأوراق القضية. وهكذا عمد القائمون على أمر القاعة إلى مواربة النوافذ. واضطر إيساو مراراً وتكراراً إلى مقاومة إغراء حك موضع لذعات البقّ في جنبه، الأمر الذي فاقم من شعوره بعدم الارتياح، بما صحبه من عرق غزير.

ما إن بدأت الجسلة حتى رفض القاضي استدعاء أحد الشهود الذي طلب الادعاء في الجلسة الأولى مثولهم أمام هيئة المحكمة. ومضى هوندا شاعراً بالابتهاج يدحرج في هدوء قلماً أحمر عبر الأوراق التي تعلو قمطره. وكانت تلك خاصية اكتسبها على نحو ما في حوالي الوقت الذي أصبح فيه قاضياً عام ١٩٢٩، ومنذ ذلك الحين مضى يبذل جهوده لقمعها. وأما الآن، وبعد أربع سنوات، فقد أعادت تأكيد ذاتها. وكانت عادة سيئة بالنسبة لقاضٍ؛ وذلك بسبب تأثيرها المثير للإزعاج على المتهمين، ولكنه في وضعه الراهن يمكنه الانغماس فيها كيفما طاب له.

كان الشاهد الذي رفض مثوله أمام المحكمة هو الملازم هوري. وقد كان حقاً شاهداً من شأنه أن يطرح المشكلات.

لاحظ هوندا نظرة خيبة الأمل التي اكفهرّ لها وجه ممثل الادعاء وكأنما عكرت هبة ريح سطح بحيرة. فاسم هوري ظهر مرات لا حصر لها في أوراق التحقيقات الأولية وجلسات التحقيق الأولى، وكذلك جلسات التحقيق التي استدعى إليها أولئك الذين تركوا الجماعة لكي يقدّموا

المعلومات. والتزم إيساو وحده بعدم ذكر هذا الاسم قط. ومن المؤكد أن دور هوري في الخطة كان بالغ الغموض، ولم يظهر اسمه في القائمة النهائية التي صادرتها الشرطة. وقد كانت هذه القائمة في صورة رسم إيضاحي يرتبط فيه كل اسم من أسماء كبار الماليين الاثني عشر عن طريق خطّ باسم أحد المتهمين الاثني عشر. وقد عثرت عليها الشرطة في المخبأ الواقع في يوتسويا. ورغم ذلك لم يكن فيها شيء يشير بوضوح إلى الاغتيال.

قال معظم المتهمين إن الملازم هوري كان مصدر إلهام لهم، ولكن واحداً فقط من الاثني عشر شهد بأنه قد مارس القيادة. ومن بين من هجروا الجماعة شهد كثيرون بأنهم لم يلتقوا بهوري قطّ ولا سمعوا اسمه يذكر على الإطلاق. ومن هنا فإنه، بغضّ النظر إذن عن شهادة المتهمين الملتبسة، لم يكن لدى الادعاء أي دليل يؤيد شكّه في مؤامرة واسعة النطاق سبقت عمليات هجران الجماعة.

وأما المنشورات التي تعلن كاذبة أن السلطة الإمبراطورية قد خولت للأمير توين، وهي الدليل الخطر الذي وضع مكتب الادعاء عينه عليه، فقد ابتلعها الظلام. وما إن أدرك المدّعي الاختلال في التناسب بين هذا الزعم الطموح والموارد الضئيلة التي يتمتع بها أولئك الذين أعدّوا للاغتيال حتى بدا واضحاً مدى الأهمية التي اكتسبها الملازم كشاهد. ولمح هوندا يد ساوا في هذا التحوّل الذي ضايق المدعي العام أشد الضيق، وقد لمّح إينوما إلى ذلك.

كان إينوما قد قال:

ـ ساوا ذاك رجل طيب، وقد أراد ربط مصيره بمصير إيساو، أياً كانت العواقب. وكان بسبيله إلى مساعدة إيساو في تنفيذ خطته دون أن يبلغني بكلمة واحدة، ثم يتبعه في إقدامه على الانتحار. وهكذا، فربما كان ساوا هو الأكثر تعرّضاً للضرر من جراء وشايتي. ولكنه، في النهاية، رجل

ناضج، ولا بد أنه قام باستعدادات حذرة في حالة الفشل. ولما كان من تخلفوا هم أعظم مصدر للخطر في مثل هذا النوع من الأنشطة فإنني على يقين من أنه بادر إلى التحرّك بمجرد خروجهم على صفوف الجماعة. ولا بد أنه انطلق لإجراء حوار مطول مع كل منهم. ولربما قال: «إذا قمع هذا الأمر في مهده فسوف تُستدعى للإدلاء بشهادتك. ولا يستغرق الأمر جهداً لتحويل شاهد مثلك إلى متواطىء، ومن الأفضل لك أن تقول إن تأثير العسكريين هو تأثير روحي فحسب، وإلا فسيتحول هذا الأمر إلى قضية كبرى وسيتم توريطكم جميعاً، وستدفعون بأعناقكم إلى الأنشوطة.

وكان ساوا متحمساً للمضيّ قُدُماً إلى التحرك، ولكنني على يقين من ناحية أخرى بأنه قد استعدّ لأي احتمال، ولجأ إلى أساليب حكيمة للتخلص من الأدلة. وهذه هي نوعية الحكمة التي يتعذّر العثور عليها لدى الشباب ممن هم في مقتبل العمر.

في بداية الجلسة، وعندما قام كبير القضاة دون أن تشي ملامحه بشيء، برفض مثول الملازم هوري أمام المحكمة باعتباره شاهداً، على أساس أنه ليست له صلة مباشرة بالقضية، حدَّث هوندا نفسه على الفور قائلاً: «آه! هذا بفضل بيان ذلك المرجع العسكري الرفيع المكانة الذي نشرته الصحف».

منذ حادث الخامس عشر من أيار (مايو)، كان العسكريون على قدر كبير من الحساسية حيال ردّ فعل الرأي العام الذي يثيره هذا النوع من الأحداث، ومن شأنهم أن يكونوا على قدر كبير من العصبية في هذه القضية؛ لأن الملازم هوري كان ضابطاً متّصلاً على نحو لا يسهل محو آثاره بحادث الخامس عشر من أيار (مايو). ولما كان قد دفع به على عجل إلى منشوريا لهذا السبب ضِمن أسباب أخرى فسيكون من المؤسف للغاية إذا ما استُدعي ثانية، وهو الذي تحوطه الشبهات، للإدلاء بشهادته أمام محكمة

مدنية. ولو أنه مثل أمام المحكمة، أياً كان مضمون شهادته، فإن مصداقية ذلك المرجع العسكري الرفيع المكانة، الـذي أصدر ذلـك البيان فـور إلقاء القبض على المتهمين، ستصبح موضع تساؤل من الآن فصـاعداً، وستمسّ بالتالي مكانة العسكريين ذاتها.

وفي ضوء هذا التفكير فإن العسكريين كانوا دونما شك يتـابعون القضيـة عن كثب. وهكذا فإنه بمجرد التقدّم بطلب لاستدعاء الملازم هوري، أبدوا استياءهم من المدّعي، واعتمدوا على القاضي في رفض هذا الطلب من غير أن تختلج ملامحه.

وعلى أية حال فإن مكتب الادّعاء علم من التحقيق الذي أجرته الشرطة أن الطلاب كانوا قد التقوا الملازم في نزل «كيتزاكي» المخصّص للعسكريين في مؤخرة مجمع ثكنات فوج أزابو الثالث.

على هذا النحو استقرأ هوندا ما وراء الضيق ونفاد الصبر اللذين ارتسما على محيا المدّعي، وذلك لكي يتوصل إلى مصادر شعوره بالإحباط.

كانت استنتاجـاته عـلى النحو التـالي: لم يكن المدّعي سعيـداً بحال إزاء قـرار الاتهام البسيط المتضمِّن الاتهـام بالشروع في ارتكـاب جريمـة القتـل، وكان قد استُمِدَّ من التحقيقات الأولية. وكان مـا أراده، إن أمكن تحقيقه، هو توسيع القضية وتحويلها، إن إمكن، إلى اتهام بالتآمر للقيـام بانتفـاضة. وقد اعتقد المدّعي بأنه من خلال القيام بذلـك فحسب يمكن اجتثاث جـذر هذه القضية الخبيث. غير أن هذا التفكـير أدخل الاضـطراب، فيما يبـدو، عـلى منطق الإجـراء الذي اعتمـده. فهو ببـذله جهـوداً شـاقـة لإثبـات أن المتهمـين كانـوا قد اختصروا خـطة أصليـة واسعـة النـطاق، أهمـل تجميـع العناصر الجوهرية لإثبات الشروع في ارتكاب جريمة القتل العمد.

حـدَّث هـونـدا نفسـه قـائـلاً: «التصـويب عـلى نقـطة الضعف تلك، وباندفاعة واحدة إن أمكن، جعل كل شيء حتى الاتهام بـالشروع في القتل

العمد، بلا دليل ـ هذا هو ما ينبغي عليَّ القيام به. وهكذا فإن أعظم مصدر لقلقي هو نقاء إيساو وإخلاصه. إنه يتعينّ عليّ أن أثير حيرته، ولسوف يتم توجيه شهودي ضد خصومنا وضد جانبنا على السواء».

أحسّ هوندا بقلبه ينادي عيني إيساو الصافيتين، الجميلتين، الجريئتين، على نحو استثنائي، حتى وسط عيون رفاقه من المتهمين جميعاً. وكان عندما سمع بالقضية قد حدث نفسه بأن عيني إيساو المحدّقتين على نحو غاضب مناسبتان تماماً، ولكن الآن، وفيما هو يراهما من جديد، أحسّ بأنهما لا تناسبان هذه الظروف.

قال دهِشاً وهو يحدث نفسه: «عينان جميلتان! صافيتان ومتألقتان، تربكان الآخرين إلى الأبد. عينان لا نظير لهما تشعّان لوماً يبدو منتمياً إلى عالم آخر، كأنما غاص المرء فجأة تحت مياه شلالات سانكو. امضِ قُدُماً، عبِّرْ عمّا تحبّ، اعترف مطلقاً بأي شيء، ولتتعرض للجرح عميقاً، فأنت في عمر ينبغي أن تتعلّم فيه كيف تدافع عن نفسك. ومن خلال الحديث دونما كوابح ستتعلم أخيراً أنه لا يوجد أحد على استعداد لتصديق الحقيقة، وهذا درس مِنْ أقوم الدروس التي يمكن لرجل أن يتعلّمها عن الحياة. تلك هي الحكمة الوحيدة التي يتعينّ عليّ نقلها إلى عينين جميلتين كعينيك».

شرع هوندا عقب ذلك في التفرّس في ملامح القاضي هيساماتسو الذي جلس في مقعد كبير القضاة قبالة المنصّة. كان قد تجاوز الستين بقليل، وبدت بقع شاحبة على البشرة البيضاء الجافة التي تكسو ملامحه الوسيمة. وكان قد وضع عوينات مذهّبة الحواف، وعلى الرغم من وضوح مخارج حروفه فإن المرء يسمع بين الفينة والأخرى أصواتاً غير عضوية كأنها القرقعة البديعة لقطع شطرنج عاجية وهي تصطدم بعضها ببعض. وعلى الرغم من أن هذا قد أضفى على حديثه شيئاً من الكبرياء الفاترة التي تكسو شعار

زهرة الأقحوان المتألّقة فوق باب المحكمة، فقد كان راجعاً، فيما يبدو، إلى أسنانه الاصطناعية فحسب.

حظيت شخصية القاضي هيساماتسو بشهرة كبيرة. وقد أعجب هوندا بدوره بدقته وعمقه. ولكن السبب في أنه كان ما يزال في مثل هذا العمر قاضياً في محكمة جزئية هو أنه لا يمكن أن يوصف بحدّة الذكاء. وبحسب ما يردده القضاة، فيما بينهم، فعلى الرغم من أنه يبدو كما لو أن للمنطق اليد العليا في أعماقه، إلا أنه كان يتأثر بسهولة، وكانت جهوده لاصطناع مظهر بارد لكي يكافح ألسنة اللهب التي تتقد بداخله، يطاح بها من خلال الاحمرار المفاجىء الذي يفرض نفسه على وجنتيه البيضاوين الجافتين عندما يستشعر غضباً جامحاً أو انفعالاً عميقاً.

غير أن هوندا كان على علم ببعض ما يعتمل في أعماق القاضي. فما أشدّ احتدام الصراعات الداخلية التي يخوضها! الانفعال، العاطفة، الرغبة، الاهتمام الشخصي، الطموح، الخجل، التعصب، كافة أشكال الأمور الأخرى العديدة والمحدودة الأهمية ـ شظايا الكتل الخشبية، الورق الملقى به، البقعة الزيتية، قشر البرتقال، السمك، العشب البحري الذي يملأ بحر الطبيعة البشرية التي تدفع في مواجهة سور بحري وحيد يكبح جماح هذا كله: عدالة القضاء. على هذا النحو كان الصراع.

كان من بين الأدلة غير المباشرة التي تؤيد الاتهام قيام المتهمين ببيع سيوفهم مقابل الحصول على خناجر، وهو أمر بدا أن القاضي هيساماتسو يعلّق عليه أهمية كبيرة. وبمجرّد أن أصدر قراره برفض استدعاء الملازم، شرع في التدقيق في أمر الأدلة.

القاضي هيساماتسو: لديّ بعض الأسئلة لإيساو إينوما. لقد بعتم سيوفكم وابتعتم بالمقابل خناجر استعداداً للتحرك. هل يرجع هذا إلى أنكم كنتم تفكّرون في الاغتيال؟

إينوما: نعم، يا سيدي القاضي، كان هذا هو الغرض.

القاضي: في أي يوم وفي أي شهر كان ذلك؟

إينوما: كان ذلك في الثامن عشر من تشرين الثاني (نوفمبر)، على ما أذكر.

القاضي: لقد بعتم سيفين في ذلك اليوم واشتريتم بالنقود ستة خناجر. هل ذلك صحيح؟

إينوما: نعم، يا سيدي القاضي!

القاضي: هل ذهبت بنفسك للقيام بعملية الاستبدال؟

إينوما: لا، يا سيدي القاضي، لقد طلبت من اثنين من رفاقي القيام بذلك.

القاضي: ومن كانا؟

إينوما: إيزوتسو وإينوي.

القاضي: لِمَ أعطيت كلًّا منهما سيفاً لاستبداله على هذا النحو؟

إينوما: فكرت في أنه إذا شاهد أحدهم شاباً يجلب سيفين لبيعهما فقد يلفت ذلك الانتباه، واخترت الرجلين اللذين يتمتّعان بمظهر أكثر مرحاً وبسلوك أعظم تهذيباً. وبعثت بهما إلى تاجرين تفصلهما مسافة كبيرة. وقلت لهما إنه إذا ما سأل مشتري السيف عن سبب البيع فإنهما ينبغي أن يقولا إنهما كانا يتدربان على المبارزة، وإنهما أقلعا عن ذلك، ولذا فإنهما يرغبان في مبادلة سيفيهما ببعض الخناجر ذات الأغمدة الخشبية الخالية من الزخارف، لهما ولأخويهما. ولو أن استبدال السيفين جلب ستة خناجر فإن هذه الخناجر والستة الأخرى التي لدينا بالفعل ستوفّر أسلحة كافية لأعضاء الجماعة الاثني عشر.

القاضي: إيزوتسو، حدّثنا بما حدث عندما ذهبت بالسيف لمبادلته!

إيزوتسو: نعم، يا سيدي القاضي، لقد مضيت إلى متجر يُدعى

«سيوف موراكوشي» في البناية رقم ثلاثة في كوجي ـ ماتشي. وحاولت أن أبدو بعيداً عن الاكتراث بقدر الإمكان وأنا أقول إنني أرغب في بيع سيفي. وكانت سيدة عجوز ضئيلة الجرم تمسك بقطة جالسة وراء النضد. وحدّثت نفسي بأن القطة يمكن أن تكون متوترة للغاية لو أن هذا كان متجراً لبيع آلة السمسين الموسيقية[1].

القاضي: ليس هذا بجوهر حديثنا.

إيزوتسو: نعم، يا سيدي القاضي. عندما أبلغت السيدة العجوز بما أريد، مضت لتوّها إلى خلفية المتجر، وأقبل صاحب المتجر بنفسه، وهو شخص يبدو عليه التذمّر، بشرته بعيدة عن الصفاء، واستلّ السيف من غمده وفحصه، وبتعبير قوامه الازدراء كان يكسو ملامحه تطلّع إليه من كافة الزوايا مزيلاً مثبتات المقبض في النهاية، وفاحصاً ذلك الجزء من النصل الذي يستقر بداخل المقبض، وقال: «تماماً كما ظننت، لقد أضيف اسم الصانع في وقت لاحق لعملية الصنع». وحتى دون أن يسأل عن السرّ في رغبتي في بيعه، حدّد ثمناً له، وقدّم لي بدلاً منه ثلاثة خناجر ذات مقابض خشبية. فألقيت نظرة فاحصة على نصالها، ثم غادرت المتجر.

القاضي: ألم يسألك عن اسمك أو عنوانك؟

إيزوتسو: كلا، يا سيدي القاضي، لم يسألني عن شيء على الإطلاق.

القاضي: ما قولك، يا سيد هوندا؟ هل ترغب في توجيه أية أسئلة إلى إينوما أو إيزوتسو؟

هوندا: أودّ أن أطرح عدة أسئلة على إيزوتسو، يا سيدي القاضي!

القاضي: طيّب.

(١) آلة موسيقية ثلاثية الأوتار، والمراد هو الإشارة بالجزء إلى الكل، أي لو أن المتجر كان حافلاً بالأغراض والسلع والمعروضات الدقيقة والحساسة كالآلات الموسيقية. (هـ. م.)

هوندا: عندما مضيت لبيع السيف، هل أبلغك إينوما بأن السيوف من شأنها أن تكون مربكة بالنسبة لعملية اغتيال، ومن ثم فمن الضروري استبدالها بخناجر؟

إيزوتسو: طيّب، لا، يا سيدي، لم يقل ذلك بمثل هذا العدد من الكلمات، على ما أذكر.

هوندا ـ هكذا.إنه لم يحدّد شيئاً من هذا النوع، ولكن أبلغك فحسب بأن تذهب لمبادلة السيف، ومضيت دون أن تعرف الغرض؟

إيزوتسو: طيّب... نعم، يا سيدي، ولكن كانت لديَّ فكرة واضحة عن الأمر. لقد بدا جليّاً.

هوندا: إذن، في ذلك الوقت لم يكن الأمر متعلقاً بتغيير في طبيعة قراركم؟

إيزوتسو: لا، يا سيدي. لا أعتقد أن الأمر كان كذلك.

هوندا: أكان السيف الذي مضيت به إلى التاجر سيفك؟

إيزوتسو: كلا، يا سيدي، لم يكن كذلك، وإنما كان سيف إينوما.

هوندا: أي نوع من السلاح كان لديك؟

إيزوتسو: كان لديَّ خنجر، منذ البداية.

هوندا: متى حصلت عليه؟

إيزوتسو: طيّب، يا سيدي... نعم، كان ذلك في الصيف الماضي. عقب أداء قسمنا أمام المزار في الحرم الخاصّ بالكلية. فقد شعرت بأنه ممّا يجافي الرجولة بالنسبة لي ألا يكون لديّ خنجر على الأقل؛ ولذا مضيت إلى عمي، وهو من هواة جمع الأسلحة، وحصلت على خنجر منه.

هوندا: إذن، لم تكن لديك في ذلك الوقت فكرة واضحة ومحدّدة عمّا ستستخدم الخنجر فيه؟

إيزوتسو: كلا، يا سيدي، فكلّ ما في الأمر أنني شعرت بأنني سأستخدمه ذات يوم على نحو ما.

هوندا: طيب، متى أدركت بوضوح الاستخدام المحدّد الذي يمكن أن تستخدمه فيه؟

إيزوتسو: أحسب أن ذلك حدث حينما أسندت إليَّ مهمة اغتيال السيد شونوسوكي ياجي.

هوندا: إن ما أسألك عنه هو: متى أدركت إدراكاً واضحاً لأول مرة أنه لاقتراف الاغتيال لا بد من استخدام الخنجر فيه.

إيزوتسو: طيّب، يا سيدي... فيما يتعلق بهذا فإنني لا أتذكّر بصورة جيدة.

هوندا: أودّ، يا سيدي القاضي، أن أوجه عدة أسئلة إلى إينوما.

القاضي: طيّب.

هوندا: أي نوع من السيوف ذلك الذي تمتلكه؟

إينوما: كان السيف الذي أعطيته لإيزوتسو ليبيعه موقّعاً باسم تادايوشي من مدينة بايزين[1]. فعندما وصلت في العام قبل السابق إلى المرتبة الثالثة في الكندو أهداني أبي إياه.

(١) شأن العديد من أمم العالم، ومن بينها أمتنا العربية، ارتفع اليابانيون بصنع الأسلحة البيضاء، والسيوف بشكل خاص، إلى مرتبة الفن العريق، ولكنهم جعلوا صناعته أمراً مرتبطاً بالعديد من الأعراف والطقوس التي اكتسبت في نهاية المطاف صبغة روحية ودينية، وكان من المألوف أن يقوم كبار صانعي السيوف بالتوقيع بأسمائهم على السيوف التي يصنعونها. وترتفع قيمة هذه السيوف بارتفاع شأن صانعيها. وأود أن أشير لمن قد يعنيهم اقتناء السيوف اليابانية، إلى أن اليابان تحظّر تصدير السيوف إلى خارج أراضيها حفاظاً على ما هو موجود فيها من أعمال رائعة في هذا الفن. وأما السيوف اليابانية التي قد يجدها هواة الاقتناء في الأسواق الدولية فإنني أحذر عن معرفة يقينية وميدانية مباشرة، هواة تكوين المجموعات من أن هذه السيوف ليست إلا تقليداً فجاً، صنع على وجه خاص في تايوان وسنغافورة وإن كانت هناك مقلدات جيدة من إسبانيا. والمرجع التقليدي في =

هوندا: ألم تستبدل بهذا السيف القيّم خناجر لكي تستخدم أحدها في الانتحار؟

إينوما: عفواً، يا سيدي؟

هوندا: لقد شهدت بولعك بكتاب «عصبة الريح الإلهية»، وذكرت كيف أن عمليات انتحار رجال العصبة قد أثارت أعجابك كثيراً. وشهدت كذلك بأنك كنت ترغب في ميتة على ذلك الطراز وأنك أشدت أمام رفاقك بمثل هذه الميتة. لقد حارب رجال العصبة في ميدان المعركة بسيوفهم، ولكن عندما تعلق الأمر بالانتحار فقد استخدموا الخناجر. وانطلاقاً من ذلك...

إينوما: نعم، يا سيدي، الآن أتذكّر. في الاجتماع الذي عُقد يوم القبض علينا قال أحدهم: «في حالة الطوارىء ينبغي أن يحمل كل منا خنجراً يخفيه في ملابسه». وقد وافق الجميع على ذلك. وسيخصّص خنجر الطوارىء هذا بالتحديد للانتحار، ولكننا اعتقلنا قبل أن نستطيع ابتياع المزيد من الخناجر.

هوندا: في تلك الحالة فإنه حتى ذلك الوقت لم تكونوا قد فكرتم في شراء أسلحة لمثل هذا الاستخدام الطارىء؟

إينوما: كلا، يا سيدي!

هوندا: ولكنكم كنتم قبل ذلك قد عقدتم العزم على الانتحار؟

إينوما: نعم، يا سيدي!

= السيوف اليابانية هو، بالطبع، كتاب ساتو الشهير، ولمن يعنيهم هذا الفن الرفيع أقدم بيانات هذا الكتاب:

Sato, K. The Japanese Sword - Kodansha International - Tokyo - 1986 - Q. S. B. N. O - 87011 - 562 - 6

(هـ. م.)

هوندا: قمتم إذن باستبدال السيوف بالخناجر وفي ذهنكم الانتحار، وكذلك قتل الآخرين - أي وفي ذهنكم غرض مزدوج؟

إينوما: نعم، يا سيدي، بإمكانك أن تقول ذلك.

هوندا: من هنا فإن تحرككم المتمثل في مبادلة أسلحة عادية بخناجر له غرض مزدوج: الاغتيال والانتحار. وفي الوقت السابق الإشارة إليه فإن هذه الأسحلة الخطيرة لم ترتبط بفكرة الاغتيالات وحدها. أهذا صحيح؟

إينوما: آه... أجل، يا سيدي!

المدّعي: إنني أعترض، يا سيدي القاضي. فمن الجليّ أن المسار الذي يتخذه الدفاع في طرح أسئلته يهدف إلى خدمة غرض بعينه.

القاضي: يكفي هذا القدر من أسئلة الدفاع. فقد تمت تغطية موضوع مبادلة السيوف على نحو كافٍ، ومن ثم فإنه بمقدور الادّعاء استدعاء شهوده.

* * *

شعر هوندا وهو جالس إلى قمطره بالرضا إلى حد بعيد، فقد استطاع من خلال أسئلته تشويش الطرح المنطقي الذي يربط الحصول على الخناجر بنية القتل. غير أنه شعر بالقلق حيال عدم اهتمام القاضي هيساماتسو الجليّ بالجوانب العقيدية للقضية. فمنذ بدء المحاكمة، كان بمقدور القاضي بمقتضى السلطة المخولة له أن ينتزع من إيساو أيّ عدد من الإفادات عن معتقداته السياسية ولكنه لم يقم بمحاولة لتحقيق ذلك.

تطلع الحضور إلى مدخل قاعة المحاكمة، نحو الصوت غير المؤكد الصادر عن عصا تدبّ على الأرض. وظهر للعيان رجل طاعن في العمر. كان طويل القامة ولكنه أجنأ يحمي نفسه بالإمساك بقوة بمقدمة الكيمونو الصيفي الكتاني الذي يرتديه، وكأنما كان يحاول بيأس التشبّث بشيء ما. وكانت العينان الغائرتان في محجريهما وحدهما اللتان تتوجهان إلى أعلى تحت

شعر الرأس الأشيب. وشقّ طريقه إلى منصة الشهود حيث وقف مستنداً إلى عصاه.

نهض القاضي، وقرأ نص القسم المكتوب، فوقّع عليه الشاهد بيد مرتجفة وختم توقيعه. وقُدِّم إليه مقعد ليجلس عليه قبل أن يشرع في الإدلاء بشهادته.

وبصوت بالغ الانخفاض، بحيث كان الجمهور يسمعه بمشقة، ردّ العجوز على أسئلة القاضي: «اسمي رايكيتشي كيتازاكي. عمري ثمانية وسبعون عاماً.

القاضي: كان الشاهد مالكاً للنُزُل المشار إليه لبعض الوقت بحسب ما فهمت.

كيتازاكي: نعم، يا سيدي القاضي. الأمر كذلك. لقد افتتحت هذا النُزُل المخصّص للعسكريين وقت نشوب الحرب مع روسيا، وواصلت إدارته حتى الآن. وكان من بين نزلائي من الضباط الكثيرون ممّن ارتقوا مدارج الشهرة وأصبحوا من الفرقاء واللواءات. وقد حظيت المؤسسة بشهرة باعتبارها نُزُلاً يجلب حسن الطالع لمن يقيمون فيه. إنها مكان عتيق، أثقل عليه الدهر، ولكني شَرُفت بعطف السادة العسكريين، ولا سيّما ضباط فوج أزابو الثالث. وليست لي زوجة. ورغم رقة الحال فإنني أكسب عيشي دون أن أكون عبئاً على أحد.

القاضي: هل لدى الإدعاء أسئلة يوجهها للشاهد؟

المدّعي: نعم، يا سيدي القاضي. منذ متى حل الملازم أول مشاة هوري بنُزُلك؟

كيتازاكي: طيّب، يا سيدي... فَلْنَرَ الآن! ثلاث سنوات... لا، سنتان... إنْ ذاكرتي لم تعد كما كانت. آه... نعم، حوالي عامين، فيما أظن.

المدّعي: لقد رُقّي الملازم هوري إلى رتبة الملازم أول قبل ثلاث سنوات. في مارس ١٩٣٠. وعندما حلّ بنزلك كان بالفعل يحمل رتبة ملازم أول. أهذا صحيح؟

كيتازاكي: أجل، يا سيدي، إنني واثق من هذا. فهذا السيد كان يضع نجمتين منذ البداية، ولست أذكر إقامة احتفال بمناسبة الترقية.

المدّعي: في هذه الحالة فإن الأمر قوامه أقل من ثلاث سنوات وأكثر من سنة؟

كيتازاكي: أجل يا سيدي، هذا صحيح.

المدّعي: هل كان للملازم هوري العديد من الزوار؟

كيتازاكي: نعم، يا سيدي، كثيرون للغاية حقاً. ولم يحدث مرة واحدة أن كانت هناك زائرة، وإنما هم شبّان صغار، طلاب، يقبلون ويمضون بلا انتهاء. وكانوا يحبّون الاستماع إليه وهو يتحدث. والملازم بدوره كان مولعاً بهم. وعندما كان يحلّ موعد تناول طعام العشاء، كان يبعث إلى متاجر الحيّ طالباً الطعام. وكان يعاملهم معاملة طيبة. ويفرغ ما في جيوبه من أجلهم.

المدّعي: ومنذ متى أظهر مثل هذا الميل؟

كيتازاكي: كان ذلك منذ البداية، يا سيدي. نعم.

المدّعي: هل حدّثك الملازم بشيء عن زواره؟

كيتازاكي: آه، لا. لم يكن في هذا الصدد يشبه من قريب أو بعيد الملازم ميورا. فلم يكن ودوداً معي، ولم يبادلني كلمة واحدة. وهكذا لم يكن هناك على الإطلاق احتمال بأن يُفضي إليّ بشيء عن ضيوفه...

المدّعي: لحظة، من فضلك! ماذا عن الملازم ميورا؟

كيتازاكي: سيّد مهذّب حلّ بالنُزُل وقتاً طويلاً، وتقع غرفته في الطابق الثاني في نهاية الدهليز المواجهة لغرفة الملازم هوري. إنه على شيء من الجفاء، ولكنه نقيّ السريرة.

المدّعي: أرجو أن تحدثنا عمّا إذا كان هناك أيّ شيء خاص تتذكره عن زوار الملازم هوري!

كيتازاكي: طيّب، يا سيدي، سأحدّثك. في هذه الليلة، على وجه التحديد، كنت بسبيلي إلى جلب طعام العشاء للملازم ميورا. وعندما مررت بغرفة الملازم هوري كان الباب موصداً، وفجأة تناهى إليّ من الداخل صوت الملازم وهو يصيح وكأنه يصدر أمراً في ميدان التدريب. وقد هزّني صوته هزّاً.

المدّعي: ماذا قال الملازم؟

كيتازاكي: أتذكّر ذلك بوضوح. فقد صاح غاضباً: «ألا تفهم؟ تخلَّ عن الأمر!»

المدّعي: هل تلمّ بما قصده بقوله: «تخلَّ عن الأمر!»

كيتازاكي: طيّب، لا، يا سيدي. وقد وضعت في موضع اضطررت معه لمحاولة منع سقوط الصحفة التي كنت أحملها. وبما أنني لست ممّن يصمدون في الوقوف على أقدامهم، كما ترى، فقد كان كل ما بوسعي هو الإسراع إلى غرفة الملازم ميورا. وكان الملازم ميورا جائعاً في تلك الليلة، وقد دعاني في وقت سابق من أعلى هاتفاً بي: «أنت أيها العجوز! أسرع بإحضار عشائي!» وقد حدّثت نفسي بأنني إذا ما أسقطت صحفة عشائه فإنه سيصيح بي غاضباً. وعندما وضعت الصحفة بين يديه ابتسم وقال: «لقد حان أوان الانقضاض. أليس كذلك؟» وكان هذا كل ما في الأمر. فلم يجر ردّاً بعدها. واعتقد أن ذلك من الأمور الطيبة في العسكريين.

المدّعي: كم زائراً كان في غرفة الملازم هوري في الليلة المشار إليها؟

كيتازاكي: طيب، أظن أنه كان زائراً واحداً. نعم، . . . الأمر كذلك، زائر واحد.

المدّعي: ومتى كانت تلك الليلة التي قال فيها الملازم هوري: «تخلَّ عن

الأمر!»؟ هذه نقطة بالغة الدقة، لذا أرجو أن تحاول التذكّر على وجه الدقة. في أيّ عام، في أيّ شهر، في أيّ يوم؟ هل تحتفظ بمذكرة يومية؟

كيتازاكي: لا، يا سيدي، لا مجال لذلك.

المدّعي: ربما لم تفهم سؤالي؟

كيتازاكي: عفواً؟

المدّعي: هل تحتفظ بمذكرة يومية؟

كيتازاكي: آه، مذكرة؟ لا، يا سيدي، لست أحتفظ بمذكرة.

المدّعي: طيّب، إذن في أيّ عام، أيّ شهر، أيّ يوم كان ذلك؟

كيتازاكي: طيب، إنني على يقين من أن ذلك وقع في العام الماضي. نعم، كان الأمر كذلك. ولأنني لم أعتقد على الإطلاق أن من الغريب أن الباب المنزلق كان موصداً، فإنني أعلم أن ذلك لم يكن في الصيف، بل ربما لم يكن في مطالع الصيف أو مطالع الخريف. ولا بد أن الطقس كان بارداً، ولكنه لم يكن بارداً للغاية خارج النُّزُل، وهكذا فإن ذلك ربما وقع في الربيع الماضي، في وقت متأخر، ربما كان شهر نيسان (أبريل)، وإلا فمن شهر تشرين الأول (أكتوبر) فصاعداً. وكانت الساعة تقارب وقت تناول العشاء ليلاً. وأما فيما يتعلق باليوم نفسه... طيب، يا سيدي، فيما يتعلق بذلك لست متأكّداً تماماً.

المدّعي: هكذا، إذن، فقد كان ذلك في نيسان (أبريل) أو تشرين الأول (أكتوبر)، أو ربما في آذار (مارس) أو تشرين الثاني (نوفمبر). ألا يمكنك أن تكون أكثر تحديداً.

كيتازاكي: كلا، يا سيدي، ولكني أحاول التذكّر بقدر ما أستطيع، دعنا نرَ... نعم، كان ذلك في تشرين الأول (أكتوبر) أو تشرين الثاني (نوفمبر).

المدّعي: ولكن في أي الشهرين وقع ذلك: تشرين الأول (أكتوبر) أو تشرين الثاني (نوفمبر)؟

كيتازاكي: لست واثقاً فيما يتعلق بذلك.

المدّعي: أيمكن للمرء القول بأن ذلك كان إما في نهاية تشرين الأول (أكتوبر) أو بداية تشرين الثاني (نوفمبر)؟

كيتازاكي: أجل، يا سيدي، لا بأس بذلك، وأرجو أن تغتفر لي أني لم أستطع أن أكون أكثر نفعاً من هذا.

المدّعي: من هو الزائر الذي كان مع الملازم في تلك الليلة؟

كيتازاكي: لست أعرف اسمه. فالملازم هوري كان يبلّغني بعدد الزوار الشبان الذين ينتظرهم فقط، والموعد الذي يفترض أن يصلوا فيه.

المدّعي: أكان زائره في تلك الليلة شاباً كذلك؟

كيتازاكي: أجل، يا سيدي، كان طالباً، على ما أعتقد.

المدّعي: أيمكنك التعرّف عليه مجدّداً؟

كيتازاكي: طيّب، يا سيدي... ربما.

المدّعي: أرجو أن تمعن النظر حولك، يا سيد كيتازاكي. هل الشخص الذي زار الملازم في تلك الليلة بين المتّهمين؟ يمكنك أن تنهض وتمحّص وجه كل منهم إذا أردت ذلك.

ترك إيساو العجوز الأجنأ يقترب منه، ويحدّق فيه ملء عينيه. كانت العينان الغائرتان في محجريهما غائمتين وكأنهما محارتان. وقد جثمت كتلة ملتفة من العروق الحمراء على بياضهما، وضاق البؤبؤان بما حولهما حتى لاحا وكأنهما انكمشا فأصبحا خالين أسودين تجرّدا من البريق.

حظر على إيساو الحديث، ولكن عينيه تحدّتا العجوز: «لقد كنت أنا تلك المرة أليس كذلك؟». غير أنه حتى فيما كان وجه إيساو أمام كيتازاكي مباشرة بدا كما لو أن نظرة العجوز المحدّقة يعوقها شيء، أو كأنما كان ثمة مصدر غير محدّد تلفّه الظلال يحوم بينهما، وقد اجتذب إليه كيتازاكي اجتذاباً.

احتكت العصا احتكاكاً خفيفاً بالأرض. ومضى العجوز يتفحّص محيا إيزوتسو. ولما كان قد أمضى وقتاً أطول أمام إيساو بالمقارنة بأيّ من الآخرين، فقد تيقن إيساو من أن كيتازاكي قد تعرف عليه.

عاد العجوز إلى منصة الشهود، واستند مرفقه إلى عصاه، وضغطت يده على جبينه، ومضى يحملق بنظرة جوفاء، وكأنما أنهكه الجهد الذي بذله في مطاردة الذكرى التي انطلقت هاربة أمامه، مراوغة كالغمامة.

رجع المدّعي إلى طرح أسئلة من جديد وقد تجلّت لمسة من الضيق في نغمة صوته.

ـ طيّب، هل تعرفت عليه هناك؟

لم يتطلع كيتازاكي إلى المدّعي وهو يردّ بصوت يكاد يسمع، وإنما بدا كما لو كان يخاطب صورته المنعكسة بوهن على الخشب المصقول الذي تتألف منه منصة القضاة:

ـ ليس بمقدوري التيقن، يا سيدي. ولكن ذلك المتهم الأول. . .

ـ إينوما، أهو من تقصده؟

ـ لست أعرف اسمه. ولكن وجه ذلك الشاب في أقصى اليسار. . . إنني على يقين من أنه جاء إلى نُـزُلي في وقت ما. ومع ذلك فقد لا تكون لهذا علاقة بالملازم هوري.

ـ في تلك الحالة، ربما كان ضيفاً من ضيوف الملازم ميورا؟

ـ لا، يا سيدي. لم يكن الأمر كذلك. فمنذ وقت جد طويل كان هناك شاب يجيء للمكوث مع امرأة في القاعة الخلفية. وأحسب أنه هو هذا الشاب. . .

ـ هل أحضر إينوما امرأة إلى نُزُلك؟

ـ ليس بمقدوري التأكّد. ولكنه كان شخصاً يشبهه.

ـ ومتى كان ذلك؟

ـ طيب. الآن فيما أعود بذاكرتي إلى الوراء، أظن أن ذلك كان، نعم، قبل حوالي عشرين عاماً.

ـ عشرون عاماً؟ إينوما أحضر امرأة إلى نزلك قبل عشرين عاماً؟

كان ذهول المدّعي من الشدة بحيث انفجر الحاضرون ضاحكين. ولكن ردّ الفعل هذا لم يزعزع العجوز على الإطلاق، وإنما كرّر ردّه في إذعان:

ـ نعم، يا سيدي، ذلك صحيح. أحسب أن ذلك وقع قبل عشرين عاماً.

الآن بدت عدم أهلية الشاهد للإدلاء بشهادته واضحاً للجميع. وأغرب الناس في الضحك من خرفه. وفي البداية أبدى هوندا ردّ الفعل ذاته، ولكن عندما ردّد العجوز مصراً قوله «قبل عشرين عاماً» تداعى شعوره بطرافة ما يسمع مفسحاً المجال لرجفة عمّت بدنه.

كان هوندا قد سمع ذات مرة من كيواكي تفاصيل لقائه مع ساتوكو في القاعة الخلفية من نُزُل كيتازاكي. وبخلاف كونهما في سن واحدة لم يكن هناك تشابه بين كيواكي وإيساو. ومع ذلك فإن كيتازاكي هذا الذي قرب هو نفسه للغاية من الموت، خلط في ذهنه الذكريات عن الاثنين. وكل ما في الأمر أن زخم ألوان كل الأمور التي حدثت في نُزُله العتيق اختلط بعضه ببعض متجاوزاً الزمان. الحب المحتدم المنتمي إلى سنوات مضت، والإخلاص الجارف المنتمي إلى الحاضر ـ اختلطا على نحو غامض معاً، في تجاوز القيود المألوفة، في التحول إلى إخفاقات مبكرة. ومن مستنقع ذكريات عمر بكامله نهضت زهرتا لوتس رائعتان، حمراء وبيضاء، ولا بدّ أن هاتين الزهرتين قد نُظِر إليهما باعتبارهما زهرة واحدة. وكان هوندا على يقين من أنه من خلال هذا اللبس، وفي ذهن كيتازاكي العجوز الخرف، أُثير مستنقع رمادي راكد بأشعة من نور غريب صافٍ. ومضى العجوز المتلهف للإمساك بهذا التألّق الفذّ يكرّر في عناد ما قاله، من دون أن يداخله الاستياء من جراء سخرية الجمهور أو من غضب المدّعي.

وبعد أن أدرك هوندا هذا ساوره شعور بأن منصة القضاة المصقولـة على نحو متألق، والأردية ذات اللون الأسود الـوقور تشحب فجـأة، وتتقلّص، أمـام الألق الهائـل بشمس الصيف المنهلّة خـارج النـوافـذ. وبـدت الآليـة الجليلة المعدّة على نحـو رائع للنـظام القضائي وكـأنما لـطمتها تلك الأشعـة القوية، وكأنها تذوب سريعـاً مثلما قلعـة من جليـد. وكان هـوندا يعلم أن كيتـازاكي قد لمـح بحيرة النـور تلك التي تخفى على العيـون العاديـة. ومن المؤكـد أن الألق الصيفي الذي يخلع التـماعة عـلى كل إبـرة صنوبـر خـارج النوافذ، يستمد مصدره من حبـل من النور أكـثر جلالاً وروعـة من النظام القضائي المتبدّي للعيان في هذه القاعة.

ـ هل يرغب الدفاع في توجيه أسئلة للشاهد؟

عندما سمع هونـدا هذا السؤال من القـاضي لم يملك، والذهـول ما زال مسيطراً عليه، إلا أن يردّد قائلاً:

ـ لا، يا سيدي القاضي!

قال القاضي:

ـ طيّب، شكراً لك يا سيد كيتازاكي، يمكنك الانصراف.

قال هوندا:

ـ أودّ هذه المرة الحصول على إذن بأن تستدعى كشـاهدة سيـدة موجـودة معنـا، وإن لم يتمّ استدعـاؤها رسميـاً. واسمها مـاكيكو كيتـو. ومن أجـل المتهم إينوما والمتهمين الآخرين أيضـاً، أودّ توجيـه أسئلة إليها، فيـما يتعلق بتغيير إينوما ما عقد العزم عليه، قبل ثلاثة أيام من اليوم المحدّد لتحرّكهم. ولما كنت سأقدم كدليلٍ موادّ اليوميات التي كتبتها الشاهدة في ذلك الوقت، فإني آمل أن يكون من الممكن توجيه الأسئلة بناء على هذه المواد.

لم تكن هنـاك مادة في إجـراءات القضايـا الجنائيـة تنصّ على استـدعـاء الشهود على هذا النحو، ولكن القاضي، بحسب طبيعة الشهـادة التي سيتم

الإدلاء بها، كان يمنح عادة الإذن بذلك بعد التشاور مع المدّعي والقاضيين المساعدين. ولقد اعتزم هوندا الاستفادة من هذا العُرف.

طلب القاضي رأي المدّعي فوافق في فتور وكأنه يعتبر ذلك شيئاً لا يستحق اهتماماً منه. وبعد الالتفات إلى اليمين أولاً، والتشاور همساً ثم القيام بمثل ذلك مع القاضي الجالس إلى اليسار، ردّ القاضي على هوندا:

ـ طيّب، يمكنك القيام بذلك.

وبناء على هذا ظهرت ماكيكو في مدخل قاعة المحاكمة. كانت ترتدي كيمونو من طراز أكاشي قاتم الزرقة، تجمله خطوط تشبه الشلال، ويضمّه عند الخصر زنار من طراز هاكاتا. وفي منتصف الصيف، كانت بشرة ماكيكو الطبيعية البياض، الباردة كالثلج، قد خلقت مظهراً هادئاً موحياً بالبعد على وجهها الذي تؤطّره تسريحة شعرها الفاحم السواد وقد أخفت أذنيها والعنق الأزرق للكيمونو الذي ترتديه. وتحت عينيها الرطبتين المتوهجتين بالحيوية، مست علامات السن بخفة جلدها مثلما يمس مقدم الغسق صفحة السماء، وثُبِّتَ بالحبل المائل قليلاً الذي يُمسك بزنارها في موضعه مجسم لسمكة سلمون نُحت من اليشب القاتم. وبدا أن بريقها الأخضر الصلب يفرض صلابة ناعمة على الخطوط المنسابة في يسر لزيها. وقد قبع توتّر مراوغ تحت مظهرها الهادئ، ولكن ما من أحد كان بوسعه تحديد ما إذا كان التعبير الفاتر المرتسم على محياها يُخفي الأسى أو يُخفي الاحتقار.

شقّت ماكيكو طريقها إلى منصة الشهود دون أن تُلقي ولو نظرة عجلى باتجاه إيساو. وكان كل ما رآه منها عند ذاك هو خط الاتصال البارد الممتد في ظهر الكيمونو الذي ترتديه، والقوس الهائل الذي يصنعه زنارها المحكم.

ـ أقسم، بمقتضى هذا، أنني بحسب ما يمليه عليّ ضميري سأقول الحقيقة، ولا أخفي ولا أضيف شيئاً إليها.

تلا القاضي نص القسم كذي قبل، ووقعت ماكيكو في الـدفتر الـذي كان قد جُلب إلى منصة الشهود، بيدٍ لم تفصح عن أدنى اختلاجة، ثم سحبت من ردن ردائها الصندوق الصغير الذي يحتوي على ختمها، وأخرجت الختم العاجي الرقيق وختمت به الورقة بحزم، بحيث انثنت أصابعها الجميلة إلى الوراء. وإذ مضى هوندا يرقبها من الجانب، لمح بين أصابعها حبراً احمر كأنه نثار من دم.

استقرّت على قمطر هوندا المذكرات التي أبدت ماكيكو استعدادها لإعلان مضمونها على الملأ. وعلى نحو ما طلب، قدم هذه المذكرات باعتبارها دليل نفي. ووفقاً لطلبه استدعى ماكيكو باعتبارها شاهدة. ولكن لم يكن بمقدوره إلا أن يخمّن فيما يتعلق بنية القاضي الكامنة وراء سماحه بهذا.

القاضي: ما هي ظروف تعرّفك بالمتهم؟

ماكيكو: إن أبي، يا سيادة القاضي، صديق لوالد السيد إينوما. وفضلاً عن ذلك فإنه لمّا كان أبي يسعده لقاء الشباب، فقد كان السيد إينوما ضيفاً يتردّد كثيراً على دارنا. وكانت العلاقة أكثر توثقاً ممّا هي بين الأقارب.

القاضي: متى كانت المرة الأخيرة التي التقيت فيها بالمتهم وأين كان ذلك؟

ماكيكو: في مساء التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي حين جاء إلى دارنا.

القاضي: هل محتوى مذكراتك المقدّمة كدليلٍ دقيق تماماً.

ماكيكو: نعم، يا سيدي القاضي، هو كذلك.

القاضي: بإمكان الدفاع الآن سؤال الشاهدة.

ـ هوندا: نعم، يا سيدي القاضي! أيتها السيدة كيتو، هذه هي مذكراتك الخاصة بالعام الماضي. أليس كذلك؟

ماكيكو: بلى، يا سيدي!

هوندا: هذه المذكرات من النوع الذي ليس فيه تواريخ مطبوعة على الصفحات، الأمر الذي يسمح لك بالكتابة بقدر ما تشائين. وقد دوّنت بإخلاص ودأب مثل هذه المذكرات على امتداد سنوات. هل هذا صحيح؟

ماكيكو: نعم، يا سيدي، هذا صحيح. وهكذا يمكنني في بعض المرات كتابة قصيدة من نوع «الواكا»(١) وما إلى ذلك.

هوندا: كانت طريقتك، منذ وقت طويل، هي ترك سطر خالٍ من الكتابة بين كل مادتين وعدم البدء بالكتابة في صفحة جديدة في كل يوم؟

ماكيكو: نعم، يا سيدي. ففي العامين أو الثلاثة أعوام الماضية كنت أكتب كثيراً، بحيث أنني إذا بدأت بالكتابة في صفحة جديدة كل يوم، حتى في مفكرة بدون تواريخ، فإن الصفحات تنفد مع حلول الخريف. وهكذا فإنها لا تبدو مرتّبة، ولكن تلك هي الطريقة التي أكتب بها الموادّ كل يوم.

هوندا: طيب، إذن، في العام الماضي، أي عام ١٩٣٢، وفيما يتعلق بيوم التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر)، لم تكن هذه المادة شيئاً كتبته في وقت لاحق، وإنما يمكنك الشهود بأنها مادة كتبت في الليلة ذاتها؟

ماكيكو: نعم، يا سيدي، إنني لا أدع يوماً ينقضي دون أن أكتب شيئاً في مذكراتي. وفي ذلك اليوم كتبت مادة قبل أن آوي إلى فراشي.

هوندا: الآن، وفي مادة التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٣٢، سأقرأ بصوت عال ذلك الجزء المتعلق بالمتهم إينوما:

«. . . الليلة، في حوالي الساعة الثامنة، زارنا إيساو على غير انتظار. وعلى الرغم من أنني لم أره منذ بعض الوقت فقد كنت أفكر فيه الليلة من

(١) الواكا: شكل من أشكال الشعر الياباني التقليدي يتميّز بطابعه المركّب الذي يختلف تماماً عمّا في الهايكو ـ وهو يتألف من ثلاثة أبيات تضمّ سبعة عشر مقطعاً ـ من سهولة وبساطة وطواعية. (هـ. م.)

غير أن أعرف لذلك سبباً، وربما كانت قدرتي الغريبة على توجس ما يوشك على الحدوث هي التي دفعت بي إلى الدهليز قبل أن يُقرع الجرس. وكالمعتاد، كان يرتدي زيه الطلابي وينتعل قبقاباً، ولكني عندما تطلعت إلى محياه أحسست بأن شيئاً ما قد وقع. فقد بدا متصلّباً ورسمياً. وفجأة دفع إليّ ببرميل صغير كان يحمله، وقال: «طلبت مني أمي أن أُحْضِر لكم هذا. إنه يضمّ عدداً من القواقع تلقيناها من هيروشيما». وفي عتمة الدهليز أحدث الماء داخل البرميل صوتاً يشبه لساناً يقرق.

انتحل متململاً العذر المتمثّل في أنه يعكف على الدراسة؛ ولذا عليه الانصراف، ولكن الكذبة كانت مرتسمة بوضوح على محياه بكامله. ولم أكن أتوقّع شيئاً كهذا قطّ من إيساو الذي أعرفه. وألححت عليه أن يبقى، وقبلت البرميل منه، ومضيت لإبلاغ أبي الذي قال بود: «دعيه يدخل!».

اندفعت عائدة إلى الدهليز فألفيت إيساو يوصد الباب. أسرعت وراءه. فقد أردت أن أكتشف بأي ثمن ما يثير ضيقه.

إنني على يقين من أنه عرف أنني أمضي وراءه، ولكنه لم يلتفت، ولم يغيّر من معدّل سيره. وعندما بلغنا مقدمة حديقة هاكوسان ناديته: «ما الذي يغضبك؟» فتوقّف أخيراً. التفت ليواجهني، وابتسم قليلاً على نحو يخالجه الحرج، ثم جلسنا على مقعد في الحديقة وتحدثنا هنالك في ريح الليل الباردة.

سألته عن حاله وحال مجموعته. فمنذ فترة كان ورفاقه يلتقون في الدار ويتحدثون بأن ظروف اليابان لم تَعُدْ ممّا يطاق، وقد شاركت بدوري في هذا، داعية إياهم جميعاً إلى غداء من السوكياكي وما إلى ذلك. وكنت أعتقد أن نشاط هذه المجموعة هو الذي أبعد إيساو عن الدار في الأيام الأخيرة.

رد إيساو عليَّ وقد ارتسم تعبير مكروب على محياه: «ما اعتزمته حقاً

بالمجيء إلى داركم كان الحديث معك عن المجموعة. ولكن عندما لمحت وجهك، ولما كنت قد تحدثت من قبل بأمور توحي بالجسارة، فقد ساورني الشعور بالحرج، ولم أستطع التلفظ بكلمة، ولذا تسللت مبتعداً». وقد تلفّظ بهذه الكلمات ببطء وفي حزن.

كانت القصة التي تكشفت من الرد على أسئلتي كالتالي: دون أن أدرك الأمر انطلق اتجاه نشاطات المجموعة من كل عقال. وحقيقة الأمر أن كلاً من الضالعين في هذا النشاط عمد، لكي يخفي مخاوفه ويعجم عود شجاعة المجموعة، إلى تصعيد احتدام كلماته. ومع تزايد عدد الذين تركوا المجموعة لأنهم ضاقوا ذرعاً بهذا التبجّج وادّعاء الشجاعة، مضت القلة القليلة التي بقيت تواصل الخداع على نحو أشدّ ضراوة. وعلى حين ازداد تصميمهم تهافتاً، واصلت كلماتهم وخططهم تصاعدها نحو ضربة دموية موغلة في الضراوة. ولم يعد أحدهم يدري ما عساه يفعل حيال الآخرين. ولما لم يكن بوسع أيّ منهم أن يُظهِر أدنى بادرة تدلّ على الضعف في أقواله فإن غريباً عنهم كان من شأنه أن يروعه ما يجري في اجتماعاتهم. ولكن في حقيقة الأمر لم يعد أي منهم يرغب في التحرك حقاً. غير أنه مع بقاء الموقف على نحو ما هو عليه لم تواتِ أحدهم الشجاعة للإصرار على التخلّي عن خطتهم خوفاً من أن يدان باعتباره جباناً. وفضلاً عن ذلك فإنه إن سارت الأمور على هذا النحو فسوف يزداد الخطر حدّة. وسيندفعون دونما إرادة منهم في الطريق إلى التصادم مع العمل الذي لا يعتزمون القيام به. ولم يعد إيساو نفسه، وهو زعيمهم، يرغب في المضيّ بالأمر قُدُماً. أليست هناك طريقة للتراجع؟ لقد كان الهدف الحقيقي من مجيئه هذا إلى الدار الليلة هو طلب النصح. تلك كانت الظروف.

استخدمت كل الحجج التي استطعت التفكير فيها لدفعه إلى التخلّي عن الأمر. فالتصرف الذي تمليه الرجولة هو وضع نهاية لكل هذه الأشياء. وحتى إن تنكّر رفاقه له فإنه سيأتي وقت يفهمون فيه جليّة الأمر. فهناك

سبل أخرى عديدة لكي يخدم المرء بلاده. وإذا لم يزعجه ذلك فإنني على استعداد لمحاولة إقناع رفاقه من وجهة نظر امرأة. لكنه حينما ردّ بأن ذلك لن يؤدّي إلا إلى إحراجه اعتقدت أنه على صواب وأقلعت عن فكرتي هذه.

عندما افترقنا أمام مزار هاكوسان التفت إيساو إليَّ، بعد أن صلّينا معاً، وقال: «شكراً لك. إنني أشعر بالتحسّن ثانية، وليست لديّ النية في المضيّ بالأمر قُدُماً. وبمجرّد أن أعثر على الفرصة المناسبة سأبلغ الجميع بإلغاء الأمر كلية». وقد ضحك بمرح عندما قال هذا، وهكذا شعرت بشيء من الارتياح. ولكن رغم ذلك فإني ما زلت أجد في صدري شعوراً بالانقباض لا يريم.

وفيما أنا أكتب هذا أجد ذهني صافياً ومنتبهاً. لن أتمكن من النوم الليلة. ولو أن شيئاً من سوء الطالع حلّ بذلك الشاب المتميّز الذي يعلّق عليه أبي بدوره آمالاً كباراً، فأحسب أن بمقدوري القول بأن اليابان نفسها ستعاني من خسارة كبيرة. قلبي مثقل الليلة، ولست في حالة نفسية تسمح لي بنظم الشعر».

تلك هي مادة المذكرات. أيمكنك أن تؤكدي لنا أنك كتبتها؟

ماكيكو: أجل، يا سيدي، لقد كتبتها.

هوندا: وفيما بعد، لم تغيّري أو تضيفي أي شيء إليها؟

ماكيكو: لا، يا سيدي، كانت تماماً على نحو ما رأيتها.

القاضي: إذا كانت الحالة كذلك، ووفقاً لملاحظتك، هل تخلّى المتّهم إينوما في الليلة المشار إليها عن أية نية لارتكاب جريمة؟

ماكيكو: نعم، يا سيدي، ذلك صحيح.

القاضي: هل قال إينوما لك أي شيء عن اليوم المختار أو أي شيء من هذا القبيل؟

ماكيكو: لا، يا سيدي القاضي، لم يقل شيئاً.

القاضي: أتظنين أنه ربما رغب في إخفائه عنك؟

ماكيكو: لقد أبلغني، يا سيدي القاضي، بأنه تخلّى عن المشروع، ومن هنا أحسب أنه اعتبر مما لا معنى له أن يحدّثني عن أمور كاليوم الذي كان قد حدّده. وقد كان على الدوام من الصدق والأمانة بحيث أشعر يقيناً بأنه كان يمكنني أن أعرف إذا كان يكذب عليَّ.

القاضي: تبدو علاقتك بالمتهم وثيقة للغاية.

ماكيكو: أحسب أنني كنت أنظر إليه باعتباره أخاً أصغر.

القاضي: طيّب، إذا كنتما أنتما الاثنان، إذن، على مثل هذه الصلة الوثيقة أفلم تشعري، في ضوء الشعور بالانقباض الذي لا يريم، والذي ذكرته في مذكراتك، بأي دافع يحدوك إلى العمل سرّاً على التيقّن من أنهم سيتراجعون عمّا عقدوا العزم عليه؟

ماكيكو: أحسست بأن تدخّل امرأة لن يؤدّي إلا إلى تفاقم الحال سوءاً، ولذا اكتفيت بمواصلة الصلاة. وفيما كنت عاكفة على هذا علمت بالاعتقالات. وكانت صدمة لي.

القاضي: هل تحدّثت عن وقائع تلك الليلة مع أبيك أو مع أي شخص آخر؟

ماكيكو: لا، يا سيدي القاضي!

القاضي: ألم يكن من الطبيعي أن تبلغي أباك في ضوء الخطورة البالغة للأمر، وكذلك في ضوء النحو الذي تغيّرت عليه الأمور؟

ماكيكو: عندما عدت إلى الدار في تلك الليلة لم يطرح عليَّ أبي أية أسئلة. وفي المقام الأول فإنّ لأبي وجهة النظر التي يتبناها رجل عسكري، وقد كان ينظر نظرة التقدير إلى الحماس المخلص من جانب الشباب. ولذا لم أرغب في محادثة أبي عن التغيّر الذي طرأ على إيساو. وحتى دون أن أقول شيئاً فقد شعرت أن أبي سيعلم بجلية الأمر. ولذا فقد احتفظت بالأمر في قرارة فؤادي.

القاضي: هل يرغب المدّعي في طرح أية أسئلة على الشاهدة؟
المدّعي: لا، يا سيدي القاضي!
القاضي: تُصْرَف الشاهدة بمقتضى هذا، شكراً لك أيتها السيدة كيتو!

انحنت ماكيكو، وبعد أن أدارت ظهرها الذي أُحكِم التفاف القوس الهائل لزنارها من طراز هاكاتا حوله، مضت مغادرة القاعة دون أن تلقي نظرة باتّجاه المتهمين.

ضم إيساو قبضتيه حانقاً. وتحدّر العرق بداخلهما.

لقد ارتكبت ماكيكو جريمة الحلف كذباً! أسوأ أنواع الحلف كذباً! أدلت بشهادة كان إيساو يعرف أنها كذب صارخ، مخاطرة في حالة اكتشاف ذلك بأن توجَّه إليها لا تهمة الحلف كذباً وحدها، وإنما كذلك، وبحسب الظروف، تهمة التواطؤ الإجرامي.

أما فيما يتعلق بهوندا فلا شكّ أنه استدعى ماكيكو دون أن يعلم بأنها تكذب. ومن المؤكد أنه ما كان يمضي إلى حدّ تعريض حياته المهنية بأسرها للخطر من خلال التآمر مع ماكيكو. ومن ثم فإنه صدّق القصة التي روتها ماكيكو في مذكراتها!

شعر إيساو بالضياع. فإذا كان يرغب في تجنيب ماكيكو خطر اتهامها بالحلف كذباً فليس أمامه من سبيل إلا الطريق الذي يتضمّن التضحية بالنقاء الذي يُعلي من شأنه كل الإعلاء.

ثم إنه إذا كانت ماكيكو قد دوّنت بالفعل مادة المذكرات هذه في تلك الليلة (ويبدو أنها هنا، على الأقل، قد ذكرت الحقيقة) فكيف أمكن لها بعد ذلك الوداع الجميل على نحو مأساوي أن تغير لقاءها إلى مشهد على مثل هذا القبح الفائق؟ أكان العداء وراء هذه الحيلة الخبيثة؟ كلا، لا يمكن أن يكون السرّ في هذا أمراً على هذه الشاكلة. إن ماكيكو الحكيمة، إذ

أدركت اقتراب حلول يوم كهذا اليوم، عادت إلى الدار بعد أن فارقته لتعدّ دفاعاتها في مواجهة اللحظة التي ستُستدعى فيها باعتبارها شاهدة. ولماذا؟ لا لشيء إلا لتنقذه.

حدَّث إيساو نفسه بأنه لم يعد هناك مجال للظنّ بأن ماكيكو كانت هي التي خانتهم، ثم خطر بباله أن المحكمة لا يحتمل أن تسمح لواشٍ بأن يتم استدعاؤه كشاهد ليؤيد دليل نفي غير مباشر طرحه الدفاع. ولو أن ماكيكو كانت من وشى بهم ودفعهم إلى المحاكمة فإن التناقض بين المعلومات التي أبلغتهم بها وشهادتها اليوم كان سيبدو جليّاً. ومن بين المشاهد الكريهة التي راح خياله يُلقي الضوء عليها أمامه، فيما كان قلبه يخفق سريعاً، أمكنه أن يستبعد على الأقل صورة ماكيكو باعتبارها واشية. وقد جلب له هذا شعوراً عابراً بالارتياح.

كان دافع ماكيكو الوحيد الذي يمكن تصوّره هو الحب، الحب الذي يجرؤ على التحديق في وجه الخطر على مرأى من الجميع. ويا له من حب! ومن أجل هذا الحب لم تتردّد ماكيكو في تلويث ما كان أثيراً لديه. وفضلاً عن ذلك، وهذا أشد الأمور مرارة، فقد كان عليه أن يستجيب لحبها. ولم يكن بمقدوره أن يظهر ماكيكو باعتبارها مرتكبة لجريمة الحلف كذباً. ومن ناحية أخرى فإنه ما من أحد سواه كان على علم بظروف تلك الليلة، وهكذا لم يكن هناك أحد في الدنيا غيره يمكن أن يصف شهادتها بأنها كذبة. وكانت ماكيكو تدرك هذا تمام الإدراك. وتمثل الشرك الذي أعدّته له في أنه ليس أمامه خيار إلا أن ينقذ نفسه، إذا أراد إنقاذها، مهما كان السبيل إلى ذلك شائناً. وكان على يقين، فضلاً عن هذا، من أن ماكيكو تعرف أنه لن يفعل شيئاً آخر بخلاف ذلك... وقد جالد إيساو لينزع عنه شيئاً ما تلك الأغلال التي تعوق حركته.

وأمعن في التفكير في جانب آخر. كيف تردّدت شهادة ماكيكو الزائفة في

مسامع رفاقه إلى جواره؟ لقد كان على يقين من أنهم يمحضونه ثقتهم. ومع ذلك فإنهم ما كان بوسعهم أن ينحوّا جانباً شهادة طرحت بمثل هذه الصراحة، باعتبارها نسيجاً من الأكاذيب!

كان الصمت الذي ساد رفاقه، فيما كانت ماكيكو تدلي بشهادتها، يشبه صمت بهائم أحكم شدّ عقالها في حظائرها ليلاً وزادت بحدّة زمجراتها المكتومة واحتكاكاتها المختلسة بأسيجتها من توتر مناخ من السخط المستعصي على الوصف، ومن رائحة البول النفّاذة. وعرف إيساو أن رفاقه يستجيبون بكل نسيج من أنسجة أجسامهم. وحتى الضجّة التي أحدثها أحدهم وهو يمرّ بكعبه على أسفل المقعد ترددت في سمع إيساو لوماً موجّهاً إليه. والقلق الذي ناء بكلكله عليه في السجن، فيما يتعلق بالخيانة ـ ذلك القلق المتجرّد من الشكل الذي يحس به المرء في غمار تلمّسه لإبرة في الظلام ـ انقلبت ظروفه الآن رأساً على عقب. واستشعر سماً أسود يسري سريعاً في فؤاد كل رفيق من رفاقه. وكان بمقدور سماع شبكة من التصدّعات وهي تشرع في تغطية سطح مزهرية نقائه الخزفية البيضاء بكامله.

دعهم يشمئزون منه. دعهم يزدرونه. بمقدوره احتمال ذلك. لكنّ ما لم يكن يملك له احتمالاً هو ما سيستنتجونه بصورة طبيعية من شهادة ماكيكو: ذلك الاعتقال المفاجىء تماماً ـ ألا يمكن أن يكون ناشئاً من قيام إيساو بالوشاية بهم للسلطات؟

لم يكن هناك إلا سبيل واحد لتبديد ذلك الريب الذي لا يطاق. ليس هناك إلا شخص واحد يمكن أن يبدّده. إنه بالأحرى إيساو الذي يتعينّ عليه الوقوف على المنصّة وفضح حلف ماكيكو كذباً.

في غضون ذلك كان هوندا نفسه أبعد ما يكون عن الاقتناع بصدق المادة التي كتبتها ماكيكو في مذكراتها. ولم يكن يصدّق أن القضاة سيقبلون

الدليل المتضمَّن في المذكرات على علاّته. غير أنه كان يعلم أن إيساو لن يقوم بأي شيء من شأنه أن يؤدّي إلى توجيه تهمة الحلف كذباً إلى ماكيكو. وكان على يقين من أن إيساو قد أدرك أيضاً بوضوح أن الأمر الوحيد الذي يعني ماكيكو هو إنقاذه.

علق هوندا آماله على أن يثير صراعاً بين موكّله وشاهدته. فمن شأن غرفة إيساو السرية ـ النقاء الصافي لتفانيه ـ أن تتوهّج بعاطفة المرأة المتّقدة، مثلما تتوهّج بالأشعة القرمزية للشمس الغاربة. وسيتعينّ على كلّ منهما وقد امتشق سيف الحقيقة المطلقة أن يدمّر قوة عالم الآخر ـ لم يكن هناك سبيل غير هذا. كان هذا ضرباً من الصراع لم يسبق لإيساو قطّ في سنوات عمره العشرين أن تخيّله، ولا حلم به. وكان فضلاً عن هذا معركة يتعينّ على المرء أن يتعلّم كيف يخوض غمارها، كضرورة مؤكدة من ضرورات الحياة.

كان إيساو يؤمن إيماناً جامحاً بعالمه. وقد تعينّ على هوندا أن يحطّم هذا من أجله. لِمَ؟ لأن هذا هو أخطر ألوان الإيمان. إنه شيء يعرّض حياة إيساو للخطر.

لو أن إيساو كان قد نفّذ خطّته بحسب ما أراد، أي الانتحار بعد الاغتيال، فلربما كان قد أنهى حياته دون أن يقدَّر له قطّ أن يواجه «شخصاً آخر». و«الكبار» الذين كان سيودي بهم ما كان ليقدَّر لهم قطّ أن يكونوا أشخاصاً آخرين يتعينّ عليه أن يواجههم. وما كان لينظر إلى أولئك الرجال إلا بحسبانهم دمى يتعينّ القضاء عليها من خلال الحماس النقي الذي يملأ نفوس الشباب. بل إنه حينما يخترق سيف إيساو مثل هذا اللحم العتيق القبيح فمن المحتمل أن يستشعر نحو ضحيّته إعزازاً يفوق ما كان سيشعر به لو أنه كان من أقاربه المقرّبين، إذ إن هذا الرجل من شأنه أن يكون بمثابة أيقونة تجسّد مفهومه الذي طالما تمسك به في اعتزاز. ذلك أنه قرر في شهادته المكتوبة كذلك أنه «ما كان ليقتل أحد أبداً بدافع من الكراهية».

وكانت جريمته ستغدو جريمة قوامها التجريد النقي. غير أن القول بأن إيساو لم يعرف شيئاً عن الكراهية سيعني أنه لم يحب أحداً قط.

ربما كان يوغل الآن فحسب في معرفته للكراهية، وذلك للمرة الأولى. فللمرة الأولى ولج شبح شيء غريب عالَمَ النقاء الخاصَّ به. ومهما كانت رهافة نصل سيفه، وأياً كانت سرعة قدميه، وكائناً ما كان حذق ضرباته، فإن هذا كان شيئاً مفارقاً وقوياً قَدِمَ من عالم خارجي، شيئاً لم يكن بمقدوره السيطرة عليه ولا قمعه. وباختصار فقد مضى يتعلّم أن «الخارج» موجود في جوهر المجال الذي لا تشوبه شائبة، والذي يحيا فيه.

أزاح كبير القضاة العوينات التي يستخدمها في القراءة، فيما كان يراقب شبح الشاهدة المتراجع. وأنار سنى الشمس الوهاج المنداح إلى قاعة المحاكمة وجهه ببشرته الشاحبة وجلده الذي يشبه الورق.

أخذ هوندا يحدّث نفسه وقد أخذته انتفاضة فضول وهو يحدّق في القاضي: «إنه يفكّر في شيء. ترى فيمَ يفكّر؟».

لم يكن من المحتمل أن يسمح قاضٍ وقور لنفسه بأن يخلب لبه علناً الجمال اللدن المتمثّل في مشهد ماكيكو من الخلف. وقد بدا القاضي هيساماتسو من علياء منصته محتفظاً، بالأحرى، لنفسه بسيماء المراقب الوحيد المطلّ من البرج الساحق للعمر وعدالة القضاء. وبعينيه العتيقتين المتميزتين ببعد النظر كان بوسعه أن يتملك ناصية رؤية بعيدة وفسيحة المجال، وهما ميزة كان رؤساؤه يقدّرونها فيه. ومن هنا فقد كان هوندا على يقين من أنه، بعيداً عن سلوك ماكيكو وموقفها اللذين لا تشوبهما شائبة خلال الإجابة على الأسئلة وقراءة مادة المذكرات، فإن قصد القاضي كان تقدير مدى تماسك الشاهدة خلال ابتعادها. أن ينظر فيها وراء سهل قاحل مهجور من المشاعر، إلى حيث يبتعد مشهد زنار صيفي... والآن فإنه من المؤكد أنه قد استنتج شيئاً ما. وعلى الرغم من أن القاضي هيساماتسو لم

يشتهر بالذكاء الخارق، إلا أنه لم يكن من الغريب أن يلمّ إلماماً دقيقاً بالطبيعة البشرية.

التفت القاضي إلى إيساو وسأله:

ـ هل الشهادة التي أدلت بها السيدة كيتو صحيحة؟

بدفعة حازمة من إصبعه السبابة ثبت هوندا القلم الأحمر الذي كان يوشك على دحرجته على قمطره، وأرهف سمعه لما يقال.

وقف إيساو. وأحسّ هوندا بقليل من الضيق وهو يلاحظ أن إيساو قد أطبق قبضتيه بإحكام، بل وارتجف قليلاً. وعند عنق الكيمونو الصيفي الذي ارتداه منفرجاً قليلاً تألقت قطرات العرق على بشرة صدره البيضاء.

ردّ إيساو:

ـ نعم، يا سيدي القاضي، إنها صحيحة.

القاضي: زرت دار ماكيكو كيتو في مساء التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) وأبلغتها من تلقاء ذاتك بأنك قد غيرت رأيك فيما يتعلق بما عقدت العزم عليه؟

إينوما: نعم، يا سيدي القاضي!

القاضي: وجرى الحوار على نحو ما أوضحْته؟

إينوما: نعم، يا سيدي القاضي... غير أن...

القاضي: غير أن؟ ما الذي تعنيه بقولك «غير أن»

إينوما: لم أبلغها بما كنت أشعر به حقاً.

القاضي: وما الذي تعنيه بذلك؟

إينوما: ما كنت أشعر به حقاً... الحقيقة هي، يا سيدي القاضي... أن كلًا من السيدة كيتو والقائد كيتو كانا شديدي الرقّة معي، على امتداد وقت طويل، ولذا أردت أن أودعهما وداعاً قصيراً قبل تنفيذ ما عقدت العزم عليه. ولما كنت قد تركتها لبعض الوقت تلم بجانب من خواطري، فقد

أردت الحيلولة دون تورطها بأي شكل من الأشكال في عواقب ما سنقدم عليه. ومن هنا فقد تصرفت عامداً كما لو كانت أعصابي قد خذلتني، ولكي أجعلها تصدّق ذلك لم أحدثها إلا بالأكاذيب. فقد أردت أن أجعلها تصاب بخيبة أمل كبيرة في شخصي... و... وبتلك الوسيلة تقطع ارتباطي بها. وكل ما قلته في تلك الليلة كان كذباً. وقد صَدَّقَتْه تماماً.

القاضي: طيّب، إذن، أتريد القول بأنه في الليلة المقصودة كان عزمك على المضيّ قُدُماً ثابتاً كذي قبل؟

إينوما: أجل، يا سيدي القاضي!

القاضي: لست تقول ذلك في محاولة متعجّلة لتسوية الأمور أمام رفاقك الذين سمعوا لتوّهم من فم السيدة كيتو شهادة تصوُّرُكَ باعتبارك رجلاً ضعيفاً بعيداً عن الحزم؟

إينوما: كلا، يا سيدي القاضي، ليس الأمر كذلك على الإطلاق.

القاضي: يبدو لي أن الشاهدة، السيدة كيتو، ليست من النوع الذي يسهل خداعه. في الليلة المشار إليها، وبينما السيدة كيتو تصغي إليك، ألم يخالجك انطباع بأنها تتظاهر بأنها قد خُدعت فحسب؟

إينوما: كلا، على الإطلاق، يا سيدي القاضي. فقد كنت جاداً في الحديث للغاية.

فيما كان هوندا يصغي لهذا الحوار، مضى يصفق في دخيلة نفسه للوسيلة اليائسة التي لجأ إليها إيساو، على غير انتظار، ليخلّص نفسه. وإذ حوصر في موضعه ذاك فقد اكتشف من تلقاء نفسه الحيلة التي يمكنه بها أن ينقذ ماكيكو ويخلّص نفسه معاً. وحتى تلك اللحظة على الأقلّ لم يكن إيساو وحشاً غرّاً لا يرعوي ولا يعرف شيئاً إلا الاندفاع إلى الأمام.

مضى هوندا يراجع حساباته. فعندما كانت التهمة هي الشروع في القتل، لم يكن بمقدور الادّعاء الاكتفاء بإظهار نية القتل، وإنما كان عليه أن

يوضح أيضاً أن عملاً محدداً له صفة الشروع قد تم الإقدام عليه. ولما كانت شهادة ماكيكو تتعلّق بالنية فحسب ولا علاقة لها بالأعمال، فإنها في السياق الأوسع نطاقاً للمحاكمة لم تكن لتحسب بالزيادة ولا بالنقصان. ولكن عندما يأخذ المرء في الحسبان الحالة الذهنية للقضاة وموقفهم حيال المتهمين، فإن الأمر يختلف تماماً. ذلك أن المادة ٢٠١ التي تتناول الشروع في القتل تتضمن فقرة تنصّ على أن العقوبة يمكن إلغاؤها بحسب الظروف.

تختلف الكيفية التي يقدّر بها كل قاض الظروف بحسب شخصيته. ولم يستطع هوندا العثور على شيء في الأحكام السابقة التي أصدرها القاضي هيساماتسو يمكنه من خلاله التأكّد من صحة فهمة لشخصيته. ومن هنا فقد كان السبيل الأكثر تعقلاً هو تقديم نوعين من المعلومات المتعارضة فيما بينها عن تكوين تقدير القاضي للظروف.

لو أن القاضي كان يميل إلى الأخذ بالجوانب النفسية فإنه سيقيم صرح رأيه على أساس إنكار إيساو للقصد الإجرامي، وهو الإنكار الذي ادعته شهادة ماكيكو. وأما إذا كان من النوع الذي يحبّذ الالتزام بمعتقد ما أو بمثل أعلى، فإن ما سيحركه ربما تمثل في نقاء العزم الذي لا يعرف الانحراف، وهو ما شددت عليه شهادة إيساو. والأمر الجوهري هو الاستعداد لتقديم مادة مناسبة من النوعين بحسب وجهة النظر التي قد يتبناها القاضي.

قال هوندا مرة أخرى في أغوار فؤاده لإيساو: «قل ما تشاء، شدّد بحسب ما يحلو لك، صبَّ إخلاصك صبّاً، دع الأفكار التي توضحها تشخب دماً، ولكن لا تدع نفسك بحال تمضي إلى ما يتجاوز عالم الأفكار. ذلك هو السبيل الوحيد الذي يمكنك من خلاله إنقاذ نفسك».

القاضي: طيب، يا إينوما... لقد تحدثت عن «التحرك» وعن

«عقيدتك». ولديك الكثير مما تفضي به عن هذا كما يتبيّن من شهادتك المكتوبة. ولكن ما رأيك في العلاقة بين الفكر والفعل؟

إينوما: عفواً، يا سيدي القاضي!

القاضي: لنعبر عن الأمر على النحو التالي: لم لا يكفي الاعتقاد بشيء ما؟ لماذا يتعيّن على المرء المضي إلى ما وراء ذلك نحو الأعمال غير الشرعية، مثل تلك التي فكرت فيها؟ أودّ سماع رأيك في هذا.

إينوما: نعم، يا سيدي القاضي. هناك شيء في فلسفة الوانج يانج مينج يقال له التضارب بين الفكر والعمل: «أن تعرف دون أن تعمل معناه غياب المعرفة». وقد كانت هذه الفلسفة هي ما كافحت لوضعه موضع التطبيق. فإذا كان المرء يعرف تحلل اليابان اليوم، والسحب المظلمة التي تطبق بخناقها على مستقبلها، وحالة المجاعة التي يعانيها الفلاحون واليأس الذي يجثم على الفقراء، إذا كان المرء يعرف أن كل هذا مردّه للفساد السياسي وللطبيعة المجافية للوطنية عند الزايباتسو التي ينتعش القابضون على زمام أمورها على هذا الفساد، ويعرف أن ها هنا منبع الفساد الذي يحجب نور رحمة إمبراطورنا المبجّل ـ مع وجود مثل هذه المعرفة، فيما أظن ـ فإن معنى «أن تعرف وأن تعمل» يغدو واضحاً من تلقاء ذاته.

القاضي: لا أملك إلا القول إن هذا طرح بالغ التجريد. خذ ما شئت من الوقت، ولكن أوضح تطور مشاعرك، شعورك بالغضب، وما عقدت العزم عليه.

إينوما: طيب، يا سيدي القاضي، لقد كرّست نفسي لممارسة الكندو، منذ صباي الباكر، ولكنني عندما أدركت أنه، في حوالي الوقت الذي نفذ فيه إصلاح الإمبراطور ميجي، كان الشباب يتقلدون السيوف ويخوضون بها غمار معارك فعلية، ويقضون على الظلم، ويحققون مهمة الإصلاح العظيمة، أحسست باستياء يستعصي على الوصف حيال السيوف الخيزرانية

والكنـدو الذي يُمـارَس في قاعـات التدريب. ولكني لم أكن قـد كـوّنت أيـة أفكار محدّدة عن نوعية العمل المناسب لي.

في عام ١٩٣٠ عقد مؤتمـر لندن البحـري، وحتى في المدرسـة قيل لي إن شروطاً حافلة بالإذلال قد فرضت علينا وكيف أن الأمن القومي قد تعرّض للخطر. وفيما كـانت عيناي تتفتحـان على الأفكـار التي تتهدد الأمـة وقعت حادثة إطلاق ساجويا النار على رئيس الوزراء هاماجوتشي، وعندئذ أدركت أن السحابة المظلمة التي تغـطي اليابـان ليست بالشيء الـذي يستهان بـه، ومن ذلك الوقت رحت أصغي لما يقوله المدرّسون والطلاب الأكـبر سناً عن الأمور الجارية، وبدأت من تلقاء نفسي أقرأ كل ما يقع تحت يدي.

وألممت عـلى نحو تـدريجي بمشكلات المجتمـع. وصدمت حيـال الجمـود الذي التزمته الحكومة في مواجهة الكساد المـزمن الذي استمـرّ متطاولاً منـذ الذعر الذي اجتاح الأسواق المالية على امتداد العالم.

الآن عـادت جموع من العـاملين الذين فقـدوا أعـمالهم ويبلغـون حـوالي مليـونين من الـرجال كـانوا في السـابق يعملون بعيـداً عن مسقط رؤوسهم ويبعثون بالمـال إلى هناك، والآن حـطوا الرحـال في القرى التي تعيش عـلى الزراعة ليفاقموا الفقر الذي ضرب تلك البقاع. وعلمت أن حشوداً هـائلة لجأت إلى معبد يوجيو في فوجيساوا، حيث قدم الكهنة أطباق عصيدة الأرز لمن ضربتهم البـطالة وهم يسعـون عـائـدين إلى دورهـم في الـريف دون أن يمتلكـوا المال الكـافي لتغطيـة رحلتهم بالقـطار. ومع ذلـك فإن الحكـومة لم تستجب، رغم خـطورة المـوقف، إلا بـلامبـالاة مفعمـة بـالجمـود. وأعلن أنتـاتشي وزير الـداخلية أن: «إجـراءات الإغاثـة للذين فقدوا أعـمالهم من شأنها أن تجعل الشعب لاهيـاً كسولاً، ولـذا فسوف أبـذل قصارى جهـدي لتجنب مثل هذه السياسة الضارة».

ثم في عام ١٩٣١ حلّ حصاد لا يغني من جوع على توهوكو وهوكايـدو.

وبيع كل ما يمكن بيعه، وخسر الناس دورهم وأرضهم، وبلغت الشدة حدّاً عاشت معه عائلات بكاملها في الإسطبلات، وردّ الناس غائلة الجوع بأكل جوز البلوط والجذور. وحتى في قاعات البلدات الصغيرة كان المرء يقرأ اخطارت من قبيل «من يرغب في بيع بناته عليه بالاستعلام في الداخل». ولم يكن من الأمور النادرة بالنسبة لجندي في طريقه لخوض غمار الحرب أن ينخرط في البكاء لدى وداعه أخته الصغرى التي يجرى بيعها لمبغى.

وفاقت شدة السنوات العجاف السياسة الاقتصادية المتشدّدة التي اتبعتها الحكومة بعد رفع الحظر المفروض على تصدير الذهب، والتي ألقت أعباء أكبر على كاهل الفلاحين، ووصل الذعر الذي ساد قطاع الزراعة إلى آفاق جديدة. فقد تحولت أرض الأرز الوفير، أي اليابان القديمة، إلى أرض يباب يقطنها أناس يبكون من قسوة الجوع الذي يأخذ بخناقهم، ثم أدى استيراد الأرز، في الوقت الذي كان هناك أكثر من الكفاية من الأرز داخل اليابان، إلى تدهور سعر الأرز على نحو مأساوي. وفي غضون ذلك زادت الأراضي التي يستأجرها مزارعوها ولا يمتلكونها بقفزات سريعة، وتعيّن أن يتم دفع ما يزيد عن نصف المحصول في صورة إيجار من دون أن تصل حبة أرز واحدة إلى فم الفلاح نفسه. ولم يتوافر للفلاحين ينّ واحد نقداً. وأجريت التجارة عن طريق المقايضة، فجرت مبادلة علبة سجائر من نوع سيخيشيا بما يعادل نصف جالون من الأرز، وجرت مقايضة قص الشعر بجالون كامل من الأرز، وعلبة سجائر من نوع الوطواط الذهبي بمائة حزمة من اللفت، وبيعت ستة وعشرون رطلاً من شرانق الحرير بعشرة ينات. وهكذا كان الموقف.

وكما تعلم، يا سيدي القاضي، فإن الفلاحين يضربون عن العمل احتجاجاً في كل مكان، وهناك خطر يتمثل في تحوّل القرى العاملة بالزراعة

إلى قرى حمراء. وحتى في صدور الشبان الذين يُسْتَدْعَوْن لخدمة العلم الإمبراطوري، كرعايا يحدوهم الولاء، قد يجد المرء وطنية زائفة. ولقد شرع هذا الشرّ في التسرّب إلى صفوف القوّات المسلّحة.

وتمضي الحكومة بخطى متثاقلة على درب الفساد من دون أن تعير هذه الأزمات انتباهاً. وقد جمعت الزايباتسو مبالغ طائلة من خلال شراء الدولار وغير ذلك من السياسات التي تلحق الدمار بالأمة، وما من أحد يُبدي اكتراثاً ببؤس جموع التعساء. وكنتيجة لقراءاتي المتنوعة وغيرها من الأبحاث فقد أصبحت أشعر بقوة بأن ما تدنّى باليابان إلى هذه الوهدة لم يكن خطايا السياسيين فحسب. فجانب كبير من المسؤولية يقع على كاهل الزايباتسو التي تلاعبت بهؤلاء الساسة لإشباع توقها الشره إلى الربح.

غير أنني لم أفكر بالمضيّ إلى جانب اليساريين قط، ذلك أن عقيدة اليساريين تكنُّ العداء تجاه شخص جلالة الإمبراطور المقدّس.

منذ أقدم العهود، كانت اليابان أرضاً طابعها هو توقير الإمبراطور المقدس، فهي أرض يسودها الانسجام ويُرفع منها الإمبراطور إلى مكانة سامية يغدو عندها رأس العائلة الكبيرة التي هي الشعب الياباني. وغني عن القول إنه ها هنا تكمن الصورة الحقة لأرض الإمبراطور، طابع قومي خالد خلود السماء والأرض.

ولكن ماذا عن هذه اليابان المتحللة التي امتلأت بأناس يعضّهم الجوع بأنيابه عضّاً؟ لماذا أصبح هذا العصر متدهوراً على هذا النحو رغم وجود شخص الإمبراطور المقدّس؟ ألا تتمثل فضيلة أرض الإمبراطور التي لا ينازعها فيها أحد في أن الوزراء السامين الذين يخدمون إلى جواره والفلاحين المتضورين جوعاً في قرى توهوكو النائية هم سواء بسواء أبناء الإمبراطور دونما فرق بينهم أو تمييز؟ وقد آمنت في البداية بأنه سيأتي يوم بالقطع تنقذ فيه عناية جلالة الإمبراطور المقدّس الفقراء. أما في الوقت

الراهن فقد ضلّت اليابان وفقد اليابانيون الطريق الصحيح. وبمـرور الوقت ستبعث روح ياماتو من جديد في أفئدة رعاياها المخلصين، وستجعـل الآمة بأسرها وهي تعمل بيد واحـدة أرض الإمبراطـور ما كـانت عليه من قبـل. تلك كانت الآمال التي ساورتني من قبل. وكنت أؤمن بأن السحب السوداء ستُزاح جانباً ذات يوم، وأنّ مستقبلاً مشرقاً وصافياً ينتظر اليابان.

غير أن انتظاري طال، ولم يأتِ ذلك اليوم. وكلما طال انتظاري ازدادت السحب سواداً، ثم اتفق أن قرأت كتـاباً لـطمني بقوة الإلهـام. وكان هـذا كتاب تسونانوري ياماو بعنوان «عصبة الريح الإلهية». وبعد أن فـرغت من قراءته أصبحت شخصاً آخر. فقـد أدركت أن الاكتفاء بـالمضيّ في مواصلة الجلوس والانتظار ليس السلوك الذي يليق برجل موالٍ للإمبراطور. وحتى تلك اللحظة لم أكن أعلم شيئاً عن الولاء اليائس . كما لم أكن أعلم بأنه ما إن ينـدلعُ لهب الـولاء في أعماق أحـدهم حتى يغدو من الضروري أن يلقى حتفه.

هنالك في خـارج القاعـة تأتلق الشمس. وليس بمقـدورنا أن نـراها من هنـا. ولكن حتى الضـوء الرمـادي المنتشر حـولنـا من المؤكـد أن الشمس مصـدره، ومن هنا فـلا بـد أن الشمس تتـألّق في ركن من أركـان السـماء. والشمس هي الصـورة الحقة لجـلالة الإمـبراطور المقـدّس. ولـو أن النـاس استـطاعوا أن يستحّموا في أشعتهـا فحسب، إذن لغـدا بـإمكـانهم إطـلاق الصيحات وقلوبهم عامرة بالابتهاج. وعندئذٍ يصبح السهل المجدب خصبـاً في الحال، وبعيداً عن أي ظل للشكّ تغـدو اليابـان من جديـد أرض الأرز الوفير.

لكن سحابة الظلام الخفيضة تغـطي الأرض وتبعد عنهـا سنى الشمس، ويُباعَد في قسوة ما بين الأرض والسماء اللتين ما عليهـما إلا أن تتلاقيـا ليتمّ عنـاقهما البهيـج، ولكنّ أياً منهـما لا تستطيـع رؤيـة وجـه الأخـرى المكسـوّ

بالحزن. وصيحات الناس الحزينة تغطي الأرض، ولكنها لا تستطيع الوصول إلى سمع السماء. ويمضي الصراخ عالياً بلا جدوى، والبكاء بلا طائل، والاحتجاج عبثاً. ولكن لو استطاعت أصواتهم أن تصل إلى مسامع السماء فإن قوة السماء بمقدورها، بالسهولة التي تحرّك بها إصبعك الصغيرة أن تزيح بعيداً تلك السحب السوداء، ويمكنها أن تحوّل أرضاً يباباً من المستنقعات إلى ريف متألّق.

من عساه يحمل الرسالة إلى السماء؟ من يا ترى يعرج إلى السماء على جناحي الموت آخذاً على عاتقه المهمة الحيوية المتمثلة في تبليغ الرسالة؟ لقد أدركت أن هذا هو ما اعتزم رجال عصبة الريح الإلهية البواسل القيام به من خلال إيمانهم باليوكاي.

لئن ظللنا نتطلع حولنا في تكاسل فإن السماء والأرض لن تلتقيا قطّ. وللربط بينهما لا بدّ من القيام بعمل حاسم قوامه النقاء. ولإنجاز مثل هذا العمل الذي يقتضي عزيمة قوية يتعينّ أن تعرّض حياتك للخطر، وألا تفكّر في المكاسب ولا الخسائر الشخصية. يتعينّ عليك أن تتحوّل إلى تنّين، وأن تثير دوامة تمزّق السحب القاتمة الجاثمة على الصدور تمزيقاً وتحلّق إلى السماء اللازوردية.

وقد فكرت، بالطبع، في جمع عدد كبير من الأسلحة والرجال، واكتساح الظلمة من وجه السماء قبل الصعود إلى علّيين. ولكني توصلت تدريجياً إلى إدراك أن ذلك ليس بالأمر الضروري. فقد شقّ رجال العصبة البواسل ممتشقين سيوفهم اليابانية طريقهم إلى معسكر للمشاة مسلح بالأسلحة الحديثة. وكان كل ما عليَّ هو توجيه نفسي إلى البقعة التي تغدو فيها السحب أشد قتامة، ذلك الموضع الذي يغدو فيه قوامها الملطخ أكثر غلظة واتساخاً. وكان كل ما عليَّ هو إحداث ثغرة هنالك بكل قوّتي، والتحليق إلى علّيين وحيداً.

لم أفكر قط من خلال الأمور المتعلقة بقتل الناس، وإنما فقط في القضاء على روح قاتلة تسمم اليابان. وللقيام بذلك كان عليَّ تمزيق رداء اللحم البشري الذي تكتسي به تلك الروح. ومن خلال هذا العمل فإن أرواح أولئك الذين سنمزّقهم ستصبح نقيّة كذلك. وستعود روح ياماتو المشرقة الكاملة إلى الحياة في أفئدتهم من جديد. وسيرتفعون جنباً إلى جنب معي ومع رفاقي إلى علّيين. ذلك أننا بعد أن نقضي بدورنا على لحمهم البشري سنضطر للقيام بطقوس السيبوكو على الفور. لِمَ؟ لأننا إن لم نُنَحِّ بأسرع ما يمكننا لحمنا البشري فلن نستطيع تحقيق واجبنا باعتبارنا حملة لرسالة عاجلة إلى علّيين.

حتى التكهّن فيما يتعلق بما يدور في الذهن الإمبراطوري يُعَدُّ مفارقاً للولاء؛ فالولاء، فيما أعتقد، لا يعدو أن يكون قيام المرء بالتضحية بحياته توقيراً وإجلالاً للإرادة الإمبراطورية، إنه تمزيق السحب المظلمة، والصعود إلى علّيين، والانغماس في الشمس، وإلقاء المرءِ نفسَه في الذهن الإمبراطوري.

هذا هو، إذن، ما تعهّدت به ورفاقي في قرارة أفئدتنا.

راقب هوندا محيّا كبير القضاة بعينين لا يطرف لهما جفن. ولاحظ، بينما كان إيساو مسترسلاً في إيضاحه، أن بشرة وجنتي القاضي العجوز البيضاء المرقّطة قد اكتست تدريجياً بوهج الشباب الأحمر. وعندما انتهى إيساو من كلمته واقتعد كرسيه، شرع القاضي هيساماتسو يقلّب منشغلاً الأوراق التي ترتاح أمامه، ولكن تلك كما بدا واضحاً لم تكن إلا وسيلة لإخفاء انفعاله. وبعد وقت قصير أخذ بالحديث.

القاضي: هكذا الأمر إذن؟ هل يرغب الادّعاء في قول شيء؟

المدّعي: نعم، يا سيدي القاضي، أخذاً للأمور بترتيبها الصحيح، أودّ قول شيء فيما يتعلق بشهادة السيدة كيتو. إنني على يقين من أنها حينما

استُدعيت كانت هذه المحكمة تأخذ بعين الاعتبار الإجراء الواجب. ورغم ذلك فإنه لا يتعين عليّ فقط في رأيي القول بأن شهادتها كانت غير ذات صلة تماماً بموضوع القضية وإنما كذلك ودون الذهاب إلى حد اعتبارها بمثابة الحلف كذباً القول بأن مصداقية المذكرات تبدو موضع تساؤل إلى حدّ بعيد. وأما فيما يتعلق بقيمة المذكرات كدليل مكتوب فإنني أودّ أن أسجل شكاً قوياً. والآن، بالنسبة لشهادة الشاهدة بأنها مولعة بالمتهم كما لو كان بمثابة «أخ أصغر» لها، فإن المرء يتوقّع تورّطاً عاطفياً، نظراً للعلاقة الطويلة والودّية بين عائلتي إينوما وكيتو. وقد تحدّث المتهم إينوما نفسه عن «ارتباط». وهكذا فإن المرء قد يتصور أن هناك تفاهماً ضمنياً بين هذين الاثنين. وبناء على هذا فإنني يؤسفني القول بأن بمقدور المرء أن يرصد في كل من شهادة السيدة كيتو والصورة التي رسمها المتهم إينوما لتلك الليلة نوعاً من المبالغة غير الطبيعية. وباختصار فإنني أعتقد أن استدعاء هذه الشاهدة لم يكن بالخطوة التي واكبها السداد.

والآن، للنظر في الصورة المتطاولة التي قدمها لنا المتهم إينوما لتوّه، يمكن أن نلاحظ أن عناصر الخيال الجامح والتجريد تسودها. ففي البداية يبدو أنه يصبّ صبّاً، وعلى نحو محموم، كل ما كان قد اعتزم القيام به، ولكن المرء يخرج بانطباع قوامه أنه يضفي الغموض عامداً على بعض الجوانب المهمة. فعلى سبيل المثال كيف حدث أنه تخلّى عن خطّته الأصلية بجمع عدد كبير من الأسلحة والرجال واكتساح السحب المظلمة كلية معتقداً أنه سيكون كافياً تمزيق السحب عند موضع واحد فحسب؟ تلك ثغرة في صورته لا يمكن تجاهلها. وأعتقد أن المتهم قام عامداً بحذف تفاصيل الأمر عند هذه النقطة.

ومن ناحية أخرى، وعلى الرغم من أن ذاكرة الشاهد السيد كيتازاكي لم تتّسم بالصفاء فيما يتعلق بالوقت، فإنه شهد بأن الملازم هوري قد صاح

غاضباً: «ألا تفهم؟ تخلَّ عن الأمر!» إما في نهاية تشرين الأول (أكتوبر) أو في بداية تشرين الثاني (نوفمبر) من العام الماضي. وإني أشدّد على أن تلك الشهادة تقدّم دليلاً بالغ الأهمية. ذلك أنها ترتبط على نحو جليّ بالصورة التي قدمها المتّهم إينوما عن عملية تبادل الأسلحة التي أفاد بأنها قد وقعت في الثامن عشر من تشرين الثاني (نوفمبر). ولو أن عملية تبادل الأسلحة تلك قد وقعت قبل ذلك، لو أن الليلة التي صاح فيها الملازم هوري «تخلَّ عن الأمر!» كانت بعد ذلك لأصبحت القضية مختلفة. غير أن الأمر ليس كذلك، ولذا فإن الجزئيات يناسب بعضها بعضاً.

وبعد أن تشاور القاضي مع المدّعي والدفاع حول موعد الجلسة التالية أعلن انتهاء الجلسة الثانية.

- ٣٨ -

صدر الحكم في ٢٦ كانـون الأول (ديسمبر) ١٩٣٩، قبيـل عطلة نهايـة العام مباشرة. وعلى الرغم من أنـه لم يكن حكم «البراءة» الـذي علّق عليه هوندا الآمال فقد جاء في نصّه:

«تلغى بمقتضى هذا الحكم العقوبة الواردة بحق المتهمين». وكان حكمـاً استخدم فقرة في المادة ٢٠١ من قانون العقوبات تتعلق بالشروع في القتل، جاء فيها:

«غير أنه يمكن بحسب الظروف إلغاء العقوبة».

لقد أقر الحكم بأن شروعاً في ارتكاب جريمة القتل قد وقع بالفعل ولكن المتهمين، باستثناء ساوا، كانوا حديثي السن، ودوافعهم نقية، وقـد مضت بهم بعيداً على نحو جليّ نزعتهم الوطنية المفرطة. ولم تتوافر فضلاً عن ذلك بـراهين كـافية عـلى أنهم بعد التـآمر قـد تجاوزوا بـالفعل القصـد الجنائي. وهكذا أرسيت بالتفصيل دعائم المنطق الكامن وراء إلغاء العقوبة بحق كل المتهمين.

ثم فيما يتعلق بساوا، الأكبر سناً، فلو أنه كان هو الذي بدأ المؤامرة، لما كـان أفلت من عواقبهـا، ولكن بما أنـه انضم إلى المجموعـة عندمـا كـانت المؤامرة تمضي قُدُماً بالفعل، وبدا أنه لم يتولَّ دوراً قيادياً خاصّاً فقـد استفاد من الحكم ذاته بإلغاء العقوبة.

ولـو أن الحكم قد صـدر بـ «البراءة» فـإن الاحتمال كـان يمكن أن يكون قـوياً فيـما يتعلق بلجوء المـدّعي إلى الاستئناف، ولكن حسبـما وصلت إليـه

الأمور فقد علّق هوندا الآمال على أنه لن يقوم بهذه الخطوة. وعلى أية حال فسوف يعلمون بجليّة الأمر في غضون أسبوع.

أطلق سراح المتهمين كافة، وعادوا إلى دورهم وإلى ذويهم.

في مساء السادس والعشرين من كانون الأول (ديسمبر)، أقيم حفل عشاء خاص في أكاديمية الوطنية للاحتفال بعودة إيساو. وكان هوندا ضيف الشرف، وشارك في الاحتفال إينوما وزوجته وإيساو وساوا وجميع الطلاب. وقد دعيت ماكيكو، ولكنها لم تحضر.

جلس إيساو حتى موعد المأدبة مصغياً إلى المذياع وكأنما هو في حالة ذهول. وفي الساعة السادسة استمع إلى مسرح الحكايات الخرافية. وفي السادسة والثلث أصغى إلى صحيفة الأطفال من تقديم هاناكو موراكا، وفي السادسة والخامسة والعشرين إلى حديث من كبير جراحي فرقة كونوي عن «سبل يلجأ إليها المواطنون في حالة التعرّض لهجوم بغاز سام». وفيما كان يستمع إلى برنامج «موضوعات» من هارولد بالمر» في السادسة والخامسة والخمسين اضطر للنهوض والإسراع إلى قاعة المائدة. وكان منذ عودته إلى الدار قد اكتفى بالابتسام ولم يجر حديثاً.

كانت أمه قد التقته عند الباب منخرطة في بكاء بلا كابح، ثم بعد أن التفّت بميدعة متألقة حديثة الكي تراجعت إلى المطبخ، وكرست نفسها لمهمة تقطيع الخضرة. وازدحم المطبخ بربّات البيوت المبتهجات اللواتي أقبلن لمساعدتها. وفيما كانت أمه تصدر الأوامر بدت أناملها المنهمكة وكأنها ترسل أشعة خفية إلى الأطباق المتناثرة في كل مكان وقد امتلأت لتوّها بالساشيمي العديدة الألوان والأسماك واللحوم المشوية. وتردّد صدى ضحك النساء المتناهي من المطبخ وكأنه صدى أصوات تنتمي إلى عالم آخر.

كان إينوما وطلاب الأكاديمية قد قابلوا إيساو وساوا، وفي الطريق إلى الدار

توقّف الجميع لأداء مراسم الإجلال والتوقير أمام القصر الإمبراطوري ومزار ميجي، وبمجرد عودتهم إلى الأكاديمية مضوا للصلاة كعائلة واحدة في المزار الواقع في جناح واحد. وبعد هذا فحسب أصبح بمقدور إيساو أن يستمتع بالرفاه المتمثَل في حمّام دافىء، وقد وجّه الشكر لكل الآلهة، والآن بقي أن يتم على هذه المائدة رفع آيات الشكر لمن يستحق في عالم البشر جزيل الشكر: هوندا. نهض إينوما من مقعده مرتدياً كيمونو رسمياً يحلّيه شعار عائلته وتحرك إلى مكان متواضع وابنه وساوا إلى جانبيه، ثم التفت إلى هوندا وانحنى انحناءة عميقة.

نفّذ إيساو ما قيل له، وحتى ابتسامته بدت وكأنها ابتسامة طُلبت منه. ومضت الأصوات تتردد في أذنيه، وراحت الأشياء تلتمع أمام عينيه. أشياء حلم طويلاً بأنه يجري نقلها إلى فمه. وكان من المؤكد أن حواسه كانت تؤدي عملها، ولكنها مع ذلك نثرت الواقع. وبدا الطعام بلا جوهر وكأنه أطباق شهية يجري تناولها خلال الأحلام. وبدت قاعة المأدبة التي جلس فيها، وكانت تمتدّ على مدى اثنتي عشرة حصيرة، وكأنما انتشر فيها ألق مؤلم وتحولت فجأة إلى قاعة بالغة الرحابة مساحتها مائة أو مائتان من الحصر، وقد تجمّع في البعيد حشد كبير لحضور مأدبة. وكانوا أناساً لا علاقة له بهم.

كان هوندا هو الذي لاحظ سريعاً أن إيساو قد فقد نظرته النفّاذة المميّزة.

ابتسم إينوما حيال قلق هوندا. وقال، بصوت خفيض:

ـ من الطبيعي أنه ما يزال إلى حد ما مضطرباً. لقد خضت غمار تجربة مماثلة. وفي حالتي لم يكن الأمر طويل العهد على هذا النحو، بالطبع، ولكن كنت مع ذلك في حالة انهيار لمدة أسبوع أو نحو ذلك بعد انتهاء الأمر. ولم أستطع حقاً الإحساس بالحرية. . . ليس هناك ما يثير القلق، يا سيد هوندا، ولكن أتعرف لِمَ أُقيم هذا الحفل للفتى؟ إنه لتكريس هذا اليوم

للاحتفال بدخوله عالم الكبار الناضجين. إنه لن يبلغ الحادية والعشرين من العمر إلا بعد فترة، ولكن لا شك في أن هذا اليوم سيكون من أبرز الأيام التي تعلق ذكراها بذاكرته، اليوم الذي بعث فيه من جديد. وسأعامله من الآن فصاعداً معاملة خشنة، ولكني أعتزم أن أفتح عينيه حقاً، وأن أعامله باعتباره رجلاً رشيداً كامل الأهلية. وإني لأعرف، يا سيدي، أنك تتفهم مشاعري كأب، ولن تحاول منعي.

في غضون ذلك جلس إيساو عاكفاً على الشراب مع ساوا وقد التفّ الطلاب حولهما. ومضى ساوا يسلّي الجميع بحكاية تجاربه في السجن بصوت مرتفع، بينما اكتفى إيساو بالابتسام ولزم الصمت.

تفاقم ضيق تسومورا، الطالب الشاب المعجَب بإيساو أشد الإعجاب، فيما راحت الطرائف تتوالى. فقد كان يرغب في سماع القسوة الجليدية لكلمات إيساو. ولم ينحسر اهتمامه به، ولكن بما أن إيساو لم يطرح شيئاً على الإطلاق فقد انتزع تسومورا زمام المبادرة وهمس قائلاً:
- إيساو، هل سمعت بما فعله ذلك الكائن المقزِّز كوراهارا؟

لطم اسم كوراهارا أذني إيساو وكأنه قصف الرعد. وبمجرد سماعه هذا الاسم فرض عالم الواقع الذي بدا بعيداً، نفسه فجأة على حواسه مثل ملابس داخلية ملوثة بالعرق تتشبث بجلد المرء.
- كوراهارا؟ ما شأنه؟

ردّ تسومورا مشيراً إلى اسم صحيفة يمينية:
- شيء قرأته في صحيفة الأمس. فقد خصصت صحيفة «الدرب الإمبراطوري» صفحتها الأولى له. وكان أمراً مقزِّزاً حقاً.

انتزع صحيفة بنصف حجم الصحيفة العادية، وكانت مطوية، من جيب سترته وأطلع إيساو عليها. ثم تطلع عامداً من فوق كتف إيساو وهو

يقرأ المقال وقد غدا تنفسه حارّاً، وبدت عيناه الغاضبتان كما لو كانتا تحرقات ثقبين في الصحيفة وكرّر قوله:
ـ كان أمراً مقزِّزاً حقاً.

كانت صحيفة فجّة الطباعة. وقد بدا جلياً كسر رمز طباعي هنا وهناك. ولم تظهر القصة التي نشرتها في كبريات الصحف، وإنما كانت مقالاً أعيد طبعه بتصريح من إحدى مطبوعات الشنتو المرتبطة بالمزار الكبير في أيسي.

وجاء في المقال أن كورهارا قد حضر في الخامس عشر من كانون الأول (ديسمبر) جلسة لرابطة مصرفيي كانساي، ولدى عودته توقّف في أيسي حيث حشا جوفه بعشاء من لحم بقر ماتسوزاكا الذي يؤثره بصفة خاصة، ومضى في صبيحة اليوم التالي جنباً إلى جنب مع حاكم الإقليم لأداء الصلاة في المزار الداخلي لأيسي.

كان معهما سكرتيراهما وعدد من المرؤوسين، ولكنهما عوملا معاملة خاصة بوضع مقعدين لهما من النوع الذي يُطوى على الممرّ المكسوّ بالحصى. وفي حفل الفرع المقدّس كذلك سُلِّم لهما غصنان أُعدّا مسبّقاً من أغصان الساكاكي. وقفا وأخذا يصغيان وهما ممسكان بغصنيهما لتراتيل طقوسية. وفجأة شعر كوراهارا، على ما يبدو، برغبة في حكّ ظهره فنقل الغصن إلى يده اليسرى وحاول حكّ البقعة التي تثير ضيقه، ولكنه لم يستطع بلوغها فأخذ الغصن في يده اليمنى من جديد. وفي هذه المرة مدَّ يده اليسرى وراءه محاولاً الوصول إلى ذلك الموضع. ومن جديد أخفقت محاولته.

تواصلت الصلوات الطقوسية من دون أية إشارة إلى قرب انتهائها. وتردّد كوراهارا ثم قرّر أن يضع غصن الساكاكي وكان يعوقه، على المقعد ودفع بيديه إلى ظهره ومضى في حكه. وفي تلك اللحظة انتهت الصلوات أخيراً، وأومأ كاهنان مساعدان بما معناه أن على الرجلين أن يقدّما غصنيهما.

وإذ نسي كوراهارا أنه قد وضع غصنه جانباً فقد مضى يجادل الحاكم في سباق على الإجلال المتبادل. وأخيراً استسلم الحاكم، وتقدم أولاً ليرفع تقدمته. وفي هذه اللحظة صعق الكهنة لرؤية يد كوراهارا مجردة من غصنه، ولكن الأوان كان قد فات. ذلك أن كوراهارا الذي داخله الارتياح لأن الحاكم قد سبقه، جلس على مقعده، مؤقتاً، ساحقاً تحت عجيزته الغصن الممدّد على المقعد. ووسط موسيقى الشنتو التي تصاحب أداء هذا الطقس تمّ تجاوز هذا الخطأ الفادح سريعاً دون اجتذاب أنظار الكثيرين. وقبل أن تلحظ الجموع الأمر تقدم كوراهارا الذي تمّ تزويده بغصن جديد، ليقوم برفع تقدمته. ولكن كان بين الكهنة الشبان الذين شاهدوا ذلك، كاهن لم يستطع كبح جماح غضبه. وكان هو الذي كتب عن الأمر لصحيفة المزار مقالاً لفت فيه انتباه صحيفة «الدرب الإمبراطوري».

ما كان كوراهارا ليستطيع ارتكاب تدنيس يفوق هذا. وكان غضب تسومورا في موضعه. وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن إلا إساءة بسيطة من جانب كوراهارا، إلا أنه عشية قيامه برفع التقدمة أتخم معدته بلحم الحيوانات، وبالإضافة إلى ذلك فإنه بدلاً من طلب الغفران للإساءة التي اقترفها أمام الآلهة، جرؤ على التقدم بغصن الساكاكي الثاني الذي أعطي له إلى رحاب الآلهة، وفيما الناس يتطلعون إليه ارتكب الخطيئة العظمى المتمثلة في تغطية إساءته السابقة بارتكاب التدنيس على نجو ووقور. ومع ذلك فقد خلص إيساو إلى أن ذلك ليس بالسبب الكافي لقتله. ولكنه لاحظ عندئذٍ، وفيما هو يلتفت ليتطلع إلى تسومورا الفتى، الغضب الصبياني المتألق في هاتين العينين الصافيتين. وعلى نحوٍ ما داخل إيساو شعور بالخجل.

بدا هذا الهاجس العابر وكأنه يسلب اليد التي تمسك بالجريدة قوتها. وفي اللحظة التالية مدّ ساوا يده وانتزع الجريدة.

ـ انسَ الأمر! انسَ الأمر! لا تصدّع رأسك بسببه!

قالها ساوا. ولم يستطع إيساو التيقن من مدى إيغال الرجل في السُّكر وهو يلفّ ذراعاً لحيمة بيضاء حول كتفه ويهيب به أن يتناول بعض الساكي. وللمرة الأولى لاحظ مدى الشحوب الكئيب الذي اكتسى به جلد ساوا.

قامت زجاجة الساكي بدوراتها، ومضى الجميع يغنّون ويصفقون، ووقف البعض ليسلي الباقين. وأخيراً أعلن العميد أن الحفل قد انتهى، ثم اقترح إينوما أن يلحق به هوندا وإيساو وساوا إلى مائدة «الكوتاتسو» في غرفته لاستئناف جلسة الشراب الذي ستسكبه لهم زوجته.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يطأ فيها هوندا هذه الغرفة التي امتدت مساحتها على عشر حصر. وأدهشه أن يجد فيها، وقد نشر في بهاء ساطع، لحاف كوتاتسو من حرير يوزين الذي له جمال مترع بالحيوية، تزينه زخارف على شكل عربة ملكية يجرّها ثور. وأدرك بلمّاحيته على الفور أن هذا نتاج ذوق يتطلع إلى الرفاهية الأرستقراطية وما زالت ماييني تتشبث به. وكان قد ذهل خلال المأدبة لرؤية أن أطباق الأرز الخشبية الكبيرة كانت مبطنة من الخارج بالقطن الأزرق.

وعندما رصد هوندا الإيماءات المتبادلة بين الزوج والزوجة أبلغه حدسه بأن إينوما في قرارة قلبه لم يغتفر لزوجته ماضيها قطّ. غير أنه لم يدرِ ما إذا كان هذا الماضي هو الماضي البعيد المرتبط بالأمير ماتسوجاي، أو إذا كان حدثاً وقع في الماضي القريب. ذلك أن موقف إينوما الذي لا يلين كان جلياً في طريقة تصرفه، وبالتالي فإن ماييني تميّزت بخنوع معيّن بدا أنه يواصل طلب المغفرة من زوجها. ومع ذلك فقد كان من الغريب أن يتحمل إينوما على امتداد أرجاء داره عناصر تذكّره بمنبع غلمة زوجته في شبابها، ذلك الأسلوب الجمالي المغرق في المبالغة، المناقض لذوقه، ويمكن

رؤيته في هذا النوع من أغطية كوتاتسو. وحدَّث هوندا نفسه بأن إينوما نفسه كان في قرارة فؤاده يخفي حنيناً إلى هذا النوع من الأذواق الذي يناسب وصيفة في خدمة عائلة نبيلة.

دُعي هوندا للجلوس أمام التوكونوما. وأبقت مايني نظرتها المحدّقة معلّقة بزجاجة الساكي الكبيرة المستقرة في الغلاية الموضوعة على الهيباتشي[1]. وكانت بين الفينة والأخرى تمسّها سريعاً بأطراف أصابعها الطويلة الماهرة، وكأنما هي حيوان سهل الاستثارة. وساور هوندا شعور بأنه أياً كان مدى أدبها فإن لها شيئاً من الفتاة الشابة المخاتلة التي كانتها. وإذ انساب دفء الكوتاتسو إلى الرجال الأربعة فقد عكفوا على احتساء الساكي ملتقطين معه بعض البطارخ المجفّفة.

ـ إيساو، تناول الليلة ما تشاء.

قالها إينوما وهو يقدم الزجاجة لابنه مختلساً نظرة عجلى إلى هوندا. وكان ذلك، فيما يبدو، بداية للمعاملة الخشنة التي أشار إليها من قبل، وأضاف:

ـ الليلة، ها هنا أمام السيد هوندا، سأقول شيئاً قد يجعلك تنتفض واقفاً. وسأقوم بذلك لأنني من اليوم فصاعداً أعتبرك رجلاً رشيداً، جسماً وعقلاً، وباعتباري أباك سأعاملك كرجل مكتمل الرجولة، لتعرف الحياة

(١) غنيّ عن القول إن الساكي يفضل تقديمه بجرعات بالغة الصغر، وهو دافىء. ومن الطبيعي أنه لا يسخّن مباشرة، وإنما يجري إكسابه الدفء عن طريق وسيط هو الماء الدافىء بحرارة الهيباتشي. وقد سبق لنا تقديم إضاءات عن الساكي باعتباره المشروب الأثير في اليابان، وهو يصنع من الأرز المخمّر. ولمن يساوره الفضول بشأن المزيد من المعلومات عن هذا الشراب الذي قد لا يناسب من اعتادوا المشروبات الغربية القوية، نحيل على المرجع التالي:
Kondo, H. - Saké: A Drinker's Guide - Tokyo - Kodansha 1986 - Q. S. B. N. O - 8711 - 653 - 3.
(هـ. م.)

بخيرها وشرها، ولتتمكن من أن تصبح خلفاً لي جديراً بي. سأوضح الأمر لك دونما مواربة: من الجليّ أن الشرطة أمسكت بك، قبل عام، لأن أحدهم قد وشى بك. فمن في اعتقادك كان ذلك الواشي؟ إذا كانت لديك أية فكرة فحدثني بها!

ـ ليست لدي أية فكرة.

ـ لا تحجب عني شيئاً. إذا كنت تظنّ أنك تعلم فحدثني بما تعلمه، لا بأس من ذلك.

ـ لا علم لي به.

ـ سأقول لك. لقد كان أبوك الواقف أمامك ها هنا هو الواشي. طيّب، هل دهشت؟

ـ نعم...

لاحظ هوندا، بشعور مفعم بالنذر، أن التعبير الذي يكسو ملامح إيساو في تلك الليلة لم يكن به أي أثر للدهشة الحقيقية. وفي تلك اللحظة عينها أشاح إينوما بعينيه بعيداً عن إيساو، وسارع بالإفضاء بما كان في سبيله إلى قوله.

ـ طيّب، ماذا تظن؟ أتظن أنه يمكن أن يوجد أب يبلغ به جمود القلب الحدّ الذي يقوم معه بتسليم فلذة كبده إلى الشرطة؟ أب يقدّم ابنه ضاحكاً إلى الشرطة؟ إيه؟ طيّب، لقد جرؤت على وجه الدقة على فعل هذا. ولكن... لقد فعلته باكياً. إنها الحقيقة، أليس كذلك يا مايني؟

ـ أجل، إنها الحقيقة. لقد كان أبوك يبكي وهو يقوم بذلك.

قالتها مايني، مقاطعة، من وراء الهيباتشي. وببرودة، ولكن دونما إشارة إلى عدم الاحترام، طرح إيساو سؤالاً على أبيه:

ـ أدرك الآن، يا أبي، أنك أنت من وشى بنا للشرطة، ولكن من الذي وشى لك بما كنّا نخططه؟

ارتجف شارب إينوما المشذّب رجفة خفيفة. ووضع يده مجفلاً على شاربه كأنما يضغط على فراشة تحاول الهرب بعيداً.

ـ لقد بدأت بفرض رقابة عن كثب على ما تخططونه، منذ وقت طويل. وكان خطأ منك أن تحسب عينيْ أبيك ثقبين في لوح خشبيّ.

ـ هل الأمر كذلك؟

ـ إنه كذلك بالطبع. لِمَ تعتقد أنني قد سارعت وأوصيت بالقبض عليك؟ ذلك هو ما أريدك حقاً أن تتفهمه.

في حقيقة الأمر. لقد أثر فيَّ إلى حد كبير، ما اعتزمت القيام به. وظننت أنه شيء رائع، بل إنني حسدتك عليه. وأردت أن أدعك تمضي فيه قُدُماً، لو أن ذلك كان بمقدوري فحسب. ولكن ذلك كان يعني أن أقعد في موضعي وأراك وأنت تندفع نحو حتفك. ولو أني تركتك وشأنك لمضيت في الأمر قدماً ولقيت حتفك.

ولكن عليك أن تفهم أنني لست كالآباء الآخرين الذين لا يريدون فقدان أبنائهم، والذين يحبطون أعظم آمال هؤلاء الأبناء إنقاذاً لحياتهم. عليك بتفهم هذا الأمر على حقيقته. فقد أردت إنقاذ حياتك، وأردت أن تمضي خطتك في طريقها. ولكن ما الذي يتعينّ عليّ القيام به؟ لقد فكّرت في الأمر طوال الليل، وفي النهاية توصّلت إلى حلّ. إن إنقاذك على هذا النحو يعني وضع كل شيء موضع الإعتبار في المدى الطويل، وتحقيق خطتك بطريقة أعظم.

أتفهم، يا إيساو؟ ليس الموتُ كلَّ شيء. وليس استرخاص حياتك بالولاء الحق. ففي عيني ابن السماء الأكثر مهابة تعدّ حياة كل كنز من كنوز الإمبراطور شيئاً ثميناً.

كان من الجليّ، منذ حادث الخامس عشر من أيار (مايو)، أن الناس قد ضاقوا ذرعاً بالفساد السياسي. وقد أعجبوا بالحوادث التي تنتمي إلى هذا

النوع وصفقوا لها، ثم إنك ورفاقك شباب في مقتبل العمر، وأنتم أنقياء. لديكم كل شيء يحقق التعاطف معكم والتقدير لكم. وفضلاً عن ذلك فلو أنه تم إلقاء القبض عليكم وأنتم على بعد خطوة واحدة من هدفكم لأحسّ الناس بالارتياح، ولكان ذلك سبباً إضافياً يدفعهم للتصفيق لكم. إنه يمكنكم أن تصبحوا أبطالاً أعظم قدراً، لا بالقيام بالعمل، وإنما بأن يتمّ الإمساك بكم وأنتم على مشارفه. ولهذا السبب فإن توجيه الضربة مستقبلاً سيصبح أمراً أكثر يسراً. وعندما يحدث إصلاح واسع النطاق حقاً فستكونون قوة يمكن الاعتماد عليها، وعندئذ يمكنكم القتال على نحو رائع. وقد كنت على حق، فعدد الرسائل التي انهمرت طالبة تخفيف الحكم عليكم بعد اعتقالكم ولهجة تقارير الصحف ـ كل شيء أظهر مدى وقوف الناس إلى جانبكم. لقد فعلت ما هو أفضل، يا إيساوا!

وبتعبير آخر فإن ما قمت به كان تقليداً للأسد يدفع بالشبل الذي يحبه حباً جماً إلى وادٍ ضيق، شديد الانحدار، والعمق، لكي يجعله ضارياً. والآن ها قد شققت طريقك على نحو رائع إلى قاع الوادي الضيق، المنحدر، وبرهنت على رجولتك. أليس الأمر كذلك يا مايني؟!

ـ بلى، الأمر على نحو ما يقول أبوك يا إيساوا! لقد اجتزت الدرب بطريقة رائعة. وكل ذلك مردّه إلى حب أبيك لك، ذلك الحب الذي يشبه حب الأسد لشبله. عليك أن تشكره على ما قام به. فقد فعل كل شيء من منطلق حبه لك.

حدَّث هوندا نفسه بأنه تماماً مثلما يحدُث عندما يحفر المرء حفرة في الرمال قرب حافة الماء، ومهما كانت جدية محاولته، فإن الجوانب تتداعى أمام الماء الذي ينبثق من أسفل، كذلك الحال بالنسبة للخطاب الضافي الذي شرع إينوما في إلقائه على نحو مُوحٍ بالانتصار الباهر؛ فقد تداعى أمام الصمت الحرج الذي لزمه المستمع إلى جانبه. وبمجرد أن تجاوزت الكلمات شفتي

إينوما وراحت رمال الصمت تنهال على السطح المائي الملتمع تحت الشمس. وتطلع هوندا إلى إيساو، ثم نظر إلى ساوا. جلس إيساو منتصب الكتفين، وترك رأسه يتدلى أمامه. وأما ساوا فراح يرتشف من قدح الساكي الذي كان يمسك به مراراً وتكراراً.

لم يدر هوندا ما إذا كان إينوما قد اعتزم، منذ البداية، قول ما قاله عقب ذلك، ولكن أياً ما كان الأمر فإن إينوما كان يخشى الصمت.

ـ الآن، أصغِ. حتى هذه اللحظة كنت أتحدث عن شيء يمكنك أن تفهمه حق الفهم. ولكنّ هناك، يا إيساو، شيئاً إضافياً تحتاج إلى معرفته لتصبح رجلاً بلغ سن الرشد. ينبغي أن تبتلع الحكمة المريرة التي لا يستسيغها النسوة والأطفال قط. فهناك بوابة ينبغي على كل رجل عبورها. وبتجربتك خلال العام الماضي اجتزت تلك البوابة بجسمك. والآن يتعينّ أن تعبرها روحك كذلك.

لم أقل حتى الآن شيئاً عن هذا، ولكن... أكاديمية الوطنية ـ من هو في اعتقادك الرجل المسؤول عن ازدهارها الراهن؟ من تظنّ أنه يتعينّ علينا أن نتوجه بالشكر إليه؟

ـ لست أدري.

ـ لو أنني نطقت بالاسم لجعلك تثب واقفاً على قدميك. ولكنه ليس إلا الشريف شينكاوا. لا تقل أنت أو ساوا كلمة واحدة من هذا للطلاب؛ فهذا هو أعظم أسرار الأكاديمية. هذا البناء ـ الحقيقة أن الفضل فيه يعود إلى مساهمة قدمها الشريف شينكاوا غفلاً من اسم صاحبها. وكان عليَّ، بالطبع أن أبذل بدوري جهوداً بطرق عدة من أجله. ومن جانبه لم يُلْقِ الشريف بالنقود عبثاً. وإلا فكيف تظن أنه كان بمقدوره مواصلة السير وسط عاصفة الإهانات التي هبّت عليه من جراء قيامه بشراء الدولار؟

تطلع هوندا من جديد إلى محيا إيساو. وفي هذه المرة جعلت البرودة والافتقار التام للدهشة هوندا يرتجف. ومضى إينوما في حديثه.

ـ هكـذا كانت العلاقة مع الشريف شينكـاوا. وقد تلقيت قبيـل وقـوع حادث الخامس عشر من أيار (مايو) عدة استدعاءات من الشريف. وبما أن النقـود كانت تـدفع لي، كـل شهر، سرّاً عـبر سكرتـيره، فلا بـد أن شيئاً خارجاً عن المألوف هو الذي جعله يرغب في مقابلتي وجهاً لوجه.

لن أذكـر المبلغ، ولكنه سلّمني رزمـة نقـود هـائلة وقـال: «ليست لهـذه النقود علاقة بسلامتي. سأقول لك صراحة: إنها من أجل حماية كوراهارا. ولأنـه من تعرفـه فإنـه لم يحـدث أن دفـع مـالاً قطّ من أجـل الحفـاظ عـلى سـلامته. وقـد أسدى السيـد كوراهـارا إليَّ العديـد من الأيادي البيضـاء، ويتعـين عليَّ أن أسـدي إليه مـا يقابلهـا. وهكذا فـانني، من دون أن أبلغه بجليـة الأمر، أعـطيك هـذه النقود من أجله. فـأرجوك، إذن، أن تـدعها تتحرك كحارس يحمي كوراهارا. وإذا لم تكن كافية فـما عليك إلا إبـلاغي بذلك، وسأعطيك المزيد.. وعندها فإنني...

ـ وهكذا، أخذتها يا أبي؟!

ـ نعم، أخذتها لأنني تأثرت بمشاعر الشريف شينكاوا حيال صديق قديم له. ومنذ ذلك الوقت صارت أمور الأكاديمية عـلى ما يـرام حقاً، كـما يعلم ساوا.

ـ ألهذا وشيت بنا للشرطة إذن، لحماية كوراهارا؟

ـ لقد تصوّرت أنك ستعتقد هذا. ذلك هـو النحو الـذي ينظر بـه طفل إلى الأمر. مهما كان مقدار المال الذي أعطانيه، فـأيهما تحسب أني سـأضعه في المقام الأول: أحد كبار رجالات عالم المال الذي لا تربطني به صلة قرابة أم ابني؟

ـ فهمت. لقـد سلكت أفضـل سبيـل ممكن، سبيـل ضَمِنَ إنقـاذ حيـاة ابنك، وكذلك حياة كوراهارا، والوفاء بالتزامك نحو الشريف شينكاوا.

انتعش هوندا أخيراً وهو يـرى، للمرة الأولى، في عيني إيسـاو النار التي كانت تتّقد هنالك يوماً.

ـ لا، ذلك يوضح مدى السذاجة التي تنظر بها إلى الأمور. أتفهمني؟ يتعينّ عليك أن تتعلم أنه في عالمنا هذا يتشابك كل شيء ويتداخل مع غيره. ولن تتحرّر من هذا كله إلا حين تصعد إلى علّيين. وكلما أوغلت في محاولة التملّص تشبث هذا كله بك. ولكن ما دمت تتمسك بإيمانك فإن هذا التشابك يصبح أمراً لا يثير قلقك. إنه لا يقلقني البتة، يا إيساو!

فيما يتعلق بي، وبغضّ النظر عن مقدار المال الذي حصلت عليه، كان بوسعك أن تقضي على شينكاوا وكوراهارا من دون أن يعنيني ذلك. ففيما بعد يمكنني إصلاح الأمر ببقر بطني. وقد كنت على استعداد لشيء من هذا النوع منذ اللحظة التي تلقيت فيها المال. ذلك أنه إذا لم يوصل تاجر السلع السلعة عندما يتلقّى الثمن فإن ذلك يُعَدُّ غشاً. ولكن الأمر مختلف بالنسبة لرجل وطني. فالمال هو المال، والأمانة هي الأمانة. إنهما شيئان مختلفان. المال يستخدم في الأمور المالية. وأما الأمانة فيمكن الاحتفاظ بها عن طريق السيبوكو. ذلك هو كل ما في الأمر.

إنني أريدك أن تكون على استعداد لهذه المواقف. وهذا هو السبب في أنني أحدّثك بهذا كله. أن تدنّس نفسك، ولا تدنسها مع ذلك حقاً، ذلك هو النقاء. ولو أنك التزمت بالحساسية الشديدة حيال التلوّث فلن تفعل شيئاً، لن تغدو رجلاً حقيقياً قطّ، يا إيساو!

بعد أن قلت هذا كله، أحسب أنك لا بد أن تفهم مقاصدي. فأنا لم أشِ بك إنقاذاً لحياة كوراهارا، ولا إنقاذاً لحياتك كذلك. ولو أنني فكرت في أن ذلك هو الطريق إلى المجد الخالد بالنسبة لك، أن تُلقي بحياتك بعيداً في غمره ذلك التحرك، لابتهجت وتركتك تمضي إلى حتفك. ولكنني لم أفعل ذلك ببساطة لأنني لم أعتقد أن هذا هو الطريق. أتفهمني؟ لقد قلتها قبلاً، ولن أكررها. إنني أقدّر هدفك، وأعتز بك باعتبارك ولدي ـ

ولهذا على وجه الدقة قمت بخطوة التنكّر لك. خطوت هذه الخطوة شارباً دموعاً من دم. ألم أفعل ذلك يا مايني؟!

- إيساو، لسوف تتعذّب من جراء ذلك إذا لم تظهر الإمتنان حيال عاطفة أبيك.

ظل إيساو منكّس الرأس، ولم يحر ردّاً. وكان الساكي الذي احتساه قد دفع بوهج ورديّ إلى وجنتيه، وارتعشت قليلاً يداه الموضوعتان على غطاء الكوتاتسو.

أدرك هوندا فجأة، وهو يتطلع إلى إيساو، طبيعة ما كان يريد بلهفة أن يبلّغه إياه. فعلى امتداد تقريع إينوما المتطاول الساعي وراء الذات، كان هوندا يتحرّق شوقاً إلى قول شيء. وما إن يقوله حتى يتقوّض عالم إيساو. وقد تُفتح عيناه لكي يستطيع الانطلاق عبر الحقول الرحبة في سني الشمس المتألّق من دون أن يخشى شيئاً. ومع ذلك، فلو أنه قاله في معرض تعزية إيساو الذي جلس هنالك برأس منحنٍ، لجثم خطرٌ قوامه أنّ ما قاله له قد يقلب، بدلاً من ذلك، لحظة معاناة إيساو الفائقة التي لن يعيشها ثانية قط، إلى شيء لا معنى له على الإطلاق. وكان ما أراد هوندا توصيله هو سر بعث كيواكي في إهاب إيساو. ولكن عندما رفع إيساو رأسه، وبدت الدموع متحدرة على وجنتيه، فَقَدَ هوندا تماماً الحافز على تحرير السرّ الذي حبسه حتى الآن، وتركه يخفق بجناحيه مثل طائر أطلق سراحه.

تحدث إيساو مثل كلب ينبح بقلق لا يهدأ:

- لقد عشت من أجل وهم. وصنعت حياتي على مثال وهم. وحلّ بي هذا العقاب من أجل وهم... لكم أود أن يكون لديّ شيء ليس بوهم.

- لو أصبحت رجلاً راشداً لحصلت عليه.

- رجل راشد؟ بل إني... نعم! ربما كان ينبغي أن أُبعث في إهاب امرأة. لو أنني كنت امرأة لاستطعت الحياة دون أن أطارد الأوهام. أليس بمقدوري ذلك يا أماه؟!

ضحك إيساو فجأة، وكأنما تصدّع شيء ما في أعماقه.

وردّت مايني بغضب جائح:

ـ ماذا تقول؟ تبعث في إهاب امرأة! ما أسخف هذا منك! لقد أخذ منك السُكر مأخذه، أليس كذلك ـ لقولك شيئاً كهذا!

وبعد المزيد من الساكي سرعان ما أغفى إيساو ووجنتاه على الغطاء الذي يكسو الكوتاتسو. وتولى ساوا رعايته، ومضى إلى غرفته. وهبّ هوندا الذي أخذ منه القلق، واقفاً، وقد قرّر أن يجعل هذا الوضع المناسب اللحظة التي يستأذن فيها للمغادرة، وانطلق وراءهما.

أبدى ساوا من غير أن يتكلم عناية رقيقة مفرطة، ووضع إيساو في فراشه ليمضي ليلته. وعندما فعل ذلك، ناداه إينوما من الطرف الآخر للردهة، فألفى هوندا نفسه وحيداً مع إيساو الغارق في نومه.

بدت أمارات الأسى على محيا إيساو الغافي وقد احمرّت بشرته من جراء الشراب، وتردّد تنفسه خشناً. ولكن حتى وهو نائم كان حاجباه منعقدين على نحو يفيض رجولة، وفجأة، وفيما هو يتقلب على «الفوتون»، هتف إيساو في نومه بصوت عال، ولكن على نحو بعيد عن الوضوح فيسمعه هوندا بجلاء: «بعيداً، إلى الجنوب. في طقس حار للغاية... في سنى الشمس الورديّ لأرض جنوبية...».

هنا عاد ساوا ليصحب هوندا. وهكذا، ورغم أن هذه الرسالة الملتبسة التي جاءت صيحة من نوم مثقل بالسكر مضت تتردّد في ذهنه، إلا أنه رجا ساوا أن يُعنى بإيساو، والآن ها هو ذا أخيراً قد كسب الرهان. ومضى يتساءل عن السرّ في أنه يداهمه هذا الشعور المطبق بالإحباط.

- ٣٩ -

كان اليوم التالي يوماً مشرقاً.

وفي الصباح أقبل زائر هو تسوبوي من مخفر شرطة الحي، وقد نقل هذا الرجل الذي يجتاز سنوات أواسط العمر، والذي وصل للدرجة الثانية في الكندو، إلى إيساو رسالة قوامها أن رئيس المخفر يعلّق الآمال من جديد على أن يكون إيساو من سماحة النفس بحيث يجيء إلى قاعة التدريب في أيام الآحاد لتدريب فتية الحي على الكندو.

قال:

ـ نعم، حقاً. فعلى الرغم من أن موقع رئيس المخفر الرسمي يمنعه من الإشادة بك علناً، إلا أنه يحدثنا في مجالسه الخاصة عن إعجابه بك أشد الإعجاب. ويحرص آباء الفتية بدورهم على أن يقوم شخص له مكانته مثلك بتدريب أبنائهم على الكندو فتستقرّ في أعماقهم الروح اليابانية الحقة. وإذا لم يحدث استئناف فإننا نودّ أن تحضر بمجرد استهلال العام الجديد. وبالطبع فإنني لا أعتقد أن هناك كبير مجال للاستئناف.

دقق إيساو النظر في سروال رجل الشرطة الذي كانت تجعيدة تظهر فيه على نحو طفيف. وفيما هو عاكف على ذلك فكّر في النحو الذي يمكن أن يبدو عليه وهو يعلم الأطفال الكندو، وقد تقدّم به العمر. لسوف يتألق شعره الأشيب فلا تغطيه المنشفة المطوية بطريقة كانساي خلف قناعه.

بعد أن مضى رجل الشرطة السرّي لطيّته طلب ساوا من إيساو القدوم إلى غرفته، وقال:

ـ من المؤكد أن المرء يساوره شعور طيب وهو يتقلّب على التاتامي من

جديد ويضع وسادة تحت رأسه ويمضي يتصفح كـومة الأعـداد التي صدرت خلال عام كامل من مجلة «نادي كودان». وبالمناسبـة، وعلى الـرغم من أنه يفترض أن تلتزم بالسلوك القويم، فإن شـاباً مثلك لا يستـطيع المكـوث في الدار على هـذا النحو. ومن المسمـوح به أن تخـرج ما دمتَ بصحبتي. فـما قولك إذن في أن نمضي لمشاهدة فيلمٍ أو شيء من هذا القبيل الليلة؟

ـ طيب، ربما.

قـالها إيسـاو على نحـوٍ غامض، ثم أومـأ برأسـه ليكون أشـد تهـذيبـاً، وأضاف:

ـ ومع ذلك فإن بمقدوري الذهاب لزيارة صديقي.

ـ آه، لا، لا تفعـل ذلك! فـأفضل مـا يمكنكم القيـام بـه هـو ألا يـرى أحدكم الآخر، في الوقت الحاضر. فقد تقولـون شيئاً من الأفضـل أن يظلّ طيّ الكتمان.

ـ أظنّ هذا.

لم يكن إيسـاو قد ذكـر اسم الشخص الـذي يـرغب أشـدّ الـرغبـة في أن يراه.

قال ساوا بعد صمت يشوبه شيء من عدم الارتياح.

ـ هل هناك أي شيء تريد سؤالي عنه.

ـ نعم. هنـاك شيء واحد مـا زلت لا أفهمه في مـا قالـه أبي. من الذي أبلغه بما كنا عاكفين عليه؟ لا بد أن ذلك قد حدث قبل إلقاء القبض علينا مباشرة.

تبدّدت طريقة ساوا التي كانت حتى الآن على سجيتهـا. وجعل الصمت المفـاجىء المنكمش إيساو يحس بـالقلق. كان صمتـاً بدا أنـه يسمم المنـاخ حـولـه. ووجـد إيسـاو أن من الصعب أن يحتمـل، وراح يحـدّق بحـدة في الـوصلة البنية للتـاتامي، حيث بـدا ألق الشمس المشرقة المنهـلّ من زجـاج النافذة الرائق، وكأنه قد دفع ببراثنه إلى مادة التاتامي.

ـ أتريد حقّاً أن تعرف؟ ولئن أبلغتك بالأمر أفلا تمسك بخناقك مشاعر الأسى والندم؟

ـ كلا. إنني أريد الحقيقة كاملة.

ـ ليكن، سأحدثك بما أعرفه. إنني أقول هذا لأن المعلم نفسه مضى معك إلى الشوط الذي بلغه. وما حدث هو أنه في الليلة السابقة للاعتقال، أي في ليلة الثلاثين من تشرين الثاني (نوفمبر) من العام الماضي، جاءت مكالمة هاتفية للمعلم من السيدة ماكيكو. وقد رددتُ ثم جاء المعلم إلى الهاتف. ولست أعرف ما الذي تحدثا عنه. ولكن المعلم تأهب للخروج، عقب ذلك، وغادر الدار من دون أن يصحب أحداً. ذلك هو كل ما أعرفه.

فيما كان ساوا يواصل حديثه اتخذت رقته الدفء الوافر لغطاء يلقى على كتفي رجل تستبدّ به الرعدة.

ـ لقد أدركت أنك مغرم بالسيدة ماكيكو، وأنها مغرمة بك. وربما كان الولع من جانبها أقوى كثيراً. ولكن بسبب طبيعة مشاعرها تلك حملت تلك النتيجة الرهيبة. وقد أدركت طبيعتها الحقة عندما خطت إلى منصة الشهود خلال المحاكمة. حدَّثت نفسي بأنها امرأة مخيفة. وأقول لك إن هذا كان شعوري الصادق نحوها. لقد كانت تراهن بكل ما لديها على إنقاذ حياتك، ولكنها في الوقت نفسه كانت سعيدة حقّاً برؤيتك مودعاً في زنزانة بالسجن. أتتابع ما أقول؟

ما أعنيه هو أن زواجها ذاك ـ ينبغي أن تفهم السر في أنه انتهى على نحو مأساوي بالطلاق. لقد أحبها زوجها. ولكنه في الوقت نفسه كان فتى لاهياً، عابثاً. ومن شأن الزوجة العادية أن تحتمل ذلك. لقد كانت تحبه، وذلك جعل الأمر أكثر صعوبة في احتماله، ولكن هذه المرأة كانت من النوع

الفخور بنفسه، وما كانت لتحتمل ذلك. وهكذا فإنها دونما اكتراث بما قد يقوله الناس مضت عائدة إلى دار عائلتها.

ولأنها تنتمي إلى هذا النوع من الناس فإنها عندما تقع في حب رجل آخر لا يكون ذلك أمراً عادياً. وكلما تعمّقت في الحب غدت أكثر قلقاً على المستقبل، أي عندما تفقد حبيبها. ولأنها خاضت غمار تجربة تعسة فإنها لن تصدق رجلاً مرة أخرى. وهكذا فإنه من الطبيعي أن ترغب عندما يتقدم رجل تحبه في التأكد من أنه سيبقى لها، لها وحدها، حتى ولو وضع بعيداً عن متناولها، وحتى لو تعينّ عليها أن تتحمّل المعاناة المطلقة المتمثلة في عدم تمكنها من أن تكون جنباً إلى جنب مع هذا الرجل. وأما فيما يتعلق بالمكان الذي لا تتاح فيه للرجل أية فرصة للعبث، المكان الذي لا يوجد فيه أدنى مجال للقلق فيما يتعلق بوجود النساء ـ ترى أين تظنه يمكن أن يوجد مثل هذا المكان؟ السجن. وأي مكان آخر؟ لقد وقعت في حبك، وهكذا انتهى بك الأمر إلى السجن. وما الذي يريده الرجل أكثر من هذا؟ فكِّر في الأمر! أتمنى لو أني كنت مكانك.

مضى ساواو في الحديث دونما مبالاة ومن غير أن ينظر إلى إيساو، وهو يحكّ بشرة وجنته اللحيمة الشاحبة.

ـ عليك من الآن فصاعداً بالابتعاد عن امرأة خطرة كتلك. وسأحرص على أن تلتقي بالكثير من النساء الجميلات. لقد قال المعلم شيئاً لي فيما يتعلق بهذا الأمر. ونفحني بالكثير من المال لإنفاقه. من المؤكد أنه جاء من كوراهارا، على نحو غير مباشر، ولكن الأمر على نحو ما قال المعلم، فالمال هو المال، والإخلاص هو الإخلاص. أراهن أنك لم تصحب امرأة قط.

هل ستأتي الليلة معي لمشاهدة فيلم؟ هناك فيلم أجنبي في شيبازونو. أو هنالك دار سينما هيكاوا، قرب الكلية، حيث يمكننا أن نشاهد فيلماً من بطولة تشايزو، ثم بمقدورنا تناول قدح من الشراب في هايا كندانا والمضي

إلى موروياما. علينا أن نقيم احتفال بلوغ سنّ الرشد، تماماً كما قال المعلم. وإذا حدث استئناف فإن اللعبة ستؤجل، ولذا فإن الوقت قد حان للمضي بها قُدُماً.

ـ دعنا نتحدث في هذا الأمر عندما يتمّ التخلّي عن الاستئناف.

ـ ولكن ما الذي سيكون إذا حدث الاستئناف؟

ردّ إيساو بعناد:

ـ لن ندع ذلك يقلقنا، إلا عندما يحين أوانه.

تألّقت الشمس كذلك في الثامن والعشرين من كانون الأول (ديسمبر). وكبح إيساو جماح نفسه. وكان اليوم التالي، التاسع والعشرون من كانون الأول (ديسمبر)، هو اليوم الذي تقام فيه الاحتفالات المواكبة لتسمية ولي العهد، وبدلاً من تسويد صحف الصباح بعناوين مترعة بالنذر في هذا اليوم الذي تعمّه البهجة، فسيكون أكثر مدعاة لالتماس العذر للتحرك في وقت لاحق، في اليوم المليء بالاحتفالات ذاته، ما دامت المراسيم ستكون قد اكتملت، والاحتفالات قد شارفت على الانتهاء. وبسبب احتمال استئناف الادعاء للحكم كان من الخطورة بمكان الانتظار لوقت أطول.

كان التاسع والعشرون من كانون الأول (ديسمبر) يوماً آخر من الأيام المشرقة.

طلب من ساوا أن يشترك معه في موكب حمل المصباح إلى القصر الإمبراطوري. وعندما غادر الدار كان إيساو يرتدي معطفه فوق زيه الطلابي، وحملا معاً مصابيح مزخرفة بحروف كلمة «احتفال». وفيما هما يتناولان عشاء مبكّراً في أحد مطاعم منطقة جينزا راقبا حافلة تنطلق مزخرفة بزهور الأقحوان، شاقّة طريقها وسط الجموع في الشارع. وقد تألقت لافتة متوهّجة الأضواء بكلمة «تهانينا» وبدا سائقها وقد دفع بصدره إلى الأمام، في فخر، تحت زيّه الرسمي الأزرق ذي الأزرار النحاسية.

انطلقت الموجة البشرية المؤلفة من حملة المصابيح، من سوكباباشي نحو القصر الإمبراطوري. وانعكست المصابيح بشعار الشمس الذي رفعه كل مشارك في الموكب فوق رأسه، في مياه الخندق المحيط بالقصر وأضاءت

أشجار الصنوبر المنتصبة في الغسق الشتوي. وجعلت المصابيح العديدة المحتشدة في الساحة الواقعة أمام القصر الظلال المتأرجحة تحت الأشجار تهرب، وملأت المنطقة بأسرها بسطوع متحرّك يتباين مع ما يسود تلك الساعة من ساعات النهار. ومضت صيحات «بانزاي» تتتابع دونما هوادة. وأوضحت ألسنة اللهب في المصابيح المرفوعة عالياً ظلال أفواه المشاركين في الموكب وحناجرهم. فحيناً تغرق الوجوه في الظل وحيناً آخر تضيء فجأة ببريق باهر.

وقبل أن يمضي وقت طويل انتُزع ساوا بعيداً عن إيساو. وبعد أن بحث يائساً في العجاج المتلاطم من البشر، على امتداد أربع ساعات، عاد إلى الأكاديمية ليوضح ما وقع.

عاد إيساو إلى منطقة جينزا من جديد. وابتاع من حانوت هناك خنجراً وسكيناً، لكل منهما غمد خشبي مجرد من الزخارف. ودس السكين في جيب سترته الداخلي، وأخفى الخنجر في جيب معطفه.

نادى مسرعاً سيارة أجرة واستقلها إلى محطة شيمباشي حيث استقلّ قطاراً إلى أتامي. وكان القطار خاوياً. فقد امتدت أمامه أربع مقاصير ركاب لم يكن فيها أحد غيره، وأخرج قصاصة من جيبه وقرأها مرة أخرى. كانت صفحة مستلة من عدد العام الجديد من مجلة «نادي كودان» التي استعارها من ساوا، وفيها موضوع فصل عن غيره بعنوان «كيف يستقبل كبار رجالات السياسة والمال العام الجديد».

جاء في الجزء الذي كان إيساو معنياً به «يستقبل بوسوكي كوراهارا العام الجديد، عادة، بطريقة بسيطة للغاية، ولما كان لا يؤثر حتى لعب الجولف فإنه في نهاية كل عام، وبمجرد إغلاق المكاتب، ينطلق بعيداً إلى دارته بإينومورا في إيزوسان. وأعظم مصدر لسعادته هو العناية هناك ببساتين اليوسفي التي يفخر بها كثيراً. وعادة ما تقطف ثمار اليوسفي في تلك المنطقة

قبل نهاية العام، ولكن كوراهارا يحب ترك الثمار متدلية من أغصانها بوفرة ليتطلع إليها بإعجاب، إلى أن ينقضي جانب كبير من عطلة العام الجديد، ثم باستثناء إعطاء بعضها لأصدقائه فإنه يتبرع بالمحصول بكامله للمستشفيات ودور رعاية الأيتام. ويفصح هذا عن الكثير من الجوانب المتعلقة بهذه الشخصية البعيدة عن المظاهر الجوفاء، وعن الدفء الجدير بالإعجاب لقلب هذا الرجل الذي يمكن أن يوصف بأنه بطريرك عالم المال».

استقلّ إيساو حافلة من محطة أتامي وترجل في إينامورا. وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساء بالفعل. لقد سكن الليل، وكان بمقدوره سماع هدير البحر. امتدت القرية إلى جانب الطريق، ولكن المصاريع الخشبية كانت موصدة، في كل مكان، دون أن ينفذ ضوء عبرها. عدّل إيساو ياقة معطفه ليغالب برودة الريح المنداحة من المحيط. وفي منتصف المنحدر المفضي إلى البحر انتصبت بوابة حجرية كبيرة. وتوهّج ضوء داخلها. واستطاع إيساو أن يميز بسهولة «كوراهارا» على لافتة الاسم. وعلى الجانب الآخر، فيما وراء حديقة أمامية فسيحة، كانت هناك دارة لفّها السكون، واتّقدت فيها هنا وهناك الأضواء. والتفّ حول الدار سور يمنع التسلل ويعلوه حاجز إضافي.

وعلى الجانب الآخر من الطريق امتد بستان من أشجار التوت. وعند حافته ثبتت إلى شجيرة توت لافتة من الصفيح كتبت عليها الكلمتان «يوسفي للبيع»، ومضت اللافتة تقعقع في الريح. واختفى إيساو وراء اللافتة إذ سمع وقع أقدام تدنو على الدرب قادمة من ناحية المحيط.

راح شرطي يصعد المنحدر، وشق طريقه على مهل وتوقّف أمام البوابة للحظة، ثم اختفى، على امتداد الدرب الضيّق المحاذي للسور، مخلّفاً وراءه قعقعة مهولة.

برز إيساو من وراء اللافتة ملتزماً حذراً شديداً عبر الدرب. وفيما هو

يقوم بذلك لمح البحر أسود تحت سماء غاب عنها القمر.

لم يكن تسلق السور بالمشكلة الصعبة الحلّ، ولكن الحاجز الذي يعلوه كان يُخفي سلكاً شائكاً مزّق معطفه.

وإلى جوار أشجار الخوخ ونخيل الكتان والصنوبر اشتملت حديقة الدار على العديد من أشجار اليوسفي التي زرعت حتى حافة الدارة مباشرة، وذلك كي يستطيع رب الدارة فيما يبدو أن يُملّي ناظريه منها. ولقد أُترع الظلام بعرف ثمارها الناضجة. وأجفل إيساو إزاء صوت سعفات جافة من شجرة نخيل عملاقة، حملتها الرياح المنداحة من المحيط، وهو الصوت الذي يشبه صوت مصفقة خشبية.

لانت الأرض تحت كل خطوة من خطواته وكأنما غذيت بوفرة من السماء. ودنا شيئاً فشيئاً من ركن من أركان الدار كان ضوء متوهّج ينفذ منه. وكان السقف القرميدي ياباني الطراز، ولكن النافذة والألواح الخارجية أشارت إلى أن الغرفة الواقعة في هذا الجزء غريبة الطراز. وقد أسدلت على النافذة ستائر من قماش مخرّم. واستند إيساو إلى السور وشبّ على أطراف أصابعه فاستطاع رؤية جانب من الغرفة.

كانت هناك فتحة لمدخنة في جانب من الغرفة، الأمر الذي يشير إلى وجود مدفأة غربيّة الطراز. ووقفت امرأة، وظهرها باتجاه النافذة، كاشفة عن قوس زنارها. وعندما ابتعدت لاح الوجه اللحيم، وإن كان حادّاً، لرجل عجوز ضئيل الجرم، يرتدي كيمونو وسترة بلا كمين ذات لون بني مخضرّ. وعرف إيساو أنه من المحتم أن يكون كوراهارا.

تبادل الرجل الحديث مع المرأة، وعندما غادرت الغرفة رأى إيساو بريق صحفة، وبدا له أنها كانت قد جلبت لكوراهارا شايه. وبذهاب المرأة انفرد كوراهارا بنفسه في الغرفة.

جلس كوراها، على ما يبدو، في مقعد وثير ذي مسندين، في مواجهة

المدفأة. وكان كل ما يمكن رؤيته من النافذة الآن هو مقدمة رأسه الأصلع الذي بدا يتألّق بوهج ألسنة اللهب المتوهجة في المدفأة. وربما كان يقرأ شيئاً، وهو يرتشف الشاي الذي ترك إلى جانبه، أو ربما كان قد غرق في التفكير.

تطلع إيساو حوله باحثاً عن مدخل. كان سُلّم مؤلف من درجتين أو ثلاث درجات حجرية يُفضي من الحديقة إلى الدهليز. ولمح ضوءاً خافتاً ينسل من شقوق الباب. ولم يكن الباب موصداً إلا بمزلاج معدني. فانتزع إيساو الخنجر من معطفه وألقى بهذا الأخير تاركاً إياه يهوي في الظلام على الأرض اللدنة. وعند أسفل الدرج الحجري استل الخنجر من غمده وألقى بهذا الأخير. فتألق النصل المجرد شاحباً كأنه يبعث نوراً من أغواره.

ارتقى الدرج محاذراً، ودفع بطرف الخنجر بين الباب وإطاره، زالقاً إياه تحت المزلاج، فألفى هذا الأخير ثقيلاً للغاية. وعندما انفتح أخيراً إلى أعلى أصدرت الضجة التي أحدثها صدى يشبه تكتكة ساعة عتيقة يملكها أحد الأجداد. ولم يكن هناك سبيل لمعرفة ما إذا كان ثمة شيء قد تغير داخل الغرفة. ولكن من المحتم أن الضجة قد لفتت انتباه كوراهارا. لوى إيساو مقبض الباب واندفع إلى الداخل.

وقف كوراهارا وظهره للمدفأة. غير أنه لم يصرخ. بدا كأن طبقة هشّة من الجليد قد انتشرت عبر ملامحه.

قال ملحاً بصوت أجش متخاذل:

ـ من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟

ـ إليك العقاب الذي تستحقه على تدنيس مزار أيسي الكبير.

قالها إيساو وقد أكد له صفاء طبقة صوته وتغيّرها رباطةَ جأشه.

ـ ماذا؟

اكتسى محيّا كوراهارا بتعبير مُوحٍ بعدم الفهم الكامل الذي لا تصنّع فيه. وللحظة بدا جلياً أنه يبحث عن ذكرى ما، ولكنّ بحثه لم يكلّل

بالنجاح. وفي الوقت نفسه مضى ليتطلّع إلى إيساو بعينين تكشفان عن الرعب النابع من كونه مواجهاً، في عزلة مخيفة، برجل مجنون. وانكمش متجنباً النار وراءه ولائذاً بالجدار إلى جوار المدفأة. فحسم هذا خطوة إيساو التالية.

وكما علمه ساوا، أحنى إيساو ظهره وكأنه قطّة، وضغط مرفقه الأيمن بحزم في جانبه، وأمسك رسغ يده اليمنى بيده اليسرى كيلا يندفع النصل إلى أعلى، وطعن كوراهارا بالنصل بكل ما أوتي من قوة.

وبدلاً من شعوره بالخنجر وهو يخترق جسم الآخر، كان الإحساس الرئيسيُّ بصدمة كعب المقبض وهو يلطم معدته بقوة انعكاسية. وإذ عقد العزم على التيقّن من رَجُله فقد قبض على كتفه وضغطها إلى أسفل راغباً في الطعن بعمق أكبر، ولكن أذهله مدى انخفاض هذه الكتف عما قدّر، ثم إن اللحم الذي كان يضغطه إلى أسفل لم يكن به شيء من الليونة التي تواكب الترهل، وإنما كان متصلباً كلوح من الخشب.

وفيما كان يتطلع إلى ضحيته بدا محيا هذا الأخير مسترخياً أكثر مما هو غارق في الألم. كانت العينان جاحظتين، والفم مفتوحاً بلا اكتراث، وتخلخل الصف الأعلى من الأسنان الاصطناعية ونتأ من موضعه.

جذب إيساو الخنجر وقد اعتراه في غمة إحباطه غضب عاصف. كان وزن ضحيته بكامله يرتكز الآن على النصل. وانهار كوراهار، وتفاقم ثقله، والنصل في مركز جاذبيته. وأخيراً قبض إيساو على الكتف الأخرى بيده اليسرى ورفع ركبته اليمنى، وجذب الخنجر دافعاً باتجاه فخذ كوراهارا، فحرره، ولوث الدم المندفع ركبة إيساو، وتهاوى كوراهارا إلى الأمام وكأنه يطارد دمه.

استدار إيساو مسرعاً، وكان على وشك الهرب من الغرفة عندما فتح باب يفضي إلى الرواق، فألفى نفسه وجهاً لوجه مع المرأة التي كان قد رآها

قبل قليل. وصرخت المرأة فاندفع إيساو كالسهم جانباً، وانطلق إلى الحديقة عبر الباب الذي دخل منه. وكان ما يزال بمقدوره أن يرى ما بقي من صورة عيني المرآة المرعوبتين ببياضهما المتسع الرحابة.

ومضى يعدو بكل قوته عبر الحديقة نحو البحر. ووراءه ماج أهل الدارة باضطرابهم، فيما تعالت الصرخات واحدة إثر الأخرى. وأحس بالأصوات والأضواء وهي تثبت نفسها عليه، وتندفع مطاردة إياه.

فيما كان يعدو مدَّ يده داخل سترته للتأكد من أن السكين هناك. غير أن الخنجر في يده منحه ثقة أكبر، فأمسك به بقوة وهو يندفع قُدُماً إلى الأمام. وغدا تنفسه لاهثاً، والتوت ركبته. وأرغم إرغاماً على الشعور بمدى الضعف الذي طرأ على قدميه خلال العام الذي أمضاه مودعاً في السجن.

كانت بساتين اليوسفي إلى جوار المحيط تُزرع عادة بشكل مسطحات متدرِّجة. وقد امتدت كل مجموعة من أشجار يوسفي كوراهارا على مستوى قائم بذاته وكأنها على منصّة مرتفعة عما يحيط بها. وتلقت هذه المستويات المتنوعة التي لا حصر لها، والتي تحدها أسوار من الحجر، نصيبها من سنى الشمس بزوايا مختلفة على نحو مراوغ. وعلى الرغم من أن كل مستوى قد اختلف قليلاً عن المستويات الأخرى، إلا أنها كلها كانت تنحدر باتجاه شاطىء البحر. وكان الارتفاع المتوسط لأشجار اليوسفي ثماني أقدام أو تسعاً. وقد فرشت الجذور على نحو ثقيل بمهاد مؤلف من القش، وانطلقت الفروع عالية في كل الاتجاهات من نقطة جد قريبة من الأرض.

اندفع إيساو يعدو من مستوى إلى آخر. وسدّت الفروع المثقلة بالثمار طريقه عند كل انعطافة في الظلام، ومضى يكافح كيلا يضلّ طريقه، وكأنه ينطلق في متاهة. وما كان يمكن أن يكون البحر بعيداً، ولكنه عجز عن الوصول إليه.

غير أنه ركض أخيراً مبتعداً عن الأشجار، واتسع مجال الرؤية على حين غرة فألفى أمامه السماء والبحر. امتدت عدّة درجات صخرية هابطة، متشبثة بوجه الصخرة ذاته، وأفضت إليها بوابة عند حافة البستان.

انتزع إيساو ثمرة يوسفي. وعندئذ أدرك انه لم يعد يمسك بخنجره. ولا بد أنه قد سقط منه عندما كان يعدو وسط الأشجار والأغصان المتشبثة التي توصد الطريق امامه.

فتحت بوابة البستان بسهولة. وعند قرار الدرج شاهد الزبد الأشهب يتقافز عالياً، فيما كانت الأمواج تلطم الصخور. وللمرة الأولى اجتاز عتبة وعيه هدير البحر.

لم يدر ما إذا كانت الأرض الواقعة فيما وراء البستان ملكاً لكوراهارا أم لا. كانت صخرة تكسوها أشجار عتيقة. وثمة درب يشق الأجمة. ونال الإعياء من إيساو بعد الجهد الذي بذله في الهرب، ولكنه اندفع من جديد قُدُماً عبر هذا الدرب، فيما كانت أغصان الأشجار تلطم وجهه، والأعشاب تتشبث بقدميه الهاربتين.

وأخيراً وصل إلى موضع حفرت فيه الصخرة لتشكل شيئاً يشبه كهفاً صغيراً. وكانت كتلة صخرية ملتوية ضاربة إلى اللون الأخضر، قد تآكلت جزئياً. ومن قمة شجرة كبيرة دائمة الخضرة تدلت الفروع فوق هذا الحيد. وانساب جدول رقيق تحميه أشجار التنوب، على سطح الصخرة متمهلاً في مسيرته عبر النجيل، ومتساقطاً، فيما يبدو، إلى البحر.

هنالك اختبأ إيساو، وهدأ نبض قلبه المتسارع. لم يكن ثمة ما يُسمع إلا هدير البحر وزفيف الريح. ولما كان حلقه جافاً على نحوٍ مؤلم فقد مزّق قشر ثمرة اليوسفي التي انتزعها، ودسها في خشونة في فمه دفعة واحدة. واشتم رائحة الدم. فقد لطخ الدم قشرة الثمرة، وأوشك على الجفاف هنالك. ولكن الرائحة لم تغير كثيراً من عذوبة العصير الذي راح ينساب عبر حلقه.

وفيما وراء الأعشاب الجافة ، فيما وراء أعشاب البامبا، فيما وراء أغصان الشجرة الدائمة الخضرة، المتدلية قريباً من الأرض بإبرها المتشابكة وعروقها المتداخلة، ترامى البحر الذي كان يلفه الليل. وعلى الرغم من غياب القمر فقد عكس البحر وهج السماء الخافت، وتألّق الماء بلون أسود.

جلس إيساو منتصب الجذع على الأرض الرطبة، وقدماه مطويتان تحته. نزع سترة زيه الطلابي. ومن جيبها الداخلي أخرج السكين. عايش كيانه كله ارتياحاً بالغاً إذ ألفاها آمنة في موضعها هنالك، حتى أوشك أن يفقد توازنه. وعلى الرغم من أنه كان ما يزال يرتدي قيمصه الصوفي وملابسه الداخلية الصوفية فإن الريح الآتية من البحر جمّدت جسمه بمجرّد نزعه سترته.

قال محدِّثاً نفسه:

ـ لن تشرق الشمس إلا بعد مضيّ بعض الوقت. وليس بوسعي الانتظار. ما من قرص متألق يتصاعد عالياً. وليست هناك شجرة صنوبر نبيلة تظلّلني، وما من بحر ملتمع الصقال.

تجرّد مما بقي من ملابس تكسو جذعه، ولكن مع توتّر جسمه، بدا وكأن البرد قد تبدد. فك رباط سرواله، وعرّى بطنه، وفيما هو يستلّ سكينه من غمده سمع صرخات وصوت وقع أقدام تعدو من جهة البستان في الأعلى.

صرخ أحد المطاردين بصوت حاد:

ـ المحيط. لا بد أنه قد هرب في زورق.

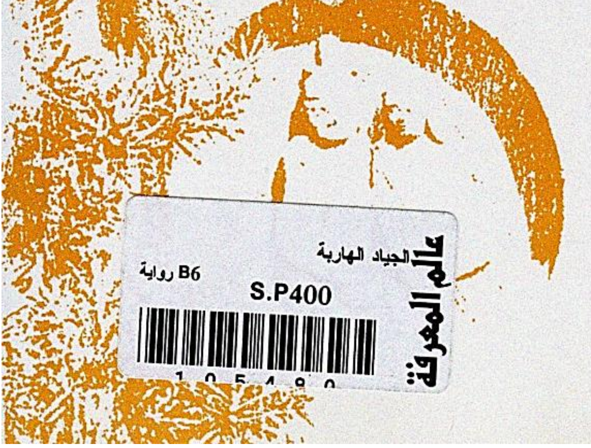
استنشق إيساو الهواء بعمق، وأغمض عينيه وهو يمرّر يده اليسرى ملاطفاً على معدته. أمسك السكين قبالة جسمه بيده اليمنى بقوة ووجهه إلى الموضع الصحيح بأطراف أصابع يده اليسرى، ثم بدفعة قوية من ذراعه غرس السكين في معدته. وفي اللحظة التي مزق فيها النصل لحمه حلّق قرص الشمس المتألّق عالياً، واندلع تحت جفنيه.

العمل الماثل بين يدي القارىء، «الجياد الهاربة» رواية متكاملة وقائمة بذاتها، ولكنها في الوقت نفسه ترتبط مع شقيقاتها الثلاث الأخريات «ثلج الربيع»، و«معبد الفجر»، و«سقوط الملاك»، بوشائج لها قوة أمراسٍ من فولاذ، لتشكّل معاً رائعة ميشيما النادرة المثال في الأدب العالمي كلّه: رباعيّة «بحر الخصوبة».

... تقدّم هوندا الى الأمام تحت الشلالات، ولكن الماء لطم جذعه بقوة ضاربة بحيث تراجع بسرعة. أقبل عليه إينوما الشابّ ضاحكاً بلطف، حتى غدا بجواره، ورفع كلتا يديه ليوضح النحو الذي يمكن به الحدّ من قوّة الماء المنهمر، ودفع بنفسه تحت الماء، ووقف هنالك لحظات قلائل، متلقّياً الماء المتحدّر في عنف على راحتيه، ومباعداً ما بين أصابعه كأنه يحمل سلة زهور ثقيلة عالياً، ثم ألتفت الى هوندا وابتسم...

... تذكّر كلمات كيواكي التي قالها لها في احتضاره: «سأراك من جديد، إني أعرف ذلك، تحت الشلالات».

كان ميشيما على يقين من أن رباعيته إنما هي نقطة الوصول لكلّ ما تعلّمه بوصفه كاتباً. فقد لفت انتباه أصدقائه الى أنه عندما ينتهي من كتابتها، لن يبقى له سوى عمل شيء واحد: «الانتحار». وهو ما حدث بالفعل...



تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت